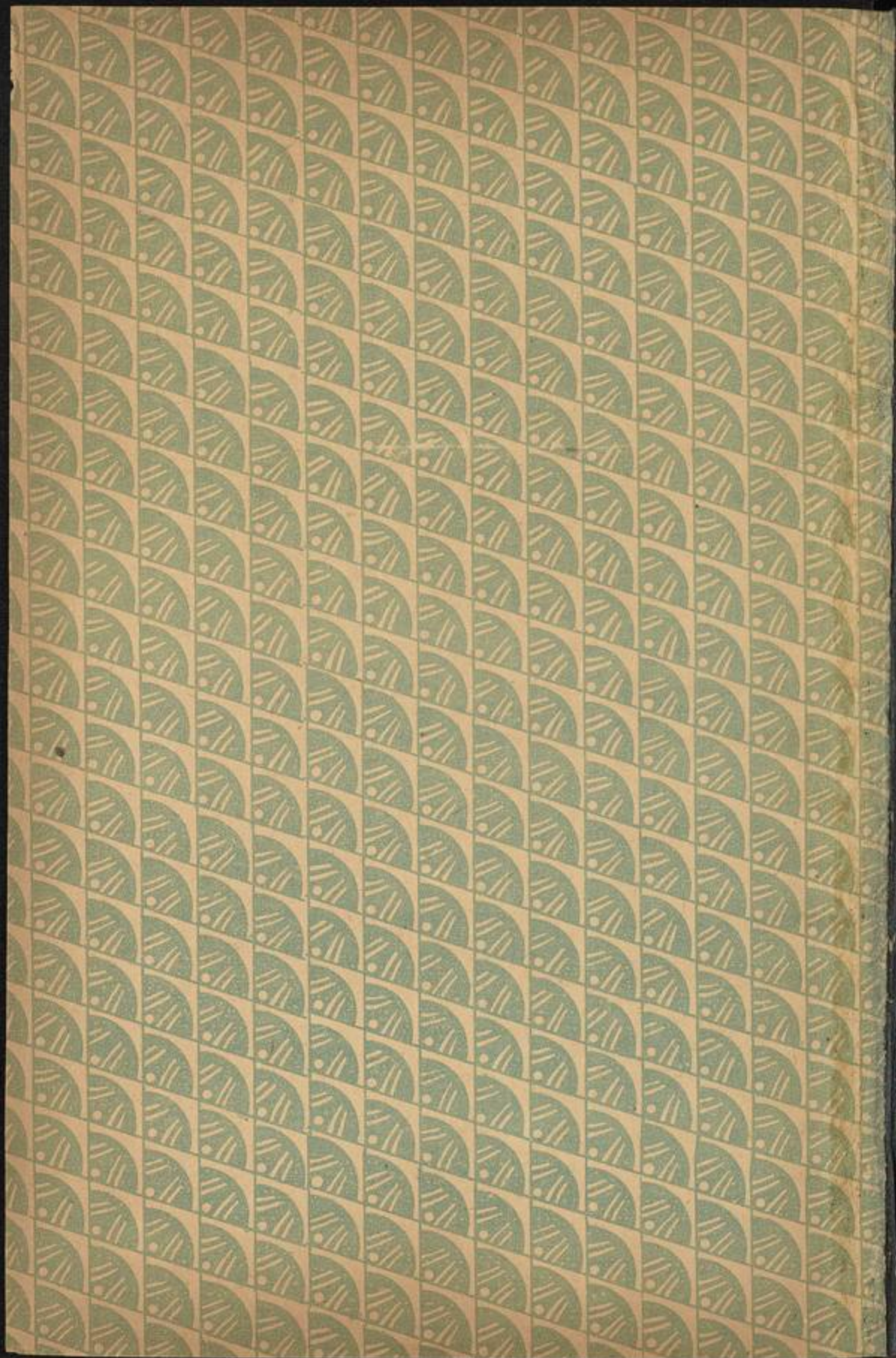


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





39141

©
45

محاضرات

تاريخ الإسلام

الدولة العباسية

تأليف المؤلف

السيد محمد الحضري بك، المفسر بوزارة المعارف

و مدرس تاريخ الإسلام بالجامعة المصرية

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها: مصطفى محمد

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الرابعة: سنة ١٣٥٣ هـ - سنة ١٩٣٤ م

مطبعة الأمانة

BIBLIOTECA
MUSEO
VATICANO

893.712

K529

45-39141

إلى صاحب السمو الأمير أحمد فؤاد بن إسماعيل (١)

مولاي :

إن ما تفضلت به من كلماتك المشجعة حداني إلى السير قدما في إظهار ما ألقىه من محاضرات التاريخ بالجامعة المصرية وأرجو أن أكون قد وفقت لتحقيق شيء من رغباتكم العالية في كتابة التاريخ الإسلامي وإذا ساعدني حسن حظي فخازت هذه المجموعة رضا سموكم شيعني ذلك على إظهار ما يليها من تاريخ مصر الذي كان جدكم ساكن الجنان تغمده الله برحمته واسطة العقد بين مؤسسي دوله الإسلامية .

ولكتابي هذا حق الفخر بظهوره في عهد محب العلم ومشيد أركانه صاحب العظمة السلطان حسين كامل الأول سلطان مصر سدد الله خطاه وأناله رغباته في أمته .

محمد الخضري

(١) اعتلى سموه عرش مصر في ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ هـ - ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ و نودي به سلطانا بعنوان صاحب العظمة السلطان فؤاد الأول وقد آثرنا العنوان الذي رسمناه وقت أن طبع الكتاب للمرة الأولى ليعلم قراء التاريخ أن حب سموه للعلم وهو أمير كبح عظمته للعلم وهو سلطان . أدام الله له التوفيق وسدد خطاه وأقر عينه بولي عهده أمين .

COLUMBIA
UNIVERSITY

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد حمد الله فإني أقدم للشغليين بالتاريخ مجموعة محاضراتي الثانية في تاريخ الأمم الإسلامية وهي تنظم تاريخ الدولة العباسية السياسية في المشرق . والتاريخ العباسي جزء عظيم من تاريخ المسلمين يتبدى من سنة ١٣٢ إلى سنة ٦٥٦ أي ٥٢٤ سنة وقد بقي بينهم بعد ذلك له اسم الخلافة بمصر إلى سنة ٩٢٣ ولكني لم أسر معهم من العراق إلى مصر وأبقيت تصاريف أحوالهم هناك إلى تاريخ مصر لما بين التاريخين من الارتباط وقد بذلت جهدي في تصوير حالهم السياسي من مبتدأ خلافتهم على أيدي دعواتهم بخراسان والعراق إلى منتهائها على يد هولاء كوخان المغولي حفيد جنكيز خان . بينت تلك الحال في أدوار الدولة المختلفة من قوة وضعف مع توضيح الأسباب التي رفعت هذه الدولة إلى الذروة العليا من سعة الملك ونفوذ الكلمة والأسباب التي نزلت بها إلى الحضيض من ضيق رقعة الملك وسقوط الهيبة وضعف النفوذ وقد ختمت الحديث عنها بفصل فيه إجمال تلك الأسباب وتركت تاريخها العلمي لما رأيت من جعل ذلك في محاضرات خاصة تنظم تاريخ الإسلام العلمي كاه لارتباط بعضه ببعض ولعدم اتباع الحركة العلمية لقوة بني العباس السياسية فقد كانت الدولة العباسية في عهد آل ساجوق في حال ضعف سياسي شديد لأن الخلفاء لم يكن لهم إذ ذاك إلا الاسم ومع ذلك فقد كانت الحركة العلمية قوية .

وإني أعد قراء كتابي هذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية في البلاد الإسلامية وأرجو من الله التوفيق

وقد كانت الأقاليم الإسلامية في عهد الدولة العباسية ميدانا عظيما للأفراد الذين ينتمون إلى بيوت قديمة المجد والأفراد العصاميين يتسابقون إلى التغلب عليها من بلاد الأندلس غربا إلى بلاد الترك والهند شرقا . فكم من دول قامت وعظمت مدنيتهما ثم انتهت بغلبة غيرها عليها ومن هذه الدول من كان يقوم باسم الملك تاركا اسم الخلافة

لبني العباس ومنهم من كان يقوم باسم الملك والخلافة جميعا كالدولة الأموية بالأندلس والادريسية بالمغرب الأقصى والفاطمية بأفريقية ومصر والزيدية بطبرستان. فرأيت من الواجب أن أذكر مع كل خليفة عباسي من كان في عصره متغلبا على أي إقليم من الأقاليم الإسلامية وإذا ابتدأت دولة في عهد خليفة ذكرت عنها جملة مختصرة تبين كيف نشأت والمدة التي قامت فيها وثبت ملوكها وقصدت بذلك أن تكون الرقعة الإسلامية كلها واضحة الصورة في جميع العصور. وقد أملت في أكثر الأحيان بذكر الملوك المعاصرين في أوروبا. ولاسيما الذين كانت لهم صلات بالدول المشرقية في عهد الدولة العباسية كملوك الروم بالقسطنطينية وملوك فرنسا. وبما عنت به أحوال البيت العلوي الذي ظل ينافس العباسيين من بدء دولتهم إلى سقوطها وقد كانوا من أكبر الأسباب في ضعف العباسيين وجرأة المخالفين لهم على خلافهم. فذكرت أحوال طوائفهم الكبرى الثلاث وهي الزيدية والامامية الاثنا عشرية والامامية الاسماعيلية وما قامت به كل طائفة من الرجوة في أنحاء العالم الإسلامي

وإني أظن أن هذه المجموعة على صغر حجمها قد سدت حاجة كان المشتغلون بالتاريخ الإسلامي يشعرون بها وأرجو من الله التوفيق لاتمام سلسلة هذا التاريخ إنه نعم المعين.

الدولة العباسية

البيت العباسي

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بقي عقبه من كثير من أولاده ولكن العدد الأكبر والجمهور العظيم كان من ولديه العباس وأبي طالب فقد ملاً بنوهما السهول والحزون من الأقاليم الاسلامية من أقصى حجر في بلاد المغرب إلى بلاد ماوراء النهر في أواسط آسيا
ولكل من البيتين تاريخ جليل بين تاريخ الأمم الاسلامية ونحن الآن شارعون في تاريخ البيت الأول

العباس بن عبد المطلب

أمه ثقيلة بنت جناب بن كليب من النمر بن قاسط إحدى قبائل ربيعة بن نزار . ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنين فهو أسن من رسول الله ﷺ بثلاث سنين كان العباس من سادات بني هاشم وعقلائهم وكان صديقاً وفياً لأبي سفيان صخر ابن حرب . لما جاء الاسلام كان من المخلصين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لم يظهر متابعتة . وكان هو الذي تولى إحكام الأمر لرسول الله مع الأنصار حين الهجرة فقد قال لهم في ليلة البيعة يامعشر الخزرج إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ومحمد من أعز الناس في عشيرته يمنعته والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعة للحسب والشرف وقد أتى محمد الناس كلهم غيركم فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فإنها سترميكم عن قوس واحدة فارتوا رأيكم وأتمروا أمركم ولا تفترقوا إلا عن ملاً منكم واجتماع فإن أحسن الحديث أصدقه — وأخرى صفوا إلى الحرب كيف تقاتلون عدوكم قال فأسكت القوم وتكلم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال نحن والله أهل الحرب غدينا بها ومرنا عليها وورثناها عن آبائنا كإبراهيم بن كابر نرمى بالنبل حتى تقفى ثم نطاعن بالرماح حتى تكسر ثم نمشي بالسيوف فضارب بها حتى يموت الأعمى منا أو من عدونا . فقال العباس أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع . قالوا نعم شاملة — وقال البراء بن معرور قد سمعنا ما قلت

إنا والله لو كان في أنفسنا غير ما نطق به لقلناه واسكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ثم دعاهم إلى الله ورغبهم في الإسلام وذكر الذي اجتمعوا له فأجاب البراء بن معرور بالآيمان والتصديق فبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك . والعباس بن عبدالمطلب أخذ يدرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد له البيعة تلك الليلة على الأنصار ولما خرجت قريش إلى بدر أخرج العباس وبنو أخيه إليها كرها . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوم بدر من لقي منكم العباس وطالبا وعقيلاً ونوفلاً وأباسفيان فلا تقتلوه . فانهم أخرجوا مكرهين . وكان العباس في جملة أسرى بدر ففدى نفسه وفدى عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث بن عبدالمطلب ثم رجع وأقام بمكة وكان مقامه بها أنه كان لا يغيب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبراً يكون إلا كتب به إليه وكان من هناك من المؤمنين يتقون به ، ويصيرون إليه وكان لهم عوناً على إسلامهم ولقد كان يطلب أن يقدم على النبي صلى الله عليه وسلم فكتب إليه عليه السلام إن مقامكم مجاهد حسن فأقام بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهاجر إلى المدينة قبيل الفتح وحضر معه فتح مكة وكان سبياً في نجاة أبي سفيان وفي تشریفه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وحضر غزوة حنين وكان له فيها أحسن بلاء ثم خرج إلى المدينة فأقام بها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ويكرمه وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده وكانت وفاته في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب سنة ٣٢ وهو ابن ثمان وثمانين سنة ودفن بالبقيع وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده وبه كان يكنى وعبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن وقثم ومعبد وأم حبيبة أمهم جميعاً لبابة بنت الحارث بن حزن من بنى هلال بن عامر من قيس عيلان وفي ولد أم الفضل هؤلاء من العباس يقول عبد الله ابن يزيد الهلالي

ما ولدت نجية من فحل بجبل نعلبه أو سهل

كسته من بطن أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل

وكان للعباس من غيرها كثير بن العباس وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد

والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هذيل . وليس للفضل وعبدالرحمن وقثم وكثير
وتمام عقب . وعقب العباس من سواهم . ولا سيما من عبدالله فإنه هو الذى انتشر منه
عقب العباس وهو جد الخلفاء العباسيين

عبد الله بن العباس

هو ثانى ولد العباس بن عبدالمطلب ولد قبل الهجرة بستين فكانت سنه حين توفي
رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة وكان عليه السلام يحبه ودعاه فقال
« اللهم علمه التأويل » فكان رضى الله عنه أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه فى
الدين على ما أوتيته من لسان طلق ذلق غواص على موضع الحجّة وكان عمر رضى الله
عنه يحبه ويدخله مع كبار الصحابة فى مجلس شوراها الخاص ويستفتيه فى كثير من
المسائل على صغر سنه . وولاه عثمان الموسم سنة ٣٥ من الهجرة وهو محصور فأقام
الموسم وما بويح على رضى الله عنه بالخلافة كان له عضدا ونصيرا فى حروبه كلها
وولاه البصرة وأعمالها ويقال إنه انحرف عنه فى أواخر أيامه وترك البصرة ورحل
إلى مكة فأقام بالطائف وقيل إن ذلك كان بعد مقتل على

ظل ابن عباس مقيا فى الطائف حياة معاوية كلها وكان معاوية يحله ويتودد إليه
كثيرا كما كان يفعل مع سائر بنى هاشم وكانت وفاته سنة ٦٨ وعبدالله هو الذى نما
من نسله البيت العباسى لأن إخوته لم يكن لهم نسل باق وعقب عبدالله الذى نما
إتسا هو من ولده على بن عبد الله بن عباس

على بن عبد الله بن عباس

أمه زرعة بنت مشرح بن معديكرب من كندة ولد ليلة قتل على بن أبى طالب
سنة ٤٠ من الهجرة فسمى باسمه وكنى بكنتيته أبى الحسن وهو أصغر أولاد أبيه وكان
سيدا شريفاً بليغاً ويقال كان أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمهم وأكثرهم صلاة
وكان مفرطاً فى الطول إذا طاف فكأتما الناس حوله مشاة وهو راكب من طولته .
وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الخيمة بالشرارة (وهى صقع بالشام فى طريق المدينة
من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من إقليم البلقاء) فأقام بها وفيها ولد أكثر أولاده
وكانت وفاته سنة ١١٧

وأعقب على اثنين وعشرين ولدا ذكرا وإحدى عشرة أنثى . وذكور أولاده هم محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح وأحمد وبشر ومبشر وإسماعيل وعبد الصمد وعبد الله الأكبر وعبيد الله وعبد الملك وعثمان وعبد الرحمن وعبد الله الأصغر ويحيى وإسحاق ويعقوب وعبد العزيز وإسماعيل الأصغر وعبد الله الأوسط . ستة منهم لا عقب لهم والباقيون أعقبوا كثيراً ومنهم انتشر البيت العباسي وكثر جدا . وبيت الخلافة في محمد أكبر أولاده

محمد بن علي

هو والد إبراهيم الامام وأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسية وهو الذي ابتدأت الدعوة على يديه وكان ذلك في حياة أبيه علي ولكن لم يكن لأبيه ذكر في هذه الدعوة

وحيث قد ذكرنا هذا البيت الرفيع العباد فلنشرع في بيان كيف وجدت فكرة الخلافة عند العباسيين وكيف كانت الدعوة إليهم وكيف تمكنوا من قلب الدولة الأموية والحلول محلها

كيف نشأت فكرة الخلافة في بني العباس

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يؤثر عنه خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على علي بن أبي طالب أن يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده فان كانت فيهم وإلا أوصى بهم من سيكون خليفة فامتنع من ذلك على قائلاً إنه إن منعنا إياها لاتألفها أبدا

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم والحال ما ذكرنا فقال الجمهور الاسلامي إلى مبايعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد المناظرات التي جرت بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة وكانت هناك فئة قليلة تميل إلى أن تكون الخلافة في بني هاشم رهط النبي الأذنين . ولم يكن فيهم من أعمامه إلا العباس بن عبد المطلب

وكان من بنى أعمامه جماعة رأسهم وذو الفضل والسابقة فيهم علي بن أبي طالب . ومع أن العباس كان في ذلك الوقت أسن بنى هاشم لم يكن من هذه الفئة القليلة من يقدمه علي بن أبي طالب لمالعي من المزايا الكثيرة التي بينها فيما سبق . وكان علي نفسه يرى أنه أحق الناس أن يكون خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك كانت ترى فاطمة زوجته . ومن أجل ذلك امتنع عن مبايعة أبي بكر مدة حياة فاطمة رضي الله عنها فلما ماتت دخل فيما دخل فيه الجمهور وبايع أبا بكر على ملاءمة الناس

عاش علي والعباس في عهد أبي بكر ثم بايعا عمر لمساعدته اليه أبو بكر بالخلافة وظلا مدة حياته محترمين مطيعين . إلى أن استخلف ثالث الخلفاء عثمان بن عفان بعد مناظرات طويلة بين رجال الشورى الذين عهد اليهم عمر اختيار الخليفة من بعده وكان علي يرى أن رجال الشورى اتبع كثير منهم هواه في العدول عنه وفي أواخر خلافة عثمان توفي العباس بن عبد المطلب تاركا عقباً كثيراً أشهرهم عبد الله بن عباس وهو ثاني أولاده ولم يعلم أن أحدا منهم كان يتطلع إلى الخلافة أو يأمل أن تكون له أو لأحد من أولاده

بعد مضي ست سنوات من خلافة عثمان وجدت حركة في بعض النفوس تتجه إلى نقل الخلافة من عثمان بن عفان إلى علي بن أبي طالب وقام بأمر ذلك دعاة انتشروا في الأمصار الإسلامية الكبرى وهي الكوفة والبصرة والفسطاط وتذرعوا إلى ذلك بالغييب في ولاة عثمان والظعن فيهم بأعمال زعموم ارتكبوها وكان من في مصر يكتب إلى من في مصر الآخر بما عندهم من ذلك فيشيعونه بين الناس فيقول الناس أما نحن ففي عافية مما ابتلى به هؤلاء وجميعهم يكتبون إلى ناس في المدينة بمثل ذلك حتى ملأوا البلاد طعنا . ولما وجدوا لذلك ارتياحا من بعض النفوس اتقلوا من ذلك إلى الظعن في عثمان نفسه فنتسبوا إليه أمورا منها ما هو غير صحيح . ومنها ما هو صحيح وقد فعل أسلافه مثله فلم يقدر أن يطعن فيهم طاعن وساعدهم لين عثمان وخوفه من فتح أبواب الفتنة على ما قصدوا إليه

ألقت وفود من غوغاء الأمصار الثلاث من تأثر به هذه الفتنة فذهبت إلى المدينة وهي حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضرة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة

الإسلامية متظاهرين بيث شكواهم من عمال عثمان فأشكاهم عثمان من جميع ماشكوا منه ولأن لهم جدا حتى لا يوجد لهم سيلا إلى الفتنة فأظهروا الاقتناع وأزمعوا الرحيل إلى أوطانهم وسار كل وفد في الطريق التي توصله إلى مصره وبعد أيام عادت هذه الغوغاء متمسكة بكتاب مزور زعموه صادرا من عثمان إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل رجال الوفد من المصريين عقابا لهم وتنكيلا والكتاب محتوم بخاتم عثمان فلما أروه إياه حلف لهم أنه ما كتبه ولا أمر بكتابه وهو صادق في يمينه فاتهموا بذلك كاتبه مروان بن الحكم وطلبوا منه أن يسلمهم إياه فأبى فأعلنوا العداة وصرحوا بما في أنفسهم من الشر وحصروا عثمان في داره مدة ثم اقتحموا عليه داره وقتلوه ظلما وعدوانا ففتحوا على المسلمين باب فتنة وانقسام لا يغلقه مرور الزمان ولا كر الأيام .

بعد أن تم لهم ما أرادوا عرضوا الخلافة على علي بن أبي طالب فقبلها بعد تردد أمضى رحمه الله حياته في حرب مخالفيه في البصرة والنهروان وصفين ولم تصف له الخلافة يوما واحدا إلى أن اغتاله أحد الخوارج في رمضان سنة ٤٠ هـ من الهجرة في حاضرة خلافته وهي الكوفة

كان الجمهور الإسلامي في ذلك الوقت قد انضم إلى خصمه معاوية بن أبي سفيان حيث كان في بيعته أهل الشام الذين هم أنصاره وأهل الحجاز واليمن ومصر . أما الكوفة فكانت مقرا لشيعة علي ومحبيه الذين كانت منهم من يرى تفضيله لأعلى خصمه معاوية فقط بل علي من سبقه من الخلفاء أيضا . ومع هذا فإنه لم ينل منهم ما يناسب تلك العقيدة من الطاعة والاخلاص بل كثيرا ما أهملوا أوامرهم التي كان يصدرها إليهم من جهة الاستعداد لحرب أهل الشام . ولذلك أسباب لسنا بصدد بيانها الآن

لما قتل رحمه الله رأت الشيعة أن يقوم في الخلافة مقامه ابنه الحسن وهو السيد العظيم الشأن أبوه علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأى رضى الله عنه بثاقب فكره أن الذين لم ينل منهم أبوه ما يرجوه لا يحسن الاعتماد عليهم ففضل الصلح مع معاوية على شروط اشترطها لنفسه ولاتباعه وتنازل عن

الخلافة مفضلاً جمع كلمة المسلمين والسكنى بطيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام على ذلك حتى توفي بها سنة ٥٠ من الهجرة ظل معاوية يسوس الناس بما عرف عنه من لين العريكة وسخاء اليد فاجتمعت الأمة على طاعته والرضا به وسكنت الدعوة إلى أهل البيت وخبث نار التشيع إلا أنها كانت مستكنة في أنفس ذويها ينتظرون الوقت الملائم للهبوب أدلى معاوية بالخلافة لابنه يزيد فلما تولاها هابت أعاصير الفتنة في المدينة ومكة والكوفة فأما المدينة فارتت تطلب عزل يزيد وتولى كبر الثورة بعض أبناء الأنصار ولكن هذه الثورة قمت بشدة مسلم بن عقبة المري الذي أوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة وأما مكة فعاز بها عبد الله بن الزبير طالبا الخلافة لنفسه وأما الكوفة فإن من بها من الشيعة أرسلوا يطلبون اليهم الحسين بن علي شقيق الحسن ليبايعوه بالخلافة وينزعوا من أعناقهم يعة يزيد فلم يكن من الحسين إلا أن لبي دعوتهم مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه وسار اليهم من غير جند يركن إليه ولا مال يستعين به فقابلته ببعض الطريق جنود عبيد الله بن زياد عامل يزيد بالعراق وكلها جنود عراقية ليس بها أحد من أهل الشام فلم يكن له قبل بمدافعهم وقتل رحمه الله بكر بلاء . ولم تقم شيعة أبيه بشيء من المساعدة بل ظلوا في مساكنهم آمنين مطمئنين ولسان حال الحسين يقول

لا ألفينك بعد الموت تندبني * وفي حياتي ما زودتني زادي

انتهت هذه الحوادث ومات يزيد وعظم أمر ابن الزبير ودخل في دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق وأبى أن يبايعه رجال بني هاشم الذين كانوا بمكة كمحمد بن علي المشهور بابن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما فاضطهدهم وحبسهم ظهر في تلك الأوقات رجل أراد أن ينتفع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزاً في البلاد العراقية مستعيناً بما تضمنه قلوب أهل الكوفة من التشيع لأهل البيت وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي فذهب إلى الكوفة لابساً ثوب التشيع ناعياً على من قتل الحسين بن علي وداعياً إلى الامام المهدي وهو محمد بن علي الذي صار بعد أخويه أكبر أبناء علي رضي الله عنه وتوسل إلى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقا كانت أم كذبا وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه

من الأكاذيب التي تؤثر عادة في أنفس الغوغاء وقد أمكنه أن يجتذب إلى نفسه رؤساء الشيعة في الكوفة وأرسل إلى محمد بن علي وهو مضطهد محبوس بمكة جندا يخلصونه من شدته فنجحوا واجتمع في حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية لواء لابن الزبير ولواء لبني أمية ولواء للخوارج ولواء لأصحاب محمد بن علي إلا أن الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التي يكره بعضها بعضا

لم يطل حبيل المختار بالكوفة فان عبد الله بن الزبير جهز له جيشا يقوده أخوه مصعب فسار اليه وماله أكثر أشرف أهل العراق لمّا ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوء طويته وبذلك كانت الغلبة لمصعب إلا أن ذلك لم يقض على التشيع في بلاد العراق بل ظل كما نرى ينتظر من يثيره ليتفجع منه

أما محمد بن علي فانه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الأمر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الأقاليم الإسلامية كلها ومع قيامه بهذه البيعة لم تنزل له شيعة تراه أحق بالخلافة إلا أنه مغلوب على أمره حتى إنه لمسامات غلا فيه بعضهم فأنكر موته وقال إنه تغيب وسيرجع وقال في ذلك شاعرهم السيد الحميري

ألا إن الأئمة من قریش * ولاة الحق أربعة سواء
على والأئمة من بنیه * هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسيط سبط إيمان وبر * وسيط غيبتة كر بلاء
وسيط لا يذوق الموت حتى * يقود الخيل يقدمها اللواء

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن علي فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته كما قلنا . ومنهم من تولى بعده ابنه أباهاشم ويقال لهذا الفريق والذي قبله الكيسانية ينسبون إلى كيسان وهو لقب للمختار بن أبي عبيد

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزین العابدين وهو بمن بايع يزيد ابن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه — قال هؤلاء إن الخلافة محصورة في أولاد علي من فاطمة رضی الله عنها ولما كان الحسين هو الذي قتل دون الخلافة فهي في عقبه وعلي هو الذي بقي من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء . وقد يقولون إن علياً هو الوصي أوصى اليه رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم بالخلافة ثم الامام من بعده الحسن ثم الحسين ثم علي وهكذا لا بد للأمة من إمام منصوص عليه ويقال لهؤلاء الشيعة الامامية

كان أكبر ولد العباس في ذلك الوقت علي بن عبد الله بن عباس وهو الذي انتشر منه العباسيون وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحخيمة التي أقامه بها بنو أمية والذي أنزله بها الوليد بن عبد الملك وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة إلى ولد العباس منذ على هذا ويقال إن السبب في ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب لما حانت منيته كان مقبياً بالحخيمة عند بني عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة إلى علي هذا وأولاده وأوصى أوليائه به فصارت الشيعة السكيسانية في جانب علي بن عبد الله بن عباس

أما بقية الشيعة فانهم بعد وفاة علي زين العابدين افتقرت بهم الطرق فمنهم من تولى بعده ابنه محمدا الباقر زاعمين أنه الامام بعد أبيه . ومنهم من قال إن الخلافة حق لكل فاطمي اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن علي بن الحسين وهم المعروفون بالشيعة الزيدية

والذين حاولوا الوصول إلى الخلافة وانتزاعها من بني أمية هم الشيعة السكيسانية

الذين ساعدوا علي بن عبد الله والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيدا وابنه يحيى وكانت وفاة علي بن عبد الله ومحمد الباقر في زمن متقارب بالحخيمة فانتقل ولاء السكيسانية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لأن أباه أوصى اليه وانتقل ولاء الامامية إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر ولم يفعل أنصار الأئمة شيئا ليرجعوا الخلافة إلى ذوى الحق فيها حسب رأيهم

أما الشيعة الزيدية فقد دعاهم إلى النصرة زيد بن علي فقاموا بنصرته حيث خرج بالكوفة طالباً للخلافة إلا أن بني أمية لم تكن قد ظهرت فيهم العيوب التي أودت بحياتهم بعد . فسرعان ما انتصروا على زيد وأطفؤوا ثورته وقتلوه وصلبوه وثار بعده ابنه يحيى فكانت خاتمة خاتمة أبيه

أما محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فهو يعسوب القوم وذو العقل الراجح فيهم فانه رأى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبق باعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل وأن كل محاولة لجأية لا بد أن تكون عاقبتها الفشل فرأى أن يسير في المسألة بالإنارة المصحوبة بالحزم فعهد إلى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس إلى

ولاية أهل البيت بدون أن يسموا أحدا خوفا من بنى أمية أن يقضوا على المدعو إذا عرف ورأوا أن أحسن منطقة يثون فيها الدعوة هي الكوفة وبلاد خراسان . أما الكوفة فهي مهد التشيع لأهل البيت من قديم فيمكنهم أن يأووا إليها ويجعلوها نقطة موصلاتهم . وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين : الأول أن فكرة التشيع يفهمها الخراساني من المسلمين بسهولة لأن مؤداها نقل الخلافة إلى بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الرسالة وسيد الأمة وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذي يتوارثه أهل بيته . ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك إلا إن كان ذلك عن اختلاس — الثاني أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين ولذلك فائدة كبيرة في حياة النفوس وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد . فكان العنصر العربي بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ولا يتولى من ليس منهم شيئا من الولايات العامة فكان أهل فارس مستعدين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة وإخراج الخلافة إلى الدولة المستقبلية كي يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم في دولة بنى أمية . قال أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتاب البلدان :

وقد كان محمد بن علي بن عبد الله قال لدعاته حين أراد توجيههم إلى الأمصار أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده — وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف تقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل — وأما الجزيرة فخرورية مارقة وأعراب كأعمالج ومسلدون في اخلاق النصارى — وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بنى مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم — وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ولكن عليكم بخراسان . فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحي وشوارب وأصوات هائلة ولغات نخمة تخرج من أجواف منسكرة . وبعد فاني أنفأل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق

تأليف الجمعية السرية للدعوة

ابتدأ تأليف هذه الجمعية وعلى بن عبد الله بن عباس حتى لم يمت بعد لأنها ابتدأت في أول القرن الثاني وعلى لم يمت إلا سنة ١١٧ على قول وسنة ١١٤ على قول وكان الخليفة من بني أمية إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء.

وجعل للدعوة مركزان أحدهما بالكوفة التي اعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها ميسرة مولى على بن عبد الله والثاني بخراسان التي هي محل الدعوة الحقيقي ووجه إليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج واختير من الدعاة اثنا عشر نقيباً وهم:

- | | |
|----------------------------|--|
| (١) سليمان بن كثير الخزاعي | (٧) لاهز بن قريظ التيمي |
| (٢) مالك بن الهيثم | (٨) موسى بن كعب |
| (٣) طائفة بن زريق | (٩) القاسم بن مجاشع |
| (٤) عمرو بن أعين | (١٠) أبوداود خالد بن إبراهيم الشيباني |
| (٥) عيسى بن أعين | (١١) أبو على الهروي شبلى بن طهمان الحنفي |
| (٦) قحطبة بن شبيب الطائي | (١٢) عمران بن إسماعيل المعيطي |

واختار سبعين رجلاً ليكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء وكتب إليهم محمد بن على كتاباً ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرة بها

وقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتح القرن الثاني إلى سنة ١٣٢ وهي السنة التي تم فيها النجاح وبويع فيها لأبي العباس السفاح

وهذه المدة تنقسم إلى قسمين متميزين الأول عصر الدعوة المحضنة الخالية عن استعمال القوة وذلك قبل أن ينضم إلى القوم أبو مسلم الخراساني وذلك في الوقت الذي كانت الدولة الأموية فيه متمسكة القوى لم ينقسم فيها البيت المالكي على نفسه ولم تحصل العصية القومية بين جند هذه الدولة بخراسان وذلك نحو ٢٧ سنة والعصر الثاني عصر استعمال القوة مع الدعوة حينما تهيأت الأسباب الداعية إلى ذلك

العصر الأول

(من سنة ١٠٠ إلى سنة ١٢٧)

كانت الدعوة فيه يجوبون البلاد الخراسانية ظاهر أمرهم التجارة وباطنها الدعوة
بذرة زون الفرص ثم يبلغون أمرهم إلى القائم بالكوفة وهو يصلها إلى الحميمة أو إلى
مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج وكان ذلك المجتمع أعظم سائر لأمر
الدعاة لأنهم كانوا إذا قفلوا من خراسان سافروا حجاجاً وكانت إقامة محمد بن علي
بالحميمة سبباً آخر في انتظام المواصلات وكنتم سرها

وكان أول مظاهر من أمرهم بخراسان سنة ١٠٢ حيث جاء رجل من تميم إلى أمير
خراسان سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص الذي يقال له سعيد
خزينة وقال له إن ههنا قوماً قد ظهر منهم كلام قبيح فبعث إليهم سعيد فأتى بهم
فسألهم من أتم قالوا أناس من التجار قال فما هذا الذي يحيكى عنكم قالوا لاندري قال
جئتم دعاة فقالوا إن لنا في أنفسنا وتجارنا شغلا عن هذا فسأل من يعرف هؤلاء
جاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن فقالوا نحن نعرفهم وهم علينا إن
أتاك منهم شيء تكرهه نخلي سيولهم

وفي سنة ١٠٥ انضم إلى هذه الجمعية بكبير بن ماهان وهو شيخ عظيم من شيوخ
هذه الدولة وكبار دعاةها وكان موسراً فساعد القوم بماله وصادف أن توفي في ذلك
الوقت ميسرة القائم بالكوفة فأقامه محمد بن علي مقامه فكان هو ربان هذه الدعوة
يأتمر الدعوة بأمره ويسيرون في الطريق التي يشرعها لهم

كان من أول التكتبات التي لحقت بهم أنه وشي بجمع من دعاةهم إلى أسد بن عبد الله
القسري أمير خراسان وهو وال شديد قاس فأتى بهم وفيهم أبو عكرمة وأبو محمد
الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادي فقطع أيدي من ظفر به منهم وأرجلهم
وصلبهم وأفلت عمار العبادي حتى أتى الكوفة فأخبر بكبير بن ماهان بذلك الخبر
المشؤم فكتب به إلى محمد بن علي فأجابه (الحمد لله الذي صدق مقاتلكم ودعوتكم
وقد بقيت منكم قتلى ستقتل) وقد وقع بعد ذلك عمار العبادي في يد أسد فألحقه بأخوانه

وكان أسد بن عبد الله أشد ولاية خراسان على الشيعة فكان لا يرحم أحداً منهم وقع في يده بل شرد بهم ونكل ونبي من نبي وقتل من قتل ولذلك لم يكن للدعوة في أيامه كبير أثر حتى عزل عن خراسان سنة ١٠٩ وتلك ولايته الأولى ثم ولى خراسان مرة ثانية فأعاد معهم سيرته الأولى ففي سنة ١١٧ أخذ جماعة منهم فقتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس بعضهم وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير شيخ الدعوة ومالك ابن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ وخالد بن إبراهيم وطلحة بن زريق وغيرهم من النقباء فأتى بهم فقال لهم يافستة ألم يقل الله عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام فقال سليمان بن كثير أتكلم أم أسكت قال بل تكلم قال نحن والله كما قال الشاعر

لو بغير الماء حلقي شرق • كنت كالغصان بالماء اعتصاري

تدرى ماقتنا صيدت والله العقارب يدك أيها الأمير إنا أناس من قومك (اليمن) وإن هذه المضرة إنما رفعوا إليك هذا لانا كنا أشد الناس على قتيبة ابن مسلم وإنما طلبوا بأثرهم

فانظروا كيف كان القوم يستعملون العصيات القومية في أخرج موافقهم للخلاص مما يقعون فيه أحياناً وقد كان ذلك الجواب سبياً في خلاص هؤلاء النقباء مما وقوا فيه حيث وجدوا من قومهم من يدبر مع الأمير أمر خلاصهم وقد خلصوا وكانت وفاة أسد سنة ١٢٠ ففتفت الشيعة بخراسان بعد وفاته

حصل بعد ذلك في العالم الاسلامي ما كان له أعظم الفضل في نجاح الشيعة وتصور أعدائهم عن فل حدهم وذلك

(أولاً) انشقاق البيت الأموي حتى ترزعع بنيانه وتصدعت أركانه وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك واستعان على ذلك بالقدح في الوليد ونسبته إلى العظام من الفسوق والكفر وإحلال ما حرم الله فكان معه قوم ساعدوه على ذلك وكان بعض بني أمية يتمثل بقول الشاعر

إني أعيدكم بالله من فتن • مثل الجبال تسامى ثم تدفع
إن البرية قد ملت سياستكم • فاستمسكوا بعمود الدين وار تدعوا

لا تلحمن ذناب الناس أنفسكم * إن الذناب إذا ما لحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم * فتم لاحسرة تغنى ولا جزع
ولما تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح انتهز بهض أهل بيته هذه الفرصة لينال
الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان فإنه كتب إلى الغمر بن يزيد أخى الوليد
يهيجه للبطالة بدم أخيه وقال فى ذلك الكتاب (أما بعد فإن هذه الخلافة من الله
على مناهج رسله وإقامة شرائع دينه أكرمهم الله بما قلدهم يعزهم ويعز من يعزهم
والحين على من ناوأهم فابتغى غير سيئهم فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم الله
منها يقوم بحققها ناهض بأنصارها من المسلمين وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة
وأذبه عن حرمه وأوفاه بعهدده وأشدّه نكايته فى مارق مخالف ناكث ناكب عن
الحق فاستدرت نعمة الله عليهم وقد عمر بهم الإسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد
نكثوا أمر الله وحاولوا نكث العهود وقام بذلك من أشعل ضرامها وإن كانت
القلوب عنه نافرة — والمطلوبون بدم الخليفة ولاته من بنى أمية فإن دمه غير ضائع
وإن سكنت بهم الفتنة والتأمت الأمور فأمر الله لامرئ له وقد كتبت بحالك فيما
أبرموا وما ترى فاني مطرق إلى أن أرى غيرا فأسطوب انتقام وأتقم لدين الله المتبول
وفرائضه المتروكة بحاجنة ومعى قوم أسكن الله طاعتي قلوبهم أهل إقدام إلى ما قدمت
به عليهم ولهم نظراء صدورهم مترعة بمتلثة لو يجدون منزعا وللنقمة دولة تأتي من الله
ووقت موكل ولم أشبه محمداً ولا مروان غير أن رأيت غيراً إن لم أشمر للقدريّة إزارى
وأضربهم بسيفي جارحا وطاعنا يرمى قضاء الله فى ذلك حيث أخذ أو يرمى فى عتوبة
الله حيث بلغ منهم فيها رضاه وما إطراقى إلا لما أنتظر مما يأتيني عنك فلا تدعن
نأرك بأخيك فإن الله جارك وكافيك وكفى بالله طالباً ونصيراً

وكان مروان فى ذلك الوقت أميراً للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير ياتمر بأمره
ولم يزل حتى أقدم على طاب الخلافة مستمسكا بهذا الجبل حتى نالها ولم يكن نيله لها
بمزيل أسباب الخلاف والانشقاق فى هذا البيت ولا شبهة أن انشقاق البيت المالك
يحدث بطبيعة الحال انشقاقا فى قوة الدولة فلا تقوى على مصادمة عدوها
(ثانياً) ظهور العصية القومية فى خراسان وانشقاق القبائل العربية وذلك أن
العرب يرجعون إلى شعبين عظيمين تحيطان ونزار . وملك العرب القديم كان فى اليمن

فلما جاء الاسلام تحول إلى نزار لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان أمر النبوة والوحي قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية فتآخى اليمنيون والزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة إلى أعدائهم فنالوا في زمن قليل ما لم تنله أمة قبلهم في مثل الزمن الذي ارتفع فيه قدرهم

ولما طال الزمن تراجع الناس إلى شيء مما كانوا عليه في الجاهلية بسبب أمراء السوء الذين كانوا يمحون لهم تلك الجاهلية من غير أن ينظروا إلى سوء مغبتها وظهر ذلك في أقوال شعرائهم التي لها أثر شديد في أنفسهم وقد أدرك بعض شعرائهم التناجح السيئة من ذلك فقال الحارث بن عبدالله بن الحشر الجعدي

أبيت أرعى النجوم مرتفعا ◦ إذا استقلت تجرى أوائلها
من فتنه أصبحت مجللة ◦ قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن ◦ بالشام كل شجاء شاغلها
فالناس منها في لون مظلمة ◦ دهما ملتجة غياطلها
يمسى السفية الذي يعنف بالجه ◦ ل سوا فيها وعائلها
والناس في كربة يكاد لها ◦ تنبذ أولادها حواملها
يغدون منها في كل مهمة ◦ عمياء تمنى لها غوائلها
لا ينظر الناس في عواقبها ◦ إلا التي لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبة ◦ لي طرقت حولها قوابلها
بجاء فينا أزرى بوجهته ◦ فيها خطوب حمر زلازلها

وهذا أحسن وصف سمعته في وصف الفتن وغمرها الناس كافة من سفية وحليم كان بخراسان واليان مختلفان جاء أحدهما بعد الآخر فأما أولهما فهو أسد بن عبدالله القسري وهو من اليمن فكان ضلعه مع قومه من أهل اليمن يتعصب لهم وكان شيعته بخراسان قوية إلى قوة الدولة نفسها فلم يكن هناك ما يهيجهم وثنائهما نصر بن سيار وهو من كنانة ثم من مضر فكان ضلعه مع قومه إلا أن شيعته بخراسان لم تكن بذلك وقد كان هشام بن عبد الملك بن مروان الذي ولاه يعلم ذلك فانه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد كان مستشاره يسمى له أشخاصا بما لهم من محامد ومذام فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال إن اغتفرت له واحدة فانه عفيف مجرب عاقل قال

هشام وما هي فقال المشير عشيرته بها قليلة فقال هشام أتريد عشيرة أكثر مني أنا عشيرته . وهذه جملة صحيحة في زمن قوة الدولة الناشئة عن اتحاد الفاتحين فأما بعد الانصداع فليست بصحيحة

ظهر الانشقاق في عهد نصر بن سيار هذا بين النزارية واليانية وكان رئيس النزارية وكبيرهم نصر بن سيار الأمير وكبير اليانية جديع بن شبيب المعنى المعروف بالكرما . وإنما عرف بذلك لأنه ولد بكرمان وكان نصر والكرماني قبل ذلك متصافين إلا أن الفتنة الناشئة عن حمية الجاهلية فرقت بينهما . وكانت النزارية أيضا منشقة . فريعة في جانب ومضر في جانب . وكان أكثر ربيعة مع شيان بن سلة الحروري الخارج على الدولة يطلب العمل بكتاب الله وسنة رسوله فكانت هذه الفرق الثلاث متعادلة حصلت حروب بين نصر والكرماني وكانت القوة للكرماني فأجلى نصرا عن مرو حاضرة خراسان فهدم اليمينيون دور المضربة فقالت امرأة من ضبة وهي أم كثير الضية

لإبارك الله في أثني وعذبتها • تزوجت مضريا آخر الدهر
أبلغ رجال تميم قول موجعة • أحلتموها بدار الذل والفقر
إن أتمم لم تكروا بعد جولتكم • حتى تعيدوا رجال الأزود والظهر
إني استحييت لكم من بذل طاعتكم • هذا المزوني يجيبكم على قهر

وقال شاعر آخر

ألا يانصر قد برح الخفاء • وقد طال التمني والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مرو • تقضى في الحكومة مانشاء
يجوز قضاؤها في كل حكم • على مضر وإن جار القضاء
وحمير في مجالسها قعود • ترقق في رقابهم الدماء
فان مضر بذارضيت وذات • فطال لها المذلة والشقاء
وإن هي أعتبت فيها وإلا • فخل على عساكرها العفاء

في أثناء وقوع هذه الحوادث توفي محمد بن علي إمام الشيعة الذي يدعون اليه وأدلى بالأمر من بعده إلى ابنه إبراهيم وأعلم الشيعة بذلك فقاموا بالدعوة اليه مكان أبيه . ثم توفي بكبير بن ماهان شيخ الشيعة بالكوفة فأقام إبراهيم بن محمد مكانه حفص بن

سليمان المعروف بأبي سلة الخلال وأصله مولى لبني الحارث بن كعب وكان صهرا
لبكير بن ماهان فأوصى إبراهيم أن يقيمه مكانه

واتصل بابراهيم في تلك الأوقات شاب من نوابغ الشبان وذوى المقدرة والعزيمة
وهو أبو مسلم الخراساني وأصله مولى لعيسى بن معقل العجلي اشتراه منه بكبير بن
ماهان وعنه تلقى أصول التشيع ثم اتصل بمحمد بن علي سنة ١٢٥ ثم بابنه ابراهيم
وكانت تظهر عليه مخايل النجابة وقوة العزم وكانت الشيعة بخراسان في حاجة إلى
مثله ليشرعوا في العمل بعد أن أمكنتهم الفرصة بما وقعت فيه الدولة الأموية من
الخلاف وما وقع فيه عرب خراسان من الانشقاق فاختار إبراهيم أبا مسلم لتلك
المهمة وكتب إلى أصحابه إنى قد أمرته بأمرى فاسمعوا منه واقبلوا قوله فإني قد أمرته
على خراسان وماغلب عليه بعد ذلك وكان مما أوصى به أبا مسلم قوله :

« يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت فاحفظ وصيتي . وانظر هذا الحى من
اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فان الله لا يتم هذا الامر إلا بهم . وانظر هذا الحى
من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم وانظر هذا الحى من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقبل
من شككت فيه ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شيء وإن استطعت
ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل فأبما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقتله ولا تخالف
هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ولا تعصه وإن أشكل عليك أمر فأكتف به منى »

وإنما أمره بتقريب أهل اليمن لأنهم أعداء الدولة الحاضرة للعصية التى كانت
نارها مشتدة بين أهل خراسان إذ ذاك ولهذا السبب أوصاه بالشدة على مضر فانهم
كانوا أصحاب الدولة . وبما يدل على اعتماد بنى العباس على أهل خراسان دون العرب
قول الامام (وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل) سار أبو مسلم
مزوداً بهذه الوصية حتى حل بخراسان وذلك سنة ١٢٨ وكانت الحال قد بلغت أشدها
بين العرب بخراسان فأقام يدبر الأمور . وبعد سنة تهاً لزيارة الامام ومعه عدد
كبير من الدعاء ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الامام يقول فيه (إنى قد بعثت إليك
براية النصر فارجع من حيث ألتاك كتابى ووجه إلى قحطبة بما معك يوافقى به فى
الموسم) فعاد أبو مسلم إلى مرو مستعداً للعمل

دور العمل

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مرو يقال لها سفيدنج وهناك بث دعائه في الناس ليجتمعوا إليه فأتاه الناس وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٩ . ولخمس بقين منه عقد اللواء الذي بعث به الامام ويدعى الظل على ربح طوله أربعة عشر ذراعا وعقد الراية التي تدعى السحاب على ربح طوله ثلاثة عشر ذراعا وهو يتلو قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) ولبسوا السواد الذي جعل شعارا للدولة العباسية وقدم على أبي مسلم الدعاء من أهل مرو بمن أجاب الدعوة

كان أول ما فعله أبو مسلم أن أمر برم حصن سفيدنج وأقام به هو ومن معه ولما حضر عيد الفطر سنة ١٢٩ أمر سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة ونصب له منبرا في العسكر وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة وكانت بنو أمية تبدأ بالخطبة والأذان ثم بالصلاة بالإقامة كصلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوسا في الجمعة والأعياد. وأمره أن يكبر ست تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع السادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ويختتمها بالقرآن وكانت بنو أمية تكبر في الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات ولما تمت الصلاة انصرف هو ومن معه إلى طعام أعد لهم مستبشرين

كتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار يقول له (أما بعد) فإن الله تبارك وتعالى ذكره غير أقواما في القرآن فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المدكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) فتعاطم نصر الكتاب ولا سيما أنه رأى أبا مسلم بدأ فيه بنفسه

وكان جوابه أن وجه إلى أبي مسلم مولى له اسمه يزيد في خيل عظيمة فوجه إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي فالتقوا بقرية تدعى آلين وكانت بين الفريقين موقعة انتهت بانتصار الشيعة وأسر يزيد رئيس جند نصر بعد أن جرح فأمر أبو مسلم بمداواته حتى برأ ثم خيرته بين أن يقيم معه ويدخل في دعوته وأن يرجع إلى مولاه

سالمًا ويعطى عهد الله وميثاقه ألا يحاربهم ولا يكذب عليهم وأن يقول فيهم ما رأى
فاختار الرجوع إلى مولاة وقال أبو مسلم لمن معه إن هذا سيرد عنكم أهل الورع
والصلاح فانا مانحن عندهم على الإسلام

قدم يزيد على نصر فقال له نصر لا مرحبا بك والله ما ظننت استبقاك القوم
إلا ليتخذوك حجة علينا فقال يزيد هو والله ما ظننت وقد استحلقتوني ألا أكذب
عليهم وأنا أقول إنهم يصلون الصلاة لمواقبتها بأذان وإقامة ويتلون كتاب الله
ويذكرون الله كثيرا ويدعون إلى ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أحسب
أمرهم إلا سيعلموا ولولا أنك مولاي أعتقتني من الرق مارجعت إليك ولاقت معهم
كثرت بعد ذلك وفود الناس على أبي مسلم ووجدت الدعوة في قلوبهم مكانا
صالحا فضاقت عليه سفنذنج فرحل إلى الماخوان وهي قرية كبيرة من قرى مرو
كانت للعلاء بن حريث ولأبي العلاء خالد بن عثمان فخصنها وخذق حولها وكانت
عدة من معه في الخندق سبعة آلاف رجل

رأى عرب خراسان أن ما بينهم من هذه الفرقة والحروب تشد أزر عدوهم وكانوا
ثلاث فرق كما قدمنا وكان الكرماني قد قتل في إحدى وقائعه مع نصر وأجلى قومه
عن مرو وخلفه في قيادة الباقين ابنه علي فكتب نصر إلى شيبان الحروري يقول له
إن شئت فكف عني حتى أقاتله وإن شئت فاتفق معي على حربه حتى أقتله أو أنفيه
ثم نعود إلى أمرنا الذي كنا عليه فهم شيبان أن يفعل . ولكن أبا مسلم كانت له عين
لا تنام فأرسل إلى علي بن الكرماني يقول له إنك موتور قتل أبوك ونحن نعلم أنك
لست على رأي شيبان وإنما تقاتل لتأرك فامنع شيبان من صلح نصر فدخل ابن
الكرماني على شيبان ولم يزل به حتى ثناه عن رأيه فأرسل نصر إلى شيبان إنك
لمغرور وإيم الله ليتفاقم هذا الأمر حتى تستصغرنى بجانبه

وفي أثناء ذلك كان أبو مسلم يرسل قواده فيستولون على البلاد من عمال نصر
ولا يجدون مقاومة تذكر . ولمارات ذلك ربيعة وعلبت شدة أمر أبي مسلم أرسلت
إلى نصر تطلب منه المواعدة فأجاب إلى ذلك وتوادعوا سنة . بلغ ذلك أبا مسلم
فأرسل إلى ابن الكرماني يهجه بأخذ الثأر فقال إني ما صالحت نصرا وإنما صالحت
شيبان وأنا لذلك كاره وأنا موتور ولا أدع قتاله فعاود القتال وأبى شيبان أن يعينه

وقال لا يحل الغدر فأرسل ابن الكرماني إلى أبي مسلم يستنصره . وهذا كل ما يريده فأرسل إليه إني معك على نصر فاشتد ذلك على نصر وكتب إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر وبعثت إليه ربيعة بمثل ذلك كلهم طلب معونة هذا الفتاك الذي ليست له غاية إلا الفتك بهم جميعا فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد كل منهم حتى يختار ففعلوا وأمر أبو مسلم متكلمى الشيعة أن يختاروا وفد ربيعة وقحطان فان السلطان في مضروهم عمال مروان وهم قتلة يحيى بن زيد . ولما قدمت عليه الوفود فعل الشيعة ما أمروا به فنهض وفد مضر تعلموهم المذلة والكآبة ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين ظافرين ولم يدروا ما خبأ لهم الغيب

بذلك ظفر أبو مسلم ظفرا عظيما فانه فرق كلمة العرب بعد أن كادت تجتمع عليه فقام من الماخوان في جمادى الأولى سنة ١٣٠ يريد مرو وأرسل إليه ابن الكرماني أن ادخل حائط مرو من قبلك وأدخل أنا وعشيرتي من قبلي فأرسل إليه أبو مسلم أن لست آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على حربى ولكن ادخل أنت فأنشبت الحرب فدخل ابن الكرماني وأنشبت الحرب وأمر أبو مسلم أحد قواده بدخول مرو فدخلها وأعقبه أبو مسلم . دخل والقتال دائر بين الكرماني ونصر فأمر الفريقين أن يكفوا وهو يتلو (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) . ومضى أبو مسلم حتى دخل دار الامارة وهرب نصر مستخفيا .

صفت مرو لأبي مسلم وأمر أحد النقباء بأخذ البيعة على أهلها ونص البيعة (أبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعقاق والمثى إلى بيت الله الحرام وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طعما حتى يبدأكم به ولا تكلم وإن كان عدو تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولا تكلم) وأخذ أبو مسلم ثقات أصحاب نصر وصناديدهم فكثفهم وحبسهم ثم قتلهم

أرسل بعد ذلك إلى شيبان الحرورى يدعوه إلى بيعته فأبى وسار عن مرو إلى سرخس فوجه إليه أبو مسلم جندا فكانت هناك موقعة قتل فيها شيبان وعدد عظيم ممن معه . وبعد نيل هذا الانتصار عمد إلى ابني الكرماني على وعثمان الذين ائتمناه على حياتهما فقتلتهما وأكثر أصحابهما

صفت خراسان كلها لأبي مسلم فبعث العمال إلى جميع الولايات وأمر أحد قواده قحطبة بن شبيب أن يتبع نصرا ومعه لواء عقده له إبراهيم الامام فسار وراءه من بلد إلى بلد حتى مرض نصر بالرى ومات بساوة فأقبل قحطبة بجنوده واستولى على الرى فتم للشيعه خراسان وبلاد الجبل ثم سير قحطبة ابنه الحسن فاستولى على همدان ومنها سار إلى نهاوند فحصرها ولحقه بها أبوه فاجتمعا عليها ثلاثة أشهر ثم فتحت وتلاها شهر زور والموصل . سار قحطبة بعد ذلك واغلا في بلاد العراق فقصده ابن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد وكان اجتمعا هما غربي الفرات على نحو ٢٣ فرسخا من الكوفة وقبل أن تقع بينهما الموقعة الكبرى مات قحطبة فولى إمرة الجيش ابنه الحسن وكان قحطبة قبل موته قد قال إذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد أبو سلمة الخلال فسلوا الأمر إليه

جرت أثناء ذلك وقائع انهزم فيها ابن هبيرة فسار منها حتى أتى واسطا . وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة خرج منها محمد بن خالد القسرى مسودا فاستولى على قصرها ولم يكن قد علم بهلاك قحطبة فكتب إليه يعلمه فوصل الكتاب إلى ابنه الحسن فارتحل إلى الكوفة فدخلها في المحرم سنة ١٣٢ وسلم الأمر لأبي سلمة الخلال فوجه الحسن إلى قتال ابن هبيرة بواسطة وضم إليه قوادا . ووجه حميد بن قحطبة إلى المدائن . ووجه المسيب بن زهير وخالد بن برمك إلى دير قتي . وبعث المهلبى وشراحيل إلى عين التمر . وبسام بن إبراهيم إلى الأهواز وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق ونار الفتنة مشتعلة بالشام وبالجزاز

اقتضاح الأمر

مضت هذه المدة كلها وليس عند بني أمية علم بمن تدعو إليه الشيعة فانهم كانوا يدعون إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم ولا يعلم السر إلا النقباء والدعاة أما العامة فبلغ عليها أنها تدعى لرجل من آل البيت حتى وقع في يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم إلى أبي مسلم جواب كتاب لأبي مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان فأرسل مروان في الحال إلى عامله بدمشق يأمره بالكتاب

إلى صاحبه بالبقاء أن يسير إلى الحيمة ويأخذ إبراهيم بن محمد ويوجه به إليه ففعل
العامل ما أمر به وقبض على إبراهيم ولما أحس إبراهيم بما يراد به نعى نفسه إلى أهل
بيته وأوصى إلى أخيه أبي العباس وأمر أهله بالسير إلى الكوفة والسمع والطاعة
لأبي العباس . أما إبراهيم فحبس في سجن حران مع جماعة من أعداء مروان من بني
أمية ولم يزل في سجنه حتى مات . وكيفية موته مبهمه اختلف فيها المؤرخون فمنهم من
قال إنه سقى سما ومنهم من قال هدم عليه بيت فمات . ومما قيل في رثائه

قد كنت أحسبني جلدا فضعضني ◦ قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الامام وخير الناس كلهم ◦ بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الامام الذي عمت مصيئته ◦ وعيلت كل ذى مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة ◦ لكن عفا الله عن قال آمين

وأما أهل بيته فجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها في صفر سنة ١٣٢ ورئيس
القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال الذي كان يعرف في ذلك الوقت بوزير آل محمد
فأنزلهم في إحدى دور الكوفة وكنم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة وكان لا يزال
في معسكره بحمام أعين خارج الكوفة

ويقال إنه لما سبر أحوالهم عزم على العدول عنهم إلى بني علي فكاتب ثلاثة من
أعيانهم جعفر الصادق بن محمد الباقر وعبد الله المحض بن حسن بن حسن وعمر
الأشرف بن زين العابدين وأرسل الكاتب مع رجل من مواليهم وقال له أقصد أولا
جعفر بن محمد فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين فإن لم يجب فالق عبد الله المحض
فإن أجاب فأبطل كتاب عمر وإن لم يجب فالق عمر فذهب الرسول إلى جعفر بن
محمد أولا ودفع إليه كتاب أبي سلمة فقال مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري فقال له
الرسول اقرأ الكتاب فقال جعفر لحادمه أذن السراج منى فأذناه فوضع الكتاب
على النار حتى احترق فقال الرسول ألا تجيبه فقال قد رأيت الجواب . ثم مضى
الرسول إلى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبله وركب في الحال إلى
جعفر وقال هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة قد وصل على يد بعض
شيعتنا من أهل خراسان فقال له جعفر ومتى صار أهل خراسان شيعتك أنت
وجهت إليهم أبا مسلم هل تعرف أحدا منهم باسمه أو بصورته فكيف يسكرونون

شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك فقال عبد الله كأن هذا الكلام منك لشيء فقال جعفر قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم فكيف أدخره عنك فلا تمن نفسك الأباطيل فان هذه الدولة ستم لهؤلاء وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك فانصرف عبد الله من عنده غير راض . وأما عمر بن زين العابدين فانه رد الكتاب وقال أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه . أحسن بعض القواد بأمر أبي سلمة فأحبطوا ما أراده وذهبوا إلى الكوفة فقابلوا أبا العباس وسلّموا عليه بالخلافة ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل كما فعلوا وقد أبقى هذا العمل في نفس أبي العباس ما أبقى فترتب عليه ما يأتي ذكره

خرج أبو العباس يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول فصلى بالناس وكان في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه أن افتخر بقرايته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بني حرب وبني مروان أترتهم وظلمهم ثم قال (وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أناكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت لإبائهم . يا أهل الكوفة أتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أتم الذين لم تغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا وأناكم الله بنولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدناكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيع) وبهذه الجملة الأخيرة لقب السفاح

كان السفاح إذ ذاك موعوكا فاشتد به الوعك فجلس على المنبر وصعد داود بن علي عمه وكان من أفسح بني العباس فخطب خطبة جاء فيها (إنا والله ما خرجنا في هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبني قصرا وإنما أخرجنا الألفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شئونكم ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستدلالهم لكم واستئثارهم بفيثكم وصدقاتكم ومغانمكم . لكم ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله إن نحكم فيكم بما أنزله الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم منى أهل الكوفة بما يحلو في أسماعهم ومدح أهل خراسان بما قاموا به

من نصر أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وإعادة حقوقهم وقال في آخر خطبته (الأولاد ما سعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار بيده إلى أبي العباس فاعلموا أن هذا الأمر فينا حتى نسله إلى عيسى ابن مريم صلوات الله عليه)

بعد أن تمت الخطبتان والصلاة خرج السفاح إلى القصر وأجلس أخاه أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل

ثم خرج أبو العباس إلى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داود بن علي بعد أن بلغوا هذا المبلغ بقي عليهم أن يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التي معه بالجزيرة وعلى ابن هبيرة والقوة التي معه بواسطة

كان مروان بحران معه قوة عظيمة ومنها سار حتى أتى الموصل فاختر أبو العباس من أهل بيته عمه عبد الله بن علي ليسكن قائدا للجنود التي اختيرت لحرب مروان وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة يأتيها من الشرق وكانت الواقعة شديدة جدا انتهت بانتصار عبد الله وجنوده فهرب مروان واحتوى عبد الله معسكره كله وذلك لاحدى عشرة خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ وكان مع مروان من الجنود ١٢٠ ألفا من نخبة أهل الشام وخيرة جنودها انهزم مروان حتى أتى حران وعاملها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد فأقام بها ثيفا وعشرين يوما ولما دنا منه عبد الله رحل عنها بأهله وولده وقدم عبد الله فلقبه أبان مسودا مبايعا له فبايعه ودخل في طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة

مضى مروان حتى أتى قنسرين وعبد الله يتبعه ثم مضى منها إلى حمص ثم أتى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان فلما أحس باقتراب عبد الله رحل عنها فجاءها عبد الله ودخلها عنوة معترضا أهلها وقتل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قتل مروان بالأردن وفلسطين ومضى حتى أتى القسطنطين ومنها خرج إلى بوسير وهي قرية من مركز الواسطي ببني سريفة

أما عبد الله بن علي فجاءه كتاب من أبي العباس يأمره أن يوجه صالح بن علي في ملاحقة مروان فسار صالح في ذي القعدة سنة ١٣٢ وكان يسير على ساحل البحر

والسفن حذاه حتى وصل إلى مصر ومن هناك سار حتى أتى بوسير وهناك قتل مروان بن محمد لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت دولة بني أمية من المشرق وتوطدت دعائم الدولة العباسية

وأما يزيد بن عمر بن هبيرة فإنه لما انهزم من جيش خراسان أتى واسطا وتحصن بها وكان مشيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب إلى الكوفة فيقاتل حتى يقتل أو يظفر وحذروه واسطا كيلا يصير في حصار وليس بعد الحصار إلا القتل يخالف تلك الشورى فسير أبو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة فكانت بينهم وقائع ثم احتفى ابن هبيرة ومن معه بخصومهم . ولما طال الأمر أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيش فاحتدم القتال بين الفريقين وظلوا هكذا أحد عشر شهرا . ولما أتى ابن هبيرة قتل مروان بن محمد طلب بمن معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين أبي جعفر حتى جعل له أمانا وكتب به كتابا مكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أنفذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى السفاح فأمر بامضائه وكان رأى أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه وكان السفاح لا يقطع أمرا دون أبي مسلم فكتب أبو مسلم إلى السفاح يقول له إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسدت لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة

ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر فدخل عليه وحادثه ساعة وبعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة ومداد الأمان لم يخف وقاتل معه عدة من وجوه أصحابه ورثاه منقذ بن عبد الرحمن الهلالي بقوله :

منع العزاء حرارة الصدر ◦ والحزن عقد عزيمة الصبر
لما سمعت بوقعة شملت ◦ بالشيب لون مفارق الشعر
أفنى الحماة الغر إن عرضت ◦ دون الوفاء حبات الغدر
مالت حبات أمرهم بفتى ◦ مثل النجوم حفن بالبدر
على نعيمهم فقلت له ◦ هلا أتيت بصيحة الحشر
لله درك من زعمت لنا ◦ أن قد حوته حوادث الدهر
من للنبائر بعد مهلكهم ◦ أو من يسد مكارم الفخر
فاذا ذكرتهم شكا ألما ◦ قلبي لفقد فوارس زهر

قتلى بدجلة ما بينهم • إلا عباب زواجر البحر
فلتبك نسوتنا فوارسهم • خير الحاة ليالى الذعر

وبقتل ابن هبيرة انظفاً آخر مصباح للدولة الأموية

قامت الدولة العباسية ودخل في حوزتها هذا الملك الطويل العريض الذى وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومكن قواعده وزان جوانبه بنو أمية بن عبد شمس وسأتى على وصفه بعد أن نبدى ملاحظة بشأن قيام هذه الدولة

قامت هذه الدولة باسم الدين . والسلاح الذى استعمل فيها للتأثير فى العقول هو إعادة الأمر لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزعه من آل مروان الذين وصفهم الداعون بما شأوا من صفات النقص والبعد عن الدين ووضعوا فى ذمهم أحاديث أسندوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يعرفها رجال النقد من المحدثين . كان ذلك السلاح يصل إلى شغاف القلوب فيثيرها من مكمنها

اختار القوم لغرس دعوتهم بلادا كانت قبل مهديا للتشيع وحب آل البيت وهى الكوفة وخراسان . فقديما قامت بلاد العراق بنصر على بن أبى طالب وقامت لتأثر بالحسين بن على وجاهدت فى نصرته زيد بن على بن الحسين وابنه يحيى فلم تترك فرصة لذلك إلا انتهزتها . ثم اختاروا بلاد خراسان لتكون مشرقا لقوتهم وأذاعوا فى ذلك أحاديث كثيرة فأعدوا قلوب أهليها لذلك . وكان الذين دخلوا فى الاسلام من الفرس أقرب من غيرهم إلى التأثر بأراء الشيعة لأنهم لا يفرقون بين خلافة وملك وكان الملك عندهم ينال بالارث وهو منحة يمنحها الله للأسرة المسالكة فن عارضها فيه فهو خارج عليها يستحق المقت واللعة فاذا ألقى اليهم فى التعاليم أن بنى أمية غضبوا أهل بيت النبي حقهم سهات إلى ذلك إجابتهم واعتقدوا أن بنى أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المقدس منهم ولهذا كان من الوصايا التى بنيت عليها سياسة الدعوة العباسية (إن قدرت ألا تبقى بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل) وهى وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وإنما لوحظت فيها الفوائد العاجلة

وفوق ماتقدم كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قديم وكانت لها السيادة على

أكثر الأمم العربية بالعراق واليمن ثم رأوا دولتهم قد دالت وصاروا موالى للعرب يتحكم العرب في رقابهم وفي أموالهم فوجدوا هذه فرصة يستردون بها شيئاً مما كان لهم من العظمة التاريخية ويدلون هؤلاء العرب الذين سطوا عليهم فرأوا أنهم بمساعدتهم لهذه الدولة الجديدة يكرنون أصحاب الكلمة المسموعة فيها والسلطان النافذ . وتأثير هذا السبب في الخاصة أكثر منه في العامة . فهذا النزاع كان في الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بني أمية والعباس وحدهم

استعان القوم بأمر هذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذي أحيته العصية الجاهلية وهذه العصيات عند العرب لا يمكن إخمادها إلا من طريق الدين . وكان تأثيره قد ضعف إذ ذاك . على أن الأمراء كانوا يزيدون من سرورته حدة كأنهم رأوا أن سلطانهم لا يتم إذا اجتمعت الأمة . وقد أثبت التاريخ أن جميع الأغبياء من الملوك والأمراء متى رأوا مصلحتهم في إيقاع الخلاف والنفرة بين أممهم وعملوا بذلك يزول بسرعة ملكهم

استعمل في الوصول إلى إحياء الدولة العباسية عسف شديد جداً فقد كان من الوصايا التي ألقيت إلى أبي مسلم (واقول من شككت فيه) ولا يخفى أن حزم أبي مسلم كان يسوقه إلى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة في قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل إلى غرضه وسبب أن هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبي مسلم أيضاً وقد أحصى من قتله أبو مسلم صبراً فكان ستائة ألف

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب في جاهليتهم وفي بدء إسلامهم وفي فتوحهم فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ووصايا أمرائهم في ذلك معروفة مشهورة فلما دخل بينهم هؤلاء الأعداء سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته واستحقوا بذلك ما حلاهم به محمد بن علي بن طباطبا في كتابه المعروف بالفخرى في الآداب السلطانية قال : اعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة

وصف المملكة الإسلامية حين استيلاء بني العباس

كانت المملكة الإسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر إلى السوس الأقصى على شاطئ* بحر الظلمات وطولها على ما ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري في كتابه الموسوم بأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٢٦٠٠ فرسخ وتمتد عرضاً من شواطئ* بحر قزوين إلى أواخر بلاد النوبة وهي منقسمة إلى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات . وهانحن أولاء نذكر هذه الأقسام وما فيها من الولايات

(١) جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة :

الأولى — الحجاز وقصبتها مكة ومن مدنه طيبة ويثبع والجار وجدة والطائف وغيرها .

الثانية — اليمن وما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة وقصبتها زيد وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبتها صنعاء

الثالثة — عمان وقصبتها صحار على شاطئ* بحر الهند

الرابعة — هجر وقصبتها الأحساء

ويتبع اليمن من النواحي الأحقاف وبها من المدن حضرموت . ومهرة وبها من المدن الشحر . ويتبع هجر الهامة وقصبتها حجر . ويتبع الحجاز وادي القرى وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت الله الحرام والكنبة المقدسة التي جعلها الله قياماً للناس وهي قبلة المسلمين كافة في صلاتهم — وبها طيبة وهي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومبعث النور الإسلامي

وأمة هذا القسم عربية محضة تتكلم اللسان العربي إلا بصحار فان نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن اللغة عربية

ومذاهبهم السياسية التشيع ببلاد اليمن والحوارج بعمان وهجر والسنة فيما عداهما وبشمال هذا القسم بادية العرب وهي بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفية الطرق طيبة الهواء ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق ولا مدينة إلا نهما وفيها اثنا عشر

طريقا توصل إلى مكة منها تسع طولاً يؤدى إلى مكة وثلاث عرضاً يؤدى إلى الشام
وبها طريق آخر لوادى القرى يؤدى إليها من البصرة ثم إلى مصر وهذه الطرق هي
(١) طريق مصر (٢) طريق الرملة (٣) طريق الشراة (٤) طريق تبوك
(٥) طريق ويدر (٦) طريق بطن السر (٧) طريق الرحبة (٨) طريق هيت
(٩) طريق الكوفة (١٠) طريق القادسية (١١) طريق واسط (١٢) طريق
وادى القرى (١٣) طريق البصرة . وقد أجاد وصف هذه الطرق البشارى فى
كتابه أحسن التقاسيم ص ٢٤٩ وما بعدها فراجع

(١) إقليم العراق وبه ست كور

الاولى — الكوفة وقصبتها الكوفة وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن
القادسية وعين التمر

الثانية — البصرة وقصبتها البصرة وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن
الأبلة وعبادان

الثالثة — واسط وقصبتها واسط وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن
فم الصلح

الرابعة — المدائن وقصبتها المدائن وهى مدينة كسروية وبها النهروان
والدسكرة وجلولاء

الخامسة — حلوان وقصبتها حلوان وبها من المدن خائقين والسيروان

السادسة — سامراء وقصبتها سامراء وبها من المدن الكرخ وعكبرا والانبارة
وهيت وتكريت

وهذا الاقليم كان يسمى فى القديم اقليم بابل وهكذا كان اسمه فى التقويم لاول عهد
العباسيين ولقد كان زهرة ملك العباسيين وأجمل بلدان الدنيا وأثراها ورافداه الدجلة
والفرات من أحسن أنهار الدنيا

وأمة هذا الاقليم نبطية دخل عليها العرب فى بلادها فزاحموها وصارت كأنها لهم
ولذلك صارت لغة هذا الاقليم عربية وأصح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية
وبعدهم عن النبط وأما البطائح فنبط والذين نزلوا بهذا الاقليم من العرب أكثر
من الذين نزلوا منهم بأى إقليم آخر ماعدا الشام والجزيرة وقد كانوا بهذه الاقاليم

الثلاثة قبل الإسلام وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق والغساسنة بالشام إلا أنهم لم يكونوا مستقلين بالملك بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم فلما جاء الإسلام أتسق لهم الملك بالاقليمين وكان الشام مهد الدولة الأموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية ومساحة العراق طولاً من البحر إلى السن ١٢٥ فرسخ وعرضه من العذيب إلى عقبة حلوان ٨٠ فرسخاً فإذا كسرتة كان ١٠٠٠٠ فرسخ

(٣) إقليم الجزيرة جزيرة أقور أو أثور أو أشور وهي ما بين دجلة والفرات وبها ثلاث كور

الأولى — ديار ربيعة وقصبتها الموصل ومن مدنها الحديثة وسنجار ونصيبين ودارا ورأس العين وثمانين وبها ناحية جزيرة ابن عمر

الثانية — ديار مضر وقصبتها الرقة وبها من المدن باجروان وحصن مسلمة وحران والرها

الثالثة — ديار بكر وقصبتها آمد وبها من المدن ميفارقين وحصن كيفا وقد نزل العرب قبل الإسلام بهذا الاقليم وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سميت كوره بأسمائهم ولذلك يعتبر إقليماً عربياً محضاً لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم وينتهي هذا الاقليم إلى حدود الروم وأرمينية

(٤) إقليم الشام وبه ست كور

الأولى — قنسرين وقصبتها حلب ومن مدنها إنطاكية وبالس وسميساط ومنبج وقنسرين ومرعش واسكندرونة ومعرفة النعمان

الثانية — حمص وقصبتها حمص ومن مدنها سلبيه وتدمر واللاذقية وانطرسوس

الثالثة — دمشق وقصبتها دمشق ومن مدنها باناس وصيدا ويروت وطراباس

الرابعة — الأردن وقصبتها طبرية ومن مدنها صور وعكا ويسان واذرعات

الخامسة — فلسطين وقصبتها الرملة وبها بيت المقدس وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية وأريحا وعمان

السادسة — الشراة وقصبتها صغر ومن مدنها مآب وعمان وتبوك وأذرح وهذا الاقليم دخله العرب قبل الإسلام وملكوا به وزاحوا من كان به من الأمم القديمة

ولما جاء الاسلام كان مهدياً عظيماً من مهاد الحضارة العربية الاسلامية ولغة
أهله عربية

وحُدود هذا الاقليم من الشمال بلاد الروم وكانت المدن التي على حدوده وحُدود
الجزيرة يقال لها الثغور وعندها يكون الجهاد لرد غارة الروم وحفظ البلاد الاسلامية
وفتح ما يمكن فتحه من البلدان

وبهذا الاقليم بيت المقدس وهو ثالث المساجد المقدسة بناه سليمان بن داود عليهما
السلام حينما كان ملكاً على بني اسرائيل واحتفل في بنائه كثيراً ويعظمه جميع الأديان
من موسى وعيسوى ومحمدى

(٥) اقليم مصر وبه سبع كور على حسب التقويم القديم

الأولى — الجفار وقصبتها الفرما وبها من المدن البقارة والورادة والعريش

الثانية — الحوف وقصبتها بليس وبها من المدن مشول وفاقوس وغيرها

الثالثة — الريف وقصبتها العباسية وبها من المدن دمنهور وسنهور وبها العسل
وشطنوف ومليج والمحلة الكبيرة ودقهلة

الرابعة — اسكندرية وقصبتها اسكندرية وبها من المدن رشيد ومربوط
والبرلس وذات الحمام

الخامسة — مقدونيا وقصبتها الفسطاط ومن مدنها العزيزية والجيزة وعين شمس

السادسة — الصعيد وقصبتها أسوان وبه من المدن قوص وإنخيم والبلينا
والفيوم وغيرها

السابعة — الواحات

وأمة هذا الاقليم كانت في القديم مصرية قبطية ساكنها كثير من الأمم التي ملكتها
كاليونان والرومان وغيرهم وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم فيها ولما جاء
الاسلام جاءها كثير من العرب الفاتحين فأقاموا في مدنها الكبرى ثم جاءت قبائل
كثيرة من قيس في عهد الدولة الأموية وأقامت بالحوف (الشرقية) ثم اختلطت
هذه الأمة الفاتحة بالمصريين تمام الاختلاط فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان
العربي والدين الاسلامي وذلك بعد تملك الدولة العباسية

أما أول عهدها فكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطاً لا يزالون على دينهم

(٦) إقليم المغرب وهو ثمانى كور

الأولى — برقة وقصبتها برقة وبها من المدن رمادة وطرابلس

الثانية — إفريقية وقصبتها القيروان وبها من المدن اسفاقس وسوسة وتونس

وبونة وجزيرة بنى زغنايه — ومنستير

الثالثة — تاهرت وقصبتها تاهرت وبها من المدن مطاطة ووهران وغيرهما

الرابعة — سجلماسة وقصبتها سجلماسة وبها من المدن درعة وامصلى وتازروت

الخامسة — فاس وقصبتها فاس وتسمى السكورة السوس الأدنى وأما فاس فمحدثه

بعد عهد العباسيين ومن مدنها البصرة وورغة وصنهاجة وهوارة وسلا

السادسة — السوس الأقصى وقصبتها طرفانة ومن مدنها إغمات وماسة وغيرهما

السابعة — الأندلس وقصبتها قرطبة وكانت لعهد بنى أمية تتبع أمير إفريقية وعليها

وال من قبله . وهذا الإقليم كان يسكنه قبل الاسلام البربر وساكنهم

فيه كثير من الرومان والويزيغوط الذين ملكوا المغرب قبل الاسلام

فلما جاء الاسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر إلا أنهم

لم يكثرهم لقتلهم ولم يكثر العنصر العربى بها إلا بعد ذلك فى منتصف

القرن الخامس فامة هذا الإقليم الغالبة عليه لهذا العهد بربرية واللسان

الغالب هو اللسان البربرى

(٧) إقليم المشرق وهو إقليم ذو جانين الأول فى المشرق وهو ما كان شرقى

جيجون أو أموداريا ويسمى بما وراء النهر أو هيطل والثانى فى الغرب وهو ما كان

غربى جيجون ويسمى خراسان

(١) ما وراء النهر قال البشارى هذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها

خيراً وفقها وعمارة ورغبة فى العلم واستقامة فى الدين وأشد بأساً وأغلظ

رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدوراً وأرغب فى الجماعات مع يسار وعفة

ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم

وبهذا القسم ست كور

الأولى — فرغانة وقصبتها اخسيكت ومن مدنها نصراباذ وأوزكند ومرغينان

وغيرها

الثانية - اسيجاب وقصبتها اسيجاب ومن مدنها فاراب وترار وطراز
وبلاسكون وغيرها

الثالثة - الشاش وقصبتها بندك ومن مدنها نكث وغيرها

الرابعة - أشروسنة وقصبتها بنجكث

الخامسة - الصغد وقصبتها سمرقند وهي مصر الاقليم

السادسة - بخارى وقصبتها بخارى ومن مدنها بيكند

وهذا الاقليم يمر به نهر جيحون العظيم ويتشعب منه أنهار كثيرة ويقلب فيه أنهار ستة وعليه كور ومدن . فالكور هي الخسل وقصبتها هلبك . ثم قواديان ومديتها نير . ثم خوارزم وهي على حافتي جيحون قصبتها العظمى شرق النهر وهي كاث ولها قصبة أخرى غربية وهي الجرجانية وعلى النهر من المدين ترمذ وكالف ونوبدة زم وفربز وآمل

(ب) خراسان وبها تسع كور

الأولى - بلخ وقصبتها بلخ وبها ناحية طخارستان ومن مدنها لولاج والطاقان

الثانية - غزني وقصبتها غزني وبها من المدن كابل

الثالثة - بست وقصبتها بست . وبعض الناس يجمع غزني إلى بست ويجعلهما

كورة واحدة يسميها كابلستان

الرابعة - سجستان وقصبتها زرنج

الخامسة - هراة وقصبتها هراة ومن مدنها باذعيس

السادسة - جوزجانان وقصبتها اليهودية

السابعة - مرو والشاهجان وهي القصبة وبها ناحية مرو الروز

الثامنة - نيسابور والقصبة إیرانشهر وبها من المدين بيهق وطوس ونسا وايورد

التاسعة - قهستان وقصبتها قابن

وهذا الاقليم من أعرم الاقاليم الاسلامية وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها ومعظمهم كان شيعة لهم أما أهل ماوراء النهر فإلهم من التركان ولم يكن الاسلام قد شملهم لأول عهد العباسيين . وقد دخل العرب هذا الاقليم ولم يتجاوزوا النهر إلا في عهد الدولة الأموية وقد كثرت فتوحهم فيما وراء

النهر في عهد قتيبة بن مسلم الباهلي العامل من قبل الحجاج . ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الأقليم وما يأتي بعد من الأقاليم الفارسية ولكن الدين الإسلامي شملهم فصار منهم أمة إسلامية قادرة عمها العلم ولا سيما الديني ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء في العلوم كافة

قال البشارى في أحسن التقاسيم: وألستهم مختلفة أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء وفيه رخاوة ولجاج وأهل طوس ونسا أحسن لسانا وفي كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم ويجهرون فيه . ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين غير أن فيه تحاملا وطولا ومدا في أواخر الكلم . ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كتابات تستقبح . ولسان هراة وحش تراهم ينقمون ويتكلفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثا بالكوه إلى آخر ما قال

(٨) إقليم الديلم وبه خمس كور

الأولى — قومس وقصبتها الدامغان ومن مدنها سمنان وبسطام

الثانية — جرجان وقصبتها شهرستان ومن مدنها استراباذ وآبسكون

الثالثة — طبرستان وقصبتها آمل ومن مدنها السوس وسارية

الرابعة — الديلمان وقصبتها بروان

الخامسة — الخزر وقصبتها إتل ومن مدنها بلغار وسمندر وبهذه الكورة نهر إتل

وهذا الأقليم لم يفش الإسلام به إلا في عهد الدولة العباسية ولم يتأثر كثيرا

باللغة العربية

(٩) إقليم الرحاب وهو ثلاث كور

الأولى — أران وقصبتها بردعة ومن مدنها تفليس وشروان وباب الأبواب

وملازكرد

الثاني — أرمينية وقصبتها أردبيل ومن مدنها مدليس وخلاط وخوى وسلهاس

وأرمية ومراغة ومرند وقاليقلا

الثالث — أذربيجان وقصبتها أردبيل ومن مدنها تبريز

وهذا الأقليم به كثير من الأجناس والألسنة فيه الكرد والآرمن والفرس وغيرهم

ويخترقه نهر الكر وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس وبه نهر الرس ونهر الملك ولم يفش الاسلام بهذه البلاد إلا في عهد الدولة العباسية واللغة العربية به قليلة

(١٠) إقليم الجبال وبه ثلاث كور

الأولى — الري وقصبتها الري وبها من المدن آوة وساوة وقزوين وأبهر

الثانية — همذان وهي القصبة ومصر الأقليم

الثالثة — أصفهان وقصبتها اليهودية

(١١) إقليم خوزستان ويعرف بالأهواز وبه سبع كور وهي

الأولى — السوس وهي تناخم العراق والجبال

الثانية — جنديسابور وهي القصبة وكانت مصر الأقليم

الثالثة — تستر وهي القصبة وليس بالأقليم أجل منها

الرابعة — عسكر مكرم وهي القصبة وبها من المدن جوبك وزيدان وسوق الثلاثاء

الخامسة — الأهواز وبها من المدن تيرى ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى

السادسة — الدورق كورة تناخم العراق من مدنها آزر وأجم وغيرهما

وقصبتها الدورق

السابعة — رامهرمز كورة تناخم فارس وهي القصبة

ولهذا الأقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزي

(١٢) إقليم فارس وبه ست كور

الأولى — أرجان وهي القصبة

الثانية — اردشير خرة وقصبتها سيراف وهي ممتدة على البحر

الثالثة — درابجرد وهي القصبة وكانت في القديم مصر الأقليم

الرابعة — شيراز وقصبتها على اسمها وهي مصر الأقليم وبها من المدن البيضاء وفسا

الخامسة — سابور وقصبتها شهرستان ومن مدنها كازرون والنوبندجان وتوز

السادسة — اصطخر وهي أوسع الكور وقصبتها على اسمها

وبهذا الأقليم عدد عظيم من الأكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها

(١٣) إقليم كرمان وبه خمس كور

الأولى — بردسير وقصبتها على اسمها ومن مدنها ماهان وكوغون وزرند

الثانية - نرما سير وهي القصبه

الثالثة - السيرجان وقصبته على اسمها وهي مصر الأقليم

الرابعة - بم وهي تناخم فارس

الخامسة - جيرفت وهي على البحر

(١٤) إقليم السند وبه خمس كور

الأولى - مكران وقصبته بنجبور

الثانية - طوران وقصبته قصدار

الثالثة - السند وقصبته المنصورة ومن مدنها ديل

الرابعة - ويند والقصبه باسمها

الخامسة - قنوج وهي القصبه

وبهذا الأقليم نهر مهران وهو يشبه النيل في الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح

فهذه أربعة عشر اقليما منها ستة عربية وثمانية أعجمية والمراد بكونها عربية تغلب

اللسان العربي على أهلها وإلا فأصل اقليم العرب هو جزيرتهم فحسب

وتشتمل هذه الأقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجي منها جميعها الخراج إلى حاضرة

الدولة حيث يحمل منها مابق عن مصروفها وذلك شيء عظيم

هذا هو الملك الطويل العريض الذي ورثه العباسيون بهمة شيعتهم من أهل

خراسان . وليس عدد ولاة هذه الدولة بعد الأقاليم التي بينها بل كان بعض الأقاليم

فيه الواليان والثلاثة وبعضها قد يضم إلى والى اقليم آخر حسب الأحوال

ففي بعض أيام بني أمية قد جمع العراق وفارس كلها لوال واحد كما كان الحجاج

ابن يوسف فقد كان أمير المشرق كله من نهر الفرات إلى نهر جيحون وله ولاة من قبله

على الأقاليم أو الكور التي تحت يده . وفي بعض الأحيان كانت تضم أفريقية كلها

إلى والى مصر ويرسل من قبله والياً على أفريقية

والجزيرة العربية لم تجتمع كلها لوال واحد بل كان للحجاز وال وللمين وال أما

اليامة وعمان فربما أضيفتا إلى والى العراق كما كان الحجاج بن يوسف

ونحن الآن شارعون في تفصيل أحوال بني العباس وتبين ما فعلوه في هذا الميراث

مقارنين ذلك عند لزوم بما كان عليه الحال في الدولة الأموية

فصل في ولاية العهد والبيعة

الأصل في انتخاب الخليفة رضا الأمة فن ذلك يستمدقوته . هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اتخبوا أبا بكر الصديق اختياراً منهم لا استناداً إلى نص أو أمر من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم وبعد أن اتخبوه بايعوه ومعنى ذلك عاهدوه على السمع والطاعة فيما فيه رضا الله سبحانه كما أنه عاهدهم على العمل فيهم بأحكام الدين من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا التعاقد المتبادل بين الخليفة والأمة هو معنى البيعة تشبيهاً له بفعل البائع والمشتري فانهما كانا يتصالحان بالأيدي عند إجراء عقد البيع

فمن هذه البيعة تكون قوة الخليفة الحقيقية وكانوا يرون الوفاء بها من الأزم ما يوجبه الدين وتحمته الشريعة

وقد سن أبو بكر رضي الله عنه طريقة أخرى في انتخاب الخليفة وهي أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة وقد وافق الجمهور الإسلامي على هذه الطريقة ورأى أن هذا مما تجب الطاعة فيه وذلك العمل هو ولاية العهد

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الأدين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط وقد بينا في تاريخ الدولة الأموية الاغلاط التي ارتكبتها الأمويون في ولاية العهد وأنها كانت من الأسباب التي قضت عليهم

اتبع بنو العباس في ولاية العهد الأسلوب الذي سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والاخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم فقد كان ذلك مبعث شرور وقتن شديدة ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر الخلف بما أصاب السلف كما يتضح مما يأتي

ولى السفاح عهده رجلين يلى أحدهما الآخر أخاه أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي فلما تولى أبو جعفر وشب ابنه محمد المهدي عز عليه أن يلى بعده ابن أخيه ويحرم ابنه فسام عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون رتبته تلو رتبة المهدي فأظهر عيسى إباء فساموه خطة لا يرضى بها إلا الذليل

حتى أظهرت ذات نفسه في شعره قاله وهو :

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما * إما صغار وإما فتنة عم
وقد هممت مرارا أن أساجلهم * كأس المنية لولا الله والرحم
ويقال إن أبا جعفر سقاه شرابا يتلفه فكاد يموت منه ولكنه أبل من علة فقال
في ذلك أحد شعراء الدولة :

أفلت من شربة الطيب كما * أفلت ظبي الصريم من قتره
من قانص ينفذ الفريص إذا * ركب سهم الختوف في وتره
دفع عنك المليك صولة ليث يريد الأسد في ذرى خمره
حتى أانا وفيه داخلة * تعرف في سمعه وفي بصره
أزعر قد طار عن مفارقه * وحف أثيث النبات من شعره

ثم أجاب عيسى إلى ما طلب منه هذا مع ما كان من حسن أثر عيسى بن موسى
في الدولة واستهدافه للنواب وقوده الكتاب لشدة دولة المنصور

لما ولي المهدي وشب ابنه موسى وهارون أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى بن
موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولى المهدي العهد ولده فكان ما أراد
بعد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الأذى ومع ما آراه المهدي من نتائج تولية
اثنين للعهد لم يتعظ بل ولى ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد

جاء الهادي لحاول أن يخلع أخاه هارون مع أن ابنه لم يبلغ الحلم فلم يفلح لأن
الدفاع عن الرشيد كان قويا وقربت منية الهادي فأخرت النتائج السيئة ويقال إنه
مات مسموما .

ولى الرشيد ففكر في ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون فعدل عنه إلى
أخيه محمد الأمين لأنه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور والمأمون أمه
أمة جليية من بلاد فارس وكان ذلك العقد سنة ١٧٣ وسن الأمين لانتجاوز ثلاث
السنوات وبعد عشر سنين رأى أن يضم المأمون ليكون ولى العهد بعد الأمين
وذلك برأى جعفر بن يحيى البرمكي وسعيه فعقد له سنة ١٨٣ . ثم طلب عبد الملك
ابن صالح بن علي من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد ففعل وسماه
المؤمن وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والرى

إلى همدان وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام وجعل للبوتن الجزيرة
والثغور والعواصم فألقى بذلك بأسهم بينهم ووضع بيده بذور الفتنة والشر حتى قال
بعض شعراء العصر:

أقول لغمة في النفس مني ◦ ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للهول عدته بحزم ◦ ستلقى ماسيمنك الرقادا
فانك إن بقيت رأيت أمرا ◦ يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى ◦ لقسمته الخليفة والبلادا
رأى مالو تعقبه بعلم ◦ ليض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ◦ خلافهم ويتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ◦ وأورث شمل ألفتهم بدادا
وألقح بينهم حربا عوانا ◦ وسلس لاجتتابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ◦ لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان ◦ وأزرها التضضع والفسادا
ستجرى من دماهم بحور ◦ زواخر لا يرون لها نفاذا
فوزر بلائهم أبدا عليهم ◦ أغيا كان ذلك أم رشادا

وحج الرشيد بعقب ذلك وهناك كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين أحدهما للفقهاء
والقضاة أنفسهم فيهما أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه
والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامّة والشروط لعبد الله على محمد
وعليهم وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد وإشهاده عليه بها
الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده
ووزرائه وكتابه وغيرهم وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام وتقدم
إلى الحجة في حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما وقرى الكتابان
في داخل البيت الحرام بحضور من الآخوين وشهد عليهما الحاضرون
وقد أكد الأمر في العهدين تأكيذا بلغ الغاية من التشديد وأمكن طبيعة الملك
غلبة ما عتم الأمين أن استخلف حتى حاك في صدره ما حاك في صدر أسلافه وهو
تقديم ابنه في ولاية العهد على أخيه وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقواده

بخراسان فأباه طبعاً لأن من ورائه قوة تدفع عنه . وكان من جراء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفضعة التي كانت بين جند الأمين والمأمون وتعطلت المسالك والدروب وحصرت بغداد حصراً شديداً وانتهى الأمر بخلع الأمين ثم قتله وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة في أكثر البلدان الإسلامية ولو كانت لخصومهم من آل علي قوة منظمة لنجحوا وثلوا عرش ملك العباسيين

لم يعهد المأمون إلا لأخيه المعتصم وكذلك المعتصم لم يعهد إلا لابنه الواثق ومات الواثق عن غير عهد فاختير للخلافة أخوه المتوكل اختاره لها كبار الدولة بعد موت الواثق جاء المتوكل وغلط غلطة جده الرشيد فبايع بولاية العهد لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر بالله ومحمد المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهود والآخرة أيضاً وهو لواء العمل فأقطع أكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله والعواصم والثغور جميعها الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والأهواز والسند ومكران ، وأقطع ثانيهما خراسان وما يضاف إليها وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وكور فارس وأقطع ثالثهم جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين

حذا هذا الرجل حذو جده مع ما رأى من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق ثم زاد الطين بلة فعزم في أخريات أيامه أن يخلع المنتصر أكبر الاخوة من ولاية العهد قتلاً المنتصر وجماعة من الأتراك على قتله فقتلوه وتولى المنتصر وبايعه أخواه ولم يلبث أن خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته . فأما المؤيد فقابل ذلك بالسمع والطاعة وأما المعتز فأبى وقال إن أردتم القتل فشاؤنكم . ثم أجاب بعد تهديد ووعد وأشهد كلا الآخرين على نفسه بالخلع القضاة وبنو هاشم والقواد ووجوه الناس هذا مع أن المنتصر لم يكن له ابن كبير يصح أن يلي العهد . وأعقب ذلك موت المنتصر فلم يتمتع بما استعجل به فسات من غير عهد

اختير للخلافة بعده أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم أخرجها الموالي عن أولاد المتوكل خوفاً أن يفتكوا بهم لقتلهم أباهم

اختل نظام الخلافة ببغداد في ذلك الوقت إذ صار كبار الأتراك الذين هم من بقايا المعتصم ومن معهم من رجال الدولة يولون من شاؤوا وبعد زمن يخلعونه ثم

يولون غيره حتى أتى المعتمد بالله وهو الخامس عشر منهم فعهد إلى ابن أخيه أحمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل وعهد المعتضد إلى ابنه المكتفي ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل في الخلفاء حتى جاءت دولة بني بويه وفي عهدهم لم يكن للخلفاء إلا الاسم والتولية والعزل لبني بويه وجميع الخلفاء الذين ولوا في عهدهم خلعوا إلا أحمد القادر بالله فانه طال حكمه وعهد من بعده إلى ابنه القائم

بعد ذلك تسلسلت الخلافة من الخليفة إلى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التار حيث أغار هولاكو خان حفيد جنكيزخان موحد التتر وقتل المستعصم سنة ٦٥٦ و خلاصة القول أن ولاية العهد في النصف الأول من خلافة بني العباس كانت جارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت أحد منهم لوضع نظام لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان . أما البيعة فكانت في الصدر الأول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم زيدت عليها أيمان في أواخر الدولة الأموية وزادت الأيمان كثيرا في أوائل عهد الدولة العباسية ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين اللذين كتبهما الأمين والمأمون وحفظا في البيت الحرام وقد أثار تلك الأيمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الأهمية

(أولاهما) طلاق المكره لأنه لا يخفى أن من ضمن تلك الأيمان يمين الطلاق ومن رأى فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سببا لاهانات شديدة أصابته في عهد المنصور ثاني خلفاء العباسيين وقد تغلب بسبب ذلك رأى فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع

(الثانية) إضافة الطلاق إلى الزوجة التي لم تكن وقت اليمين فان البيعة لم تكن لتكتفي بطلاق الزوجات الموجودات بل تعددت ذلك إلى من يتزوجهن الخالف إلى خمسين سنة أو ثلاثين سنة وكذلك إضافة العتق إلى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة إلى أجل معين أو غير معين . قال فقهاء العراق إن ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الخالف وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعي محمد بن إدريس وقد تغلب طبعاً رأى فقهاء العراق

١ - السفاح

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الممدان الحارثي ولد سنة ١٠٤ بالخميمة وهي القرية التي كان أبوه وجدته نازلين بها وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لابنه إبراهيم ولما أحس إبراهيم باقتراب منيته عهد لأخيه أبي العباس وأمره أن يسير بأعمامه وأهل بيته إلى الكوفة فسار إليها وبويع بالخلافة يوم الخميس ثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة ١٣٢ (١٣٠ أكتوبر سنة ٧٤٩) وكان مروان لا يزال حيا ثم قتل مروان ثلاث بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ (٥ أغسطس سنة ٧٥٠) ومن هذا اليوم يتبدى التاريخ خلافة أبي العباس ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة الأنبار يوم الأحد ثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ١٣٦ (٩ يونيو سنة ٧٥٤) فتكون خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر من لدن بويع إلى أن مات وأربع سنوات وأربعة عشر يوما من لدن قتل مروان

وكان يعاصره في مملكة الروم الشرقية بالقسطنطينية قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) وكان يملك فرنسا في عهده. ابن لبراف من العائلة الثانية الكارلونجيانية ابتداء ملك أبي العباس بالكوفة ومنها انتقل إلى الحيرة ثم إلى الأنبار ولم يكن بنو العباس يثقون بأهل الكوفة لأنهم كانوا يتشيعون لآل أبي طالب

الأحوال الداخلية

لم تكن هزيمة مروان وقتله منتهى متاعب العباسيين فإنه كان لا يزال في الأمة العربية وقواد ضلعهم مع بني أمية ولا يزال عندهم شيء من القوة فكانوا يشورون إما خوفا على أنفسهم من بني العباس الذين أظهروا قسوة شديدة في معاملة مغلوبهم وإما طمعا في إعادة تلك الدولة العربية التي كان لهم منها نصيب وافر قضى أبو العباس أكثر حياته في إخماد تلك الثورات التي كانت كثيرة ولا سيما بالشام والجزيرة والتغلب على يزيد بن هبيرة الذي كان أمير العراق لمروان بن محمد وتحصن بمدينة واسط بعد غلبة العباسيين على الكوفة وما معها

وقد كانت حياته مفعمة بحوادث القسوة التي لم يشهد التاريخ مثلها مع بقايا بني أمية ومع غيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم الأثر المحمود في إحيائها من الناس من إذا ظفر بخصومه قابلهم بالعقوبن ماضيهم واستصلح بذلك قلوبهم ولعمري إن ذلك من عزم الأمور وليس يكون إلا من استشعر من نفسه تمام القدرة ورأى أن سلطانه إنما يتم إذا اختلفت القلوب المتافرة فأما من خاف عود القوة إلى عدوه المغلوب أو كان يرى سلطانه لا يكون إلا على فرقة رعيته فإنه يقسو على من ظفر به قسوة تختلف بحسب الأحوال والاستعداد

انظروا إلى ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينما ظفر بخصومه أهل مكة وهم الذين تحالفوا على قتله وأخرجوه من بلده ثم جردوا السيوف لحربه وهيجوا الأحزاب من قبائل العرب ليكونوا عليه في دار هجرته إنهم فعلوا ذلك لئلا يسكنه لما ظفر بهم في السنة الثامنة من الهجرة قال لهم ما تظنون أنى فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال لهم كما قال يوسف الصديق ﴿ لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ أما بنو العباس فقد قسوا في معاملة بني أمية قسوة ربما لم نجد لها مثلاً في الدول التي قامت على أثر دولة أخرى . فعزل ذلك السفاح بالعراق وعبد الله بن علي بالشام ونهر أبي فطرس وسليمان بن علي بالبصرة وداود ابن علي بالحجاز

فأما السفاح فقد روى أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني بسنده قال كان أبو العباس جالساً في مجلسه على سريره وبنو هاشم ودونه على الكراسي وبنو أمية على الوسائد قد تبيت لهم وكانوا في أيام دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسي فدخل الحاجب فقال يا أمير المؤمنين بالبواب رجل حجازي أسود راكب على نجيب مثلثم يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف ألا يحسر اللثام عن وجهه حتى يراك قال هذا مولاي سديف يدخل فدخل فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه وأنشأ يقول

أصبح الملك ثابت الآساس • بالبهايل من بني العباس
بالصدور المقدمين قديماً • والرؤس القواقم الرؤاس
يا أمير المطهرين من الذم ويا • رأس منتهى كل راس

أنت مهدي هاشم وهداها * كم أناس رجوك بعد إياس
 لاتقبلن عبد شمس عثارا * واقطنن كل رقلة وغراس
 انزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والأتعاس
 خوفهم أظهر التودد منهم * وبهم منكم كحز المواسي
 أنصهم أيها الخليفة واحسم * عنك بالسيف شأفة الأرجاس
 واذكرن مصرع الحسين وزيدا * وقتيلا بجانب المهراس
 والامام الذي بحران أمسى * رهن قبرذي غربة وتناسي

فتغير لون أبي العباس وأصابه زرع ورعدة فالتفت بعض ولد سليمان بن عبد الملك
 إلى رجل منهم فقال قتلنا والله العبد ثم أقبل أبو العباس عليهم وقال يا بني الفواعل
 أرى قتلاكم من أهلي قد سلفوا وأتم أحياء تلتذذون بالدنيا خذوهم فأخذتهم
 الخراسانية بالكفر كوبات فأهدوا إلا ما كان من أمر عبد العزيز بن عمر بن
 عبد العزيز فانه استجار بدادود بن علي فأجاره واستوهبه من السفاح
 وهذا عمل شنيع جدا ولولا تضافر الروايات بالحادثة لما تحملنا عناء تسطيرها
 وقد بلغ الضعف الانساني حده بالرجل ولا يستغرب هذا الفعل من جماعة كان
 من أصولهم قتل أوليائهم لأقل ريبة أو شبهة . وهؤلاء أعداؤهم بالأمس ويخافون
 أن تكون لهم أنصار فيعيدون الحرب جذعة

ودخل سديف هذا على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك فأنشده
 لايفرنك ماترى من أناس * إن تحت الضلوع داء دويا
 فضع السيف وارفع السوط حتى * لاترى فوق ظهرها أمويا
 فأمر السفاح بسليمان فقتل . ومما قاله سديف هذا يهبج السفاح
 كيف بالعفو عنهم وقديما * قتلوكم وهتكوا الحرمات
 أين زيد وأين يحيى بن زيد * يالها من مصيبة وترات
 والامام الذي أصيب بحرا * ن إمام الهدى ورأس الثقات
 قتلوا آل أحمد لاعفا الذنب لمروان غافر السيئات

وأما عبد الله بن علي فكان للامويين منه يوم عصيب بنهر أبي فطرس بالشام
 تتبع من كان بالشام من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم أحد إلا رضيع

أو من هرب إلى الأندلس فقتلهم ولما فرغ من قتلهم قال
 بنى أمية قد أفيتت جمعكم * فكيف لي منكم بالأول الماضي
 يطيب النفس أن النار تجمعكم * عرضتم من لظاها شر معترض
 منيتم لأقال الله عثرتكم * بليت غاب إلى الأعداء نهاض
 إن كان غيظي لفوت منكم فلقد * منيت منكم بما ربي به راضى
 ولم يكفه ذلك بل عمد إلى قبور بني أمية فنبشها حتى يمحوا آثارهم فنبش قبر معاوية
 ابن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطا مثل الهباء ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا
 فيه حطاما كأنه الرماد . ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان
 لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فانه وجد صحيحاً لم
 يبل منه إلا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه بالريح
 وأما سليمان بن علي فانه قتل بالبصرة جماعة منهم أحضرهم وعليهم الثياب المشوية
 فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فقتلوا على الطريق
 وأما داود بن علي فقتل منهم بمكة والمدينة عدداً وافراً وكان قد حضر إلى مكة
 ومعه عدد من بني هاشم وعدد من بني أمية فأنشده إبراهيم بن هرمة قصيدة يقول فيها
 فلا عفا الله عن مروان مظلمة * ولا أمية بئس المجلس البادى
 كانوا كعاد فأسمى الله أهلهم * بمثل ما أهلك الغاوين من عاد
 فلن يكذبني من هاشم أحد * فيما أقول ولو أكرت تعدادى
 فشم عن ساعده في قتل الأمويين حتى لم يبق منهم أحداً لإرضاء لشهوة الانتقام
 التي تمكنت من قلوب بني العباس ولم تخجلهم تلك الوحشية القاسية
 وبما قيل من الكلام الجيد في رثاء هؤلاء التعساء ما قاله مولاهم عبدالله بن عمر العلي
 تقول أمامة لما رأت * نشوزي عن المضجع الأنفس
 وقلة نومي على مضجعي * لدى هجعة الأعين النعس
 أبي ماعراك فقلت الهمو * م عرون أباك فلا تبلى
 لفقد الاحبة إذ نالها * سهام من الحدث المبتس
 رمتها المنون بلا نكل * ولا طائشات ولا نكس
 بأسهمها المتلفات النفو * س متى ما نصب مهجة تخلس

فصر عنهم في نواحي البلا . دملق بأرض ولم يرمس
 تقى أصيب وأثوابه . من العيب والعار لم تدانس
 وآخر قد دس في حفرة . وآخر قد طار لم يحسس
 إذا عن ذكرهم لم ينم . أبوك وأوحش في المجلس
 فذاك الذي غالى فاعلى . ولا تسأل بامرئ متعس
 أدلوا قناني لمن رامها . وقد ألقوا الرغم بالمعطس

وكانت هذه المعاملة الشنيعة سبباً لهروب يعسوبهم عبدالرحمن بن معاوية بن هشام
 ابن عبدالملك إلى المغرب وتأسيسه بها مملكة واسعة الأطراف أعاد فيها مجد بيته وكانت
 تناصى في العلو والاحترام خلافة بنى العباس في المشرق على صغر رقعتها
 لم يزل بنو العباس يسومون بقايا بنى أمية سوء العذاب فاختنق بعضهم وهرب
 بعضهم وكان ممن اختفى عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان فلما رأى
 أنه لا يكون في قبيلة ولا ناحية إلا شهر أمره بها اعتزم أن يفدى حرمه بنفسه وصار
 إلى سليمان بن علي بالبصرة فقال له أصلح الله الأمير لفظتني البلاد إليك ودلني فضلك
 عليك فاما قتلتي غاماً وإما رددتني سالماً فقال ومن أنت ما أعرفك فانتسب له فقال
 سليمان مرحباً بك أقعد فتكلم آمناً غاماً ما حاجتك فقال إن الحرم اللواتي أنت أقرب
 الناس إليهن معنا وأولى الناس بهن بعدنا قد خفن لحوفنا ومن خاف خيف عليه
 فدمعت عينا سليمان ثم قال يا ابن أخي يحقن الله دمك ويحفظك في حرمك ويوفر
 عليك مالك والله لو أمكنتني ذلك في جميع أهلك لفعلت فمكن متوارياً كظاهر وآمناً
 كخائف ولتأتني رفاعك فكان عمرو يكتب إليه كما يكتب الرجل إلى أبيه وعمه . ثم
 كتب سليمان إلى السفاح (يا أمير المؤمنين إنه قد وفد وفد من بنى أمية علينا وإنا
 إنما قتلناهم على عقوبتهم لاعلى أرحاهم فانتا يحمعنا وإياهم عبد مناف والرحم تبل
 ولا تقطع وترفع ولا توضع فان رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لى فليفعل وإن فعل
 فيجعل كتاباً عاماً إلى البلدان نشكر الله تعالى على نعمه عندنا وإحسانه إلينا) فأجابه
 إلى ما سأل فكان هذا أول أمان بنى أمية بعد أن بدد شمل سرواتهم قتلا وتشريداً
 واطمأن من جهتهم بال سفاح ولكن بعد أن فتح على نفسه وعلى من يخلفه بعده
 من آل بيته فتحاً لا يمكنهم رتقه وهو وجود خلافة أخرى إسلامية بالجنوب الغربي

من قارة أوروبا

ولم تكن الشدة في المعاملة قاصرة على أعدائهم بل نال أوليائهم منها شيء عظيم لانسى أن من أعظم الرجال أثراً في قيام هذه الدولة أبا سلة حفص بن سليمان الذي كان يقال له وزير آل محمد. لما تم الأمر لبني العباس اتهموه بأنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل علي بن أبي طالب وكانوا يريدون قتله لكنهم أجبوا مشاورة أبي مسلم في ذلك فبعث السفاح أخاه أبا جعفر إلى خراسان لمقابلة أبي مسلم واستشارته في ذلك فسار أبو جعفر حتى جاء مرو وهناك أخبر أبا مسلم خبر أبي سلة فقال أ كفيكموه ثم انتدب رجلاً وامره أن ينطلق إلى الكوفة فيقتل أبا سلة حيث لقيه فقدم الرجل الكوفة وترى بص لأبي سلة حتى خرج من عند السفاح وقتله غيلة في طريقه وأشاعوا أن الخوارج قتلوه ثم قتل بعد ذلك أبو مسلم جميع عماله بفارس هكذا ذهبت حياة هذا الرجل ذي الأثر الصالح في دولتهم من غير تحقيق أمره ولا استماع لحجته بل فعلوا به فعل من لانظام لهم ولا دولة

وفي هذا الوقت اتهم أبو مسلم بتلك التهمة رجلاً آخر لا يقل أثراً عن أبي سلة وهو سليمان بن كثير الذي قاله في حقه إبراهيم الامام (ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتم به مني) فأحضره وقال له أنحفظ قول الامام لي من اتهمته فاقتله قال نعم قال فاني قد اتهمتك. فقال أنشدك الله قال لاتناشدني الله وأنت منطو على غش الامام فأمر به فضرب عنقه. قتل الرجل بعد استقرار الأمر بمجرد تهمة لم تظهر للناس صحتها ولم تنفعه سابقته ولا حسن أثره

وعلى الجملة فان حياة أبي العباس انقضت كلها في الخلاص من بني أمية والاطمئنان من جهة كل من يرتابون في إخلاصه فسفكت دماء كثيرة وأحدثت قدوة سيئة في نسك العهود واغتتيال المخالفين

وكان أكبر الرجال في عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة ثلاثة رجال (١) أبو مسلم الخراساني بالمشرق (٢) أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق (٣) عبدالله بن علي بالشام ومصر فهؤلاء الثلاثة كانوا أساطين دولته وعلى أيديهم كان كل ما يجري فيها من خير وشر إلا أن هؤلاء الثلاثة لم يكن عندهم إخلاص بعضهم لبعض فان أبا جعفر كان يحسد أبا مسلم على سلطانه النافذ وكتبته المطاعة حتى طلب

من السفاح أن يغتاله وأكثر في ذلك وكاد السفاح يوافقه لولا خوفه من الخراسانية أن يعيدوا الحرب جذعة . وعبد الله بن علي كان يطمع أن تكبرن الخلافة له بعد السفاح لماله من سابق الخدمة في تأسيس الدولة وأنه الذي قام بهزيمة مروان وقطع دابر بني أمية وكان يخاف أن يفوز بها أبو جعفر . فكانت هذه الأفكار سبباً في حوادث جسام سيمر بكم ذكرها

أراد أبو مسلم القدوم من مرو على السفاح فكتب إليه يستأذنه في الحج وأذن له ولما كان السفاح لا يميل إلى تولية أبي مسلم موسم الحج أرسل إلى أخيه أبي جعفر يأمره أن يستأذنه في الحج ففعل وأذن له وبطبيعة الحال ولاء الموسم ولم يكن لأبي مسلم أن يظهر اشمزازه من تقدم أبي جعفر عليه وإن كان قد قال شيئاً من ذلك لبعض خاصته حيث قال أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا

لما وصل أبو مسلم الأنبار قال له السفاح لولا أن أبا جعفر أرسل إلى يستأذني في الحج هذا العام لوليتك الموسم . وقد حج في هذا العام وهو سنة ١٣٦ هـ فخلان ومرا من طريق واحدة يقدم أحدهما الآخر وكان أبو مسلم يظهر من قوته وكرمه في الطريق ما يزيد في حسد أبي جعفر له وكان ذلك من متمات عزمه على الفتك به كان معظم الولاية للسفاح من أعمامه وبني أعمامه . وكان في عهده من الإصلاح الداخلي ضرب المنار والأميال من الكوفة إلى مكة وكانوا يمسحون الأرض بالذراع الهاشمية وعند تمام الميل يكتبون عليه كلمة واحد ثم اثنين وهكذا وقد جعلوا في الطريق منارا به يأمن السارون الضلال في تلك الفيافي وهو عمل عظيم

وكانت قاعدة الخلافة في عهد السفاح الكوفة أولاً ثم انتقل منها إلى الحيرة ثم انتقل أخيراً إلى الأنبار ونقل إليها دواوينه وهي التي مات فيها

ولاية العهد

في سنة ١٣٦ هـ عقد السفاح لأخيه أبي جعفر الخلافة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين ومن بعد أبي جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن علي وكتب العهد بذلك وصيره في ثوب وختم عليه بخاتمته وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى . وقد ابتدأ السفاح بفعله هذا الغلظة الشنيعة التي سبق بها في عهد بني أمية وهي تولية

اثنين العهد وكانت من أسباب ما أصاب بني أمية من الخلاف والفرقة

وفاة السفاح

أصيب السفاح بالجدري وهو بالأنبار وتوفي بها في ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٦ ودفن بالأنبار في قصره وبلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته

٢ — المنصور

هو أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي وأمه أم ولد اسمها سلامة ولد بالخميمة سنة ١٠١ ولما انتقل أبو العباس من الخيمة إلى الكوفة كان فيمن معه . ولما أفضت الخلافة إلى أبي العباس كان عضده الأقوى وساعده الأشد في تدبير الخلافة وفي السنة التي توفي فيها أبو العباس عقد العهد لأخيه أبي جعفر وكان إذ ذاك أميراً على الحج ثم توفي السفاح وأبو جعفر بالحجاز فأخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى وكتب إليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له فلقبه الرسول بإحدى المنازل عائداً بعد انتهاء الحج . وقد تمت البيعة له في اليوم الذي توفي فيه أخوه (٨ يونيو سنة ٧٥٤) واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد سابع ذى الحجة سنة ١٥٨ (٨ أكتوبر سنة ٧٧٥) فكانت خلافته ٢٢ سنة هلالية إلا ستة أيام وكان يعاصره في الأندلس عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨ — ١٧٢)

ويعاصره في فرنسا بابن بيراف ثم شرمسان (٧٦٨ — ٨١٤) ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين الخامس

الأحوال لعهد المنصور

تولى المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها . لم يكن يخاف عليها من الدولة البائدة دولة الأمويين لأنه لم يبق لهم بقية يخاف منها وإنما كان الخوف يتتاب المنصور من ثلاث جهات

الأولى : منافسة عمه عبد الله بن علي له في الأمر لما كان له من نباهة الذكر في بني

العباس ولأنه كان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة
والموصل الذين أمره عليهم السفاح قبل وفاته ليغزو بهم الروم وقد أظهر المنصور
خوفه هذا لأبي مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له

الثانية من عظمة أبي مسلم الخراساني مؤسس الدولة فإنه كان يرى له من الصولة
وشدة التمكن في حياة أخيه ما لم يكن يرى معه لهم أمرا ولا حكما . ومثل المنصور
في علو نفسه لا يرضيه أن يكون له في الأمر شريك ذو سطوة وسلطان مثل أبي مسلم
على أن هناك أمرا آخر ربما كان يدور بخاطره وهو أن يستقل أبو مسلم بأمر
خراسان ويخلع المنصور ثم يختار للخلافة رجلا آخر يكون تحت تصرفه وسلطانه
فيعود الأمر لأهل فارس

الثالثة وهي أقوى هذه الجهات الثلاث خوفه من بنى عمه آل علي بن أبي طالب
الذين لا يزال لهم في قلوب الناس مكان مكين وأخصهم محمد بن عبد الله بن حسن
ابن حسن بن علي بن أبي طالب لما سيأتى بيانه فسكان المنصور يتخوف أن يخرج
عليه طالبا بالخلافة والذي كان يزيد هو اجسه أنه عام حج في حياة أخيه لم يحضره
محمد ولا أخوه إبراهيم ابنا عبد الله مع من شاهده من سائر بنى هاشم
كان المنصور يجمع إلى الجرأة وبعد الهمة المكر والدهاء فعزم أن يضرب أعداءه
بعضهم ببعض حتى يستريح منهم جميعا

عبد الله بن علي

أرسل عيسى بن موسى إلى عبد الله بن علي ببيعة المنصور وعبد الله غاز فأنصرف
بمن معه من الجيوش قد بايع لنفسه حتى بلغ حران . علم بذلك المنصور وقد نزل
الأنبار وجمع بها خزائنه ودواوينه فاستحضر أبا مسلم وسيره لحرب عبد الله فسار
أبو مسلم نحو عبد الله بخران وقد جمع إليه الجنود والسلاح والطعام والعلوفة
وما يصلحه وخذق حول معسكره وكان جنده مؤلفا من أهل الشام والجزيرة وأهل
خراسان تخاف ألا يناصحه أهل خراسان إذا رأوا أبا مسلم مطلقا فقتل منهم نحو
سبعة عشر ألفا أمر صاحب شرطته فقتلهم وربما كان هذا العدد مبالغا فيه ولكنه
على كل حال قتل منهم عددا كبيرا فضضع من قوته وجلل نفسه من العار ما لا يحويه

الزمان باعتدائه الفظيع على جزء عظيم من جنده لم يظهر لهم جرم . ومما دل على قلة حزمه أنه كان من ضمن القواد الذين معه حميد بن قحطبة وهو من كبار القواد في الدولة العباسية فأراد أن يستريح منه ولكنه لم يجرؤ أن يقتله في المعسكر خوفاً من تغير الجند فكتب له كتاباً ووجهه إلى حلب وعليها زفر بن ناصم وفي الكتاب إذا قدم عليك حميد فاضرب عنقه ولما كان حميد ممن لا تغرم هذه الخدعة فك الكتاب في الطريق وقرأه ولما علم ما فيه دعا أناساً من خاصته فأخبرهم الخبر وأفشى إليهم أمره وشاورهم وقال من أراد منكم أن ينجو ويهرب فليسر معي فاني أريد أن آخذ طريق العراق ومن يرد منكم أن يحمل نفسه على السير فلا يفشين سرى وليذهب حيث أحب فاتبعه على ذلك ناس من أصحابه وبذلك فقد عبد الله قائداً محنكاً مثل حميد ترك عبد الله مدينة حران وأقبل إلى نصيبين فاتخذها معسكراً وحصنها فأقبل إليه أبو مسلم وكان داهية قد مارس الحروب ومعه جند مدرب لا يفسد عليه بالعصيان تدييره فأراد أن يحتل موقع عبد الله لخصائمه فكتب إليه إنى لم أؤمر بقتالك ولم أوجه له ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام وإنما أريدها ولم تكن هذه الحيلة لتنتطلي على عبد الله لأنه يعرف مكايده خصمه ولكن جند الشام الذين معه قالوا له كيف نقيم معك وهذا يأتي بلادنا وفيها حرمانا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا ولكننا نخرج إلى بلادنا فنمنع حرمانا وذرارينا ونقاتله إن قاتلنا فقال لهم عبد الله والله ما يريد الشام وما وجه إلا لقتالكم ولئن أقمتم ليأتينكم فلم تطب أنفسهم وأبوا إلا المسير إلى الشام . فارتحل عبد الله متوجهاً إلى الشام وحينئذ تحول أبو مسلم حتى نزل معسكر عبد الله بن علي ولما بلغ ذلك عبد الله علم أن الحيلة قد تمت عليه وعاد فنزل معسكر أبي مسلم

كان أهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدة ولكن المركز الحصين الذي احتله أبو مسلم عوض عليه كثرة عدوه وبذلك استمر القتال بين الفريقين نحو ستة أشهر والحرب بينهما سجال إلا أن القوة راجحة في معسكر أهل الشام حتى إذا كان يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٧ كانت بينهما الموقعة الفاصلة وقد استعمل فيها أبو مسلم دهائه الحربي فاكسب الظفر وذلك أنه أرسل إلى الحسن بن قحطبة وكان على الميمنة أن أعر الميمنة وضم أكثرها إلى الميسرة وليكن في الميمنة

حماة أصحابك فلما رأى ذلك عبد الله أعرى ميسرته لمقاتلة ميمنة أبي مسلم وضم أكثر جنودها إلى الميمنة بازاء ميسرة أبي مسلم ثم أرسل أبو مسلم إلى الحسن أن مر أهل القلب فليحملوا مع من بقي في الميمنة على ميسرة أهل الشام فحملوا عليها فخطموها وجال أهل القلب والميمنة ور كبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة

وهنا فعل عبد الله بن علي فعلا لا يلبق بشرف بنى هاشم وعلو اسمهم في ميادين القتال فانهم كانوا يرون الفرار عارا لا تحتمله الآية فاما ظفر أو قتل ولكن عبد الله قال لأحد قواده ماترى فقال أرى أن تصبر وتقاتل حتى تموت فإن الفرار قبيح بمثلك وقبل عبت على مروان فقلت قبح الله مروان جزع من الموت فقر فلم يعجبه هذا الرأي وفر إلى العراق تاركا معسكره فاحتواه أبو مسلم فأمن الناس ولم يقتل أحدا وأمر بالكف عنهم

أما عبد الله فانه سار إلى البصرة وكان أميرها أخاه سليمان بن علي فأواه وأقام عنده مدة متواريا ولما علم المنصور بذلك أرسل إلى سليمان يأمره باشخاص عبد الله ابن علي إليه وأعطاه من الأمان لعبد الله مارضيه ووثقه بخرجه به سليمان حتى قدم به إلى المنصور سنة ١٣٩ فأمر بحبسه وحبس من كان معه ثم أمر بقتل بعضهم وأرسل آخرين منهم إلى خراسان فقتلوا هناك واستمر عبد الله في حبسه حتى مات سنة ١٤٧ هذه كانت خاتمة حياة ذلك البطل الذي كان على يده أكبر عمل في تأسيس الدولة العباسية كما كان على يده أكبر الفضائع في إهلاك البقايا من بنى أمية ولا ننجيم عن إظهار نفورنا من هذه الطرق التي يلجأ إليها ذوو الخداع والمكر لتنفيذ أغراضهم وتأيد ملكهم غير ناظرين إلى النتائج الخبيثة التي تجلب الشر على أمتهم فان المنصور لم يعبا بتلك المواثيق التي أعطاها لعبد الله واستخف بها كما استخف بأمان بن هيرة قبل ذلك كما أنا لاننجيم عن أن نقول إن عبد الله ختم حياته شر ختام بهر به من ميدان القتال فإن طلاب العظام إذا حال القدر بينهم وبينها لا يرضون الدنية لأنفسهم ويموتون دون العار الذي يلحقهم ويلحق أهل بيتهم بسببهم

أبو مسلم

استراح المنصور من عبد الله بن علي على يد أبي مسلم فوجه المهمة إلى الراحة من

هذا العدو الثاني الذي لا يطعن على ملكه وهو حى لأنه أصبح صاحب الشوكة والسلطان فى الدولة وليس المنصور من يمكنه الصبر على ذلك ، والذى زاد الأمر عنده أنه قد ألقى إليه أن أبامسلم لا يحترم كتبه ويستزىء بها إذا وردت إليه فضم على الفتك بأبى مسلم

حصلت حادثة أوقعت الريبة فى قلب أبى مسلم وذلك أنه بعد تمام الهزيمة أرسل المنصور من قبله رسولا ليحصى المغنم التى غنمت من عبد الله فلما ورد الرسول المعسكر غضب أبومسلم وكاد يقتل الرسول لولا أن قيل له ماذنبه إنما هو رسول نغلى سيده ولم يمكنه مما جاء له وقال أكون أمينا على الدماء غير أمين على الأموال فعاد الرسول وأخبر المنصور ، لم يكن يجب أن تدخل أبامسلم أقل ريبة منه لخوفه أن يمضى إلى خراسان وبذلك لا يتمكن منه إلا بعد معاناة شداثد يريد اختصارها وليأمن من ذلك كتب إلى أبى مسلم (إنى قد وليتكم مصر والشام فهى خير لك من خراسان فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب) فلما جاء الكتاب أبامسلم غضب وقال هو يولبنى الشام ومصر وخراسان لى وصمم على المضى إلى خراسان وأقبل من الجزيرة بمجمعا على الخلاف مريدا خراسان . رأى المنصور أنه لم يبق إلا استعمال الدهاء لايقاع أبى مسلم فى فخ ينضبه له حتى لا يثير حربا شعواء لا تعلم نتيجتها فتوجه إلى المدائن وكتب إلى أبى مسلم بالمصير إليه فكتب إليه أبومسلم (إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نأفرون من قربك حريصون على الوفاء لك بعهدك ماوفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك فإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ماأبرمت من عهدك ضنا بنفسى) وهذا الكتاب مما زاد النار اشتعالا فى قلب المنصور لأنه كتاب رجل مدل بما له من القوة حتى وضع نفسه قرنا للخليفة إدلالا بمر كزه وسابقتها فى إقامة دعائم الخلافة العباسية فكتب إليه المنصور (قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فانما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة فلم سويت نفسك

بهم فانت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سماع ولاطاعة وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أو كد وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك)

أرسل هذا الكتاب مع عيسى بن موسى ووجه معه أباحميد المروزي وأمره أن يكلم أبا مسلم بألين مايكلم به أحدا وأن يمينه فان أبي قاله — يقول لك أمير المؤمنين لست للعباس وأنا برى من محمد إن مضيت مشاقا ولم تأتني إن وكلت أمرك لأحد سراي وإن لم أَل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها وراءك حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك

سار أبو حميد حتى ورد على أبي مسلم فكلمه كلاما رقيقا فيه نصيحة وتذكير بحقوق الامام وتخويف من تفريق الكلمة فاستشار أبو مسلم محتضيه فأشاروا عليه بالألا يقدم على المنصور لأنه لم يعد يأمنه بعد أن وقع في نفسه ما وقع فقال لأبي حميد ارجع إلى صاحبك فليس من رأي أن آتية وحينئذ بلغه أبو حميد الرسالة الاخيرة فوجم لها أبو مسلم لأن هؤلاء الجبابرة يعترهم طائف من الجن إذا هم وصلوا إلى قمة علوهم فمثل هذه الكلمات القاسية من المنصور جعلته يخنع ويلين والذي زاده حيرة وارتباكا ما فعله المنصور من التدبير العظيم الذي يضعف آمال أبي مسلم من خراسان وجنودها ذلك أنه كتب إلى خليفة أبي مسلم على جند خراسان يعطيه إمارة خراسان ماعاش ولا شيء أكبر من ذلك يقطع صلته بأبي مسلم فكتب إليه حين بلغته الاخبار بقرب مجيئه إلى خراسان (إنما لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فلاتخالفن إمامك ولا ترجعن إلا باذنه) فوافاه هذا الكتاب حين مجىء رسالة المنصور فزاده ذلك رعبا ولم يجد بدا من أن يحول وجهه عن خراسان ويقصد المنصور . كان المنصور مصمما على قتل أبي مسلم ولكن اجتهد أن يكون الرجل آمنا لا يحس بشيء من الجفاء فلما قارب أبو مسلم المدائن أمر الناس وبنى هاشم فنلقوه حتى إذا دخل على المنصور سلم عليه سلاما لا يشوبه شيء مخيف وأمره أن ينصرف ويزيل وعثاء السفر ويستريح ليلة . ولما جاء الغد أمر عثمان بن نهيك رئيس الشرطة بجاء بأربعة

رجال من الحرس وأمرهم أن يكونوا خلف الرواق فإذا هو صفق خرجوا فقتلوا
 أبا مسلم . ثم دعاه فدخل عليه فأقبل يحدثه . ومن تمام تدييره أنه شرع يسأله عن نصلين
 أصابهما في متاع عبدالله بن علي فقال هذا أحدهما للذي هو معه فقال المنصور أرنيه
 فانتضاه وناوله إياه فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه وإنما فعل ذلك ليأمن
 على نفسه أن يفتك به أبو مسلم إذا أحس بالشر ثم صار يسأله عن أشياء أخذها عليه
 وأخيرا سأله عن سبب قصده خراسان مراغما فقال دع هذا فما أصبحت أخاف
 أحدا إلا الله فصفق حيثئذ المنصور بيديه فخرج أولئك الحرس الأربعة فاعتوروه
 بسيوفهم حتى ذهب نفسه . ثم أراد أن يفرق الجمع الذي أقبل مع أبي مسلم فأعطاهم
 جوائز أهلتهم عن التفكير في الخلاف ثم أرسل إلى القواد الذين في جيش أبي مسلم
 جوائز سنوية وأرضى جميع الجند حتى رضوا

وبقتل أبي مسلم عرف المنصور أنه ابتدأ سلطانه الحقيقي الذي لا يشارك فيه ولم
 يأس على أبي مسلم لأنه رأى أمام نظره كثيرين من القواد يقومون مقامه
 من الضروري أن ننبه الأفكار إلى أن نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء
 وأسسوا ملكهم انتهت حياتهم في الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبي مسلم وسبب
 ذلك أن هؤلاء القواد يكونون في بادئ الأمر ذوى الكلمة المسموعة والسلطان
 الواسع بين جنودهم لأنهم هم المباشرون للحروب والوقائع وهم الذين يقدمون للجند
 أعطياتهم فإذا ساعدتهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصارات الباهرة وقامت الدولة
 بياسهم وشدة حزمهم لم يكن لنفوذهم في الدولة حد يقفون عنده لأنهم يرون أن
 الأمر إنما جاء لصاحبهم بفضل مجهودهم الذي بذلوه فإذا كان الخليفة بعيد المهمة ذكى
 القواد لم يسعه أن يحمل كل هذا وإذا أُلجأته الضرورة حمله على مضض وإذا أمكنته
 الفرصة لم يتأخر عن انتهازها . وليس من طبيعة القائد الفاتح أن يضرب صفحا عماله
 من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت إدراكها

ومع ما بدا من أبي مسلم من العسف الشديد لا نبخسه حقه ولا نتأخر عن الاعتراف
 بأنه كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام ولو كانت الضحايا التي ذهبت
 في تأسيس الدولة أقل مما ضحى لعددها من كبار السواس إلا أنه سفك دماء كثيرة
 وكانت التهمة في نظره كافية لازهاق نفس المتهم فثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات

والدهاء. ولكن لانصفه بحسن السياسة وما رأيت أجهل من أبي مسلم في قدومه على المنصور بعد ما احتج به على سليمان بن كثير شيخ الدعوة بقوله أتذكر قول الامام لي من اتهمته فاقتله. فاذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها واجبا أفلا يكون فيما صنعه مع أبي جعفر ما يدعو إلى الرية فيه واستحقاقه القتل فهو إذا كان قادما على القتل بمقتضى أصل كثيرا مانفذه ولذا لا يكون قتله محلا للنظر والاستغراب (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون)

محمد بن عبد الله وبنو الحسن بن علي

قدمنا أن المتشيعين لآل البيت كانوا فرقا ثلاثة فرقة ترى أن امام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وهؤلاء امامية وكانوا يتولون إلى وقت المنصور جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق. وفرقة ترى أن امام المسلمين يكون من بنى فاطمة إلا أنه معين بالوصف لا بالاسم وهؤلاء امامية زيدية يرون الخروج مع كل من دعا إلى نفسه من بنى فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب أن تكون في الامام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك وهم نصراء زيد بن علي وابنه يحيى. وفرقة ترى امامة أهل البيت من غير تقييد بنى فاطمة وهم الذين نصروا بنى العباس وكانت الفرقتان الأوليان منتشرتين في كثير من الاقاليم العربية والأعجمية وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مهمة لأنها كانت إلى الرضا من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعائها نفس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدوهم غاصبين للأمر كما عدوا بنى أمية من قبلهم وأعظمهم في ذلك رجلا زأحدهما جعفر الصادق امام الامامية. ولكنه رضى بما تم ولم يحرك ساكنا وكان يوصى أصحابه بالخلود إلى السكنينة لأنه لم ير فرصة معقولة وثانيهما محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهذا كان أطمع في الأمر لما زعموه من أن بنى هاشم اتخبوه للخلافة وبايعوه لها في أواخر عهد بنى أمية وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لأبى العباس ولا لأبى جعفر ولما حج أبو جعفر في عهد أخيه حضره بالمدينة بنو هاشم جميعا إلا محمد بن عبدالله وأخاه إبراهيم فسأل المنصور عنهما فقال له زياد بن عبيد الله

الحارثي أمير المدينة ما يهكم من أمرهما أنا آتيك بهما فضمنته إياهما وأبقاه عاملاً على المدينة . ثم انه دعا بني هاشم رجلاً رجلاً كلهم يخليه فيسأله عن محمد فيقول يا أمير المؤمنين قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك معصية وما أشبه هذه المقالة لإلحس بن زيد بن حسن بن علي فإنه أخبره خبره وقال والله ما آمن وثوبه عليك فر رأيتك فأيقظ بقوله من لا ينام

صار المنصور يَحْتال بأنواع الحيل ليعرف الأخبار عن محمد واستخراج ما عند أبيه عبد الله بن حسن من أخباره ولما علم أن عبد الله يعرف نية ابنه حج سنة ١٤٠ وسأل عبد الله عن ابنه فأنكر أن يكون عنده علم بهما فتيقن المنصور كذبه وحبسه وصادر أمواله

لم ير المنصور بعد ذلك من ابن زياد صدقا في الحصول على محمد وإبراهيم فعزله وولى بدله على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري وبسط يده في النفقة في طلبه فأنفق كثيراً من المال في هذه السيل وبحث بحثاً كثيراً في المدينة وخارجها فلم يصل إلى نتيجة فعزله المنصور وأشير عليه أن يولى المدينة رجلاً من آل الزبير ليكون ما بين آل الزبير وآل علي من العداوة سائماً له إلى البحث الشديد والجد في الأمر فلم يرق هذا في عيني المنصور وقال أعاهد الله إلا أثار من أهل بيتي بعدوى وعدوهم ولكن أبعث عليهم صلوكاً من صعاليك العرب فولى على المدينة رياح بن عثمان بن حيان المرى فورد المدينة في شهر رمضان سنة ١٤٤ وهو عازم على عسف الأعراب الذين يستخفي محمد بن عبد الله عندهم فكان أول شيء فعله أن استهان بمحمد بن خالد القسري الذي كان قبله والياً وعذبه هو وكاتبه ثم أرهق محمد بن عبد الله طلباً حتى لقي شداً ما كان يراها في عهد أسلافه من ولاية المدينة فقال في ذلك

منخرق السربال يشكو الوجي • تنكبه أطراف مر وحداد

شردة الخوف وأزرى به • كذاك من بكره حر الجلال

قد كان في الموت له راحة • والموت حتم في رقاب العباد

وزاد المنصور في إرهاب محمد فأمر بأخذ بني الحسن كلهم نحو ثلاثة عشر رجلاً وحبسهم بالمدينة ولما علم محمد بذلك جاء إلى أمه هند وقال لها إني قد حملت أبي وعمومي

ملا طاقة لهم به ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم فعسى أن يخلى عنهم . فتكرت هند ولبست أطماراً ثم جاءت السجن كهيئة الرسول فأذن لها فلما رآها عبد الله أبو محمد أثبتها فنهض إليها فأخبرته بما قال محمد فقال كلا بل نصبر فوالله إنى لأرجو أن يفتح الله به خيراً قولى له فليدع إلى أمره وليجد فيه فان فرجنا بيد الله : فانصرفت وتم محمد على اختفائه

لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح بالمدينة حتى حج أبو جعفر سنة ١٤٤ فلما لم يجد عندهم ما يبرد غلته من جهة محمد وأخيه إبراهيم أمر بحملهم إلى العراق وأشخص معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخو بنى حسن بن حسن لأهمهم أمهم جميعاً فاطمة بنت حسين بن علي وكان إبراهيم بن عبد الله صهره على ابنته حملوا مقيدين بالأغلال والأثقال وسير بهم على شر ما يكون حتى أتى بهم العراق فحبسوا بقصر ابن هبيرة وهو بلد شرقي الكوفة مما يلي بغداد على نهر الفرات . وقد استعمل معهم المنصور من الفظائع مالا طاقة للإنسان على تسطيره وكان عظم فظائعه مع محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وكانت نتيجة هذا الحبس الشديد أن مات أكثرهم في الحبس مع أن بنى العباس ملؤا الدنيا تهويلاً ورياء بأنهم خرجوا انتقاماً من قتل الحسين بن علي وزيد بن حسن ويحيى بن زيد وهؤلاء إنما قتلوا في ميادين القتال وهم خارجون ولم يقتل بنو أمية أحداً من آل علي بالشكل الفظيع الذى ذهب به بنو حسن في عهد بنى عمهم من آل العباس

كانت نتيجة هذا الاحراج وهذه الفظائع أن عزم محمد على الظهور بالمدينة وتحدث أهلها بذلك وعلم به رياح أمير المدينة فأحب أن يعد عدته لذلك فعوجل . دخل محمد المدينة ومعه ٢٥٠ رجل فأتى السجن ففتحه وأخرج من فيه ولم يقاومه أهل المدينة بل أعانوه وخذلوا رياحا وكان خروجه في أول يوم من رجب سنة ١٤٥ وبعد أن استولى على البلد صعد منبر الحرم وقال (أيها الناس إنه كان من أمرنا وأمر الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معانداً لله فى ملكه وتصغيراً للسكبة الحرام وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المؤمنين اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرّموا حلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت اللهم

فأحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا أيها الناس إني والله ما خرجت بين أظهركم وأتمت عندي أهل قوة ولا شدة ولكن اخترتكم لنفسي والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذت لي فيه البيعة)

وكان الذي أوقع محمدا في هذا الغلط وجعله يفهم أن دعوته البقاع أن المنصور كان يكتب لمحمد على ألسن قواده يدعوونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه فكان محمد يقول لو التقينا مال إلى القواد كلهم فهذا الذي جعله يظن هذا الظن . وما زاده خطأ في قدر قوة نفسه أنه كان متفقا مع أخيه إبراهيم أن يخرج بالبصرة في اليوم الذي يخرج فيه محمد بالمدينة حتى يهول أمرهما أبا جعفر ففت ذلك في عضده ولكن إبراهيم لم يخرج هذا اليوم لمرض أصابه أو أن محمدا سبق الميعاد والنتيجة أنهما لم يخرجوا معا . وأعظم خطر على الإنسان ما يصيبه من قبل فهمه في نفسه فانه إذا خاض العظام وهو يظن لنفسه من القوة ما ليس لها كان حريا بالفشل والحياة

على أنه فضلا عن ذلك كله جعل نفسه محصورا بالمدينة وهي ليست بمرکز حربي يمكن القائد أن يبقى فيه على الدفاع طويلا وحياتها من خارجها فلا تحمل الحصار إلا قليلا فلم يكن محمد موقفا في تدبيره مع ما كان يتحلى به من الحصال التي كانت ترفعه في أعين أهل المدينة على أبي جعفر فانهم كانوا لا يرون فيه غشم أبي جعفر ولا ميله للعسف والظلم بل كان يكره سفك الدماء ويتجنبه ما وجد إلى ذلك سبيلا ويحب الخير للناس وكان لذلك يلعب عندهم بالنفس الزكية وبالمهدي . ولما استفتى مالك إمام دار الهجرة في الخروج مع محمد وقيل له إن في أعناقنا بيعة للمنصور قال إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين واسكن هذا كله لا يفيد مع ضعف المركز الطبيعي ولذا قال له محمد بن خالد القسري لما ظهر أنك قد خرجت في هذا البلد والله لو وقف على نقم من أنقابه لمسات أهله جوعا وعطشا فانقض معي فانما هي عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف فأبى عليه ذلك . ولما علم المنصور بخروجه قال للربيع بن عبيد الله بن عبد المدان خرج محمد . فقال أين قال بالمدينة فقال الربيع هلك والله خرج في غير عدد ولا رجال

كان المنصور حين بلوغه الخبر مشتغلا ببناء بغداد فسار إلى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه لأن أهلها شيعة آل علي ويخاف منهم أن يخرجوا لمساعدة محمد فأقبل أبوابها

حتى لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد . ثم أحب أن يرسل محمدا قبل الحرب فكتب إليه كتابا هذه نسخته ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله . أما بعد فأنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم . ولك عهد الله وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تبنت من قبل أن أقدر عليك أن أومنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك وأن أعطيتك ألف ألف درهم وأن أزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ما شئت من الحاجات وأن أطلق من في سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتبع أحدا منكم بمكروه فإن شئت أن تتوكل لنفسك فوجه إلى من يأخذك من الميثاق والعهد والامان ما أحببت والسلام ﴾

فكتب إليه محمد بن عبد الله ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد . أما بعد طسم تلك آيات الكتاب المبين تتلوا عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وأنا أعرض عليك من الامان مثل الذي أعطيتني وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلنا وإن أبانا عليا عليه السلام كان الوصى والامام فكيف ورثتموه دوننا ونحى أحياء وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسبينا وأنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم وبنو ابنته فاطمة في الاسلام من بينكم فأنا أوسط بني هاشم نسبا وخيرهم أما وأبالم تلدني العجم ولم تعرف في أمهات الأولاد وان الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا فولدني من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه أقدمهم إسلاما وأوسعهم علما وأكثرهم

جهادا على بن أبي طالب ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين في الاسلام الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة ثم عدلت أن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل جدى الحسن والحسين فزال الله يختار لي حتى اختار لي في النار فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذابا فأنا ابن خير الأختيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك عهد الله إن دخلت في بيعتي أن أوثمك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حدا من حدود الله أو حقا لمسلم أو معاهد فقد عدلت ما يلزمك في ذلك فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى لقبول الأمان فأما أمانك الذى عرضت على فأى الأمانات هو أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم والسلام

فكتب إليه أبو جعفر (بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله أما بعد فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك فاذا جل غمرك بالنساء لتضل به الجفأة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعصبة والأولياء ولقد جعل العم أباً وبدأ به على الوالد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام واتبعت ملة أبائى إبراهيم واسحاق ويعقوب . ولقد عدلت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا ﷺ وعمومته أربعة فأجابه اثنان أحدهما أبى وكفر به اثنان أحدهما أبوك فأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب فإن الله لم يهد من ولدها أحداً إلى الاسلام ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى وأسعدهم بدخول الجنة غداً ولكن الله أبى ذلك فقال إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء . فأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن وإن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبدالمطلب ولد الحسن مرتين فخير الأولين والآخرين محمد ﷺ لم يلبده هاشم إلا مرة واحدة ولم يلبده عبد المطلب إلا مرة واحدة وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله فإن الله عز وجل أبى ذلك فقال

(ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ولكنكم بنو ابنته وإنها لقربة قريبة غير أنها لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الامامة من قبلها ولقد طلب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضاها سرأ ودفنها ليلاً فأبى الناس إلا تقديم الشيخين ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله ﷺ فأمر بالصلاة غيره ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان في أصحاب الشورى فكل دفعه عنها بايع عبدالرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابيه دونه ثم بايع معاوية بعده وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلبه إلى معاوية بخرق ودرهم وأسلم في يديه شيعته وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ ما لا من غير حله فان كان لكم شيء فقد بعموه . فأما قولك إن الله اختار لك في الكفر لجعل أباك أهون أهل النار عذاباً فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار ويسترد فتعلم (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) . وأما قولك إنك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد وأنك أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أما وأباً فقد رأيتك نخرت على بني هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخرأ وأصلاً وفضلاً نخرت على إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والد ولده فانظر ويحك أين تكون من الله غداً وما ولد فيكم مولود بعد رسول صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن الحسين وهو لأم ولد ولقد كان خيراً من جدك حسن ابن حسن ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك وجدته أم ولد ثم ابنه جعفر خير منك . ولقد علمت أن جدك علياً حكماً حكيماً وأعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه . ثم خرج عمك الحسين بن علي على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بك على الأقباب بغير أوطية كالسبي المحلوب إلى الشام ثم خرج منكم غير واحد قتلتمكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بتأركم إذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلوات المكتوبة كما تلعن الكفرة فعنفناهم وكفروناهم وبيننا فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا لما ذكرنا من فضل علي أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر كل أولئك مضوا

سالمين مسلما منهم وابتلى أبوك بالدماء . ولقد علمت أن ما أثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون إخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر . وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد حيا إلا العباس فكان وارثه دون نبي عبد المطلب . وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القديم والحديث . ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات عمك طالب وعقيل جوعا أو يلحسا جفان عتبة وشيبة فأذهب عنهما العار والشنار . ولقد جاء الاسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التي أصابتهم ثم فدى عقيل يوم بدر فقدد مناكم في الكفر وفديناكم من الأسر وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحرزنا شرف الآباء وأدر كنا من ثاركم ما عجزتم عنه ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام)

بعد هذه المكاتبة التي لم تجد إلا إظهار العيوب لم يكن إلا الجسد في الأمر وكان المنصور يتخوف أن يبلغ خروج محمد أهل خراسان فتنفسد قلوبهم فكان يعمى الأخبار عليهم . واختار لمناضلة محمد عيسى بن موسى الذي كان السفاح جعله ولي عهد بعد المنصور فقال عيسى للمنصور شاور عمومتهك فقال امض أيها الرجل فوالله ما يراد غيري وغيرك وما هو إلا أن أشخص أو أشخص وزود عيسى بوصية يحمدها عليها إذ قال يا عيسى إني بعثتك إلى مابين هذين (وأشار إلى جنبيه) فان ظفرت بالرجل فشم سيفك وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به فانهم يعرفون مذاهبه . وجهز المنصور الجيش أحسن جهاز فلما وصل إلى فديبعث إلى رجال من أهل المدينة في خرق من الحرير فلما وردت كتبه المدينة تفرق ناس عن محمد وخرج بعضهم إلى عيسى ومنهم ناس من آل علي

ولما شعر محمد بقرب عيسى بن موسى خندق حول المدينة أما عيسى فانه أقبل بمجنوده حتى وصل إلى المدينة وهناك أرسل فصيلة من جنوده تحرس طريق مكة حتى إذا أراد محمد الحرب إليها لم يجد طريقا وكان نزول عيسى على المدينة في ١٢ رمضان سنة ١٤٥ وقبل اللقاء قدم دعوة محمد إلى الخضوع فلم يجبه ثم دارت الموقعة بين الفريقين وقد ظهرت شجاعة محمد بن عبد الله ظهورا عظيما ولكن عدوه كان عظيما فلم

يلبث أن قتل وظهرت الأعلام السوداء على مرتفعات المدينة وعلى منارة المسجد النبوي فسلم المحاربون وكان قتل محمد لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان .
وعند ذلك أرسل عيسى إلى أبي جعفر ببشارة الفتح وبرأس محمد بن عبد الله وأمن المدينة وأهلها وفي ١٩ رمضان شخص يريد مكة بعد أن قبض أموال بني حسن كلها وكان مكث محمد منذ قام إلى أن قتل شهرين و ١٧ يوما

إبراهيم بن عبد الله

هو أخو محمد دخل البصرة ودعا الناس سرا إلى أخيه فبايعه كثير من أهلها وأجابه قتيان من العرب وكان أبو جعفر يظن أنه يخرج بها فانه لما بلغه خروج محمد بالمدينة استشار جعفر بن حنظلة البهراني وكان صاحب رأى فقال حصن البصرة لأن محمدا ظهر بالمدينة وليسوا أهل حرب بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم وأهل الكوفة تحت قدمك وأهل الشام أعداء آل أبي طالب فلم يبق إلا البصرة فاهتم بارسال الجنود وإقامة المسالخ بين الكوفة والبصرة لئلا يخرج أهل الكوفة لمساعدة إبراهيم ظهر إبراهيم بالبصرة واستولى عليها وعلى ما قرب منها والأهواز وواسط ولم يزل على أمره ذلك حتى أتاه نعي أخيه محمد قبل فطر سنة ١٤٥ بثلاثة أيام فصلى بالناس يوم الفطر وعليه أثر الانكسار

أرسل أبو جعفر إلى عيسى بن موسى يستحثه للقدوم ليتولى حرب إبراهيم فجاء مسرعا وسار نحو البصرة وخرج إبراهيم لملاقاته فالتقيا عند باخرى وكانت العاقبة لعيسى فقتل إبراهيم لخمس ليال بقين من ذي القعدة سنة ١٤٥

وكان محمد وأخوه إبراهيم من أحسن الطالبين خلقا وأنظفهم تاريخا لم يعرف عنهما ما يشينهما في معاملة الناس وفي صدق العزيمة إلا أن الحظ خانهما . وللتصور خطبة نفيسة يبررها عمله مع بني الحسن أمام شيعته من أهل خراسان وغيرهم قال فيها (يا أهل خراسان أتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تر كناهم والذي لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام علي بن أبي طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافتقرت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه

شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده ابنه الحسن فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الأموال فقبلها فندس إليه معاوية إني أجعلك ولي عهدى من بعدى فخدعه فانسخ له مما كان فيه وسله إليه فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والنفاق والاغراق والفتن أهل هذه المدرة السوداء (وأشار إلى الكوفة) فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا سلم فأسلمها فرق الله بيني وبينها فخذلوه وأسلوه . ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وغروه فلما أخرجوه أظهروه وأسلوه وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج وسأله أن لا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال إننا نجد في بعض عدنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب وناشده عمي داود بن علي وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو أمية فأما تواسرنا وأذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله لإفهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشرارة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحكمكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره فقطع دابر القوم الذين ظلوا والحمد لله رب العالمين فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا على وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجن

إني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة بلغني عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجلا فقلت قم يا فلان قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثلا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فندسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحلت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين) ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه

الآية (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب) وقد بقيت بقايا بني الحسن مشردين في عهد أبي جعفر بعد أن قتل منهم من قتل ومات من مات وحبس من حبس ومن غريب مارأيت من رواية محمد بن جرير الطبري أن المهدي آلت إليه خزانة مما خلف والده فدخلها مع زوجته ربيعة فاذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبين وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم وإذافهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ عدة كثيرة فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى وأمر حفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان اه هذه كبرى الحوادث التي حصلت لعهد المنصور

وكانت الطريقة التي تداربها البلاد لا تختلف عن طريقة بني أمية فكان في كل ولاية وال يعينه الخليفة وأعماله هي إقامة الصلاة للسلمين وجهاد العدو وجباية الخراج وحفظ الأمن وفصل الخصومات بين الناس وقد كان الوالي تسند إليه أحيانا هذه الأمور الخمسة فيكون إمام القوم وقائد الجنود ويتدب للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلا للقيام بها وأحيانا يكون إليه الصلاة والشرطة والجهاد والخراج ويكون للحرب أمير آخر مستقل عن أمير الصلاة ويعين القاضي من قبل الخليفة رأسا ولم تكن الولايات متعينة العدد بل تارة يضم ولايتان إلى وال واحد وتارة يفصل بينهما حسب ما يراه الخليفة في مقدرة الوالي فكان أبو مسلم مثلا والي خراسان كلها وبلاد الري والجيل وعليها ولاية من قبله . وكان أكثر الولاة لعهد المنصور من أهل بيته ومن اصطنعهم من العرب والموالي ولم يكونوا يحبون أن تطول مدة الوالي في ولاية ولا سيما في الأطراف كمصر وخراسان خوفا أن تحدته نفسه بالاستقلال عن الخليفة وقد حصلت من ذلك حوادث في خراسان تلافها المنصور بحيلته وقوته وجميع أمور الولايات ترجع إلى الخليفة الذي هو صاحب الأمر المطاع ومعينوه هم : (أولا) الوزير، والوزارة لم تكن معروفة بهذا الاسم في عهد الدولة الأموية وأول من سمي بها لعهد أبي العباس السفاح أبو سلمة الخلال شيخ الدعوة بالكوفة فقد كان يعرف بوزير آل محمد وأصله مولى لبني الحرث بن كعب وكان سمحا كريما مطعاما كثير البذل مشغوبا بالتوق في السلاح والدواب فصيحيا عالما بالأخبار والأشعار والسير والجدل والتفسير حاضر الحجة ذا يسار ومروءة ظاهرة وقد قدمنا

خبر اتهامه بالميل لآل علي ومقتله بسبب ذلك فقال شاعر في رثائه
 إن الوزير وزير آل محمد ه أودى فمن يشترك كان وزيرا
 إن السلامة قد تبين وربما ه كان السرور بما كرهت جديرا
 فاستوزر السفاح بعده أبا الجهم إلى أن مات السفاح وولى المنصور فكان في
 نفسه منه أشياء فيقال إنه سمه والصحيح أن السفاح استوزر بعد أبي سلة خالد
 ابن برمك جد البرامكة الذين ظهر مجدهم في عهد هرون الرشيد وكان خالد من رجال
 الدعوة العباسية الذين أقاموا دولتها وهو من أبناء رؤساء الفرس الذين كانت إليهم
 بيوت العبادة قبل شيوع الاسلام بالبلاد الفارسية وهو أول من اعتنق الاسلام
 من أهل بيته وكان خالد فاضلا كريما حازما يقظا استوزره السفاح ويقال إنه لم
 يكن يتسمى باسم الوزير تطيرا مما جرى على أبي سلة فكان يعمل عمل الوزراء
 ولا يسمى وزيرا

لما تولى المنصور لم تكن للوزارة في أيامه أهبة ولا كبير قدر لما كان موصوفا به
 من الاستبداد بأموره أبقى في وزارته طالدا مدة ليست بالطويلة ثم أعفاه وولى :

أبا أيوب سليمان بن أبي سليمان مخلص الخوزي

وموريان قرية من قرى الأهواز كان في أواخر دولة بني أمية كاتباً لسليمان بن
 حبيب بن المهلب بن أبي صفرة وكان المنصور في ذلك الزمن ينوب عن سليمان هذا
 في بعض كور فارس فاتهمه بأنه احتجز مالا لنفسه فضربه بالسياط ضربا شديدا
 وكان يريد الفتك به بعد ضربه فخلصه منه أبو أيوب فاعتدها المنصور يدأ له فضلا
 عما عرف به أبو أيوب من المقدرة والنباهة فاستوزره المنصور وخف على قلبه
 وتمكن منه وكان مع هذا يخشى المنصور جدا وترعد فرائضه إذا دعاه إليه . روى
 ابن خلدان أن خالد بن يزيد الأرقط قال بينا أبو أيوب جالس في أمره ونهيه أتاه
 رسول المنصور فتغير لونه فلما رجع تعجبنا من حالته فضرب مثلا لذلك وقال
 زعموا أن البازي قال للديك ماني الأرض حيوان أقل وفاء منك قال وكيف ذلك
 قال أخذك أهلك بيضة فحزنوك ثم خرجت على أيديهم وأطعموك في أكفهم ونشأت
 بينهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت ههنا وههنا وصوت

وأخذت أنا مسنا من الجبال فغلبوني وألفوني ثم يخلى عني فأخذ صيدا في الهواء وأجى به إلى صاحبي فقال له الديك إنك لورأيت من البزاة في سفافيدهم المعدة للشيء مثل الذي رأيت من الديوك لكنت أنفرمني ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي مع ماترون من تمكن حالي

وقد كان ماخافه أبو أيوب فان المنصور غضب عليه سنة ١٥٣ وعذبه وأخذ أمواله وحبس أخاه وبني أخيه سعيدا ومسعودا ومخلدا ومحمدا وطالهم وكانت منازلهم المناذر وقد قال في هذه النكبة أحد شعراء العصر

قد وجدنا الملوك تحسد من أعطته طوعا أزمة التدبير

فاذا مارأوا له النهى والأمرأتوه من بأسهم بنكير

شرب الكأس بعد حفص سليمان ودارت عليه كف المدير

ونجا خالد بن برمك منها إذ دعوه من بعدها بالأمير

أسوأ العالمين حالا لديهم من تسمى بكتاب أووزير

وهذه الآيات القليلة تشرح لنا ما كان يدور على ألسنة القوم إذ ذاك في نكبات الوزراء التي لم تكن قليلة بل قلما نجد في وزراء بني العباس من سلم منها . ويقال إن سبب نكبة أبي أيوب سعى أبان بن صدقة كاتبه به عند المنصور وكان موته سنة ١٥٤

الربيع بن يونس

استوزر المنصور بعد أبي أيوب الربيع بن يونس كان أحد جدوده أبو فروة كيسان مولى عثمان بن عفان من سبي جبل الخليل ونشأ أولاده في الكتابة في عهد بني أمية ولما جاءت الدولة العباسية كان الربيع ممن يخدم المنصور وكان كثير الميل إليه حسن الاعتماد عليه فكانت إليه الحجابة وهي من الوظائف الكبرى في الدولة وسيأتي شرحها

ولما قبض المنصور على أبي أيوب استوزره بعده فظل في خدمته إلى أن مات المنصور . وكان الربيع عارفا بخدمة الخلفاء محبوبا عندهم ولا سيما المنصور وكان جليلا نبيلًا منفذا للأمر مهيبا فصيحًا كافيًا حازما عاقلا فطنا خبيرًا بالحساب والأعمال حاذقا بأمر الملك بصيرا بما يأتي وينذر محبا لفعل الخير

ولما مات المنصور بمكة كان معه وهو الذى اخذ البيعة للمهدى بعده وكان ذلك مما جعل المهدى يقيه على درجته التى كانت عليها فى عهد أبيه إلا أنه كان حاجبا لاوزيرا وكانت وفاته سنة ١٧٠ فى عهد الهادى ويقال إنه سم

(ثانيا) الحاجب وهو موظف كبير لايمثل أحد بين يدى الخليفة إلا بأذنه وقد وجد الحاجب فى عهد بنى أمية وقد أحدثوه لما خشوا على أنفسهم من الفتاكين بعد حادثة الخوارج مع على وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان مع ما فى فتح أبوابهم من ازدحام الناس عليهم وشغلهم به عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد روى أن عبد الملك قال لحاجبه قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فانه داعى الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد وكان إلى الحاجب التقديم والتأخير فى الاذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم

وقد ظلت الحجابة فى ارتقاء كلما ارتقت الحضارة وقد سار خلفاء بنى العباس على نمط بنى أمية فى ذلك وكان للحاجب فى عصرهم مرتبة عالية وكثيرا ما كان يستشار فى الأمور التى تنزل بالخلافة

(ثالثا) الكاتب وهو الذى يتولى مخاطبة من بعد عن الحضرة من الملوك والأمراء وغيرهم وكثيرا ما كان يتولى الخليفة نفسه تلك الكتابة كما ورد أن المنصور لما جاءت له رسالة محمد بن عبد الله قال له كاتبه دعنى أجه عليها فقال أبو جعفر لابل أنا أجيبه عنها إذ تقارعتنا على الأحساب فدعنى وإياه . وأحيانا كان يتولى الكتابة الوزير

(رابعا) صاحب الشرط وهو المحافظ على الأمن وكان المنصور يختار صاحب الشرط أمن الرجال وأشدهم وكان له سلطان عظيم على المربين والجناة إلا أن استبداد المنصور بالأمور ومباشرته لصغيرها وكبيرها كانا يقللان من أهمية كل عامل (خامسا) القاضى وكان ينظر فى قضايا مدينة المنصور وحدها ولم يكن له سلطان على قضاة الأقاليم لأن منصب قاضى القضاة لم يكن أنشئ بعد . ومن مشهورى قضاة المنصور محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ولد سنة ٧٤ للهجرة وتفقه بالشعبى أقام قاضيا بالكوفة ثلاثين سنة فى الدولتين الأموية والعباسية وهو معدود من فقهاء

أهل الرأي وكان بينهما وبين أبي حنيفة الامام وحشة يسيرة وقد كان أبو حنيفة يعترض عليه في بعض أحكامه وهو أصغر منه سنا فشكاه ابن أبي ليلى للأمير فنعه الأمير من الفتيا وكانت وفاة ابن أبي ليلى سنة ١٤٨
هذه المناصب الخمسة هي أهم المناصب في الدولة وجميع الوظائف الأخرى ترجع إليها وكان في كل ولاية صورة من ذلك

الجيش

أهم ما تظهر به الدولة جيشها الذي يزود عن حياضها ويحمي بيضتها وقد كان الجيش لعهد الدولة الأموية عربيا محضا جنوده وقواده فلما جاءت الدولة العباسية كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع إليهم أكبر الفضل في ثل عرش الدولة الأموية وبالضرورة يكون لهم حظ وافر من الدولة وحماتها لذلك كان جيش الديوان في أول عهد العباسيين مؤلفا من فريقين

(الأول) الجيوش الخراسانية - الثاني الجيوش العربية ، وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من الموالي وكان التنارع شديدا بين الفريقين بداعي العصية كل يتعصب لأبناء جنسه . وكان أكبر القواد المعروفين في أول عهد الدولة أبو مسلم الخراساني لجيوش المشرق الخراسانية وعبد الله بن علي لجيوش المغرب وأعظمها عربى من الجزيرة والشام . ولما خرج عبد الله بن علي عن طاعة المنصور وأرسل أبو مسلم لخربه فانتصر عليه رجحت كفة الخراسانيين وصارت الثقة بهم أعظم ولكن ذلك لم يمنع المنصور من القضاء على أبي مسلم الذي نظر إليه نظرة الشريك المساوى في القوة والسلطان ويظهر أن المنصور لم يكن يرى لمصلحته ومصلحة أهل بيته أن تظل كفة أهل خراسان راجحة فاصطنع كثيرا من رجالات العرب وسلمهم قيادة الجيوش كما استعان بأهل بيته ومن أعظم قوادهم عيسى بن موسى الذي سيره المنصور لحرب محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم

ومن مشهورى قواده العرب : معن بن زائدة الشيباني وهو قائد شجاع كان في أيام بني أمية منتقلا في الولايات ومنقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد بن عمر بواسطة أبي معن يومئذ بلاء حسنا

فلما سلم يزيد وقتل خاف معن على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة حصلت له فيها غرائب من أظرفها أنه تنكر وركب جملاً يقصد البادية فينا هو خارج من باب المدينة تبعه عبد أسود متقلد سيفاً فقبض على خطام جملة فأناخه وقبض على يدي معن وقال أنت طلبة أمير المؤمنين أنت معن بن زائدة فلما رأى الجدمته أخرج عقده جوهراً ثمه أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتي بمعن فقال للأسود خذه ولا تكن سيالسفك دى فتأمله الأسرد وقال لست أقبله حتى أسألك عن شيء فان صدقتني أطلقتك إن الناس وصفوك بالجود فهل وهبت مالك كله قال لا قال فنصفه قال لا ولم يزل حتى بلغ العشر فقال معن نعم فقال له الأسود أنا رزق من المنصور كل شهر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك والجودك المأثور بين الناس ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة ثم رمى العقد في حجره وترك خطام الجمل وولى منصوراً فقال له معن قد والله فضحتني ولسفك دى أهون على مما فعلت فخذ ما دفعته لك فاني في غنى عنه فضحك وقال أردت أن تكذبني في مقالي والله لا أخذته ولا أخذت لمعروفى ثمناً ومضى لسبيله . وما زال معن مستتراً حتى كان يوم الهاشمية يوم أن ثار الراوندية بالمنصور وهم قوم من أهل خراسان منسوبون إلى بليدة قرب قاشان وكانوا على رأى أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم يقولون بتناسخ الأرواح ويظهر على رغم الروايات المتناقضة أنهم كانوا يريدون الأخذ بثأر أبي مسلم ويقتلون أبا جعفر فاجتمع منهم زهاء ستمائة وقصدوا نحو المنصور فتنادى الناس وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد فخرج المنصور من قصره وفي ذلك الوقت ظهر معن فاتته إلى أبي جعفر فرمى بنفسه وترجل وأدخل خرقة قبائه في منطقتة وأخذ بلجام دابة المنصور وقال أشدك الله يا أمير المؤمنين إلا رجعت فانك تكفى فلم يرجع وجاء الربيع ليأخذ بلجام الدابة فقال له معن ليس هذا من أيامك ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعاً وشرفت تلك الفعلة معناً في نظر أبي جعفر حتى سماه أسد الرجال فقال معن والله يا أمير المؤمنين لقد أتيتك وأنا وجل القلب فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الاقدام عليهم رأيت أمراً لم أره من خلق في حرب فشد ذلك من قلبي وحملني على ما رأيت مني . وكان ذلك سبباً لاعطائه الأمان ووصله بعشرة آلاف

درهم وتولته اليمن فكث فيها مدة أحسن فيها السيرة في أهلها حتى ردهم إلى الطاعة والجماعة . ثم ولى في آخر أمره سجستان . ولما كان سنة ١٥١ كان في داره صناع يعملون له عملاً فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بست . وكان معن جواداً ممدحاً وشاعره الخبيص به مروان بن أبي حفصة له فيه المدح الرائقة كما له فيه المراثي المشجية ومن طرف بدائنه أن معن دخل على المنصور مرة فقال له إيه يامعن تعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله

معن بن زائدة الذى زادت به * شرفا على شرف بنو شيان
فقال كلا يا أمير المؤمنين وإنما أعطيته على قوله

مازلت يوم الهاشمية معاناً * بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاه * من وقع كل مهند وسان
ومنهم عمرو بن العلاء من أعظم قواد المنصور وهو الذى يقول فيه بشار بن برد الشاعر
فقل للخليفة إن جئت * نصيحاً ولا خير فى المتهم
إذا أيقظتك حروب العدا * فبه لها عمراً ثم نم
فتى لا ينام على دمنة * ولا يشرب الماء إلا بدم
ويقول فيه أبو العتاهية

إن المطايا تشتكك لأنها * قطعت إليك سباسباً ورحالا
فاذا وردت بنا وردن مخفة * وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وجهه المنصور سنة ١٤١ لحرب بلاد طبرستان وكانت مضطربة بثورة المصمغان ملك ديباوند والأصبهذ وكان توجيهه إليها بمشورة أخى المصمغان فانه قال للمنصور يا أمير المؤمنين إن عمراً أعلم الناس ببلاد طبرستان فوجهه وضم إليه خازم بن خزيمه وهو من القواد الكبار فدخلى الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطاق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل من أهلها فأكثر وصار الأصبهذ إلى قلعتيه وطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره ثم بدا للأصبهذ فدخلى جيلان من الديلم فمات بها وأخذت ابنته فتسراها العباس بن محمد وهى أم ابنه إبراهيم . وصمدت الجنود للمصمغان فظفروا به

ولم يزل عمرو بن العلاء فى رتبته إلى مدة المهدي محمد بن أبى جعفر

حاضرة الخلافة

لما ولي أبو جعفر انتقل من الأنبار إلى الهاشمية التي أسسها أخوه أبو العباس وأقام بها إلى أن عزم على تأسيس مدينة بغداد حاضرة بني العباس الكبرى ومظهر نفوذهم ومدنيتهم وكان يريد أن يكون بعيداً عن الكوفة فخرج يرتاد مسكناً لنفسه وجنده ويبتنى به مدينة حتى صار إلى موضع بغداد وقال هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء. يأتينا فيها كل مافي البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقه وماحول ذلك فنزل وضرب عسكره على الصرة وهو نهر بين الدجلة والفرات ثم أمر بنحط المدينة على مثال وضعه وهي مدورة الشكل تقريباً وجعل لها سورين أحدهما داخل وهو سور المدينة وسمكه في السماء ٣٥ ذراعاً وعليه أبرجة سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع وعلى السور شرف وعرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعاً ويليه من الخارج فصيل بين السورين وعرضه ٦٠ ذراعاً ثم السور الأول وهو سور الفصيل ودونه خندق. وللمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان ولكل منها باب دون باب بينهما دهليز ورحبة تدخل إلى الفصيل الدائر بين السورين فالأول باب الفصيل والثاني باب المدينة فإذا دخل الداخل من باب خراسان عطف على يساره في دهليز أزج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون المدخل إليه في عرضه والمخرج منه من طوله يخرج إلى رحبة مادة إلى الباب الثاني طولها ٦٠ ذراعاً وعرضها ٤٠ ولها في جنبتيها حائطان من الباب الأول إلى الباب الثاني في صدر هذه الرحبة في طولها الباب الثاني وهو باب المدينة وعن يمينه وشماله في جنبتي هذه الرحبة بابان إلى الفصيلين. والأبواب الأربعة على صورة واحدة في الأبواب والفصلان والرحاب والطاقت. ثم الباب الثاني وهو باب المدينة وعليه السور الكبير فيدخل من الباب الكبير إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجص طوله ٢٠ ذراعاً وعرضه ١٢ وعلى كل أزج من أزاج هذه الأبواب مجلس له درجة على السور يرتقى إليه منها. على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء سمكها ٥٠ ذراعاً مزخرقة وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره

وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثواني باب حديد عظيم جليل المقدار
كل باب منها فردان

وابتني قصره الذي يسمى الخلد على دجلة وكان موضعه وراء باب خراسان . ومد
المنصور من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرهما
إلى المدينة في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها فكانت
كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض وتجري صيفا
وشتاء لا ينقطع ماؤها في وقت وجر لأهل الكرخ أربعة أنهر يقال لأحدها نهر
الدجاج والثاني نهر القلائين والثالث نهر طابق والرابع نهر البرازين . والكرخ هو
أسواق المدينة التي نقلها المنصور من مدينته في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى
بناها المنصور ورتب كل صنف منها في موضعه وبني لأهل الأسواق مسجداً يجمعون
فيه ولا يدخلون المدينة وسميت الشرقية لأنها شرقي الصراة . ولأبي عبد الله إبراهيم
ابن محمد بن عرفة نفظويه في الكرخ

سقى أربع الكرخ الغوادى بديمة وكل ملك دائم المظل مسبل

منازل فيها كل حسن وبهجة وتلك لها فضل على كل منزل

وفي سنة ١٥١ بنى المنصور الرصافة للمهدى ابنه وعمل لها سوراً وخندقاً وميداناً
وبستاناً وأجرى لها الماء . وربيع الرصافة يسمى عسكر المهدي لأن المهدي عسكر
به عند شجره من الري

وبنى المنصور قصره والجامع في وسط المدينة وكان في صدر قصر المنصور إيوان
طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون وفي صدر الإيوان مجلس عشرون ذراعاً في
عشرين وسمكة عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكة من أول
حد عقد القبة عشرون ذراعاً فصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعاً
وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس بيده رمح

وقد أنفق المنصور على مدينته هذه ثمانية عشر ألف دينار على ما حكاه ياقوت
وفي بعض الروايات أقل من ذلك . ولما تم بناؤها حشر إليها المنصور العلماء من
كل بلد وإقليم فأما الناس أفواجا ولم تزل تتعاطم ويزداد عمرانها حتى صارت أم
الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية وأربى سكانها

على مليونين . قال الخطيب البغدادي لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلاله قدرها ونخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة ما حصر من عدد سكانها وأكثر ما كانت عمارة وأهلا في أيام الرشيد إذ الدنيا قارة المضاجع دارة المراضع خصيبة المواقع موردة المشارع

الأحوال الخارجية

في عهد المنصور هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الأندلس وأسس بها الدولة الأموية الثانية وكان المنصور يعجب به وبقدرته وعزيمته التي جعلته وهو شريد طريد يؤسس ملكا في هذه البلدان القاصية ولم يكن بين الرجلين بالضرورة علاقة حسنة ولم يتسم عبد الرحمن بأمر المؤمنين بل تسمى بالأمير فقط . وهذه أول بلاد اقتطعت من الخلافة الإسلامية الكبرى بالشرق أما ملكة الروم التي كانت تحاذي الخلافة الإسلامية من الشمال فكان يعاصر المنصور فيها قسطنطين الخامس كما قدمنا وكانت العلاقة بين الأمتين منقطعة لا تترك إحداهما قتال الأخرى متى عنت الفرصة وكان من النظام المتبع في الخلافة إرسال الجيوش تغزو الروم في الصيف وتسمى بالصوائف ولم يكن ذلك ينقطع إلا لمنع أول ما حصل في عهد المنصور أن الروم بقيادة ملكهم أغاروا سنة ١٣٨ على ملطية وكانت إذ ذاك من الثغور الإسلامية فدخلوها عنوة وقهروا أهلها وهدموا سورها ولكن الملك عفا عن فيها من المقاتلة والذرية

ولما علم بذلك المنصور أغزى الصائفة عمه صالح بن علي ومعه أخوه العباس بن محمد بن علي فبنى ما كان صاحب الروم هدمه من ملطية وقد أقام في استتمام ذلك إلى سنة ١٣٩ . ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغلا في أرض الروم وغزا مع صالح أخته أم عيسى ولبابة ابنتا علي وكانتا نذرنا إن زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سيل الله — وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهراني

وفي هذه السنة استقر الأمر بين المنصور وملك الروم على المفاداة فاستنقذ المنصور من الروم أسراء المسلمين .

وفي سنة ١٤٠٠ غزا الصائفة الحسن بن قحطبة مع عبد الوهاب بن ابراهيم الامام وأقبل قسطنطين صاحب الروم في جيش كثيف فنزل جيحان فبلغه كثرة المسلمين فأحجم عنهم ثم لم تكن صائفة بعد ذلك إلى سنة ١٤٠٦ لاشتغال أبي جعفر بأمر محمد و ابراهيم ابني عبد الله

ولم تزل الصوائف بعد ذلك تتوالى إلى سنة ١٥٥٠ وفيها طلب صاحب الروم الصلح على أن يؤدي للمسلمين الجزية

وكانت هذه الحروب بين الطرفين اغارات لم يقصد بها فتح بل كان كل واحد من الطرفين ينتهز الفرصة فيجتاز الحدود التي لصاحبه ثم يعود إلى مقره ثانية ولم تكن المصالحات يطول زمنها بل سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه

أما حدود المملكة من الجهات الأخرى فكانت في الغالب محلا للاضطرابات ولكنها كانت تسكن حالا بما يبذله المنصور من الهمة في إرسال الجنود إليها ليقظته ومعرفة بالأمور على وجهها . وكان في كل ثغر جنود مرابطون من المرتزقة وهم المفروض لهم عطاء في الديوان ومن المطوعة وهم الذين ينتدبون للجهاد في سبيل الله لا يطلبون على ذلك أجراً إلا من الله وكان الخليفة هو الذي يعين قائدهم وكان عددهم في ذلك الوقت كثيراً

صفات المنصور وأخلاقه

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدة وبأساً وبقظة وثباتاً ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترسم صورة هذا الرجل العظيم في الأذهان

كيف كان يقضى وقته

كان شغله في صدر النهار بالأمور والنهي والولايات والعزل وشنن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصالحة معاش الرعية لحرصه على التلطف لسكونهم وهدئهم فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره . فإذا

صلى العشاء الآخرة نظرفيا ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره من ذلك فيما أرب . فاذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره فاذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه

كيف كان خلقه في بيته وخارجه

قال سلامة الأبرش كان المنصور من أحسن الناس خلقا ما لم يخرج إلى الناس وأشد احتمالا لما يكون من عبث الصياد فاذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه فيخرج فيكون منه ما يكون فاذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك فنستقبله في مشاه فر بما عاتبنا . وقال له يوما يابني إذا رأيتني قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي فلا يدنون مني أحد منكم مخافة أن أعره بشيء.

الجد في بلاطه

قال يحيى بن سليم كاتب الفضل بن الربيع لم ير المنصور في لحو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث إلا يوما واحدا فانا رأينا ابنه يقال له عبد العزيز قد خرج على الناس متكبكا قوسا متعما بعمامة مترديا يبرد في هيئة غلام أعرابي راكبا على قعود بين جوارقين فيهما مقل ومساويك ونعال وما يهديه الأعراب فعجب الناس من ذلك وأنكروه فمضى الغلام حتى عبر الجسر وأتى المهدي بالرصافة فأهدى إليه ذلك فقبل المهدي الجواريق وملاهما دراهم فانصرف بين الجوارقين فعلم أنه ضرب من عبث الملوك . وذكر عن حماد التركي قال كنت واقفا على رأس المنصور فسمع جلبة في الدار فقال ما هذا يا حماد انظر فذهبت فاذا خادم له قد جلس بين الجوارى وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن بضحكته فقال وأى شيء الطنبور فوصفه له فقال له أصبت صفته فما يدريك أنت ما الطنبور فقال رأيت بخراسان ثم قام حتى أشرف عليهم فلما بصروا به تفرقوا فأخذ الخادم الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرج من قصره

كيف كان يهتم بعماله

قال المنصور ما كان أخرجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي

أعف منهم قيل له يا أمير المؤمنين من هم؟ قال هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم إن نقصت واحدة تداعى وهي: أما أحدهم ففاض لا تأخذه في الله لومة لائم — والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى — والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غنى — والرابع — ثم عرض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه . قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة

وولى رجلا من العرب حضرموت فكتب إليه والى البريد أنه يكثر الخروج في طلب الصيد بيزاة وكلاب قد أعدها فعزله وكتب إليه (ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ماهذه العدة التي أعدتها للنكاية في الوحش إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحوش سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوما مدحورا)

وظفر مرة برجل من كبراء بني أمية فقال إني سألتك عن أشياء فأصدقني ولك الأمان . قال نعم . فقال المنصور من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم؟ قال من تضييع الأخبار . فل فأى الأموال وجدوها أنفع؟ قال الجوهر . قال فعند من وجدوا الوفاء؟ قال عند مواليهم — فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته ثم قال أضع من أقدارهم فاستعان بمواليه

وذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى أن ولاية البريد في الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل ما كور وبكل ما يقضى به القاضى في نواحيهم وبما يعمل به الوالى وبما يرد بيت المال وكل حدث وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب ويكتبون إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة فإذا وردت كتبهم نظرفيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء عن حاله كتب إلى الوالى والعامل هناك وسأل عن العلة التي نقلت ذلك عن سعره فإذا ورد الجواب بالعلة تلتطف لذلك برفقة حتى يعود سعره ذلك إلى حاله . وإن شك في شيء مما قضى به القاضى كتب إليه في ذلك وسأل من يحضرته عن عمله فإن أنكر شيئا عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه

ثباته عند الشدائد

من الخلال التي ذلت للنصور طريق النجاح أنه لم يكن من أولئك الرجال الذين يملأ لهم صدورهم قبل موقعه ويضيقون به ذرعا إذا وقع بل كان رابط الجأش يقابل الكوارث بعزم صادق لا يبالي فيعدله ما يلزم من العدة . لما تابعت الأحداث على أبي جعفر في عهد محمد وإبراهيم ابني عبد الله تمثل :

تفرقت الطباء على خدش * فما يدري خدش ما يصيد

ثم أمر باخضرار القواد والموالي والصحابة وأهل بيته وأمر حمادا التركي بأسراج الخيل وسليمان بن مجالد بالتقدم والمسيب بن زهير بأخذ الأبواب ثم خرج في يوم من أيامه حتى علا المنبر فأزم عليه طويلا لا ينطق ثم قال :

مالي أكشف عن سعدويشتمني * ولو شتمت بني سعد لقد سكنوا

جهلا على وجبنا عن عدوهم * لبئست الخلتان الجهل والجن

ثم جلس وقال

فألقيت عن رأسي القناع ولم أكن * لا كشفه إلا لاحدى العظام

والله لقد عجزوا عن أمر أقبابه فاشكروا الكافي ولقد همدوا فاستوعروا وغمطوا الحق وغمصوا فإذا حاولوا أشرب رنقا على غصص أم أقيم على ضيم ومضض والله لأأكرم أحداً باهانة نفسى والله أئن لم يقبلوا الحق ليطلبنه ثم لا يجدونه عندى والسعيد من وعظ بغيره . قدم يا غلام ثم ركب

ولما قصد الكوفة حين علم بمخرج محمد كان معه عثمان بن عمارة وإسحاق بن مسلم العقيلي وعبد الله بن الربيع المدائني فقال عثمان أظن محمداً خائبا ومن معه من أهل بيته إن حشو ثياب هذا العباسي لمكر ودهاء . وإنه فيما نصب له محمد من الحروب لكما قال ابن جندل الطعان :

فكم من غارة ورعيل خيل * تداركها وقد حمى اللقاء

فرد يخيلها حتى ثناها * بأسم ما يرى فيه التواء

فقال له إسحاق بن مسلم قد والله سبرته ولمست عوده فوجدته خشنا وغمرته فوجدته صليبا وذقته فوجدته مرا وإن من حوله من بنى أبيه لكما قال ربيعة بن مكدم :

سمالى فرسان كأن وجوههم * مصايح تبدو فى الظلام زواهر

يقودهم كبش أخو مصمثلة * عبوس السرى قد لوحته المواجر
وقال عبد الله بن الربيع هو والله خيس ضيغم شמוש للاقران مفترس
ولالأرواح محتلس وإنه فيما يهيج من الحرب كما قال أبو سفيان بن الحرث
وإن لنا شيخا إذا الحرب شمرت * بديهته الاقدام قبل النوافل
ويكفيه فخرا أنه قام في وجه معانديه ومخالفيه وهم كثيرون في جهات شتى فقهرهم
جميعا ووطد دعائم الملك بعد أن كاد يذهب من آل العباس قبل أن يستقر إلا أنه
يؤخذ عليه ويحط من شأنه غدراثة الثلاث التي عرفت عنه فقد غدر بأبن هبيرة بعد
أن أعطاه الأمان ولم يبد من الرجل شيء يريب وغدر بعمه عبد الله بن علي بعد أن
أعطاه الأمان وغدر بأبي مسلم . وربما تكون له شبهة في القضاء على عمه وعلى أبي
مسلم ولكن الذي لا يليق بخليفة المسلمين وإمامهم أن يستعمل الأيمان والعهود
وسيلة لاستئزال أعدائه ثم يغدر بهم

ومن غريب أمره أنه كان تزوج أروى بنت منصور الحميري وهي أم ولديه محمد
وجعفر الأكبر وكان شرط لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتبت عليه بذلك
كتابا أكدته وأشهدت عليه شهودا فعزب بها عشر سنين في سلطانه فكان يكتب
إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز
وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة فكانت أروى إذا علمت بمكانه
بادرته فأرسلت إليه بمال جزيل فاذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه
برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد . فانظروا كيف كان يحاول
الخلاص من عقد عقده على نفسه ويريد أن يلقى تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم
لمخالفة الضمان والذم وإن كان هذا الحديث في الجملة يدلنا على أن الغدر لم يصر طبعاً
للمنصور وإنما كانت حوادث مرت وحمله عليها السبب الذي لم يمكنه تلافيه

اقتصاده

عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه ولذلك
ترك لابنه المهدي ثروة جودته مدة حكمه هادي البال ينفق عن سدة ولا يخشى
نفاذا . ولم يكن المنصور يعطى الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف وإنما كانت

أعطياته إلى القلة أميل وكان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون إلى السرف
وكانت أرزاق العمال أيام المنصور ٣٠٠ درهم ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام
المأمون فكان أول من سن زيادة الأرزاق الفضل بن سهل
وعلى الجملة فلم يغم في بني العباس مثل المنصور في ثباته وعلوهمته وشده على المريب
واهتمامه بأمر العامة وجده في بلاطه — وكان فوق ذلك كله فصيحاً يبلغ ما يريد
من الكلام عند الحاجة
وكانت القوة الإسلامية في يده وطوع أمره إلا أنها لم تكن عربية خالصة كما
كان الحال في الدولة الأموية وكانت قوة العرب لعهد لانزال راجحة

وفاة المنصور

في سنة ١٥٨ حج المنصور . شخص من مدينة السلام متوجهاً إلى مكة في شوال
فلما صار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذي توفي به ولم يزل يزداد حتى
وصل بستان ابن عامر فاشتد به وجعه ثم صار إلى بئر ميمون وهو يسأل عن
دخول الحرم ويوصى الربيع بما يريد وتوفي في سحر ليلة السبت ٦ ذى الحجة
سنة ١٥٨ ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع الحاجب فكتم موته ومنع النساء وغيرهن
من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع
يعتهم لأمير المؤمنين المهدي ولعيسى بن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا
وتوجه العباس بن محمد بن علي ومحمد بن سليمان بن علي إلى مكة ليبايعا الناس فبايعوا
للهدى بين الركن والمقام

ثم أخذ في جهاز المنصور وغسله وكفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر وجعل
رأسه مكشوفاً من أجل أنه مات محرماً وصلى عليه عيسى بن موسى ودفن بنية المعلاة
بعد خلافة مدتها ٢٢ سنة إلا ستة أيام رحمه الله .

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت . فالذكور محمد المهدي وجعفر الأكبر وأمهما
أروى بنت منصور الحميرية وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد
طلحة بن عبيد الله — وجعفر الأصغر وأمهم أم ولد كردية . وصالح المسكين وأمهم
أم ولد رومية . والقاسم وأمهم أم ولد وقد مات منهم جعفر الأكبر والقاسم قبل

وفاة المنصور والبنت اسمها العالية أمها امرأة من بني أمية وقد تزوج العالية إسحق ابن سليمان بن علي .

٣ - المهدي

هو محمد المهدي بن المنصور وأمه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى أم موسى ولد سنة ١٢٦ بالحميمة من أرض الشراة وكانت سنه إذ جاءتهم الخلافة ست سنوات . ولما استخلف أبوه كان فتي سنه عشر سنوات . ولما بلغ مبلغ الرجال كان أبوه يرشحه لولاية العهد فولاه سنة ١٤١ وسنه ١٥ سنة قيادة الجنود المتوجهة إلى خراسان وأمره أن ينزل الري حينما وقعت فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل المنصور على خراسان . وبعد انتهاء تلك الفتنة أمره بغزو طبرستان . ثم انصرف عائداً من خراسان سنة ١٤٤ فلقية أبوه بقرماسين وانصرفا جميعاً إلى الجزيرة لمراقبة ثغورها - وفي هذه السنة بنى المهدي بريدة بنت أبي العباس السفاح وفي سنة ١٤٧ ولاه أبوه العهد وقدمه على عيسى بن موسى . ثم عاد إلى الري فأقام إلى سنة ١٥١ وفيها قدم على أبيه فبنى له ولجندته الرصافة وهي الجانب الشرقي من بغداد وولاه الحج سنة ١٥٣ وفي سنة ١٥٥ أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد . ولم يزل يستعين به في الأعمال حتى توفي في التاريخ الذي تقدم ذكره ٦ الحجة سنة ١٥٨ (٧ أكتوبر سنة ٧٧٥)

بيعة المهدي

بعد أن أخذ الربيع بيعة المهدي على بني هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور في حجه وجه رسولا إلى مدينة السلام بخبر الوفاة وبعث معه بقضيب النبي صلى الله عليه وسلم وبردته التي يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة . وفي ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام . ومكث في خلافته إلى أن توفي ليلة الخميس ثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) بماسبذان فتكون مدته عشر سنين وشهرا ونصفا وكان يعاصره في بلاد الأندلس عبد الرحمن الأول مجدد الدولة الأموية في

المغرب . ويعاصره في فرنسا شارلمان . ويعاصره في مملكة الروم الشرقية لاون الرابع (٧٧٥ - ٧٨٠) ثم قسطنطين السادس ولصغره كانت أمه ايريني تدبر أمره

الحال في عهد المهدي

كانت خلافة المهدي مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور فقد كان المنصور يؤسس ملكاله خصوم فكان يكتبني بالرية والظنة فيعاقب بهما وفي مثل ذلك كثيرا ما يؤخذ البريء بالمدنب والمطيع بالعاصي فلما جاء المهدي كانت الخلافة العباسية قد توطدت وأنياب العلويين قد كسرت وإن كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة فهم لا يحتاجون في الاحتراس منهم إلى مثل ما كان المنصور يحتاج إليه من الشدة فإن كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير لهم فكانوا يعرضون عليه كل يوم ولذلك كانت حياة المهدي حياة سعيدة لنفسه ولأمته وهو بعد أبيه يشبه في كثير من الوجوه الوليد بن عبد الملك بعد أبيه

في أول ولايته أمر بإطلاق من كان في سجن المنصور إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفا بالسعي في الأرض بالفساد أو كان لأحد قبله مظلمة أو حق فالذين أطلقهم هم من كان جرمهم سياسيا . أما أرباب الجنابات والمحوسون لحقوق مدينة فانهم ظلوا في حبسهم وكان ممن أطلق يعقوب بن داود الذي سيأتي ذكره في كبار الرجال في عهد المهدي

ومما أجراه من الاصلاح أمره ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان السفاح بناها من القادسية إلى زباله وأمر بالزيادة في قصور السفاح وترك منازل المنصور التي بناها على حالها . وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وهي حيضان تبنى وتتلأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلا على رجال القوافل الذين لا ينقطع مرورهم من تلك الجهات . وأمر بتجديد الأميال والبرك وحفر الركايامع المصانع وجعل لذلك عاملا خاصا يقوم به . وأمر أن يجرى على المجذومين وأهل السجون في جميع الآفاق حتى لا يحتاج المجذومون إلى المشي في الطرق وسؤال الناس فيكونون سببا في انتشار المرض وحتى يكون للمسجونين ما يقوم بأودهم فلا يموتوا جوعا

إلا من كان له أهل يسألون عنه
وأقام البريد بين مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكة واليمن بغالا وإبلا
ولم يقم هنالك بريد قبل ذلك
ومن آثاره زيادته في المسجد الحرام فأدخل فيه دورا كثيرة مما يحيط به . ومما
يؤخذ عليه أنه أمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوي وكتابة
اسمه مكانه . وقديما شغف الملوك بهذه الاغارات التي تجعل ثقتنا ضعيفة بما نراه
منقوشا على الآثار فان الخاف منهم كان إذا رأى للسلف أثرا باقيا يستحق به المدح
والثناء فسرعان ما يأمر بإزالة اسم الباني ويضع اسمه مكانه كما حكي ذلك في الآثار
المصرية وهذا غش وتدليس على المتأخرين لا يحسن بالسوقه أن يفعلوه فضلا عن
الملوك ولكن هكذا كان

وكان المهدي يجلس للمظالم وتدخل القصص إليه فارتشى بعض أصحابه بتقديم
بعضها فاتخذ بيتا له شبك حديد على الطريق تطرح فيه القصص وكان يدخله وحده
فيأخذ مايقع بيده من القصص أولا فأولا فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض
وكان المهدي مغرى بالزنادقة الذين يرفع إليه أمرهم فكان دائما يعاقبهم بالقتل
ولذلك كانت هذه التهمة في زمنه وسيلة إلى تشفى من يجب أن يتشفى من عدو أو خصم
والذى أغراه بذلك ما كان من فتنة المقنع الخراساني كان من إحدى قرى مرو وكان
يقول بتناسخ الأرواح فاستغوى بشرا كثيرا وصار إلى ماوراء النهر فوجه المهدي
لقتاله عدة من القواد فيهم معاذ بن مسلم وهو يومئذ على خراسان ثم أفرد المهدي
لمحاربه سعيدا الحرشي وضم إليه القواد فاستعد المقنع للحصار في قلعة كش فحاصره
سعيد بقلعته ولما اشتد عليه الحصار وأحس بالهلكة شرب سما وأسقاه نساءه وأهله
فمات وماتوا جميعا ودخل المسلمون قلعته واحترأوا رأسه

الوزارة

كان مظهر الوزارة في عهد المهدي أوضح منه في عهد أبيه المنصور لما كان من
ركون المهدي إلى وزرائه واعتماده عليهم أكثر مما كان يعتمد أبوه وكان أول
وزرائه كبير الكفاءة فانه جمع له حاصل المملكة ورتب الديوان وقرر القواعد

وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقا وعلما وخبرة وهو أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولى الأشعريين كان كاتب المهدي ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور إليه وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدي فكان غالبا على أموره لا يعصى له قولا وكان المنصور لا يزال يوصيه به ويأمره بامثال مشورته فلما مات المنصور وولى المهدي فوض إليه تدبير المملكة وسلم إليه الدواوين وكان مقدما في صناعته وله ترتيبات في الدولة منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة وكان السلطان يأخذ على الغلات خراجا مقررًا ولا يقاسم فلما تولى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر وصنف كتابا في الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده وهو أول من صنف كتابا في الخراج وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتبًا في الخراج سيأتي ذكرها

وكان الربيع الحاجب يساعد أبا عبيد الله ويقوم بتأييده عند المنصور إذا شكاه أحد بشكوى فلما تولى المنصور وقام الربيع بأمر بيعة المهدي بمكة عاد إلى دار السلام فرأى أن يقابل أولا أبا عبيد الله قبل أن يرى المهدي فحضر إليه واستأذن عليه فلم يأذن له إلا بعد صلاة العشاء ولما دخل عليه كان متكئا فلم يقم له ولم يحفل به فقعد الربيع بين يديه على البساط وأبو عبيد الله متكى فجعل يسأله عن مسيره وسفره وحاله ولم يسأله عما فعل في أمر بيعة المهدي فذهب الربيع يتدى بذكره فقال له قد بلغنا نبؤكم فقام الربيع متغير القلب على أبي عبيد الله وقال لابنه الفضل والله الذي لا إله إلا هو لأخلعن جاهي ولا نفقن مالي حتى أبلغ من أبي عبيد الله . كان أبو عبيد الله من كبار الوزراء فهو أصدق الناس بصناعة الكتابة التي كانت في تلك الأزمنة سلما للوزارة وكان مع ذلك من أعف الناس فلم يجد الربيع مع دهائه ونفوذ حيلته مطعنا في أبي عبيد الله لأنه كان بعيدا عما يكرهه الخلفاء من وزرائهم

كان لأبي عبيد الله ابن متهم في دينه وقد أسلفنا ما كان المهدي يكره من الزندقة فرأى الربيع أن ذلك خير وسيلة للافساد بين الخليفة ووزيره فإزال يحال في ذلك حتى اتهم المهدي ابن أبي عبيد الله فأمر باحضاره وقال يا محمد اقرأ فذهب ليقرا فاستجهم عليه القرآن فقال لأبي عبيد الله يا معاوية ألم تخبرني أن ابنك جامع للقرآن فقال بلى يا أمير المؤمنين ولكنه فارقني منذ سنين وفي هذه المدة نسي القرآن فقال

(قم فتقرب إلى الله بدمه) فذهب ليقوم فوق فقال العباس بن محمد يا أمير المؤمنين إن شئت أن تعني الشيخ ففعل وأمر المهدي بابنه فضربت عنقه
 كان بعد ذلك من السهل أن يتخوف المهدي من أبي عبيد الله لأنه قتل ابنه فاستوحش منه وبذلك بلغ الربيع ما أراد واشتق وزاد. وتلك حال الأمراء المستبدين الذين جعلوا آذانهم صيدا لكل قول فلا يزال أهل الأهواء يلعبون بهم ويحرمونهم من خدمة الصادقين من أنهم يمثل تلك التهم التي من السهل على المفسدين توجيهها لأنهم لا ينظرون تحقيرا لها وكانت وفاة أبي عبيد الله معزولا سنة ١٧٠ وكان عزله سنة ١٦١

استوزر المهدي بعده أبا عبد الله يعقوب بن داود بن طهمان مولى بني سليم كان أبوه قديما كاتباً لنصر بن سيار عامل بني أمية على خراسان خرج أولاده أهل علم وأدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ونظروا فإذا ليس لهم عند بني العباس منزلة فلم يطمعوا في خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر فأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وطمعوا أن يكون لهم دولة فيعيشوا فيها فكان يعقوب يحول البلاد منفردا بنفسه ومع إبراهيم بن عبد الله أحيانا في طلب البيعة لمحمد بن عبد الله فلما ظهر محمد وإبراهيم كان علي بن داود كاتباً لإبراهيم وكان يعقوب من الخارجين مع إبراهيم فلما قتل توارى علي ويعقوب وإخوتهما من المنصور فظلمهم وظفر بهم فأخذ عليا ويعقوب وحبسهما في المطبق أيام حياته فلما مات المنصور وبويع المهدي من عليهما فيمن من عليه وكان معهما في المطبق إسحاق بن الفضل ابن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فكانت بينهما صداقة كان المهدي يخشى الزيدية وتديرهم المكايد للملك فكان يطلب رجلا له معرفة بهم ليدخل بينهم وبينه فدل علي يعقوب فلما دخل عليه وفاتحه وجده رجلا كاملا فسأله عن عيسى بن زيد فوعده يعقوب أن يدخل بينه وبينه وكان الناس في ذلك الزمن رموه بأن منزلته عند المهدي إنما كانت للسعاية بآل علي وكان يعقوب يتبرأ من ذلك قرب المهدي يعقوب بن داود إليه وولاه وزارته بعد أبي عبيد الله فأرسل للزيدية فأثى بهم من كل حدب وولاهم أمور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها في يديه

ومن علو منزلته أنه أمره المهدي بتوجيه أمنائه في جميع الآفاق فكان لا ينفذ للمهدي كتاب إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب إلى أميته وثقته بانفاذ ذلك كان ذلك العلوداعيان حسده موالى المهدي فسعوا عليه وأعانهم الشعراء فقال في ذلك بشار بن برد: **بنى أمية هبوا طال نومكم** * **إن الخليفة يعقوب بن داود ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا** * **خليفة الله بين النأي والعود**

كانت السعاية بيعقوب بسبب ميله لاسحاق بن الفضل وأنه يرضى له الأمور وأفهموا المهدي أن إسحاق يروم الخلافة وأن يعقوب يساعده وأن المشرق والمغرب في يده وفي أيدي أصحابه وإنما يكفيه أن يكتب لهم فيثوروا جميعا في يوم واحد على ميعاد فيأخذ الدنيا لاسحاق بن الفضل فملاً ذلك قلب المهدي وصادف أن طلب يعقوب من المهدي عقب ذلك ولاية مصر لاسحاق بن الفضل فتغير وجه المهدي ثم دس إليه جارية من جواريه وهبها له تتسمع ما يدير منه ثم سلم إليه علويا أمره بقتله فن عليه يعقوب وأخرجه خفية وأخبر المهدي أنه قتله وكانت الجارية قد أرسلت بخبر العلوي إليه فأرسل من جاءه به من الطريق ولما رآه يعقوب سقط في يده وأمر المهدي بإعادته إلى المطبق فحبس ولم يزل محبوسا حتى أخرجه الرشيد من سجنه. وأمر المهدي بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات في الشرق والغرب وأمر أن يؤخذ أهل بيته ويحبسوا ففعل ذلك بهم وكان ذلك سنة ١٦٦ فكانت وزارته خمس سنوات وفي هذه الوزارة أحدث ديوان كانوا يسمونه ديوان الأزيمة وأول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيع وذلك أنه لما جمعت له الدواوين فكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزيمة وولى كل ديوان رجلا فكان واليه على زمام ديوان الخراج إسماعيل بن صديح ولم يكن لبنى أمية ديوان أزيمة وفي سنة ١٦٨ ولى المهدي علي بن يقطين ديوان زمام الأزيمة على عمر بن بزيع

استوزر المهدي بعده الفيض بن أبي صالح وهو من أهل نيسابور وكان أهل بيته نصارى فانتقلوا إلى بني العباس وأسلموا وتربى الفيض في الدولة العباسية وتأدب وبرع وكان سخيا مفضالا متخرقا في ماله جوادا عزيز النفس كبير الهمة كثير الكبر والته واستمر الفيض وزيرا للمهدي حتى مات ولم يستوزره أحد من الخلفاء بعده ومات في أول أيام الرشيد سنة ١٧٣

الأحوال الخارجية

كما كان منظر الخلافة في داخل المملكة باهرا كان كذلك مظهرها في نظر الأمم الأخرى إلا أنه مما يؤسف له سوء العلاقة بين الخلافة الشرقية ببغداد وبين أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل فقد كان المنصور والمهدى يهتمان بأمره ويودان إزالة دولته وإسكن الشقة بين الرجلين بعيدة فلم يمكن واحدا منهما أن يجرد له جيشا يخترق صحارى أفريقية ويغزوه في بلاد الأندلس فاكتفى كل من الفريقين بمعادة الآخر وكان شارلمان في ذلك الوقت مهتما بإعادة الدولة الرومانية الغربية التي أثارها وقد فطن إلى ما بين الطرفين المسلمين من العداوة فأحب الاستفادة منها والتقرب بمحاربة أمير الأندلس إلى قلب خليفة بغداد ليكتسب بذلك نفوذا في الخلافة الإسلامية ويرتفع قدره على ملك الروم في القسطنطينية وجد في ذلك حتى تمكن من إتمام هذه المواصلات في عهد الرشيد كما سيأتي

أما العلاقات بين المهدي وبين ملك الروم فكانت سيئة فلم تكن الاغارات من الطرفين تبطل بل كانت الصوائف من طرف المسلمين كما كانت الاغارات من ملك الروم وكانت الحروب برا وبحرا

وفي سنة ١٦٣ احتفل المهدي بأمر الصائفة وولى أمرها ابنه هارون وفرض البعوث على جميع الأجناس من أهل خراسان وغيرهم وخرج المهدي مع الجيش حتى أتى البردان فأقام به نحو من شهرين يتعباً ويتعباً ويعطى الجنود وأخرج صلوات لأهل بيته الذين شخصوا معه وكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات في عهد المهدي فتح الله عليهم فيها فتوحا كثيرة وأبلاهم في ذلك الوجه بلاء جميلا ففتحوا حصن سمالا بعد أن أقاموا عليه ثمانية وثلاثين ليلة وقد نصب عليها المنجنيق حتى فتحت وكان فتحها على ثلاثة شروط ألا يقتل أهلها ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فأعطوا ذلك فنزلوا ووفى لهم هارون. ثم قفل بالمسلمين سالمين إلامن كان أصيب منهم بسمالا

وفي سنة ١٦٥ غزا الصائفة هارون مرة أخرى فوغل في بلاد الروم وكان عدد جيشه ٩٥٧٩٣ رجلا حمل لهم من العين ١٩٤٤٥٠ ديناراً ومن الورق ١٤١٤٨٠٠ درهم ولم يزل هذا الجيش سائراً حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية وكان الذي

يقوم بأمر الروم ايربني أم الملك نيابة عن ابنها لجرت بينها وبين هارون مكاتبات في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية فقبل منها ذلك هارون واشترط عليها أن تقيم الأدلاء والأسواق في طريقه لأنه قد دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين فأجابته الى ماسأل . والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها ٩٠٠٠٠ دينار تؤديها في نيسان من كل سنة وفي حزيران فقبل ذلك وأقامت له الأسواق في منصرفه ووجهت معه رسولا إلى المهدي بما بذلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة والعروض وكتبوا كتاب هدنة إلى ثلاث سنوات وسلت الآسارى . وقال مروان بن أبى حفصة في هذه الغزوة لهارون

أظفت بقسطنطينية الروم مسنداً * إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها * بحزبتها والحرب تغلى قدورها
وكان قفول هارون من وجهه هذا في محرم سنة ١٦٦ و قدمت الروم بالجزية معه
وذلك ٦٤٠٠٠ دينار رومية و ٢٥٠٠ دينار عربية و ٣٠٠٠٠ رطل مرعى
وفي رمضان سنة ١٦٨ أى قبل انقضاء مدة الهدنة نقض الروم الصلح وغدروا
فوجه إليهم على بن سليمان بن على وهو والى الجزيرة وفسرين يزيد بن بدر البطل
في سرية فردوا الروم وغنموا وظفروا . والنتيجة أن مدة المهدي كان أكثرها حربا
مع المسلمين والروم وكان الفريقان في موقف الدفاع أحيانا والهجوم أحيانا إلا أن
الظفر كان في الغالب للمسلمين

غزو الهند

كان المسلمون يملكون إلى نهر مهران الفاصل بين الهند والسند والهند فأراد المهدي أن يغزى جنوده بلاد الهند ففي سنة ١٥٩ وجه عبد الملك بن شهاب المسمعى في البحر إلى بلاد الهند وفرض معه لالفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات ١٥٠٠ ووجه معه قائداً من أبناء الشام في ٧٠٠ من أهل الشام وخرج معه من مطوعة أهل البصرة ١٠٠٠ رجل ومن الأسواريين والسبايجة ٤٠٠٠ فكان تمام عدتهم ٩٢٠٠ رجل مضوا حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند سنة ١٦٠ فهاهضوها بعد قدمهم بيوم وأقاموا عليها يومين

فصبوا المنجنيق وناهضوها بجميع الآلة وتحاشد الناس وحصن بعضهم بعضاً حتى فتحوها عنوة ودخلت خيلهم من كل ناحية حتى الجأؤهم إلى بلدهم فأشعلوا فيها النيران والنفت وغلبوا أهلها على أمرهم بعد أن قتل من المسلمة بن بضعة وعشرون رجلاً ثم أقاموا بالمدينة حتى يطيب لهم الريح فأصابتهم أمراض مات بسببها نحو ألف منهم ثم انصرفوا حين أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلا من فارس يقال له بحر حران فعصفت عليهم فيه الريح فكسرت عامة مراكبهم فغرق منهم بعض ونجا بعض . ويظهر أن هذه الغزوة ليست إلا إغارة لاعمال يقصد به توسيع المملكة

صفات المهدي

كان المهدي لا يشرب النبيذ وإن كان سماره يشربونه في مجلسه وكان يسمع الغناء وكان من خلقه الحياء والعمو فكان إذا وقع أحد من خصومه في يده عفا عنه وكان يتأثر بالقرآن . كان في حبسه موسى بن جعفر العلوي فقراً مرة في صلته ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ فآتم صلته والتفت إلى الربيع وأمره باحضار موسى فلما جرى به قال له يا موسى إنى قرأت هذه الآية تخفت أن أكون قطعتم رحمك فوثق لي أنك لا تخرج علي فقال نعم فوثق له بخلافه وكان خليفة عادلا يجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة فيزيل عن الناس مظالمهم ولو كانت قبله وكان إذا جالس للمظالم قال ادخلوا على القضاة فلو لم يكن ردى للمظالم إلا للحياء منهم لكنى . قال المسور بن مساور ظلمنى وكيل المهدي وغصبنى ضيعة لى فأتيت سلاما صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصاها للمهدي وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضى فأمر المهدي بادخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها فقال له ترضى بأحد هذين فقال نعم فقال تكلم فقال مساور أصلح الله القاضى إن هذا ظلمنى في ضيعتى وأشار الى المهدي فقال القاضى ما تقول يا أمير المؤمنين قال ضيعتى في يدي فقال مساور أصلح الله القاضى سله صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها فقال المهدي بعد الخلافة فقال القاضى أطلقها له قال قد فعلت . والعدل والحلم والعمو في الخلفاء من الصفات التى تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانتهم وهكذا كان المهدي مع مامتاز به من الجود وفصاحة اللسان وكان أبوه قد علمه

تعلما عربياً محضاً في صغره وقد ألف له المفضل الضبي أمثال العرب وجمع له مختارات شعرهم وكان يقول ما تقرب إلى أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هي أقرب من تذكيره إياي يداً سلفت مني إليه أتبعها أختها فأحسن ربها لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل

وكان المهدي ميالاً إلى السنة يجب ألا يخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذلك أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتصيير منابرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به . وزار مرة مولاه أباعون وهو مريض فقال له أوصني بحاجتك فشكره أبو عون وقال يا أمير المؤمنين حاجتي أن ترضى عن عبد الله بن أبي عون وتدعوه به فقد طالت موجودتك عليه فقال يا أبا عون إنه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك إنه يقع في الشيخين أبي بكر وعمرو بن موسى القول فيهما فقال أبو عون هو والله يا أمير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه ودعونا إليه فإن كان قد بدا لكم فرونا بما أحببتم حتى نطيعكم . ويظهر أن هذه الفكرة كانت موجودة حقيقة في مبدأ الدعوة العباسية ولكنهم رفضوها بعد أن كان ما كان من أمر الطالبين وثوراتهم المتتالية فرأى العباسيون أن يقتصر على رضى الله عنه على الدرجة التي كان عليها من التأخر في الرتبة عن أسلافه من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين

ولاية العهد

قدمنا أن المهدي نزع من ولاية العهد عيسى بن موسى بن علي وجعل محله ابنه موسى الهادي ثم جعل بعده ابنه هارون الرشيد

وفاة المهدي

في سنة ١٦٩ أراد المهدي الخروج إلى جرجان فلما وصل إلى ماسبدان أدركته هناك منيته ليلة الخميس ثمان بقين من المحرم في قرية يقال لها الروذ وصلى عليه ابنه هارون لأنه كان في صحبته

٤ - الهادى

هو موسى الهادى بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور وأمه أم ولد اسمها الخيزران كانت مملوكا للمهدي وفي سنة ١٥٩ أعتقها وتزوجها أى بعد أن ولدت له الهادى والرشيد . ولد الهادى سنة ١٤٤ وولاه أبوه العهد وسنه ١٦ سنة وكان يولى قيادة الجنود فى المشرق فقادها فى نواحي جرجان لمحاربة الخارجين والمخالفين . وفى اليوم الذى توفى فيه أبوه كان مقبلا بجرجان وكان مع المهدي ابنه هارون فأخذله البيعة على الجنود وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالفضيب والبردة والتعزية والتهنئة وكان ذلك فى ٢٢ محرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) ولم يزل خليفة حتى توفى فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ (١٣ سبتمبر سنة ٧٨٦) فكانت مدته سنة وشهرا و ٢٢ يوما . وسنه حين مات ٢٦ سنة

وكان يعاصره فى الممالك الثلاث من كانوا يعاصرون أباه

الحال فى عهده

كان الهادى على سنن أبيه فى كراهة الزنادقة فالتفت إليهم ونسكل بهم تنكيلا والزندقة على ما يظن كانت عندهم عنوانا على ترك الدين والمجازفة فى التعبير عن الدين روى الطبرى أن من قتل الهادى يزدان بن باذان السكاتب . ذكر عنه أنه حج فظفر إلى الناس فى الطواف يهرولون فقال ما أشبههم إلا بقرة تدوس فى البيدر . وله يقول

العلاء بن الحداد الأعمى

أيا أمين الله فى خلقه * ووارث الكعبة والمنبر

ماذا ترى فى رجل كافر * يشبه الكعبة بالبيدر

ويجعل الناس إذا ماسعوا * حمرا تدوس البر والدوسر

وروى الطبرى بسنده أن المهدي قال يوما لموسى وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه يابى إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة (يعنى أصحاب ماني) فانها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور

وترك قتل الهوام تخرجاً وتحويلاً ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الاطفال من الطرق تتقدم من ضلال الظلمة إلى هداية النور فارفع فيها الخشب وجردها فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له فأتى رأيت جدك العباس في المنام قلدي بسيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين .

ومن غريب ما يروى أنه أتى للمهدى برجلين من بني هاشم أحدهما ابن داود بن علي والثاني يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وقد اتهما بالزندقة وأقرأ عنده بالزندقة فأما يعقوب بن الفضل فقال له أقرها بيني وبينك فأما أن أظهر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض فقال له ويحك لو كشفت لك السموات وكان الأمر كما تقول كنت حقيقاً أن تعصب لمحمد ولو لا محمد صلى الله عليه وسلم من كنت هل كنت إلا إنساناً من الناس أما والله لو لا أني كنت جعلت لله على عهدا إذ ولاني هذا الأمر ألا أقتل هاشمياً لما ناظرتك ولقتلتك ثم التفت إلى موسى الهادي فقال يا موسى أقسمت عليك بحق إن وليت هذا الأمر بعدى ألا تناظرهما ساعة واحدة فمات ابن داود بن علي في الحبس قبل وفاة المهدي وأما يعقوب فبقي حتى مات المهدي وقدم موسى من جرجان فساعة دخل ذكر وصية المهدي فأرسل إلى يعقوب من أتى عليه فراشا وأعدت الرجال عليه حتى مات

ثورة الحسين بن علي

في عهد الهادي خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن المثلث سنة ١٦٩ وكان والي المدينة لوقته عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وسبب خروجه أن عمر بن عبد العزيز أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم فأمر بهم فضربوا جميعاً ثم أمر بهم فجعل في أعناقهم حبالاً وطيف بهم في المدينة فصار إليه الحسين بن علي فكلّمه فيهم وقال له ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأساً فلم تطوف بهم فبعث إليهم وقد بلغوا البلاط فردمهم وأمر بهم إلى الحبس فلبسوا يوماً وليلة ثم كلم فيهم فأطلقهم جميعاً

وكانوا يعرضون كما قدمنا « يراقبون » ففقد الحسن بن محمد وكان الحسين بن علي ويحيى ابن عبد الله بن الحسن كفلاه لأن العمري كان كفل بعضهم من بعض فغاب عن العرض ثلاثة أيام فأخذ الكفيلين وسألها عنه خلفا أنهما لا يدريان موضعه فكلهما بكلام أغلظ لهما فيه خلف يحيى بن عبد الله ألا ينام حتى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره حتى يعلم أنه قد جاءه به فلما خرجا قال الحسين سبحان الله مادعاك إلى هذا وأين تجد حسناً حلفت له بشيء لا تقدر عليه قال والله لا نمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال حسين تكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة قال قد كان الذي كان فلا بد منه وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمضى أو بمكة أيام الموسم وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم ومن كان بايع الحسين بن علي ففي آخر الليل خرجوا وجاء يحيى بن عبد الله حتى ضرب باب دار مروان على العمري فلم يجده فيها وتوارى منهم فجاؤا حتى اقتحموا المسجد . ولما أذن الصبح جلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء وجعل الناس يأتون المسجد فاذا رأوهم رجعوا ولا يصلون فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم للترضى من آل محمد وقاومهم جماعة من نصراء الدولة فلم يفلحوا ولما تم للحسين بن علي ما أراد انتهت جماعته ما في بيت المال

أقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج أحد عشر يوماً ثم فارقها لست بقين من ذى القعدة قاصداً مكة

اتمى خبر الحسين إلى الهادى وقد كان حج في تلك السنة رجال من أهل بيته منهم محمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد وموسى بن عيسى سوى من حج من الأحداث وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر المنصور فأمر الهادى بالكتاب بتولية محمد ابن سليمان على الحرب فلقبهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحج . وكان محمد بن سليمان قد خرج في عدة من السلاح فشمز للحرب وسار نحو الحسين بن علي فلقبه بنفخ وكانت عاقبة الواقعة أن قتل الحسين بن علي الثائر وجماعة ممن معه وأفلت من الواقعة رجلان لهما تاريخ جليل وهما إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي أخو محمد النفس الزكية وهو مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى والثاني أخوه يحيى ابن عبد الله الذى ذهب إلى بلاد الديلم وسيأتي خبرهما في دولة الرشيد

ومما يحسن ذكره مارواه الطبري قال دخل عيسى بن داب على موسى بن عيسى عند منصرفه من فخ فوجده خائفاً يلتمس عذراً من قتل من قتل فقال أصلح الله الأمير أنشدك شعراً كتب به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن علي رضي الله عنه قال أنشدني فأنشده

يا أيها الراكب الغادي لطيته ◦ على عذافرة في سيرها قم
أبلغ قريشا على شحط المزاربها ◦ بيني وبين حسين الله والرحم
وموقف بقاء البيت أنشده ◦ عهد الاله وما ترعى به الذمم
عنقتم قومكم نفرا بأمكم ◦ أم حصان لعمري برة كرم
هي التي لا يداني فضلها أحد ◦ بنت النبي وخير الناس قد علموا
وفضلها لكم فضل وغيركم ◦ من قومكم لهم من فضلها قسم
إني لأعلم أو ظنا كعالمه ◦ والظن يصدق أحيانا فيتظم
أن سوف يترككم ما تطلبون بها ◦ قتلى تهادكم العقبان والرخم
يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ خدت ◦ ومسكوا بحبال السلم واعتصموا
لا تركبوا البغي إن البغي مصرعة ◦ وإن شارب كأس البغي يتخم
قد جرب الحرب من قد كان قبلكم ◦ من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهاكوا بذخا ◦ فرب ذى بذخ زلت به القدم

قال فسرى عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه

صفات الهادي

كان الهادي شديد الغيرة على حرمه ويشبه في ذلك سليمان بن عبد الملك في نبي أمية وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد أن كان لها من نفوذ الأمر في عهد المهدي ما لم يسكن لامرأة غيرها (قالوا) كانت الخيزران في أول خلافة موسى الهادي تفتت عليه في أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي فأرسل إليها ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاعة التبذل فانه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك وعليك بصلاتك وتسيحك وتبتلك وكانت الخيزران في خلافة موسى كثيرا ما تكلمه في الحوائج

فكان يجيها إلى كل ما سأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته واثال الناس عليها وطمعوا فيها فكانت المواكب تغدو إلى بابها فكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً فاعتل بعلة فقالت لا بد من إجابتي قال لأفعل قالت فاني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك فغضب موسى وقال وبلي على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لا قضيتها لك قالت إذا والله لأسألك حاجة أبداً قال إذا والله لأبالي وحى غضبه فقامت مغضبة فقال مكانك تستوعبي كلامي والله وإلا فانا نفي من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لئن بلغني أنه وقف ببابك أحدمن قوادى أو أحد من خاصتي أو خدماً لأضرب عنقه ولا قبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم أمالك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك إياك ثم إياك ما فتحت بابك للمسلم أو ذى فالصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها .

وكان شجاعاً قويا روى عنه أنه كان يثب على الدابة وعليه درعان وكان يرى أن الناس لا يصلحون إذا حجب خليفتهم عنهم حتى أنه قال للفضل بن الربيع الذي أقامه في حجابته بعد أبيه لا تحجب عنى الناس فإن ذلك يزيل عنى البركة ولا تلق إلى أمرا إذا كشفته أصبته باطلاً فإن ذلك يوقع الملك ويضر بالرعية . وقال مرة لعلى بن صالح ائذن للناس على بالجفلى لا تقرى ففتحت الأبواب فدخل الناس على بكرة أبيهم فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل .

وكان الهادى يشرب النيذ ويسمع الغناء وهو أول من فعل ذلك من خلفاء بنى العباس وأهل العراق يتوسعون في أمر النيذ فيجيزون منه ما لا يسكر وكان كريماً يشبه أباه في أعطياته . ولم تطل مدته في الخلافة حتى يكون له في أحوال الأمة أثر ظاهر

ولاية العهد

كان الرشيد ولى العهد بمقتضى عقد المهدي نخطر للهادى أن يخلعه ويعهد إلى ابنه جعفر وتابعه على ذلك القواد ودسوا إلى الشيعة فتكلموا في أمر الرشيد وتقصوه في مسجد الجماعة وقالوا لا نرضى به . وأمر الهادى ألا يسار بحربة أمام الرشيد ومريوما

هو وجعفر بن الهادى را كبين فبلغا قنطرة من قنطرة عيساباذ فالتفت أبو عصمة الشرطى إلى هارون فقال له مكانك حتى يجوز ولى العهد فقال هارون السمع والطاعة للأمر فوقف حتى جاز جعفر . دعا ذلك إلى اجتناب الرشيد فلم يكن أحد يجترئ أن يسلم عليه ولا يقربه وكان يحيى بن خالد يقوم بانزال الرشيد ولا يفارقه فسعى إلى الهادى أن الذى يفسد عليك هارون هو يحيى وكان هارون قد طاب نفسا بالخلع فقال له يحيى لا تقبل فدعا الهادى يحيى وكله فى ذلك فقال يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعه أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أو كد لبيعتة فقال له الهادى صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير . ومع ظهور اقتناع الهادى بصحة رأى يحيى لم يتركة مشيروه بل مازالوا يحرصونه على الرشيد حتى جد فيه واشتد غضبه منه وضيق عليه فأشار يحيى على الرشيد أن يستأذنه فى الخروج إلى الصيد فأذن له الهادى . فلما غاب أكثر مما استأذن جعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل الرشيد حتى تفاقم الأمر وأظهر الهادى شتمه وبسطه وإليه وقواده ألسنتهم فيه

قطع ذلك النزاع كله مرض الهادى الذى لم يمهله إلا ثلاثة أيام . وقد اتهم الناس أمه الخيزران بسمه لما كان منه من غل يدها عن المداخلة فى أمر الملك ونهى القواد والرؤساء عن الدخول إليها وانضم إلى ذلك ما أوقع به الهادى من الاساءة إلى الرشيد وإرادة عزله أو قتله وكان الرشيد برآبها وقد يؤكد ذلك أنها أرسلت إلى يحيى والهادى مريض تعلبه أن الرجل لمآببه وتأميره بالاستعداد لما ينبغى فاستعد يحيى للأمر أكمل استعداد وهياً الكتب للعمال من الرشيد بوفاة الهادى وأنهم قد ولاهم الرشيد ما كانوا يلون . فلما مات الهادى نفذت الكتب على البرد وكانت وفاته بعيساباذ

٥ - الرشيد

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي وأمه أم الهادي ولد بالري سنة ١٤٥ و لما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الأمور . جعله أمير الصائفة سنة ١٦٣ وسنة ١٦٥ وفي سنة ١٦٤ و لاه المغرب كله من الأنبار إلى أطراف أفريقيا فكانت الولاية ترسل من قبله وفي سنة ١٦٦ جعله أبوه ولي عهد بعد الهادي . وفي سنة ١٦٩ وهي السنة التي توفي فيها المهدي أراد أن يقدمه على الهادي لما ظهر من شجاعته وعلو شأنه فخالته منية المهدي دون ذلك

بويج الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادي في ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ (١٤ سبتمبر سنة ٧٨٦) وسنه ٢٥ سنة ولم يزل خليفة إلى أن توفي في ثالث جمادى الآخرة سنة ١٩٤ (٢٤ مارس سنة ٨٠٨) فكانت مدته ٢٣ سنة وشهرين و١٨ يوما وكان سنه إذ توفي ٤٨ سنة

وكان يعاصره في الأندلس الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢) ثم هشام ابن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠) ثم الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦) وفي المغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (١٧٢ - ١٧٧) وهو أول المتغلبين من البيت الإدريسي ثم ابنه إدريس (١٧٧ - ٢١٣) ويعاصره في فرنسا شارل الكبير المعروف بشارلما (٧٦٧ - ٧١٤) ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين السادس وكانت تدبره لصغره أمه أريني (٧٨٠ - ٧٩٧) ثم استبدت بالملك من سنة ٧٩٧ إلى سنة ٨٠٢ ثم خلعت وخلعها نقفور (٨٠٢ - ٨١١)

الحال لعهد

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة إلى أعظم درجاتها صولة وسلطانا وثروة وعلما وأدبا ارتقت فيه حضارة الدولة العلية والأدبية والمادية إلى أرقى درجاتها مما سنفصله بعد ووصل ترف الأمة في حضارة الدولة وغيرها من الحواضر إلى حد يؤذن بقرب الهبوط وكان في عهد الرشيد من كبار الرجال من

تردان بهم المالك من رجال الادارة والحرب فعظمت الهيبة في الداخل والخارج وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقي كما سنين ذلك كله مفصلا ونحن الآن ذاكرون الحوادث الكبرى التي كان لها أثر في مستقبل الأمة

الطالبون

كان الطالبون شغل بني العباس الشاغل فانهم كانوا لا يزالون متطلعين إلى نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تتحين الفرصة الملائمة لاقامة دولتهم وكان بنو العباس من أجل ذلك لا يأمنون جانبهم لكن الرشيد في أول ولايته أراد أن يستميل قلوبهم بشيء من الاحسان إليهم وكان أول ما فعله معهم أن رفع الحجر عن كان منهم ببغداد وسيرهم إلى المدينة ما خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن علي وكان أبوه الحسن فيمن أشخص . ومع هذا الذي بدا منه لم يتركه الطالبون على سجيته فكان من أول الخارجين عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وهو من الناجين من وقعة فنج التي كانت في عهد الهادي ذهب إلى بلاد الديلم فاشتدت شوكته بها وقوى أمره ونزع إليه الناس من الأمصار والكور فاعتم الرشيد لذلك وترك شرب النبيذ ثم ندب إلى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد في خمسين ألفا ومعهم صناديد القواد فسار سميت يحيى فكاتبه ورفق به واستماله وحذره وأشار عليه وبسط أمره وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وحملت إليه فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطفه فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسره وعظم موقعه عنده وكتب الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل بذلك إلى يحيى فقدم عليه وورد به الفضل ببغداد فلقية الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقا سنوية وأنزله منزلا سريا بعد أن أقام بمنزل يحيى بن خالد أياما وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكفل ذلك إلى غيره وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه وبلغ الرشيد الغاية من إكرام الفضل لذلك وسنين خاتمة أمره في حديث نكبة البرامكة ولم يترتب على خروج يحيى هذا انفصال شيء من جسم الخلافة الاسلامية

إدريس بن عبد الله

كان إدريس بن عبد الله بن الحسن بن هرب من وقعة فح وهذا أخو يحيى سار إلى مصر ومنها أتجه إلى بلاد المغرب الأقصى فالتف عليه برابرة أوربه فكون هناك أول خلافة للعلويين وهي دولة الأدارسة وكان نزوله بمدينة ولبلى سنة ١٧٢ وكانت بيعته في تلك السنة ولما بلغ هارون أن أمر إدريس قد استقام ببلاد المغرب وكثرت جنوده وفتح بلاد تلسان وأنه عازم على غزو أفريقية هم أن يرسل إليه جيشاً ولكن عدل عن ذلك لبعدا الشقة واختار رجلاً داهية اسمه سليمان بن جرير ويعرف بالشيخ وطلب منه أن يفتل إدريس وزوده مالا وطرفاً يستعين بها على أمره فسافر الرجل ووصل إلى إدريس مظهراً النزوع إليه متبرئاً من الدعوة العباسية فقبله إدريس واختص به وأعجب بحديثه ولما انتهز الفرصة سمه إماماً في طيب وإماماً في سنون وفر هارباً فسات إدريس سنة ١٧٧ ولم يكن له ولد إلا أمة كانت حاملاً فانتظروا وضع حملها فوضعت ولداً ذكراً سمي إدريس على اسم أبيه وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الأدارسة بالمغرب رغم أنف الرشيد

بذلك تم خروج اقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية وهما بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية الأموي وبلاد المغرب الأقصى مع تلسان على يد إدريس ابن عبد الله

كان الرشيد بسبب هذه الحوادث يخاف الطالبيين جداً ومن اتهم من الناس بالميل إليهم عاقبه أشد العقوبات وأخذ موسى بن جعفر المعروف بالكاظم إلى بغداد فأقام بها إلى أن مات وهو السادس من أئمة الشيعة الإمامية

الخارجون عليه من غير العلويين

لم يكن اضطراب الدولة وزعزعة الأمن ناشتاً من العلويين وحدهم بل كان هناك فريق من الأمة ينعى على الخلفاء استبدادهم وخروجهم عما توجهه الأوامر الشرعية من كتاب الله وسنة نبيه وقد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على علي بن أبي طالب إلى زمن الرشيد إلا أن خلفاء بني أمية قد أخفتوا صوتهم بما كانوا يجردون لهم من

الجيوش الجرارة على يد أمهر القواد كالمهلب بن أبي صفرة وغيره ومع ذلك فانهم لم يقدروا على افناء روحهم الثورية من الامة فكان لايزال يخرج منهم خارجة متى ظهر فيهم ذومقدرة وكفاءة لخوض الحروب . وقد اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولى بأس شديد أعادوا تاريخ أسلافهم في عهد بني أمية بعد أن كانت نيرانهم قد خبت مدة طويلة وأشهر هؤلاء الخوارج ذكرا وأعظمهم أثرا الوليد بن طريف الشاري الشيباني كان بطلا شجاعا يقيم بالجزيرة بنواحي نصيين خرج على الرشيد سنة ١٧٨ ففتك بابراهيم بن خازم بنصيين ثم مضى منها إلى أرمينية ثم رجع إلى الجزيرة سنة ١٨٩ واشتدت بها شوكته وكثرت أتباعه بعد أن هزم للرشيد جيوشاً عدة فاهتم الرشيد بأمره جد الاهتمام ورأى أن يوجه اليه من ربيعة من يمكنه القيام في وجهه فوقع اختياره على يزيد بن مزيد الشيباني وهو ابن أخي معن بن زائدة فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويمسك به متبعا في ذلك طريقة المهلب بن أبي صفرة مع قطري بن الفجاءة وكانت البرامكة منحرفين على يزيد فقالوا له إنه يراعيه لأجل الرحم والافشوكة الوليد يسيرة فوجه اليه الرشيد كتاب مغضب وقال ولو وجهت أحدا من الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم بالله لن أنخرت مناجزة الوليد ليعثن اليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين فلقى يزيد الوليد ولما اصطفت جيشاهما وشبت الحرب ناداه يا وليد ما حاجتك إلى التستر بالرجال ابرزلى فقال نعم والله فبرز الوليد وهو يرتجز

أنا الوليد بن طريف الشاري • قسورة لا يصطلي بناري

جوركم أخرجني من داري

وبرز إليه يزيد ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد فطاردا ساعة وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكنك يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحترأوا رأسه وكانت هذه الواقعة بالحديثة على فراسخ من الأنبار سنة ١٧٩ ثم وجه يزيد برأس الوليد وبكتاب الفتح إلى الرشيد . ومن أطف الرثاء ما قالته الفارعة أخت الوليد

بتل نهاكي رسم قبر كأنه • على جبل فوق الجبال منيف

تضمن مجدا عدليا وسوددا • وهمة مقدم ورأس حصيف

فياشجر الخابور مالك مورقا • كأنك لم تجزع على ابن طريف
 قتي لا يحب الزاد إلا من التقي • ولا المال إلا من قنا وسيوف
 ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم • معاودة للكر بين صفوف
 كأنك لم تشهد هناك ولم تقم • مقاما على الأعداء غير خفيف
 ولم تستلم يوما لورد كريهة • من السرد في خضراء ذات رفيف
 ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح • وسمر القنا ينكرنها بأنوف
 حليف الندى ما عاش يرضى به الندى • فان مات لا يرضى الندى بحليف
 فقدناك فقدان الشباب وليتنا • فدينناك من قتياتنا بألوف
 وما زال حتى أزهق الموت نفسه • شجا لعدو أو نجا لضعيف
 ألا بالقوم للحمام وللبللى • وللأرض همت بعده برجوف
 ألا بالقوى للنواب والردى • ودهر ملح بالكرام عنيف
 وللبدر من بين الكواكب إذهوى • وللشمس لما أزمعت لكسوف
 وليث كل الليث إذ يحملونه • إلى حفرة ملحودة وسقيف
 ألا قاتل الله الحشى حيث أضمرت • قتي كان للبعروف غير عيوف
 فان يك أوداه يزيد بن مزيد • فرب زحوف لفها بزحوف
 عليه سلام الله وقفائتي • أرى الموت وقاعا بكل شريف

خطر المشرق

وضع الخطر على الدولة من قبل المغرب فقد انتقصت أطرافها بخروج عبدالرحمن
 ابن معاوية وإدريس بن عبد الله وليس الخطر على هذا الطرف بأقل أثرا من الخطر
 على الطرف الآخر وهو مشرق الدولة وراء نهر جيحون فقد حصل ما يؤذن بخطر
 مستقبل من جراء والى خراسان

استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد فى تولية على بن عيسى بن ماهان خراسان
 فأشار إليه ألا يفعل يخالفه الرشيد وولاه إياها فلما شخص إليها ظلم الناس وجمع
 مالا جليلا ووجه إلى الرشيد بهدايا لم ير مثلها من الخيل والرقيق والثياب والأموال
 فقعد الرشيد بالشامية على دكان مرتفع حين وصل إليه ما بعث به على بن عيسى

وإلى جانبه يحيى بن خالد فقال له هذا الذى أشرت ألا نوليه هذا الثغر فقد خالفناك فيه فكان فى خلافتك بركة وهو كالمزاح معه إذ ذاك فقال يحيى يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك أنا وإن كنت أحب أن أصيب فى رأى وأوفق فى مشورتى فأنا أحب إلى من ذلك أن يكون رأى أمير المؤمنين أعلى وفراسته أنقب وعله أكثر من على ومعرفته فوق معرفتى وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن فيه ما يكره أمير المؤمنين وأسأل الله أن يعيده ويعفيه من سوء عاقبته وتناجى مكروهه قال وما ذاك قال أحسب أن هذه الهدايا ما اجتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف وأخذ أكثرها ظلما وتعديا ولو أمرنى أمير المؤمنين لأتيت به بضعفها الساعة من بعض تجار السكرخ قال وكيف ذلك قال قد ساومنا عوننا على السفط الذى جاءنا به من الجوهرو أعطينا به سبعة آلاف ألف فأبى أن يبيعه فأبعث إليه الساعة بحاجى يأمره أن يرده إلينا لنعيد فيه نظرننا فإذا جاءنا به جحدناه وربحنا سبعة آلاف ألف ثم كنا نفعل بتاجر من تجار السكرخ مثل ذلك وعلى أن هذا أسلم عاقبة وأستر أمرا من فعل على بن عيسى فى هذه الهدايا بأصحابها فأجمع لأمير المؤمنين فى ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعى وأيسر أمر وأجمل جباية مما جمعه على فى ثلاث سنين . فوفرت فى نفس الرشيد وحفظها وأمسك عن ذكر على بن عيسى فلما عاث على بن عيسى بخراسان ووتر أهلها وأخذ أموالهم واستخف برجالهم كتب رجال من كبرائهم ووجهائهم إلى الرشيد وكتب جماعة من كورها إلى قراباتهم وأصحابهم يشكون سوء سيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه وتساءل أمير المؤمنين أن يبدلها به فدعا يحيى بن خالد فشاوره فى أمر على بن عيسى وفى صرفه فأشار عليه بيزيد بن مزيد فلم يقبل مشورته . وكان قيل للرشيد إن على بن عيسى أجمع على خلافتك فشخص إلى الرى من أجل ذلك فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقية من جمادى الأولى سنة ١٨٩ ثم سار إلى الرى ثم إلى قرماسين ثم عاد إلى الرى فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه على بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطرف وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم فرأى الرشيد منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يقال فيه فرضى عنه وردده إلى خراسان وخرج وهو مشيع له

عاد علي بن عيسى إلى مرو ناقصاً على كل من يظن أنه تكلم فيه بسوء فأذى الناس وأخذ منهم الأموال ظلماً . وحصل في تلك الظروف أن أعلن العصيان رافع بن ليث ابن نصر بن سيار وجده نصر من قد عرفتم في التاريخ الأموي . أما رافع فيظهر أنه كان ممن يتخذ دين الله هزواً ولعباً ويتضح ذلك من السبب الذي من أجله تار . كان يحيى بن الأشعث الطائي تزوج ابنة عمه وكانت ذات يسار ولسان فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند فلما طال مقامه بها وبلغها أنه قد اتخذ أمهات أولاد التمسست سبياً للتخلص منه وبلغ رافعا خبرها فطمع فيها وفي مالها فندس إليها من قال لها إنه لا سبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله وتحضر لذلك قوما عدولاً وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تتوب فتحل للأزواج ففعلت ذلك وتزوجها رافع وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث فرفعه إلى الرشيد فكتب إلى علي بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعا ويجلده الحد ويقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيداً على حمار حتى يكون عظة لغيره فندراً عنه سليمان بن حميد الحد وفعل به العقوبات الأخرى وحبسه فهرب من الحبس ولحق بعلي بن عيسى طالبا أمانه فلم يجبه على إليه وهم بضرب عنقه فكلمه فيه ابنة عيسى بن علي وجدد طلاق المرأة وأذن له في الانصراف إلى سمرقند فانصرف إليها فوثب بعاملها سليمان بن حميد فقتله فوجه إليه علي بن عيسى ابنة عيسى وكان أمره قد استفحل بسمرقند وبايعه الناس وطابقه من وراء النهر فلقى رافع عيسى بن علي وهزمه . فأخذ علي في فرض الرجال والتأهب للحرب . أما رافع فإنه غلظ أمره وكان به أهل نسف يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن علي فوجه صاحب الشاش في أتركة وقائدأ من قواده فأتوا عيسى ابن علي فأحدقوا به وقتلوه ولم يعرضوا لأصحابه وكان علي بن عيسى في ذلك الوقت يبلغ فلما سمع ما أصاب ابنة خرج عنها حتى أتى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولى عليها وكان عيسى ابنة قد دفن في بستان داره يبلغ أموال العظيمة قيل إنها كانت ثلاثين ألف ألف ولا يعلم بها علي بن عيسى ولا اطلع عليها إلا جارية كانت له فلما شخص علي إلى بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به للناس فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتبهوه وأباحوه للعامة فبلغ الرشيد الخبر فقال خرج من بلخ بغير إذني وخلف مثل هذا المال وهو يزعم أنه قد أفضى إلى حلي

نساته فيما أنفق على محاربة رافع . في ذلك الوقت تبين له خيانة الرجل وجبنه وسوء سياسته لأهل ولايته فعزم على خلعه ومصادرته فأحضر هرثمة بن أعين وهو قائد شجاع بطل فقال له إنى لم أشاور فيك أحداً ولم أطلع على سرى فيك وقد اضطربت على ثغور المشرق وأنكر أهل خراسان أمر على بن عيسى إذ خالف عهده ونبذه وراء ظهره وقد كتب يستمد ويستجيش وأنا كاتب إليه فأخبره أنى أمده بك وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة ما يطمئن إليه قلبه وتتطلع إليه نفسه وأكتب معك كتاباً بخطى فلا تفضه ولا تطلعن فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور فاذا نزلتها فاعمل بما فيه وامثله ولا تجاوزه إن شاء الله وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى على بن عيسى بخطى ليتعرف ما يكون منك ومنه وهون عليه أمر على فلا تظهره عليه ولا تعلمنه ما عزمت عليه وتأهب للمسير وأظهر لخاصتك وعامتك أنى أوجهك مدداً لعلى بن عيسى وعونا له . وكان كتابه لعلى بن عيسى مبدوماً بهجروفيه توييخ وتقريع له على مخالفته وإعلام له بما أمر هرثمة أن يفعله معه . أما عهده لهرثمة فهو :

(هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته وأن يجعل كتاب الله إماماً له في كل ما هو بسيله فيحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولى الفقه في دين الله وأولى العلم بكتاب الله أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشده . وأمره أن يستوثق من الفاسق على ابن عيسى وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيه المسلمين فاذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك نظرت في حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذى حق حتى يرده إليهم فان ثبتت قبلهم حقوق أمير المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نعمته حتى يبلغ بهم الحال التى إن تخطاها بأذى أدب تلفت نفوسهم وبطلت أرواحهم فاذا خرجوا من حق كل ذى حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملابس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك

فاني آثرت الله ودينى على هواى وارادتى فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك
 ودبر فى عمال الكور الذين تمر بهم فى صعودك مالا يستوحشون معه إلى أمر يريهم
 وظن يرفعهم وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما
 يرضى الله منك وخليفتك ومن ولاك الله أمره إن شاء الله . هذا عهدى وكتابى بخطى
 وأنا أشهد الله وملائكته وحمله عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيدا) وكتب
 أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته

شخص هرثمة وقد اختار من ثقات رجاله ولادة على كور خراسان مع وصيتهم بكتان
 أمرهم إلى اليوم الذى عينه لهم حتى إذا وصل مرو خرج على بن عيسى لمقابلته لأن
 هرثمة لم يدع مجالاً للرية إلى قلبه فلما دخل المنزل أطلعه على كتاب الرشيد إليه
 وأول كلمة منه تنبى عن بقيته فأسقط فى يده وبعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيدته
 وكذلك قيد أولاده وكتابه وعماله ثم ذهب هرثمة إلى المسجد الجامع فخطب وبسط
 من آمال الناس وأخبرهم أن أمير المؤمنين ولادة تغورهم لما انتهى إليه من سيرة
 الفاسق على بن عيسى وما أمره به فيه وفى عماله وأعوانه وأنه بالغ من ذلك ومن
 إنصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وأمر بقراءة عهده
 عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجائهم وعلت بالتكبير والتهليل
 أصواتهم وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء . ثم صادر جميع ما يملكه
 على بن عيسى هو وأولاده وكتابه وأرسل كل ذلك إلى الرشيد وقالوا إنه حمل على ١٥٠٠
 بغير وأرسل هرثمة إلى الرشيد يخبره بما صنع . ولما استوفى ما عند على بن عيسى
 أرسله هو وأولاده فى الأغلال إلى بغداد

وقد اهتم هرثمة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد إلى الذهاب بنفسه
 لخر به فمضى يريد خراسان فى ربيع الآخر سنة ١٩٣ وهى السفرة التى مات فيها
 بطوس فلم يصل إلى ما أراد وبقي رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال

وزراء الرشيد

أول وزراء الرشيد يحيى بن خالد بن برمك . ولما كانت أسرة البرامكة من أعظم
 الأسر تاريخاً وأشهرها اسماً فى صدر الدولة العباسية أحببنا أن نشرح أوليتها

أسرة البرامكة

تنسب هذه الأسرة إلى جدها برمك وهو من مجوس بلخ وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ تو قد فيه النيران فكان برمك وبنوه سدة له وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم يعلم هل أسلم أولاً ، لما جاءت الدعوة العباسية خراسان كان خالد بن برمك من أكبر دعائها وزعمائها وكان ذاصفات عالية أهله للسيادة ورفعته القدر في صدر الدولة حتى استوزره أبو العباس السفاح بعدهلاك أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال فكان مديراً أمره غير أنه لم يكن يسمى وزيراً واستمر على ذلك حياة أبي العباس فلما ولي أبو جعفر أبي خالد في منصبه مدة ثم ولاءه فارس بتدبير أبي أيوب المورياتي الذي تولى الوزارة بعده فأقام فيها مدة ثم انكسرت عليه جملة من المال فحمل إلى بغداد وطولب بالمال ذكر الطبري في حوادث سنة ١٥٨ أن أبا جعفر أزمه ثلاثة آلاف ألف ونذر دمه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك فاستعان في ذلك أصدقائه فأعانه كثير منهم حتى جمع في يومين ألفي ألف وسبعمائة ألف درهم . وفي غد ذلك اليوم الذي أصيب فيه بهذه المصيبة ولاء المنصور ولاية الموصل وكان ممدوح الولاية حسن السيرة قال أحمد بن محمد بن سوار الموصل مهابنا قط أميراهيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرية ولكن هية كانت له في صدورنا واستمر والياً على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالد سنة ١٦٣ في أوائل خلافة المهدي أما يحيى بن خالد فكان واحداً الدنيا علماً وادباً وفضلاً ونبلاً وجوداً رباه أبوه فأحسن تربيته وكان مولده سنة ١٢٠ فكانت سنة حين جاءت الدولة العباسية اثنتي عشرة سنة فتربى في كنف الدولة وكان عضد أبيه في ملذاته وشدائده وقد اختاره المنصور لولاية إذربيجان سنة ١٥٨ قال له قد أردت لك لأمر مهم من الأمور واخترتك لشغل من الثغور وكانوا الأيولون ثغورهم إلامن كانت ثقتهم به عظيمة فسار في ولايته سيرة أبيه في الموصل واستمر بها حتى مات المنصور

وفي سنة ١٦٢ اختاره المهدي ليكون كاتباً ووزيراً لابنه هارون فكان معه يدبر أمره وهارون لا يناديه إلا بأبي وذلك لأن زوجة يحيى أم ابنه الفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون

وخرج معه في غزوة الصائفة سنة ١٦٣ وكان على أمر العسكر ونفقته وكتابته والقيام بأمره وكان في تلك الغزوة الربيع بن يونس الحاجب غازيا عن المهدي فكان الذي بين الربيع ويحيى على حسب ذلك وكان هارون يشاورهما ويعمّل برأيهما ولما نذب المهدي يحيى لذلك المهم قال له إني قد تصفحت أبناء شيعتي وأهل دولتي واخترت منهم رجلا لهارون ابني أضمه إليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوَقعت عليك خيرتي له ورأيتك أولى به إذ كنت مريه وخاصته وقد وليتك كتابته وأمر عسكره

ولما ولي المهدي ابنه هارون المغرب كله سنة ١٦٤ من الأنبار إلى أفريقية أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها واستمر على حاله تلك إلى أن مات المهدي ولما ولي الهادي أبقاه على حاله مع هارون حتى إذا خطر ببال الهادي أن يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى فانه هو الذي جرأه على الاستمسك بحقه الذي منحه إياه أبوه المهدي وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع فقال له يحيى لا تفعل فقال ليس يترك لي الهنيء والمرء فهمما يسعاني وأعيش مع ابنة عمي وكان هارون يجد بأم جعفر وجداً شديداً فقال له يحيى وأين هذا من الخلافة ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع ومنعه من الاجابة فسعى إلى الهادي بيحيى وقيل له إنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده يحيى ابن برمك فأرسل إليه الهادي وقال له لم تدخل بيني وبين أخي وتفسده على فقال يا أمير المؤمنين من أنا حتى أدخل بينكما إنما صيرني المهدي معه وأمرني بالقيام بأمره فقامت بما أمرني به ثم أمرتني بذلك فانهيت إلى أمرك . ثم قال له لما كلفه في أمر الخلع يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال صدقت ونصحت ولي في هذا تديير . ومما قاله له في هذا يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان الامر أسأل الله ألا نبغوه وأن يقدمنا قبله أنظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم . قال والله ما أظن ذلك قال يا أمير المؤمنين أفأمن أن يسموا إليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أهلك . فقال له نهنتي يا يحيى . قال وكان يقول : ما كلمت

أحدًا من الخلفاء كان أعقل من موسى وقال له لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك أما كان ينبغي أن تعقده له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي له ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله فاذا بلغ جعفر وبلغ الله به أنيته بالرشد نخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده فقبل الهادي قوله . ولكن يظهر أن الذي كان يحرك الهادي إلى خلع الرشيد مما لا يمكن مقاومته فاشتد غضبه منه وضيق عليه فقال يحيى هارون استأذن في الخروج إلى الصيد فاذا خرجت فاستبعد ودافع الأيام ففعل ذلك هارون وخرج إلى قصر مقاتل فأقام به أربعين ليلة حتى أنكر الهادي أمره وغمه احتباسه وجعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل عليه حتى تفاقم الأمر وأظهر شتمه وبسط مواله وقواده ألسنتهم فيه وكان الذي ينوب عن يحيى والرشيد بالباب الفضل بن يحيى فكان يكتب إلى أبيه بكل ما يحدث

ولما لم ير الهادي يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من إكرام ولا إقطاع ولا صلة بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكف عنه ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتل موسى عله التي مات فيها فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ودبره أحسن تدبير فقلده الرشيد وزارته وزارته تفويض حيث قال له قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنق إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وأمض الأمور على ما ترى ودفع إليه خاتمه وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولي هارون أشرق نورها

ييمن أمين الله هارون ذي الندى * فهارون واليهما ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها كان يحيى بما أوتيته من كريم الخلق وسباحة النفس وجودة الكتابة غرة في دولة الرشيد وكان قبلة الآمال ومنتجع الرواد . وقد ضم إليه الرشيد في سنة ١٧١ خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان

وكان ليحيى أربعة من الأولاد كلهم سادة نجب وهم الفضل وجعفر ومحمد

وموسى بنو يحيى

فأما المفضل فهو أكبر الاخوة ولد أو اخر سنة ١٤٨ قبل ولادة الرشيد بأيام وقد

أرضعت كلا منهما أم الآخر ولما شب كان لأبيه يحيى كما كان يحيى لأبيه خالد ولما
ولى أبوه وزارة الرشيد كان الفضل ينوب عنه في جلائل أعماله ولما ولد محمد الأمين
جعله الرشيد في حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أباً

وفي سنة ١٧٦ كان خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن ببلاد الديلم فأهم أمره
الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحيى فولاه كور الجبال والرى
وجرجان وطبرستان وقومس وديباوند والرويان ولم يزل يحتال في أمر يحيى حتى
استنزله من معقله بأمان من غير أن يريق في ذلك نقطة دم إلا حسن السياسة وقد
عرف الرشيد ذلك للفضل فبلغ الغاية في إكرامه ومدحه شعراء العصر بسبب ذلك
فقال مروان بن أبي حفصة

ظفرت فلا شلت يد بركية * رتقت بها الفتق الذي بين هاشم
على حين أحيا الرايقين الثامه * فكفروا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة * من المجد باق ذكرها في المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزاً * لكم كلما ضمت قدح المساهم
وقال أبو ثمامة الخطيب

للفضل يوم الطالقان وقبله * يوم أناخ به على خاقان
مامثل يوميه اللذين تواليا * في غزوتين توالتا يومان
سد الثغور ورد ألفة هاشم * بعد الشتات فشمها متدان
عصمت حكومته جماعة هاشم * من أن مجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التي عن لبسها * عظم النبا وتفرق الحكمان

وفي سنة ١٧٨ ولاة الرشيد خراسان وثغورها فأحسن السيرة بها وبنى بها
الرباطات والمساجد . غزا ما وراء النهر فخرج إليه ملك اشروسنة وكان ممتنعاً . ويقال
إنه اتخذ بخراسان جنداً من العجم ساهم العباسية وجعل ولائهم له وإن عدتهم بلغت
٥٠٠٠٠٠ رجل وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسماوا ببغداد الكرنية
وخلف الباقي منهم بخراسان على أسماهم ودقاتهم وفي ذلك يقول مروان ابن
أبي حفصة

ما للفضل إلا شهاب لأفول له * عند الحروب إذا ما تأفل الشهب

حام على ملك قوم غر سهمهم * من الوراثة في أيديهم سبب
 أمست يدلبنى ساقى الحجيج بها * كتائب مالها في غيرهم أرب
 كتائب لبني العباس قد عرفت * ما ألفت الفضل منها العجم والعرب
 أثبت خمس مئين في عدادهم * من الألوף التي أحصت لك الكتب
 يقارعون عن القوم الذين هم * أولى بأحمد في الفرقان إن نسبوا
 إن الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق * يبقى على جود كفيه ولا ذهب
 مامر يوم له من شد مزره * إلا تمول أقوام بما يهب
 كم غاية في الندى والبأس أحرزها * للطالبيين مداها دونه تعب
 يعطى الهاحين لا يعطى الجوادولا * يبدو اذا سلت الهندية القضب
 ولا الرضا والرضا لله غايته * إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
 قد فاض عرفك حتى ما يعادله * غيث مغيث ولا بحر له حذب

ولما قدم من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله وتلقاه بنو
 هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف فوصلهم وأحسن جوائزهم وكان
 رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين بأطرافها وذلك سنة ١٧٩
 كان الفضل في جميع الأعمال التي أسندت إليه كفؤاً نزيهاً وكان من أكثر البرامكة
 كرماً وكان أكرم من أخيه جعفر . وكان الناس يسمونه في بدء أعماله بالوزير الصغير
 واستمر محمود السيرة مرفوع الرأس كافي المهمات حتى كانت النكبة الآتية ذكرها
 وأما جعفر فهو ثاني أولاد يحيى وكان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة
 وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها وكان
 سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه
 فكان أشهر من أن يذكر وكان من ذوى الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة
 وكان أبوه قد ضمه إلى أبي يوسف يعقوب القاضى حتى علمه وفقهه وكان الرشيد
 يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق
 الفضل . وقال الرشيد يوماً ليحيى ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير
 ولا يسمون جعفرًا بذلك فقال يحيى لأن الفضل يخلفنى قال فضم إلى جعفر أعمالاً
 كأعمال الفضل فقال يحيى إن خدمتك ومناذمتك يشغلانه عن ذلك فجعل إليه امر

دار الرشيد فسمى بالوزير الصغير وقال له يوماً قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر وقد استحيت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب أنت إليه فكتب يحيى إلى الفضل قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك فأجابته الفضل قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخي وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه فقال جعفر لله در أخي ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منة العقل عنده وأوسع في البلاغة ذرعه .

وفي سنة ١٧٦ ولاة الرشيد مصر زيادة على ماله من الأعمال في دار السلام فولاه من قبله عمر بن مهران

وفي سنة ١٨٠ هاجت العصية بالشام بين أهلها وتفانم أمرها فاغم الرشيد لذلك فعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا فقال له جعفر بل أفيك بنفسى فشخص في جملة القواد والكراع والسلاح فأصلح بين الناس وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها ريحاً ولا فرساً فعادوا إلى الأمن والطمأنينة وأطفأت تلك النائرة وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال منصور النعمري

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة * فهذا أوان الشام تخمد نارها
 إذا جاش موج البحر من آل برمك * عليها خبت شهبانها وشرارها
 رماها أمير المؤمنين بجعفر * وفيه تلافى صدعها وانجبارها
 رماها بميمون النقية ماجد * تراضى به قحطانها ونزارها
 تدلت عليهم ضخرة برمكية * دموغ لهام الناكثين انحذارها
 غدوت تزجي غاية في رؤسها * نجوم الثريا والمنايا ثمارها
 إذا خفت راياتها وتجرت * بها الريح هال السامعين انبهارها
 فقولوا لأهل الشام لا يسلبنكم * حجاكم طويلات المنى وقصارها
 فان أمير المؤمنين بنفسه * أناكم وإلا نفسه فخيارها
 هو الملك المأمول للبر والتقى * وصولاته لا يستطاع خطارها
 وزير أمير المؤمنين وسيفه * وصعدته والحرب تدمى شفارها
 ومن تطو أسرار الخليفة دونه * فعندك مأواها وأنت قرارها

وفيت فلم تغدر لقوم بذمة * ولم تدن من حال ينالك عارها
 طيب باحياء الأمور إذا التوت * من الدهر أعناق فأنت جبارها
 إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له * ملبات خطب لم ترعه كبارها
 لقد نشأت بالشام منك غمامة * يؤمل جدواها ويخشى دمارها
 فطوبى لأهل الشام ياويل أمها * أتاها حياها أو أتاها بوراها
 فان سالموا كانت غمامة نائل * وغيث وإلا فالدماء قطارها
 أبوك أبو الأملك يحيى بن خالد * أخو الجود والنعمى الكبار صغارها
 كأين ترى في البرمكيين من ندى * ومن سابقات ما يشقى غبارها
 غدا من نجوم السعد من حل رحله * إليك وعزت عصبه أنت جارها
 عذيري من الأقدار هل عزماتها * مخلقتى عن جعفر واقتسارها
 فعين الأسي مطروقة لفراقه * ونفسى إليه ما ينام ادكارها
 ولما شخص جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد له إكراما وخطب جعفر أمامه
 خطبة جميلة استشفع فيها لأهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم
 وفي هذه السنة ولاء الرشيد خراسان ثم عزله منها بعد عشرين ليلة وولاه الحرس
 وكان يخلفه في هذا العمل هرثمة بن أعين وهو من كبار قواد الدولة
 وفي سنة ١٨٢ بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد
 الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى ليكون المدبر لأمره كما كان الأمين مع الفضل بن
 يحيى وقد جعل الرشيد الأمين والى المغرب كله والمأمون والى المشرق كله وكانت الولاية
 التي ترسل إلى الأقاليم من قبل ولى العهد
 وأمام موسى بن يحيى فكان أشجع القوم وأشدهم بأسا لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه
 الفضل وجعفر إلا أنه كان في تلك الدولة عاملا سريا وقائدا بأسلا ولاء الرشيد
 الشام سنة ١٧٦ لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التي ذهب فيها أخوه جعفر
 وضم إليه من القواد والجناد ومشايخ الكتاب جماعة فلما ورد الشام أقام بها حتى
 أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها فأنهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام
 ورد الرشيد الحكم فيهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وعمما كان بينهم وأقدمهم بغداد
 فقيل في موسى بن يحيى :

قد هاجت الشام هيجاً * يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها * بخيله وجنوده
فدانت الشام لما * أتى بسنخ وحجده
هو الجواد الذي بذلك جود بجوده
أعداه جود أيه * يحيى وجود جدوده
جاء موسى بن يحيى * بطارف وتليده
ونال موسى ذرى المجيد وهو حشو مهوده
خصصته بمديحي * منثوره وقصيده
من البرامك عود * له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طرا * خفيفه ومديده

وقد اتهمه على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب في اضطراب خراسان عليه وأعله طاعة أهلها لموسى ومحبتهم إياه وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلاخ اليهم الوثوب به معهم فوق ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه فلما قدح على بن عيسى فيه أسرع ذلك في الرشيد وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرماثة فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له فلما صار إلى الحيرة في حجه سنة ١٨٧ وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس ابن عيسى بن موسى فركبت أم الفضل بن يحيى في أمره ولم يكن الرشيد يردّها في شيء فقال يضمّنه أبوه فقد رفع إلى فيه فضمّنه يحيى ودفعه إليه ثم رضى عنه الرشيد وخلع عليه وأما محمد بن يحيى فكان سرّياً بعيدالهمة ولم يكن له من الشهرة ما لاخوته كانت هذه الأسرة في عهد الرشيد غرة في جبين دولته جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاص وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام كما كانوا امبرزين في حلبة الجود والسخاء تهزهم الأريحية عند سماع المدح فيجدون بما ضمن به الكرام حتى أنسوا الناس ذكر الأولين

خدمت هذه الأسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد بن برمك من كبار دعاةها وقوادها إلى هذه السنة سنة ١٨٧ التي نسط فيها أخبار نكبتها على يد الرشيد

نكبة البرامكة

أولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم في تعرف أسباب إيقاع الرشيد بهم . لم يكن هذا العمل بدعا في الدولة العباسية فان للنصور والمهدى سلفا في ذلك فقد أوقع المنصور بوزيره أبي أيوب المورياني قتله هو وأقاربه واستصنى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم وأوقع المهدى بوزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحسن سيرته ومع ما كان للمهدى من الولوع بالثاني حتى كتب للجمهور أنه اتخذ أخا في الله . كل هذا قد سبق به الرشيد

يرى المؤرخ أن هذا طبيعة الملك الاستبدادي يحب الملك فيه أن يكون ذا السلطان الذي لا يشارك والحول الذي لا يقاوم واليد الطولى التي لا تضارعهما يد وكبار الرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لا يقف عند حد في الانتفاع بتلك السابقة لهم فلا يزالون يرتفعون حتى تنبه إليهم أفكار الخلفاء بما يليقهم إليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم فتدخل الغيرة في قلوب أولئك الخلفاء والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال فلا تزال معانيهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة تعظم وحيث يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الايقاع بمن كان سيفه الذي لا ينبو في الخطوب إشفاقا من هذا السيف أن ينقلب عليه فيقتنص منه ملكه الذي دونه كل شيء وليس هذا خاصا بالرشيد والبرامكة بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه إلا قليلا من الوزراء الذين يعلنون طباع الملك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد في قلوب الناس وقلب السلطان وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر لأنهم يتغلبون على مافي طبع الانسان من عدم الوقوف عند حد في العظمة والتكاثر في الأموال على أن أبا عبيد الله وزير المهدى مع نزاهته وبعده عما يوجب غيرة سلطانه جاءه أعداؤه من قبل ابنه فقالوا للمهدى إنه زنديق فقتله المهدى فكان ذلك سببا للوحشة بين المهدى ووزيره

كان يحيى بن خالد هو القائم بأمر الرشيد أيام المهدى وكان الرشيد يدعوه بأبي وكانت أم الفضل بن يحيى ظمرا للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بن

يحيى فكان يحيى هو الذى يكفله ويقوم بتربيته من لدن ولد إلى أن شب . وهو الذى كانت له اليد الطولى فى إخفاق المساعى التى بذلت لخلع الرشيد من ولاية العهد أيام الهادى فلما تولى الرشيد قلده وزارته ووزارة تفويض ثم ضم إليه وزارة الخاتم بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسى فاجتمعت له الوزارتان وأعانه فى العمل أبناؤه إلا أن الشهرة ونباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جميعا من الكفاية حتى روى القاضى يحيى بن أكرم قال سمعت المأمون يقول لم يكن يحيى بن خالد وولده أحد فى الكفاية والبلاغة والجلود والشجاعة قال القاضى فقلت يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم فقيمن الشجاعة فقال موسى بن يحيى وقد رأيت أن أوليه ثغر السند

ولم يكونوا فى الاتصال بالرشيد على درجة واحدة فكان يحيى صاحب المقام الأرفع وهو المدير أمر المملكة وحاله فى سنه وجماله قدره تبعده عما يدعو إليه الشباب من المنادمة وكان الفضل فى الأخلاق مثله فلم يكن يخف على قلب الرشيد لتشبهه بأبيه حتى كان الرشيد قد عتب عليه وثقل مكانه عليه لتركه الشراب معه فكان الفضل يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى ما شربته وكان مشغوبا بالسماع . أما جعفر فكان أخف الجميع على قلب الرشيد فكان لذلك يدخل فى منادمته حتى كان أبوه ينهيه ويأمره بترك الأنس به فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعو إليه ويقال إنه كتب إليه حين أعيته الحيلة فيه . إني إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وإن كنت لأخشى أن تكون التى لاشوى لها . وقد كان يحيى قال للرشيد يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك على منك فلو أعفيتهم واقتصررت به على ما يتولاه من جسم أعمالك كان ذلك واقعا بموافقتي وأمن لك على . قال الرشيد يا أبت ليس بك هذا ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل . ومن أجل ذلك كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيما جدا حتى كان يقضى أعظم الأمور فلا يرد له الرشيد قضاء

رأهم الناس بعد هذا العزمتين والشرف الباذخ منكوين على يد الرشيد بن يحيى وأخى الفضل وحبيب جعفر . فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الأنبار فى آخر ليلة من محرم سنة ١٨٧ بعد أوبة الرشيد من حجه وكتابه عهدى ولديه الأمين

والمأمون — ثم جسمه مصلوب ببغداد على ثلاثة جسور ثم أحرق . ويحيى بن خالد وأبناؤه الباقر بن موسى . ورأوا مصادرة لسكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق — ورأوا كتباً أرسلت إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم . وأمر بالنداء في جميع البرامكة أن لا أمان لمن آوهم إلا محمد بن خالد بن برمك وولده وأهله وحشمه فان الرشيد استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف برامته مما دخل فيه غيره من البرامكة . رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والأوهام ناسين ذلك لحادث فجأى حدث فغير قلب الرشيد هذا التغيير وأداه إلى هذا العمل شأن الناس في الأعصار كافة إذا عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع

نسب ذلك بعضهم إلى مجرد الملل والغيرة . وسئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ولكن طالت أيامهم وكل طويل يملول والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما رأوا مثلها عدلاً وأماناً وسعة أموالاً وفتوحاً وأيام عثمان رضى الله عنه حتى قتلوهما ، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بأمالهم دونه والملوك تنفَس بأقل من ذلك فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الأدلال خاصة الفضل وجعفر دون يحيى فإنه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأموال ولاذ من أعدائهم بالرشيد كالفضل بن الربيع وغيره فستروا المحاسن وأظهروا القبايح حتى كان ما كان

ونسب ذلك بعضهم إلى حادثة يحيى بن عبد الله بن الحسن الذى روينا حديث ذهابه إلى بلاد الديلم واستنزال الفضل بن يحيى إياه بأمان الرشيد — ذكر أبو محمد اليزيدى وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم ، قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره فأجابته إلى أن قال اتق الله فى أمرى ولا تعرض أن يكون خصمك غداً محمداً صلى الله عليه وسلم فواته ما أحدثت حدثاً ولا آويت محدثاً فرق عليه وقال اذهب حيث شئت من بلاد الله . قال وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل فأرد إليك أو إلى

غيرك فوجه معه من أداه إلى مأمته وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاصة خدمه فعلا الأمر فوجده حقا وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبا بخبره وقال وما أنت وهذا لا أم لك فلعل ذلك عن أمرى فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال مافعل يحيى بن عبد الله قال بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال — قال بحياتي — فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهنا وأصحهم فكرا فهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره فقال لا وحياتك ياسيدي ولكن أطلقته وعلبت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده قال نعم فعلت ما عدوت ما كان في نفسى فلما خرج أتبعه بصره حتى كاديتوارى عن وجهه ثم قال قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فسكان من أمره ما كان

ونسب ذلك بعضهم إلى حديث العباسة بنت المهدي التي رواها الطبري عن زاهر ابن حرب وتناقلها المؤرخون وزادوا عليها ونقصوا منها وهي حكاية مشهورة ونحن نريد أن نبين أن نكبة البرامكة ليست حادثة لجائية بل هي حادثة تقدمتها أسباب طويلة أتيج بعضها بعضا

كان من موالى العباسيين الفضل بن الربيع وقد قدمنا ذكر أبيه الربيع بن يونس في حياة المنصور والمهدي ولم يكن للفضل في أول خلافة الرشيد شيء من نباهة الذكر لأن الخيزران أم الرشيد كانت تمنعه أن يوليه شيئا في اليوم الذي توفيت فيه سنة ١٧٤ دعا به هارون فقال له وحق المهدي إنى لأهم لك بالليل بالشئ من التولية وغيرها فتمنعنى أمى فأطيع أمرها فخذ الخاتم من جعفر وكان بيده نيابة عن والده فقال الفضل بن الربيع لاسماعيل بن صبيح الكاتب أنا أجل أبا الفضل عن ذلك بأن أكتب إليه وأخذه ولكن أرى أن يبعث به . وهذه مجاملة سبها أن الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين ييدم كل شيء فأحب أن يتخذ عندهم يدا حتى لا يتخوفونه . وولى الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة وولايات أخرى

في سنة ١٧٦ حصلت حادثة يحيى بن عبد الله فاستنزه الفضل من معقله بأمان الرشيد فحضر إلى بغداد وأكرمه الرشيد لكن الزمان لم يطل على هذا الاكرام فان السعاة رفعوا عن يحيى ما يريب وكان الرشيد يرتاب بأقل شيء فرفع إليه

أن يحيى لا يزال يدعو إلى نفسه وإنما ينتظر الفرص وكان أكثر الناس سعاية في ذلك بكار بن عبد الله الزبيري وكان شديد البغض لآل أبي طالب ويبلغ عنهم هارون ويسىء بأخبارهم فكان من وراء تلك السعيات أن حبسه الرشيد وضيق عليه وحاول أن يقتله ولم يكن يمنع إلا خيفة أن يقول الناس فيه شيئاً لما كتبه من كتاب الأمان الذي استنزل به يحيى فأراد أن يأخذ من العلماء قولاً في أن ذلك الأمان لاغ فأحضر أبا البختری القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف فأما محمد بن الحسن فإنه قال له ما تصنع بالأمان لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً وليس هذا الجواب موافقاً لغرض الرشيد ولذلك احتتم هذه الكلمة على محمد - وأما أبو البختری فقال إن الأمان منتقض وأقبل يعد وجوه نقضه ولذلك قال له الرشيد أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك فخرق الأمان

ويظهر أن الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة للسعي يحيى بن عبد الله عند الرشيد لأن في قتله إذلالاً لمن كان السبب في استنزاله وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يسامهم لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سلطانهم والذي أوضح لنا أن الفضل بن الربيع هو الذي كان يحرك السعاة يحيى أن الرشيد لما كان يحتاج يحيى نظر يحيى إلى الفضل بن الربيع وقال له - هذا والله من آفاتك

كان من المفهوم بعد ذلك أن يجتهد البرامكة في تخليص يحيى ففعل جعفر فعلته التي قدمنا ذكرها والرشيد وإن كان يحتمل لجعفر كثيراً من الأدلال لا يحتمل له هذا لأنه متعلق بملكه - ومن الغريب ماورد في هذه الحادثة من أن الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يتربص بأحوال جعفر حتى اختار من خاص خدمه جاسوساً يعلم أخباره ويلقي بها إليه كانت هذه الحادثة سبباً للوشاية بالبرامكة في أخص صفات الوزراء وهي الاخلاص لملوكهم وذلك طعن من نفذ - وقر في نفس الرشيد شيء من ذلك وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي وهي التهمة التي استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبي عبيد الله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة

كان من الظاهر بعد ذلك أن تتجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثالهم وأثرهم وينفس

عليهم ما صار اليهم من عظيم الاموال وجلائل المدح وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واستراب بهم وظن كل منهم في الآخر الظنون روى بختيشوع الطيب عن أبيه جبريل قال إني لقاعد في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا إذن فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه رداً ضعيفاً فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال يا جبريل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك فقلت لا ولا يطمع في ذلك قال فما بالنا يدخل علينا بلا إذن فقام يحيى فقال يا أمير المؤمنين قدمني الله قبلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى حتى إن كنت لأدخل عليه وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب وإذا قد علمت فاني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الاذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك قال فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجهها وعيناه في الأرض ما يرفع إليه طرفه ثم قال — ما أردت ما تكره ولكن الناس يقولون . قال جبريل فظننت أنه لم يسبح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى .

وحدث محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبي جعفر قال دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان اليه فقال الرشيد لمسرور الخادم مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال فدخل فلم يقم اليه أحد فأربد لونه قال وكان الغلمان والحجاب إذا رأوه أعرضوا عنه قال فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعوها مرارا .

وحدث يعقوب بن إسحاق عن إبراهيم بن المهدي قال أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها فقال أمانعجب من منصور بن زياد قال قلت له فيماذا قال سألته هل ترى في دارى عيباً قال نعم ليس فيها لبنه ولا صنوبرة قال إبراهيم فقلت له الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف درهم وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين — قال هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له قال قلت إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول له يا أمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف درهم فأين نفقاته وأين صلاته وأين النواصب التي تنوبه وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك وهذه جملة سريعة إلى

القلب والوقف على الحاصل منها صعب قال إن سمع مني قلت إن لأمير المؤمنين نعماً على قوم قد كفروها بالستر أو باظهار القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي فوضعتها في رأس جبل ثم قلت للناس تعالوا فانظروا . وحدث زيد بن علي عن إبراهيم بن المهدي أن جعفر بن يحيى قال له يوماً (وكان جعفر صاحبه عند الرشيد وهو الذي قربه منه) إنى قد استربت بأمر هذا الرجل (يعنى الرشيد) وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق لى منه فأردت أن أعتبر ذلك بغيرى فكنت أنت فارمق ذلك في يومك هذا وأعلمنى ماترى منه قال إبراهيم ففعلت ذلك في يومى .

فلما نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت إلى شجرة في طريق فدخلتها ومن معى وأمرتهم باطفاء الشمع وأقبل الندماء يمرون بى واحدا بعد واحد فأراهم ولا يرونى حتى إذا لم يبق منهم أحد إذا أنا بجعفر قد طلع فلما جاوز الشجر قال اخرج يا حبيبي قال نخرجت فقال ما عندك فقلت حتى تعلمنى كيف علمت أنى ههنا قال عرفت عنايتك بما أعنى به وأنت لم تكن لتصرف أو تعلمنى ما رأيت منه وعلمت أنك تكره أن ترى واقفاً في مثل هذا الوقت وليس فى طريقك موضع أستر من هذا الموضع فقضيت بأنك فيه ثم قال فهات ما عندك قلت رأيت الرجل يهزل إذا جددت ويجد إذا هزلت قال كذا هو عندى فانصرف يا حبيبي

من كل هذا يتبين أن النفور والريبة وقعت فى قلب كل من الطرفين للآخر وتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يبعثه عليها إلا مراكز فى نفسه وأثبتته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة وكان الرشيد يتحين الفرصة للإيقاع بهم ولا سيما جعفراً لما كان منه من تخلص يحيى بن عبد الله وهذا دليل عدم الاخلاص للرشيد وللبيت العباسى . وقد قام الفضل بن الربيع بما انتدب إليه خير قيام وشايعة فى ذلك كثيرون وكانت زوجة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعفر لقيامه فى أمر المأمون فانه هو الذى قام فى ولايته العهد وجعله مناظراً لابنها الأمين وكانوا يتخوفون من جعفر أن يكون سبباً فى الايقاع بين الأخوين إذا حانت منية الرشيد لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة

فى سنة ١٨٦ حج الرشيد ولما انصرف من حجه أتى الأنبار ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيى فرضى عنه بعد غضبه عليه وفى غاية

المحرم أمر فيهم أمره قتل جعفرًا وحبس يحيى وابنيه وصادر أموالهم كلها وقد حبس يحيى مع الفضل ومحمد في دبر القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعدة من خدمهم وجواريتهم ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمهم بالثقيف بسخطه وجدد له ولهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم

حادثة عبد الملك بن صالح

هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس وهو في درجة السفاح والمنصور نسبا رفع إلى الرشيد أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها وأن البرامكة كانوا له عوناً والذي سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قامة فأحضر إلى الرشيد فلما دخل عليه قال «أكفرا بالنعمة وجحودا لجليل المنة والتكرمة» فقال يأمر المؤمنين «لقد بؤت إذا بالندم وتعرضت لاستحلال النقم وماذا لك إلا بغى حاسد نافسني فيك مودة القرابة وتقديم الولاية إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل في حكمها والتثبت في حادتها والغفران لذنوبها» فقال له الرشيد «أتضع لي من لسانك وترفع لي من جنانك هذا كاتبك قامة يخبر بك بك وفساد نيتك فاسمع كلامه» فقال عبد الملك «أعطاك ما ليس في عقده ولعله لا يقدر أن يعضني ولا يهتني بما لم يعرفه مني» وأحضر قامة فقال له الرشيد تقدم غير هائب ولا خائف قال أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك - فقال عبد الملك أهو كذلك يا قامة قال نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين - فقال عبد الملك كيف لا يكذب علي من خلقي وهو يهتني في وجهي - فقال له الرشيد وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعثوك وفساد نيتك ولو أردت أن أحجج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك فبم تدفعهما عنك فقال عبد الملك هو مأمور أوعاق مجبور فان كان مأمورا فعدو وإن كان عاقا ففاجر كفور أخير الله عز وجل بعداوته وحذر منه بقوله «إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم» قال فنهض الرشيد وهو يقول أما أمرك فقد وضع والكنى لأعجل حتى أعلم الذي يرضى الله فيك فانه الحكم بيني وبينك - فقال عبد الملك

رضيت بالله حكما وبأمر أمير المؤمنين حاكما فاني أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه
وأمر الله على رضاه

فلما كان بعد ذلك جاس مجلسا آخر فسلم عبد الملك لما دخل فلم يرد عليه الرشيد
فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجاذب منازعا فقال الرشيد له — قال
لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره قال وماذا قال لم ترد على السلام
نصف نصفه العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثارا للعدل واستعمالا
للحجة ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر وقال

أريد حياته ويريد قتلي — أما والله لكأني أنظر إلى شؤبويهما قد همع وعارضها
قد لمع وكأني بالوعيد قد أوري نارا تستطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤس
بلا غلاصم فهلا مهلابي والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدرو ألفت إليكم الأمور
أثناء أزمتهما فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل فقال
عبد الملك : اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيته التي استرعاك ولا تجعل
الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت
لك الطاعة وشددت أواخي ملكك بأثقل من ركني يللم وتركت عدوك مشتغلا
فأله الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن بلته بظن أفصح الكتاب لي بعضه أو يبغى
باغ ينهش اللحم ويلغ في الدم فقد والله سهلت لك الوعر وذلك لك الأمور
وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق
لك قمته كما قال أخو بني جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجته • بينان ولسان وجدل

لو يقوم الفيل أو فياله • زل عن مثل مقامي وزحل

فقال له الرشيد أما والله لولا الأبقاء على بني هاشم لضربت عنقك ثم أمر بحبسه
فحبس عند الفضل بن الربيع وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في السجن إن عبد الملك
ابن صالح أراد الخروج على ومنازعتي في الملك وقد علمت ذلك فأعلمني ما عندك فيه
فأنك إن صدقتني أعدتني إلى حالك فقال والله يا أمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك
على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لأن ملكك كان ملكي
وسلطانك كان سلطاني والخير والشر كان فيه على ولي فكيف يجوز لعبد الملك أن

يطمع في ذلك منى وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل بي أكثر من فعلك أعيدك بالله أن تظن بي هذا الظن ولكن كان رجلاً محتملاً يسرفني أن يكون في أهلك مثله فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت إليه لأدبه واحتماله . فلما أتاه الرسول بهذا أعاد عليه فقال إن أنت لم تقر عليه قتلت ابنك الفضل . فقال له أنت مسلط علينا فافعل ما شئت على أنه إن كان من هذا الأمر شيء فالذنب فيه لي فبم يدخل الفضل في ذلك فقال الرسول للفضل قم فانه لا بد لي من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك فلم يشك أنه قاتله فودع أباه وقال له ألسنت راضياً عنى قال بلى فرضى الله عنك ففرق بينهما ثلاثة أيام فلما لم يجد عندهما من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ رسائلهما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده

سقنا هذا لندل على أن التهم التي وجهت إلى البرامكة كافة ولا سيما جعفرأ سياسية محضة وفي القليل منها ما يكفي عند الرشيد لتغيير نعمتهم والغضب عليهم وإذا أضيف إلى ذلك غيرة السلطان بمن يساميه في سلطانه ويشاركه في نفوذ أمره كان ذلك أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حتى تخترع له تلك الحكاية التي يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها لأخلاق الرشيد وللتقاليد التي سار عليها بنو العباس فقد كان بما عده المنصور على أبي مسلم من ذنوبه وهو من هو في الدولة وتشديد بنيانها أنه كتب إليه يخطب أمينة بنت علي بن عبد الله بن عباس ولم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد في أوقات ضعفهم وتسلط آل سلجوق عليهم فكيف يظن بمثل الرشيد أن يقدم على زواج سرى كهذا سديه خسيس هذا بعيد جداً

فيما تتبعناه من أحوال الرشيد كفاية فقد كان وصل من خوفه على ملكه وعلى نفسه إلى درجة الوسوس حتى جعله ذلك أذنا يسمع لكل واش ويصدق كل حسود ففقد بذلك زهرة دولته وغرة جبينها بل زهرة الدولة العباسية كلها، فقدوزراء إن كتبوا أجادوا وإن قادوا الجيوش سدوا الثغور ، وإن ولوا عملاً أصلحوا وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه خدمه بل تراهم حذرين وجلين فما هي إلا وشاية تطرق أذنه حتى تراه قد أخذ بخلاقيهم فأوردتهم شر موردي لايبالي بما سبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فيه ما يرى لهم من الفضل بل ينسى ذلك كله ثم يتقدم عنده الوشاة وإن لم يكن لهم في ميدان الصالحين أثر فقد بقي للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من

الشقاق والعداوة بين الامين والمأمون كما سيجيء. لأن الرجل مفسد معتاد على اختلاق الأخبار ويرى ذلك يحسن في آذان الخلفاء فلم يكن يصطبر عن ذلك فأفسد الدولة وأوقع بأس الأمة بينها وإنا نعوذ بالله من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء فهم آفة الأمم وسوس عظامها

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع فلم يسد المسكان الذي سدوا

العلاقات الخارجية

كانت دول هذا العصر الكبيرة دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية ودولة شرلكان الذي كان يميل إلى تجديد دولة الرومان الغربية ودولة الامويين بالاندلس وحدثت في عهد دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى كما سبق

مع الروم

من أعمال الرشيد أنه عزل الثغور كلها عن الجزيرة وفسرين وجعلها حيزا واحدا وسميت العواصم وجعل قاعدتها منبجا وأسكنها عبد الملك بن صالح سنة ١٧٣ وسميت العواصم لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر وكان من هذه العواصم دلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون ومن تلك المدن الشهيرة طرسوس وقد عمرت في زمن الرشيد على يد أبي سليم فرج الخادم التركي ونزلها الناس . وكان يغزو الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ووصل سنة ١٧٥ إلى اقرطية . وفي سنة ١٨١ غزا الرشيد الصائفة بنفسه فافتتح عنوة حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة

ولم يزل عبد الملك يرى الثغور وحررها وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزله الرشيد وحبسه بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ فولى بعده القاسم بن الرشيد وسكن منبجا فغزا الروم وأناخ على حصن قره وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعثت الروم تبذل ٣٢٠ رجلا من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم إلى ذلك ورحل عن حصن قره وسنان

كان يملك الروم في ذلك الوقت ربي و كانت في أوائل أمرها تتوب عن ابنها قسطنطين السادس منذ سنة ٧٨٠ ثم استبدت بالملك سنة ٧٩٠ فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقوم بدفعها له وذلك لما رأته من إلحاح المسلمين عليها بالحرب وعدم قدرتها على الدفاع لوقوعها بين المسلمين من جهة وبين شارلمان من جهة أخرى وكلتا الدولتين تناوتها العداوة لأن شارلمان كان يريد توسيع سلطانه وإعادة دولة الرومان إلى بهجتها التي كانت لها في القدم. وفي سنة ٨٠٢ نهضت عليها عصابة رومية نخلعتها عن الملك وملكها مكانها نقفور فعقد معاهدة مع شارلمان عينت فيها تخوم المملكتين ثم كتب إلى الرشيد من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها لكن ذلك ضعف النساء وحقهن فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافند نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك - فلما قرأ الرشيد الكتاب استغزه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن أسمعه والسلام) ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقله ففتح وغنم واصطفي وأفاد وخرب وحرق واصطلم فطلب نقفور المودعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك فلما رجع من غزوته وصار بالركة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديداً فيس نقفور من رجته إليه وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه فاتهم بالأحد إخبار الرشيد بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكفرة في مثل تلك الأيام فاحتيل بشاعر يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف فقال

نقض الذي أعطيتَه نقفور * وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه * فتح أذاك به الاله كبير
فلقد تابشرت الرعية أن أتى * بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت يمينك أن تعجل غزوة * تشفى النفوس مكانها مذکور
أعطاك جزية وطأ طأ خده * حذر الصوارم والردى محذور

فأجرته من وقعها وكأنها * بأكفنا شعل الضرام تطير
 وصرفت بالطول العساكر قافلا * عنه وجارك آمن مسرور
 تقفور إنك حين تغدر أن نأى * عنك الامام لجاهل مغرور
 أظننت حين غدرت أنك مفلت * هبلك أمك ماظنت غرور
 ألقاك حينك في زواجر بحره * فطمت عليك من الامام بحور
 إن الامام على اقتسارك قادر * قربت ديارك أم نأت بك دور
 ليس الامام وإن غفلنا غافلا * عما يسوس بحزمه ويدير
 ملك تجرد للجهاد بنفسه * فدوه أبدا به مقهور
 يامن يريد رضا الاله بسعيه * والله لا يخفى عليه ضمير
 لانصح ينفع من يغش إمامه * والنصح من نصحائه مشكور
 نصح الامام على الأنام فريضة * ولاهلهما كفارة وطهور
 فلما فرغ الشاعر من إنشاده قال أو قد فعل تقفور ذلك وعلم أن الوزراء قد احتالوا
 له في ذلك فكر راجعا في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضى
 وبلغ ما أراد فقال أبو العتاهيه

ألانادت هرقله بالخراب * من الملك الموفق بالصواب
 غدا هارون يرعد بالمنايا * ويرقب بالمدكرة القضاب
 ورايات يحل النصر فيها * تمر كأنها قطع السحاب
 أمير المؤمنين ظفرت فاسلم * وأبشر بالغنيمة والاياب
 ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك . وفي سنة ١٨٩ حصل فداء بين المسلمين
 والروم فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودى به وهذا أول فداء كان بين المسلمين
 والروم فقال مروان بن أبي حفصة يمدح الرشيد

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها * محابس ما فيها حميم يزورها
 على حين أعياء المسلمين فسكاكها * وقالوا سجون المشركين قبورها
 وفي سنة ١٩٠ غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح هرقله وبث الجيوش والسرايا
 بأرض الروم وكان دخلها في ١٣٥ ألف مرتزق سوى الاتباع وسوى المطوعة
 وسوى من لاديوان له . وكان فتح الرشيد هرقله في شوال فأضربها وسب أهلها بعد

مقام ثلاثين يوماً عليها وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر فبلغ حميد قبرص فانتصر على أهلها

ثم سار الرشيد إلى الطوائف فعاسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر وأمره بابتناء منزل هنالك وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهده وبطارقه وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استيراق دينارين وكتب مع بطريقين من عطاء بطارقه في جارية من سبي هرقله كتاباً نسخته — لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم سلام عليك أما بعد أيها الملك إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك هنية يسيرة أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقله كنت قد خطبتها على ابني فإن رأيت أن تسعفني بما جئني فعلت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته — واستهداه أيضاً طيباً وسرادقاً من سرادقاته فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور وبعث إليه بما سأل من العطر وبعث إليه التمر والأخضعة والزبيب والترياق فسلم ذلك كله رسول الرشيد فأعطاه نقفور وقردها من أسلحة إسلامية على برذون كيت كان مبلغه خمسين ألف درهم ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بزبون واثني عشر بازياء وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين — وكان نقفور اشترط ألا يخرب الرشيد حصن ذى الكلاع ولا صملة ولا سنان واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقله وعلى أن يحمل ثلثمائة ألف دينار

وفي سنة ١٩١ غزا الصائفة هرثمة بن أعين أحد كبار القواد وضم إليه ثلاثين ألفاً من أهل خراسان ومعه مسرور الخادم واليه النفقات وجميع الأمور ما خلا الرياسة ومضى الرشيد إلى درب الحدث فرتب هنالك عبد الله بن مالك ورتب سعيد بن سلم بن قتيبة بمرعش فأغار الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد مقيم بها . وبعث محمد بن يزيد بن مزيد إلى طرسوس — فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ثم انصرف إلى الرقة

وعلى الجملة فإن قوة المسلمين كانت في عهد الرشيد ظاهرة ظهوراً بيناً على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالى ومعه عطاء القواد وكبار رجال

الدولة من عرب وموال وخراسانية

العلاقة مع أوروبا

كان في عهد الرشيد شارلمان بن باين وكان ملكا على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التي كانت في جرمانيا إلى الدين العيسوي بعد أن كانت وثنية واستولى على ألمانيا وإيطاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير في الديار الشرقية لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية وكان يرغب أن يكون حامياً للعيسويين في البلاد الإسلامية وخصوصاً زائري القدس فأرسل إلى بغداد سفراء يستجلبون رضا هرون الرشيد وكان لشارلمان غرض من مصافاة الرشيد فوق ماتقدم وهو إضعاف الدولة الأموية بالأندلس فجاز سفير شارلمان برضا الرشيد فسر بذلك لأنه عدّه فوزاً على نقفور ولهذا لما قدم سفير الرشيد على شارلمان قابله بمزيد الاكرام واستفاد شارلمان من ذلك النودد فأتدتين الأولى تمكنه من حرب الدولة الأموية بالأندلس وتداخله في مساعدة الخارجين عليها والثانية نيله رضا الرشيد . وقد أراد أيضا أن يغتتم غنيمة عليّة فان أوروبا في ذلك الوقت كانت مهد جهالة لأنه بانقراض الرومانيين وغلبة الأمم المتبربرة على أوروبا انطفأ مصباح العلم أما الحال في البلاد الإسلامية فكانت على العكس من ذلك علماً وعملا سواء في ذلك بغداد وقرطبة فسعى شارلمان في إصلاح قوانين دولته مقلداً هارون الرشيد وذهب إلى أوروبا أطباء تعلموا في البلاد الإسلامية وكانوا من اليهود فاتتخب منهم شارلمان رجلا يقال له إسحاق وأرسله إلى الرشيد مصحوبا ببعض الهدايا وبعد أربع سنين عاد إسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهي ساعة وراغنون وفيل وبعض أقشة نفيسة ، فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية وأوقعتهم في حيرة حتى هموا بكسر الساعة فتمنعهم الإمبراطور ، وفي ذلك التاريخ انفقوا على أمور تتعلق بحماية المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس أما علاقة بغداد بقرطبة فكانت شر علاقة إذ أن الرشيد كان ينظر إلى بني أمية نظر الخارجين على دولته فكان يود محوهم ولكن القوم كانوا أكبر من ذلك وأقوى فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة ولم يتمكن أن يفعل بهم شراً

حضارة بغداد في عهد الرشيد

وصلت بغداد في عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها
 أما من حيث العمارة فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدا بنيت فيها القصور الفخمة
 التي أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الدينارين وتأنق مهندسوها في إحكام
 قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشديد بنيانها وصارت قصور الجانب الشرقى بالرصافة
 تتوايح قصور الجانب الغربى كان فى الشرق قصور البرامكة وما أنشأه هناك من
 الأسواق والجوامع والحمامات والجانب الغربى كانت قصور الخلافة التى كانت تبهر
 الناظرين اتساعا وجمالا وامتدت الأبنية امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد كأنها مدن
 متلاصقة تبلغ الأربعين على جانبي دجلة واستبحر العمران فيها لما جاءها من الثناء
 وصار سكانها نحو ألفى ألف نسمة حتى ازدحمت بساكنيها وكانت متاجر البلدان
 القاصية تصلها برأ وبحراً تجيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن
 الشام والجزيرة والطرق إذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة وكان الرشيد هو ووزراؤه
 حريصين على ذلك كل الحرص

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج
 الأقاليم الإسلامية بعد أن تقضى جميع حاجها وقد قدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربع مائة
 ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف منه فى مرتبات الوزراء
 والمساعدين له والباقي يتصرف فيه حسبما يرى وهو شىء جسيم وكان الرشيد أسمع خلفاء
 بنى العباس بالمسال يعطى منه عطاء من لا يخشى فقراً للقضاة والشعراء والكتاب والمنتجعين
 وقد جرى على سنه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الأسفار بذكر
 عطايهم التى قد تردد الانسان فى صحتها وتلك الثروة العظيمة تتداولها الأيدي فتروج التجارة
 وتقضى الحاجات وتكثر المدنية وعلى تلك السنة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى
 واشتد بهم الترف حتى يقال إن جعفر بن يحيى بنى قصراً أنفق على بنائه عشرين ألف ألف
 درهم وتعالى الناس فى حاجاتهم وتأنقوا فى معيشتهم حتى صارت ببغداد تبهر أعين زوارها
 لمسايرونه من بعد الشبه بين ما عندهم وما يرون من روائها وبذخ أهلها وانغماسهم فى الملاذ
 وإعطائهم أنفسهم ما تصبو إليه من اللهو والخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة

وأما العلم فإن بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية يرحلون إليها ليتمموا ما بدؤوا فيه من العلوم والفنون فهي المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويين وكلهم قائمون بالدرس والافادة لتلاميذهم في المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقى هذه العلوم وقلما كان يتم لانسان وصف عالم أوفقيه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشا رغدا مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم

ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا كالطلب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصناعات من الأقاليم المختلفة فاستفادوا العلوم من سبقهم من الأمم في المدينة كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصابئة وغيرهم وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية وسنرجي الكلام على النهضة العلمية في بغداد إلى زمن المأمون

أخلاق الرشيد

كان الرشيد خليفة دينا محافظا على التكاليف الشرعية أتم محافظة فأمصالته فكان يصل في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة. وكان له سمير فكه هو ابن أبي مريم المدني كان الرشيد لا يصبر عنه ولا يميل محادثته سمعه مرة يقرأ في صلاته (ومالي لأعبد الذي فطرني وإليه ترجعون) فقال ابن أبي مريم لأدري والله فما تملك الرشيد أن ضحك في صلاته ثم التفت إليه وهو كالمغضب فقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضا ثم قال إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما وأما صدقته فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا التي كانت تهطل على الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعطى منه للبال ثم المأمون بعده وأما حجه فانه كان لا يتخلف عنه إلا إذا كان مشغولا بالغزو فهو في كل عام بين غاز وحاج وقد أقام للناس حجهم تسع مرات في سني حكمه وهي السنوات ٧٠ و٧٣ و٧٤ و٧٥ و٧٧ و٨٠ و٨١ و٨٦ و٨٨ بعد المائة وكان إذا حج حج

معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج عنه ثلثائة رجل بالنفقة السابقة
والكسوة الباهرة

وكان يسمع وعظ الواعظين وهو عند ذلك رقيق القلب سريع الدمعة . دخل
عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد عظمي فقال يا أمير المؤمنين اتق الله وحده
لا شريك له واعلم أنك غدا بين يدي الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين
لائالك لهما جنة أو نار فبكى هارون حتى اخضلت لحيته فأقبل الفضل
ابن الربيع على ابن السماك فقال سبحان الله وهل يتخالج أحدا شك في أن أمير المؤمنين
مصروف إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عبادته وفضله — فلم
يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت إليه وأقبل على الرشيد فقال يا أمير
المؤمنين إن هذا (يعني الفضل بن الربيع) ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم
فاتق الله وانظر لنفسك — فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون وأثم الفضل
ابن الربيع فلم ينطق بحرف — ودخل عليه مرة أخرى فبينما هو عنده إذ استسقى ماء
فأتى بقلته من ماء فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها قال له ابن السماك على رسلك يا أمير
المؤمنين بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو منعت هذه الشربة بكم
كنت تشربها — قال بنصف ملكي — قال اشرب هناك الله — فلما شربها قال له
أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها من بدنك
بماذا كنت تشتريها قال بجميع ملكي قال ابن السماك إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير
ألا ينافس فيه فبكى هارون — ولا يزال الملوك بخير ما سمعوا الوعظ وتأثروا به
ولا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم

وأما جهاد الرشيد فإنه كان لا يترك الخروج مع جنده بل كان غالبا في مقدمتهم
حتى لا يعتاد الراحة ولا يقعه الترف عن القيام بهذا الواجب حتى كان من ضمن
مآثره أنه كان يغزو سنة ويحج أخرى قال مروان بن أبي حفصة

وسدت بهارون الثغور وأحكمت * به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقودا بنصر لواؤه * له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية * على الرغم قسرا عن يد وهو صاغر
وكان لهارون قلنسوة مكتوب عليها غازحاج فكان يلبسها فقال أبو المعالي الكلابي

من يطلب لقاءك أو يرده * فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمر * وفي أرض الترفه فوق آور
وما حاز الثغور سواك خلق * من المتخلفين على الأمور

لذلك كانت الخلافة لعهد في أعلى درجات مهبتها واحترامها في الداخل والخارج
كان الرشيد يقتني آثار المنصور ويعمل بها إلا في بذل المال وكان لا يضيع عنده
إحسان محسن ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه . وكان يحب الشعر والشعراء
ويميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء في الدين ويقول هو شيء لا نتيجة له
وبالحرى لا يكون فيه ثواب وكان يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ويشتره
بالثمن الغالي . وعطاياه للشعراء والأدباء تكاد تخرج عما يعقل

والخلال التي كانت واضحة في أعماله الشجاعة وشدة الغضب ومعاقبة المسيء
بلا شفقة ولا رحمة فكان يقود الجيوش بنفسه إلى المواضع المخوفة حتى استقامت له
البلاد وهابه كل خارج وناثر وكان إذا بلغه عن أحد من رعيته ما يريبه اشتد غضبه
وزاد انفعاله حتى لا يكاد أحد يقدر أن يكلمه وإذا وقع عدوه في يده لم يتأخر عن
أشد عقوبته وقلبا كان يعفو وبهذا فضله ابنه المأمون كما سيجيء في تاريخه

واشتهر أن الرشيد كان يشرب النبيذ الذي يرخص أهل العراق في شربه وكان
يسمع الغناء ويثيب عليه أعظم ثواب ولذلك اشتهر في زمنه أعظم الموسيقيين والمغنين
بيغداد ممن لم يأت بعدهم مثلهم كما يرى ذلك من اطلع على الكتاب الموسوم بالأغاني
لأبي الفرج الأصبهاني

ولامراء أن الرشيد يعد من كبار الخلفاء ونوابغهم لولا كثرة وسواسه بالكائدين
له فان ذلك أكثر الجاسوسية في عهده وصار المتقربون يتقربون إليه بما يتلقفونه من
أخبار السوء حتى فقد أعظم وزرائه وأحسنهم أثرا وأعلامهم كعبا واستبقى الفضل بن
الربيع لأن أخباره ما كانت تنقطع عنه يوما

وفاة الرشيد

خرج الرشيد من بغداد في خامس شعبان سنة ١٩٢ قاصدا خراسان عندما بلغه استفحال
أمر رافع بن الليث بما وراء النهر واستخلف ابنه محمدا الأمين بمدينة السلام وخرج

معه ابنه عبد الله المأمون ولم يزل الرشيد في مسيره حتى وافى مدينة طوس في صفر سنة ١٩٣ وهناك اشتدت به علته ولحق بربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ وصلى عليه ابنه صالح لأن المأمون كان قد سبقه إلى مروحاضرة خراسان ودفن الرشيد بهذه المدينة

وكان للرشيد اثنا عشر ولدا ذكرا وأربع بنات فذكور أولاده محمد الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر وعلى من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى الهادي — وعبد الله المأمون والقاسم والمؤمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو علي ومحمد أبو أحمد وهم لامهات أولاد شتى وتزوج الرشيد بست زوجات مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محمد بنت صالح المسكين والعباسة بنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبد الله العثمانية

الخراج

أثر جليل من عهد الرشيد

بين يدينا أثر من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني وهو كتاب الخراج للفقير أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصارى صاحب الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣ - ١٨٢) كان خليفة المسلمين في هذا التاريخ خامس بنى العباس هارون الرشيد بن محمد المهدي ابن أبي جعفر المنصور وكان قاضى قضائه أبا يوسف وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته كما كان أبوه المهدي من قبله ويحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم ويخرب عمرانهم وحتى يكون بيت المال قائما بما يجب عليه من مصالح الأمة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها فكتب إلى قاضيه الأكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام وكتب جوابه عن تلك الأسئلة في رسالة عظيمة الشأن وسميت بكتاب الخراج

وهي التي جعلناها موضع محاضرتنا هذه الليلة

لم يكن أبو يوسف في رسالته ذلك الفقيه الجاف الذي هو في خيال الكثير منا يكتب جوابه مبتورا منقولاً من مسطر سبق به أو ذلك المفتى الضعيف ينظر إلى غرض المستفتى فيجهد أن تكون فتواه طبق رغبته بل كان ذلك العالم الناصح الذي سبر حال الأمة فعرف ما يصلحها وأدرك سر الدين الذي أوحى الله به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم لاصلاح حال الأمة فجال في ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق وأحاط علماً بتاريخ المسائل التي يفتي فيها . فبينما تراه واعظاً لا يخاف في الله لومة لائم يصوغ من كلمات النصيح أشدها وقعاً وأقواها تأثيراً يوجهها إلى إمامه مع رعاية الأدب واللياقة إذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الأمور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك وبيننا أنت تستخرج منه لطائف التاريخ إذ ذاك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستنبطاً بسنة أسلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر ما يفعله ولاية الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التي يرهقون بها الرعية ويضرون بها العارة فينبه الامام إلى مخازيمهم ويرفع صوته طالباً لإجراء العدالة فيهم ويشير على إمامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق وبين له كيف يفعل في ذلك ليكون ناجياً بين يدي الله سبحانه وتعالى الذي جعله كفيلاً لحقوق الرعية

هذا هو الكتاب الجليل الذي يعطى من قرأه صورة هي غاية الجمال والكمال
لذلك الفقيه المقدم

وغرضنا التعريف بما انتظمه هذا الكتاب حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها في هذا العصر وإذا كان عندنا كلمة نقولها لا يوضح شيء مما قد يحتاج إلى الايضاح نهنا عليها

انتظمت هذه الرسالة ثلاثة أمور:

(الأول) بيان موارد الدولة على اختلافها حسبما جاءت به الشريعة ومصارف تلك الأموال

(الثاني) بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال

الثالث يان بعض الواجبات التي يلزم بيت المال القيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به

ونحن نتكلم في ذلك متبعين هذا الترتيب وقد يخالف طريقة ترتيب الكتاب لأن القصد تقريبه إلى النفوس من أسهل الطرق

موارد بيت المال

يتبين من كتاب الخراج أن موارد بيت المال تنقسم بحسب ما يجب أن تصرف فيه إلى ثلاثة أقسام

الأول - خمس الغنائم

الثاني - الخراج

الثالث - الصدقات

الغنائم

الغنيمة كل ما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكرام. وجعل منها أبو يوسف ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير والركاز وهو الذهب والفضة الذي خلقه الله في الأرض يوم خلقت. والكنوز العادية التي تصاب في غير ملك أحد وما أخرج من البحر من الحلى والعنبر كل ذلك حكمه واحد وهو أن للامام خمسة. أما أربعة أخماسه الباقية فتكون حقاً للغنائمين فيما أصيب مع المحاربين وتكون حقاً للواجد فيما عداها

ويقسم الامام أربعة الأقسام على القائميين سواء في ذلك أهل الديوان والمتطوعون يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم وخالف في ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله حيث قال للفارس سهمان وللراجل سهم وقال للرشيد نخذ بأى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين فان ذلك موسع عليك إن شاء الله ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين

مصرف الخمس

بين الله في كتابه مصرف الخمس في الآية من سورة الأنفال حيث يقول: واعلموا

أما غنمكم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير، قال أبو يوسف فكان ذلك الخمس يقسم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لله وللرسول سهم ولذى القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى وروى عن ابن عباس أنه قال عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيما ونقضى عن غارنا فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى علينا. ومع أن ذلك كان رأى على بن أبى طالب رضى الله عنه فإنه قسم الخمس كما قسمه سلفه

وذكر أبو يوسف أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوى القربى فى الكراع والسلاح. وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث بسهم الرسول وسهم ذوى القربى إلى بنى هاشم. قال وكان أبو حنيفة وأكثرفقها تائرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم. وأقول رأى الشافعى محمد بن إدريس المطلبى رحمه الله أن سهم الرسول يصرف فى مصالح المسلمين وسهم ذوى القربى يصرف لمن ينتسب إلى هاشم والمطلب ابني عبد مناف دون بنى أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوى فى العطاء بين الأغنياء والفقراء لأن سبب الاستحقاق القرابة ويشترك فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر والأنثى كما قال المزنى وأبو ثور من أصحاب الشافعى وللذكر مثل حظ الأنثيين كما قال غيرهما — وبقول الشافعى قال أحمد إلا أنه قال إن رده صرف فى السلاح والكراع لفعل أبى بكر وعمر وعثمان :

الخراج

المورد الثانى من موارد الخلافة الخراج وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء

(١) وظيفة الأرض الخراجية

(٢) جزية أهل الذمة

(٣) ما يأخذه العاشر من يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب

وظيفة الأرض الخراجية

لما غلب المسلمين على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة والشام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلب إليه بعض ذوى الرأي من الصحابة أن يقسم الأرض على الغانمين كما قسم ما أصابوه من سلاح ومتاع وأكثروا عليه في ذلك فأبى عليهم مستندا إلى كتاب الله تعالى الذى جعل هذا النية حقا للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم ذكر ذلك في سورة الحشر حيث قال — « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخوانتنا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » فجعل هذا النية حقا للمهاجرين والأنصار ولمن جاء بعدهم ومن أجل ذلك لم يرض عمر بقسمة الأرض بين الغانمين لأنه لو قسمها بينهم لم يبق لمن يأتي بعدهم شيء بل ترك الأرضين والانتهاج بعاملها ليكون ذلك في أعطيات الجنود وغير ذلك ومن هنا رأى أبو يوسف رحمه الله أن هذه الأرضين المفتوحة عنوة يخير فيها الامام فان شاء قسمها بين الغانمين الذين افتحوها وإن لم يرض قسمها ورأى الصلاح في إقرارها في يد أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السواد فله ذلك وهي أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهي ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ويضع عليهم الخراج ولا يكلفون من ذلك ما لا يطيقون

وإذا يكون حد أرض الخراج — كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الامام وأبقاها بأيدي أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة ويخرج من ذلك أنواع من الأراضي لا يوضع عليها الخراج وإنما تكون أرضا عشرية وهي

(١) كل أرض للعرب غير بني تغلب

- (٢) كل أرض من أرض الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعا
 (٣) كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسّمها الامام بين
 الغانمين . وسنين حكم كل نوع بعد الكلام على أرض الخراج

ما فعله عمر في أرض الخراج

لما اتضح لعمر رأيه في الأرض المغنومة أرسل من قبله من يسمح أرض السواد
 فبلغت ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جريب فوظف عليها الخراج مقادير معينة من الدراهم
 والأطعمة حسبما رأى المندوبان اللذان أرسلهما لذلك وهذه الوظيفة تختلف من
 درهمين إلى عشرة دراهم على الجريب فأقلها وظيفة جريب الشعير عليه درهماً
 وأكثرها وظيفة جريب الكرم والنخل عليه عشرة دراهم في رواية وثمانية في أخرى
 وبين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم وجريب الحنطة أربعة دراهم أو درهم
 وقفيز وجريب الرطبة والسسم والقطن خمسة دراهم وجريب القصب ستة دراهم
 وقال إن جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم
 أقول وإذا كانت المساحة كما قدمنا والجباية ما ذكرنا يكون متوسط جباية الجريب
 ٢,٧٥ درهم وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التي كانت تؤخذ على أجرية الحنطة
 لأن هذا المتوسط بدونها لا يصلح إلا إذا كان معظم الأرض يزرع شعيراً وهو
 بعيد . وقال ابن خرداذبه إن عمر جبا العراق ١٢٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم فيكون
 متوسط جباية الجريب ٣,٥٥ درهم وهو أقرب من المفهوم ولا بد أنه لم يعتبر
 في ذلك أجرية القمح والجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وهي
 ٥٧,٧٧ م وبالتكسير تكون مساحة الجريب ١٢٠٠ م فكل ثلاثة أجرية
 ونصف ندان مصرى . ولا بد أن ننبه هنا على ما رأيناه في كتاب صاحب السعادة
 الفضال يعقوب أرئين باشا الموسوم بالأحكام المرعية في الأراضي المصرية فانه
 روى عن قدامة أن الجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وظن أن ذراع
 الملك هي الذراع السوداء فوق في الخطأ الحسابي الذي أنتج له أن كل أربعة أجرية
 ويـ جريب تعادل فدانا مصرياً مع أن هناك اختلافاً بين الذراعين كما ذكره
 الماوردي في كتابة الأحكام السلطانية حيث قال إن ذراع الملك تزيد على الذراع

السوداء بخمس أصابع وثلاثي أصبع فتكون ذراعا وثمان وعشرا أى ذراعا و $\frac{1}{4}$ وحقق العلامة المرحوم على مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هي $\frac{9}{10}$ فتكون ذراع الملك ذراعا وربعا بالسوداء. وقد تتج له هذا من تقدير المتقدمين لصلع قاعدة الهرم الأكبر بأربعائة ذراع بذراع التجار و ٥٠٠ بالسوداء وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على ٤٠٠ ، ٥٠٠ يخرج هذان الرقان ٧٧ ، ٥٧ س وهو طول ذراع الملك و ٢ ، ٤٦ س وهو طول الذراع السوداء

وإذا كان كل ٣٠٥ جريب فدانا تكون ضريبة الفدان المزروعة قمحا ١٤ درهما هذا هو الخراج الموظف الذى رآه عمر

لم ير أبو يوسف رحمه الله ماقرره عمر رضى الله عنه فى أمر الخراج حيث جعله وظيفة محدودة أمرا لازما لمن يأتى بعده بل يجوز للخلفاء إذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين فى المقاسمة أن يعدلوا إليها . وقد ناظر أبو يوسف أهل العلم بالخراج فى هذا الأمر فرأى أن تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مساواة فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج . أما وظيفة الطعام فإن كان رخصا فاحشا لم يكتف السلطان بالذى وظف عليهم ولم يطب نفسا بالحط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور — وإن كان غلاما فاحشا لا يطيب السلطان نفسا بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك والرخص والغلاء يد الله لا يقومان على أمر واحد وكذلك وظيفة الدراهم . ثم قال : وأما ما يدخل على أهل الخراج فيما بينهم فهو النظام وغلبة القوى على الضعيف ثم قال — ولم أجد شيئا أوفر على بيت المال ولا أعنى لأهل الخراج من النظام فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا أعنى لهم من عذاب ولا تهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من النظام فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل . وقد رأى أن يقاسم من عمل الخنطة والشعير من أهل السواد جميعا على خمسين للشيخ منه وأما الدوالي فعلى خمس ونصف وأما النخل والرطاب والكرم والبساتين فعلى الثلث وأما غلال الصيف فعلى الربع ولا يؤخذ بالحرص فى شيء من ذلك ولا يحزر عليهم شيء منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات فى أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر . ثم يؤخذ منهم ما يلزمهم من ذلك أى

ذلك كان أخف على أهل الخراج فعل ذلك بهم وإن كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان أخف فعل ذلك بهم . ومن رأى أبي يوسف إعفاء مادون خمسة أوسق من الخراج وهي ٣٠٠ صاع أو ١٦٠٠ رطل وخالف في ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله .

وقد أشار أبو يوسف بأن يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر ما يمكن الدياس فإذا أمكن الدياس رفع إلى البيادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوماً واحداً لئلا تذهب به الأكرة والمسارة والظير والدواب فيضرب ذلك بالخراج وإذا رفع إلى البيادر وصير أكداً أخذ في دياسه ولا يحبس الطعام إذا صار في البيادر الشهر والشهرين والثلاثة لا يداس فإن في حبسه في البيادر ضرراً على السلطان وعلى أهل الخراج وبذلك تتأخر العمارة والحراث ولا يحرص عليهم مافي البيادر ولا يحجز عليهم حزراً ثم يؤخذون بنقائص الحزر فإن هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم

ثم قال ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مسدى ولا احتفان ولا نزلة ولا أموال طعام السلطان ولا يأخذ منهم ثمن صحف ولا قرطيس ولا أجور الفيوج ولا أجور السكيالين ولا مؤنة لأحد عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذي وصفنا من المقاسمة ولا يؤخذون بثمن الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الخطة والشعير كيلاً أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة في المقاسمة ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجاً للدرهم يؤدونها في الخراج فانه بلغنى أن الرجل منهم يأتي بالدرهم ليؤديها في الخراج فيقطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها ولا يضرب رجل في درهم خراج ولا يقام على رجله فانه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله وشنيع في الاسلام

من أجل ذلك نرى أبا يوسف رحمه الله دقق كثيراً في أمر من يولى جباية الخراج فأشار على إمامه أن يكون والى ذلك فقيها عالماً مشاوراً لأهل الرأي عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف في الله لومة لائم محافظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت تجوز شهادته

إن شهد ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم . ثم قال : إني قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ولعله لا يكون عرفه بسلامة ناحية ولا عفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ثم قال : وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوقا لأهل عمله ولا محتقرا لهم ولا مستخفا بهم لكن يلبس لهم جلبابا من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا ويحملوا ما لا يجب عليهم واللين المسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وإنصاف المظلوم والشدة على الظالم والعفو عن الناس . قال : وإني لأرجو أن أمرت بذلك وعلم الله من قلبك إيثارك ذلك على غيره ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مخالف أن يأخذه الله دونك وأن يكتب لك أجره وما نويت إن شاء الله . ولتصير مع الولي الذي وليته قوما من الجند من أهل الديوان في أعناقهم بيعة على النصح لك فإن من نصحك أن لا تظلم رعيتك وتأمرا باجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهرا بشهر ولا تجرى عليهم من الخراج درهما فيما سواه

ثم تكلم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهم فوق ما لهم ونبه عليه وطلب منه أن يحسم ذلك كله سدا لضرر أهله الخراج ونقص النية .

ورأى مع هذا كله أن يبعث الامام قوما من أهل الصلاح والعفاف بمن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به في الخراج وكيف جوبه على ما أمروا به وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر فاذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضنوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤديه بعد العقوبة الموجعة والتشكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد إليهم فيه فإن كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فإنا يحمل على أنه تد أمر بغيره وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتفق وخاف وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجتروا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف وخيانة لك في رعيتك واحتجان شيء من النية أو خبيث طعمته أو سوء سيرته فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئا من أمور رعيتك أو تشركه في شيء من أمرك

تقبيل الأرض

كان النظام التسع في جباية الخراج التقبل وهو جعل شخص من الأشخاص قبلا أى كقبلا بتحصيل الخراج وأخذته لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه وكان الناس يترادون فيما يتقبلون به الأرض فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفضل بين مادفعه وماحصله وقد كره أبو يوسف هذا النظام فقال للرشد ورأيت ألا تقبل شيئا من السواد ولا غير السواد من البلاد فإن المتقبل إذا كان في قبائله فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يحجف بهم ليسلم مما يدخل فيه وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبائله ولعله يستفضل بعدما يتقبل به فضلا كثيرا وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم في الشمس وتعليق الحجارة في الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذى نهى الله عنه وإنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكفوا فوق طاقتهم . وإنما أكره القبالة لأنى لا آمن أن يحصل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضرك ذلك بهم فيخربوا ماعمرؤا ويدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شيء ولن يقع مع الصلاح شيء إن الله قد نهى عن الفساد فى الأرض فقال ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ وقال ﴿ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ وإنما ذلك من ذلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشتري منهم وإظهارهم الظلم حتى يفدى منهم والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذى لا يحل ولا يسع — واختار أبو يوسف التقبل إذا طلبه أهل القرية أو المصر وقالوا هو أخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رقيب أمين رزقه من بيت المال حتى يمنعه من ظلم إن أراد والاعذار إلى المتقبل والوالى يرفع الظلم عن الرعية والوعيد له إن حملهم ما لا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم فإن فعل ففواله بما أوعده به ليكون ذلك زاجرا له وناهيا لغيره إن شاء الله

القطائع

القطائع جمع قطيعة وهي ما يمنحه الامام من الأرض لبعض الممتازين بفعالهم
من الرعية

قال أبو يوسف رحمه الله إن عمر رضى الله عنه بعد أن فتح العراق اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرزبته وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد أو لرجل قتل في الحرب أو لحق بأرض الحرب وكانت مساحة ما اصطفاه من هذه الأرض ٤٠٠٠٠٠٠٠ جريب فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع قال أبو يوسف وذلك بمنزلة المال الذى لم يكن لأحد ولا فى يد وارث فلا إمام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء فى الاسلام ويضع ذلك موضعه ولا يجابى به فكذلك هذه الأرض . ثم قال : فأما من أخذ من واحد وأقطع آخر فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطى واحداً .

والامام مخير فى هذه الأرض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية إن كانت تسقى من أنهار الخراج . قال أبو يوسف وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضاً من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الأصناف التى ذكرنا أن الامام يقطع منها فلا يحل لمن أتى بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرج من يده من هو فى يده وارثاً أو مشترياً . فأما ما أخذ الولاة من يد واحد أرضاً وأقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحداً وأعطى آخر فلا يحل للامام ولا يسعه أن يقطع أحداً من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئاً إلا بحق يجب له عليه فيأخذه بذلك الذى وجب له عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والأرض عندى بمنزلة المال فللامام أن يجيز من بيت المال من كان له غناء فى الاسلام ومن يقوى على العدو ويعمل فى ذلك بالذى يرى أنه خير للمسلمين وأصلح لأمرهم وكذلك الأرضون يقطع منها الامام من أحب من الأصناف التى سميت ولا ارى أن يترك أرضاً لملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الامام فان ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج . فهذا حد الاقطاع عندى على ما أخبرتك . ومن رأى أبى يوسف أن أرض الاقطاع تجعل عشرية لما يلزم صاحب الاقطاع من المؤتة فى

حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض
ومن أجل ذلك يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتي ذكره

موات الأرض

قال أبو يوسف لو أن بلاداً فتحت عنوة أو صلحا وفي بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد وليست مرافق لقرية من القرى فهي موات فمن أحيائها فهي له وللإمام أن يقطع ذلك من أحب وله أن يؤجره ويعمل بما فيه الصلاح وقد خالف شيخه أبا حنيفة رحمه الله في إحياء الموات فإن الإمام يقول لا يملك المحيي ما أحيى إلا باذن الإمام قال أبو يوسف وإنما قال ذلك أبو حنيفة كيلا يتنازع الناس

وإذا كانت الأرض الموات في أرض العشر أدى عنها العشر وإن كانت في أرض الخراج أدى عنها الخراج وإن احتفر لها بئرا أو استنبط لها قناة كانت أرض عشر أما إن ساق إليها ماء الخراج فهي أرض خراج

قال أبو يوسف وأيما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لأحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل وأحيائها وأدى عنها العشر أو الخراج فهي له وليس للإمام أن يخرجها من يده

وجعل من الأرض الموات ما ينكشف من الجزر في دجلة والفرات إذا كان لرجل جزيرة أو أرض تلاصقها فخصنها من الماء وزرع فيها فهي له بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا بسير السفن وكذلك ما عولج من البطائح بضرب المسنجات عليها وقطع ما فيها من القصب وكذلك ما عولج من الآجام — كل ذلك مشروط بالألا يكون للأرض مالك أو ذويد أو مرتفق فإن المحافظة على حقوق ارتفاق الجمهور مما أكد فيه أبو يوسف حتى منع من إنشاء الغروب في دجلة إذا كان ذلك بموضع يضر بسير السفن التي تمر في دجلة ومن فعل من ذلك شيئا فعطبت به سفينة فهو ضامن قال أبو يوسف ولا يترك الإمام شيئا من ذلك إلا أمر به فهدم ونحى فإن في هذا ضرراً عظيماً فالفرات ودجلة إنما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئا فمن أحدث فيه شيئا فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن

يوكل بذلك رجلاً ثقة أميناً حتى يتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيئاً في دجلة والفرات في موضع يضر بالسفن ولا يتخوف عليها منه إلا نحاه وتوعد أهله على إعادة شيء منه فإن في ذلك أجراً عظيماً. وتكلم طويلاً في المياه على اختلاف أنواعها وحقوق الجمهور فيها

المورد الثاني من موارد الخراج جزية أهل الذمة

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الروم وهذه الجزية يقابلها من المسلمين الحماية ودفع العدو عنهم. وذلك أنهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين في حروبهم وقد رأيت من السنن العمريّة أن من استعين به من غير الملة لا يدفع جزية. روى الطبري في حوادث سنة ٢٢ من الهجرة أن عبد الرحمن بن ربيعة أحد قواد عمر لما توجه من أذربيجان لفتح الباب أتاه ملكه شهريراز فقال له إنني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبج في شيء ولا من الأرمين وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذولونا بالجزية فتوهوننا لعدوكم. فقال عبد الرحمن فوئى رجل فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقة بن عمرو فلقبه بمثل ذلك فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ولا يد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزية تلك السنة وكتب سراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك فأجازه وحسنه وكتب لهم سراقة بذلك كتاباً فهذا مما يستأنس به على فكرة المسلمين إذ ذاك في أمر الجزية. قال أبو يوسف: إن الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ما خلا نصارى تغلب وأهل نجران خاصة والذي يجب عليه الجزية منهم الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ولا من مقعد لا مال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا مال له. وليس في مواشى أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة

وقد قدر أبو يوسف الجزية ثلاث فئات ٤٨ درهما على الموسرين و ٢٤ على المتوسطين و ١٢ على العمال

ثم قال أبو يوسف وبنحى يأمر المؤمنين أيديكم الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم أما نصارى بنى تغلب فتؤخذ منهم صدقة المسلمين مضاعفة . هكذا فعل عمر ابن الخطاب رضى الله عنه

وقد تكلم أبو يوسف على مامنح لأهل الذمة من الامتيازات في دينهم وكنائسهم وبيعهم فقال إنه كان قد جرى الصلح بين المسلمين وأهل الذمة في أداء الجزية على ألا تهم ببيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم وعلى أن يقاتلوا من ناوهم من عدوهم وعلى أن يخرجوا بالصلبان في أعيادهم وعلى أن يذبوا عنهم فأدوا الجزية على هذا الشرط وجرى الصلح بينهم على ألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة فافتتحت الشام كلها والخيرة لإأقلها على هذا فلماذا تركت البيع والكنائس ولم تهدم . ثم اقتص تاريخ ما أعطاه القواد لأهل الذمة في الأقاليم المختلفة من هذه الشروط وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته أوصى الخليفة من بعده بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

المورد الثالث من موارد الخراج العشور

لم تكن العشور من الموارد التي ذكرها القرآن الكريم ولكنها حدثت في عهد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وسبب ذلك أن ابا موسى الأشعري كتب إليه إن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيما دون المائتين شيء فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه . وروى أن أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء

البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عشر من أهل الحرب . وبعث زياد بن حدير الأسدي على عشور العراق والشام . فصار ذلك سنة في المرور بأموال التجارة خاصة وما يرد منها من أهل الحرب وأهل الذمة سييله سبيل الخراج أما يرد من المسلمين فسييله سبيل الصدقات ولذلك إذا قال المسلم قد أدبت زكاة هذا المال الذى فى يدي صدق فى يمينه

قال أبو يوسف رأيت أن تولى العشور قوما من أهل الصلاح والدين وتأمرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فلا يظلموهم ولا يأخذون منهم أكثر مما يجب عليهم وأن يمتثلوا ما سئناهم ثم تفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر عليهم وهل يجاوزون ما قد أمروا به فإن كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لظلمهم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه وإن كانوا قد انتهوا إلى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك وأحسن إليهم فانك متى أثبت على حسن السيرة والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدى بما تأمر به فى الرعية يزيد المحسن فى إحسانه ونصحه وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدى وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض بالقيمة

مصاريف بيت مال الخراج

الخراج الذى يتكون مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث هو دعامة مالية الدولة ومصرفه المصالح العامة لأنه حق للجمهور كله وهذه المصالح بحسب ما يرى الامام وقد ذكر أبو يوسف بعضها لورودها فى أسئلة الخليفة وهى :

أولا — أرزاق القضاة والولاة والعمال قال أبو يوسف فى جري على والى كل مدينة وقاضيا بقدر ما يحتمل وكل رجل تصيره فى عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا إلا والى الصدقة فإنه يجرى عليه منها فأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك إليك من رأيت أن تزيدهم فى رزقه زدت ومن رأيت أن تحط من رزقه حطت أرجو أن يكون ذلك موسعا عليك وكل ما رأيت أن الله

تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره فاني أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب

وقد سأله الرشيد عن رأيه فيما يجرى على القاضى إذا صار إليه ميراث من موارث الخلفاء وبنى هاشم من الذى يصير إليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم وما لهم فأجاب سلبا وقال إنما يعطى القاضى رزقه من بيت المال ليكون قويا للفقير والغنى والصغير والكبير ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه موارثته رزقا ولم تزل الخلفاء تجرى للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين فأما من يوكل بالقيام بتلك الموارث في حفظها والقيام بها فيجرى عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ما هم فيه فلا يحجب بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والأمناء ويبقى الوارث هالكا وما أظن كثيرا من القضاة والله أعلم بيالى بما صنع وكيفما عمل ولا بيالى أكثر من معهم أن يفتروا اليتيم ويهلكوا الوارث إلا من وفقه الله تعالى منهم

ثانيا - أعطيات الجنود وهى مرتبات العسكر

لم يكن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم مرتبات معينة للجنود الذين كانوا يتألفون من جميع أفراد المسلمين وإنما كانوا يأخذون ما هم في أربعة أخماس ما يغنمون وفيما يرد من خراج الأراضى التى أبقيت في أيدي أهلها كأرض خيبر ولماولى أبو بكر رضى الله عنه أعطى الناس وسوى بينهم في العطاء قائلا هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة فلما ولى عمر رضى الله عنه رأى في ذلك غير رأى أبى بكر وقسم العطاء مفضلا الأسبق فالأسبق وهذا قوله بنصه : والله الذى لا إله إلا هو ما أحد إلا وله في هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنافيه إلا كآحدكم ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فالرجل وتلاده في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناؤه في الاسلام والرجل وحاجته في الاسلام . بناء على هذه القواعد فرض العطاء فكانت المرتبات كما يأتى :

١٢٠٠٠ درهم لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولعمه العباس

٥٠٠٠ لمن شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار وألحق بهم الحسن والحسين

٤٠٠٠ لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهدا وألحق بهم أسامة بن زيد

٣٠٠٠	لعبد الله بن عمر ولبعض ابناء المهاجرين والانصار كعمر بن أبي سلمة
٢٠٠٠	لأبناء المهاجرين والانصار
٨٠٠	لأهل مكة
٤٠٠ و ٣٠٠	لسائر الناس
٦٠٠ و ٤٠٠ و ٣٠٠ و ٢٠٠	لنساء المهاجرين والانصار

وكان يفرض لامراء الجيوش والقرى في العطاء ما بين ٩٠٠٠ و ٨٠٠٠ و ٧٠٠٠ على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور وكان للنفوس إذا طرحت أمه ١٠ دراهم فإذا ترعرع بلغ به ٢٠٠ فإذا بلغ زاده وكان للعطاء ديوان تسجل فيه أسماء المرتزقين ويقبضون عطاءهم على رأس السنة حسبما هو وارد فيه والذي أوجد هذا الديوان هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولما كثرت الناس عن الحاجة واضطرتهم المدينة إلى أن يشتغل كثير من الأمة بغير الجهاد من الصنائع اقتصر الديوان على ما تقوم به حاجة الأمة من الجيش وكان بعض من ليس مرتزقا في الديوان يدعو حبه للجهاد أن يذهب مع الجيش فلا يمنع ويسمون هذا متطوعا وكانوا كثيرين يلزمون الثغور ويخرجون مع الجيوش

ثالثاً — كرى الأنهار وإصلاح مجاريها

قال أبو يوسف رحمه الله : وإذا احتاج أهل السواد إلى كرى أنهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج

وأما الأنهار التي يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء فأما البثوق والمسنيات والبريدات التي تكون في دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء لأن مصلحة هذا على الامام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال لأن عطب الأرضين من هذا وشبهه وإنما يدخل الضرر من ذلك على الخراج ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله يعمل في ذلك بما يجب عليه الله قد عرفت أماته وحمدت مذهبه ولا تول من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل

ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يضيع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تفجر فتغرق مالم الناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم . ثم وجه من يتعرف ما يعمل به واليك في هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك من العمل عليها بما قد يحتاج إلى العمل وما تفجر وما السبب في انفجاره ثم عامله حسبما يأتيك الخبر عنه من حمد لأمره أو ذم وإنكار وتأديب

رابعاً — حضر الترع بعد التثبيت من نفعها بواسطة من لهم بصيرة ومعرفة فاذا تبين الامام ذلك أمر بحفر تلك الترع وجعل النفقة من بيت المال ولا يحمل النفقة على أهل البلد فانهم إن يعمرها خيراً من أن يخربوا وأن يغروا خيراً من أن يذهب ما لهم ويعجزوا

خامساً — الاجراء على المسجونين

قال جواباً لسؤال الرشيد عنهم لا بد لمن كان في مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا وجه شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال من أى الوجهين فعلت فذلك موسع عليك وأحب إلى أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فانه لا يحل ولا يسع إلا ذلك قال والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه فكيف برجل مسلم قد أخطأ وأذنب بترك يموت جوعاً وإنما حمله على ما صار إليه القضاء أو الجهل ولم تنزل الخلفاء تجرى على أهل السجون ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف وأول من فعل ذلك على بن أبي طالب كرم الله وجهه بالعراق ثم فعله معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده

قال أبو يوسف : فر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم وصير ذلك دراهم تجرى عليهم في كل شهر يدفع ذلك إليهم فانك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاية السجن والقوام والجلالوزة وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح ثبتت أسماء من في السجن من تجرى عليهم الصدقة وتكون الأسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه في يده فمن كان منهم أطلق وخلى سبيله رد ما يجرى عليه ويكون للأجراء عشرة دراهم في الشهر لسكل واحد . وليس كل من في السجن يحتاج إلى أن يجرى عليه وكسوتهم في الشتاء قيص وكساء

وفي الصيف قيص وإزار ويجرى على النساء مثل ذلك وكسوتهن في الشتاء قيص ومقنعة وكساء وفي الصيف قيص وإزار ومقنعة وأغنهم عن الخروج في السلاسل يتصدق عليهم الناس فان هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطوا وقضى الله عليهم ما هم فيه فحبسوا يخرجون في السلاسل يتصدقون وماظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين في أيديهم فكيف ينبغي أن يفعل هذا بأهل الاسلام وإنما صاروا إلى الخروج في السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع فربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا وإن ابن آدم لم يعر من الذنوب فتفقد أمرهم ومر بالأجراء عليهم مثل ما فسرت لك ومات منهم ولم يكن له ولي ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن فانه بلغنى وأخبرني به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فسكت في السجن اليوم واليومين حتى يستأمر الوالى في دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكثرون من يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة فما أعظم هذا في الاسلام وأهله

المورد الثالث من موارد بيت المال الصدقات وهي ما يؤخذ من المسلمين .

أولاً — من أنعامهم وهي الابل والبقر والغنم على حساب معين في الفقه الاسلامي

ثانياً — من نقودهم التي هي الذهب والفضة باعتبار ٢٥٥ من كل مائة

ثالثاً — من أموال تجاراتهم ومنها ما يمرون به على العاشر يؤخذ منهم كذلك باعتبار ٢٥٥ من كل مائة

رابعاً — ما يؤخذ من حاصلاتهم الزراعية وهي أعشار الأرض يؤخذ مما سقى

بدون مؤنة العشر ومما سقى بمؤنة نصف العشر

قال أبو يوسف رحمه الله : ومر يا أمير المؤمنين باختيار رجل أمين ثقة عفيف ناصح مأمون عليك وعلى رعيتك فوله جمع الصدقات في البلدان ومره فليوجه فيها أقواما يرتضيه ويسأل عن مذاهيبهم وطرائقهم وأماناتهم يجمعون إليه صدقات البلدان فاذا جمعت إليه أمرته فيها — أمر الله جل ثناؤه به فأنفذه ولاتولها عمال الخراج فان مال الصدقة لا ينبغي أن يدخل في مال الخراج وقد بلغنى أن عمال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ولا يسع وإنما ينبغي أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح فاذا وليتها رجلا ووجه من قبله من يوثق بدينه

وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما ترى ولا تجر عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة

مصارف الزكاة

الزكاة تصرف بالنص إلى ثمانية أصناف من الناس قال الله تعالى «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله»

قال أبو يوسف فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا (وخالف الحنفية في ذلك أكثر الأئمة) والعاملون عليها يعطيهم الامام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وقسمت بقية الصدقات بينهم للفقراء والمساكين سهم والغارمون وهم الذين لا يقدرّون على قضاء ديونهم سهم وفي أبناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعاونون وفي الرقاب سهم وسهم في إصلاح طرق المسلمين ويقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة في أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على أهل مدينة أخرى وأما غيره فيصنع به الامام ما أحب من هذه الوجوه التي سمي الله تعالى في كتابه وإن صيرها في صنف واحد من سمي الله تعالى أجزاءه

٦ — الأمين

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمي أبا وأما ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ولابنه الحسن.

ولد سنة ١٧٠ من الهجرة وولاه أبوه العهد سنة ١٧٥ وكان قائما مقام أبيه ببغداد حينما سافر إلى خراسان ولما مات الرشيد بطوس بويع له في عسكر الرشيد بالخلافة ووصل الخبر إلى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر في الخلافة إلى أن قتل في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣) فكانت مدته أربع سنوات إلا أربعة أشهر تقريبا

الحال الداخلية لذلك العهد

كانت هذه المدة التي وليها الأمين مملوءة بالمشاكل والاضطرابات بين الأخوين الأمين والمأمون وكادت الأمة تذهب بينهما ضياعا وسبب ذلك ما فعله الرشيد من من ولاية العهد لأولاده الثلاثة أحدهم بعد الآخر وقسمته البلاد بينهم كما قدمنا ونحن نبين كيف ابتدأت المشاكل وكيف انتهت ونبين آثارها في الأمة

لما كان الرشيد بطوس جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهد من معه من القواد وسائر الناس أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون وأن جميع مامعه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون . ولما علم الأمين وهو ببغداد مرض أبيه وأنه لمسأبه أرسل من يفيد الأخبار كل يوم وأرسل كتابا تسلم إلى من أرسلت إليه بعد وفاة الرشيد . فلما توفي كان من تلك الكتب كتاب للمأمون يعزبه فيه عن أبيه ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله للأمين بالخلافة وللمأمون بولاية العهد وللناس المؤتمنين بعده : ومنها كتاب لصالح بن الرشيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الذين معه وهو الذي صلى عليه حين مات وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للأمين ثم المأمون ثم المؤتمنين على الشريطة التي اشترطها الرشيد وأمره بالمسير إليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح وقال له في الكتاب وإياك أن تنفذ رأيا أو تبرم أمرا إلا برأي شيخك وبقية آباءك الفضل بن الربيع وفيه . وإن أمرت لأهل العسكر بعتاء أو أرزاق فليكن الفضل بن الربيع المتولى لاعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحض من أصحاب الدواوين فإن الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور

لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الأمين بطوس من القواد والجند وأولاد هارون تشاوروا في اللحاق بمحمد فقال الفضل بن الربيع لأدع ملكا حاضرا لآخر لا يدري ما يكون من أمره وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحقوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد وتركوا اليهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون انتهى خبر ذلك إلى المأمون وهو بمرو فجمع من معه من قواد أبيه واستشارهم فأشاروا عليه أن يلحقهم في أفي فارس تجريدة فيردم فدخل عليه الفضل بن سهل

وهو عنده من أعظم الناس قدرا وأخصهم به فقال له إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية إلى محمد ولكن الرأي أن تكتب اليهم كتابا وتوجه اليهم رسولا فتذكرهم البيعة وتسلمهم الوفاء وتحذرم الخنث وما يلزمهم في ذلك في الدين والدنيا ففعل ذلك المأمون ووصل الكتاب والقوم بنيسابور قدرحوا ثلاث مراحل فلم يقد هذا الجواب فائدة وتم الفضل بن الربيع على سيره

لما جاء المأمون خبر ذلك كان الفضل بن سهل حاضرا فأزال عنه الانزعاج وامله في الخلافة فجعل أمره اليه وأمره أن يقوم به بعد أن رفضه كبار القواد الذين معه . فكان من أول تدبيره أن يبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء فيدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة وأن يقعد على اللبود ويرد المظالم ليكون بذلك قريبا من نفوس الجمهور ففعل

ولم يبدأ المأمون أخاه بشيء يريه بل تواترت كتبه اليه بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح أما الأمر في بغداد فقد كان يدل على شر مستطير فان الفضل بن الربيع بعد مقدمه العراق نا كئنا للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه للمأمون رأى أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوما وهو حي لم يبق عليه حث محمدا على خلعه وأن يولى العهد من بعده ابنه موسى ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهود فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه فأول ما بدأ به أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء له والمأمون والقاسم . فلما بلغ ذلك المأمون وبلغه أن الأمين عزل أخاه القاسم عما كان الرشيد ولاء من الأعمال واقدمه بغداد علم أنه يدبر في خلعه فقطع البريد عنه وأسقط اسمه من الطراز

كرر الأمين تجربته فكتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك وهو عامل المأمون على الري وأمره أن يبعث اليه بغرائب غروس الري مريدا بذلك امتحانه فبعث اليه بما طلب فبلغ ذلك المأمون فعزل العباس عن ولايته

ثم بعث الأمين إلى المأمون ثلاثة نفر أحدهم العباس بن موسى بن عيسى والغرض من هذا الوفد أن يطلبوا من المأمون رضاه بتقديم موسى بن الأمين على نفسه

في ولاية العهد فلما اطلع المأمون على مرادهم رد ذلك وأباه وعرض الفضل بن سهل على العباس بن موسى أن يكون عوناً لهم ومنه الأمانى إن هو أجاب إلى ذلك فرضى وكان بعد ذلك يكتب إليهم بالأخبار ويشير عليهم بالرأى عاد الوفد إلى الأمين وأخبروه بامتناع المأمون

لم يخفض ذلك من غلواء الفضل بن الربيع بل مازال يلح على الأمين حتى رضى أن يخلع المأمون ويبيع لابنه موسى بولاية العهد . ونهى الفضل عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما على شيء من المنابر ووجه إلى مكة كتاباً مع رسوله من حجة البيت في أخذ الكتائب اللذين كتبهما هارون وجعلهما بالكعبة فأحضرهما إلى بغداد فزقا

وكان الأمين قبل أن يكشف أخاه بذات نفسه أرسل إليه يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها وأن يوجه العمال إليها من قبل محمد وأن يتحمل توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب إليه بخبره فكتب إليه جواب ذلك بلغنى كتاب أمير المؤمنين يسأل التجافى عن مواضع سماها مما أثبتته الرشيد في العقد وجعل أمره إلى وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره غير أن الذى جعل إلى الطرف الذى أنابه لاظنين فى النظر لعامتة ولا جاهل بما أسند إلى من أمره ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التى أنا عليها من إشراف عدو مخوف الشوكة وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال وطرف من الافضال لكان فى نظر أمير المؤمنين لعامتة وما يجب من أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله فكيف بمسألة ما أوجبه الحق وو كدته مأخوذة العهد وإنى لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت لم يطلع ما كتب بمسألته إلى ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله

وكان المأمون قد وجه حارسه إلى الحد فلا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمانة ولا يدعه يستعلم خبراً ولا يؤثر أثراً ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرغبة أحداً ولا يبلغ أحداً قولاً ولا كتاباً — فحضر أهل خراسان من أن يستألوها برغبة أو أن تودع صدورهم رهبة ويحملوا على منول خلاف أو مفارقة — ثم وضع على

مراسد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظنة في أمره ممن أتى بجواز في مخرجه إلى دار مآبه أو تاجر معروف مأمون في نفسه ودينه ومنع الاشتاتات من جواز السبيل والقطع بالمتاجر والوغول في البلدان في هيئة الطارئة والسابلة وقنشت الكتب . هكذا دبر الفضل بن سهل أمر صاحبه فلم يدع للفضل ابن الربيع مجالاً لرسله ورواده أن يثبوا شيئاً في عامة أهل خراسان ولما أتت رسل الأيمن بجواب كتب الأيمن وجدوا جميع ما كانوا يؤملونه ممنوعاً عنهم موصداً بابه دونهم . وكان كتاب الأيمن للأيمن :

«أما بعد فإن أمير المؤمنين الرشيد وإن كان أفردك بالطرف وضم ماضم إليك من كور الجبل تأييداً لأمرك وتحصينا لطرفك فإن ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك وقد كان هذا الطرف وخراجه كافياً لحدته ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من رده وقد ضم لك إلى الطرف كورا من أمهات كور الأموال لاجابة لك فيها فالحق فيها أن تكون مردودة في أهلها ومواضع حقها فكتبت إليك أسألك رد تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها ليكون فضول ردها مصروفاً إلى مواضعها وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدي إلينا علم مانعاً به من خبر طرفك فكتبت تلتظ دون ذلك بما أن تم أمرك عليه صبرنا الحق إلى مطالبتك فائن عن همك أئن عن مطالبتك إن شاء الله» فلما قرأ المأمون كتابه كتب إليه :

«أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه ولم يسأل مالا يوجهه حق فيلزمى الحجة بترك إجابة وإنما يتجاوز المناظران منزلة النصفة ماضاقت النصفة عن أهلها فتى تجاوز متجاوزها وهو موجودة الوسع ولم يكن تجاوزها إلا عن نقضها واحتمال مافى تركها فلا تبغنى يا ابن أبى على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك ولا على قطيعتك وأنا على إثار ماتحب من صلتك وارض بما حكم به الحق في أمرك أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك والسلام»

فلما وصل الكتاب إلى الأيمن اشتد غيظه وعند ذلك أمر بعدم الدعاء له على المنابر وكتب إليه :

«أما بعد فقد بلغني كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما مكن لك من ظلها متعرضاً لحراق نار لا قبل لك بها ولحطك عن الطاعة كان أودع وإن كان قد تقدم منى متقدماً

فليس بخارج من مواضع نفحك إذ كان راجعا على العامة من رعيتك وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة ويثبت لك من حال الهدنة فاعلمن رأيك أعمل عليه إن شاء الله

لم يكن لهذه المكاتبات بين الأخوين نتيجة لأنه كان لكل منهما سائق يسوقه فلأمين الفضل بن الربيع الذي لم يكن يحب المأمون ولا ولايته وللأمنون الفضل ابن سهل الذي كان يأمل الخلافة لصاحبه وأن تكون مرو حاضرة الخلافة العظمى وتعود لخراسان عظيمها

بلغ المأمون ما أقدم عليه أخوه من خلعه عن ولاية العهد وترك الدعاء له فكان أول ما فعله الفضل بن سهل من التدبير أن جمع الأجناد التي كان أعدها بجنبات الري مع أجناد قد كان مكنها فيها وأجناد للقيام بأمرهم وأقامهم بالحد لا يتجاوزونه ولا يطلقون يدابسه في عامة ولا يجازئ ثم اختار لقيادة الجند طاهر بن الحسين الخزاعي مولاهم فسار طاهر مغننا لابلوى على شيء حتى ورد الري فنزلها ووكل بأطرافها ووضع مسالحه وبث عيوننه وطلأته

أما الفضل بن الربيع فانه اختار لجند العراق على بن عيسى بن ماهان وولاه الأمين كور الجبل كلها نهاوند وهمدان وقم وأصفهان وأعطى جنده من الأرزاق شيئا كثيرا وأمدهم بالسلاح والعدة فشنخص من بغداد في منتصف جمادى الآخرة سنة ١٩٥ وكان معه زهاء أربعين ألفا وحمل معه قيد فضة ليقيد به المأمون كما شامت زيدة أم الأمين وقد خدم الأمين أخاه بهذا التعيين خدمة عظيمة فان أهل خراسان لم ينسوا ما عاينهم به على بن عيسى من القضايع مدة ولايته في عهد الرشيد فكان تعيينه لخدمهم بما أثار في قلوبهم الحمية لردها العدو بعد أن أبدلهم الله خيرا منه عدلا ورفقا وحسن سياسة وهو عبد الله المأمون وبما كان ينذر بالشر جندا الأمين عدم احتفال قائده بلقاء عدوه فانه لما بلغه أن طاهر بن الحسين مقيم بالري كان يضحك ثم يقول وما طاهر فوالله ما هو إلا شوكة من أعصاني أو شرارة من نارى وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب ثم التفت إلى أصحابه فقال والله ما بينكم وبين أن ينقص انقصاص الشجر من الرياح العاصف إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان فان السخال لا تقوى على النطاح والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسد فان يقوم طاهر بموضعه يكن أول معرض لظبات السيوف

وأسنه الرماح . ولما صار في أول بلاد الري أتاه صاحب مقدمته وقال لو كنت أبقى
الله الأمير أذكيت العيون وبعثت الطلائع وارتدت موضعا تعسكر فيه وتتخذ خندقا
لأصحابك يأمنون به كان ذلك أبلغ في الرأي وآنس للجند - فقال لاليس مثل طاهر
يستعد له بالمكاید والتحفظ إن حال طاهر تؤول إلى أحد أمرين إما أن يتحصن
بالرى فيبيته أهلها فيكفونا مؤتسه أو يخليها ويدبر راجعا لوقربت خيولنا وعسكرنا
منه - وأتاه يحيى بن على فقال اجمع متفرق العسكر واحذر على جندك البيات ولا
تسرح الخيل إلا ومعها كنف من القوم فان العساكر لاتساس بالتواني والحروب
لاتدبر بالاغترار والثقة أن تحتزز ولا تنقل المحارب لى طاهر فالشرارة الخفية ربما
صارت ضراما والثدة من السيل ربما اغتربها قهون فصارت بحرا عظيما وقد قربت
عساكرنا من طاهر فلو كان رأيه المهرب لم يتأخر إلى يومه هذا . فقال له اسكت
فان طاهرا ليس في هذا الموضع الذى ترى وإنما يتحفظ الرجال إذالقيت أقرانها
وتستعد إذا كان المناوى لها أكفاهها ونظراءها

ويبينما كان هذا القائد يسير مدلا بنفسه وبمن معه مستخفا بعدوه كان طاهر يدبر
أمره مع قواده ويسير سير من يريد موقعة عدو أكثر منه عددا وعدة وقد استقر
رأيه على أن يجعل مدينة الري وراء ظهره ويقا تل بعيدا عنها فعسكر على خمسة فراسخ
منها وأقبل إليه على بن الحسين وقد عبأ جنده وهم في أكمل عدة وأحسن زى فكتب
طاهر كتابه وكردس كراديسه وسوى صفوفه وجعل يمر بقائد فائده وجماعة جماعة
يعظمهم ويثبتهم ثم تلاحم الفريقان واقتتلوا قتالا شديدا فعلت ميمنة على على ميسرة
طاهر ففضتها فضا منسكرا وميسرته على ميمنته فأزالتها عن موضعها فقال طاهر اجعلوا
بأسكم وجدكم على كراديس القلب فانكم لو قد فضضتم منهم راية واحدة رجعت أوائلها
على أوأخرها فصر أصحابه صبوا صادقا ثم حملوا على أولى رايات فهزموهم وأكثر و
فيهم القتل ورجعت الرايات بعضها على بعض ورأى أصحاب ميمنة طاهر وميسرته
ما عمل أصحابه فرجعوا على من كان في وجوههم فهزموهم وانتهت الهزيمة إلى على ورماه
رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله ووضعوا فيهم السيوف حتى حال الليل بينهم
وبين الطلب وغنموا غنيمة كثيرة ونادى طاهر في أصحاب على من وضع سلاحه فهو
آمن فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم وعاد طاهر إلى الري وكتب إلى الفضل

ابن سهل — أطل الله بقاءك وكبت أعداءك وجعل من يشناك فذاك كتبت إليك ورأس علي بن عيسى في حجرى وخاتمته في يدي والحمد لله رب العالمين — فلما وصل الكتاب إلى الفضل نهض فسلم على المأمون بأمر المؤمنين — وأمد طاهرا بالرجال والقواد وسماه ذا اليمينين وصاحب جبل الدين

وصل هذا الخبر بغداد على غير ما ينتظر القوم فانتخب الأمين جيشا ثانيا جعله تحت قيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنبارى وعدة هذا الجيش عشرون ألف رجل من الأبناء وحمل معه الأموال وقواه بالسلاح والخيل وأجازه بجوازٍ وندب معه فرسان الأبناء وأهل البأس والنجدة والغناء منهم وأوصى قائده بالتحفظ والاحتراص وترك ما عمل به علي بن عيسى من الاغترار والتضجع فسار عبد الرحمن حتى نزل همدان فضبط طرفها وحصن سورها وأبوابها وسد ثلثها وحشر إليها الأسواق والصناعات وجمع فيها الآلات والمير واستعد للقاء طاهر ومحاربه . ولما بلغ طاهرا خبره توجه إليه حتى أشرف على همدان فخرج إليه عبد الرحمن فيمن معه على تعبئة فاقتل الفريقان قتالا شديدا إلى أن انهزم عبد الرحمن ودخل همدان فلبث فيها حتى قوى أصحابه واندمت جراحهم ثم خرج ثانية إلى اللقاء فلقبه طاهر وفعل به ما فعل في المرة الأولى فعاد إلى همدان فحصره فيها طاهر حتى جهد من قلة المادة فطلب الأمان له ولمن معه فأمنه طاهر

ولما تم لطاهر هذا النصر طرد عمال محمد من قزوین

كان ذلك سببا لارتباك الفضل بن الربيع وشعوره بزوال الدولة فدعا أسد بن يزيد ابن مزید وهو من قواد الدولة المعدودين وقال له أنت فارس العرب وابن فارسها فزع إليك الأمين في لقاء هذا الرجل وأطعمه فيما قبلك أمران — أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك والثاني يمن نقيتكم وشدة بأسك وقد أمرني بإزاحة علك وبسط يدك فيما أحببت غير أن الاقتصاد رأس النصيحة ومفتاح اليمن والبركة فأنجز حوائجك وعجل المبادرة إلى عدوك فاني أرجو أن يوليک الله شرف هذا الفتح ويلم بك شعث هذه الخلافة والدولة — فلم يمتنع أسد وإنما طلب لجنده مطالبه أن يؤمر لأصحابه برزق سنة ويخص من لاخاصته له منهم من أهل الغناء والبلا وأبدل من فيهم من الزمنى والضعفاء وأحمل ألف رجل ممن معي على الخيل ولا أسأل عن

محاسبة ما افتتحت من المدن والكور — فقال له الفضل قد اشتطت ولا بد من مناظرة أمير المؤمنين ثم ركب إليه فدخل عليه الفضل أولاً ثم دخل أسد فإكان بينهما إلا كلمتان حتى غضب الأمين وأمر بحبس أسد — ثم قال هل في أهل بيتي هذا من يقوم مقامه فإني أكره أن أستفسدهم مع سابقتهم وما تقدم من طاعتهم ونصيحتهم فقالوا نعم فيهم أحمد بن مزيد وهو أحسنهم طريقة وأصلحهم نية في الطاعة وله مع هذا بأس ونجدة وبصر بسياسة الجنود ولقاء الحروب فاستدعاه محمد وقال له إنه قد كثر على تخليط ابن أخيك وتسكره وطال خلافه على حتى أوحشني ذلك منه وولد في قلبي التهمة له وصيرني بسوء المذهب وحنث الطاعة إلى أن تناولته من الأدب والحبس بما لم أحب أن أكون أتناوله به وقد وصفت لي بخير ونسبت إلى جميل فأجبت أن أرفع قدرك وأعلى منزلتك وأقدمك على أهل بيتك وأن أوليك جهاد هذه الفتنة الباغية الناكثة وأعرضك للأجر والثواب في قتالهم ولقائهم فانظر كيف تكون وصحح نيتك وأعن أمير المؤمنين على اصطناعك وسره في عدوه نعم سرورك وتشريفك . ثم أمر الفضل أن يدفع إليه دفاتر أسد وأن يضم إليه من شهد العسكر من رجال الجزيرة والأعراب — فخرج أحمد فانتخب الرجال واعترض الدفاتر فبلغت عدة من معه عشرين ألف رجل — ووجه الأمين عبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً أخرى وأمرهما أن ينزلا حلوان ويدفعا طاهرا عنها وتقدم إليهما في اجتماع الكلمة والتواد والتحاب على الطاعة — فتوجها حتى نزلا قريبا من حلوان بخانقين

أما طاهر فإنه أقام بموقعه وخندق عليه وعلى أصحابه ودس العيون والجواسيس إلى عسكرى عدوه فكانوا يأتونهم بالأراجيف ولم يزل يحتال في وقوع الخلاف بينهم حتى اختلفوا وانتقض أمرهم وقاتل بعضهم بعضا فأخلوا خانقين ورجعوا عنها من غير أن يلقوا طاهرا فتقدم طاهر حتى نزل حلوان . ثم لم يلبث إلا قليلا حتى ورد عليه هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون ومعه كتاب من المأمون والفضل بن سهل يأمره فيه بتسليم ما حوى من الكور والمدن إليه ويتوجه إلى الأهواز فسلم ذلك إليه وأقام هرثمة بحلوان فخصنها ووضع مسالحه ومراصده في طرقها وجبالها وتوجه طاهر إلى الأهواز ليسكون الهجوم على بغداد من جهتين

كان من سوء حظ الأمين أن عبد الله بن صالح بن علي الذي كان الرشيد قد حبسه خلصه الأمين من سجنه فعد ذلك فضلا منه وأراد مساعدته فطلب إليه أن يوليه الشام والجزيرة ليحضر إليه جندا من العرب قد صرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد فولاه ذلك فلما وصل إلى الرقة أنفذ كتبه إلى رؤساء الأجناد بالشام ووجوه الجزيرة فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه إلا وعده وبسط له في أماله وأمنيته فقدموا عليه رئيسا بعد رئيس وجماعة بعد جماعة وأتاه أهل الشام الزواويل والأعراب من كل فج واجتمعوا عنده

حصلت مشكلة تافهة بين جندي خراساني وجندي من الزواويل فتعصب لكل جماعته تعصبا أدى إلى التلاحم واستعد الأبناء وأتوا الزواويل وهم غارون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فتنادى الزواويل وركبوا ونشبت الحرب بين الفريقين وكان عبد الملك ابن صالح إذ ذاك مريضا فوجه إليهم رسولا يأمرهم بترك الحرب فرموا رسوله بالحجارة . ولما أخبر بكثرة من قتل من العرب قالوا ذلناه تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها . فكان ذلك بمثابة محضاً حرك إلى الشر من لم يركب من الأبناء وقام بأمرهم الحسين ابن علي بن عيسى بن ماهان . فلما رأى ذلك أهل الشام أجمعوا أمرهم على الرحيل إلى بلادهم فرحلوا قائلين الموت الفلستيني خير من العيش الجزري وأقام الحسين بمن معه من الأبناء

انتهت هذه الفكرة بالفشل ولم يقف شرها عند هذا الحد فان الحسين بن علي نادى في عسكره بالرحيل قاصدا بغداد فلما وصلها حض الأبناء الذين معه على خلع الأمين فأجابوه فتوجه بهم حيث يقيم الأمين ونادوا بخلعه في ١١ رجب سنة ١٩٦ وأخذوا البيعة للأمين في ثاني عشرة وغداني الثالث عشر إلى الأمين في قصره وأخرجه منه محبوسا خاف كبار الأبناء تقدم علي بن عيسى فقام محمد بن أبي خالد وقال أيها الناس ما أدري بأي سبب يتأمر علي بن الحسين علينا ما هو بأ كبيرنا سنا ولا أكرمنا حسبا ولا أعظمتنا منزلة وإني أولكم نقض عهده فمن كان علي رأيا فليعتزل معي وقام أسد الحربى ودعا من معه من الحريرية إلى القيام بأمر محمد وفسكه فتأثر الأبناء من هذه الأقوال وثاروا على الحسين بن علي فأسروه ودخل أسد الحربى إلى الأمين ففك قيوده وأقعده في مجلس الخلافة وأتى الأمين بالحسين بن علي فلامه على ما كان منه مع إحسانه

إليه وإلى أبيه وأخيراً عفا عنه ولكن ذلك لم يفد فإنه بعد العفو حاول الهرب من بغداد فأدرك وقتل

هذه حال الاضطراب في جند الأمين أما جند المأمون فكان على العكس من ذلك كان هادئاً منتظماً لا تزيد الأيام إلا قوة . انقسم إلى قوتين قوة مع هرثمة بن أعين تريد بغداد من جادة المشرق وقوة مع طاهر بن الحسين تريد بغداد من جادة الأهواز والبصرة

ذهب طاهر إلى فارس فاستولى عليها بعد أن أوقع بعاملها محمد بن يزيد المهلبى وقعة شديدة بسوق الأهواز وقتل محمد بن يزيد وكان ترتيب جند طاهر في مسيره وحره حائزاً الغاية من النظام والاحتراس فضلاً عما حازه من الاسم الكبير الذى يفتى في الأعضاء

أقام بفارس مدة أنفذ فيها العمال إلى الكور وولى على اليمامة والبحرين وعمان بما يلي الأهواز وبما يلي عمل البصرة ثم سار متوجهاً إلى واسط فجعلت المسالحوالعمال تنقوض مسلحة مسلحة وعمالاً عاملاً كلما قرب منهم طاهر تركوا أعمالهم وهربوا عنها حتى قرب من واسط فهرب عنها عاملها قائلاً إنه طاهر ولا عار في الهرب منه . دخل طاهر واسطاً ومنها وجه قائداً إلى الكوفة وعليها العباس بن موسى الهمدانى فبادر إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون وأرسل بذلك إلى طاهر فتم له ما بين واسط إلى الكوفة وأنفذ كتب التولية إلى العمال وكذلك بايع للمأمون أمير البصرة وهو المنصور بن المهدي وكان ذلك كله في رجب سنة ١٩٦

ثم سار طاهر إلى المدائن فاستولى عليها من غير قتال في تلك الأثناء حصل في الحجاز مازاد المأمون قوة والأمين خذلانا ذلك أن داود بن عيسى بن موسى كان عاملاً للأمين على مكة والمدينة فلما بلغه ما فعل الأمين من خلع المأمون وأخذ الكتائب الذين كانوا بجوف الكعبة وتمزيقهما جمع حجة الكعبة والقرشيين والفقهاء ومن كان شهد على ما في الكتائب من اليهود وكان داود أحدهم فذكروهم بما كان الرشيد أخذ عليهم من اليهود أن يكونوا مع المظلوم من ولديه على الظالم وأخبرهم أن محمداً كان الذى قد بدأ بالظلم نفلع أخويه وبايع لابنه الصغير لذلك رأيت خلعه وأن أباع للمأمون فأجابه إلى ذلك أهل مكة وفي ٢٧ رجب

سنة ١٩٦ نادى داود في البيت الحرام بخلع الأمين وبيعة المأمون ثم كتب إلى ابنه سليمان وهو خليفة على المدينة يأمره أن يفعل بها فعل أهل مكة ففعل . ولما تم ذلك سار داود بنفسه إلى مرو وأعلم المأمون بما تم في الحجاز فسر المأمون جد السرور وتيمن ببركة مكة والمدينة وكتب إلى أهل الحجاز كتباً يعدهم فيها الخير ويبسط أملمهم وأقر داود على ولاية الحجاز فعاد مغذا ليدرك الحج ومر وهو عائد على طاهر بن الحسين فوجه معه يزيد بن جرير القسرى والياً على اليمن وكان يزيد هذا داعية أهل اليمن إلى بيعة المأمون فأجابوه

اجتمعت جيوش طاهر وهرثمة حول بغداد وحوصرت من ثلاث جهات فنزل هرثمة نهرين وأعد المجانيق والعرادات وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية ونزل طاهر البستان بباب الأنبار ونزل المسيب بن زهير قصر رقة كلواذى . وقد نصب المسيب المجانيق والعرادات واحفر الخنادق وجعل يخرج في الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر فيرمى بالعرادات من أقبل ومن أدبر ويعشر أموال التجارة ويجي السفن وبلغ من الناس كل مبلغ

أحس محمد بالضيقة ومنعت عنه الأموال فأمر ببيع كل مافي الخزان من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنائير ودرهم وحملها لأصحابه في نفقاته

وقد قاست هذه المدينة العظمى ودرة تاج الخلافة العباسية من هذا الحصار مالم يكن يخطر لأحد على بال من الهدم والتحريق وسفك الدماء والجوع الشديد حتى درست محاسنها وكادت تمحى معالمها ونظقت ألسن شعرائها بوصف ما عليه الناس من الأحزان والمحن التي لا تحتمل وأحسنهم في ذلك عمرو بن عبد الملك العتري الوراق فما قاله :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين * ألم تكوني زمانا قرة العين
 ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم * وكان قريهم زيناً من الزين
 صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا * ماذا لقيت بهم من لوعة البين
 أستودع الله قوما ما ذكرتهم * إلا تحدر ماء العين من عيني
 كانوا ففرقهم دهر وصدعهم * والدهر يصدع ما بين الفريقين

وقال بعض فتيان بغداد

بكيت دما على بغداد لما ◦ فقدت غصارة العيش الأنيق
تبدلنا هموماً من سرور ◦ ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابها من الحساد عين ◦ فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسراً ◦ وناثحة تنوح على غريق
وصائحة تنادى واصباحا ◦ وبأكية لفقدان الشفيق
وحوراء المدامع ذات دل ◦ مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى اتهاب ◦ ووالدها يفر إلى الحريق
وسالبة الغزاة مقلتها ◦ مضاحكها كلالاة البروق
حيارى كالهدايا مفكرات ◦ عليهن القلائد في الخلوق
ينادين الشفيق ولا شفيق ◦ وقد فقد الشفيق من الشفيق
وقوم أخرجوا من ظل دنيا ◦ متاعهم يباع بكل سوق
ومغربت قريب الدار ملق ◦ بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً ◦ فما يدرون من أى الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه ◦ وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنس من شيء تولى ◦ فاني ذاكر دار الرقيق

وكان الأمين قد استعان في حروبه بالعيارين والشطار والمسجونين من أهل بغداد فكان الشر الذي أصاب المدينة منهم أكثر مما أصابها من العدو المهاجم. وللخزيمي قصيدة طويلة تبلغ ١٣٥ بيتاً يصف فيها ما أصاب بغداد ويذكر أسباب تلك النكبات التي حلت استوفاه الطبري في الجزء العاشر من تاريخه صحيفة ١٧٦ وما بعدها من طبع مصر يقول فيها :

يابؤس بغداد دار مملكة ◦ دارت على أهلها دواثرها
أهلها الله ثم عاقبها ◦ لما أحاطت بها كباثرها
بالخسف والقذف والحريق وبال حرب التي أصبحت تساورها
سم قال : رق بها الدين واستخف بذى الفضل ◦ وعز النساك فاجرها
وخطم العبد أنف سيده ◦ بالرغم واستعبدت مخادرها

وصار رب الجيران فاسقهم * وابتز أمر الدروب زاعرها

وقال العتري :

الناس في الهدم وفي الانتقال * قد عرض الناس بقليل وقال
ياأها السائل عن شأنهم * عينك تكفيك مكان السؤال
قد كان للرحمن تكبيرهم * فالיום تكبيرهم للقتال
اطرح بعينيك إلى جمعهم * وانتظر الروح وعد الليال
لم يبق في بغداد إلا امرؤ * حالفه الفقر كثير العيال
لا أم تحمي عن حماها ولا * خال له يحمي ولا غير خال
ليس له مال سوى مطرد * مطرده في كفه رأس مال
هان على الله فأجرى على * كفيه للشقوة قتل الرجال
إن صار ذا الأمر إلى واحد * صار إلى القتل على كل حال
مابالنا نقتل من أجلهم * سبحانك اللهم ياذا الجلال

استمرت هذه الشدائد على بغداد وما فيها حتى استنفد الأمين كل وسائل الدفاع وأيقن بالعطب إن هو استمر على الممانعة فاستشار من بقي من قواده فأشار عليه بعضهم أن يطلب لنفسه الأمان من هرثمة بن أعين ويسلم له فرضي وكتب إلى هرثمة بذلك فأجابه إليه ولما علم طاهر بذلك أبي إلا أن يكون خروجه إليه إذا شاء ولما لم يكن الأمين ميالا إلى الخروج إلى طاهر اتفق القواد أن يخرج بيده إلى هرثمة وأن يدفع إلى طاهر الخاتم والقضيب والبردة ثم علم طاهر أنهم يمتكرون به فاستعد للأمر وكن حول القصر كمناء بالسلاح فلما خرج الأمين كانت حراقة هرثمة تنتظره فركبها ولم تسربهم إلا قليلا حتى خرج أصحاب طاهر فرموا الحراقة بالسهام والحجارة فانكفأت الحراقة وغرق هرثمة ومحمد الأمين فأما هرثمة فأدركه أصحابه وأما محمد ففسح في الماء حتى أدركه أصحاب طاهر فأسروه فأمرهم طاهر بقتله فقتل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ وفي الصباح كتب طاهر إلى المأمون يخبره بما تم وبالأسباب التي جعلته يأمر بقتل الأمين . ثم دخل طاهر المدينة فأمن أهلها وهدأ الناس وكان دخوله إليها يوم الجمعة فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة حضنهم فيها على الطاعة ولزوم الجماعة ورجعهم في التمسك بحبل الطاعة

وانصرف إلى معسكره

بذلك انتهى الفصل الأول من هذه الحادثة الشنيعة التي فرقت بين الأمة وأحدثت

هذه الثورة الهائلة

أما سببها وتبعها فعائدان إلى هارون الرشيد أولاً ثم إلى الفضل بن الربيع ثانياً . أما الرشيد فإنه غلط في فعله غلطات الأولى أنه ولي عهده أو لأمحمد الأمين والمأمون أسن منه ولم يكن ما يزيد الأمين إلا أنه ابن زبيدة وليس هذا من الأسباب المرجحة في نظر العقلاء وإنما هو مرجح في نظر الضعفاء الذين يتأثرون بالهوى . الثانية أنه لما أحس بهذه الغلظة أراد مداواتها ففعل ما يزيداً شراً بتولية المأمون العهد بعد الأمين ولم يقتصر على مجرد تولية العهد بل أعطاه من الامتيازات ما يجعله مستقلاً تمام الاستقلال بأمر خراسان والرى عن أخيه الأمين ومن المعلوم أنه كلما كثرت الامتيازات كثرت المشاكل وأسباب الفساد والأمين والمأمون وإن كانا أخوين يتنافسان فالأول يميل أن يتمتع بسلطان الخلافة التام والثاني يميل أن يتمتع بامتيازاته مماماً ولكل منهما جيش يتصرف فيه كما يرغب فلم يكن يظن أن يبقى لهذين الأخوين صفاء متى حانت وفاة الرشيد وقد أدرك المفكرون ذلك في حياته . الثالثة أنه لم يقتصر عليهما في ولاية العهد فأضاف إليهما أخائنا وأعطاه من الامتيازات في الجزيرة وأرمينية ما أعطى المأمون في خراسان فجزأ ذلك الأمين على نقض العهد لأنه نظر فرأى نفسه مقصوص الجناحين منزوعاً منه السلطان في أعظم بقاع الاسلام وأكثرها أعواناً وجندا . الرابعة أنه اغتر بالفضل بن الربيع الذي جراه على إفساد ملكه بقتل البرامكة والحرمان من مقدراتهم وكفاءتهم ولم يتبين له خبث نية الرجل واستمر على الاستعانة به حتى عاد سيرته الأولى في عهد الأمين فإنه هو الذي اجتهد في إغرائه بأخيه لأنه ظن أن المأمون إذا تولى أخذه بتبعية نكته لعهدده مع الرشيد وسيره بالجنود التي كانت مع الرشيد إلى بغداد مع أن الرشيد عهد بها إلى المأمون فسال يحتمل في الافساد حتى أوقع هذه الاضطرابات . ولما اشتد الأمر على الأمين لم يفده فائدة بل اختفى وكان كالشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين

يضاف إلى ذلك كله ما في طباع الخلفاء من ميلهم إلى أن يكون بعدهم في الخلافة

ابناؤهم فهم يمتثلون بكل ما في وسعهم إلى إخراج إخوتهم أو بني أعمامهم من العهد إن كان ولم نرا خليفة له ابن فلم يسع له ذلك السعى ولم نجد عهدا أو عقدا منع من ذلك حتى كان هذا مجرئا للخلفاء على عدم الاعتراف باليهود المكتوبة وصاروا يفتحون لها من أبواب الخيل ما يبيع لهم عدم التمسك بها والرشد نفسه يعلم ذلك بما وقع له من أخيه الهادي وقد كاد يظفر به ويخرجه من ولاية العهد لولا أن المنية غلبت مع أن الرشيد لم يكن له شيء من الامتياز أعطاه إياه المهدي أبوه نسأل الله السلامة من عدم الاعتبار والاتعاظ فهما المهلكة العامة .

صفات الأمين

امتدت أسنة الكتاب والشعراء بعد خلع الأمين وقتله إلى القدرح فيه وتعدد مثاله التي أودت به وهذه سنة قديمة أن الناس مع من يساعده القدر فهم أبدا مع القاهر على المقهور لأن للقوة سلطانا على النفوس لا يغالب وهذا نموذج مما قيل في هجم الأمين :

لم نبيك لماذا للطرب * ياأبا موسى وترويح اللعب
ولترك الخس في أوقاتها * حرصا منك على ماء العنب
وشنيف أنا لأبسكى له * وعلى كثر لاأخشى العطب
لم تكن تعرف ماخذ الرضا * لا ولا تعرف ماخذ الغضب
لم تكن تصلح للملك ولم * تعطك الطاعة بالملك العرب
أيها الباكي عليه لا بكت * عين من أبكك إلا للعجب
لم نبيك لما عرضتنا * للجانيق وطورا للسلب
ولقوم صيرونا أعبدا * لهم يبدو على الرأس الذنب
في عذاب وحصار مجهد * سد الطرق فلا وجه طلب
زعموا أنك حي حاشر * كل من قد قال هذا قد كذب
ليت من قد قاله في وحدة * من جميع ذاهب حيث ذهب
أوجب الله علينا قتله * فاذا ما أوجب الأمر وجب
كان والله علينا فتنة * غضب الله عليه وكتب

ومع هذا فقد رثاه كثير من الشعراء ومدحوه وسنترك هذا وهذا ونفحص صفاته من أعماله

أول ما عرف من عمل الأمين إرادته الغدر بأخيه والرمي بعهد الرشيد وراه ظهره فقد أخذ العهدين من البيت الحرام ومزقهما تمزيقا غير ناظر إلى ما وراء ذلك من العواقب الوخيمة في نظر الجمهور إذ ليس أعظم في نظر المسلم من انتهاك حرمة البيت المقدس ولا انتهاك أعظم من إفساد أمر دبر فيه وجعل البيت الحرام حارسا عليه على أن الغدر في ذاته بقطع النظر عن ذلك كله قبيح وضار بحياة الأمة الأدبية فلا غرابة أن رأينا جمهور الأمة في صف أخيه

ولما دخل هذا المدخل الوعر المسلك لم يسر فيه بشيء من الحزم ولا بعد النظر بل كان أول قائده ولاءه حرب أهل خراسان أعدى عدولهم من جربوه فوجدوه ظلما عاتيا يستحل أموالهم ويضرب أبشارهم وهو على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان في عهد الرشيد فكان ذلك مما زاد أهل خراسان جدا في محاربهه والضربة الأولى بما يدخل الوهن والخذلان على المضروب ويزيد في حماسة الغالب وتفاؤله بالمستقبل ومع هذا الغلط كان الأمين مشتغلا عن تدبير أمره بما كان فيه من اللهو والعبث شتان بين تدييره وتدبير أخيه فينا كان هو على هذه الطريق كان أخوه المأمون بمرور يجمع إلى مجلسه العلماء والفقهاء ويجلس معهم كما يجلسون ويتكلم معهم في الفقه والأدب والحديث حتى أشربت قلوبهم محبته ولا يخفى ما لهذا من التأثير في قلوب الجمهور يقال إن محمدا لما تولى وجهه إلى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق وناقس في ابتداع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرتهم من الجوهر في خصيائنه وجلسائه ومحدثيه وحمل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهو له ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذي وباب الأنبار ونباري والهوب وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقه الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس وأنفق في عملها مالا عظيما فقال أبو نواس يمدحه
سخر الله للأمين مطايا * لم تسخر لصاحب الحراب

فاذا ماركابه سرن برا * سار في الماء را كبا ليث غاب
 أسدا باسطا ذراعيه يهوى * أهرت الشدق كالخ الاياب
 لايعانيه باللجام ولا السو * ط ولاغمز رجله في الركاب
 عجب الناس إذ رأوك على صو * رة ليث تمر مر السحاب
 سبحوا إذ رأوك سرت عليه * كيف لو أبصروك فوق العقاب
 ذات زور ومنسر وجنا * حين تشق العباب بعد العباب
 تسبق الطير في السماء إذا ما استعجلوها بجيئة * وذهاب
 بارك الله للأمين وأبقا * ه وأبقى له رداء الشباب
 ملك تقصر المدائح عنه * هاشمي موفق للصواب
 وجميع ما وقفنا عليه من أخبار الأمين وسيره أنه كان يميل جدا إلى اللهو والغناء
 والشرب حتى أقعده ذلك عن حسن التدبير لأموره هذا مع أنه يمتاز على بنى العباس قاطبة
 بأنه هاشمي الأبوين ولكن ليس بحسن الأنساب تعلق الرجال وإنما علوها بحسن الفعال

٧ - المأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي . وأمه أم ولد اسمها مراحيل
 ولد سنة ١٧٠ في اليوم الذي ول فيه أبوه الخليفة . وولاه أبوه العهد وسنه ١٣
 سنة بعد أخيه الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همدان
 ومنحه بمقتضى الشروط التي عقدها استقلالاً يكاد يكون تاماً . ولما توفي أبوه لم
 يفاله أخوه بعده بل أراد أن يقدم عليه في ولاية العهد ابنة موسى فأبى ذلك المأمون
 وكان من وراء ذلك الحروب الفظيعة التي قصصنا خبرها وهي التي انتهت بقتل الأمين
 في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣)

بويع المأمون بالخلافة العامة في ذلك التاريخ واستمر خليفة إلى أن توفي في غازيا
 بطرسوس في ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) فكانت خلافته عشرين
 سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام . أقام منها ببلاد خراسان من تاريخ ولايته إلى منتصف
 صفر سنة ٢٠٤ وهو تاريخ قدومه بغداد وأقام الباقي ببغداد حاضرة الخلافة العباسية

- وكان يعاصره في بلاد الأندلس الحكم بن هشام ثالث أمراء بني أمية (١٨٠ - ٢٠٦) ثم ابنه عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨)
- ويعاصره في بلاد المغرب الأقصى إدريس بن إدريس بن عبد الله سنة (١٨٨ - ٢١٣) ثم ابنه محمد بن إدريس (٢١٣ - ٢٢١)
- ويعاصره في إفريقية من بني الأغلب عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (١٩٦ - ٢٠١) ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم فاتح صقلية (٢٠١ - ٢٢٣)
- ويعاصره في فرنسا شارلمان صديق أبيه وقد توفى سنة ٨١٤ ثم لويز الأول الملقب باللين
- ويعاصره في القسطنطينية ليون الأرمي (٨١٣ - ٨٢٠) ثم ميخائيل الثاني الملقب بالتمتام ثاني مرة (٨٢٠ - ٨٢٩) ثم ابنه توفيل (٨٢٩ - ٨٤٢)

الأحوال في المدة الأولى

لما تم الأمر للمأمون بالعراق على يد القائدين العظيمين طاهر بن الحسين وهرثمة ابن أعين كان الذي يدبر الأمر بمرؤ الفضل بن سهل الذي يرى لنفسه الفضل الأكبر في تأسيس دولة المأمون فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها وليس يتم له ذلك والعراق بين يدي طاهر وهرثمة فأصدر أمرين على لسان المأمون أولهما بتولية الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والاهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن . وكتب إلى طاهر أن يسلبه جميع ما بيده من الأعمال وأن يشخص إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب فلم يسع طاهرا إلا أن يسمع ويطيع فسلم ذلك كله والأمر الثاني إلى هرثمة بأمره بالشخص إلى خراسان فشخص - وبذلك خلا العراق من أسديه وأهل العراق من قديم عبيد القوة ولا سيما أنهم خارجون من ثورة وهيجان فكان من اللازم أن تظل تلك الأيدي المرهوبة حتى يستكبين الناس ويخضعوا

ولم يبق المأمون بعد ذلك بخراسان . هل كان الفضل بن سهل يريد أن يحول

الخلافة الإسلامية إلى مرو فيجعلها حاضرة البلاد الإسلامية أو رأى أن نفوذه يضعف إذا حل الخليفة بغداد وبها الألسنة التي لا تميل الوشائيات نخشى من ذلك على مركزه . سواء أكان السبب في تخلفه هذا أو ذلك فقد نتج عن هذا التدبير مضار شديدة واضطرابات كادت ترجع ملك المأمون أثرا بعد عين

شاع بالعراق بعد خروج طاهر وولاية الحسن بن سهل أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وأنزله قصرًا حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده وأنه يبرم الأمور على هواه فغضب لذلك من كان بالعراق من بني هاشم ووجوه الناس وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون واستخفوا بالحسن بن سهل وهاجت الفتن في الأمصار وأول فتنة كانت خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي خرج بالكوفة وقام بأمر رجل كبير من رجال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا السرى بن منصور الشيباني فاستولى على الكوفة من يد نائب عاملها سليمان بن أبي جعفر المنصور فأرسل إليه الحسن بن سهل جيشًا يقوده زهير بن المسيب عشرة آلاف فهزمه أبو السرايا واستباح عسكره وأخذ ما كان معه من مال وسلاح ودواب وفي غد ذلك اليوم مات محمد بن إبراهيم فجأة وذلك يوم الخميس أول رجب سنة ١٩٩ فولى أبو السرايا بدله غلامًا أمرد حدثًا وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي وكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور ويولى من رأى ويعزل من شاء وإليه الأمور كلها

أرسل الحسن جيشًا ثانيًا بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروزي فتوجه إليه أبو السرايا وأوقع به وقعة في ١٧ رجب سنة ١٩٩ فقتله وأسر أخاه هارون واستباح عسكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل فلم يفلت منهم أحد انتشر بعد ذلك الطالبيون في البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)

أفاق الحسن بن سهل من غفلته لما وجد قواده لا يغنون عنه شيئًا وكلنا وجه أحدهم للحرب أبي السرايا عاد مهزومًا فوجه فكرته إلى هرثمة بن أعين مفضلًا إياه على طاهر بن الحسين وكان هرثمة قد توجه إلى خراسان مغاضبًا للحسن بن سهل وكان قد وصل حلوان فبعث إليه يسأله الانصراف إلى بغداد للحرب أبي السرايا فأبى

فأعاد عليه الرسالة متلطفًا فأجاب وانصرف إلى بغداد فقدمها في شعبان سنة ١٩٩ وتهيأ للخروج إلى الكوفة وتهيأ معه جند اختاره فر على المدائن واستولى عليها من يد عمال أبي السرايا ثم التقى الفريقان عند قصر ابن هبيرة فقتل من أصحاب أبي السرايا مقتلة عظيمة . ثم ألح عليه هرثمة بالحرب حتى لم يعد قادرا على حماية الكوفة التي هي قاعدة أعماله فهرب عنها هو ومن معه من الطالبيين وسار إلى القادسية في محرم سنة ٢٠٠ ودخل هرثمة الكوفة وأمن أهلها ولم يعرض لأحد منهم ثم بارحها مساء ذلك اليوم

ترك أبو السرايا مكانه بالقادسية وسار حتى أتى السوس من بلاد فارس فلقه هناك الحسن بن علي الباذغيسي المعروف بالمأموني فقاتله وهزمه واستباح عسكره وجرح أبو السرايا جراحا شديدة فهرب مريدا منزله برأس العين من الجزيرة فعثر به في الطريق هو ومن معه وجرى بهم إلى الحسن بن سهل وكان مقبيا بالنهروان فضرب عنقه وصلب جسده ببغداد . وكان بين خروجه بالكوفة ومقتله عشرة أشهر .

ثم أخذت البصرة من يد عاملها لأبي السرايا وهو زيد بن موسى بن جعفر وكان يقال له زيد النار لكثرة ما أحرق من دور البصرة وكان إذا أتى برجل من المسودة كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار فأخذ أسيرا وأمن وكان للطالبيين في تلك الفتن أسوأ أثر بمكة والمدينة فان أبا السرايا كان قد ولي مكة حسين بن حسن بن علي بن الحسين بن علي وكان بها داود بن عيسى بن موسى العباسي واليا فلم يرض القتال في الحرم وخرج عن مكة فدخلها الحسين قبل مغرب يوم عرفة ولما تفرق الحاج من مكة جلس خلف المقام على نمرقة مثنية فامر بتياب الكعبة التي عليها فجردت حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئا ثم كساها ثوبين من خز رقيق كان أبو السرايا وجه بهما معه مكتوب عليهما (أمر به الأصفر بن أبي الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليظهر من كسوتهم وكتب سنة ١٩٩) ثم قسم الكسوة التي كانت على الكعبة بين أصحابه وعمد إلى ما في خزانة الكعبة من مال فأخذه ولم يسمع بوديعة عند أحد لبني العباس واتباعهم إلا هجم عليه في داره فان وجد من ذلك شيئا أخذه

وعاقب الرجل وإن لم يجد عنده شيئاً حبسه وعذبه حتى يفقدى نفسه بقدر طوله ويقر عنده الشهود أن ذلك للسودة من بنى العباس وأتباعهم حتى عم ذلك خلقاً كثيراً وكان لهم دار اسمها دار العذاب يعذب فيها الناس حتى هرب منهم خلق كثير من أهل النعم فتبعوهم بهدم دورهم وجعلوا يحكون الذهب الرقيق الذى فى رؤس أساطين المسجد فيخرج من الاسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهب أو نحوه حتى عم ذلك أكثر اساطين المسجد الحرام وقلعوا الحديد الذى على شبابيك زمزم وخشب الساج فيبع بالثمن الخسيس

وما زالوا على تلك الحال حتى بلغهم قتل أبى السرايا وأن من بالكوفة والعراق من الطالبيين قد طردوا فاجتمعوا إلى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخاً وادعاً محبباً فى الناس مفارقاً لما عليه أكثر أهل بيته من قبج السيرة وكان يروى العلم عن أبيه وطلبوا إليه أن يبرز شخصه ليبايعوه بالخلافة فأجاب بعد تردد وحشر إليه الناس فبايعوه طوعاً وكرهاً وسموه أمير المؤمنين فأقام على ذلك أشهراً وليس له من الأمر إلا اسمه وابنه على وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلاً حتى تعدوا الأموال إلى الأعراض

أراد الله أن يفرج عن أهل مكة ما هم فيه فقدم عليهم إسحاق بن موسى بن عيسى مقبلاً من اليمن فقاتل العلويين أياماً ثم بارح مكة فلقية البعث الذى أرسله هرثمة لتخليص مكة فعاد معهم وكان رئيس البعث ورفاه بن جميل فقاتلوا العلويين حتى هزموهم وطلب محمد بن جعفر الأمان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاؤوا فأجيبوا وأمهلوا ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت الجنود العباسية مكة وذهب كل فريق من العلويين إلى ناحية

أما فى اليمن فكان قد خرج فيها إبراهيم بن موسى بن جعفر وكان والياً إسحاق بن موسى بن عيسى فلما سمع بأقبال إبراهيم ترك له صنعاء وانصرف مقلداً عمه داود بن عيسى فى مكة فاستولى إبراهيم على اليمن وكان يقال له الجزار لكثرة من قتل باليمن من الناس . وفى موسم سنة ٢٠٠ وجه بعض ولد عقيل بن أبى طالب من اليمن فى جند كثيف ليحج بالناس وكان الذى ولى إمرة الحج من العباسيين أباً إسحق بن الرشيد ومعه كثير من القواد فلما وصل العقيل إلى بستان ابن عامر بلغه

أمر من بمكة فتوقف بالبستان فمرت به قافلة من الحاج والتجار وفيها كسوة الكعبة وطيبها فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها وقدم الحاج مكة عراة مسلين . بلغ أبا إسحق أمر العقيلي فأرسل إليه أحد قواده فلقبه بالبستان فأسر أكثر من معه وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ورد إلى الحاج ما كان أخذ منهم وعاد بكسوة الكعبة ثم عاقب كلا من هؤلاء الأسرى بعشرة أسواط وخلاصهم فذهبوا يستطعمون الناس في الطريق حتى هلك أكثرهم جوعا

انتهت هذه الفتن العلوية التي عادت بالضرر على البلاد والعباد والفضل في انتهاء أمرها لهرثمة بن أعين القائد المحك . ولما فرغ هرثمة من أداء تلك المهمة أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرور ليطلع على حقيقة الحال وما ينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره ولم يكن ذلك مما يروق في عين الفضل فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد وأنه هو الذي دس إلى أبي السرايا حتى صنع ما صنع ولو شاء ألا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعل لأنه كان من ضمن جنوده . وكان المأمون قد كتب لهرثمة كتباً من الطريق ليرجع ويلى الشام والحجاز فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال فكان ذلك مما زاد المأمون وحشة منه . ولما بلغ هرثمة مرو وخشى أن يكتم المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كي يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة جاء بريق ويرعد وظن هرثمة أن قوله المقبول فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه ما أشرب فلم يسمع منه كلمة وأمر به فوجيء عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه وقد تقدم الفضل إلى الأعوان بالتغليظ عليه والتشديد فكث في حبسه أياماً ثم دسوا إليه فقتلوه وقالوا إنه مات . هكذا ذهب هذا القائد العظيم من غير جناية ضحية خبث البطانة

ولما بلغ أهل بغداد ما صنع بهرثمة هاج الجند الحربية بها وثاروا على الحسن بن سهل فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون ولم يكن عند الحسن ما يقدر به على عمل لضعفه وسوء رأيه . ثم عمد أهل بغداد إلى منصور بن المهدي وطلبوا إليه أن يبايعوه بالخلافة ويخلعوا المأمون فأبى ذلك عليهم فطلبوا إليه أن يكون عليهم أميراً وأن يدعو للمأمون وقالوا لا نرضى بالمجوسى ابن المجوسى الحسن بن سهل ونظرده حتى يرجع إلى خراسان فقبل وتولى أمر بغداد إلا أنها على كل حال كانت خالية

من جيش قوى يأخذ على أيدي المفسدين من أهلها فتج عن ذلك الفساد الشديد فان فساق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذى شديدا وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك لاسلطان يمنهم لأن السلطان كان يعترضهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنهم من فسق يرتكبونه وكانوا يجوبون المسارة في الطرق والسفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يدعوا عليهم. رأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم فقام صلحاء كل ربض وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا إنما في الدرب الفاسق والفساقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم فلوا اجتماعهم حتى يكون أمركم واحدا لقمعتم هؤلاء الفساق. فقام رجل من ناحية طريق الأنبار اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محلته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابوه إلى ذلك وشد على من يليه من الفساق والشطار فنعمهم مما كانوا يسعون فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزههم وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم إلى السلطان وكان لا يرى من حقه الاعتداء على السلطان. ثم قام من بعده آخر اسمه سهل بن سلامة الأنصاري فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلق مصحفا في عنقه ثم بدأ بأهل جيرانه ومحلته فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعا إلى ذلك الشريف منهم والوضيع بنى هاشم ومن دونهم وجعل له ديوانا ثبت فيه من أتاه منهم فبايعه على ذلك خلق كثير ثم طاف بغداد أسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها ومنع كل من يخفر ويحجى المسارة وقال لاخفارة في الاسلام — والخبارة أن يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول بستانك في خفري أدفع عته من أراده بسوء ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهمين فيعطيه ذلك شاء أم أبي لم يكن سهل والدريوش على وفاق لأن مقصد الدريوش كان معاونة السلطان في القبض على أيدي المفسدين ولا يعيب عليه شيئا ولا يقاتله ولا يأمره بشيء ولا ينهيه أما سهل فيظهر أنه كان ذا أطماع قال إني أقاتل من خالف الكتاب والسنة سلطانا كان أو سوقة فقد جعل نفسه بذلك فوق الجميع وكثرت أتباعه حتى خافه الولاة

وخافه منصور بن المهدي الذي أقامه العراقيون أميراً ونحن نرى أن عمل هذين الرجلين وتكوين هذه الجمعية من أحسن ما يفكر فيه العقلاء في مثل ظروفهم لأن ذلك منع من وجود الفتنة الأهلية التي تقارن هذه المفاسد عادة

كل ذلك كان والمأمون في مرو لا يصل إليه شيء من أخبار حاضرة الخلافة وقد حجبته الفضل بن سهل فلا يوصل إليه إلا ما يشتهي

ومما كان في تلك الآونة أن المأمون اختار لولاية عهده علياً الرضا بن موسى ابن جعفر الصادق وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثني عشرية وسماه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضره الذي اختاره شعاراً للدولة الجديدة وكتب بذلك إلى الآفاق ويغلب على الظن أن هذا من عمل الفضل بن سهل لأن الفرس يعجبهم أن يكون إمام المسلمين علويًا وطالما قاتلوا في سبيل رجوع السلطان إلى بني علي وهذه فرصة يأخذون فيها الخلافة من غير حرب ولا قتال وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل علي عليه من الخلفاء الراشدين وأنه كان أحق بالخلافة منهم ولا نرى ذلك جاء المأمون إلا من البيئه التي تربي فيها فانه كان في أول أمره في حجر جعفر البرمكي ثم انتقل إلى الفضل بن سهل وكلهم ممن يتشيع فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه

بلغ ذلك أهل بغداد فاختلّفوا فقال بعضهم نبايع ونلبس الخضره وقال بعضهم لا نبايع ولا نلبس الخضره ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل فكشوا على ذلك أياماً وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم إلى بعض وتكلموا فيه وقالوا نولى بعضنا ونخلع المأمون واتفقوا أخيراً على مبايعه إبراهيم بن المهدي عم المأمون بالخلافة وخلعوا المأمون وكان ذلك في أول المحرم سنة ٢٠٢ فتغلب إبراهيم مع أهل بغداد على السكوفه والسواد كله وعسكر بالمدائن وولى الجانب الشرقي من بغداد العباس بن الهادي والجانب الغربي إسحاق بن الهادي. وتغلب على سهل بن سلامة المتطوع بعد أن تركه من معه بلغت هذه الأحوال المأمون ويقال إن الذي أبلغه إياها على الرضا ولى عهده فانه

أخبره بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار وأن أهل بيته قد نعموا عليه أشياء فبايعوا لإبراهيم بن المهدي بالخلافة - فقال له المأمون إنما بايعوه ليكون أميراً لهم يقوم بأمرهم على ما أخبره به الفضل - فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين إبراهيم بن المهدي والحسن بن سهل وأن الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكاني ومكان يعتك لي من بعدك وسمى له عدة من القواد يشهدون بما قال فأحضرهم المأمون وسألهم فأخبروه بالخبر على وجهه بعد أن أعطاهم أماناً من الفضل بن سهل وأخبروه بما هو عليه الفضل في أمره رثمة وأن رثمة إنما جاء ناصحاً ليين له ما يعمل وأنه إن لم يتدارك الأمر خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته وأن الفضل دس إلى رثمة من قتله وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما أبلى حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله وصير في زاوية من الأرض بالرقعة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يجترأ عليه بمثل ما جترأ به على الحسن بن سهل وأن الدنيا قد تفتقت من أقطارها وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد فان بنى هاشم والموالي والقواد والجنود لورأوك سكنوا وفاؤا بالطاعة لك لما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد . ولم يسلم هؤلاء القواد من شر الفضل بل عاقبهم بالحبس والطرده فراح على الرضا إلى المأمون وأعلمه بما كان من ضمائه لهم فأعلمه أنه يدارى ما هو فيه

ارتحل المأمون من مرو حتى أتى سرخس وهناك شد قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام فضربوه بسيفهم حتى مات وذلك في ٢ شعبان سنة ٢٠٢ فأخذ ضاربوه وهم أربعة من خدم المأمون فلما جرى بهم إليه قالوا أنت أمرتنا بقتله فأمر بهم فضربت أعناقهم . وسوابق الفعلة تؤكد أن صدورها كان بتدبير المأمون لأنه أحس بثقل يد الفضل عليه وبما كان من غشه له وأنه مادام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة فاحتال بهؤلاء الخدم ثم قتلهم وبعث برؤسهم إلى الحسن بن سهل وعزاه وأخبره أنه صيره مكانه

رحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر وكان هذا الرحيل سبباً لاختلاف القواد ببغداد على إبراهيم بن المهدي لأن السبب الذي من أجله خلعوا المأمون قد

زال فاضطرب أمر إبراهيم ببغداد

لما صار المأمون بطوس حدثت حادثة أخرى وهي وفاة علي الرضا ويتهمون المأمون بأنه سمه وليس عندنا من البراهين ما يؤكده هذه التهمة لأنه بقدر ما يقربها إرادة المأمون التقرب إلى أهل بغداد والعباسيين بالتحلص منه يبعدها ما كان مغروسا في نفس المأمون من محبة آل أبي طالب وأنه صاهر عليا وأن عليا هو الذي أظهر له حقيقة ما كان يدور بالعراق من الفتن ولا يبعد عندي أنه من فضل بعض البطانة المأمونية ليخففوا عن المأمون اضطراب العباسيين ويخلصوا مما يعتقدونه شرا وهو خروج الخلافة من آل العباس . وهناك كتب المأمون إلى بني العباس والموالي وأهل بغداد يعلمهم موت علي بن موسى

رحل المأمون من طوس إلى الري وهناك تحبب إلى أهلها باسقاط ألفي ألف درهم من خراجها . وكان كلما قرب من بغداد زاد الاضطراب على إبراهيم بن المهدي وقام القواد في وجهه حتى كتبوا إلى قائد من قواد الحسن بن سهل يطلبون إليه الحضور ليسلوا إليه ببغداد فلم يلبث أن حضر وسلم له جند بغداد المدينة وأعلن خلع إبراهيم بن المهدي والدعوة للمأمون فأختفى إبراهيم ليلة الأربعاء ١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣ فكانت أيامه كلها ببغداد سنة واحدة وأحد عشر شهراً وأثنى عشر يوماً مازال المأمون ينتقل من منزلة إلى منزلة حتى وصل النهروان وهناك خرج إليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس فسلموا عليه ووافاه طاهر بن الحسين من الرقة لأنه أمره بذلك وفي يوم السبت لأربع عشرة بقية من صفر سنة ٢٠٤ دخل مدينة بغداد ولباسه ولباس أهله الخضرة أقيبتهم وقلانسهم وأعلامهم فلبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجمعون . ومكثوا على ذلك ثمانية أيام فتكلم في ذلك بنو هاشم وولد العباس خاصة وقالوا له يا أمير المؤمنين تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتك ولبست الخضرة وكتب إليه في ذلك قواد أهل خراسان وسأله طاهر بن الحسين أن يرجع إلى لبس السواد فلما رأى المأمون طاعة الناس له في لبس الخضرة وكرهتهم لها قعد لهم وعليه ثياب خضر فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ودعا بخضرة سواد فألبسها طاهرا ثم دعا بعدة من قواده فألبسهم أقية وقلانس سودا فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد

ابتدأ من ذلك الوقت ملك المأمون الحقيقي

المأمون ببغداد

أشرقت شمس أبي العباس عبد الله المأمون ببغداد حاضرة آبائه ومن ذلك الوقت ابتدأ ملكه الحقيقي وتجلت مزايه العالية وأخلاقه التي لم يشابهه فيها أحد من أهل بيته وساس الأمة سياسة ابن لا يشوبه ضعف وقوة لا يشوبها عنف وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التي كانت لها في عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية لما كان من ميل المأمون الشديد إلى تقوية تلك الحركة وسنين ذلك في فصل خاص إن شاء الله بعد أن ننتهي من بيان الحالة الداخلية

الوزارة في عهد المأمون

أول وزراء المأمون الفضل بن سهل وهو فارسي الأصل أسلم على يد المأمون سنة ١٩٠ ويقال إن أباه سهلاً أسلم على يد المهدي والذي اختار الفضل للمأمون هو الرشيد بإشارة جعفر بن يحيى . فكان مدبر أمره وهو ولي عهد ولما فعل الأمين ما فعل دبر الفضل أمر إرسال الجنود وتديبر ما يلزمهم فأرسل طاهر بن الحسين لمحاربة علي بن عيسى بن ماهان . ولما انتصر طاهر لقب الفضل ذا الرياستين وجعل له علماً على سنان ذي شعبتين وكتب على سيفه من جانب رياسة الحرب ومن الجانب الآخر رياسة التديبر وولاه المأمون في هذه السنة وهي سنة ١٩٦ على المشرق كله وجعل عماله ثلاثة آلاف ألف درهم (نحو ستين ألف جنيه)

ولما تم للمأمون النصر بتديبره استولى عليه حتى ضايقه ولما كان من أمر أهل بغداد ما كان دبر المأمون عليه بسرخص من قتله وكان الفضل يتشيع حتى حمل المأمون على بيعة علي الرضا بولاية العهد من بعده فجنى بذلك على نفسه وعلى علي الرضا من بعده . وكان الفضل بن سهل مولعاً بالنظر في النجوم ويقال إن له إصابات كثيرة في أمور أنبأ عنها قبل موقعها . وجميع ما دبره في أمر المأمون مع أخيه يدل على فكر سديد ورأى محكم وكان مع ذلك جيد الكتابة حسن القول سخي اليد وقد مدحه كثير من شعراء عصره

استوزر المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل أحمد بن أبي خالد وأصله شامي مولى لبني عامر بن لؤي وكان أبوه كاتباً لعبيد الله كاتب المهدي أحضره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له إني كنت عزمت ألا أستوزر أحداً بعد ذى الرياستين وقد رأيت أن أستوزرك فقال يا أمير المؤمنين . اجعل بيني وبين الغاية منزلة يتأملها صديقي فيرجوها لي ولا يقول عدوى قد بلغ الغاية وليس إلا الانحطاط . فاستحسن المأمون كلامه واستوزره

وكان أحمد هذا من خيار الوزراء يجب أن تخلص قلوب الرعية لامامه فكان دائماً المشورة بما يسر أنفسهم ويسل دفين الأحقاد من صدورهم ومن طريف ما حصل منه مع المأمون أن المأمون ذكر يوم عمرو بن مسعدة فاستبطأه وقال يظن أني لا أعرف أخباره وما يجب إليه وما يعامل به الناس وكان أحمد حاضراً هذا المجلس فذهب إلى عمرو وأخبره الخبر . فراح عمرو إلى المأمون فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال يا أمير المؤمنين أنا عائد بالله من سخطك ثم عائد بك من سخطك يا أمير المؤمنين أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد أو يسر لي ضغنا يبعثه بعض الكلام على إظهاره ما يظهر منه . فقال له وما ذلك فأخبره عمرو بما بلغه ولم يسم له المخبر فقال له المأمون لم يكن الأمر كما بلغك وإنما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به وإنما أخرج مني هذا الكلام معنى تجارينا وليس لك عندي إلا ماتحب فليفرخ روعك وليحسن ظنك . وظهر في وجهه الحياء والتجمل . فلما غدا أحمد على المأمون قال له أما مجلسي حرمة . فقال يا أمير المؤمنين وهل الحرمة إلا لما فصل عن مجلسك فأخبره المأمون الخبر وأن بعض من حضر من بني هاشم هو الذي أفشى ما قاله المأمون فقال أحمد أنا يا أمير المؤمنين أخبرت عمرا لأحدا من بني هاشم والذي حملني على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة لأن تم نعمتك على أوليائك وخدمك أنا أعلم أن أمير المؤمنين يجب أن يصلح له الأعداء والبعداء فكيف الأولياء والقرباء لا سيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فيه سمعت أمير المؤمنين أنك منه شيئاً فخرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيدته ومولاه ويتلافى ما فرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل العناء فيه وإنما كان يكون ما فعلت عيباً لو أشعت سرا فيه قدح في السلطان أو نقض تدبير قد استتب فأما

مثل هذا فما حسبته أن يكون ذنباً على . فنظر إليه المأمون ملياً وقال كيف قلت فأعاد عليه ما قال ثم قال أعد فأعاد الثالثة فقال له المأمون أحسنت لما أخبرتني به أحب إلى من ألف ألف وألف ألف وألف ألف وعقد خنصره وبنصره والوسطى وقال أما ألف ألف فلنفيك عنى سوء الظن وأطلق وسطاه وأما ألف ألف فلصدقك إياي عن نفسك وأطلق البنصر وأما ألف ألف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر

ومن عيوب أحمد بن أبي خالد أنه كان شرها يتقرب إليه الناس بالمال كل لينالوا ما عنده من المصالح وكان المأمون يعرف ذلك منه فأجرى عليه كل يوم لمائتة الف درهم لثلاث يشره إلى طعام أحد من بطائنه وكان مع هذا يشره إلى طعام الناس وتمت عينه إلى هدية تأتيه وكان مع هذا أسى اللقاء عابس الوجه يهر في وجوه الخاص والعام غير أن فعله كان أحسن من لقائه وكان من عرف أخلاقه وصبر على مداراته نفعه وأكسبه

ومن الغريب أن يتفق لشخص الشراة إلى طعام الناس وكثرة العطايا التي كان يمنحها من خاص ماله وقد روى عنه أبو الفضل أحمد بن طاهر بن طيفور في أخبار بغداد أنه كان يقول يهدى إلى الطعام فوالله ما أدري ما أصنع به يهديه إلى صديق أستحي من رده عليه

توفي أحمد بن أبي خالد في ذى القعدة سنة ٢١١ وصلى عليه المأمون ولما دلى في حفرته ترحم عليه وقال أنت والله كما قال القائل

أخو الجد إن جد الرجال وشمروا ه وذو باطل إن كان في القوم باطل

استوزر المأمون بعده أحمد بن يوسف . كان كاتباً من خيرة الكتاب وأجودهم خطأ حتى قال له المأمون يوماً يا أحمد لوددت أني أخط مثل خطك وعلى صدقة ألف الف درهم وكان يجيد الكتابة حتى كان المأمون إذ كان يتولى عمرو بن مسعدة ديوان الرسائل كان يكلف أحمد بن يوسف بكتابة الكتب التي يريد أن تشهر وتذكر وولاه المأمون ديوان السر وبريد خراسان وصدقات البصرة . ولما مات أحمد بن أبي خالد استوزره مكانه أو كان من بطانة المأمون من يحسد أحمد بن يوسف على الدرجة التي وصل إليها من المأمون فكادوا له المكاييد حتى أقصوه عن قلبه وقد أردت أن أبين لحضراتكم الطريقة الدينية التي اتبعوها مع هذا الوزير الذي لم يجدوا فيه عيباً من جهة

عمله . كان المأمون يستدعي أحمد بن يوسف سحرا لقضاء الأمور معه فقال أحد البطانة لخدّامه ممن يقوم على رأس المأمون إذا خص المأمون أحمد بن يوسف بكرامة أولون من الألوان فأعلمني وضمن له من أجل ذلك مالا . دخل أحمد عند المأمون ذات يوم سحرا وليس عنده أحد وكان تحت المأمون بحجرة عليها بيضة عنبر كان أمر بوضعها حين دخل أحمد ولم تكن النار قد عملت فيها إلا قليلا فأراد أن يكرم بها أحمد ويؤثره بها فأمر بأن تنقل تحته . فأخبر الخادم صاحبه بذلك وهو محمد بن الخليل بن هشام فلما دخل على المأمون سأله عما تقول العامة وما تحدث به فكان مما أخبره به أن قال انصرفت يوما فررت بمشرفة وأنا في الزلال (قارب) فسمعت سقاء يقول لآخر معه ما رأيت كما يخبر ندماء هذا الرجل عنه فقال ومن تعنى — قال له أمير المؤمنين — قال وما ذاك — قال انصرف من عنده أحمد بن يوسف فسمعت يقول لغلامه ما رأيت أحدا قط أبخل ولا أنجب من المأمون دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتسع نفسه أن يدعو لي بقطعة بخور حتى أخرج القنار الذي كان تحته فبخرنى به — فعرف المأمون الحديث وقال في نفسه والله ما حضر هذا اليوم أحد فأتوهم فيه ضربا من الضروب — وجفا أحمد بن يوسف وأزاله عن مرتبته .

استوزر المأمون بعده القاضي يحيى بن أكثم التميمي كان من جملة العلماء الفقهاء الذين لهم قدم ثابتة في الحديث والفقّه والأصول تولى قضاء البصرة وسنة عشرين سنة ثم اتصل بالمأمون وصله به ثمامة بن أشرس العالم المتكلم الذي كان المأمون يثق به كثيرا فلما احتاج المأمون إلى من يوليّه الوزارة عرضها على ثمامة فامتنع منها ووصف له يحيى فاستوزره وولاه مع ذلك قاضي القضاة فكان إليه تدير المملكة والقضاء وقلبا اجتماعا في شخص . وكان يحيى على مذهب العامة فكان إذا أراد المأمون شيئا يخالف ما هم عليه احتال فيما يرجعه عنه . أراد المأمون أن يعلن يوما محلّ المتعة وهو شيء نهى عنه عمر بن الخطاب فدخل عليه يحيى وهو متغير فسأله المأمون عن سبب تغيره فقال غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام وهو النداء بتحليل الزنا قال الزنا — قال نعم المتعة زنا — قال من أين قال من كتاب الله وحديث رسول الله قال الله تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) يا أمير المؤمنين زوجة

المتعة ملك يمين قال لا قال فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلق الولد ولها شرائطها قال لا قال فقد صار من يتجاوز هذين من العادين — وهذا الزهري يأمر المؤمنين روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب قال أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها — فسأل المأمون عن حديث الزهري أهو محفوظ فعلم أنه رواه مالك فقال المأمون أستغفر الله وأمر فودى بتحريم المتعة . وكان يحيي مع فقهه من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور فصيحاً جوابه على قدر سؤال سائله لقيه مرة رجل فقال أصلح الله القاضي كم آكل قال فوق الجوع ودون الشبع — قال فكم أضحك قال حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك — قال فكم أبكى قال لا تمل من البكاء من خشية الله تعالى — قال فكم أخفى عملي قال ما استطعت — قال فكم أظهر منه قال مقدار ما يقتدى بك البر الخير ويؤمن عليك قول الناس

وكان يحيي من المحدثين الذين يروى عنهم الحديث وقد اتهم بهنات لم يثبتها الناقدون من أهل عصره قال طلحة بن محمد بن جعفر في حقه يحيي بن أكرم أحد أعلام الدنيا قد اشتهر أمره وعرف خبره ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعلوه ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك واسع العلم بالفقه كثير الأدب حسن المعارضة قائم بكل معضلة وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد من الناس جميعاً عنده . وكان المأمون من برع في العلوم فعرف من حال يحيي بن أكرم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة وتدير أهل مملكته فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيي بن أكرم

وذكر الخطيب في تاريخه أنه ذكر لأحمد بن حنبل رضى الله عنه ما يرميه الناس به فقال سبحان الله من يقول هذا وأنكر ذلك إنكاراً شديداً ذكر ذلك ابن خلكان في تاريخه وقال الطيفورى في تاريخ بغداد قال أحمد بن أبي طاهر كان المأمون يحضر يحيي بن أكرم وهو يشرب فلا يسقيه ويقول لو أراد يحيي أن يشرب ما تركته وربما وضعت الصحيفة قدام المأمون فيها مطبوخ (نبيذ) ويحيي يأكل معه فيقول له المأمون فيها مطبوخ إنى لا أترك قاضى يشرب النبيذ

ولم يذكر ابن طباطبا في كتابه الفخرى يحيى بن أكرم في عداد وزراء المأمون والظاهر من عبارة طلحة بن محمد التي أوردناها أنه كان بمنزلة مستشار للخليفة فيما يجرى على أيدي الوزراء من الأعمال ولم يكن ختام أمره مع المأمون خيرا فقد كان من ضمن وصية المأمون لأخيه المتصم . ولا تتخذن بعدى وزيراً تلقى إليه شيئاً فقد علمت مانسكبي به يحيى بن أكرم في معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه في صحة منى فصرت إلى مفارقتة قليلاً له غير راض بما صنع في أموال الله وصدقاته لاجزاء الله عن الاسلام خيراً .

ولولا هذه العبارة في وصية المأمون لم يكن وصل إلى علنا شيء مما كان بين المأمون ويحيى بن أكرم في خاتمة الاتصال بينهما ثم رأيت في مروج الذهب أن المأمون سخط عليه سنة ٢١٥ وذلك بمصر وبعث به إلى العراق مغضوباً عليه وقد طال حياة يحيى بن أكرم حتى توفي في عهد جعفر المتوكل ومن وزراء المأمون أبو عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازي وهو الذي يقول فيه دعبل .

أولى الأمور بضيعة وفساد . أمر يدبره أبو عباد فقد كان مع كتابته وحذقه بالحساب أهوج محمقا . وقد قيل للمأمون إن دعبلا هجك فقال من أقدم على هجم أبي عباد كيف لايهجوني . وكان شديد الحدة سريع الغضب ربما اغتاض من بعض من يكون بين يديه فرماه بدواته أو شتمه فأخش ومن وزرائه أبو عبد الله محمد يزداد بن سويد وهو آخر وزرائه وأصل بيته من خراسان كانوا إيجوسا ثم أسلبوا وانصلوا بالخلفاء وسويد أول من أسلم منهم وخرج بنوه كتابا ولا سيما محمدا فانه تأدب وبرع في كل شيء فاستوزره المأمون ومات وهو وزيره .

ولم يكن للوزراء في عهد المأمون كبير نفوذ بالأمور ولا استبداد بمصالح الدولة بل كانوا ينهون هذه المصالح مع المأمون نفسه ويظهر أن الحوادث السابقة في عهد الرشيد ومن قبله بل وفي أول عهد المأمون جعلت الخليفة ينظر أمور دولته بنفسه لئلا يستفحل أمر وزرائه فيكون من ذلك ما يخشاه من مثل ما حصل للفضل بن سهل

ولجعفر بن يحيى البرمكي وأهل بيته ولما قبلهم من أمثالهم

الأحوال الداخلية

العلويون وآثارهم في الدولة

قدما ما كان من المأمون من اختياره لولاية عهده على الرضا بن موسى الكاظم وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثني عشرية واتخاذہ الشعار الأخضر بدل الأسود وما ترتب على ذلك من الاضطراب في بغداد وقيام أبي السرايا والعلويين الذين قاموا من أجل قيامه في الأمصار الكبرى ثم ما كان من وفاة علي الرضا بطوس وانتهاء فتنة أبي السرايا وسقوط جميع العلويين الذين خرجوا في ذلك الوقت بالبصرة والحجاز واليمن. ونزع المأمون للشعار الأخضر بعد حلوله ببغداد وعودته إلى شعار أهل بيته وهو السواد. وكان المأمون قد صاهر عليا فزوجه ابنته ثم زوج محمد بن علي المعروف بالجواد وهو الامام التاسع من أئمة الشيعة ابنته الأخرى ولم يكن من محمد هذا ما يريب المأمون وكان المأمون يعامل الطالبين معاملة تناسب اعتقاده في فضل أبيهم إلى أن خرج في سنة ٢٠٧ باليمن من آل أبي طالب عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب فوجه إليه المأمون دينار بن عبد الله في جيش كثيف وكتب معه بأمانه فحضر دينار بن عبد الله الموسم وحج ولسافرغ من حجه سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمن فبعث إليه بأمانه من المأمون قبيل ذلك ودخل ووضع يده في يد دينار فخرج به إلى المأمون فنع المأمون عند ذلك الطالبين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد

ومع ذلك فقد جاء في وصيته لأخيه المعتصم وهو يجود بنفسه (وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم واقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها فان حقوقهم تجب من وجوه شتى)

وبسبب اختلال الأمن في البلاد اليمنية ورسوخ التشيع فيها أراد المأمون أن يختار لولاية تهامتها من يأخذ على أيدي المفسدين فيها فأشار عليه الحسن بن سهل برجل من ولد زياد بن أبي سفيان وهو محمد بن إبراهيم الزبدي فولاه إياها سنة ٢٠٣

فتوجه فحج ثم ذهب إلى اليمن ففتح تهامة واختط مدينة زيد سنة ٢٠٤ وهي التي صارت حاضرة تهامة . وقد عظم أمر الزيادي بعد ذلك باليمن وصار كملك مستقل إلا أنه كان يخطب لبني العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا وطال ملكه إلى سنة ٢٤٥ ثم صار الملك في أبنائه ثم في مواليهم وموالي مواليهم إلى سنة ٥٥٣ وتعرف هذه الدولة بالدولة الزيادية وهي أول الدول استقلالاً باليمن

وحال هذه الدولة يشبه حال دولة الأغالبة في أفريقيا فان الرشيد ولاها إبراهيم ابن الأغلبي التميمي ليكون حاجزاً بين الخلافة العباسية وبين الأدارسة الذين بالمغرب الأقصى وكانت توليته إياها سنة ١٨٤ فعظم أمره وصار كملك مستقل إلا أنه يخطب للرشيد واستمر الملك في أعقابها إلى سنة ٢٩٦ وكان الأمير في عهد المأمون عبدالله ابن إبراهيم بن الأغلبي (١٩٦ - ٢٠١) ثم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلبي الذي استمر ملكه إلى سنة ٢٢٣ وهو الذي فتح جزيرة صقلية من أيدي الروم فهاتان الدولتان من أول الدول المتغلبة على أطراف بني العباس وأصل تكوينهم الخوف من الطالبيين وامتداد نفوذهم وذلك بعد أن اقتطع من الخلافة المغرب الأقصى للأدارسة والاندلس لبني أمية

إبراهيم بن المهدي

قدمنا ما كان من بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي إذ كان المأمون بمرور فلما شخص المأمون إلى بغداد وعلم بقدومه القواد الذي كانوا مع إبراهيم تركوه فلما رأى ذلك اختفى وظل محتفياً ببغداد ينتقل من دار إلى دار إلى سنة ٢١٠ وفي تلك السنة أخذ، أخذه حارس أسود وهو متقرب مع امرأتين في زنى امرأة فأعلم المأمون بخبره فامر بالاحتفاظ به ثم دخل به عليه فقال له هيه يا إبراهيم فقال . يا أمير المؤمنين ولي النار محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مدله من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله قوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك فان تعاقب فيحقك وإن تعف فبفضلك . قال بل أعفو يا إبراهيم فقال إبراهيم يمدحه :

ياخير من ذملت يمانية به ٥ بعد الرسول لايس أوطامع

وأبر من عبد الله على التقي * عينا وأقوله بحق صادق
 غسل الفوارع ما أطعت فان تهج * فالصاب يمزج بالسمام الناقع
 متيقظا حذرا وما يخشى العدا * نهبان من وسنات ليل الهاجع
 ملئت قلوب الناس منك مخافة * وتبيت تكلوهم بقلب خاشع
 بأبي وأمي فديّة وبنيهما * من كل معضلة وريب واقع
 ما ألين الكنف الذي بوأتني * وطننا وأمرع رتعه للرائع
 للصالحات أخوا جعلت وللتقي * وأبا رؤفا للفقير القانع
 نفسى فداؤك إذ تفضل معاذرى * وألوذ منك بفضل حلم واسع
 أملا لفضلك والفواضل شيمة * رفعت بناءك بالمحمل اليافع
 فبذلت أفضل ما يضيق ببذله * وسع النفوس من الفعال البارع
 وعفوت عن من لم يكن عن مثله * عفوا ولم يشفع إليك بشافع
 إلا العلو عن العقوبة بعد ما * ظفرت يداك بمستكين خاضع
 فرحمت أطفالا كأفراخ القطا * وعويل عانسة كقوس النازع
 وعظفت آصرة على كما وعى * بعد انهياض الوثن عظم الطالع
 الله يعلم ما أقول فانها * جهد الآلية من حنيف راكع
 ما إن عصيتك والغواة تقودنى * أسبابها إلا بنية طائع
 حتى إذا علقته حباثل شقوتى * بردى إلى حفر المهالك هائع
 لم أدر أن المثل جرمى غافرا * فوقفتم أنظر أى حتف صارعى
 رد الحياة على بعد ذهابها * ورع الامام القادر المتواضع
 أحياء من ولاك أطول مدة * ورعى عدوك فى الوتين بقاطع
 كم من يدلك لم تحدثني بها * نفسى إذا آلت إلى مطامعى
 أسديتها عنوا إلى هنيئة * فشكرت مصطنعاً لكرم صانع
 إلا يسيرا عند ما أوليتنى * وهو الكثير لندى غير الصانع
 ان أنت جدت بها على تكن لها * أهلا وإن تمنع فأعدل مانع
 إن الذى قسم الخلافة حازها * فى صلب آدم للإمام السابع
 جمع القلوب عليك جامع أمرها * وحوى رداك كل خير جامع

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة قال أقول ما قال يوسف
لاخوته — لا تثرىب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين
ومن الغريب أن المأمون قد اطلع قبيل ذلك على مؤامرة يقصد بها خلع المأمون
وإعادة إبراهيم بن المهدي للخلافة ورئيس هذا الأمر إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب
ابن إبراهيم الامام المعروف بابن عائشة

وكان اطلاع المأمون على ذلك في يوم السبت ٥ صفر سنة ٢١٠ والظفر بإبراهيم بن
المهدي ليلة الأحد ١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٠ — وقد انتقم المأمون من ابن عائشة
انتقاما شديدا فقد أمر أن يقام ثلاثة أيام في الشمس على باب دار المأمون ثم ضربه
بالسياط ثم أمر بحبسه في المطبق وفعل قريبا من ذلك بمن كانوا معه وقد كتبوا
للمأمون أسماء من دخل معهم في هذا الأمر من القواد والجند وسائر الناس فلم
يعرض المأمون لأحد ممن كتبوا به ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا أقواما برآء. ثم
أمر المأمون بعد ذلك بابن عائشة فقتل وصلب وهو أول مصلوب في الاسلام من
بنى العباس وقتل معه ثلاثة من رؤس المتآمرين وكان قتلهم في ١٤ جمادى الآخرة
من تلك السنة

نصر بن شبث

كان نصر بن شبث من بني عقيل يسكن يكسوم شمالي حلب وكان عرياشا شريفا شهنا
له في محمد الأمين هوى فلما قتل الأمين غضب ولا سيما لما رأى العنصر العربي قد انحط
شأنه وصار معظم القواد والأمراء من غيرهم فأظهرهم الخروج على السلطان وكان
ذلك في أواخر سنة ١٩٨ وتغلب على ما جاوره من البلاد وملك سيميساط واجتمع
عليه خلق كثير من الأعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب
الشرقي وحددته نفسه بالتغلب عليه فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت
على ما كانت

لما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين وملك العراق ولي الحسن بن سهل على
كل ما افتتحه وأمر أن يسلم ذلك إليه وأن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر وولاه المأمون
الموصل والجزيرة والشام والمغرب فسار طاهر إلى وجهه وأرسل إلى نصر يدعو إلى

الطاعة وترك الخلاف فلم يجب فتقدم إليه طاهر ولقيه بنواحي يكسوم فاقتلا هناك قتالا عظيماً أبلى فيه نصر بلاء. حسناً فكان النصر له وعاد طاهر إلى الرقة شبه المنهزم وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحي. والظاهر أنه لم يكن جادا في حرب نصر لأنه رأى نفسه قد جرد مما فتحه من العراق وغيره ولم يتمتع بشيء مما جناه.

كان ذلك مما قوى أمر نصر حتى كثر جمعه وحصر حران بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة الطالبين فقالوا له قد وترت بنى العباس وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك. فقال من أى الناس: فقالوا نبايع لبعض آل علي بن أبي طالب. فقال أبايع بعض أولاد السوداءات فيقول إنه خلقتي ورزقتي. قالوا فبايع لبعض بنى أمية. قال أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً ولوسلم على رجل مدبر لأعدائي إداره وإنما هواي في بنى العباس وإنما حاربتهم حمامة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم. ولما شخص المأمون إلى بغداد أمر طاهراً أن يلقاه بها فترك الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبدالله وأمره أن يقاتل نصراً فلما قدم طاهر ولاء المأمون خراسان وولى ابنه عبد الله من الرقة إلى مصر وأمره بالجد في محاربة نصر وحينذاك كتب طاهر إلى ابنه عبدالله ذلك الكتاب المشهور الذى جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم مما لا يستغنى عنه أحد من ملك وسوقة وهذا الكتاب قد تنازعه الناس وكتبوه وشاع أمره وبلغ المأمون خبره فدعا به فقرأ عليه فقال ما أتى أبو الطيب (يعنى طاهراً) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأى والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكم وأوصى به وأمر فسكتب به إلى جميع العمال والنواحي

ذهب عبد الله إلى وجهه في محاربة نصر فجد في أمره وحصره وضيق عليه حتى مال إلى طلب الأمان وفي ذلك الوقت ندب المأمون جعفر بن محمد العامرى ليؤدى إلى نصر رسالة فذهب إليه وهو يكفر عزون بسروج فأبلغه رسالة المأمون التى يطلب فيها منه ترك الحرب والجنوح إلى السلم فأذعن وشرط شروطاً منها ألا يطاء بساطه فأتى المأمون وأبلغه مطالب نصر فقال لأجيبه والله إلى هذا أبداً ولو أفضيت إلى بيع قيصى حتى يطاء بساطى. فعاد الرسول إلى نصر فأخبره فصاح بالخيلى صيحة فجالت ثم قال وبلى عليه هو لم يقو على أربعائة ضفدع تحت جناحه (يعنى الرظ)

يقوى على حلبة العرب . ولكنه مع جد عبد الله بن طاهر في حربه أجاب إلى التسليم وطلب الأمان فكتب له المأمون كتاب أمان فخرج إلى عبدالله بن طاهر وحينذاك هدم يكسوم وخربها ووجه بنصر إلى المأمون فدخل بغداد في صفر سنة ٢١٠ وأنزل مدينة أبي جعفر و وكل به من يحفظه وكان مقام عبد الله بن طاهر على حربه خمس سنين

الزط

الزط معرب (جت) قال عنهم ابن خلدون هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد وهم المعروفون بالتورأصلهم من هندو آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسي تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التي كانت بين الأمين والمأمون ولما استقر المأمون ببغداد بعث عيسى ابن يزيد الجلودى لحربهم سنة ٢٠٥ ويظهر أنهم كانوا إذا أخرجتهم الجنود تفرقوا في تلك الفيافي فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٢٠٦ أن المأمون ولي داود بن ماجبور محاربة الزط وأعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ولم يذكر هو ولا متبعوه نتيجة فعله ولا فعل من قبله والظاهر أنهما لم يؤثر أثرًا فاصلا بدليل ماورد في عبارة نصر بن شبك (أنه لم يقو على أربعائة ضفدع تحت جناحه) وقد استمر أمرهم كذلك إلى سنة ٢١٩ في عهد المعتصم حيث وجه إليهم عجييف بن عنبسة أحد قواده وكانوا قد عاثوا في طريق البصرة فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسكرو وما يليها من البصرة وأخافوا السيل فاهتم عجييف بحربهم ليضربهم ضربة قاضية فعسكر بقرب واسط وسد الأنهار التي كان الزط يدخلون منها ويخرجون فحصرهم من كل وجه ولما أخذ عليهم طرقهم حاربهم وأسر منهم ٥٠٠ رجل وقتل منهم في المعركة ٣٠٠ رجل فضرب أعناق الأسرى وبعث برؤس جميعهم إلى المعتصم . ثم أقام بازاتهم ١٥ يوما ظفر منهم فيها بخلق كثير وكان رئيس الزط رجلا يقال له محمد بن عثمان وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق . ومك عجييف يقائلهم فيما قيل تسعة أشهر ولم يزل يلح عليهم حتى طلبوا منه الأمان فأمهم فخرجوا إليه في ذى الحجة سنة ٢١٩ على أنهم آمنون على دماهم وأمواهم وكانت عدتهم فيما

ذكر ٢٧ ألفا المقاتلة منهم ١٢ ألفاً وأحصاهم عجيف ٢٧ ألف إنسان بين رجل وامرأة وصبي ثم جعلهم في السفن وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية وأقام بها يوماً وعبأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠ فمروا على المعتصم على تعبتهم ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقي فدفنوا إلى بشر بن السميدع فذهب بهم إلى خانقين ثم نقلوا إلى الثغر إلى عين زربة وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٢٤١ في عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة فأخذت من كان بها أسيراً من الزط مع نساتهم وذرايرهم وذويهم

بابك الخرتمي

بين أذربيجان وأران في شمال بلاد الفرس كورة تدعى البديمر بها نهر الرس العظيم بهذه الكورة خرج بابك التي امتدت فنتته زمناً طويلاً في عهد المأمون والمعتصم وكانت خروجه سنة ٢٠١ في عهد المأمون ومنتها سنة ٢٢١ في عهد المعتصم . ولا بد لنا من شرح أحوال هذا الرجل وفتنه وما كانوا عليه من الاعتقاد وما أثره في دولة المأمون والمعتصم

تمتاز البلاد الفارسية بكثرة المذاهب والاعتقادات الدينية سواء في ذلك ما كان قبل البعثة المحمدية وما بعدها ومن تلك الطوائف فرقة تسمى الحرمية بالحاء والراء المهملتين كما جرى عليه ابن النديم في فهرسه وهم صنفان الحرمية الأولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم أمرهم بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والموااساة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه ومع هذه الحال فيرون أفعال الخير وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لأحد من الأمم إذا أضافوا الإنسان لم يمنعه من شيء يلتمسه كأننا ما كان وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذي ظهر أيام قباذ بن فيروز وقتله أنوشروان وقتل أصحابه . الصنف الثاني الحرمية البابكية ينسبون إلى صاحبهم بابك الحرمي وكان يقول لمن استغواه إنه إله وأحدث في مذاهب الحرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ولم تكن الحرمية تفعل ذلك . هكذا ذكر ابن النديم ومنه يظهر

وجه تسميتهم بالخرمية . أما سائر المؤرخين فيقولون هم الخرمية بالخاء المعجمة المضمومة والراء المفتوحة المشددة قال أبو سعيد عبدالكريم بن محمد السمعاني المروزي في كتاب الانساب « الخرمي » نسبة إلى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمية مدينة يدينون بما يريدون ويشتهون وإنما لقبوا بذلك لباحثهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعل ما يتلذذون به فلما شابهوا في هذه الاباحة المزدكية من الجوس الذين خرجوا في أيام قباز وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات إلى أن قتلهم أنوشروان بن قباز قيل لهم بهذه المشابهة خرمية كما قيل للزردكية . وقال صاحب القاموس خرمة قرية بفارس منها بابك الخرمي — ثم قال وتخرم دان يدين الخرمية لأصحاب التناسخ والاباحة

ومن ذلك يظهر أن ماجاه في فهرس ابن النديم تحريف

نشأ بابك بن بهرام بقرية تدعى بلال أباد من رستاق ميمند ثم اتصل بجاويدان ابن سهرك ملك جبال البذر رئيس من بها من الخرمية وكان جاويدان يرى منه فهما وشهامة وخبثا فقربه إليه . ولما أدركته منيته اجتهدت امرأته في أن يكون بابك مكانه في الملك فجمعت الخرمية وقالت لهم إن جاويدان قال لي إني أموت في ليلتي هذه وإن روحى تخرج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى وقد رأيت أن أملكه على أصحابي فاذا مت فأعليهم ذلك وأن لادين لمن خالفني فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابك

أخذ بابك ومن معه في العيث والفساد واخافة السبل وأول ما عرف ذلك من أمره كان سنة ٢٠١ والمأمون بمرو لم يبرحها إلى بغداد فلما شخص المأمون إلى بغداد عين أحد قواده يحيى بن معاذ لحرب بابك فكانت بينهما وقعة لم ينتصف فيها أحدهما من الآخر . فاختر المأمون قائدا آخر هو عيسى بن محمد بن أبي خالد فولاه أرمينية واذريجان ومحاربة بابك فنسكب . ثم وجه إليه صدقة بن علي المعروف بزريق وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الاسكافي فأسره بابك . ثم وجه إليه محمد بن حميد الطوسي فقتله بابك سنة ٢١٤ بهشتادسر وفض عسكره وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه . هكذا كان كلما أرسل لحرب بابك قائد لم يصنع شيئا لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره في قلوب الجمهور الذي كانوا معه . وقد

ذكر في حوادث سنة ٢١٨ دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همدان وأصبهان وماسبذان ومهران قذق في دين الخرمية وتجمعوا فعمسكروا في عمل همدان وذلك أول ولاية المعتصم فوجه إليهم الجنود وكان آخر عسكر وجه إليهم وجهه المعتصم مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وعقد له على الجبال فشخص إليهم وفض جموعهم وقتل في عمل همدان ستين ألفاً منهم وهرب سائرهم إلى بلاد الروم فقبلهم ملك الروم أحسن قبول وفرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أموره

وكان من وصية المأمون لأخيه المعتصم حين أدركته المنية (والخرمية فاغزهم ذا حزامه وصرامة وجلد واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة فان طالت مسدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأولياتك واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه) لذلك بذل المعتصم جهده في كسر شوكة بابك لثلاثيتمد شر بدعته في البلاد الفارسية فاختره لخربه قائداً تركيا من كبار قواده وهو حيدر بن كاوس الأشروسي المعروف بالافشين (الافشين لقب الملوك أشروسنة) وذلك سنة ٢٢٠ وقبل ان يخرج لوجهه وجه أباسعيد محمد بن يوسف إلى مدينة أردبيل وأمره أن يبني الحصون التي خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة إلى أردبيل ففعل أبوسعيد ما أمر به وأوقع بسرية أرسلها بابك للاغارة عليه وهذه أول مرة انهزم فيها لبابك جند . ثم نظم البريد بينه وبين الجيش فجعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلاً مضمره على رأس كل فرسخ فرس معه بحر مرتب فكان يركض بالخيال ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد يدا بيد ومن حلوان إلى أذربيجان رتب فيه دواب المرج فكان يركض بها يوماً أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ وجعل لهم دبابه على رؤس الجبال بالليل والنهار وأمر أن ينعموا إذا جاءهم الخبر فاذا سمع الذي يليه النعيم تهاياً فلا يبلغ إليه صاحبه الذي نعر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه فكانت الخريطة تصل من عسكر الافشين إلى سامرا في أربعة أيام وأقل

توجه الافشين حتى أتى برزند فعسكر بها ورم الحصون فيما بين برزند وأردبيل وانزل قواداً من قواده ببعض الحصون هناك لحراسة القوافل والسابلة وأطلق

الافشين عيونهم وجواسيسه لتعرف الأخبار عن بابك وأول وقعة كانت بينه وبين
عسكر بابك بارشق أحد حصون الافشين حيث خرج بابك ليقنص مالا أرسله
المتعصم مع أحد قواده فبلغ خبره الافشين فخرج إليه سرا والتقى على مقربة من
الحصن فأتى جنود الافشين على جميع رجاله بابك وأفلت هو في نفر يسير ودخل
موقان ومنها توجه إلى البذ وعاد الافشين إلى عسكره ببرزند

استمرت الحروب بين الافشين وبابك مدة طويلة وكانوا لا يتحاربون إلا إذا
انصرم الشتاء لمكان الثلوج الشديدة التي كانت تكسو رؤس الجبال وتمنع المشاة
من التقدم إلى أن كان الربيع سنة ٢٢١ فسار الافشين من مكانه يريد مهاجمة البذ
وأخذة عنوة فسار محترسا وقدرت أمورهم أدق ترتيب لما هو قادم عليه فاستعرت
لظى الحرب بين الفريقين واستبسلا كلاهما وانتهى الأمر باقتحام المسلمين البذ
واستيلائهم عليه . وقد أراد بابك الهرب وشرع فيه فأفسد عليه الافشين تديره وسد
عليه المسالك وأوقف عليها جنودا من جيشه وأخيرا قبض عليه وعلى أخيه عبدالله وعاد
بهما الافشين إلى سامرا كما أمره المتعصم ومعهما ١٧ رجلا من أهل بيته ومن البنات
والكنات ٢٣ امرأة وكان يوم دخولهم سامرا يوما مشهودا ثم قتل بابك وصلب
بسامرا وفعل مثل ذلك بأخيه عبد الله ببغداد

وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة ٢٥٥٥٠٠ إنسان وغلب كثيرا من
القواد الذي ذكرناهم وكان عنده من الأسرى الذين استنقذهم الافشين ٧٦٠٠

الخروج في عهد المأمون

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية من جميع
الأقاليم التي دخلت تحت حكم الدولة العباسية وهو الثبت الذي نقله العلامة ابن
خلدون في مقدمة تاريخه نقله عن كتاب جراب الدولة ولما في ذلك الثبت من الفائدة
أحببنا أن نقله عنه وهاهو ذا

الاقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
السواد	٢٧ ٨٠٠ ٠٠٠ درهم	٢٠٠ حلة بخرانية ٢٤٠ رطلا من طين الحتم
كسكر	١١ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم	
كوردجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	
حلوان	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	
الاهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠ رطل سكر
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠ قارورة ماء ورد ٢٠ ٢٠٠ رطل زيت أسود
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	٥٠٠ ثوب متاع يمانى ٢٠ رطل تمر
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	
السندومايله	١٢ ٥٠٠ ٠٠٠	١٥٠ رطل عود هندی
سجستان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠٠ ثوب معين ٢٠ رطل من الفانيد
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠٠٠ نقرة فضة ٤٠٠٠٠ ١٠٠٠ برذون رأس رقيق ٢٠ ثوب متاع ٣٠ رطلا اهليلج
جرجان	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠٠٠ نقرة فضة
طبرستان والرويان	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	٦٠٠ قطعة قرش طبرى ٢٥٠ كساء ٥٠٠ ثوب
ودنباوند		٣٠٠ منديل ٣٠٠ جام
	١٨٥ ٩٠٠ ٠٠٠	

	١٨٥ ٩٠٠ ٠٠٠	درهم	ماقبله
٢٠ رطل عسل ٠٠٠	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠		الري
١ رطل رب الرمانين ٠٠٠	١١ ٣٠٠ ٠٠٠		همدان
١٢ رطل عسل ٠٠٠			
	١٠ ٧٠٠ ٠٠٠		ماها البصرة والكوفة
	٤ ٠٠٠ ٠٠٠		ماسبذان والريان
	٦ ٧٠٠ ٠٠٠		شهرزور
٢٠ رطل عسل ٠٠٠	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠		الموصل وما إليها
	٤ ٠٠٠ ٠٠٠		أذربيجان
١٠٠٠ رأس رقيق ٠٠٠	} ٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠		الجزيرة وما إليها من عمل الفرات
١٠ بزاة ٢٠ كساء			
٢٠ قسط محفور ٥٣٠ رطل رقم	} ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠		أرمينية
١٠ رطل من المسايح			
١٠ رطل السورماهي ٠٠٠			
٢٠٠ بغل ٣٠ مهرا			
١٢٠ بساط	١ ٠٠٠ ٠٠٠		برقة
	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠		أفريقية
	٣١٩ ٦٠٠ ٠٠٠	درهم	
	٤٠٠ ٠٠٠	دينار	قنسرين
	» ٤٢٠ ٠٠٠		دمشق
	» ٩٧ ٠٠٠		الأردن
٣٠٠ رطل زيت ٠٠٠	» ٣١٠ ٠٠٠		فلسطين
	» ١٩٢٠ ٠٠٠		مصر
	» ٣٧٠ ٠٠٠		اليمن
	» ٣٠٠ ٠٠٠		الحجاز
	٣ ٨١٧ ٠٠٠		

فمجموع الخراج من الدراهم ٣١٩ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم و ٣ ٨١٧ ٠٠٠ دينار ومن العروض ما ذكر أمام كل إقليم وإذا قوم بلغ شيئا كثيرا . كان هذا كله يرد إلى بغداد حاضرة الخلافة ويتصرف فيه الخليفة فيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته ويصرف منه في الحوادث التي تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقي بعد ذلك كثير يهب منه ماشاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يدور معظمه في الحاضرة الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفا . ومن نموذج ما كان يصرف على أيدي الخلفاء مارواه الطيفوري في أخبار بغداد أنه ورد على المأمون وهو بالشام ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم حمله إليه المعتصم من خراج ما يتولاه نجر المأمون وأصحابه ينظرون إلى ذلك المال فقال يحيى بن أكرم يا أبا محمد ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة إلى منازلهم خائنين وتنصرف نحن بهذه الأموال قد ملكناها دونهم إنا إذا للثام ثم دعا محمد بن يزيد (وزيره) فقال وقع لآل فلان بألف ألف و لآل فلان بمثلها فما زال كذلك حتى فرق ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ ورجله في الركاب ثم قال ادفع الباقي إلى المعلى يعطى جنسنا — قال راوى الخبر فجئت حتى قمت نصب عيني فلم أجد طرفي عنها لا يلحظني إلا يراني بتلك الحال فقال يا أبا محمد وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف الألف لا يحتلس ناظري قال فلم يأت ليلتان حتى أخذت المال . وهذا عطاء كثير ولكن الوارد أكثر

الجيش

ظهور الدولة العباسية على أيدي أهل خراسان والموالي جعل لهؤلاء شأنًا عظيمًا في الدولة ومقاما لا ينقص عن مقام العرب في اعتزاز الدولة بهم فكانت القواد العظام من أهل خراسان ومن العرب . وقيام دولة المأمون بأهل خراسان زاد مالهم في تلك الدولة وبقدر ما زادهم نقص من شأن العرب حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان في عهد المنصور والمهدى والرشيدي وصار معظم المرتزقين من الجند إنما هم من أهل خراسان والأبناء وصار معظم الاعتماد عليهم وظهرت أسماء قواد من عناصر أخرى من أتراك ماوراء النهر . روى الطيفوري أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم

خراسان قال أكثر على يأخا الشام والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالى درهم واحد وأما البن فوالله ما أحببتها ولا أحببني قط وأما قضاة فسادتها تنتظر السفياتي وخروجه فتكون من أشياعه . وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ولم يخرج اثنا إلا خرج أحدهما شاريا . أعزب فعل الله بك . وهذا تصریح عظيم من المأمون وهويدل على أن تلك القوة العربية التي كان العالم الاسلامي يحس بوجودها وتحشى الخلفاء سطوتها وانحرافها قد اتضعت فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملاء من الناس ولما كان جيش الدولة هو الذى يدل على حقيقة أمرها كان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة أما العvisية العربية للعصر العربي فقد أشرفت على الانحاء

القواد العظام في عهد المأمون

أكبر من اشتهر في عهد المأمون بقيادة الجيوش ويمين النقية وبعد الصيت طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزق بن ماهان . كان جده رزق مولى طلحة بن عبيد الله المعروف بطلحة الطلحات الخزاعي والى سجستان من مسلم بن زياد بن أبيه والى خراسان ولاندرى أكان مولى إسلام أم مولى عتاقة ويغلب على الظن أنه مولى إسلام أسلم على يده فانتسب إلى قبيلته ولذلك كان يقال له الخزاعي وكانوا بقرية تدعى بوشنج من أعمال مرو وبها ولد طاهر بن الحسين سنة ١٥٩ وكان جده مصعب بن رزق واليا عليها وعلى هراة وكان قبل ذلك كاتباً لسليمان بن كثير الخزاعي داعية بنى العباس نشأ طاهر ببوشنج شهما شجاعا أديبا وأول ما أحيا ذكره الخالد أعماله العظيمة التي قام بها في قود الكتائب الخراسانية لحرب الأمين والجيوش العراقية فظفر ظفرا عظيما كما قدمنا وقاد الخلافة للمأمون مذلة فاشتهر ذكره وطار صيته إلا أن الفضل ابن سهل نفس عليه أن ينفرد بتلك الشهرة فحمل المأمون على تحيته عن العراق وإرساله إلى الجزيرة لحرب نصر بن سبث . ولما شخص المأمون إلى بغداد ومات الفضل في الطريق أمر المأمون طاهرا أن يلقاه ببغداد فعرف له تلك السابقة وأحل له المنزلة التي تليق به وولاه الجزيرة والشرط وجاني بغداد ومعاون السواد

كان الذى يتولى خراسان فى ذلك الوقت غسان بن عباد فبلغ المأمون أن عبد الرحمن المطوعى جمع جمعا بنيسابور ليقاتل بهم الحرورية بغير أمر والى خراسان فتخوفوا أن يكون ذلك لأصل عمل عليه وأن يكون بدء نار يستطير شرارها إذا لم تتدارك برجل قوى الشكيمة ناهض العزم يتولى أمر خراسان ولم يكن بالحضرة من يماثل طاهرا فاختره المأمون لذلك وولاه من حلوان إلى أقصى عمل المشرق فتوجه إلى ولايته وساسها أحسن سياسة وأعظم شهادة له ما ذكره الطيفورى عن يحيى بن أكرم عن المأمون أنه كان يقول ما حابى طاهر فى جميع ما كان فيه أحدا ولا مالا أحدا ولا داهن ولا وهن ولا ونى ولا قصر فى شىء وفعل فى جميع ما ركن إليه ووثق به فيه أكثر مما ظن به وأمله وأنه لا يعرف أحدا من نصحاء الخلفاء وكفاتهم فيمن سلف عصره ومن بقى فى أيام دولته على مثل طريقته ومناجحته وغنائه وأجزائه قال ثم كان يحلف على صدق ما يقول فى ذلك مجتهدا مؤكدا لليمين على نفسه

وكان لظاهر استقلال بحكم خراسان يؤدى الخراج عن عمله وعليه والى بريد يكتب إلى المأمون بأخباره قالوا كان طاهر يتمنى أن يخطب على منبر مرو فولها سنة ٢٠٥ وخطب بهم فى سنة سبع لم يصل بهم إلا ذلك اليوم فانه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ولم يدع للمأمون فكاتب والى البريد إلى المأمون بذلك وفى تلك الليلة أصابته حمى وحرارة فوجد ميتا على فراشه فكاتب صاحب البريد بوفاة ولا نحسب ما ظن بطاهر من أنه أراد خلع المأمون حقا فانه لم يكن هناك داع إلى ذلك مطلقا

وقد استمر ملك البيت الطاهرى بخراسان من سنة ٢٠٥ إلى سنة ٢٥٩ حيث سقطت على يد يعقوب بن الليث الصفار وهى أول الدول استقلالا بالمشرق وأحسنها علاقة بدولة الخلافة ببغداد والسبب فى دوام هذا التحسن أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد ومن أجل ذلك كان الاتصال دائما بين مرو وبغداد عبد الله بن طاهر : ولد عبد الله سنة ١٨٢ فى خلافة الرشيد ونشأ نشأة مجيدة وكان عمره حين سطع نجم والده فى حوادث المأمون نحو ١٦ سنة قتربنى فى كنف المأمون فخرج شهما نيلا أدبيا وكان المأمون يحبه حبا جما وولاه حرب نصر بن شبث

بعد انصراف أبيه عن ذلك الوجه فقام بما أمر به خير قيام ورد نصرًا إلى الطاعة بعد أن حصره وضيق عليه وكان مع قيامه بذلك خليفة لأبيه طاهر في الشرط وأعمال بغداد فاستخلف على ذلك عمه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب

ولما فرغ من أمر نصر أمره المأمون أن يسير إلى مصر لاضطراب كان فيها من فتنة عبيد الله بن السرى أمير مصر وفتنة جالية الأندلسيين بالاسكندرية فذهب إليها واستنزل عبيد الله بن السرى من معاقله بعد أن أذله وأجلى الأندلسيين عما غلبوا عليه . قال يونس بن عبد الأعلى أحد علماء الحديث من أهل مصر . قدم علينا من قبل المشرق فتى حدث — يعنى عبد الله بن طاهر — والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب والناس منهم في بلاء فأصلح الدنيا وأمن البرية وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة . وكتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون إذ ذاك يهنئه بذلك الفتح . بلغنى أعز الله الأمير ما فتح الله عليك وخروج ابن السرى إليك فالحمد لله الناصر لدينه المعز لدولة خليفته على عباده المذل لمن عند عنه وعن حقه ورغب عن طاعته ونسأل الله أن يظاھر له النعم ويفتح له بلدان الشرك والحمد لله على ما وليك به مذطعنت لوجهه فانا ومن قبلنا نتذكر سيرتك في حربك وسلك ونكثر التعجب لما وقفت له من الشدة واللبان في مواضعهما ولا نعلم سائس جنود رعية عدل بينهم عدلك ولا عفا بعد المقدرة عن آسفه وأضعفه عفوك ولقلنا رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلا على ما قدمت له أبوته ومن أوتى حظا وكفاية وسلطانا وولاية لم يخلد إلى ما عفا له حتى يخل بمساماة ما أمامه ثم لانعلم سائسا استحق النجاح لحسن السيرة وكف معرفة الاتباع استحقاقك وما يستجيز أحد من قبلنا أن يقدم عليك أحدا بهوى عند إلحاقة والنازلة المتصلة فليهنك منة الله ومزيده ويسوغك الله هذه النعمة التي حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من التمسك بجبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين وملاك وإيانا بالعيش بيقائه وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرما مقدما معظما وقد زادك الله في أعين الخاصة والعامة جلاله وبجالة فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ويعدونك لأحداثهم ونوائبهم وأرجو أن يوفقك الله لمحابه كما وفق لك صنعه وتوفيقه فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطفك ولم تزد إلا تذلا وتواضعا فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك والسلام .

و كتب له المأمون كتابا و كتب في أسفله :

أخي أنت ومولاي • ومن أشكر نعماء
فما أحببت من أمر • فاني الدهر أهواه
وما تكره من شيء • فاني لست أرضاه
لك الله على ذاك • لك الله لك الله

ولما عاد إلى مصر سنة ٢١٢ و لاه المأمون الجبال وأرمينية وأذربيجان لمحاربة بابك وصادف أنه مات بعد خروجه طلحة بن طاهر بن الحسين فولاه المأمون مكانه واستمر واليا بها حتى مات سنة ٢٣٠ في عهد الواثق

العلم في عهد المأمون

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم في العصر العباسي وذلك لأميرين الأول . أن المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرور فقد جالس كثيرا من العلماء وأخذ عنهم جملة سالحة من العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية فكان لذلك محبا للعلم ولازدياد نشره . الثاني : ما كان من الأمة نفسها إذ ذلك حيث وجد فيها شوق إلى العلم والبحث وكثر العلماء في كل مصر من أمصار المسلمين كما سنبينه فتوافق رأى الامام واستعداد الأمة فكان من وراء ذلك ما نقصه من تقدم حركة العلم ورفعة بغداد

العلوم التي يزيد بيان حالها نوعان علوم دينية وعلوم عقلية
أما العلوم الدينية فمنها ما يرجع لأصل الدين وهو علم الكلام أو التوحيد ومنها ما يرجع إلى أحكام الأعمال وهي الفقه وأصوله وأدلة تلك الأحكام من القرآن والحديث .

ظهر في ذلك الوقت جمهور من فطاحل العلماء ورؤساء المتكلمين توغلوا في البحث في أصول الدين والعقائد وحكموا في البحث عقولهم فأتيج لهم ذلك اعتقادات تخالف ما عليه عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث وهم الذين يستمدون آراءهم من النصوص السمعية كتاب أوسنة أو أثر من آثار السلف وكان أول ما نشأ ذلك الخلاف في مدينة البصرة وامتد منها إلى بغداد . وجد بالبصرة

واصل بن عطاء الغزال ثم عمرو بن عبيد الذي كان المنصور يحبه ويفضله على جميع معاصريه من العلماء حتى قال فيه :

كلكم يمشى رويد كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد

ولما مات رثاه ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه

ثم أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف وإبراهيم بن سيار النظام وبشر بن غياث المريسي وعمرو بن بحر الجاحظ وثمامة بن أشرس وغيرهم من رؤس الاعتزال وأصحاب الآراء والأقوال وكانوا يتكلمون في كثير من مسائل أصول الدين وأهم هذه المسائل التي خالفوا فيها الجمهور أهل الحديث (١) مسألة القدر وأفعال العباد فكانوا يقولون إن أفعال العباد مخلوقة لهم لانه ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب وأن المقصود بالقضاء والقدر ما يمنحه الله لعباده من التوفيق والخذلان ويقابل ذلك رأى العامة أن أفعال العباد مخلوقة لله ليس للعباد منها إلا جريانها على أيديهم وهذا ما أطلقوا عليه اكتساب العباد (٢) صفات الله تعالى فقد نزه المعتزلة الله عن ثبوت صفات قائمة بذاته من القدرة والارادة والسمع والبصر والحياة والكلام وقالوا إن الله قادر بذاته والذي أدام إلى ذلك الخوف من تعدد القدماء ويقابل ذلك قول العامة إن الله قدير بقدره وهي صفة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها. وتفرع عن ذلك قولهم في القرآن أنه قديم لأنه صفة لله جل ذكره كما تقوله العامة أم هو حادث مخلوق لله كسائر المخلوقات لأنه ليس بصفة لله بل يخلق الله هذه الحروف والأصوات في جسم محدث يسمعه النبي منه وهذا عندهم هو الوحي .

وهاتان المسئلتان أهم ما كان يدور فيه النزاع بين المعتزلة وفقهاء العامة

وكما كان الاختلاف قد ظهر في أصول الدين التي تشابه ما ذكرنا كان قد ظهر في الفقه الذي هو أحكام أفعال العباد فكان من أئمة الفقهاء أهل حديث وأهل رأى كما بيناه في تاريخ التشريع ووجد من كل من الفريقين علماء أجلاء وفقهاء عظام اعترف لهم الناس بالتقدم ونحو انحومهم في التشريع واقتدوا بهم منهم من سبق عصر المأمون كأبي حنيفة وأصحابه ومالك وأصحابه ومنهم من كان في أول عصره كالشافعي محمد بن إدريس الذي توفي في السنة التي دخل فيها المأمون بغداد . والفرق بين هؤلاء في اختلافهم وبين أولئك أن المستنبيين من الفقهاء كانوا لا ينكر بعضهم على بعض نتائج استنباطهم

بل كانوا يرون أن كل مجتهد مكلف أن يعمل بنتيجة اجتهاده وليس له أن يقلد غيره فقد سوغ بعضهم لبعض الاجتهاد أما المختلفون في أصول الدين فكانوا على غير ذلك كل فرقة ترى النقص في الأخرى وربما تلغنها فأهل الحديث يقولون عن المعتزلة إنهم مبتدعة فارقوا ما عليه سلف الأمة وما تدل عليه الأخبار والآثار وأولئك يقولون عن أهل الحديث إنهم عامة يتخذون ما يظهرون به حلية لينفقوا أمام العامة وربما نالوا منهم أكثر من ذلك

وكان هناك اختلافات أخرى ظهر القول فيها وهي مسألة الخلافة ومن يستحقها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الجمهور يرى أن الخلفاء الراشدين مرتبون في الاستحقاق ترتيبهم في تولى الخلافة ومن ورائهم أصناف الشيعة يرون أن عليا هو أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يستحقها من بعده أولاده وهم مختلفون في الحكم على من سبق عليا من الخلفاء فمنهم العالي ومنهم الهين القول يرى أنهم أخذوا ما ليس لهم ولكن ولوا فعدلوا فلا محل لانتقاصهم ووجد بسبب ذلك شيعتان مختلفتان الامامية والزيدية ثم تشعبت الطرق بكل من الفرقتين فوجد من كل منهما مذاهب وآراء

ولم يكن قبل المأمون لأصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة حرية البحث وإظهار الآراء بل كانوا يخشون بأس العامة ولم تكن لهم قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لأن الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة لأن القوة فيها فلما جاء المأمون رأى أن يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث ويجعل لهم مجالس للمناظرة ويظهر أنه كان يرى إلى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأى فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأى وتتفق كلمة الأمة ولا سيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الامامة

قال الطيفورى في تاريخ بغداد قال التغلبى سمعت يحيى بن أكرم يقول أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم فلما انتضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين قال المأمون يا أبا محمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل

أهوائهم وتزكية آرائهم فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وظنوا أنه لا يجوز تفضيل علي إلا بانتقاص غيره من السلف والله ما أسهل أو قال ما أيسر أن أتقص الحجاج فكيف السلف الطيب . وإن الرجل ليأثني بالقطعة من العود أو بالخشب أو بالشئ الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه فيقول إن هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل إلا أني بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشترته بألف دينار وأقل وأكثرت ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبسمه فأستشفى به عند المرض يصيبني أو يصيب من أهتم به كصياتي نفسي وإنما هو عود لم يفعل هو شيئاً ولا فضيلة له يستوجب بها المحبة إلا ما ذكر من مس رسول الله ﷺ له فكيف لأرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة وعادى العشائر والمائر والآقارب وفارق الأهل والأولاد واعترب عن داره ليعز الله دينه ويظهر دعوته ياسبحان الله والله لو لم يكن هذا في الدين معروفاً لكان في الأخلاق جميلاً وإن من المشركين لمن يرعى في دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا مماذا الله بما فطن به الجاهلون . ثم لم ترض هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها حتى نسبتها إلى البدعة في تفضيله رجلا على أخيه ونظيره ومن يقاربه في الفضل وقد قال الله جل من قائل - ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض - ثم وسع لنا في جهل الفاضل من المفضول فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا إليه إذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والفضل أمر لوجهه جاهل رجونا أن لا يكون اجترح إثماً - وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبي ﷺ وشك الآخر واحتج في كسره وإبطاله في الأحكام في الفروج والدماء والأموال التي النظر فيها أوجب من النظر في التفضيل فيغلط في مثل هذا أحد يعرف شيئاً أوله روية أو حسن نظر أو يدفعه من له عقل بل معاند يريد اللطاط أو متبع لهواه ذاب عن رياسة اعتقدها وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلساً اعتقد به رياسة لعله يدعوفة لضرب من البدعة ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه في الأمر الذي قد عقده رياسة بدعة ويشيط بدمه وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك إلا أن

ذلك أمر لارياسة له فسأله عليه وأمسك عنه عند ذكر مخالفته إياه فيه فاذاخولف في نخلته ولعلها مما وسع الله في جهله أو قد اختلف السلف في مثله فلم يعاد بعضهم بعضا ولم يروا في ذلك إثما فلعله يكفر مخالفه أو يبدعه أو يرميه بالأمور التي حرمها الله عليه من المشركين دون المسلمين بغيا عليهم وهم المترقبون الفتن والراسخون فيها ليتهاوا أموال الناس ويستحلوها بالغلبة وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون يزأرون على الفتنة زئير الأسد على فرائسها — وإني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأيدته ومعونته على إتمامه سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أَرْضَى وَأَصْلَحَ للدين . أما شك فتيين ويتثبت فينقاد طوعا وأما معاند فيرد بالعدل كرها .

وروى أيضا عن بشر المريسي قال حضرت عبد الله المأمون أنا وثمامة ومحمد ابن أبي العباس وعلي بن الهيثم فتناظروا في التشيع فنصر محمد بن أبي العباس الامامية ونصر علي بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما إلى أن قال محمد لعلي يانبطي ما أنت والكلام . فقال المأمون وكان متسكنا بجلس الشتم عى والبذاءة لؤم إنا قد أبجنا الكلام وأظهرنا المقالات فمن قال بالحق حمدناه ومن جهل ذلك وقفناه ومن جهل الأمرين حكنا فيه بما يجب فاجعلا بينكما أصلا فان الكلام فروع فاذا افترعتم شيئا رجعتم إلى الأصول

فيستفاد من هذين الخبرين أمور جديرة بامعان النظر

(١) أن المأمون أباح الكلام وأظهر المقالات لدرجة قلما تجدها أمة وما ظنك بخليفة عباسي تناظر في مجلسه اثنان في الامامة فنصر أحدهما الامامية والثاني الزيدية وهذان المذهبان كلاهما إن صحا يذهبان بما في أيدي آل العباس من الامامة ولم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهم

(٢) أن طوائف من الناس عابت ذلك على المأمون لأنه علم عنه الموافقة على بعض آراء تخالف رأى العامة كما كان مذهبه في تفضيل علي بن أبي طالب رضى الله عنه على سائر الخلفاء واتهموه بسبب ذلك بما هو منه برى . وهو انتقاص غيره من الصحابة وقد دافع المأمون عن نفسه في ذلك بما يغلب على الظن أنه صادق فيه .

(٣) أن المأمون كان يرى في علماء وقته أنهم إنما كانوا ينكرون ما ينكرون في الآراء التي كانت لهم سبب رياسة ولو كانت تافهة لا يترتب عليها في الدين أثر

ويعفرون لمن خالفهم في الأمور الجسمية التي تترتب عليها الآثار العظيمة مادامت لا ترتبط بشيء مما يعتقدون به رياسة عند العامة

(٤) أن المأمون كان يظن أنه بمجلس المناظرة هذا يتوصل إلى إزالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه فإن الشاك يتبين أو يثبت والمعاقد يكره وهذا الذي فعله المأمون أول تجربة وآخرها لأنه لم يفكر أحد من قبله في مثل هذا ولما انتهت تجربته بالفشل لم يعد أحد من الخلفاء إلى مثله

كانت قوة فقهاء العامة محكمة العرى لأن العامة كانت تجلهم وتحترم آراءهم كما أن الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور ويقفون ضد من يعلن مخالفتها. أدت المناقشات الكثيرة التي كانت بين يدي المأمون إلى أنه كان يرى بعض آراء المعتزلة لا كلها فانه لم يكن قد رآه روى الطيفوري عن محمد بن إسحاق بن إبراهيم السيزيدي أنه سمع ثمامة يقول إن المأمون عاى لترك القول بالقدر وإنما الذى صار إليه من آرائهم القول بخلق القرآن وأظهر رأيه ذلك سنة ٢١٢ وكان يظن كما قدمنا أنه متى أعلن رأيه للعلماء وفقهاء الأمة يجيؤه إلى إعلان رضاهم به فكانت النتيجة عكس ما ظن فانهم تكلموا فيه وقالوا إنه مبتدع وغلا بعضهم في ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن وبذلك تجسمت هذه المسألة التي لم تكن تستحق تجسما إذا نظر إليها بشيء من التدقيق ولم تكن هناك أشياء أخرى غير المسألة العلوية توسع مسافة الخلاف بين المأمون ومن شايعه وبين فقهاء الجمهور

مرت سنوات أربع والخلف يتسع والكلام من الفريقين في الآخر يزيد حتى كانت سنة ٢١٨ فرأى المأمون أن يستعين بسلطانه في رد الفقهاء إلى رأيه حتى لا يكون معترفا بفشله فيما شرع فيه فكتب كتابا وهو غاز إلى إسحاق بن إبراهيم عامله على بغداد (محافظة) بين فيه أن واجبه بصفته إماما للمسلمين أن يجتهد في إقامة الدين ثم ذكر ما عليه الجمهور من حشو الرعية وسفلة العامة من الجهالة بالله حتى ساووا بينه وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم مع النصوص الدالة على خلاف ذلك ثم قال — ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من

سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمات الكاذب والتخضع لغير الله والتعشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ومواطنتهم على سيء آرائهم تزيينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم فتركوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دين الله وليجة إلى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمتهم وفساد نياتهم ويقينهم وكان ذلك غايتهم التي إليها أجزوا وإياهم طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم - وبعد أن أعطاهم ما يستحقون على رأيه من مثل هذه القوارع قال لإسحاق - فاجمع من بحضرتك من القضاة وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه فاذا أقرأوا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فرمهم بنص من يحضرم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره والامتناع من توقيعها عنده واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والاخلاص للتوحيد واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله وكتب في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ وكتب إلى إسحاق أن يشخص إليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور منهم محمد بن سعد كاتب الواقدي ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وأحمد بن إبراهيم الدورقي فأشخصوا إليه فامتنحهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأشخصهم إلى مدينة السلام وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره فشهروا أمرهم وقولهم بمحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فأقرأوا بمثل ما أجابوا به المأمون فغلى سيلهم وكتب المأمون إلى إسحاق كتابا ثانيا زاد فيه على الكتاب الأول قال فيه في صفة من خالفوه . وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا في الدين ولا نصيبا من الايمان واليقين ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثمة في أمانته ولا عداة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية ولا تولية شيء من أمر الرعية

فجمع إسحاق نحو ثلاثين رجلا من هؤلاء العلماء وهذا نموذج من أجوبتهم لإسحاق قال لبشر بن الوليد ما تقول في القرآن - فقال قد عرفت مقالتي لأمر المؤمنين غير مرة - قال فقد تجد من كتاب أمير المؤمنين ما قدرتي - قال - أقول القرآن كلام الله - قال لم أسألك عن هذا مخلوق هو - قال الله خالق كل شيء - قال أما القرآن شيء - قال هو شيء - قال فمخلوق هو - قال ليس بخالق - قال ليس أسألك عن هذا مخلوق هو - قال ما أحسن غير ما قلت لك وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا تكلم فيه وليس عندي غير ما قلت لك

وقال لعلي بن أبي مقاتل ما تقول يا علي - قال قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة وما عندي غير ما سمع - فقال له القرآن مخلوق - قال القرآن كلام الله - قال لم أسألك عن هذا - قال هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا

وقال لأبي حسان الزيادي القرآن مخلوق هو - قال القرآن كلام الله - والله خالق كل شيء وما دون الله مخلوق وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم وقد سمع ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدي إليه زكاة أموالنا ونجاهد معه ونرى إمامته وإمامة وإن أمرنا اتئمنا وإن نهانا اتهمنا وإن دعانا أجبنا - قال القرآن مخلوق هو - فأعاد إليه حسان مقالته - قال إن هذه مقالة أمير المؤمنين - قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني به فانك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتني عنه من شيء فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه - قال ما أمرني أن أبلغك شيئا - قال قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والموارث ولم يحملوا الناس عليها

وكان إسحاق يكتب مقالة كل قائل فلما أتم امتحانهم جميعا أرسل إلى المأمون نتيجة الامتحان. ولما رأى المأمون هذه المحاولة منهم غاظه ذلك وكتب في شأنهم كتابا ثالثا قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع وذكر كل واحد منهم بما يعلمه فيه من النكوب عن الجادة في عمله أو خلقه كأنه يعرف دخائل كل منهم معرفة خبير فمن ذلك قوله

وأما الذيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله وأنه لو كان مقتنيا آثار سلفه وسالكا مناهجهم ومحتذيا سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يقف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر وما اكتسب من الأموال في أقل من سنة وما شجر بينه وبين المطلب بن عبدالله في ذلك فانه من كان شأنه شأنه وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته فليس بمستكر أن يبيع إيمانه طمعا فيهما وإيثارا لعاجل نفعهما وأنه مع ذلك القائل لعلي بن هشام ما قاله والمخالف له فيما خالفه فيه فإلى الذي حال به عن ذلك ونقله إلى غيره

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره تربصا بمن استودعه وطمعا في الاستكثار لما صار في يده ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الأيام به فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لاجراك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا وإيمانك إياه وهو معتقد للشرك منسلخ عن التوحيد

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبي معمر فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم إلا لاربائهم وما نزل به كتاب الله في أمثالهم لاستحل ذلك فكيف بهم وقد جمعوا مع الأرباء شركا وصاروا للنصارى مثلا

وأما سعدويه الواسطي فقل له قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها متى يتمنح فيجلس للحديث .

وأما المعروف بسجادة وإنكاره أن يكون سمع من كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق فأعلمه أنه في شغله بأعداد النوى وحكمه لاصلاح سجادته وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهدهما وبالسهما وقد ذكر مثل ذلك في غير هؤلاء وخلاصة ما يطلب في هذا الكتاب أنه ذكر له رجلين هما بشر بن الوائيد وإبراهيم بن المهدي أمره أن يستيهما فان تاب أشهر

أمرهما وإلا ضرب أعناقهما أما من عداهما فإن لم يقولوا بخلق القرآن حملهم جميعاً موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين . وقال في ختام هذا الكتاب - وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلاً به تقريباً إلى الله عز وجل وبما أصدر من الحكم ورجا ما اعتمد وإدراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين وبجمل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله وكتب سنة ٢١٨

فأحضرهم إسحاق مرة ثانية وسألهم فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق ماعدا أربعة منهم فأمر بهم فشدوا في الحديد وفي اليوم الثاني أعاد عليهم المحنة فأجابه واحد من الأربعة فأطلقه وفي اليوم الثالث فعل كذلك فأجابه ثان وبق اثنان صمما على عدم الإجابة وهما أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما إسحاق إلى طرسوس . وبعد ذلك ورد كتاب من المأمون على إسحاق يقول له فيه إن سليمان بن يعقوب صاحب الخبر كتب إليه أن بشر بن الوليد تناول الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - وقد أخطأ التأويل إنما عنى الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقداً بالإيمان مظهر الشرك فأما من كان يعتقد الشرك مظهر الإيمان فليست هذه له فأشخصهم جميعاً إلى طرسوس ليقبوا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم فأشخصهم جميعاً ولما وافوا الرقة بلغتهم وفاة المأمون فأقامهم والى الرقة بها ثم أعيدها إلى مدينة السلام

هذه كانت النتيجة لما شرع فيه المأمون وهي نتيجة تضاد ما قصده من تأليف القوم وجمعهم على رأى واحد فيما اختلف فيه من المسائل وقد كبر الخلاف في مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلاً ولكن المأمون قال إن أصغر المسائل متى كان أساساً لنحلة أوسيبا لرياسة فإن الخلاف يعظم بسببه أما أعضل الأمور فإن الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلاً إذا لم يكن أساساً لنحلة أوسيبا لرياسة وهذا يكاد يكون صحيحاً ومع اعترافنا بأن الخلاف لا محل له في هذه المسألة لانزى للمأمون حقاً وهو سلطان الأمة أن يصادها فيما تعتقد على الشكل الذى سنه مما بيناه وليعلم أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون في مسألة القرآن أهمل المحدثون أمرهم

وأزولوا رتبهم وعدوا ذلك عيبا من عيوبهم وقد كاد إمام المحدثين البخارى يصديه أثر من آثار هذه النكبة فان فريقا من العلماء رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه فكان يقول لفظي بالقرآن مخلوق وكان البخارى ممن يقول بذلك فاضطهده محمد بن يحيى الذهلى إمام المحدثين بنيسابور حتى خرج البخارى عنها خوفا من العامة أن تبطش به وكذلك ترك مسلم بن الحجاج مجلس محمد بن يحيى من أجل ذلك فانه لما سمع محمدا يقول من قال لفظي بالقرآن مخلوق فلا يقربن مجلسنا أخذ كساهم وخرج . أما الذين وقفوا في المحنة وثبتوا على آرائهم ولم يتساهلوا فانهم استحقوا من العناية والتكريم مالا يزيد عليه والعلم المفرد فيهم هو الامام أحمد بن حنبل فان هذه الحادثة شرفته بين القوم شرفا عظيما

ولم يكتف المأمون بما كان منه في حياته بل أوصى إلى أخيه المعتصم الذى استخلفه من بعده بأن يسير بسيرته في القرآن فلم يجد المعتصم بدا من أن يتبع هذه الوصية مع أنه لم يكن له في ميدان العلم كبير جولة ولكن وصية أخيه وبقاء رؤس الاعتزال بجانبه جعلاه يتشدد في الأمر فأحضر أحمد بن حنبل وعرض عليه أن يقول كما قال غيره من العلماء فصمم على إنكار أن يكون القرآن مخلوقا ولم يثنه عن ذلك ما لقيه من الضرب والتعذيب في مجلس المعتصم نفسه وكان أحمد يتردد بين ذلك وبين ضيق الجبوس وهو صابر محتسب

وقد اتبع الواثق سيرة أبيه وعمه في هذه المحنة وبسببها حصلت فتنة أحمد بن نصر ابن مالك بن الهيثم الخزاعى ومالك بن الهيثم كان أحد نقباء الدعوة العباسية وكان أحمد يغشاه أصحاب الحديث وكان يظهر المباينة لمن يقول القرآن مخلوق مع منزلة أبيه كانت من السلطان في دولة بنى العباس ويبسط لسانه فيمن يقول ذلك مع غلظة الواثق كانت على من يقول ذلك وكان أحمد إذا تكلم عن الواثق يقول الالفعل هذا الكافر فخركة المظيفون به من أهل الحديث وحملوه على الحركة لانكار القول بخلق القرآن وقصدوه دون غيره لما كان لأبيه وجده في دولة بنى العباس من الأثر فرجوا استجابة العامة له والتفافهم عليه فيقال إنه أجاب إلى ذلك وسعى له في دعاء الناس رجلا من كان يغشاه فنجحا وألغا فرقتين إحداهما بالجانب الشرقى والأخرى بالجانب الغربى من بغداد واعدوا ليلة يضربون فيها طبولهم للاجتماع صديحتها للوثوب بالسلطان

فاتفق أن بعض المحافظين على الطبل انتبذ نبيذا فلما أخذ منه ضرب على الطبل قبل الموعد المضروب بلبلة فانتبه لصوت الطبل محمد بن إبراهيم بن مصعب خليفة صاحب الشرطة فأرسل يسأل عن سببه وبعد التدقيق عرف سر المؤامرة فتبع القوم من ليلتهم فأخذوا وصيروا إلى الحبس وقبض أحمد بن نصر أيضا وحمل رؤس القوم إلى الواثق بسامرا فجلس لهم الواثق مجلسا عاما لامتحانهم ولما حضروا إليه لم يناظر الواثق أحمد بن نصر في الشعب ولا فيما رفع إليه من إرادة الخروج عليه لكنه سأله ما تقول في القرآن قال هو كلام الله ولم يزد على ذلك وبعد أخذ ورد أفتى الحاضرون بقتله فقام الواثق إليه بنفسه وقتله وصلب جسمه بسامرا وحمل رأسه إلى بغداد فنصب بها في الجانب الشرقي وجعل في أذنه رقعة فيها هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو أحمد بن نصر ابن مالك من قتلته الله على يدي عبد الله هارون الامام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحججة في خلق القرآن ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة ومكثه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح والحمد لله الذي عجّل به إلى ناره وأليم عقابه وإن أمير المؤمنين سأله عن ذلك فأقر بالتشبيه وتكلم بالكفر فاستحل أمير المؤمنين دمه ولعنه

ومن حمل إلى الواثق في هذه المحنة من علماء مصر أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي أكبر أصحاب الشافعي الامام رضى الله عنه نعى إلى الواثق أنه لا يقول بخلق القرآن فأرسل إلى والى مصر فى امتحانه فامتنحه فلم يجب وكان الوالى حسن الرأى فيه فقال له قل فيما بينى وبينك قال إنه يقتدى بى مائة ألف ولا يدرون المعنى . فلما امتنع أمر الواثق بحمله لحمل ويحجن ببغداد حتى مات فى سنة ٢٣١ واستمرت هذه المشكلة حتى ملها الواثق نفسه وتمنى لو يجد مخرجا وانتقلت المسألة من الجد إلى الهزل . دخل عبادة المضحك على الواثق فقال يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن قال ويلك القرآن يموت قال يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت بالله يا أمير المؤمنين من يصلى بالناس التراويح إذا مات القرآن . فضحك الواثق وقال قاتلك الله — أمسك .

وحجى الواثق بشيخ مقيد فسأله ابن أبى دؤاد عن قوله فى القرآن فقال له الشيخ لم تنصنى المسألة أنا أسألك قبل الجواب . هذا الذى تقوله يا ابن أبى دؤاد من خلق

القرآن شيء عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أو جهلوه — فقال بل علموه قال فهل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا — قال بل سكتوا — قال فهلا وسعك ماوسعهم من السكوت — فسكت ابن أبي دؤاد وأعجب الواثق كلامه وأمر باطلاقه وقام وهو يقول هلا وسعك ماوسعهم يكرر هذه الكلمة

كانت تلك الحوادث مما أخذ نار المحنة ولذلك لماسجاء المتوكل بعد الواثق أمر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون وحسنا فعل وقد استحق المتوكل ثناء الجمهور العظيم بسبب ذلك وتجاوزوا له عما كان من هفواته ويمكن القول بأن هذه المجالس التي تعقد للنظرة رجاء الوصول إلى الوفاق إنما تقرر الخلاف وتؤكد لاثربله متى اتصل بهذا الخلاف شيء من الرياسة في الدنيا وتاريخ المجامع والمجالس التي كان من شأنها البحث في الأمور الدينية شاهد بذلك

علوم الصناعات

كما كانت للباؤون جولة في العلوم الدينية كانت له جولة في العلوم الصناعية وقد كان أثره في هذه أظهر من أثره في تلك كما يتبين مما يأتي

كانت الأمة العربية أمة أمية لاتعلق بشيء من الصناعات ولا العلوم إلا قليلا كما بيناه في خلاصة تاريخها في الجزء الأول فلما جاءها الاسلام لم يكن لها مجال في العلوم لأنها كانت في دور التكوين وذلك محتاج إلى استعمال ما عندها من القوة والفكر في سبيل ذلك فانقضت مدة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم في الفتح وتأسيس المملكة وتمهيد طريق الدعوة إلى الدين وكانت الحال على ذلك في صدر الدولة الأموية إلا أنه وجد من رجالهم في أوسط أدوارها من عنوا ببعض الصناعات التي كانت فيمن سبقهم من الأمم واهتموا بترجمة كتب منها وأول من عرف اسمه في ذلك خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلا في نفسه ولهمة ومحبة للعلوم خطر بباله الصنعة «الكيميا» فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي وهذا أول نقل كان في الاسلام من لغة إلى لغة. ثم

نقل الديوان وكان باللغة الفارسية إلى العربية في أيام الحجاج نقله صالح بن عبدالرحمن مولى بني تميم كما قدمنا ذلك في تاريخ بني أمية ثم نقل ديوان الشام إلى العربية في زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان سعد مولى حسين وكانت الدولة الأموية أقرب إلى من قبلها في السذاجة الصناعية فلم يكن لترجمة الكتب فيها كبير حظ ولا عظيم أثر. فلما جاءت الدولة العباسية كان اختلاطها بالفرس أكثر لأن دولتهم بالخراسانيين والموالي قامت وهذا الاختلاط جعل نفوس العباسيين تصبو إلى الاطلاع على شيء مما عند الفرس واليونان من آثار متقدمهم من العلماء والحكام والفلاسفة وكان أول من عنى بترجمة شيء من هذه الكتب أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين وكان الذي قام بترجمة الكتب له طيبه جورجس بن جبرائيل الذي كان طبيبا لبيهارستان جنديسابور ثم طلبه المنصور إليه سنة ١٤٨ ليعالجه فحظي عنده حظوة عظيمة وترجم له كتبا كثيرة من اليوناني إلى العربي والبطريق قال في طبقات الأطباء إن المنصور أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة وله نقل كثير جيد إلا أنه دون نقل حنين بن إسحاق وقد وجدت بنقله كتب كثيرة في الطب من كتب أبقراط وجالينوس وترجم له ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية وترجم كتاب السند هند وكتاب المجسطي لبطليموس وكتاب اقليدس في الهندسة وغير ذلك إلا أن العناية لم تبذل كثيرا في الحصول على الكتب المفيدة حتى تترجم وتشغل بها الأمة فلما كان في زمن هرون الرشيد وغلب على بعض المدائن الرومية الكبرى كأنقرة وعمورية عثر على كنز ثمين من كتب اليونان فأمر أن تترجم له فترجمت وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى منها في عهد المنصور وكان للبرامكة يد طولى في الترجمة وعون المترجمين عليها بما كانوا يدرونه عليهم من الأرزاق لما ولي المأمون كان قد تأثر بفكره بما قرأ من هذه الكتب وأحس بنفعها فقوى حركة الترجمة ونشطها تنشيطا أساسه الاقتناع بالفائدة وساعده الجود والبذل في هذا السبيل. حكى ابن النديم في الفهرس أن المأمون رأى في منامه كأن رجلا أبيض اللون مشربا حمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين حسن الشئائل جالس على سريره قال المأمون وكأني بين يديه قد ملئت له هبة فقلت من أنت قال أنا ارسطاليس فسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك قال سل قال ما الحسن

قال ما حسن في العقل قلت ثم ما ذا قال ما حسن في الشرع قلت ثم ماذا قال ما حسن عند الجمهور قلت ثم ما ذا قال ثم لا ثم لا — وفي رواية أخرى قلت زدني قال من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد — قالوا فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب — وإذا صحت هذه الحكاية فهذه الرؤيا أثر لشغف المأمون بارسطاليس وتعاليمه .

كان بين المأمون وملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فنكتب إلى ملك الروم يسأله الاذن في إنفاذ ما عنده من مختار العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج (١) بن مطر وابن (٢) البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا بما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل وقيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم . ولم تكن هذه العناية فاصرة على المأمون وحده بل كان لعهد جماعه ذوو يسار اعتنوا جد العناية بنقل هذه الكتب إلى اللسان العربي ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن بنو شاذكر المنجم بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم لجأؤهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيق والطب . قال أبو سليمان المنطقي السجستاني إن بنى المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قره وغيرهم في الشهر نحو ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة . وقال ابن النديم في موضع آخر هؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وأنفسدوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني فأظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى

(١) قال في طبقات الأطباء الحجاج بن مطر نقل للمأمون ومن نقله كتاب اقليدس ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قره الحراني

(٢) قال في الطبقات يحيى بن البطريق كان في جملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وإنما كان لطينيا يعرف لغة الروم وكتابتها وهي الحروف المتصلة لا اليونانية القديمة

والنجوم وهو الأقل وتوفى محمد بن موسى سنة ٢٥٩ في شهر ربيع الأول . ثم ذكر الكتب التي ألفوها . وقال ابن خلكان ومما اختصوا به في ملة الاسلام وأخرجوه من القوة إلى الفعل وإن كان أرباب الأرض المتقدمون على الاسلام قد فعلوه ولكنه لم ينقل أن أحدا من أهل هذه الملة تصدى له وفعله إلاهم وهو أن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الأرض ٢٤٠٠٠ ميل كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع ٨٠٠٠ فرسخ بحيث لو وضع طرف جبل على أى نقطة كانت من الأرض وأدرنا الجبل على كرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض والتقى طرفا الجبل فاذا مسحنا ذلك الجبل كان طوله ٢٤٠٠٠ ميل فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بنى موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعى فقال أريد أن تعملوا الطريق الذى ذكره المتقدمون حتى تبصر هل يتحرر ذلك أم لا — فسألوا عن الأراضى المتساوية فى أى البلاد هى فقبل لهم صحراء سنجار فى غاية الاستواء وكذلك وطسآ الكوفة فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار وجاءوا إلى الصحراء المذكورة فوقموا فى موضع منها فأخذوا ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات وضربوا فى ذلك الموضع وتداربوا فيه جبالا طويلا ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الامكان فلما فرغ الجبل نصبوا فى الأرض وتداربوا فيه جبالا طويلا ومشوا إلى جهة الشمال أيضا كفعلهم الأول ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة فسحوا ذلك القدر الذى قدره من الأرض بالجبال فبلغ $\frac{2}{3}$ ٦٦ ميلا فعلوا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الأرض $\frac{2}{3}$ ٦٦ ميلا ثم عادوا إلى الموضع الذى ضربوا فيه الورد الأول وشدوا فيه جبالا وتوجهوا إلى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا فى جهة الشمال من نصب الأوتاد وشد الجبال حتى فرغت الجبال التى استعملوها فى جهة الشمال ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالى قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة فصح حسابهم وحققوا ما قصدوا من ذلك — وهذا إذا وقف عليه من له يد فى علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك ومن المعلوم

أن عدد درج الفلك ٣٦٠° لأن الفلك مقسوم باثني عشر برجا برج ٣٠° فتكون الجملة ٣٦٠° فضربوا عدد درج الفلك في $\frac{2}{3}$ ٦٦ ميلا التي هي حصة كل درجة فكانت الجملة ٢٤٠٠٠ وهي ٨٠٠٠ فرسخ (الميل $\frac{2}{3}$ ١٦٦٦ م والفرسخ ٥٠٠٠ م) وهذا محقق لاشك فيه فلما عاد بنوموسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقا لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل طلب تحقيق ذلك في موضع آخر فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعولوا كما فعلوا في سنجار فوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك. ومن كان ينقل لهم حنين بن إسحاق العبادى وكان فاضلا في صناعة الطب فصيحا باللغة اليونانية والسريانية والعربية والفارسية دار البلاد في جمع الكتب القديمة ودخل بلد الروم وأكثر نقوله لبني موسى ونقله في غاية الجودة وكانت وفاته سنة ٢٦٠

وكان هناك كثير غير بني شاكري يحذون حذوهم في ذلك فكثرت الكتب المترجمة في جميع العلوم الصناعية ولما نقلت إلى العربية اشتغل بها الناس كثيرا علما وعملا ففسروا مغلقتها وأصاحوا خللها ووجد منهم فلاسفة عظام ألفوا كتباً عظيمة في هذه العلوم منهم من صميم العرب يعقوب بن إسحاق الكندى ينتهى نسبه إلى الأشعث ابن قيس بن معد يكرب ثم إلى كندة وكان عظيم المنزلة عند المأمون وعند المعتصم وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة جدا في جميع العلوم ونقل في طبقات الأطباء عن سليمان بن حسان أنه كان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحن والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم ولم يكن في الإسلام فيلسوف غيره احتذى في تواليفه حذو أرسطو طاليس وله تواليف كثيرة في فنون العلم وخدم الملوك فباشرهم بالأدب وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص. وقال أبو معشر في كتاب المذكرات لشاذان: حذاق الترجمة في الإسلام أربعة حنين بن إسحاق ويعقوب بن إسحاق الكندى وثابت ابن قرة الحرانى وعمر بن الفرخان الطبرى وقد ذكر فهرس كتبه في نحو خمس صفحات في علوم شتى

ولإنما ذكرنا هذا لتدل على أن الأمة كانت في استعداد تام لتلقى هذه الكتب والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فيها فنفتت بسبب ذلك هذه العلوم واشتغل بها

المتعلمون في بغداد حاضرة الخلافة وفي غيرها من الحواضر ولم يقفهم عن التقدم كلمات العلماء من أهل الحديث التي كانت توجه إليهم أحيانا خفية لمكان الخليفة منهم فقد كان هو المساعد الأكبر في نفاق هذه العلوم

فالمأمون يهد في الحقيقة حامل لواء هذه العلوم وسبب تلك الحركة الكبرى التي وجدت في الآلة الإسلامية مع حفظ الفضل لمن سبقه في ذلك كأبيه الرشيد وجدده المنصور فانهما وضعا الأساس وهو هذا جذوهم إلا انه فاقهم في الاهتمام والعزم

الأحوال الخارجية

لم يكن بين المسلمين والروم حروب في أول عهد المأمون إلى سنة ٢١٥ وفيها شخص المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم في المحرم (مارس سنة ٨٣٠) واستخلف على المدينة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وسلك طريق الموصل حتى صار إلى منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة ومنها خرج إلى طرسوس وهي الثغر الإسلامي ومن طرسوس دخل إلى بلاد الروم في منتصف جمادى الأولى (يولييه سنة ٨٣٠) ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه . ولما تم فتحه اشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا - وكان قبل ذلك افتتح حصنا اسمه ماجدة فن على أهله - ثم أرسل أشناس إلى حصن سندس فأناه برأسه - ووجه عجيفا وجعفر الخياط إلى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع

ويهد ذلك شخص إلى الشام وهناك ورد الخبر عليه بأن ملك الروم قتل قوما من أهل طرسوس والمصيصة عدتهم فيما يقال ٦٦٠٠ فأعاد الكرة على بلاد الروم فنزل على أنطيفو فخرج أهلها على صلح وصار إلى هرقله فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه إسحاق فافتتح ثلاثين حصنا ووجه يحيى بن أكثم من طوانة نأغار وغتم ورجع إلى العسكر - ثم خرج المأمون إلى كيسوم ثم إلى دمشق ومنها خرج إلى مصر في ١٦ الحجة سنة ٢١٦ ثم عاد منها إلى دمشق سنة ٢١٧ فدخل أرض الروم ثالث مرة فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفا فاختدعه أهلها وأسروه فكسك أسيرافي أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجه وسار توفيل إلى لؤلؤة فأحاط بعجيف فصرف المأمون الجنود إليه فارتحل توفيل قبل موافاتهم وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بالأمان

وكتب ملك الروم المأمون في سفرته هذه وأجابه المأمون على كتابه وهذه
نسخه كتابيهما

كتب ملك الروم إلى المأمون : أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حفظهما أولى بهما
في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ولست حرياً أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظاً
تحوزه إلى نفسك وفي عليك كاف عن أخبارك وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى
المسألة راغباً في فضيلة المهادنة لنضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل
واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق
والبيضة فإن أبيت فلا أدب لك في الخمر ولا أزخرف لك في القول فاني لخائض
إليك غمارها آخذ عليك أسدادهما شانت عليك خيلها ورجلها وإن أفعل فبعد أن
قدمت إليك المعذرة وأقت بيني وبينك علم الحجة والسلام

رد المأمون : أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من
الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعظفت به من فسح المتاجر واتصال
المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة
والأخذ بالحظ في قلب الفكرة وأن لا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في إصلاح
ما أوتره في معتقه لجعلت لجواب كتابك خيلاً تحمل من أهل البأس والتجدة والبصيرة
ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ويستقلون في ذات الله ماناهم
من ألم شوكتكم ثم أوصل لهم من الأمداد وأبلغ لهم كافياً من العدة والعادهم أظماً
إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرفتهم عليكم موعدهم إحدى الحسينين
عاجل غلبة أو كريم منقلب غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله
بها عليك الحجة من الدعاء لك ولئن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفة فإن أبيت
فقضية توجب ذمة وتثبت نظرة وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لقوتنا ما يغني عن
الابلاغ في القول والاعتراف في الصفة والسلام على من اتبع الهدى

شخص المأمون إلى الرقة سنة ٢١٨ وفي هذه السنة في جمادى (يونية سنة ٨٣٣) سير
ابنه العباس إلى أرض الروم وأمره بنزول الطوانة وبنائها فابتدأ البناء بناها ميلان في ميل
وجعل سورها على ثلاثة فراسخ وجعل لها أربعة أبواب وبني على كل باب حصناً ثم سار
المأمون بعده إلى بلاد الروم فدخلها من ناحية طرسوس وهناك كانت وفاته كما يأتي

أخلاق المأمون

أول ما ظهر من حلي المأمون ميلاه للعفو وكرامته للانتقام فانه عفا عن جميع من ساعدوا خصومه عليه ولم يجهم بشيء حتى الفضل بن الربيع الذي أخذ قواده وسلاحه وجنوده وجميع ما وصى به أبوه له فذهب به إلى الأمين وتركه يمر مجردا عن كل ذلك ثم أفسد عليه أخاه وأغراه على خلعه وكان أشد عليه من كل شيء ومع هذا لم يؤاخذ به بجرمه ولم يدخل على المأمون وأعلمه المأمون بالعفو سأله الرضا فقال المأمون أجل العفو لا يكون إلا عن رضا وسجد المأمون شكرا لله على أن ألهمه نعمة العفو عنه وقال الحمد لله قديما ما كنت أسلم عليه فأفرح برده فسبحان الذي ألهمني الصبر عنه فلذلك سجدت قال طاهر بن الحسين فمعبت لسعة حلته . وقال زيد بن علي بن الحسين جلس المأمون يوما للغداء وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه إذ انهملت عين المأمون فلما سئل عن سبب بكائه قال ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت به لأحد ولكنني جنس من أجناس الشكر لله لعظمته وذكر نعمته التي أتمها على كما أتمها على أبوتي من قبلي أما ترون ذاك الذي في صحن الدار (يعني الفضل بن الربيع) كان في أيام الرشيد وحاله يراني بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن وكان له عندى كالذى لي عنده ولكنني كنت أداريه خوفا من سعايته وخذرا من أكاذيبه فكنت إذا سلمت عليه فرد على أظل لذلك فرحا وبه مبهتجا وكان صفوه إلى الخلوغ فحمله على أن أغراه بي ودعاه إلى قتلي وحرك الآخر ما يحرك القراية والرحم الماسة فقال أما القتل فلا أقتله ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع وإذا دعا لم يجب فكان أحسن حالاتي عنده أن وجه مع علي بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا في الفضة والحديد ليقيدني به وذهب عنه قول الله تعالى « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله » فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها وأدنى مراتبها (وكان يجلس مع أصحاب الحرس) وهذا الخطيب على رأسه وكان بالأمس يقف على هذا المنبر الذي بازائي مرة وعلى المنبر الغربي مرة فيزعم أني المأمون ولست بالمأمون ثم هو الساعة يقرظني تقرظته المسيح ومحمدا عليهما السلام .

وكان له في العفو لذة لا يعادلها لذة حتى أنه لما ظفر بعمة إبراهيم عفا عنه مع

عظيم جرمه وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمأمون الذي أحس من نفسه بقدرة السلطان فأذهب ذلك عنه الحفيظة ولم يؤثر عنه ما يعيبه إلا ما كان منه بمصر حيث أمر بقتل محاريين نزلوا على حكمه مع ضياع قوتهم واقتناعه بعذرهم وهم أهل البشرد بأسفل مصر كانوا ثاروا على عمالهم بسبب سوء سيرتهم فأرسل إليهم الأفشين فأوقع بهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ولما ذهب إليهم المأمون حكم بقتل رجالهم وبيع نساتهم وأطفالهم وذلك في صفر سنة ٢١٧ وهى حادثة فى غاية الغرابة بالنسبة لما عرف من خلق المأمون الذى اشترى سبى الروم بماله وأطلقهم وأعطى كل واحد دينارا دينارا ومن على غيرهم من السبي

ومن مزايا المأمون أنه كان فى جدله ميالا إلى الاقتناع فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحججة وله فى ذلك مجالس ماثورة مشهورة وله فى الجدل حجج قوية ناصعة مع سعة الصدر والاحتمال لما يدر من حضره فى المناقشة وكان أصحابه ووزراؤه يدلونه على موضع الخطأ مما يريد أن يفعل. أراد مرة أن ينتقص معاوية بن أبى سفيان ويلغنه فقال له يحيى بن أكرم إن العامة لا تتحمل مثل هذا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرة وإن كانت لم تدر ما عاقبتها والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فان ذلك أصلح فى السياسة وأحرى فى التدبير. فاتبع المأمون نصيحته وطوى الكتاب الذى كان قد أنشئ فى هذا المعنى فلم يقرأ على العامة واسكنه بقى فى دفاترهم مسجلا

كان المأمون مع حمله يعلم ما عليه رؤساء جنده ورجال دولته فلم يكن بالمغفل الذى يخدع برياء الناس ونفاقهم وظهورهم بما ليس من خيمهم قال يوما وفى مجلسه جماعة هاتوا فى عسكرنا من يطلب ما عندنا بالرياء فقال كل واحد بما عنده إما أن يقول فى عدو يقدح فيه أو يقول بما يعلم أنه يسر خليفته فلما قالوا ذلك قال ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتى ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء حتى لو كان تد أقام فى رحل كل واحد منهم حولا ما زاد على معرفته فكان بما حفظ عنه إذ قال حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس — تسبيح حميد الطوسي وصلاة قحطبة. وصوم النوشجاني. ووضوء بشر المريسي. وبناء مالك بن شاهي المساجد. وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر. وجمع الحسن بن قريش اليتامى. وقصص منجبا

وصدقة على بن الجنيد . وحملان إسحاق بن إبراهيم في السيل . وصلاة ابن رجاء في الضحى . وجمع على بن هشام القصاص - حتى جمع جماعة كثيرة فقال رجل من عطاء العسكر لآخر بعد أن خرجا من الدار هل رأيت أو سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشد تنقيرا من هذا - فحدث إبراهيم بن المهدي بهذا الحديث رجلا من أصحاب الأخبار والعلم فقال له وما تصنع بهذا قد شهدت رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء يخبر بمعايهم رجلا رجلا حتى لهُوبها أعلم منهم بما في منازلهم

قد مر مرة للظالم فقدم إليه أصحاب الحاجات ففضى ما شاء من حاجاتهم وكان فيهم نصراني من أهل كسكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعدله في طريقه فلما بصر به المأمون أثبتته معرفة فأمر سلما صاحب الخوارج أن يبطحه ويضربه عشرين درة وقال لسلم قل له تعود أصبح بي فقال له سلم ذلك وهو مبطوح فقال الرجل أعود وأعود وأعود حتى تنظر في حاجتي فأبلغه سلم ذلك فقال هذا مظلوم ووطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ثم قال لأبي عباد اقض حاجة هذا كائنه ما كانت الساعة . فلا أدري مم يجب الانسان أمن ملاحظة المأمون وعرفان الرجل لأنه هو الذي صاح به مرة أو مرتين أم من تأميل الرجل فيه بعد أن أمر بضربه أم من رجوع المأمون عن خطئه فيما صنع وأمره بقضاء حاجة الرجل كائنه ما كانت

وكان مع هذه الأخلاق أدبيا يعرف جيد الشعر ورديته ويثيب على ما أعجبه منه ثوابا فوق كل أمل . حدث عمارة بن عقيل قال أنشدت المأمون قصيدة فيها مدح له فيها مائة بيت أو أكثر فما ابتدأت بصدر بيت إلا بادرنى إلى قافيته فقال عمارة والله يا أمير المؤمنين ما سمعها مني أحد قط فقال المأمون هكذا ينبغي أن يكون وقال عمارة قال لي عبدالله بن السمط علمت أن المأمون لا يبصر الشعر فقلت ومن ذا يكون أعلم منه فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره . قال إنني أنشدته بيتا أجدت فيه فلم أره تحرك له - قلت وما الذي أنشدته فقال

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا * بالدين والناس الدنيا مشاغلا

فقلت ما صنعت شيئا وهل زدت على أن جعلته عجوزا في محرابها في يده سبحتها
فن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال جرير
في عبد العزيز بن الوليد

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ۞ ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
ولعلمه بالشعر ومحبه له راجت في زمنه سوقه وكثر الشعراء والأدباء كما كثر
المغنون ونبغوا . وكان المأمون يسمع الغناء ويحب الجيد منه وكان يشرب النبيذ على
رأى أهل العراق

أما كرمه فما سارت به الأمثال فقد أربى على جميع خلفاء بني العباس حتى على
أبيه الذي كان يعطى عطاء من لا يخاف فقرا ولا يخشى إقلالا وحكايات المأمون في
العطاء كثيرة فلانطيل بذكرها إلا أنا نذكر حادثة تدل على مقدار الترف في القوم
وسعة اليد وكثرة البذل

بني المأمون سنة ١٢٠ بيوران بنت الحسن بن سهل في فم الصلح واحتفل أبوها
بأمرها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في مصر من الأمصار وانتهى أمره
إلى أن نثر على أنفاسهم والقواد والسكران والرجوه بنادق مسك فيها رقع بأسماء
ضياح وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل
فتحتها وقرأ ما فيها ثم يمضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها ثم نثر
بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدرهم ونوافج المسك ويض العنبر وأنفق على
المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على
الجنالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن في العسكر من يشتري شيئا
لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوما وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين الف الف
درهم (نحو مليون جنيه) وأمر المأمون له عند انصرافه بعشرة آلاف ألف درهم
وأقطعهم فم الصلح وأطلق له خراج فارس و كور الأهواز مدة سنة . وهذا سرف
عظيم سهل أمره الوارد الكثير

وفاة المأمون

بينما كان المأمون يسلاد الروم في آخر غزواته وهو بالبدندون شمالي طرسوس
أصابته حمى لم تمهله كثيرا وفي ١٨ رجب سنة ٢١٨ أدر كته منيته فحمل إلى طرسوس
ودفن بها وكانت سنه إذ توفي ٤٨ سنة

ولاية العهد

عهد المأمون وهو مريض إلى أخيه أبي اسحاق بن الرشيد ولم يخطئ خطأ من قبله بالعهد إلى اثنين وأوصاه بوصية مأثورة تقدم منها أشياء ومما جاء فيها (واعمل في الخلافة إذا طوفكها الله عمل المرید لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر بالله ومهله فكان قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعية الرعية الرعية العوام العوام فان الملك بهم وتعهدهك المسلمين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ولا ينهن إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ من أقوياتهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم في شيء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عنى والقدوم إلى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت)

٨ - المعتصم

هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور وأمه أم ولد اسمها ماردة ولد سنة ١٧٩ فيننه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان في عهد أخيه المأمون واليا على الشام ومصر وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون ببلاد الروم بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله في ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ أغسطس سنة ٨٢٣) ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة سامرا في ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧ (٤ فبراير سنة ٨٤٢) فكانت خلافته ثمانين سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام

وكان يعاصره في الأندلس عبدالرحمن الثاني بن الحكم بن هشام رابع أمراء بني أمية بالأندلس (٢٠٦ - ٢٣٨)

ويعاصره في المغرب الأقصى من الأدارسة محمد بن إدريس بن إدريس (٢١٣ - ٢٢١) ثم علي بن محمد (٢٢١ - ٢٣٤)

ويعاصره في أفريقية من الأغالبة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٠١ - ٢٢٣) ثم الأغلب بن زيادة الله (٢٢٣ - ٢٢٦) ثم محمد بن الأغلب بن زيادة الله (٢٢٦ - ٢٤٢)

ويعاصره في اليمن محمد بن إبراهيم الزياتي الذي ولاه المأمون (٢٠٣ - ٢٤٥)
 ويعاصره في خراسان الأمير عبد الله بن طاهر الذي ولاه المأمون (٢١٣ - ٢٣٠)
 ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية نوفيل بن ميخائيل (٨٢٩ - ٨٤٢)
 ويعاصره في فرنسا لويز الأول الملقب باللين (٨١٤ - ٨٤٠) ثم شارل الملقب
 بالأصلع (٨٤٠ - ٨٧٧)

الأحوال في عهد المعتصم

بعد أن تمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم عاد بالعسكر قاصدا بغداد بعد أن أمر
 بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانته وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير
 ذلك مما قدر على حمله وأحرق ما لم يقدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون
 أسكنه ذلك من الناس إلى بلادهم . وكان دخول المعتصم بغداد يوم السبت مستهل
 رمضان سنة ٢١٨

وزراء المعتصم

الفضل بن مروان بن ماسرخس . كان رجلا نصرانيا من أهل البردان وكان
 متصلا برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخط ثم صار مع كاتب كان للمعتصم
 قبل أن يستخلف وهذا الكاتب هو يحيى الجرهماني فلما مات يحيى صير الفضل في
 موضعه ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التي بلغها والفضل كاتبه . لما خرج
 المعتصم مع المأمون في غزوته الأخيرة كان الفضل ببغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب
 على لسانه بما أحب فلما بلغه موت المأمون قام بأمر بيعة المعتصم ببغداد وضبط
 الأمور حتى قدم المعتصم ببغداد خليفة فعرف له فضل اجتهاده ونشاطه فسلم إليه أمر
 الخلافة وخلع عليه ورد أموره كلها إليه فغلب عليه بطول خدمته وتربيته واستقل
 بالأمور ولم يزل على ذلك سنتين فلما بدا للمعتصم استبداده بالأمور ثقل عليه . كان
 يدخل على المعتصم فيقول له احمل إلى كذا وكذا من المال فيقول ما عندى فيقول
 فاحتلها من وجهه من الوجوه فيقول ومن أين أحتملها ومن يعطيني هذا القدر من المال
 وعند من أجده فكان ذلك يسوء المعتصم ويعرف في وجهه . وكان للمعتصم رجل

مضحك اسمه إبراهيم الهفتي كان يصحبه قبل الخلافة فيقول له فيما يداعبه والله لأفلحت أبدا فلما ولي المعتصم أمر للهفتي بمال وأمر الفضل أن يعطيه إياه فلم يفعل - فبينا الهفتي يوما عند المعتصم بعدما بنيت له داره التي ببغداد واتخذ له فيها بستان قام المعتصم يمشي في البستان ينظر إليه وإلى ما فيه من أنواع الرياحين والغروس ومعه الهفتي وكان رجلا مربوعا ذا كدنة والمعتصم رجلا معرقا خفيف اللحم فجعل المعتصم يسبق الهفتي في المشي فإذا تقدم ولم يره التفت إليه فقال مالك لا تمشي يستعجله في المشي فلما كثر ذلك من أمر المعتصم قال له الهفتي مداعبا كنت أراني أماشي خليفة ولم أكن أراني أماشي فيجا والله لأفلحت - فضحك المعتصم وقال ويحك وهسل بقي من الفلاح شيء لم أدركه بعد الخلافة فقال الهفتي أتخسب أنك أفلحت الآن إنما لك من الخلافة الاسم والله ما يجاوز أمرك أذنك وإنما الخليفة الفضل بن مروان الذي ينفذ أمره من ساعته فقال المعتصم أي أمرى لا ينفذ فقال الهفتي أمرتلى بكذا وكذا منذ شهرين فما أعطيت مما أمرت به منذ ذاك حبة فاحتجتها المعتصم على الفضل مع ما سبق له معه فأول ما فعله أن جعل عليه زماما في نفقات الخاصة وهو أحمد بن عمار الخراساني وزماما في الخراج وجميع الأعمال وهو نصر بن منصور. ثم زاد الأمر واستفحل فاشتد غضب المعتصم عليه وعلى أهل بيته وأمرهم برفع ما جرى على أيديهم أي تقديم الحساب عما وصل إليهم من المال وعماصرفوه ولما فرغ الحساب أمر بحبس الفضل وأن يحمل إلى منزله ببغداد ثم نفي إلى قرية في طريق الموصل يقال لها السن وبقي كذلك حياة المعتصم قال الصولي في أخبار الوزراء إن المعتصم أخذ من بيته لما نكبه ألف دينار وأخذ اثنا وأنية بألف ألف دينار

كان الفضل قليل المعرفة بالعلم جيد الكتابة ومن المأثور عنه : لا تتعرض لعدوك وهو مقبل فان إقباله يعينه عليك ولا تتعرض له وهو مدبر فان إداره يكفيك أمره واستمرت حياة الفضل بن مروان إلى سنة ٢٥٠

استوزر المعتصم بعد الفضل أحمد بن عمار الخراساني الذي تقدم ذكره فلم يكن فيه كفاية كتابية . ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان في الكتاب ذكر الكلاء فقال المعتصم ما الكلاء فقال لأدرى . فقال المعتصم خليفة أمى ووزير عاى (وكان المعتصم ضعيف الكتابة) ثم قال أبصروا من الباب من

الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فأدخلوه إليه فقال له ما الكلا — فقال الكلا العشب على الاطلاق فان كان رطبا فهو الخلا فاذا يبس فهو الحشيش وشرع في تقسيم أنواع النبات فعرف المعتصم فضله واستوزره

محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات : كان جده أبان رجلا قرويا من الدسكرة يجاب الزيت من موضعه إلى بغداد فعرف محمد بنه . نشأ محمد ببغداد فتعلم وتأدب ونال من ذلك حظا وافرا حتى قيل إن أبا عثمان المازني لما قدم بغداد في أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو فاذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان ابعثوا إلى هذا الفقي الكاتب (يعني ابن الزيات) فاسألوه فاعرفوا جوابه فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذي يراضيه أبو عثمان ويوقمهم عليه . وكان محمد في أول أمره من الكتاب بالديوان فحصلت المسألة التي شرحناها في تاريخ أحمد بن عمار فاستوزره المعتصم فقام بأمر الوزارة خير قيام واستمر وزيرا إلى وفاة المعتصم وخدم الخلفاء بعد ذلك كما يأتي

وكان محمد بن عبد الملك مع علمه وأدبه ومعرفته بخدمة الملوك شاعرا ظريفا عده دعبل بن علي في طبقات الشعراء وذكره أبو عبيد الله هارون بن المنجم في كتابه البارع ومن رقيق شعره قوله في موت أم ابنه ولابنه ثمانى سنوات .

ألا من رأى الطفل المفارق أمه • بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غمير أمه • بيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا في الفراش تحببه • بلابل قلب دائم الخفقان
فهني أطلت الصبر عنها لآتي • جليل فن للصبر بابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسمه • ولا يأتسى بالناس في الحدثان
وقد مدحه الوليد بن عباد الشاعر المعروف بالبحترى بقصيدة مطلعها :

بعض هذا العتاب والتنفيذ • ليس ذم الوفاء بالمحمود
يقول فيها واصفا ما نحه من البلاغة :

لتفنت في الكتابة حتى • عطل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ماشك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا • حك في روثق الربيع الجديد

مشرق في جوانب السمع ما يخلفه عوده على المستعيد
 ما أعيرت منه بطون القراطيس وما حملت ظهور البريد
 مستميل سمع الطروب المعنى • عن أغاني مخارق وعقيد
 حجج تخرس الألد بألفا • ظ فرادى كالجوهر المعقود
 ومعان لو فصلتها القوافي • هجنت شعر جرول وليد
 حزن مستعمل السلام اختيارا • وتجنبن ظلمة التعقيد
 وركبن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد
 كالغذاري غدون في الحلل البيض إذا رحن في الخطوط السود
 قد تلقيت كل يوم جديد • يا أبا جعفر بمجد جديد
 يئس الحاسدون منك وما يجدك مما يرجوه ظن الحسود
 وإذا استطرفت سيادة قوم • بنت بالسود الطريف التليد
 وذوو الفضل يجمعون على فضلك من بين سيد ومسود
 عرف العالمون فضلك بالعلم وقال الجهال بالتقليد
 والذي كان يعاب عليه شدته في معاملة العمال الذين يصادرهم لحياتهم في الأعمال
 وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمني قال الرحمة خور في الطبيعة
 أحمد بن أبي دؤاد الأيادي : كان من المعتصم كيجي بن أكرم من المأمون ولذلك
 سقنا خبره في عداد الوزراء.

أصل بيته فيما يقال من إحدى قرى قنسرين وكان أبوه يتجر إلى الشام أما هو
 فولد بالبصرة سنة ١٦٠ ونشأ بها في طلب العلم وخاصة الفقه والكلام وصحب
 هياج بن العلاء السلمي وكان من أصحاب وأصل بن عطاء الغزالي كبير المعتزلة ومقدمهم
 فمال أحمد من أجل ذلك إلى الاعتزال وكان يحضر ببغداد مجلس القاضي يحيى بن
 أكرم فلما أمره المأمون أن يختار جماعة من الفقهاء يجالسونه ويبحثون معه كان أحمد
 في هؤلاء المختارين فكان المأمون إذا شرع أحمد في الكلام ينظر إليه ويتفهم ما يقول
 ويستحسنه فأمره أن يحضر مجلسه دائما ولا يتأخر عنه وأحبه المأمون جدا وخف
 على قلبه حتى قال لأخيه المعتصم في وصيته (وأبو عبد الله أحمد بن أبي داؤد لا يفارقك
 وأشركه في المشورة في كل أمرك فإنه موضع لذلك منك) فولاه المعتصم قضاء القضاة

واختص به حتى كان لا يفعل فعلاً باطنياً ولا ظاهراً إلا برأيه فكان له في حياة المعتصم مركز لا يدانيه فيه أحد حتى قال أزون بن اسمعيل ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد وكان يسأل الشيء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبي داود فيكلمه في أهله وفي الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب فيجيبه إلى كل ما يريد ولقد كلبه يوماً في مقدار الف الف ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان فقال المعتصم وما على من هذا النهر فقال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر في أمر أذناها ولم يزل يرفق به حتى أطلقها وقال الحسين بن الضحاك الشاعر لبعض المتكلمين ابن أبي دؤاد عندنا لا يعرف اللغة وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه وعند المعتصم يحسن هذا كله كان ابن أبي دؤاد ممن يحبون الخير للناس وله شرف نفس وجمال خلق عربي حتى عرف بالمروءة وكان يحمل في سبيلها ما لا يحمله أحد قال أحمد بن عبد الرحمن الكلبي: ابن أبي دؤاد روح كله من قرنه إلى قدمه. ومن طريف نوادره في المروءة أن الافشين كان يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي للعربية والشجاعة فاحتال عليه حتى شهد عليه بجنابة وقتل فأخذه وأحضر السيف لقتله وبلغ الخبر ابن أبي دؤاد فخاف إذا هو ذهب إلى المعتصم وكله في شأنه أن يكون الكلام بعد فوات الوقت فركب فوراً مع من حضره من العدول ودخل على الافشين وقد جرى بأبي دلف ليقتل فوقف وقال إني رسول أمير المؤمنين إليك وقد أمرك ألا تحدث في القاسم ابن عيسى حدثاً حتى تسلمه إلى ثم التفت إلى العدول وقال اشهدوا أني أدبت إليه الرسالة عن أمير المؤمنين والقاسم حتى معاني فقالوا شهدنا وخرج فلم يقدر الافشين على تنفيذ مراده وذهب ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته فقال له يا أمير المؤمنين قد أدبت عنك رسالة لم تقلها ما أعتد بعمل خيراً منها وإني لأرجو لك الجنة بها ثم أخبره الخبر فصوب المعتصم رأيه ووجه من أحضر القاسم فأطلقه ووصله وعف الافشين على ما كان عزم عليه.

وكان وجود ابن أبي دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه لأنه شجاع شديد عجول فكان إذا أسرع إليه الغضب هدأ ابن أبي دؤاد من حدته وأراه وجه الأناة والعفو فلا يسعه إلا أن يسير في سبيلهما وكان له عليه من الدالة وعلو المركز ما يستعين

به على تنفيذ غرضه — غضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وأشخصه من ولايته لعجز لحقه في مال طلب منه مجلس المعتصم لعقوبته وكان خالد قد طرح نفسه على ابن أبي دؤاد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم فلما جلس المعتصم حضر أحمد وهو قاضي القضاة جلس دون مجلسه المعتاد فقال له المعتصم يا أبا عبد الله جلست في غير مجلسك فقال ما ينبغي لي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا فقال له وكيف قال لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع — فقال المعتصم ارجع إلى مجلسك قال مشفعا أو غير مشفع قال بل مشفعا فارتفع إلى مجلسه ثم قال إن الناس ما يعبدون رضاء أمير المؤمنين إن لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه فقال يا أمير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلوة فقال قد أمرت له بها فخرج خالد وعليه الخلع وبين يديه المال وإن الناس ينتظرون الايقاع به فصاح به رجل الحمد لله على خلاصك ياسيد العرب فقال له اسكت سيد العرب والله أحمد بن أبي دؤاد . وكان في ابن أبي دؤاد عصية عرية ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئا من مقامهم في عهد المعتصم الذي جعل القوة كلها لعلبان الأتراك الذين استكثر منهم ومن قوادهم

وكان ابن أبي دؤاد مع ذلك شاعرا أدبيا مجيدا فصيحاً بليغاً ذكره دعبل في طبقات الشعراء ومن مآثور قوله ثلاثة ينبغي أن يبجلوا وتعرف أقدارهم العلماء وولاية العدل والاخوان فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ومن استخف بالولاة أهلك ديناه ومن استخف بالاخوان أهلك مروءته ولأبي تمام فيه مدائح جليلة منها قصيدته التي مطلعها سقى عهد الحمى سبيل العهاد ◊ وروض حاضر منه وباد

يقول فيها :

لقد أفنت مساوى كل دهر ◊ محاسن أحمد بن أبي دؤاد
متى تحلل به تحلل جنابا ◊ رضيعا للسوارى والغوادى
ترشح نعمة الأيام فيه ◊ وتقسم منه أرزاق العباد
وما اشتبهت طريق المجد إلا ◊ هداك لقبلة المعروف هاد
وما سافرت في الآفاق إلا ◊ ومن جدواك راحاتى وزادى
مقيم الظن عندك والأمانى ◊ وإن قلقت ركابي في البلاد

معاد البعث معروف ولكن ه ندى كفيك في الدنيا معادى

العلويون في عهد المعتصم

لأول عهده توفي محمد الجواد بن علي الرضا تاسع أئمة الشيعة الامامية الاثني عشرية وكانت وفاته سنة ٢٢٠ وسنه ٢٥ سنة وكانت تحته أم الفضل بنت المأمون فحملت إلى قصر عمها المعتصم فتولى الامامية بعده ابنه أبو الحسن علي الهادي وكانت سنه حين مات أبوه سبع سنين

وخرج علي المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين ابن علي . كان مقبياً بالكوفة ثم خرج منها إلى الطالقان من خراسان يدعو إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم فاجتمع إليه بها ناس كثير فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر أمير خراسان وبعث له البعوث فكان بين الفريقين وقعات بناحية الطالقان وجبالها فهزم هو وأصحابه بفرج هاربا يريد بعض كور خراسان كان أهله كاتبوه فلما وصل إلى نسا دل عليه فأخذه عاملها واستوثق منه وبعث به إلى عبد الله بن طاهر فأرسل به إلى المعتصم فحبس بسامرا سنة ٢١٩ فأقام فيه حتى كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة احتال للخروج بواسطة رجال من شيعته فهرب ولم يعرف له خبر وقد انقاد إلى إمامته كثيرون من الزيدية ومنهم خلق كثير يزعمون أنه لم يموت وأنه حي يرزق وأنه يخرج فيملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وأنه مهدي هذه الأمة وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وبقي ذلك الاعتقاد حتى سنة ٢٣٢ كما قال المسعودي في مروج الذهب

الجيش

قدما ما كان في عهد المأمون من كثرة العناصر الغربية عن الأمة العربية في جيش الدولة العباسية وذلك أمر قضت به الأحوال لذلك العهد كما شرحنا ذلك فلما جاء المعتصم أربى على أسلافه في ذلك فقد كان يغلب عليه من أخلاق الرجال الشجاعة والميل إلى الشجعان : رأى أن من يبغداد من جنود الأبناء لا يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء ورأى مالاً تراك من شدة البأس والنجدة فأراد أن يكون منهم جيشاً يستعز به على هؤلاء الأبناء ويرغم أنوفهم فاستكثر من غلمان

الأتراك وأحضر منهم عددا عظيما فوق ما كان منهم في عهد أخيه المأمون وأسكنهم بغداد واستغنى عن جيوش العرب بكرة وأسقطهم كافة من الدواوين بحيث لم يبق مرتزق لعهد إلا من كان من الأتراك أو الأبناء لأنه اصطنع قوما من خوف مصر ومن خوف اليمن وحوف قيس وسمام المغاربة وآتى بكثير من الفراغنة أهل فرغانة والاشروسنية أهل اشروسنة فكثرت جيشه وكان هؤلاء القوم عجا جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة والصبى فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فرمى هلك من الجراح بعضهم فشكا الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت به العامة فرأى المعتصم أن بقاء هؤلاء الأتراك في وسط بغداد وبجانب جنود الأبناء خطر عليهم فكان ذلك سببا لتفكيره في اختطاط حاضرة جديدة له وهذا الجيش الجديد الذى أعجب به فاخترت سامرا وكان المعتصم يلبس هذه الجنود أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبائهم بالزى عن سائر جنوده واشتهر منهم قواد اصطنعهم المعتصم ورفع من أقدارهم وجعل يدهم مستقبل الخلافة الاسلامية وسند كر بعضهم

(١) الافشين حيدر بن كاوس وهو تركى من أشروسنة « كورة من بلاد ماوراء النهر شرقها فرغانة وغربها سمرقند وشماليها الشاش وبعض فرغانة وجنوبها بعض حدود كش والصغانيان وغيرهما ومدينتها التى يسكنها الولاية بنجكش »

كان حيدر فى حاشية المعتصم فى حياة المأمون وأصله من أبناء ملوك أشروسنة الذين يلقب الواحد منهم بالافشين ولما رأى شجاعته وشهامته استعان به فيما ولى من الأعمال وكان المعتصم واليا على مصر والشام فأرسله نيابة عنه لازالة الاضطراب فى برقة ومصر فنجح فىهما . ولما استخاف المعتصم كان الافشين فى مقدمة قواده فعين سنة ٢٢٠ لحرب بابك كما تقدم ذكره فظهرت على يديه عظام الأعمال وإحكام سير الجيوش حتى ظفر بخصمه مع مناعة موقعه . ولما أمره المعتصم بالعود إلى سامرا كان يوجه إليه كل يوم من حين فصل من برزند إلى أن وافى سامرا فرسا وخلعة . ولما حضر توجهه وألبسه وشاحين بالجواهر ووصله بعشرين ألف درهم منها عشرة آلاف صلة وعشرة آلاف يفرقها فى أهل عسكره وعقد له على السند . ولما غزا المعتصم عمورية كان قائداً لاحدى الفرق الثلاث التى دخلت

بلاد الروم وهو الذي تولى حرب توفيل ملك الروم وهزم جنده . كل ذلك الاعظام والاجلال جعل الافشين يمتنى نفسه بالملك والاستقلال في بلاده أشروسنة يوماً ما وأول ما عرف ذلك منه أنه كان وهو يحارب بابك لا يأتيه هدية ولا مال إلا وجه به إلى أشروسنة فيجتاز ذلك بعبد الله بن طاهر أمير خراسان فيكتب إلى المعتصم يخبره فيكتب المعتصم إلى ابن طاهر يأمره بتعريف جميع ما يوجه الافشين من الهدايا إلى أشروسنة فيفعل ذلك عبد الله . كان الافشين كلما تهيأ عنده مال حمله أوساط أصحابه بقدر طاقتهم فكان الرجل يحمل من الألف فما فوقه من الدنانير في وسطه فأخبر عبد الله بذلك . فيينا هو في يوم من الأيام وقد نزلت رسل الافشين نيسابور معهم الهدايا وجه إليهم ابن طاهر وأخذهم ففتشهم فوجد في أوساطهم همابين فأخذها منهم وقال لهم من أين لكم هذا المال فقالوا هذه هدايا الافشين وأمواله فقال كذبتم لو أراد الافشين أخى أن يرسل بهذه الاموال لكتب إلى يعلنى به لا بذرقه « أحرصه » لأن هذا مال عظيم وأنتم لصوص فأخذ عبد الله المال وأعطاه جنده وكتب إلى الافشين يذكر له ما قال القوم وقال أنا أنكر أن تكون وجهت بهذا المال إلى أشروسنة ولم تكتب إلى يعلنى لا بذرقه فان كان هذا المال ليس لك فقد أعطيته الجند مكان المال الذى يوجه إلى أمير المؤمنين فى كل سنة وان كان المال لك كما زعم القوم فاذا جاء المال من قبل أمير المؤمنين رددته إليك وان يكن غير ذلك فأمر المؤمنين أحق بهذا المال وانما دفعته الى الجند لأنى أريد أن أوجههم إلى بلاد الترك . فكتب اليه يعلمه أن ماله ومال أمير المؤمنين واحد ويسأله اطلاق القوم ففعل ذلك ابن طاهر .

رأى الافشين أنه لا يتم له أمر مادام ابن طاهر بخراسان فانتظر الفرص ليحمل المعتصم على عزله وتوليته مكانه وحيث يتسع له المجال . كان ببلاد طبرستان دهقان من أبناء ملوكها اسمه مازيار بن قارن بن ونداهرمز وكان منافراً لآل طاهر لا يحمل إليهم الخراج ويحمه إلى المعتصم فكان إذا وصل المال همدان يأمر المعتصم رجلاً من قبله فيستوفيه ثم يسلمه إلى صاحب عبد الله بن طاهر ليرده إلى خراسان فكانت هذه الحال بينهما حتى زادت المنافرة وبلغت حدتها الأقصى فأراد الافشين انتهاز هذه الفرصة فكتب إلى مازيار يقويه على خلاف ابن طاهر ويخبره أن

المتعمم وعده إمارة خراسان وأراد الافشين بذلك أن يخالف ما زيار فيولى المتعمم الافشين حربه ويكون له مع ذلك ولاية خراسان . دعا ذلك ما زيار إلى إظهار الخلاف وشق عصا الطاعة ومنع الخراج وتحصن بجمال طبرستان . بلغ ذلك عبد الله ابن طاهر فوجه إليه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب وضم إليه جيشا كثيفا يحفظ جرجان ووجه المتعمم من قبله محمد بن إبراهيم بن مصعب في جمع كثيف وضم إليه الحسن بن قارن الطبرى القائد ومن كان بالباب من الطبرية ووجه منصور بن الحسن صاحب دناوند إلى مدينة الري ليدخل طبرستان من ناحية الري - ولم ينتدب الافشين لشيء مما كان ظن وقد أحاطت هذه الجنود بطبرستان من كل جانب وهزمت جنود ما زيار - فرأى أن يستأمن إلى الحسن بن الحسين فاستأمن إليه هو وأخوه قوهيار فأمر عبد الله بن طاهر بتسليم ما زيار وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم فحملهم إلى المتعمم بسامرا

تحقق المتعمم من كل ما بلغه عن الافشين واطلع على الكتب التي كان أرسلها أخو الافشين إلى ما زيار وعلم الافشين ذلك فعزم على الحرب وصار يدبر التدابير الشنيعة للفتك بالمسلمين وقد وصل شيء من علم ذلك إلى قائد من القواد الأشروسنية فأخبر به المتعمم فأمر بحضور الافشين ولما حضر أخذ سواره وحبسه ثم أحضره في مجلس عام لتبكيته ومناظرته وكان الذى تولى ذلك الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فثبت من التحقيق أن الرجل لا يزال على كفره وأنه كان يكيد المكائد للوصول إلى ملك بلاده وأن أهل أشروسنة كانوا يخاطبونه باله الآلهة ثم ثبت أنه كان يكتب المازيار وشهد المازيار أن أخاه غاش كتب إلى قوهيار أخى ما زيار (إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيرى وغيرك وغير بابك فأما بابك فانه بحمقه قتل نفسه ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن دللاه فيما وقع فيه فان خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيرى ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس فان وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة المغاربة والعرب والأتراك والعربى بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (يعنى المغاربة) إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (يعنى الأتراك) فانما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه (أيام العجم) - ولما تبين

أمره قال القاضي أحمد بن أبي دؤاد قد وضع لكم أمره فعليك به يا بغا فأعيد إلى محبسه حتى مات وبعد موته أخرج وصلب على باب العامة حتى يراه الناس ثم أحرق مع خشبته

(٢) إيتاخ: كان غلاما خزريا لسلام الأبرش طباحا فاشتراه منه المعتصم سنة ١٩٩ وكان لا يتاخ رجلة وبأس فرفعه المعتصم وولاه بعد الخلافة معونة سامرا مع إسحاق ابن إبراهيم وكان من قبله رجل ومن قبل إسحاق رجل وكان من أراد المعتصم قتله فعند إيتاخ يقتل ويده يحبر، وولاه المعتصم قيادة إحدى الفرق الثلاث التي دخلت بلاد الروم إلى عمورية وقد استمر إيتاخ على منصبه وزعامته مدة الواصل وقتل لأول عهد المتوكل سنة ٢٣٥. ففي سنة ١٩٩ اشترى بالمال وفي عهد الواصل كانت المملكة في يده فكان إليه الجيش والمغاربة والأترك والبريد والحجابة ودار الخلافة — وما النى بقى بعد هذا

(٣) أشناس: غلام تركي اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان في غزوة عمورية على مقدمة الجيش واستخلفه مرة على سامرا حينما خرج منها وزاده رفعة سنة ٢٢٥ بأن أجلسه على كرسي وتوجه ووشحه كما فعل بالافشين وزوجه ابنته أترنجة للحسن بن الافشين وأحضر عرسه عامة أهل سامرا وكان يباشر بنفسه تفقد من حضر. وكانت تلك منزلته عند الواصل حتى أنه في سنة ٢٢٨ توجه وألبسه وشاحين بالجواهر ولم يزل في عظمته حتى توفي سنة ٢٣٠

وغير هؤلاء كان من القواد عجيف بن عنبة ووصيف وبغا الكبير أبو موسى وغيرهم كل هؤلاء قواد من الأتراك اختارهم المعتصم لشجاعتهم وسلهم زمام ملك آباته وأنزل العرب عما كان لهم من قيادة الجيوش وأسقط أسماءهم من الدواوين واعتز بهؤلاء المجلوبين فجعل بذلك بنه تحت سلطان هؤلاء الغلف القلوب يتصرفون فيهم كما يشاؤون. ومع اغترار المعتصم بهؤلاء القواد كان يحس بما وقع فيه من الخطأ باختيارهم ولا سيما أنه ليس لا أكثرهم نسب معروف فقد حدث إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له يا إسحاق في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشييه لك — نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم اصطنع المأمون طاهر بن الحسين

فقد رأيت وسمعت وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذى لم ير مثله وأنت فأنت والله الذى لا يعتاض منك السلطان أ. وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد وأما أنا فاصطنعت الافشين فقد رأيت إلى ماصار إليه أمره وأشناس ففشل أیه وإبتاخ فلا شىء ووصيف فلا معنى فيه — فقال إسحاق جعلنى الله فمدك أجيب على أمان من غضبك قال قل — قلت يا أمير المؤمنين أعزك الله نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب إذ لا أصول لها — فقال بإسحاق لمقاساة مامربى فى طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب

المعتصم وحده يتحمل أ أكثر تبعة ماحل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالامة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها . لم يكن الرجل بعيد النظر فى العواقب وإنما كان شجاعا جسورا يحب الشجعان ويعتز بهم مهما كان شأنهم سواء كانت لهم احساب يحترمونها أم ليست لهم احساب وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبماؤها أم لا وهذا خطأ عظيم يحط بقدر الدول وينزلها من عظمتها

ومن النتائج التى سببها غطرسة هؤلاء الجنود الغرباء وعدم احترامهم لحقوق الامة ثورة أبى حرب المبرقع اليماني بفلسطين . وذلك أن بعض الجند أراد النزول فى داره وهو غائب عنها وذلك أمر لم يكن معروفا فى الدولة العربية قبل ذلك وكان فى الدار إما زوجة أبى حرب وإما أخته فمانعته من ذلك فضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر فيها فلما رجع أبو حرب إلى منزله شكك إليه ما فعل بها وأرته الأثر فاشتمل سيفه ومشى إلى الجندى وهو غار فقتله ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كيلا يعرف فصار إلى جبل من جبال الاردن فطلبه السلطان فلم يعرف له خبر وكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذى أوى إليه متبرقعا فيراه الرائي فيأتيه فيذكره ويحرضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتى إلى الناس ويعيبه فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حراني أهل تلك الناحية وأهل القرى فلما كثرت غاشيته من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية منهم رجل يقال له ابن بهس كان مطاعا فى أهل اليمن فاتصل خبيره بالمعتصم فبعث

إليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف رجل من الجند فلما صار إليه وجدته في عالم من الناس زهاء مائة ألف فترث رجاء حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحراتهم وانصرف من كان معه من الحرائين إلى الحرائة وأرباب الأرضين إلى أرضهم وبقى أبو حرب في زهاء ألف أو ألفين فاجزه رجاء وأسره وجل من معه ثم صار به إلى المعتصم أسيرا

الخراج

كما يمتاز عصر المأمون بالثبوت الذي نقله العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة يمتاز عصر المعتصم بالثبوت الذي أورده قدامة بن جعفر في كتاب الخراج له عن مقدار الجباية في عهد المعتصم ونحن نورد خلاصته

مقدار الجباية بالدرهم أو الدينار

الجهة	مقدار الجباية بالدرهم أو الدينار
سواد العراق	٦٥٠ ٤٥٧ ١١٤ درهم
الاهواز	٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠
فارس	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠
كرمان	٦ ٠٠٠ ٠٠٠
مكران	١ ٠٠٠ ٠٠٠
اصهان	١٠ ٥٠٠ ٠٠٠
سجستان	١ ٠٠٠ ٠٠٠
خراسان	٣٧ ٠٠٠ ٠٠٠
حلوان	٩ ٠٠٠ ٠٠٠
الماهين	٩ ٨٠٠ ٠٠٠
همدان	١ ٧٠٠ ٠٠٠
ماسبدان	١ ٢٠٠ ٠٠٠
مهران قنق	١ ١٠٠ ٠٠٠
الايغارين	٣ ١٠٠ ٠٠٠

٢٤٢ ٨٥٧ ٦٥٠

٢٤٢	٨٥٧	٦٥٠	ماقبله
٣	٠٠٠	٠٠٠	قم وقاشان
٤	٥٠٠	٠٠٠	أذربيجان
٢٠	٠٨٠	٠٠٠	الرى ودنباوند
١	٨٢٨	٠٠٠	قزوين وزنجان وأبهر
١	١٥٠	٠٠٠	قومس
٤	٠٠٠	٠٠٠	جرجان
٤	٢٨٠	٧٠٠	طبرستان
	٩٠٠	٠٠٠	تكرت والطيردان
٢	٧٥٠	٠٠٠	شهرزور والصامغان
٦	٣٠٠	٠٠٠	الموصل وما اليها
٣	٢٠٠	٠٠٠	قردى وبازبدي
٩	٦٣٥	٠٠٠	ديار ربيعة
٤	٢٠٠	٠٠٠	ارزن وميفارقين
	١٠٠	٠٠٠	طرون
٢	٠٠٠	٠٠٠	آمد
	٦٠٠	٠٠٠	ديار مصر
٢	٩٠٠	٠٠٠	أعمال طريق الفرات
٣١٤	٢٨١	٣٥٠	المجموع
دينار	٣٦٠	٠٠٠	قنسرين والعواصم
»	٢١٨	٠٠٠	جند حمص
»	١١٠	٠٠٠	جند دمشق
»	١٠٩	٠٠٠	جند الأردن
دينار	٢٩٥	٠٠٠	جند فلسطين
»	٢	٥٠٠	٠٠٠
	٣	٥٩٢	٠٠٠
			مصر والاسكندرية

ماقبله	٣ ٥٩٢ ٠٠٠
الحرمين	دينار ١٠٠ ٠٠٠
اليمن	» ٦٠٠ ٠٠٠
اليمامة والبحرين	» ٥١٠ ٠٠٠
عمان	» ٣٠٠ ٠٠٠
	<hr/>
	٥ ١٠٢ ٠٠٠

وذلك قريب مما كان في حياة المأمون لأن الأحوال لم تتغير تغيرا يذكر

العلاقات الخارجية

قدمنا أن الذي كان يعاصر المعتصم من ملوك الروم توفيل بن ميخائيل وكان ينتهز الفرص الملائمة لينتقم من المسلمين الذين دوخوه وألزموه أن يدفع الفدية قهرا فحدث أنه لما كان الافشين يحارب بابك وقد ضيق عليه أن كتب بابك إلى ملك الروم يقول إن ملك العرب قد وجه معظم عساكره إلى ولم يبق على بابه أحد فان أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك وكان يطمع أن ملك الروم إذا تحرك ينكشف عنه بعض ما هو فيه فلم يلبث توفيل أن خرج في مائة ألف مقاتل حتى أتى زبطرة ومعه جمع من المحمرة الذين أجلاهم إسحاق بن إبراهيم عن الجبال كما ذكرنا ذلك في حروب البابكية فلما دخل زبطرة قتل من فيها من الرجال وسبي النساء والذرية وأحرق المدينة ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصون من حصون المسلمين وسبي من المسلمات فيما قيل أكثر من ألف امرأة ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم . بلغت تلك الأخبار المعتصم بسامرا فاشتد عليه وصاح في قصره النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالا وسكة حديد وحقية فلم يستقم له الخروج إلا بعد التعبته ولكنه أرسل مقدمته لتكون مددا لأهل زبطرة فلما شارقتها وجدت ملك الروم قد رحل عنها فوقفوا قليلا حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا

فلما انتهى أمر بابك سأل المعتصم أي بلاد الروم أمنع وأحصن فقبل عمورية

وهي مسقط رأس توفيل كما أن زبطرة مسقط رأس المعتصم ولم تكن غزيت قبل ذلك فتجهز المعتصم جهازا لم يتجهزه خليفة قبله من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفظ وكانت التعبئة هكذا — على المقدمة أشناس وبتلوه محمد بن إبراهيم المصعبى وعلى الميمنة إيتاخ وعلى الميسرة جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط وأمر الأفشين أن يمضى فيدخل بلاد الروم من درب الحدث وسمى له يوما أمره أن يكون وصوله فيه إلى أنقرة وقدّر هذا اليوم بنفسه لاشناس الذى أمره أن يكون دخوله من درب طرسوس. ولما وصل أشناس إلى مرج الاسقف ورد عليه كتاب من المعتصم بأمره بالتوقف لأنه بلغه عن ملك الروم أنه على نهر اللامس ويريد العبور ليكبس أشناس وجنده فأقام بالمرج ثلاثة أيام ثم علم بواسطة الجواسيس أن ملك الروم ارتحل عن نهر اللامس يريد مقابلة الأفشين فأرسل بخبر ذلك إلى المعتصم فبعث الادلاء مسرعين يخبرون الأفشين بذلك وأمره أن يقف مكانه حذرا من مواقعة ملك الروم له قبل أن تجتمع الجيوش فلم تصل هذه الادلاء إلى الأفشين فتم على مسيره حتى التقى بملك الروم فكانت بينهما موقعة هائلة كانت على الأانشين أول النهار ثم أعاد الكرة في الفرسان فغلب ملك الروم وهزمه هزيمة منكرة وتفرقت عنه الجنود. أما عسكر أشناس والمعتصم فانهما وردا أنقرة من غير أن يلقيا حربا لتفرق الجنود التي كان الملك قد جمعها لمحاربة المعتصم ثم ورد الأفشين بعد مقدمهما يوم أنقرة

وحيثُ قدّم المعتصم الجيش ثلاثة أقسام قسم فيه أشناس في الميسرة وقسم فيه المعتصم وهو القلب وقسم فيه الأفشين وهو الميسرة وبين كل قسم فرسخان فسارت هذه الأقسام على تعبئة وسارت هذه الأقسام حتى بلغت عمورية وبينها وبين أنقرة سبع مراحل كان أول من وردها أشناس فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها وجاء بعده المعتصم فدار حولها دورة ثم جاء الأفشين فكذلك تحصن أهل عمورية وتحرزوا فحصرهم الجيش المعتصمى وكان لكل واحد من القواد أبراج على قدر أصحابه قلة وكثرة ونصبت المجانيق فضربت بها الأسوار لانتلافها حتى سقط منها جانب في ناحية المعتصم بعد معاناة شديدة وأعمال جسام ثم حصل القتال في ناحية هذه الثلة بعد أن ردمت الخنادق ولم يزل القتال مستمرا حتى اقتحم المسلمون عمورية عنوة

وغنموا منها مغانم كثيرة . وانتقم المعتصم من الروم بما فعلوه في زبطرة وملطية .
وبعد انتهاء الواقعة عاد المعتصم إلى طرسوس وكانت إناخته على عمورية في ٦ رمضان
سنة ٢٢٣ وقفل عنها بعد ٥٥ يوماً

ومن غريب الأمور وأكبر الجرائم أن العباس بن المأمون اتفق مع بعض قواد
المعتصم من الأتراك على أن يقتلوا المعتصم ويقيموه خليفة مقامه : تأمروا على ذلك
وهم في وجه العدو والعهد قريب باصطناع المعتصم لهم وإغداق النعم عليهم فلم يتم لهم
غرض واطلع المعتصم على سر مؤامرتهم فأخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحبس
العباس حتى مات من شدة الأذى وكان الذي تولى كبر ذلك عجيف بن عنبسة
ولما ورد المعتصم سامرا كان دخوله إليها يوماً مشهوداً وامتحده أبو تمام حبيب
ابن أوس بقصيدته المشهورة التي أولها

السيف أصدق أنباء من الكتب * في حده الحد بين الجسد واللعب
يقول فيها

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به * نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له * وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت * عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جدبني الاسلام في سعد * والمشركين ودار الشرك في صعب
أم لهم لورجوا أن تفتدى جعلوا * فداءها كل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها * كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد * شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
بكر فما افترعها كف حادثة * ولا ترقن إليها هممة النوب
حتى إذا مخض الله السنين لها * مخض الحليمة كانت زبدة الحقب
أتهم الكربة السوداء سادرة * منها وكان اسمها فراجة الكرب
جرى لها الفال نحسا يوم أنقرة * إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأته أختها بالأمس قد خربت * كان الخراب لها أعدى من الجرب
كم بين حيطانها من فارس بطل * قاني النوائب من آني دم سرب
بسنة السيف والخطى من دمه * لاسنة الدين والاسلام محتضب

لقد تركت أمير المؤمنين بها * للنار يوما ذليل الصخر والخشب
 غادرت فيها بهم الليل وهو ضحى * يقله وسطها صبح من الذهب
 حتى كأن جلايب الضحى رغبت * عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
 ضوء من النار والظلماء عاكفة * وظلمة من دخان في ضحى شحب
 فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت * والشمس واجبة في ذا ولم تجب
 تصرح الدهر تصرح الغمام لها * عن يوم هيجاء منها طاهر جنب
 ويقول في ختامها :

خليفة الله جازى الله سميك عن * جرثومة الدين والاسلام والحسب
 بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها * تنال إلا على جسر من التعب
 إن كان بين صروف الدهر من رحم * موصولة أو ذمام غير مقتضب
 فبين أيامك اللاتي نصرت بها * وبين أيام بدر أقرب النسب
 أبتت بنى الأصفر المصعركاسمهم * صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

صفات المعتصم

كانت أظهر صفات المعتصم الشجاعة والاقدام وشدة البأس وكان يحب العمارة
 ويقول إن فيها أموراً محمودة فأولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم وعليها يزكو
 الخراج وتكثر الأموال وتعيش البهائم وترخص الأسعار ويكثر الكسب ويتسع
 المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه
 عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهما فلا توامرنى فيه . ولم يكن للمعتصم نفوذ
 في العلم كأخيه المأمون ولا كأبيه الرشيد وإنما كان همه الجيش وتحسينه .

ومن آثاره اختطاط مدينة سامرا وهانحن أولاء نقص شيئاً من أمرها :

لما ضاقت بغداد عن عسكر المعتصم من الأتراك قال لأحد كتابه إنى أتخوف أن
 يصبح هؤلاء الحرية صيحة فيقتلوا غلباني فإذا ابتعت لى موضع سامرا كنت فوقهم
 فان رابن رائب أتيهم فى البر والبحر حتى آتى عليهم فقصد كاتبه موضع سامرا وهو
 على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخاً (١٥٠ كيلومتراً) فابتاع ديرا كان هناك بخمسة
 آلاف درهم وابتاع بستانا كان فى جانبه بمثل ذلك ولما تم أمر البيع خرج المعتصم

في آخر سنة ٢٢٠ حتى نزل القاطول وهو نهر عند سامرا كان احتفاره الرشيد وبنى عليه قصرا فنزل المعتصم هناك وبدأ بالبناء سنة ٢٢١ فبنى دارا له وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره وبنى بهامسجدا جامعاً في طرف الأسواق وأنزل أشناس بمن ضم إليه من القواد كرخ سامرا وهو كرخ فيروز. وما زال البنيان يتسع حتى صارت مدينة من أعظم الحواضر الإسلامية وكادت تضارع بغداد وأعظم اتساع وحضارة لها كان في عهد المتوكل بن المعتصم وسيدكر ذلك بعد

وفاة المعتصم

احتجم المعتصم في أول يوم من المحرم سنة ٢٢٧ فأصيب عقب ذلك بعلته التي قضت عليه يوم الخميس ثمانى ليال مضت من شهر ربيع الأول من تلك السنة وراثاه محمد بن عبد الملك الزيات فقال

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت • عليك أيد بالتراب والطين
أذهب فنعم الحفيظ كنت على الد • نيا ونعم الظهير للدين
لا جبر الله أمة فقدت • مثلك إلا بمثل هارون

ولاية العهد

ولى المعتصم عهده ابنه هرون ولم يجعل معه في الولاية غيره

٩ - الواثق

هو أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ولد سنة ١٨٦ بطريق مكة وبوبع بالخلافة عقب وفاة والده في يوم الخميس ٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧ (٥ يناير سنة ٨٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن توفي لست بقين من ذى الحجة سنة ٢٣٢ (١١ أغسطس سنة ٨٤٧) فكانت مدته خمس سنين وتسعة أشهر و١٥ يوماً وسنه ٣٦ سنة

ويعاصره من الملوك والأمراء المستقلين من كان يعاصر أباه إلا في مملكة الروم بالقسطنطينية فان ترفيل مات في السنة التي توفي فيها المعتصم وخلفه ابنه ميخائيل

الثالث الملقب بالسكير وكان إذ ذاك صديقا فكانت أمه تدور في تقوم مقامه وفي خراسان حيث توفي عبد الله بن طاهر سنة ٢٣٠ وولى بعده ابنه طاهر بن عبد الله

وزراء الواثق

لم يستوزر الواثق غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه وكان الواثق متغيرا عليه في حياة أبيه حتى حلف أنه لينكبه إذا صار خليفة لكنه لما استخلف غلب عقله على هواه لأنه لم يجد بين رجاله من يقوم مقام محمد بن عبد الملك فكفر عن يمينه وصار هذا الوزير في عهده صاحب الأمر والنهي أكثر مما كان في عهد أبيه .

الجيش

كانت حال الجيش لعهد الواثق كما كانت في حياة أبيه إلا أن قدم الممالك التي اصطنعهم المعتصم قد توطدت وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم ولا سيما أشناس الذي توجه الواثق وألبسه وشاحين بالجواهر في شهر رمضان سنة ٢٢٨ وقد قام قواد الأتراك بأعظم الأعمال الحربية حتى في جزيرة العرب نفسها التي كانت حتى ما استطاع أن تتعدى حدوده وهنا نسوق أسباب الاضطراب الذي كان هناك وكيف أزيل

كان بنو سليم من قيس عيلان من أقوى القبائل العربية وأكثرها عدا وكانوا ينزلون بالقرب من المدينة بالحرة المعروفة بهم وهي حرة بنو سليم فاجتروا بالتطاول على الناس حول المدينة بالشر وكانوا إذا وردوا سوقا من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاؤوا ثم ترقى بهم الأمر إلى أن أوقعوا بالجاريناس من كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ وكان رئيسهم عزيزة بن قطاب السلمي فوجه اليهم أمير المدينة محمد بن صالح بن العباس حماد بن جرير الطبري وكان الواثق أرسله مسلحة للمدينة في ٢٠٠ من الشاكرية لئلا يتطرقها الأعراب فوجه اليهم حماد وقتلهم بالروثة على ثلاث مراحل من المدينة وكانت الهزيمة على جند حماد بعد أن قتل وحازت بنو سليم الكراع والسلاح والثياب وغلظ أمرهم فاستباحوا القرى والمناهل فيما بينها وبين مكة والمدينة حتى لم يمكن أحدا أن يسلك تلك الطريق

وتطرقوا من يليهم من قبائل العرب فوجه اليهم الواثق بغا الكبير في الشاكرية والأتراك والمغاربة فشخص الى حرة بنى سليم وعلى مقدمته طردوش التركي فلقى بنى سليم بقرامه وقتل منهم نحو الخمسين وأسر مثلهم وانهم سائرهم فدعاهم بغا الى الأمان على حكم الواثق فأتوه واجتمعوا اليه فاحتبس منهم من وصف بالشر والفساد وهم زهاء الف رجل وخلى سبيل سائرهم ثم رحل بالأسرى الى المدينة في ذى القعدة سنة ٢٣٠ فحبسهم بها وشخص الى مكة حاجا . ولما انقضى الموسم انصرف الى ذات عرق ووجه الى بنى هلال من عرض عليهم مثل الذي عرض على بنى سليم فأقبلوا فأخذ من مردتهم وعتاتهم نحواً من ٣٠٠ رجل وخلى سائرهم ثم انصرف الى المدينة وجعل المحبوسين من بنى هلال مع إخوانهم من سليم وجمعهم جميعاً في دار يزيد بن معاوية في الأغلال والأقياد وعدتهم نحو ١٣٠٠ رجل وسار هو الى بنى مرة أما المحبوسون فنقبوا السجن ليخرجوا فعلم بهم أهل المدينة فجأؤهم واجتمعوا عليهم ومنعهم الخروج فباتوا محصورين وفي الغد حاربهم أهل المدينة وكأثروهم فقتلوهم أجمعين وقتل سودان المدينة من لقوا من الأعراب في أزقة المدينة بمن دخل يمتار أوزور . كل ذلك تم وبغا غائب فلما قدم ووجدهم قتلوا شق ذلك عليه ووجد

وجدا شديدا .
أما ما فعله بنى مرة وفزارة الذين تغلبوا على فدك فانه لما قاربهم أرسل اليهم رجلا فزاريا يعرض عليهم الأمان ويأتيه بأخبارهم فلما قدم عليهم الفزاري حذرهم سطوته وزين لهم الهرب فهربوا ودخلوا البرية وخلوا فدكا ولم يستأمن اليه إلا القليل وهرب الباقرن إلى موضع من البلقاء من عمل دمشق . ثم صار إليه جماعة من بطون غطفان وفزارة وأشجع فلما صاروا إليه استخلفهم الأيمان المؤكدة ألا يتخلفوا عنه متى دعاهم خلفوا ثم شخص إلى ضرية لطلب بنى كلاب ووجه إليهم رسله فاجتمع إليه منهم نحو ٣٠٠٠ رجل فاحتبس من أهل الفساد نحواً من ١٣٠٠ رجل ثم قدم بهم المدينة في رمضان سنة ٢٣١ فحبسهم بها ثم شخص إلى مكة حاجا ورجع إلى المدينة بعد حجه فأرسل إلى من كان استخلف من ثعلبة وأشجع وفزارة فلم يجيبوه وتفرقوا في البلاد فوجه في طلبهم فلم يلحق منهم كثيراً
وفي سنة ٢٣٢ أمره الواثق أن يذهب إلى غزوة بنى نيمر لما كان من عيهم وفسادهم

في الأرض فمضى نحو اليمامة يريدهم فلقى منهم جماعة بموضع يقال له الشريف فخار بوه فقتل منهم نيفا وخمسين رجلا وأسر نحوا من ٤٠ ثم سار إلى قرية لبني تميم من عمل اليمامة تدعى امرأة فتابع إلى سكانها رسله يعرض عليهم الأمان ودعاهم إلى السمع والطاعة وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسله ويتفلتون إلى حربته فسار بغا إليهم من امرأة في أول صفر سنة ٢٣٢ حتى دخل نخيلة وأرسل إليهم أن اتونى فاحتملت بنوضبة من نيمير فركبت جبالها مياسر جبل السود وهو جبل خلف اليمامة أكثر أهله باهلة فأرسل إليهم سرية لم تدر كهم ثم إنه سار إليهم حتى التقي بهم بموضع يقال له روضة الابان وبطن السر فجعل يناشدهم ويدعوهم إلى الرجوع وإلى طاعة أمير المؤمنين ويكلمهم بذلك محمد بن يوسف الجعفرى فجعلوا يقولون له يا محمد بن يوسف قد والله ولدناك فما رعيت حرمة الرحم ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لئرينك العبر . ولما أصبح الصبح عليهم حملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم أمامهم وفرسانهم وراءهم ونعمهم ومواسيهم من ورائهم وحملوا فهزموا بغا وجيشه وكاد يهلك لولا حصول أمر لم يكن مقصودا وذلك أنه كان قد وجه من أصحابه نحو ٢٠٠ نفس لتغير على خيل لهم علم وجودها بمكان من بلادهم فيينا جيش بغا على شرف الانكسار إذ خرجت هذه الجماعة منصرفة من الموضع الذى وجهت إليه في ظهور بنى نيمير فنفضخوا في صفاراتهم ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا أن قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هاربين وأسلم فرسانهم رجالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالتهم كثير أحد قتلوا عن آخرهم أما الفرسان فطاروا هربا على ظهور الخيل . وأقام بغا بموضع الواقعة حتى جمعت له الرؤس واستراح هو وأصحابه ثلاثة أيام ثم أرسل الهاربون يطلبون الأمان فأعطاهم إياه فصاروا إليه فقيدهم وحبسهم وأشخصهم معه وقد حاولوا أن يفروا وهم عائدون فضربهم بغا بالسياط ثم سار بهم حتى أتى البصرة فى ذى القعدة سنة ٢٣٢ وأرسل إلى صالح بن العباس أن يسير بمن قبله بالمدينة من بنى كلاب وفزارة ومرة وتعلبة وغيرهم فوافاه صالح ببغداد وساروا جميعا إلى سامرا وكانت عدة الأسرى جميعا نحو ٢٢٠٠ رجل

نكبة الكتاب في عهد الوراق

سأل الوراق سماره ذات ليسة عن السبب الذي من أجله نكب الرشيد البرامكة فقال له أحدهم إن سبب ذلك ما علمه بعد التفتيش من أن البرامكة استهلكوا الأموال وتعللوا في إنفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع له بها ومنهم رجل يقال له أبو العود أمر له الرشيد بثلاثين ألف درهم فطلوه بها فدخل على الرشيد ليسة فتحدث عنده ولم يزل يحتمل حتى وصل حديثه بقول عمر بن أبي ربيعة:

وعدت هند وما كانت تعد • ليت هندا أنجزتنا ما تعد

واستبدت مرة واحدة • إنما العاجز من لا يستبد

فقال الرشيد أجل والله وإنما العاجز من لا يستبد حتى انقضى المجلس وبعد ذلك جد الرشيد في أمرهم حتى وثب عليهم وأزال نعمتهم فقال الوراق صدق والله جدى إنما العاجز من لا يستبد وأخذ في ذكر الخيانة وما يستحق أهلها ولم يمض على ذلك أسبوع حتى أوقع بكتابه وعذبهم حتى أدوا المال الذى ظن أنهم اختانوه مما عهد إليهم حفظه وهذه أسماء الكتاب ومقدار ما أخذ من كل منهم

أحمد بن إسرائيل	٨ ٠٠٠	دينار
سليمان بن وهب كاتب أيتاخ	٤٠٠ ٠٠٠	»
الحسن بن وهب	١٤ ٠٠٠	»
أحمد بن الخصب وكتابه	١ ٠٠٠ ٠٠٠	»
إبراهيم بن رباح وكتابه	١٠٠ ٠٠٠	»
نجاح	٦٠ ٠٠٠	»
أبو الوزير	١٤٠ ٠٠٠	»
	<hr/>	
	١ ٧٢٢ ٠٠٠	

وذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم وكانت العمال تسرع إليهم الثروة لاتساع مجال الخيانة إذ لم يكن هناك دقة في المحاسبات فاذا رأى الخليفة على العامل مظاهر الثروة في وقت قريب وتلك الثروة لاتقوم بها أرزاقه التى يتقاضاها حكم الخليفة قطعاً أنه خائن ولا يجد أمامه إلا تلك المصادرة التى لانظام لها

العلاقات الخارجية — الفداء بين المسلمين والروم

كانت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم ولم تقدر إحدى الدولتين أن تغلب على الأخرى و كثيرا ما يكون في يد إحدى الدولتين أسرى من الأخرى ولما كان يهيم كلتا الدولتين أن تخلص أسراها حذرا من الاسترقاق كاتتا تتفقان على المفاداة كل أسير بمثله وأول فداء حصل كان في عهد الرشيد على نهر اللامس قريبا من طرسوس فودى فيه بثلاثة آلاف وسبعماية أسير من المسلمين على يد القاسم بن الرشيد وحصل فداء مثله في عهده أيضا فودى فيه بألفين وخمسين

وقد كان الفداء الثالث في عهد الواصل سنة ٢٣١ أرسل ملك الروم إلى الواصل رسلا يسألونه أن يفادي بمن في يده من أسارى المسلمين فأجاب وابتدب للفداء خاقان الخادم بعد أن أعد من أسرى الروم عددا كبيرا وقد تقابل الفريقان في يوم عاشوراء سنة ٢٣١ على نهر اللامس وكان عدد من فودى به من المسلمين ٤٦٠٠ منهم ٦٠٠ نساء وصدیان ومنهم من أهل الذمة نحو ٥٠٠ فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيرا أو كبيرا وقد عقد المسلمون جسرا على النهر وعقد الروم جسرا فكان المسلمون يرسلون الرومى على جسره ويرسلون الروم المسلم على جسره وقد أعطى خاقان الروم بمن كان فضل في يده ١٠٠ نفس ليكون له عليهم الفضل استظهارا . ومن غريب ما حصل في هذا الفداء أن أحمد بن أبى داود القاضى أرسل مندوبا من قبله يمتحن الأسرى حتى لا يفدى منهم من لا يقول بأن القرآن مخلوق وهذا غلو قد وصل إلى نهايته :

صفات الواصل

كان الواصل كثير الأكل والشرب واسع المعروف متعظفا على أهل بيته متفقد لرعيته وكان محبا للنظر مكرما لأهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للإشراف على علوم الناس وآرائهم بمن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطيين وكان له مجالس نظر عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم من العقليات والسمعيات في جميع الفروع فكانت سيرته في ذلك سيرة عمه المأمون ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن في عهده شكلا حادا أكثر مما كانت في عهد أبيه المعتصم لأن المعتصم

كان يتكف ذلك لمكان وصية أخيه

وفاة الواثق

أصيب الواثق بعلة الاستسقاء وكانت سبب وفاته في ٦ ذى الحجة سنة ٢٣٢ وسنه ٣٦ سنة وبموته مضى على الدولة العباسية قرن كامل . ولم يعهد الواثق لأحد من بعده بالخلافة بخلافة من بعده بدء شكل جديد لم تكن له سابقة في الدولة العباسية وقد ختم هذا القرن بانهاء الخلفاء العسكريين الذين كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم ويخوضون غمرات الموت ولايستسلمون لداعى الترف المفضى

١٠ - المتوكل

هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع . ولد في شوال سنة ٢٠٦ بقم الصالح ولم يكن بالمرضى عنه في حياة أخيه حتى كان الواثق قد وكل به رجاين هما عمر بن فرج الرخجى ومحمد بن العلاء الخادم فكانا يحفظانه ويكتبان بأخباره في كل وقت وقد جر عليه ذلك انحراف الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فكان لايلقاه لقاء حسنا وكانت صكك رزقه لايتحم له إلابعنا حتى أن عمر بن فرج أخذ منه الصك مرة فرمى به في صحن المسجد الذى كان عمر يجلس فيه وكان الذى يصلح من شأنه عند الواثق أحمد بن أبى دؤاد ولما توفى الواثق ولم يكن عهد إلى أحد اجتمع كبراء الدولة أحمد بن أبى داؤد القاضى ومحمد بن عبد الملك الوزير وعمر بن فرج وأحمد بن خالد الكاتبان وإيتاخ ووصيف من قواد الأتراك وتناظروا فيمن يولونه الخلافة فأشار محمد بن عبد الملك بمحمد بن الواثق وكاد الأمر يتم له إلا أنهم لما جاؤا به وألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية قال لهم وصيف أما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة وهولاتبجوز معه الصلاة ثم أشار ابن أبى دؤاد بجعفر بن المعتصم فاتفق رأيهم عليه وأحضره فألبسه أحمد بن أبى دؤاد الطويلة وعممه وقبله بين عينيه وقال السلام عليك ياأمير المؤمنين وبايعه الحاضرون ولقب بالمتوكل على الله ثم بايعته العامة وتم ذلك كله في اليوم الذى توفى فيه الواثق وهو ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢ (١١) أغسطس

سنة ٨٤٧) واستمر خليفة إلى أن قتل ليلة الخميس رابع شوال سنة ٢٤٧ (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) فكانت مدته ١٤ سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام وكانت سنه إذ قتل ٤١ سنة وكان يعاصره في بلاد الأندلس عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨) ثم ابنه محمد (٢٣٨ - ٢٧٣)

ويعاصره في بلاد المغرب من الأدارسة علي بن محمد بن إدريس الثاني (٢٢١ -

٢٣٤) ثم يحيى بن محمد (٢٣٤)

ويعاصره في أفريقية من الأغالبة محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٢٦ - ٢٤٢)

ثم أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٤٢ - ٢٤٩)

ويعاصره في بلاد اليمن من الدولة الزيدية محمد بن عبدالله بن زياد (٢٠٤ - ٢٤٥)

ثم إبراهيم بن محمد (٢٤٥ - ٢٨٩)

ويعاصره في خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر

(٢٣٠ - ٢٤٨)

ويعاصره من ملوك الروم بالقسطنطينية ميخائيل الثالث الملقب بالسكبير

ويعاصره في فرنسا شارل الأصغر (٨٤٠ - ٨٧٧)

وزراء الدولة

كان الوزير الأول لأول عهد المتوكل هو محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان وزيراً لأخيه ولأبيه إلا أن المتوكل كان منحرفاً عنه لما كان يفعله معه في حياة أخيه من قبح المقابلة وعدم الرعاية وزاد على ذلك أنه أشار بتولية محمد بن الواثق فكانت شهوة الانتقام متمسكة منه ففي سابع صفر سنة ٢٣٣ أمر فقبض عليه وصادر جميع ماله من عقار ومنقول وكذلك ضياع أهل بيته حيث كانت . أما ما ناله من المكروه في نفسه فهو أعظم من أن يسطر ولم يزل ذلك دأبهم معه حتى مات تحت العذاب . إلى هذا الحد وصل ضعف الوازع الديني عند هؤلاء القوم — الرجل لم يكن على وفاق مع الخليفة قبل أن يتولى فأشد ما يكون من عقوبته ألا يستعان به في عمل — الرجل خان فيما عهد إليه من الأمانات فأقصى عقوبته أن يصادر في أمواله — الرجل قتل نفساً بدون حق فأقصى عقوبته أن يقتل فلم هذا التعذيب الذي سطره المؤرخون

أليس ذلك دليلا على أن شهوة الانتقام حالت بين القوم وبين دينهم الذي نهى أشد النهى عن التعذيب والمثلة أليس ذلك دليلا على أن صوت العلماء لا يظهر إلا في الأمور النظرية المحضة التي لا يترتب عليها عمل ولا أثر في الحياة أما ما تكون آثاره ظلم الناس بأخذ أموالهم وإزهاق نفوسهم فلا تكاد تسمع لهم ركرا أين هذا مما كان في عهد عمر بن الخطاب الذي كانت أمته تحاسبه على كل ما يصدر منه من جليل وحقير وكان مبلغ ما قبض له مع قيمة موجوداته ٩٠.٠٠٠ دينار وبين القبض عليها ووفاته أحد وأربعون يوما

ولم يمض على ذلك خمسة أشهر حتى أمر المتوكل بالقبض على عمر بن فرج الرخجي وهو الكاتب الذي رمى بصك المتوكل في صحن المسجد أيام خلافة الواثق فقبض عليه وصودرت أملاكه وكان مقدار ما أخذ منه ومن أخيه محمد بن فرج ٢٧٤.٠٠٠ دينار و ١٥٠.٠٠٠ درهم سوى القصر والامتعة والضياع وقد حمل متاعه وفرشه على خمسين جملا كرت مرارا ثم صالحوه بعد ذلك على أن يدفع ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم على أن ترد عليه ضياعه بالأهواز فقط فردت عليه وأطلق من عقاله استكتب المتوكل بعد ابن عبد الملك أبا الوزير أحمد بن خالد الذي كان في حياة الواثق زماما على عمر بن فرج الرخجي في ديوان النفقات ولما استكتبه لم يسمه باسم الوزير واستمر كتابا له زمنا قليلا فانه في ذي الحجة من سنة ٢٣٣ غضب عليه وأمر بحسابته فحمل نحو من ٦٠.٠٠٠ دينار وحمل بدور دراهم وحليا وأخذ له من متاع مصر ٦٢ سقفا و ٣٢ غلاما وفرشا كثيرا وحبس بسببه جماعة من الكتاب وأغرما من المال قدرا كثيرا.

وبعد أبي الوزير استوزر محمد بن الفضل الجرجاني منسوب إلى جرجانيا (وهي بلد من أعمال النهر والاسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي) وكان الجرجاني من أهل الفضل والأدب والشعر وقال صاحب الآداب السلطانية إنه كان عالما بالغناء مشتهرا به واستمر على وزارته إلى سنة ٢٣٦ وفيها صرفه عن العمل لأنه قال قد ضجرت من الشيوخ وأريد حدثا أستوزره فن أجل ذلك صرفه . اختار بعده لوزارته عبيد الله بن يحيى بن خاقان وبقى وزيرا للمتوكل إلى أن مات وكان حسن الخط وله معرفة بالحساب والاستيفاء وكانت فيه عيوب يسترها كرمه

وحسن خلقه وعفته ومن أجل ذلك كان الجند يحبونه وقد حصل في وزارته حادثة تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال واحتجائهم الأموال لأنفسهم ووقعتهم بعضهم ببعض وكل ذلك سببه عدم الضبط في الإدارة المالية. كان نجاح ابن سلمة على ديوان التوقيع والتتبع على العمال فكان لذلك مخشى الجانب نافذ الكلمة وكان الحسن بن مخلد على ديوان الضياع وموسى بن عبد الملك على ديوان الخراج وكان بين نجاح وبين ابن خاقان الوزير وحشة ومضادة وكان ميل الحسن وموسى إلى الوزير. احتاج المتوكل في سنة ٢٤٥ إلى المال لبناء القصور التي أراد تأسيسها بسامرا. فقال له نجاح أسمى لك قوما تدفعهم إلى حتى أستخرج لك منهم من الأموال ما يكفيك لبناء مدينتك وسمى له نحواً من عشرين رجلاً موسى بن عبد الملك وخليفته والحسن بن مخلد وخليفته وعبيد الله بن يحيى الوزير وأخواه وغيرهم من العمال فأعجب ذلك المتوكل وقال له بكر إلى غدا — وناظر الوزير المتوكل في ذلك فقال له يا أمير المؤمنين أريد الأيدع كاتباً ولاقائداً ولاعاملاً إلا أوقع بهم فمن يقوم بالأعمال يا أمير المؤمنين وخرج من عنده فدعا موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد فقال لهما إن دخل نجاح إلى أمير المؤمنين دفعكما إليه فقتلكما وأخذ ما تملكان من المال ولكن اكتبنا إلى أمير المؤمنين تتقبلان به فيها بألفي ألف دينار ففعلنا وأوصل الوزير رقتهما إلى المتوكل وأعانهما بالقول على القبول ثم أدخلهما على المتوكل وحجب نجاحاً فضمنا ذلك ودفع إليهما نجاحاً فأخذاه وانتقما منه شر انتقام أما في المال فأخذنا من نجاح وابنه نحو ١٤٠٠٠٠ دينار سوى قيمة قصورهما وفرشتهما ومستغلاتهما بسامرا وبغداد وسوى ضياع لهما كثيرة قبض ذلك كله وأخذ كثير من المال من وكلاء نجاح ومن يتصل به أما كاتبه اسحاق بن سعد الذي كان يتولى خاص أموره فقد أمر المتوكل أن يغرم ٥١٠٠٠ دينار ولم ذلك قال المتوكل إنه أخذ منه أيام الواثق حينما كان يخلف عمر بن فرج خمسين ديناراً حتى أطلق أرزاق نخدوا لكل دينار ألفاً وزيادة ألف فضلاً كما أخذ فضلاً فحس ونجم عليه ثلاثة أنجم ولم يطلق حتى أدى تعجيل ١٧٠٠٠ دينار وأخذ منه كفلاء بالباقي. وأما نفس نجاح فقد فانت تحت الضرب والتعذيب

وبعد وفاة نجاح ضم ديوان التوقيع إلى عبيد الله بن يحيى الوزير ثم توفي موسى

ابن عبد الملك فضم ديوان الخراج إلى الوزير أيضا من أغرب مافي هذا التاريخ أن يرتشى العامل من أخى الخليفة حتى يطلق له أرزاقه فسا الظن بغيره من أصحاب الأرزاق ماذا يدفعون حتى يوقع لهم على صكا كههم بقبض تلك الأرزاق ولا يستغرب بعد ذلك ما كان يجتمع إلى هؤلاء الكتاب من الأموال الوفيرة فى الزمن القليل والعمال يعرف بعضهم بعضا فيعلم الواحد منهم ماقتة الآخر من الأملاك والضياع وما احتجن من المال فاذا بلغ خليفته شيئا من ذلك هاج أطعاه فيعمد إلى مايمائل ما ذكرنا من عقوبة العامل ومصادرة أمواله (وما ظالم إلا سيلى بظالم) وتلك أمور تعم الفساد فى جسم الدولة

أحمد بن أبى دؤاد : هو الرجل الموثوق به فى عهد المأمون وعظيم دولة المعتصم والواثق وقاضى القضاة فى زمنهما والذى كان يعطف على المتوكل فى عهد أخيه الواثق حتى استرضاه عنه بعد أن كان قد غضب عليه فلماولى المتوكل حفظ له مقامه ورتبته وسابقته فكان قاضى القضاة وعظيم الدولة . وفى سنة ٢٣٣ فاج فعجز عن العمل فكان ابنه أبو الوليد يقوم مقامه فى القضاة وولاية المظالم إلا أن الرجل لم تكن سيرته سيرة ابيه فكانت النتيجة أن غضب المتوكل على أحمد بن أبى دؤاد وعلى ابنه فعزلهما عن المظالم والقضاء ورضى عن يحيى بن أكرم فأشخصه من بغداد إلى سامرا وولاه قضاء القضاة والمظالم . وأمر بالتوكيل على ضياع أحمد بن أبى دؤاد لخمس بقين من صفر سنة ٢٣٧ وحبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول ابنه محمد فى ديوان الخراج وحبس إخوته عند عبيد الله بن السرى خليفة صاحب الشرطة وبعد ذلك يومين حمل أبو الوليد ١٢٠٠٠٠ دينار وجواهر بقيمة ٢٠٠٠٠٠ دينار ثم صولح بعد ذلك على ١٦٠٠٠٠٠٠ درهم وأشهد عليهم جميعا ببيع كل ضيعة لهم وفى أواخر سنة ٢٣٩ مات محمد بن أحمد بن أبى دؤاد ببغداد وبعد وفاته بعشرين يوما توفى أبوه أحمد وهم على تلك الحال

العلويون

امتاز المتوكل عن سائر أهل بيته بكراهة على بن أبى طالب رضى الله عنه وأهل بيته وهذا مايعرف فى العقائد بالنصب وهو ضد التشيع وكان يقصد من يبلغه عنه

أنه يتولى عليا وأهله بأخذ المال والدم وكان فيما يقال يبغض ممن تقدمه من الخلفاء المأمون والمعتصم والوائق لمحبة علي وأهل بيته وكان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالنصب وبغض علي فكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والاعراض عنهم والاساءة إليهم ثم حسنوا له الواقعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين ومن آثار تلك الكراهة أنه أمر في سنة ٢٣٧ بهدم قبر الحسين بن علي بكر بلاء وهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يحرق ويحذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبق فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه وحرق ذلك الموضع وزرع ماحواليه

وكان إمام الامامية في عهده ابو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ابن علي بن أبي طالب سعى به إلى المتوكل فأقدمه من المدينة إلى سامرا التي كانت تعرف بالعسكر فلقب بالعسكري وقد ظل مقبلا بها نحو عشرين سنة ومات بها ولما جاء سامرا لم تقطع السعايات عنه فقبل له إن في منزله سلاحا وكتبا وغيرها من شيعته فوجه إليه ليلا من هجم عليه منزله وهو غافل فوجد في بيت وحده عليه مدرعة من شعر ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى وعلي رأسه ملحفة من صوف وهو يقرأ ويدعو فحمل إلى المتوكل في جوف الليل فقتل بين يديه والمتوكل يشرب فأجلسه إلى جنبه وعرض عليه الكأس فاستعفى فأعفاه ثم قال له أنشدني شعرا فأنشده

باتوا على قتل الأجيال تحرسهم * غاب الرجال فما أغنتهم القتل
واستزلوا بعد عز عن معاقلهم * فأودعوا حفرا يابئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا * أين الأسرة والتيجان والملل
أين الوجوه التي كانت منعمة * من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم * تلك الوجوه عليها الدود يقتل
قد طالما أكلوا دهر او ما شربوا * فاصبحوا بعد طول الأكل قدأكلوا
وظالما عمروا دورا لتحصنهم * فقارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وظالما كنزوا الأموال وادخروا * تخلفوها على الأعداء وارتحلوا

أضحت منازلهم قفرا معظلة ٥ وساكنوها إلى الأجداد قدر حلوا
فبكى المتوكل حتى بلغت دموعه لحية ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف
دينار يقضى بها دينه وردّه إلى منزله مكرما
وفي عهد المتوكل أتى يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين من بعض النواحي
وكان قد جمع جمعا فضربه عمر بن فرج ثمانى عشرة مقرة وحبس ببغداد في المطبق

الجيش

كان الجيش على العهد الذى كان عليه فى مدة الواثق والمعتمد وكلما قدم العهد زاد
الأتراك نفوذا وقوة وقد أحس المتوكل بتوغل الأتراك فى الدولة واستبدادهم بأموال
الخلافة وإدارتها وجيشها فأحب أن يضعف شوكتهم ويقلل من نفوذهم فبدأ بأيتاخ
الذى كان له الجيش والمغاربة والأتراك والموالى والبريد والحجابة ودار الخلافة .
أراد المتوكل الإيقاع به ليتخلص من هذا السلطان الواسع فرأى أن ذلك لا يمكنه
معه وهو بسامرا بين قومه وجنده فدىس إليه من أشار عليه بالاستئذان فى الحج ففعل
فأذن له المتوكل وصيره أمير كل بلد يدخله وخلع عليه وركب معه جميع القواد
وخرج معه من الشاكرية والقواد والغلبان سوى غلبانه وحشمه بشر كثير فلما
حج وانصرف إلى العراق وجه إليه المتوكل بكسوة وألطف وأمر الرسول أن يلقاه
بالكروفة أو ببعض الطريق وتقدم إلى عامله على شرطة بغداد وهو إسحاق بن إبراهيم
المصعبى بأمره فيه . فلما وصل بغداد قال له إسحاق بن إبراهيم إن أمير المؤمنين أراد أن تدخل
بغداد وأن يلقاك بنوهاشم ووجوه الناس وأن تعدهم فى دار خزيمة بن خازم فنامرهم
بجوائز . فلما صار إيتاخ بالقرب من دار خزيمة حجز عنه غلبانه ودخل الدار وحده
فكان فيها سجنه ثم نقل إلى منزل إسحاق فأدخل ناحية منه وقيد وأثقل بالحديد فى
عنقه ورجليه ثم قدم بابنيه منصور ومظفر وبكاتبه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد
فحبسوا وكانت الشدة التى عومل بها إيتاخ سببا لوفاته فمات سنة ٢٣٥ وأما ابنه
فبقيا فى الحبس حياة المتوكل ثم أطلقهما المستعين بعده

ولسكرة المتوكل لهؤلاء الغلبان ورؤسائهم كره من أجلهم المدينة التى أنشئت
لهم فعزم أن يغير حاضرة خلافته فاختار سنة ٢٤٣ أن يجعل دمشق حاضرتة فشخص

إليها ونقل دواوين الملك وأمر بالبناء بها فتحرك الأتراك في أرزاقهم وأرزاق عيالهم مرادين التشغيب عليه لأنهم ظنوا أن المتوكل يريد أن يستعين بسلطان العرب عليهم حيث اختار بلاد الشام فأمر المتوكل لهم بما أرضاهم وبعد أن أقام بدمشق أياماً أظهر أنه استوبأ البلد لأن الهواء بارد ندى والماء ثقيل والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضى عامة الليل وغلت فيها الأسعار وحال الثلج بين السابلة والميرة فبارحها عائداً إلى سامرا ويظهر أن الأتراك هم الذين حملوه على العودة . وفي سنة ٢٤٥ أمر ببناء المساحوزة وسماها الجعفرى وأقطع القواد وأصحابه وجد في بنائها وأمر بنقض القصر المختار والبديع من قصور سامرا وحمل ساجهما إلى الجعفرى وأنفق عليها فيما قيل أكثر من ألف دينار وكان يسميها هو وأصحابه المتوكلية وكانت بالقرب من سامرا وبني فيها قصرا سماه لؤلؤة لم ير مثله في علوه وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه من موضع يقال له كرمى على رأس خمسة فراسخ فوق المساحوزة جعله شرباً لما حوله من فوه النهر إليها وقدر للنهر من النفقة ٢٠٠٠٠٠ دينار لكنه مات قبل أن يتم فأهمل وهذه المدينة خربت بعد قتل المتوكل . لما انتقل إلى مدينته الجديدة شاع أنه عزم على الفتك بوصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ولكن لم يتأت له ذلك لأنهم تغدوا به قبل أن يتعشى بهم كما نبينه في خبر مقتله وقد حصلت حوادث في أطراف الدولة في عهد المتوكل فأطفت منها

أولاً — حادثة محمد بن البعيث بن حلبس من ولد عتيب بن عمرو بن هنب بن أفصى بن دعي بن جديلة في مدينة مرند وهي من مشاهير مدن أذربيجان استدارتها فرسخان وبينها وبين تبريز يومان كانت في الأصل قرية صغيرة فنزلها حلبس أبو البعيث ثم حصنها البعيث ثم محمد ابنه وبني بها محمد قصراً . وكان محمد بن البعيث محبوباً في حبس إسحاق بن إبراهيم فسكلم فيه بغا الشرابي وأخذ منه الكفلاء وأطلق فهرب إلى مرند وهي موضعه من أذربيجان فرم ما كان وهي من سورها وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرهم فصار في نحو من ٢٢٠٠ رجل وكان الوالى بأذربيجان محمد بن حاتم ابن هرثمة فقصر في طلبه فولى المتوكل حمدويه بن علي بن الفضل السعدى أذربيجان ووجه من سامرا على البريد فلما صار إليها جمع الجند والشاكرية ومن استجاب له فصار في عشرة آلاف فرحف إلى ابن البعيث فألجأه إلى مدينة مرند ولما طالت

مدته وجه إليه المتوكل زيرك التركي في عدد كبير من الأتراك فلم يغن شيئا فوجه إليه عمرو بن سيسل بن كأل فكذلك فاختر له بغا الشرابي في ٤٠٠ رجل مابين تركي وشاكري ومغربي وكان القواد الذين سبقوه قد زحفوا إلى مدينة مرند وقطعوا ماحولها من الشجر شجر الغياض ونصبوا عليها عشرين منجنيقا وبنوا بحذاء المدينة ما يستكنون ونصب عليهم ابن البيث من المجانيق مثل ذلك وما زالوا على ذلك حتى قرب منهم بغا الشرابي ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البيث ولابن البيث أن ينزلوا وينزل على حكم أمير المؤمنين وإلا قاتلهم فان ظفر بهم لم يستبق منهم أحدا ومن نزل فله الأمان وأرسلت لهم هذه الأمانات مع عيسى ابن الشيخ الشيباني وكان عامة من مع ابن البيث من ربيعة فنزل منهم قوم كثير من القلعة بالحبال ثم فتح باب القلعة جماعة من خانو ابن البيث فدخلت جنود المتوكل المدينة وقد أراد ابن البيث أن يهرب فأدرك وأخذت حرمه وأخذ نحو ٢٠٠ من رجاله فوافاهم بغا الشرابي وقد تم الأمر فكتب إلى المتوكل بالفتح . ثم عاد إلى سامرا ومعه أسراه فأمر المتوكل بحبسهم جميعا ثم أتى بابن البيث فأمر عنقه فطرح على نطع وجاء السيفون فلوحوا له فقال المتوكل وغلظ عليه مادعاك يا محمد إلى ما صنعت قال — الشقوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك وهو العفو — ثم اندفع بلا فصل فقال

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي ◊ إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جبيلة من خطية ◊ وعفوك من نور النبوة يجبل
فانك خير السابقين إلى العلا ◊ ولا شك أن خير الفعالين تفعل

فالتفت المتوكل إلى علي بن الجهم وقال إن معه لأدبا وعفا عنه وكان ابن البيث أديبا شجاعا يقال إن له أشعارا نظمها بالفارسية . وكان ابن البيث لما هرب قال :

كم قد قضيت أمورا كان أهلها ◊ غيري وقد أخذ الأفلاس بالكظم
لا تعذليني فيما ليس ينفعني ◊ إليك عنى جرى المققدار بالقلم
سأتلغ المال في عسر وفي يسر ◊ إن الجواد الذي يعطي على العدم
ولم يمكث ابن البيث بعد ذلك كثيرا فانه توفي بعد شهر ثم أطلق بنوه الثلاثة وهم حلبس والبيث وجعفر وصاروا في عداد الشاكرية مع عبيد الله بن يحيى بن

خاقان وأجريت عليهم الانزال

(٢) اضطراب أرمينية . كان لبغا الشرابي ولاية أرمينية وأذربيجان وابنه فارس خليفته فولى عليها بالنيابة عنه أباسعيد محمد بن يوسف المروزى وفى شوال سنة ٢٣٦ مات فجأة فولى بعده ابنه يوسف بن محمد ولى حربها وخراجها فشخص إليها فضبطها ووجه عماله فى كل ناحية وبيننا هو فى عمله خرج عليه رجل من بطارقة أرمينية وهو كبير البطارقة واسمه بقرط بن أشوط خرج يطلب الامارة لنفسه فأخذه يوسف بن محمد فقيدته وبعث به إلى باب الخليفة فهاج ذلك من بطارقة أرمينية فأجمعوا أمرهم على الخروج على يوسف وكان يقيم بمدينة طرون فحصره بها ولما خرج لقتالهم قاتلوه فقتلوه وقتلوا أصحابه فلما علم بذلك المتوكل بعث ببغا الشرابي إلى أرمينية مطالباً بدمه فشخص إليها من ناحية الجزيرة فبدأ بارزن وكان بها موسى بن زرارة الذى وافق البطارقة على الفتك بيوسف فحمله ببغا إلى باب الخليفة ثم سار حتى أتاه بجبل الخويثية وهم جماعة أهل أرمينية وقتله يوسف بن محمد فغار بهم ووظف بهم فقتل زهاء ثلاثين ألفاً وسبى منهم خلقاً كثيراً ثم سار محترقاً ببلاد أرمينية لارهاب عصاتها حتى بلغ ديبيل فأقام بها شهراً ومنها سار إلى تفلين فى يوم السبت ١٠ ربيع أول سنة ٢٣٨ وجه زيرك التركى لجاوز الكر وعليه تفلين فى الجانب الغربى وصفدييل فى الجانب الشرقى وكان معسكر ببغا فى الشرق وكان غرضهم من ذلك إخضاع إسحاق بن إسماعيل مولى بنى أمية الثانى بها فناوشوه القتال ففرج لقتالهم فبعث ببغا بالنقاطين فضربوا المدينة بالنار فأقبل إسماعيل إلى المدينة لينظر فاذا النار قد أخذت فى قصره ثم أتاه الأتراك والمغاربة فأخذوه أسيراً وأخذوا ابنه عمراً فأتوا بهما ببغا فأمر بضرب عنقه ويقال إنه احترق فى المدينة إنسان وأسر من بقى حياً فيها وكان إسحاق قد حصنها وحفر خندقها وجعل فيها مقاتلة من الخويثية وغيرهم وأعطاهم ببغا الأمان على أن يضعوا أسلحتهم ويذهبوا حيث شاؤوا وكان إسحاق مصاهر الملك السرير تزوج بنته . ولم يزل ببغا يحوس خلال هذه الديار حتى استنزل أكثر العصاة من معاقلهم وأخذ معه كثيراً من بطارقة أذربيجان وأران

الدولة اليعفرية

فى آخر عهد المتوكل ابتدأت الدولة اليعفرية بصنعاء وكان جدهم عبد الرحيم بن

إبراهيم الحوالى نائبا عن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي الذي كان واليا للمعتصم علي نجد الدين صنعاء وما إليها ولما توفي عبد الرحيم قام في الولاية مقامه ابنه يعفر بن عبد الرحيم وهو رأس الدولة ومبدأ استقلالها إلا أنه كان يهاب آل زياد ويدفع لهم خراجا يحمل إلى زيد كأنه عامل لهم ونائب عنهم وكان ابتداء استقلال يعفر ابن عبد الرحيم سنة ٢٤٧ واستمر ملك صنعاء في أعقابها إلى سنة ٣٨٧ وهذه أسماء ملوكهم

- | | |
|-----------|--------------------------------|
| ٢٥٩ - ٢٤٧ | (١) يعفر بن عبد الرحيم |
| ٢٧٩ - ٢٥٩ | (٢) محمد بن يعفر |
| ٢٧٩ - ٢٧٩ | (٣) عبد القادر بن أحمد بن يعفر |
| ٢٨٥ - ٢٧٩ | (٤) إبراهيم بن محمد |
| ٢٨٨ - ٢٨٥ | (٥) أسعد بن إبراهيم |
| ٣٠٣ - ٢٨٨ | فترة لأئمة صنعاء والقرامطة |
| ٣٣٢ - ٣٠٣ | (٦) أسعد بن إبراهيم مرة ثانية |
| ٣٥٢ - ٣٣٢ | (٧) محمد بن إبراهيم |
| ٣٨٧ - ٣٥٢ | (٨) عبد الله بن قحطان |

وقد اتبعنا في ثبت هذه الدولة ما جاء في تاريخ الدول الإسلامية لمؤلفه لين بول وفيه بعض مخالفة لما في تاريخ الدول الإسلامية للشيخ دحلان اه والحوالى نسبة إلى عبد الله بن حوالة الأزدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاقات الخارجية : كانت الحروب بين المسلمين وبين الروم لاتزال دائمة الاتصال برا وبحرا لاتقطع إلا الهدنة وقتية

ففي سنة ٢٣٨ أغار الروم على مصر من جهة دمياط وكان أمير مصر قد أمر حاميتها أن يحضروا إليه بالقسطنطينية ليتجمل بهم فلما جاءها الروم بمراكبهم لم يجدوا بها حامية وكانوا في نحو ٣٠٠ مركب فدخلوا البلد وعاثوا فيه وأحرقوا دوره والمسجد الجامع وسبوا كثيرا من نساء المسلمين وأهل الذمة وأخذوا ما وصلت إليه أيديهم من المغانم ثم عادوا إلى بلادهم لم يكلم أحد منهم كلما . وكان المسلمون يفعلون مثل ذلك في صوائفهم من جهة الدروب التي تلاصق المملكة الإسلامية من الجهة الشمالية وفي بحر الروم

وفي سنة ٢٤١ كان الفداء الرابع بين المسلمين والروم على نهر اللامس في ١٢ شوال وكان القائم به شنيف خادم المتوكل وحضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي القاضي وعلي بن يحيى الأرمي أمير الثغور الشامية وكانت عدة من فودى به من المسلمين في سبعة أيام ٢١٠٠ رجل وامرأة على رواية المقرئ في الخطط وروى الطبري أن عدة أسرى المسلمين كانت ٧٨٥ إنسان ومن النساء ١٢٥ امرأة قال المقرئ وكان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الاسلام مائة رجل ونيف فعرضوا مكانهم عدة أعلاج

وفي سنة ٢٤٢ خرجت الروم من ناحية شمشاط بعد خروج علي بن يحيى الأرمي من الصائفة حتى قاربوا آمد ثم خرجوا من الثغور الجزرية فاتهبوا عدة قرى وأسروا عددا عظيما من الأهليين ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم فخرج في أثرهم قرياس وعمر ابن عبدالله الأقطع وقوم من المتطوعة فلم يلحقوا منهم أحدا فكتب إلى علي بن يحيى أن يسير إلى بلادهم شاتيا

وفي سنة ٢٤٤ وجه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم في شهر ربيع الآخر فغزا الصائفة فافتح صملة

وفي سنة ٢٤٥ أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا نحو من ٥٠٠ وغزا علي بن يحيى الأرمي الصائفة

وفي سنة ٢٤٦ كان الفداء السادس بين المسلمين والروم في صفر على يد علي بن يحيى الأرمي فقودى بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفسا

صفات المتوكل وأخلاقه

لم يكن المتوكل كمن قبله في حب النظر والجدل بل كان ميالا إلى التقليد فأمر لاول ولايته بترك النظر والمباحثة والجدال والترك لما كان عليه الناس في أيام المعصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث وإظهار السنة

لم يكن المتوكل ممن يوصف في عطاءه بالبذل والجود ولا بتركه وإمساكه بخلا ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل

فلما جاء المتوكل أحدث ذلك كله فاتبعه فيها أكثر خواصه ورعيته فلم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابه من يوصف بجود ولا إفضال ولا يتعالى عن مجون أو طرب .

دخل عليه أبو عبادة البحرى الشاعر المشهور فأنشده قصيدة يمدحه بها قال فيها

عن أى ثغر تبسم • وبأى طرف تحتكم

حسن يضىء بحسنه • والحسن أشبه بالكرم

قل للخليفة جعفر المتوكل بن المعتصم

المرضى ابن المجتبى • والمنعم ابن المنتقم

أما الرعية فهى من • أمان عدلك فى حرم

يابانى المجد الذى • قد كان قوض فانهدم

أسلم لدين محمد • فاذا سلمت فقد سلم

نلتنا الهدى بعد العمى • بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف فوثب أبو العنبر فقال يأمر المؤمنين تأمر برده فقد والله عارضته فى قصيدته هذه فأمر برده فأخذ ينشد أبياتا هزلية غثة لم نستحسن إيرادها فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه وخص برجله اليسرى وقال يدفع إلى أبى العنبر عشرة آلاف درهم فقال الفتح بن خافان ياسيدى البحرى الذى هجى وأسمع المسكروه ينصرف خائبا فقال ويدفع إلى البحرى عشرة آلاف درهم فوصل الجاد فى كرامة الهازل

وكان ينفر من استعمال أهل الذمة فى الدواوين ويكره أن يظهروا فى الطريق بمظهر المسلمين ولذلك أصدر أمره فى سنة ٢٣٥ أن يلبسوا زيا خاصا بهم وهو الطيالة العسلية والزناير وأن تكون لهم سروج خاصة بهم لركوبهم ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى يجرى فيها أحكامهم على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتابتیب المسلمين ولا يعلمهم مسلم وكتب منشورا إلى عماله فى الآفاق بذلك كتبه إبراهيم بن العباس الصولى فى شوال سنة ٢٣٥

قال المسعودى وكانت أيام المتوكل فى حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضام عنها أيام سراء لاضراء كما قال بعضهم كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السيل ورخص السعر وأمانى الحب وأيام الشباب

وتعادل عند المحدثين سيئاته وحسناته فإبطاله المناقشة في القرآن وحدوثه ترفعه إلى أعلى الدرجات وهدمه قبر الحسين يحطه إلى أسفل الدرجات فكأنه عندهم لآعليه ولاله . أما الحكم على زمنه بما كان من مصادرة الكتاب وعقوباتهم الشديدة فلم يكن محل عناية من أحد

ولاية العهد

تشبه المتوكل في كثير من أعماله بجده الرشيد ومن ذلك توليته العهد فقد عقد الولاية لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر ومحمد المعتز وإبراهيم المؤيد وذلك في ٢٧ ذى الحجة سنة ٢٣٥ وقسم البلاد بينهم

فجعل لأكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكوربا جرمي وتكريت وطاسايح السواد وكوردجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليامة والبحرين والسند ومكران وقنديل وفرج بيت الذهب وكور الأهواز والمستغلات بسامرا وماء الكوفة وماء البصرة وماسبذان ومهرجان قنق وشهرزور ووراباذ والصامغان وأصبهان وقموقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة إلى الجبال وصدقات العرب بالبصرة

وجعل لابنه المعتز كور خراسان وما يضاف إليها وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وكور فارس وضم إليه في سنة ٢٤٠ خزن بيوت الأموال في جميع الآفاق ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم

وجعل لابنه المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين وكتب بينهم كتابا يشبه الكتاب الذي كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون والقاسم . وقد جعل المتوكل لابنيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال في أعمالهما إذا آلت الخلافة للنتصر بحيث لا يجوز أن يشرك في شيء من أعمال أحدهما أحدا ولا يوجه عليه أمينا ولا كاتبا ولا يریدا ولا يضرب على يده في قليل ولا كثير وكذلك جعل على المعتز للمؤيد إذا آلت الخلافة للمعتز وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ

نسخة بخزانة أمير المؤمنين وعند كل من أولياء العهد نسخة وهذا نموذج مما قيل من الشعر في هذه البيعة وهو ينم على نفاق قائله لأن القوم لم ينسوا بعد ما كان بين أولاد الرشيد . قال إبراهيم بن العباس الصولي :

أضحت عرى الاسلام وهي منوطة * بالنصر والاعزاز والتأييد
 بخليفة من هاشم وثلاثة * كنفوا الخلافة من ولاية عهود
 قر توات حوله أقواره * يكفنن مطلع سعده بسعود
 كنفتم الآباء واكتفت بهم * فسعوا بأكرم أنفس وجدود

مقتل المتوكل

لم تكن قلوب كبار الأتراك مظمنة إلى المتوكل فقد وقع في أنفسهم أنه يريد تدبير المكاييد لهم حتى يتخلص منهم واحدا بعد واحد فأخذتهم من ذلك وحشة وكان وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر ولى العهد مائلين إلى المعتز فأوغرا قلب أبيه عليه حتى هم أن يعزله من ولاية العهد فاجتمع لذلك الخصمان قواد الأتراك وولى العهد . مال الأتراك إلى المنتصر ليستعينوا به في تنفيذ غرضهم ومال إليهم ليحفظ لنفسه الخلافة عاجلا أو آجلا . وبما زاد في إغراء المنتصر أن المتوكل اشتكى فأمره أن يصلى بالناس يوم الجمعة فقال عبيد الله والفتح للمتوكل مر أباعد الله المعتز بالله بالصلاة لتشرفه بذلك في هذا اليوم الشريف فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعا فقد بلغ الله به فأمره المتوكل بالصلاة فركب وصلى بالناس وأقام المنتصر في منزله وفي الجمعة التالية أراد المتوكل أن يصلى المنتصر بالناس فحسنا له أن يركب هو لئلا يرجف الناس بعلته ففعل . كل ذلك زاد المنتصر حقا وخوفا على الخلافة أن تفوته . ويقال إن المتوكل انفق مع الفتح بن خاقان على الفتك بالمنتصر وقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ولم يكن هذا السر ليستر مع النيذ والاستتار بشره فاتفق القوم على أن يفتكوا بالمتوكل وقد تولى كبير ذلك بغا الصغير المعروف بالشرابي فإنه أعد لذلك قوما في مقدمتهم باغر التركي الذي كان يقوم بحراسة المتوكل وأعد معه عشرة من الأجناد فدخلوا القصر وسيوفهم مسلولة والمتوكل قد أخذ منه الشراب فابتدره أحدهم بضربة وثني

عليه بأخرى أتت على نفسه وكان معه الفتح بن خاقان قتل معه وكان قتله ليلة الأربعماء لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧ ويعجبني ما قاله بعض شعراء الوقت في تلك الحادثة

لاحزن إلا أراه دون ما أجد * وهل كمن فقدت عيناى مفتقد
لا يبعدن هالك كانت منيته * كما هوى عن غطاء الزبية الأسد
لا يدفع الناس ضيما بعد ليلتهم * إذ لا تمد إلى الجاني عليك يد
لو أن سبني وعقلي حاضران له * أبليت الجهد إذ لم يبسه أحد
هلا أتاه أعاديه مجاهرة * والحرب تسعر والأبطال تطرد
نغر فوق سرير الملك منجدلا * لم يحمه ملكه لما انقضى الأمد
وأصبح الناس فوضى يعجبون له * ليثا صريعا تنزى حوله النقد
علتك أسياف من لادونه أحد * وليس فوقك إلا الواحد الصمد
أضحى شهيد بنى العباس موعظة * لكل ذى عزة فى رأسه صيد
خليفة لم ينل ما ناله أحد * ولم يضع مثله روح ولا جسد
كم فى أديمك من فوهاء هادرة * من الجوائف يغلى فوقها الزبد
إذا بكيت فان الدمع منهمل * وإن ونيت فان القول مطرد
قد كنت أسرف فى مالى وتحلفلى * فعلمتنى الليالى كيف أقصد
لما اعتقدتم أنا سالا حلوم لهم * ضعتم وضعتم من كان يعتقد
فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم * حتمكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والأنساب تجمعهم * والمجد والدين والأرحام والبلد

وقال على بن الجهم من قصيدة له

عيد أمير المؤمنين قتله * وأعظم آفات الملوك عييدها
بنى هاشم صبورا فكل مصيبة * سبلى على وجه الزمان جديدها

وهذه الحادثة أول ثمرة لغرس المعتصم فإنه ملك الخلافة قوما لا حلوم لهم وليس لهم من الأخلاق ما يمنعهم مما فعلوا ولا من العصية ما يجعل جانبهم مأمونا وأجل من ذلك أن يكون ولى العهد شريكا فى دم أبيه وهذا أيضا أول حادث من نوعه ويعجبني ما قاله البحترى

أكان ولي العهد أضمر غدره * فمن عجب أن ولي العهد غادره
فلا ملك الباقي تراث الذي مضى * ولا حملت ذاك الدعاء منابره

١١ — المنتصر

هو محمد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها حبشية
ولد سنة ٢٢٢ وعقد له أبوه ولاية العهد سنة ٢٣٥ وسنه ثلاث عشرة سنة . ولما
قتل أبوه بايعه قواد الأتراك عقيب مقتله في ٤ شوال سنة ٢٤٧ (١١ ديسمبر سنة
١٨٦١) واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر
سنة ٢٤٨ (٧ يونية سنة ١٨٦٢) فكانت مدته التي تعجلها بقتل أبيه ستة أشهر
استوزر المنتصر أحمد بن الخصيب وكان كاتبه قبل أن يستخلف وكان مقصرا
في صناعته مطعوناً عليه في عقله وكانت فيه مروءة وحدة وطيش فمن احتمله بلغ منه
ما أراد وقد وصفه المسعودي بأنه كان قليل الخير كثير الشر وقد ندم المنتصر على
ما فعل من تقليده الوزارة ونفيه عبيد الله بن خاقان وزير أبيه بسبب ما شاع من حدة
ابن الخصيب وطيشه وذلك أنه ركب ذات يوم فنظم إليه متظلم بقصة فأخرج رجله
من الركاب فزج بها في صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك فقال بعض
شعراء ذلك الزمان

قل للخليفة يا ابن عم محمد * أشكل وزيرك إنه شكال
أشكله عن ركل الرجال وإن ترد * مالا فعند وزيرك الأموال

الجيش

بقتل المتوكل واستيلاء المنتصر الشاب زادت الأتراك قوة في الدولة على قوتهم
لأن أيديهم امتدت إلى حياة الخلفاء فقتلوا خليفة وساقوا الخلافة إلى خليفة فأنشبو
أظفارهم بذلك في جسم الدولة ولم يكن هناك من حيلة للتخلص منهم لمادب إلى قلوب
الخلفاء من الهية لهم ورعاية جانهم ومما يدل على ذلك أن الأتراك لم يكونوا يحبون أن
تكون ولاية العهد للمعتز والمؤيد ابني المتوكل فأشاروا على المنتصر بخلعهما فأحضرا
دار الخلافة وطلب منهما أن يكتبتا طالبين أن يخلعاهما من ولاية العهد لضعفهما عن ذلك فرضى

المؤيد وأبي المعز فقال له المؤيد يا جاهل تراهم قد نالوا من أهلك وهو هو ما نالوا ثم تمتنع عليهم اخلع ويملك ولا تراجعهم — وما زال به حتى أجاب وكتبنا ما أملى عليهما في ذلك وهذا ما كتبناه — بسم الله الرحمن الرحيم إن أمير المؤمنين المتوكل على الله رضى الله عنه قلدى هذا الأمر وبأيع لى وأنا صغير من غير إرادتى ومحبتى فلما فهمت أمرى علمت أنى لأقوم بما قلدى ولا أصلح لخلافة المسلمين فن كانت بيعتى فى عنقه فهو من نقضها فى حل وقد حملتكم منها وأبرأتكم من أيمانكم ولا عهدلى فى رقابكم ولا عقد وأتم براء من ذلك — ثم دخلا على المنتصر فاعترفا بما فى الكتاب ثم أقبل عليهما والأتراك وقوف وقال لهما أتربانى خلعتكما طمعا فى أن أعيش حتى يكبرولدى وأبأيع له والله ما طمعت فى ذلك ساعة قط وإذالم يكن فى ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبى أحب إلى من أن يليها بنوعمى ولكن هؤلاء (وأوما إلى سائر الموالى ممن هو قائم وقاعد) وألحوا على فى خلعتكما نخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فىأتى عليكما فأتريانى صانعا أقتله فوالله ماتنى دماؤهم كلهم بدم بعضكم فسكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل على

فانظروا كيف كان يحجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ماعقده المتوكل وأكده بالآيمان والمواثيق والعهود . وقد كتب المنتصر بذلك إلى الآفاق وظهر فى كتابه براعة المنشئين فى ذلك الوقت وإن لم تظهر فيه براعة الأخلاق الفاضلة وحفظ العهود والمواثيق وكان الكاتب له هو أحمد بن الخصب

صفات المنتصر

لئن كان الغضب قد حمل المنتصر على تذليل السليل لاهراق دم أبيه فإنه كان يزال ذا نفس تحس فتأثر فلم يزال يلاقى أهوال التوبيخ فى يقظته ومنامه حتى أسقم ذلك بدنه وأذل نفسه . دخل عليه عبدالله بن عمر البازيار ذات يوم وهو يبكى وينتحب فسأله عن سبب بكائه فقال كنت نائما فرأيت كأن المتوكل قد جاءنى فقال لى ويالك يا محمد قلتنى وظلمتنى وغبتنى خلاقتى والله لا تمتعت بعدى إلا أياما يسيرة ثم مصيرك إلى النار فانتهت وما أملك عبنى ولا جزعى . فهون عبدالله عليه الأمر . وكان كثيرا ما يقول إذا سئل عن حاله ذهب والله منى الدنيا والآخرة — فكان الرجل يكابد

نيرانا تضطرم بين جنديه جزاء فعليته وكان بهم أن يكفروسيته فينتقم من قتلة أبيه أو أنه أحس بأن الذين تمسكنوا من قتل أبيه لا يعد عليهم أن يكرروا التجربة فيه فكان يفكر في تفريق جميعهم وأثرت عنه كلمات في ذلك ولكن قوتهم كانت أكبر من أن تتأثر بتفكير ذلك الخليفة الشاب

كان من خلق المنتصر سعة الاحتمال وكثرة المعروف والرغبة في الخير والسخاء والعفة وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وحسن المعاشرة بمالم يسبقه خليفة إلى مثله . وما حبه إلى الناس إزالته عن آل أبي طالب ما كان قدأوحشهم فتقدم بالكف عنهم وترك البحث عن أخبارهم والأيمنح أحد زيارة قبر الحسين رضى الله عنه ولا قبر غيره من آل أبي طالب وأطلق أوقاف الطالبين وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم وما يؤثر من قوله (إن لذة العفو أعذب من لذة التشني وأقبح أفعال المقتدر الانتقام) وقد أظهر الانصاف في الرعية فالت إليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له

وفاة المنتصر

قال الطبرى لم أزل أسمع الناس حين أفضت إليه الخلافة من لدن ولى إلى أن مات يقولون إنما مدة حياته ستة أشهر مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه مستفيضا ذلك على السن العامة والخاصة وكذلك كان فقد أصابته العلة التي قضت عليه يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ ومات مع المصر من يوم الأحد لخمس ليال خلون من شهر ربيع الآخر ويقال إن تلك العلة كانت الذبحة في حلقه وبعضهم يقول كانت وربما خبيثا في معدته ويقال أيضا إنه سم سمه الطيب في مبضع والله أعلم أى ذلك كان

١٢ — المستعين

هو أحمد بن محمد بن المعتمد بن الرشيد وأمه أم ولد صقلية اسمها مخارق ولد سنة ٢٢٠ وبويع بالخلافة في اليوم الذى توفى فيه المنتصر وهو خامس ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونية سنة ٨٦٢) ولم يزل خليفة إلى أن خلع يوم الجمعة ٤ محرم سنة ٢٥٢ (١٥ يناير سنة ٨٦٦) فكانت مدته ثلاث سنوات وثمانية أشهر و٢٨ يوما

كيف انتخب

اجتمع الموالي وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش ومن معهم فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بما رضى به من سميئا فأجمع رأى الثلاثة على ألا يولوا أحدا من أولاد المتوكل لثلاثيغناهم بدم أبيه كما أنهم لم يريدوا إخراجها عن أولاد المعتصم مولاهم فاقترح عليهم تولية أحمد بن المعتصم فقال لهم محمد بن موسى بن شاكر المنجم أتولون رجلا عنده أنه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وأنكم دفعتموها عنه وأنه أحق بالأمر من المتوكل والمتصر فبأى عين يراكم وأى قدر يكون لكم عنده ولكن أطيعوا إنسانا يعرف لكم ذلك . فكانت هذه الكلمات بما وافق هواهم جميعا إلا بغا الكبير فإنه قال لهم نبيهم بمن نهاه ونفرقة فنبى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا . ثم ذكروا أبا العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا هو من ولد مولانا المعتصم ولم نخرجها عنهم ونصطنعه فيعرف ذلك لنا ولم يزالوا ببغا الكبير حتى وافقهم عليه فبايعوه جميعا . وهو أول خليفة من بني العباس لم يكن أبوه خليفة بعد مؤسسى الدولة السفاح والمنصور وأول خليفة تولى بعد ابن عمه

وفي عهده توفى من الأغالبة بأفريقية أحمد بن محمد بن الأغلب سنة ٢٤٩ وخلفه أخوه زيادة الله بن محمد إلى سنة ٢٥٠ وخلفه ابن أخيه محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب إلى سنة ٢٦١

وفي عهده توفى من آل طاهر بخراسان طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين فولى مكانه محمد بن طاهر إلى سنة ٢٥٩

الوزارة في عهد المستعين

لم يكن للخليفة شيء من النفوذ فان الموالي هم الذين حولوا الخلافة عن المعتز بخلعهم إياه من ولاية العهد وهم الذين ساقوها إلى المستعين بلا عهد ولا سابقة فكان من المعقول أن يكون بين أيديهم يفعلون به ما شاؤوا حتى مثل بعض الشعراء بقوله
خليفة في قفص ه بين وصيف وبغا

يقول ما قاله له . كما تقول البيضا

فالوزير من قبلهم يولى فان وافق هواهم رضوا عنه وإن خالفهم فى شىء أزالوه
عن رتبته وأقاموا غيره

تركوا الوزارة فى يد أحمد بن الحصب الذى كان وزيرا للمعتصم ثم لم يلبثوا أن
غضبوا عليه فى جمادى الأولى من سنة ٢٤٨ فاستصفوا ماله ومال ولده ونفوه إلى
جزيرة أقرطش

واختير لوزارة المستعين أتماش أحد قواد الأتراك وكان الذى يقوم بأمر الكتابة
كاتبه شجاع فكان أتماش بذلك صاحب السلطان التام فأطلقت يده فى الأموال ومعه
شاهك الخادم الذى جعله المستعين على داره وكراعه وخزائنه وخاص أموره وضم
إليهما فى النفوذ والتصرف أم المستعين فانه لم يمنعها من شىء تريده وكان كاتبها
سعيد بن سلة النصرانى فكانت الأموال التى ترد على السلطان من الآفاق يصير
معظمها إلى هؤلاء الثلاثة فعمد أتماش إلى ما فى بيوت الأموال من الأموال
فاكتسحه وكان المستعين قد جعل ابنه العباس فى حجر أتماش فكان مافضل من
الأموال عن هؤلاء الثلاثة يؤخذ للعباس فيصرف فى نفقاته وأسبابه وصاحب ديوان
ضياعه يومئذ كاتب اسمه دليل بن يعقوب النصرانى فاقطع من ذلك أموالا جليلة
لنفسه . نظرت الموالى إلى هذه الحال : الأموال تستهلك وهم فى ضيقة وأتماش هو
صاحب المستعين وصاحب أمره والمستولى عليه ينفذ أمور الخلافة ووصيف وبغامن
ذلك كله بمعزل فأغريا الموالى به ولم يزالا يدبران الأمر عليه حتى أحكما التسدير
فدمرت الأتراك والفراغنة على أتماش وخرج إليه منهم يوم الخميس ١٢ ربيع الآخر
سنة ٢٤٩ أهل الدور والكرخ فعسكروا وزحفوا إليه وهو فى الجوسق مع المستعين
وباغته الخبر فأراد الحرب فلم يمكنه واستجار بالمستعين فلم يجره وفى يوم السبت
دخلوا الجوسق فاستخرجوا أتماش من موضعه الذى توارى فيه فقتل وقتل كاتبه
شجاع وانتهت دار أتماش فأخذوا منها أموالا جليلة ومتاعا وفرشا وآلة

استوزر المستعين بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وأبوه كان قبل ذلك
وزيرا للأمون فسكت فى الوزارة نحو ثلاثة أشهر لم يرض فيها أحزاب الموالى لانه
أراد أن يضبط حساب المماسكة . فلم يعجب ذلك بغا الصغير وحبزه فأظهروا له

الغضب فهرب منهم إلى بغداد في شعبان من سنة ٢٤٩
استكتب المستعين بعده محمد بن الفضل الجرجاني وهو الذي كان وزير اللتوكل
قبل ذلك ولم يسمه باسم وزير

العلويون في عهد المستعين

كان الذي في عهد المستعين من أئمة الامامية الاثني عشرية علي الهادي وهو العاشر
من أئمتهم وكان مقياً بسامرا
أما الزيدية فقد خرج منهم :

(أولاً) يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين خرج بالكوفة
وكان قبل خروجه يتردد بين بغداد وسامرا يطالب كبار الدولة بما يصلح من
شأنه فكان يرجع دائماً بالفشل فاستنار جمعا كثيرا من الأعراب وانضم إليهم جمع
من الكوفة فعسكر بهم بضواحي الكوفة ولما علم بخبره محمد بن عبد الله بن طاهر
وجه الجنود إليه فبادر يحيى إلى الكوفة فاستولى عليها وعلى بيت مالها ثم خرج
منها وصار يتردد في السواد ثم عاد إلى الكوفة ودعا إلى الرضا من آل محمد
وكشف أمره وتولاه العامة من أهل بغداد ولا يعلم أنهم تولوا من أهل بيته غيره
أقام بالكوفة بعد العدد ويطبع السيوف ويعرض الرجال ويجمع السلاح . كان الذي
توجه لحربه فرع من فروع الأسرة المصعبية وهو الحسين بن إبراهيم بن مصعب
فلما وصل بجنده إلى ظاهر الكوفة أشار على يحيى جماعة من الزيدية لاعلم لهم بالحرب
بمعاجلة الحسين وألح عليه عوام أصحابه بمثل ذلك فخرج من وراء الخندق ليلة الاثنين
١٣ رجب سنة ٢٥٠ في جمع ليسوا بذى علم ولا تدبير ولا شجاعة فأسروا ليأتهم حتى
صبخوا الحسين وهو وأصحابه مستريحون مستعدون فلم يكن بأسرع أن انهزم جند
يحيى ووضع فيهم السيف وكان أكثر رجالة الكوفة عزلا فداستهم الخيل ولما
انكشف العسكر عن يحيى تقطر به بردونه فقتل وأخذت رأسه إلى محمد بن عبد الله
ابن طاهر فحمله إلى المستعين بسامرا فنصب الرأس بباب العامة بسامرا واجتمع
الناس لذلك وكثروا وتذمروا فرد إلى بغداد لينصب بها فلم يسكن لما أبداه العامة
من كراهة ذلك وقال أبو هاشم داود بن الهيثم الجعفرى في ذلك

يابني طاهر كلوه ويسا * إن لحم النبي غير مرى
إن وترا يكون طالبه الله لو تر نجاحه بالحرى

ومع هذا الميل من الناس إلى العلويين لم يمكنهم الاستفادة من ذلك الميل لأنهم لم يكن لهم تديير منتظم ولا استعانه بذوى التديير والحيل من رجال الحرب (ثانيا) خرج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن ابن علي . خرج بنواحي طبرستان وسبب خروجه أن المستمين أقطع محمد بن طاهر قطاع من صوافى السلطان بطبرستان وذلك بعد ان انتصر على يحيى بن عمر وكان من جملة تلك القطاعات قطيعة قرب نغرى طبرستان من نواحي الديلم وهما كلاروسالوس وبجذاه تلك القطيعة أرض لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطهم ومرامعى مواشيم ومسرح سارحتهم وليس لأحد عليها ملك . وجه محمد بن طاهر جابر بن هارون أخا كاتبه النصرانى لحيازة ما أقطع من تلك الأراضى وكان عامل طبرستان إذ ذاك سليمان بن عبد الله بن طاهر وقد غلب على أمره محمد بن أوس البلخى ومن ولده كان العمال على مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء فاستأذى بهم وبسفهم من تحت أيديهم والرعية واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبد الله سفهم وسيرهم فيهم وزاد على ذلك أن محمد بن أوس وتر الديلم بدخوله إلى ما قرب من بلادهم من حدود طبرستان على غرة وهم أهل سلم وموادعة لأهل طبرستان فسبى منهم ورجع

لما جاء رسول محمد بن طاهر وأراد استلام القطيعة أحب أن يحوز معها تلك الأرض التى تتصل بها من الموات الذى يرتفق به أهل تلك الناحية

كان هناك رجلان معروفان بالبأس والشجاعة وكانا معروفين قديما بضبط تلك الناحية من رامها من الديلم وهما محمد وجعفر ابنا رستم فأنكرا ما فعله جابر ومنعاه وكانا مطاعين فاستنهضا من أطاعهما فهنضوا معهم وهرب جابر خوفا على نفسه ولحق بسليمان بن عبد الله فأيقن الرجلان حيثئذ بالشر وراسلا جيرانهم من الديلم يطلبون منهم المساعدة والمظاهرة على سليمان بن عبد الله فأجابهم الديلم إلى ذلك وتعاقدوا هم وأهل كلاروسالوس أن يعين بعضهم بعضا على حرب سليمان بن عبد الله ومحمد ابن أوس وغيرهما ممن قصدهم بحرب ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه

فاتفقوا على الحسن بن زيد وكان مقبياً بالرى فوجه إليه القوم من دعاه إلى أمرهم فأجاب وتوجه إليهم فبايعوه وبايعه رؤساء الديلم ثم ناهضوا من في تلك النواحي من عمال ابن أوس فطردوهم عنها فلتحقوا بمدينة سارية

ثم زحف الحسن ومن معه على مدينة آمل وهي حاضرة طبرستان وجاء محمد بن أوس يريد دفعه عنها فلم يقدر وفر هارباً . دخل الحسن مدينة آمل فكشف جيشه وغاظ أمره ومال إليه كل طالب نهب ومريد فتنة من الصعاليك والحوزية وغيرهم ثم سار من آمل إلى سارية وبها العامل سليمان بن عبد الله فغلبه عليها ولم يكن له هو ومحمد بن أوس إلا النجاء منها بأنفسهما فهربا إلى جرجان وبذلك تم للحسن بن زيد الاستيلاء على بلاد طبرستان كلها فوجه خيلاً إلى الرى فاستولت عليها وطردت عنها عمال ابن طاهر

ورد الخبر بذلك إلى المستعين ومدير أمره وصيف التركي فوجه إلى همدان قائداً في جمع من الجنود ليقم بها ويمنع خيل الحسن أن تتجاوزها لأن ماوراء همدان كان لمحمد بن طاهر وبه عماله وعليه صلاحه

هكذا نجح الحسن بن زيد في تكوين هذه الدولة التي تعرف بالدولة الزيدية بطبرستان واقتطع من ملك بني العباس أو آل طاهر طرفاً عظيماً تحميه جبال طبرستان والديلم واستمرت هذه الدولة نحو قرن كامل (٢٥٠ - ٣٥٥) تولى فيها :

(١) الحسن بن زيد الداعي ٢٥٠ - ٢٧٠

(٢) محمد بن زيد القائم بالحق ٢٧٠ - ٢٧٩

الدولة السامانية ٢٧٩ - ٣٠١

(٣) الحسن الأطروش بن علي بن عمر بن

زين العابدين ٣٠١ - ٣٠٤

(٤) الحسن بن القاسم بن علي بن عبد الرحمن ٣٠٤ - ٣٥٥

ومعه أولاد الأطروش

ولم تكن هذه الدولة ذات نظام ملكي ولا مرتاحة من الأعداء فان بنى سامان الآتي ذكرهم قتلوا محمد بن زيد واستولوا على طبرستان إلى سنة ٣٠١ ثم ظهر الحسن الأطروش فاسترد طبرستان من آل سامان ولكنه قتل في بعض حروبه مع السامانية

فقام بعده الحسن بن القاسم ونازعه أولاد الأطروش ولم يزل النزاع والخلاف قائما بينهم حتى انتهى أمرهم سنة ٣٥٥ وانقضى الملك الزبدي من تلك الجبال

الجيش

كان ماضنه بغا الكبير في محله فانه قال للقوم (نجيء بمن نهايه ونفرقه فنبقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا) وجدالتحاسد بين هؤلاء القوم وليس للخليفة سلطان يجمع به من بغى منهم فكانت أولى جنائياتهم قتل أتماش لما رأوه قد استبد بأموال الدولة وبمصالحها . ثم اتفق وصيف وبغا على قتل باغر التركي الذى تولى قتل المتوكل لأنهما خافاه على أنفسهما وكان باغر قد جمع اليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل لجدد عليهم البيعة التى كان أخذها عليهم وقال لهم الزموا الدار حتى تقتل المستعين وبغا ووصيفا (وكانا يسميان بالأميرين) ونجىء بعلى بن المعتصم أوبابن الواثق فنقعه خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن على غير شىء فأجابوه إلى ذلك وانتهى الأمر إلى المستعين فبعث إلى وصيف وبغا فقال لهما ما طلبت إليكما أن تجعلانى خليفة وإنما جعلتانى وأصحابكما ثم تريدان أن تقتلانى خلفا له أنهما ما علما بذلك فأعلمهما الخبر فانفق الرأى على التدبير على باغر ففعلا وقتلاه فهاج أصحابه هيجانا شديدا ولم يكن من الأميرين إلا حمل المستعين معهما والانحدار به إلى بغداد يوم الأربعاء ٤ محرم سنة ٢٥١ ونزل المستعين بدار محمد بن عبد الله بن طاهر ولحقهم جماعة من قواد الأتراك فدخلوا إلى المستعين فرموا بأنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم فى أعناقهم تذلا وخضوعا وسألوه الصفع عنهم فقال لهم أنتم أهل بغى وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا إلى فى أولادكم فألحقتم بكم وهم نحو من ألفى غلام وفى بناتكم فأمرت بتصيرهن فى عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف امرأة وفى المدركين والمولودين وكل هذا قد أجبتمك إليه وأدررت لكم الأرزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة وحرمت نفسى لذتها وشهوتها كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم وأتم تزددون بغيا وفسادا وتهددا وإيعادا . فتضرعوا إليه حتى قال قد رضيت عنكم فقال له أحدهم بايكباك إن كنت رضيت عنا وصفححت فقم فاركب معنا إلى

سامرا فان الأتراك ينتظرونك . فإوماً محمد بن عبد الله بن طاهر إلى محمد بن أبي عون فلكرز في حلق بايكباك وقال له هكذا يقال لأمير المؤمنين قم فاركب معنا فضحك المستعين من ذلك وقال هؤلاء قوم عجم ليس لهم معرفة بحدود الكلام وقال لهم المستعين تصيرون إلى سامرا فان أرزاقكم دارة عليكم وأنظر أنا في أمرى ههنا ومقامى . فانصرفوا آيسين منه غاضبين مما حصل لهم فأجمعوا أمرهم على إخراج المعتز والبيعة له وكان المعتز والمؤيد في حبس الجوسق في حجرة صغيرة مع كل واحد منهما غلام يخدمه فأخرجوا المعتز وبايعوه بالخلافة ولأخيه المؤيد بولاية العهد .

وبذلك صارت بغداد في جانب المستعين والقائم بأمره محمد بن عبد الله بن طاهر ومن لف لفه وسامرا في جانب المعتز . كان من أول ما فعله ابن طاهر أن منع الميرة عن سامرا وقام بتحسين بغداد فأدير عليها السور وحفرت حولها الخنادق ورتبت الرجال على أبوابها وأسوارها وكتب المستعين إلى عمال الخراج بكل بلدة وموضع أن يكون حملهم ما يحملون من الأموال إلى بغداد ولا يحملون إلى سامرا شيئاً دارت المكاتبات فكتب المستعين إلى أترك سامرا يأمرهم بنقض بيعة المعتز ومراجعة الوفاء ببيعتهم إياه ويذكرهم أياديه عندهم وينهاهم عن معصيته ونكته بيعته وكان كتابه بذلك إلى سيماء الشرايى . وكتب المعتز إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يدعو إلى الدخول فيما دخل فيه من بايعه بالخلافة وخلع المستعين ويذكره ما كان أبوه المتوكل أخذ له عليه بعد أخيه المنتصر من العهد وعقد الخلافة . فلم تعد هذه المكاتبات شيئاً وهياً المعتز جيشاً لحرب المستعين جعل قيادته لأخيه أبى أحمد بن المتوكل وتديره إلى كلباتكين التركى . خرج هذا الجيش من سامرا فوافى عكبرا في غاية المحرم من سنة ٢٥١ ووصل باب الشماشية ببغداد لسبع خلون من صفر . وقد حصل بين الفريقين مواقع هائلة حول أسوار بغداد وبعيدا عنها وانقطعت بذلك السابلة وخربت الضياع وذهبت الأرزاق وكانت الحرب بين الفريقين في البر وفي النهر . وقد ظلت بغداد مسرحاً للفتن والحروب سنة ٢٥١ كلها وفي آخرها كاتب ابن طاهر المعتز في الصلح وأشيع بين عامة بغداد أن ابن طاهر مال إلى خلع المستعين وأنه وجه قواده فبايعوا المعتز فلما سمعوا ذلك

هاجوا وأظهروا الوقعة في ابن طاهر وشموه أقبح الشتم وتجمعوا حول داره يريدون الايقاع به فكلّم ابن طاهر المستعين وسأله أن يطلع إليهم ويسكنهم ويعلمهم ما عليه ابن طاهر فأشرف عليهم من أعلى الدار وعليه البردة والطويلة وابن طاهر بجانبه خلف لهم بالله ما اتهمه وإنه لني عافية ما عليه من ابن طاهر بأس ووعدهم أن يخرج في غد يوم الجمعة ويصلى بهم فانصرفوا وجاءوا في الغد يطلبون خروج المستعين إليهم فلم يخرج فازداد هياجهم وطلبوا خروج الخليفة من دار ابن طاهر فلم يجد من ذلك بدا وانتقل في أوائل ذى الحجة إلى دار رزق الخادم وكان معه حين انتقاله ابن طاهر ويده الحربة يسير بها والقواد خلفه وكان هذا الانتقال على غير إرادة المستعين

ويقال إن السبب في عدول ابن طاهر عن الاخلاص للمستعين أن عبيد الله بن يحيى بن خافان الذي كان وزيراً للتوكل قال له أطال الله بقاءك إن هذا الذي تنصره وتجد في أمره من أشد الناس نفاقاً وأخبثهم ديناً والله لقد أمر وصيفاً وبغياً بقتلك فاستعظاً ذلك ولم يفعلاه وإن كنت شاكاً فيما وصفت من أمره فسل تخبره . وإن من ظاهر نفاقه أنه كان وهو بسامراً لا يجهر في صلاته بيسم الله الرحمن الرحيم فلما صار إلى ما قبلك جهر بها مرآة لك وتترك نصرة وليك وصهرك وتربيتك . ونحو ذلك من كلام كلبه به فقال محمد بن عبد الله أخزى الله هذا لا يصلح لدين ولا دنيا كان من وراء ذلك أن تخلى محمد عن نصرة المستعين وكانت نتيجة هذا التخلي أن تضعع أمره وانحياز العامة له لم يفده فرأى من مصلحته أن يقبل خلع نفسه واشترط شروطاً تضمن حياته وراحته

وفي يوم السبت ١٠ ذى الحجة سنة ٢٥١ ركب محمد بن عبد الله إلى الرصافة وجمع القضاة والفقهاء وأدخلهم على المستعين فوجأ فوجاً وأشهدهم عليه أنه قد صير أمره إلى محمد بن عبد الله فأرسل حينئذ محمد إلى المعتز من جاء بخطه بقبول الشروط التي طلبها المستعين وعادت الرسل في ثالث المحرم سنة ٢٥٢ وفي رابعه دخل ابن طاهر على المستعين ومعه كتاب الشروط كتبه سعيد بن حميد فقال ابن طاهر يا أمير المؤمنين قد كتب سعيد الشروط وأكده غاية التأكيد فقرأ الكتاب عليك فقال المستعين لا عليك لا عليك فما القوم بأعلم بالله منك وقد أكدت على نفسك قبلهم فكان ما قد علمت — فما رد عليه محمد شيئاً

ولما بايع المستعين للمعتز ببغداد أخذ منه البردة والقضيب والخاتم ووجه ذلك إلى المعتز وأشخص المستعين إلى واسط . ويعجبنى هنا ما قاله أحد شعراء العصر خلع الخليفة أحمد بن محمد . وسيقتل التالى له أو يخلع
 ويزول ملك بنى ابيه فلا يرى . أحد بملك منهم يستمتع
 أيها بنى العباس إن سديلكم . فى قتل أعبدكم طريق مهجع
 رقعتم دنياكم فتمزقت . بكم الحياة تمزقا لا يرفع

الأحوال الخارجية

كان الحال فى الخارج أشد من ذلك وأنكى فان الاضطراب الحادث فى داخلية الدولة كان سببا فى تقاعد أولى الأمر عن حماية الثغور والوقوف فى وجه الروم الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرصة وقد صادف أن قائدين عظيمين من قواد الثغور قتلا فى حرب مع الروم أول عهد المستعين وهما عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى وكانا نابين من أنياب المسلمين شديدا بأسهما عظيما غناؤهما فى الروم فأما أولهما فقد غزا ملطية فقاتله ملك الروم فى جمع عظيم فأحاطوا به فقتل وقتل معه ألفا رجلا وجرأهم قتله على قصد الثغور الجزرية فقصدها وكتبوا عليها وعلى حرب المسلمين فبلغ ذلك على بن يحيى وهو قافل من أرمينية إلى ميفارقين فنفر إليهم فى جماعة قليلة فقتل نحو ٤٠٠ رجلا

لما بلغ ذلك أهل بغداد شق على عامتهم وعظم مقتل الرجلين فى صدورهم مع مالحقهم من استفظاعهم من الاتراك قتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء واستخلافهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر لأمور المسلمين فثاروا وربما كانوا ينجحون فيما إليه قصدوا من ثورتهم هذه لو وجدوا قائدا يدير أمرهم ويعددهم عن الفوضى ولكنهم لم يظفروا به اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنفير وانضمت إليهم الأبناء الشاكريّة وقتحوا أبواب السجون وأخرجوا من فيها ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامرا أموالا كثيرة من أموالهم فقبوا من خف للنهوض إلى الثغور لحرب الروم وأقبلت إليهم العامة من نواحي الجبل وفارس وغيرهما لهذا القصد كل ذلك والخليفة لاه بما هو فيه عن ثغور المسلمين فلم يوجه لها عسكريا ولم تجد حركة العامة شيئا

١٣ - المعتز

هو أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد اسمها قبيجة ولد سنة ٢٣١ وكان أبوه المتوكل جعله ولي عهده بعد المنتصر فلم تتم له الولاية لأن المنتصر أرغمه على أن يخلع نفسه ولما ولي المستعين بعد المنتصر حبسه هو وأخاه المؤيد حتى كانت الفتنة بين قواد المستعين فأخرج المعتز وبويع وتم له الأمر بعد خلع المستعين في رابع محرم سنة ٢٥٢ (٢٥ يناير سنة ٨٦٦) ولم يزل واليا إلى أن خلع لثلاث بقين من رجب سنة ٣٥٥ (١١ يوليه سنة ٨٦٩) فكانت مدة خلافته بعد خلع المستعين ثلاث سنوات وستة أشهر و٢٣ يوما

وزراء المعتز

لم يكن للوزارة في هذا العهد كبير شأن لانحطاط أمر الخلافة نفسها وقد كان الوزراء كتاب أموال فمن أمكنه أن يقوم بحاج كبار الأتراك ومقدمهم بقي في منصبه وإلا عزل وفعلت به الأفاعيل

أول وزراء المعتز أبو الفضل جعفر بن محمود الاسكافي. لم يكن له علم ولا أدب ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا وكانت وزارته على غير رغبة المعتز لأنه كان يكرهه وكان الأتراك فيه فريقين فثارت بسبب ذلك فتنة فعزل من أجل ذلك وتولى الوزارة بعده عيسى بن فرخانشاه ولم يمكث إلا قليلا حتى عزل بسبب فتنة كالأولى فولى بعده أحمد بن إسرائيل الأنباري وهو كاتب حاذق ذكي وكان المعتز يميل إليه لأنه كان يتولى له أموره قبل أن يلى الخلافة فسكث وزيراً إلى سنة ٢٥٥ ومما يدل على قدر ما صار إليه سلطان الخليفة ومبلغ الفساد في أحوال الدولة الكيفية التي عزل بها أحمد بن إسرائيل عن الوزارة هو والكتاب الذين معه

دخل صالح بن وصيف مقدم الأتراك على المعتز وقال له يا أمير المؤمنين ليس للأتراك عطاء ولا في بيت المال مال وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا فقال له أحمد بن إسرائيل يا عاصي يا ابن العاصي ثم لم يزلوا يتراجعان الكلام بحضرة الخليفة حتى سقط صالح مغشيا عليه من شدة الغيظ والحرد فرش على وجهه الماء

وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب فصاحوا صيحة واحدة واخترطوا سيوفهم ودخلوا على المعتز مصلتين فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم وأخذ صالح بن وصيف أحمد ابن إسرائيل الوزير والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم المعتز وأبانوح عيسى بن إبراهيم فقيدهم وطالهم بالمال فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم هب لي أحمد فإنه كاتب وقد رباني فلم يفعل ذلك صالح وبعثت إليه أم المعتز في ابن إسرائيل تقول له إما حملته إلى المعتز وإما ركبت إليك فيه . فلم يقد هذا ولا ذاك شيئا . وهذا دليل على انحطاط عظيم في أمر الخلافة وزاد صالح الأمر شناعة فبعث إلى جعفر بن محمود الاسكافي الذي كره المعتز أن يعمل له وولاه الوزارة رغم أنه

وإسكاف الذي ينتمى إليها جعفر بن محمود قرية من نواحي النهروان بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي وهي إسكاف العليا وهناك إسكاف السفلى بالنهروان أيضا

العلويون في عهد المعتز

في عهد المعتز مات علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا وهو الامام العاشر من أئمة الشيعة الامامية فتولى الشيعة بعده ابنه الحسن العسكري وهو الحادي عشر من أئمتهم وإنما لقب بالعسكري لاقامته بسامرا التي كانت تدعى إذ ذاك بالعسكر أما الزيدية فكانوا قد وجدت لهم دولة ببلاد طبرستان على يد الحسن بن زيد كما تقدم وقد اتهم جماعة من الطالبيين في بغداد والكوفة بالدعوة للحسن بن زيد ووجدت مع بعضهم كتب من الحسن فأمر المعتز بحملهم إليه بسامرا فحملوا إليه ولم يعرض المعتز لهم بمكروه وإنما توثق منهم

حال الجيش والأتراك

استخلف المعتز وأحوال الجند والأتراك على شر ما يكون فهم أصحاب السلطان والنفوذ وهم فيما بينهم مختلفون لأنه لا يد فوق أيديهم تقف كلا منهم عند حده ولا حيلة للخليفة إلا مراعاة جانبهم حيناً وإعمال الحيلة والديسائس حيناً وهكذا يفعل كل من سلب سلطانه ولا قدرة له على استرداده

في أول خلافة المعتز كتب باسقاط اسم وصيف وبغاوهمما كبر قواد الأتراك لما

كان من مساعدتهما المستعين وكان هذا الكتاب مرسلًا إلى محمد بن عبدالله بن طاهر أمير بغداد فبلغ ذلك وصيفا وبغا فجاء إلى محمد وقالوا بلغنا أيها الأمير ما عزم عليه القوم من قتلنا والقوم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه والله لو أرادوا أن يقتلونا ما قدروا خلف لهم محمد بالله أنه لم يعلم بشيء من ذلك فذهب الرجلان وتحزرا وتكلم لهما عند المعتز من أرضاه عنهما ثم اجتمع الأتراك عند المعتز وسأله الأمر بإحضارهما وقالوا هما كبيرانا ورتيساننا فكتب إليهما بالرضا عنهما فذهبا من بغداد إلى سامرا فذهب لزيارتهما في منزلهما وزير المعتز أحمد بن إسرائيل ورددتهما المعتز إلى مراتبهما رغم أنفه بناء على إلحاح الأتراك وردت إليهما ضياءهما

كان من عناصر الجيش المهمة المغاربة وهم ممن اصطنع المعتصم كما اصطنع الأتراك رأى المغاربة ما عليه الأتراك من النفوذ والعلو فساءهم ذلك فاجتمع بعضهم إلى بعض مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد منهم وجاءوا إلى الأتراك وهم بالجوسق من سامرا فغلبوهم عليه وأخرجوهم منه وقالوا لهم في كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيرًا وكانوا قد وثبوا على عيسى بن فرخان شاه الذي كان وزيرًا للمعتز قبل أحمد بن إسرائيل فتناولوه بالضرب وأخذوا دوابه

ولما أخرجت المغاربة الأتراك من الجوسق وغلبوهم على بيت المال أخذوا خمسين دابة مما كان الأتراك يركبونها فاجتمع الأتراك ولموا شعثم فتلقواهم والمغاربة وكان يعين المغاربة الغوغاء والشاكرية فضعفت الأتراك وانقادوا للمغاربة فأصلح جعفر بن عبد الواحد بين الفريقين على ألا يحدثوا شيئًا ويكون في كل موضع فيه رجل من قبل أحد الفريقين يكون فيه آخر من الفريق الآخر فكشوا على ذلك مدة ثم احتال الأتراك على محمد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة حتى ظفروا بهما فقتلوهما والذي تولى ذلك بايكباك أحد كبار قواد الأتراك ولم يفعل المعتز في ذلك شيئًا وعاد النفوذ إلى الأتراك

وفي سنة ٢٥٣ شغب الأتراك والفراغنة والأشروسنية وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر فخرج إليهم بغا ووصيف وسيا الشرابي فكلمهم وصيف وقال لهم ماتريدون قالوا أرزاقنا فقال خذوا ترابًا وهل عندنا مال وقال لهم بغا نذهب فنستأمر أمير المؤمنين ومضى هو وسيا وبق وصيف في أيديهم فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف

ضربتين ووجاه آخر بسكين ثم أجهزوا عليه ونصبوا رأسه على محراك تنور ولما علم بذلك المعتز لم يكن له من العمل إلا أن جعل ما كان إلى وصيف من الأمور إلى بغا الشرايبي . خاف بغا من أن يكون له من هؤلاء يوم كيوم وصيف فصار يحض المعتز على المسير إلى بغداد والمعتز يأبى عليه ذلك لخوفه أن يجرى عليه ماجرى على سلفه . وكان بايكباك كبير الأتراك ومقدمهم بعد بغا منحرفا عن بغا وكانا مهاجرين وكان المعتز مع بايكباك يريد التخلص من بغا فجمع بايكباك جموعه وساعده المعتز حتى تمكن من بغا فقتله ونصب رأسه بسامرا ثم ببغداد ووثبت المغاربة على جثته فأحرقوها بالنار وتبع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بنبي ببغداد وكانوا صاروا إليها هرابا فحبس من ولده وأصحابه نحو ٢٥ شخصا وصارت الكلمة العليا في الأتراك وفي الدولة لصالح بن وصيف وبايكباك

كانت ببغداد بعيدة عن الاضطرابات لأمرين الأول بعد هؤلاء الغلف القلوب عنها والثاني وجود محمد بن عبد الله بن طاهر بها وهو رجل ذوعزم وأيد زيادة على ماله في نفس القوم من الهية ومع ذلك كله فقد مسها طائف من شيطان الاضطراب في سنة ٢٥٢ وذلك أن المعتز كتب إلى محمد بن طاهر يأمره أن يبيع غلال بعض الضياع التي منها أرزاق جند ببغداد وكتب إلى والي البريد ببغداد يأمره أن يقرأ كتابه على من بها من القواد ففعل ذلك دون أن يعلم الأمير ابن طاهر فلما قرى الكتاب على القواد جاؤا إلى ابن طاهر فخبروه الخبر فأحضر والي البريد وقال له ما حملك على هذا بغير علمي وتهده على ذلك ثم اجتمعت الجنود البغدادية إلى باب ابن طاهر تطلب أرزاقها فأخبرهم أن كتاب الخليفة ورد عليه جواب كتاب له كان كتبه بمسألة أرزاق جند ببغداد إن كنت فرضت الفروض لنفسك فأعطهم أرزاقهم وإن كنت فرضت لنا فلا حاجة لنا فيهم — أعطاهم ابن طاهر ما سكنهم به وقتائم اجتمعوا في ١١ رمضان سنة ٢٥٢ ومعهم الأعلام والطبول و ضربوا المضارب والخيم على باب حرب والشماسية وغيرهما وبنوا بيوتا من بوارى القصب وهكذا استعدوا للشغب على ابن طاهر كما يشغب أترك سامرا على المعتز فجمع ابن طاهر الجند القادمين معه من خراسان وأعطاهم شهرين وأعطى جند ببغداد القدماء الفارس منهم دينارين والراجل ديناراً وثمان دارة بالرجال

اجتمع أهل الشعب وعليهم رجل يقال له عبدان بن الموفق وهو رجل قد اعتاد هذه الثورات وهو الذي كان يحض أهل الشغب على الطلب بأرزاقهم وفاتهم وضمن لهم أن يكون رأسا يدبرهم وأن يعينهم بماله حتى ينالوا ما يطلبون . عزهوا بعد اجتماعهم أن يحضروا إلى الجامع فيمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز فذهبوا إلى الامام وحظروا عليه ذلك فتعلل بالمرض ولم يذهب إلى الجامع

وجه إليهم ابن طاهر قواده في جماعة من الفرسان فكانت بين الفريقين حروب ووقائع غلب فيها المشغبون قواد ابن طاهر ثم فسد نظام جماعة المشغبين ووشى بعضهم بسائرهم فقبض على رؤسهم وعوقبوا أشد العقوبات وصلب رئيسهم عبدان بن الموفق وبذلك انتهى هذا الاضطراب وعادت أحوال بغداد إلى ما كانت من الأمن وفي ١٤ ذى القعدة سنة ٢٥٣ توفى الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد واستخلف على إمارته أخاه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهذه نسخة وصيته : —

«أما بعد فقد استخلفت عبيد الله بن عبد الله مولى أمير المؤمنين أخى الموثوق باقتفائه أثرى وأخذه بسد ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين إلى أن يأتيه من أمره ما يعمل بحسبه فاعلم ذلك وأمر فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد الله وأمره إن شاء الله وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة سنة ٢٥٣ وقد أقره المعتز على هذه الولاية وعاش عبيد الله إلى سنة ٣٠٠ وهى سنة وفاته»

خاتمة المستعين سلف المعتز

قدمنا أن المعتز كتب للمستعين شروطا عند خلعها منها تأمينه على حياته وقدأكدوا في هذا الكتاب تأكيداً شديداً وارتضى أن يقيم بالبصرة فقبل له إن البصرة وية فكيف اخترت أن تنزلها فقال المستعين هى أوبأوترك الخلافة . فأشخص المستعين مع محمد بن مظفر بن سيسل وابن أبى حفصة إلى واسط لآلى البصرة فى نحو ٤٠٠ من الفرسان وقبل أن تنتهى السنة بدأ للمعتز فعزم على قتل المستعين ولم يبال بكتاب الأمان فأرسل إلى ابن طاهر يأمره أن يكتب إلى عامل البصرة أن يسلم المستعين لمن نديه المعتز لاستلامه وهو أحمد ابن طولون التركي فأخرج المستعين من واسط لست بقيت من شهر رمضان فوفى به القاطول لثلاث خلون من شوال فقتله

منه سعيد بن صالح وكان في ذلك ختام حياة المستعين وكيفية قتله مهمة مختلف فيها كثيرا وأتى المعتز فيما قيل برأسه وهو يلعب الشطرنج فقيل هذا رأس المخلوع فقال ضعوه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر إليه ثم أمر بدفنه وأجاز سعيد بن صالح بخمسين ألف درهم وولى معونة البصرة

وكالم يابيه المعتز بكتابة أمان المستعين وقتله كذلك لم يابيه لعهد أخيه إبراهيم المؤيد وللأسابقة أخيه أبي أحمد بن المتوكل وهو الذى قاد الجيش إلى بغداد وحصرها حتى أسقط المستعين من عرش الخلافة فانه خلع الأول من ولاية العهد وحبسه ثم أماته وحبس الثانى وضيق عليه وسبب ذلك ان عامل أرمينية العلاء بن أحمد بعث إلى إبراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره فبعث ابن فرخان شاه الوزير إليها فأخذها فأغرى المؤيد الأتراك بابن فرخان شاه وخالفهم المغاربة وكانت فتنة فبعث المعتز إلى أخويه المؤيد وأبي أحمد فحبسهما فى الجوسق وقيد المؤيد وصيره فى حجره ضيقة ثم خلعه عن ولاية العهد يوم الجمعة ٧ رجب سنة ٢٥٢

وبعد هذا الحبس والتضييق والخلع بلغ المعتز أن الأتراك يريدون إخراجه من سجنه فأرسل إلى موسى بن بغا فسأله فأنكر وقال إنما أرادوا أن يخرجوا أبا أحمد ابن المتوكل لأنسهم به كان فى الحرب التى كانت وأما المؤيد فلا . فأغرى ذلك المعتز بأخيه فعمل على موته بدون أثر ظاهر وحول أبو أحمد إلى الحجره التى كان فيها المؤيد ثم نفاه سنة ٢٥٤ إلى واسط ثم إلى البصرة ثم رد إلى بغداد وأنزل إلى الجانب الشرقى فى قصر دينار بن عبدالله

خلع المعتز

لما أخذ صالح بن وصيف الكتاب على الشكل الذى أوضاعناه قبل فى تاريخ الوزراء لم يجد عندهم من المال ما يسد مطامعه ومطامع الجنود الذين معه فذهبت الجنود إلى المعتز وقالوا له أعطنا ارزاقنا حتى نقل لك صالح بن وصيف فأرسل المعتز إلى أمه ذات الثروة الطائلة يسألها أن تعطيه مالا ليعطيهم فأبت أن تعطيه شيئا وأنكرت أن يكون عندها شيء ولما وجد الأتراك أن المعتز وأمه قد امتنعا أن يسمعا لهم بشيء وبيت المال خال اتحدت كلمة الأتراك والفراغنة والمغاربة على خلع المعتز فصاروا

إليه ثلاث بقين من رجب فلم يرعه إلا صياح القوم وإذا صالح بن وصيف وبايكباك
ومحمد بن بغا قد دخلوا عليه في السلاح فجلسوا على باب المنزل الذي ينزله المعتز ثم
بعثوا إليه أخرج الينا فبعث إليهم إني أخذت الدواء أمس وقد أجفنتني اثنتي عشرة
مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف فان كان أمرا لا بد منه فليدخل إلي بعضكم
فليعلمني فدخل إليه القوم فجزوا برجله إلى باب الحجرة وتناولوه كما قيل ضربا بالدبايس
فخرج وقيصه مخرق في مواضع وآثار الدم على منكبته فأقاموه في الشمس في الدار في
وقت شديد الحر فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي قد أقيم
فيه ثم بعثوا إلى قاضي القضاة محضر وأمر المعتز أن يمضي على كتاب خلع كتب له
فأمضى وشهد عليه الحاضرون . ويقال إنه بعد الخلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام
والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمتعوه حتى مات وهكذا انتهت حياة
هذا الخليفة البائس الذي سعى كثيرا للحصول على هذه الخلافة وركب في سبيل الخلاص
من توهمهم مزاحمين له مالا يجوز من خليفة ولا من سوقة فقتل المستعين وخلع أخاه
ثم قتله ونهى أخاه الثاني كل ذلك لتنهأ له الخلافة فلم ينل ما أراد بسبب الفساد المستحكم
في الدولة وقال بعض شعراء العصر في ذلك

عين لا تبخلى بسفح الدموع * واندبى خير فاجع مفجوع
خانته الناصح الشفيق ونالته أ كف الردى بحنف سريع
بكر الترك ناقلين عليه * خلعتة أ فديه من مخلوع
قتلوه ظلما وجورا فألقوه * كريمة الأخلاق غير جزوع
كان يغشى بحسنه بهجة البد * ر قتلناه مظهرا للخضوع
وترى الشمس تستكين فلا تشرق إما رآته وقت الطلوع
لم يهابوا جيشا ولا رهبوا السيف فلهنى على القتيل الخليع
أصبح الترك مالكي الأمر والعاه * لم ما بين سامع ومطيع
وترى الله فيهم مالك الأمر سيجزيهم بقتل ذريع
وقال آخر من قصيدة

أصبحت مقتلى تسح الدموعا * إذ رأت سيد الانام خليعا
لطف نفسى عليه ما كان أملا * وأسراه تابعها متبوعا

ألزموه ذنبا على غير جرم • فتوى فيهم قتيلا صريحا
 وبنو عمه وعم أبيه • أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
 ما بهذا يصح ملك ولا يغزى عدو ولا يكون جميعا
 وكان المعتز أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سلف قبله من
 خلفاء بني العباس وكذلك جماعة من بني أمية يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة
 والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس
 في فعل ذلك

١٤ — المهتدي

هو محمد المهتدي بالله بن هرون الواثق بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية
 يقال لها قرب ، ولد سنة ٢١٨ وبويع له بالخلافة بعد أن خلع المعتز نفسه لثلاث
 بقين من رجب سنة ٢٥٥ (١١ يولية سنة ٨٦٩) ولم يزل خليفة إلى أن خلع في
 ١٤ رجب سنة ٢٥٦ (١٧ يونية سنة ٨٧٠) فكانت مدته ١١ شهرا وأياما

كيف انتخب

لما عزم الأتراك على خلع المعتز أرسلوا إلى بغداد فأحضروا محمدا هذا وقد كان
 المعتز نفاه إليها واعتقله فيها فأتى به في يوم وليلة إلى سامرا فنلقاه الموالي في الطريق
 ودخل إلى الجوسق فعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع
 كلامه فأتى بالمعتز وعليه قيص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد وثب إليه
 فغائقه وجلسا جميعا على السرير فقال له محمد يا أخى ما هذا الأمر قال المعتز أمر
 لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له فأراد محمد أن يتوسط أمره ويصلح الحال بينه
 وبين الأتراك فقال المعتز لا حاجة لي فيها ولا يرضونى لها فقال محمد فأنا في حل من
 بيعتك قال أنت في حل فلما جعله في حل من بيعته حول وجهه عنه فأقيم عن حضرته
 ورد إلى محبسه وكان من أمره ما قدمنا

وزراء المهتدي

أبقى المهتدي محمود بن جعفر الاسكافي على وزارته مدة قليلة ثم عزله واستوزر

من بعده سليمان بن وهب بن سعيد . وهو من بيت قديم في الكتابة منذ عهد معاوية ابن أبي سفيان وكان جده سعيد في خدمة آل برمك وكان أبوه وهب في خدمة جعفر بن يحيى البرمكي ثم تحول إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل وهو القائل فيه عجت لمن معه وهب كيف تهمة نفسه ثم استكتبه الحسن بن سهل بعده . أما سليمان فكتب للسامون وعمره ١٤ سنة ثم لايتاخ ثم لاشناس وولى الوزارة للهندي وللعتمد وكان أخوه الحسن بن وهب يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ومن طريق المدح ما قاله أبو تمام في سليمان بن وهب :

كل شعب كتم به آل وهب * فهو شعبي وشعب كل أديب
إن قلبي لكم لكالكبد الحر * ي وقلبي لغيركم كالقلوب
وقال فيه البحترى :

كان آراءه والحزم يتبعها * تريبه كل خفي وهو إعلان
ماغاب عن عينه فالقلب يكلؤه * وإن تم عينه فالقلب يقظان
وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدبا وكتابة في الدرج أو الدستور وأحد عقلاء العالم وذوى رأى منهم واستمر وزيرا للهندي إلى أن خلع حدث عبد الله الباقطاني وكان يتقلد ديوان المشرق قال دخلت مع أبي العباس ابن ثوابة إلى المهدي وكان سليمان بن وهب وزيره وكان يدخل إليه الوزير وأصحاب الدواوين والعمال والكتاب فيعملون بحضورته فيوقع إليهم في الأعمال فأمر سليمان أن يكتب عنه عشرة كتب مختلفة إلى جماعة من العمال فأخذ سليمان بيد أبي العباس بن ثوابة ثم قال له أنت اليوم أحد ذهنا مني فهلم تتعاون فدخلا بيتا ودخلا معهما وأخذ سليمان خمسة أنصاف وأبو العباس خمسة أنصاف آخر فكتبها الكتب التي أمر بها سليمان ما احتاج أحدهما إلى نسخة وقد أكمل كل واحد منهما ما كتب به صاحبه فاستحسنه وقرظه ثم وضع سليمان الكتب بين يدي المهدي فقال له وقد قرأها أحسنت يا سليمان ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل وكان سليمان إذا ولي عاملا أخذ منه مالا معجلا وأجل له مالا إلى أن يتسلم عمله فقال له يا أمير المؤمنين هذا قول لا يخلو من أن يكون حقا أو باطلا فان كان باطلا فليس مثلك من يقوله وإن كان حقا وقد علمت أن الأصول محفوظة فما يضر من يساهمني من عمالي على بعض ما يصل

إليهم من بر من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال . فقال إذا كان هكذا فلا بأس
ثم قال له اكتب إلى فلان العامل بقبض ضيعة فلان المصروف المعتقل في يده يباقي
ماعليه من المصادرة فقال له أبو العباس بن ثوابة كلنا يا أمير المؤمنين خدمك
وأولياؤك وكلنا حاطب في حبلك وساع فيما أرضاك وأيد ملكك أفنمضى ماتأمر به
على ماخيلت أم نقول بالحق قال بل قل بالحق يا أحمد فقال يا أمير المؤمنين الملك
يقين والمصادرة شك أفترى أن أزيل اليقين بالشك قال لا قال فقد شهدت
للرجل بالملك وصادرته عن شك فيما بينك وبينه وهل خانك أم لا فجعل المصادرة
صلحا فإذا قبضت ضيعته بها فقد أزلت اليقين بالشك فقال له صدقت ولكن
كيف الوصول إلى المال فقال له أنت لا بد لك من عمال على أعمالك وكلهم يرتزق
ويرتفق فيحوز رفقهم ورزقه إلى منزله فاجعله أحد عمالك ليصرف هذين الوجهين
إلى ماعليه ويسدعه معاهلوه فينخلص بنفسه وضيعة ويعود إليك مالك فأمر سليمان
به وهب أن يفعل ذلك

وقد سقنا هذه الحكاية لتبين ما كان عليه العمال إذ ذاك من تحليل الارتفاق
وإقامة البرهان بين يدي الخليفة على جوازه وليس ارتفاق العامل بالإرشوة وما هذا
المعجل والمؤجل الذي لاحظ المهتمدى على وزيره أليس هو رشوة ومع ذلك نراه
احتج له وأقع خليفته بأنه لا ضرر فيه وكذلك قول ابن ثوابة فهو حق شيب
يباطل وباطل أشبه الحق

صفات المهتمدى

كان المهتمدى من صالح بنى العباس يكره الظلم ويحب رفعه وبني قبة لها أربعة أبواب
وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص المظالم وأمر بالمعروف ونهى عن
المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان وأظهر العدل وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد
الجامع ويؤم بهم وكان فيه ديانة وتقشف حتى أن الجند تأسوا به إلا أن الدولة
كانت وصلت إلى الدرجة التي لا يصلحها فيها مثل المهتمدى في صلاحه وكثرة عبادته
في بدء خلافته كان موسى بن بغا أميرا على الرى وقائدا للجنود التي تتولى حرب
الحسن بن زيد الطالبى فلما بلغه ما فعل صالح بن وصيف بالمعتز وبيعة المهتمدى ترك

ذلك الثغر وأقبل مريدا سامرا فكتب الخليفة إليه كتبا كثيرة يطلب إليه بها البقاء بموضعه فلم يفعل ثم أرسل إليه في ذلك رسلا من بني هاشم فلم يطع وكان صالح ابن وصيف يتخوف عودة موسى فكان يعظم انصرافه عن الثغر وينسبه إلى المعصية والخلاف . قدم موسى سامرا حنقا على صالح فاخترق منه ودخلت جنود موسى على المهتدي وهو جالس للمظالم فأقاموه من مجلسه وحملوه إلى معسكرهم فقال لموسى ما تريد ويحك اتق الله وخفه فانك تركب أمرا عظيما فرد عليه موسى خيرا ثم أخذوا عليه العهود والمواثيق الأيمالي صالحا عليهم ففعل لجذدوا له البيعة في ١٢ محرم سنة ٢٥٦ وثمان بقين من صفر قتل صالح بن وصيف بعد خطوب طويلة وكان أصحاب موسى قد اتهموا المهتدي باخفائه فأرادوا خلعه فانتشر الخبر في العامة فكتبوا رقاعا ألقوها في المسجد الجامع وفي الطرقات ونص هذه الرقاع (بسم الله الرحمن الرحيم يا معشر المسلمين ادعوا الله لخيفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن الخطاب أن ينصره على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه فان الموالي قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام والمدبر لذلك فلان وفلان رحم الله من اخلى النية ودعا وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم) فلما بلغ ذلك الأتراك خافوا ثورة العامة فأرسلوا إلى المهتدي يخبرونه أنهم يبذلون دماهم دونه وشكوا مع ذلك سوء حالهم وتأخر أرزاقهم وما صار من الاقطاعات إلى قوادهم التي قد أجهفت بالضياع والخراج وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا كثيرا من أموال الخراج . وهذه الشكوى كانت في الحقيقة بدء انقلاب جديد لو وجدت خليفة قويا ينتفع بها لأنها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذين أقطعوا ضياعا كثيرة لم يلتفتوا إلى إصلاحها فخربت وأدى ذلك إلى نقصان الخراج حتى لم يكن عند الخليفة ما يسد به حاجة الجند كتب إليهم المهتدي يذكر سروره من طاعتهم وأخبرهم أنه يعز عليه ما ذكروا من حاجتهم ولكن ليس لديه ما يرفع عنهم هذه الخلة وأنه سينظر في أمر الاقطاعات ويسير فيها على ما يحبون . فأعادوا عليه الكتاب مبينين ما يطلبون وهو

(١) أن ترد الأمور إلى أمير المؤمنين في الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض
(٢) أن ترد رسوهم إلى ما كانت عليه أيام المستعين وهو أن يكون على كل

تسعة عريف منهم وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد

(٣) ألا يدخل مولى في قبالة ولا غيرها

(٤) أن يوضع لهم العطاء كل شهرين على ما لم يزل

(٥) أن تبطل الاذطاعات وأن يكون أمير المؤمنين يزيد من شاء ويرفع من شاء وذكروا أنهم سيصيرون إلى باب أمير المؤمنين حتى تقضى حوائجهم وأنه إن بلغهم أن أحدا اعترض على أمير المؤمنين في شيء من الأمور أخذوا رأسه وإن سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحا وياجور وبكالب وغيرهم

وهذه المطالب كلها في مصلحة الخلافة لذلك أجابهم إليها المهتدي موقعا بخطه إجابة إلى كل ما سألوا. فوصلهم كتابه وفيه اعتذار عن رؤسائهم ومع كتابه رسل هؤلاء الرؤساء يعتذرون إليهم

فأعادوا الكتاب يقولون لا نرضى حتى يخرج الخليفة خمس توقيعات بطلباتهم ثم يصير أمير المؤمنين الجيش إلى أحد إخوته أو غيرهم ليسفر بينهم وبينه بأمرهم ولا يكون رجلا من الموالى وأن يحاسب الرؤساء على ما عندهم من الأموال. وكتبوا إلى القواد بمثل ما كتبوا به إلى المهتدي وأخبروهم أنه إن شاكته شوكة أو أخذ منه شعرة أخذوا رؤسهم جميعا

فلما جاء كتابهم المهتدي كتب لهم بكل ما يريدونه ودفع لهم التوقيعات الخمس التي طلبوها وكذلك كتب لهم موسى بن بغا. فلما وصلتهم الكتب والتوقيعات كان بينهم اختلاف وهرج كثير فطائفة يقولون نريد أن يعز الله أمير المؤمنين ويوفر علينا أرزاقنا فانا قد هلكنا بتأخيرها عنا — وطائفة يقولون لا نرضى حتى يولى علينا أمير المؤمنين أحد إخوته فيكون واحدا بالكرخ وآخر بسامرا ولا نريد أحدا منا يكون علينا رأسا ولم يكتبوا للمهتدي جوابا شافيا. فأرسل إليهم المهتدي يسألهم عن سبب اجتماعهم بعد أن أجيبت طلباتهم ففترقوا ثم عادوا إلى الاجتماع

كانت كل هذه الأحوال فرصا لخلاص المهتدي من سيادة القواد الأتراك فلم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ويظهر أنه أراد استعمال الحيلة في الخلاص منهم فأنفذ جند المحاربة خارجي وفيه موسى بن بغا وبايكباك ومفلح

فكشبت المهتدي إلى بايكباك يأمره أن يضم العسكر الذي مع موسى إلى نفسه وأن يكون هو أمير الجيش وأن يقتل موسى ومفلحا — فلما وصل الكتاب بايكباك ذهب إلى موسى وأراه إياه وقال له إنى لست أفرح بهذا وإنما هو تدبير علينا جميعا وإذا فعل بك اليوم شيء فعل بى غدا مثله فما ترى قال أرى أن تصير إلى سامرا وتظهر له أنك فى طاعته فانه يطمئن إليك ثم تدبر فى قتله فقدم بايكباك فدخل على المهتدى فأظهر المهتدى الغضب من مخالفته حيث لم يقتل موسى ومفلحا فاعتذر إليه بايكباك فاحتبسه المهتدى عنده وأخذ سلاحه ولما رأى الجند الذين معه غيبته عنهم جاشوا وأحاطوا بالجوسق فلما رأى المهتدى ذلك استشار صالح بن على ابن يعقوب بن المنصور فأشار عليه أن يفعل ما فعله المنصور بأبى مسلم فأمر المهتدى بضرب عنق بايكباك فضرب عنقه والأتراك مطيفون بالجوسق بسلاحهم فلم يرعهم إلا الرأس بايكباك بين أيديهم أمر المهتدى برميها إليهم فلما رأوها اضطربوا واستعدوا للقتال فخاربتهم الفراغنة والمغاربة والأشروسنية وكثر بينهم القتل ثم انفصل الفريقان وذهب الأتراك فقموا أنفسهم وجاء منهم زهاء عشرة آلاف وخرج المهتدى وفى عنقه مصحف يدعو الناس إلى نصرته فلما التحم القوم مال الأتراك الذين مع المهتدى إلى إخوانهم وبقى فى المغاربة والفراغنة ومن خف من العامة فحملت عليهم الأتراك حملة شديدة ففروا منهزمين معهم المهتدى والسيوف فى يده مشهور وهو يقول يا معشر الناس انصروا خليفتمكم : حتى صار إلى دار محمد بن يزيداد وفيها أحمد بن جميل صاحب الشرطة فدخلها ووضع سلاحه فعلم الأتراك خبره فجأوا إليه وقبضوا عليه وحملوه إلى داره مهانا وذلك فى ١٤ رجب سنة ٢٥٦ ثم خلعهو لما أبى أن يخلع نفسه ثم مات لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦

١٥ — المعتمد

هو أحمد المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد كوفية اسمها فتيان ولد سنة ٢٣١ وبويع له بالخلافة من غير عهد سابق يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦ (١٩ يونيو سنة ٨٧٠) ولم يزل خليفة حتى توفى ليلة الاثنين لآحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) فكانت

مدته ٢٣ سنة وثلاثة أيام وكان يعاصره في الأندلس محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٧٣ ثم ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥) ثم عبدالله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠) وفي إفريقية وصقلية من الاغلبة محمد بن أحمد بن الأغب المتوفى سنة ٢٦١ ثم أخوه إبراهيم المتوفى سنة ٢٨٩

وفي اليمن من آل زياد يزيد إبراهيم بن محمد بن إبراهيم (٢٤٥ - ٢٨٩)

وفي اليمن من آل الحوالمى بصنعاء محمد بن يعفر (٢٥٩ - ٢٧٩)

وفي خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر (٢٤٨ - ٢٥٩)

وهو آخر الأمراء الطاهرية بخراسان

ويعاصره في طبرستان الحسن بن زيد (٢٥٠ - ٢٧٠) ثم أخوه محمد بن زيد

(٢٧٠ - ٢٧٩)

ويعاصره في بلاد الروم بالقسطنطينية الملك بسيل الصقلي (٨٦٧ - ٨٨٦) ثم لاون

السادس الملقب بالفيلسوف (٨٨٦ - ٩١١)

ويعاصره في فرنسا شارل الملقب بالأصلع (٨٤٠ - ٨٧٧) ثم لويز الثاني الملقب

بالتتام إلى سنة ٨٧٩ ثم لويز الثالث إلى سنة ٨٨٢ ثم كارلومان إلى سنة ٨٨٤

ثم شارل الملقب بالغليظ إلى سنة ٨٨٧ وكان امبراطور المانيا أيضا ثم أودون الذي

توفى سنة ٨٩٨

الأحوال الداخلية

كانت نتيجة طلبات الأتراك أن يتولى أمر الجيش أحمد إخوة أمير المؤمنين وألا يرأسهم أحد منهم لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة أن ولى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة بن المتوكل أمر الجيش والولايات فولاه في صفر سنة ٢٥٧ الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ثم ولاه في رمضان من هذه السنة بغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس. وفي ربيع الأول سنة ٢٥٨ عقد له على ديار مضر وقنسرين والعواصم فصار السلطان الفعلي لأبي أحمد لا للخليفة وصارت كلمة أبي أحمد هي العليا على الأتراك وقوادهم فكان ذلك مما حسن الأحوال العامة بعض التحسين وإن كانت ساءت أحوال المعتمد نفسه لأنه لم يترك له شيء من

التصرف حتى أنه احتاج في بعض الأحيان إلى ثلثمائة دينار فلم يجدهما فقال
 أليس من العجائب أن مثلى * يرى ما قل ممتعا عليه
 وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا * وما من ذاك شيء في يديه
 إليه تحمل الأموال طرا * ويمنع بعض ما يجبي إليه
 كان أبو أحمد الموفق بن المتوكل رجلا صاحب عزيمة ثابتة ومحنة للغلب والسلطان
 وعلى يديه تمت الحوادث الجسام في عهد المعتمد وسنقتها بعد أن نذكر إجمال
 الوزارة لعهد

كان الذى يولى الوزراء هو أبو أحمد الموفق لأن المعتمد لم يكن له إلا الخطبة
 والسكة والاسم وما عدا ذلك فهو لأخيه

كان أول الوزراء عبيد الله بن يحيى بن خاقان وقد قدمنا ذكره إذ كان وزيرا
 للمتوكل ولما عرضت عليه الوزارة كرهها وتنصل منها ولكنهم أبوا إلا إياه فرضى
 بعد ذلك الأباء وكان عبيد الله خيرا بأحوال الرعايا والأعمال ضابطا للأموال ولم
 يزل وزيرا إلى سنة ٢٦٣ حيث مات بسقوطه عن دابته في الميدان وصلى عليه أبو أحمد
 ابن المتوكل ومشى في جنازته

استوزر بعده الحسن بن مخلد وكان كاتباً لأبي أحمد الموفق فاجتمعت له وزارة
 المعتمد وكتابة الموفق . وأصله من ديرقنى وكان أحد كتاب الدنيا قالوا كان له
 دفتر صغير يعمل به يده فيه أصول أموال المملوكه ومحمولاتها بتاريخها فلا ينام كل
 ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه بحيث لو سئل في الغد عن أى شيء كان منه أجاب من
 خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور . ولم يمكث في وزارة المعتمد كثيرا فان
 مدته لاتزيد على ١٦ يوما من ١١ ذى القعدة سنة ٢٦٣ إلى ٢٧ منه وذلك لقدم
 موسى بن بغا أحد كبار قواد الأتراك فانه لم يكن على وفاق معه فهرب إلى بغداد
 عقب حضوره

ولى الوزارة بعده سليمان بن وهب وهو الذى كان وزيرا للبهتدى وقد قدمنا
 صفته وبيته وولى عبد الله بن سليمان كتابة أبى أحمد الموفق إلى ما كان له قبل ذلك
 من كتابة موسى بن بغا

وفى سنة ٢٦٤ خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرا حيث يقم الخليفة فلما

صار بها غضب عليه المعتمد وحبسه وقيدته وانهب داره ودارى ابنه وهب وإبراهيم وأعاد إلى الوزارة الحسن بن مخلد لثلاث بقين من ذى القعدة فلما علم بذلك الموفق شخص من بغداد ومعه عبد الله بن سليمان فلما قرب من سامرا تحول المعتمد إلى الجانب الغربي فسكر به ونزل أبو أحمد ومن معه جزيرة المؤيد واختلفت الرسل بينهما . ولما كان بعد أيام خلون من ذى الحجة صار المعتمد إلى حراقة في دجلة وصار إليه أخوه أبو أحمد في زلال نخل المعتمد عليه وعلى من معه من القواد وفي ثامن ذى الحجة عبر جند أبي أحمد إلى جند المتوكل على وفاق وأطلق سليمان بن وهب ورجع المعتمد إلى الجوسق وهرب الحسن بن مخلد وأحمد بن صالح بن شيرزاد وكتب في قبض أموالهما وأموال أسابهما

ولم يدم رضا أبي أحمد طويلا عن سليمان بن وهب فانه غضب عليه سنة ٢٦٥ وأمر بحبسه وحبس ابنه عبد الله فحبسا وعدة من أسابهم في دار أبي أحمد وانتهت دور عدة من أسابيه ووكل بحفظ دارى سليمان وابنه عبد الله وأمر بقبض ضياعهما وأموالهما وأموال أسابهما وضياعهما خلا أحمد بن سليمان ثم صولح سليمان وابنه عبد الله على ٩٠٠٠٠٠ دينار وصيرا في موضع يصل إليهما من أحبا

وقد مات سليمان بن وهب في حبس أبي أحمد سنة ٢٧٢

ولى الوزارة بعده للمعتمد أبو الصقر إسماعيل بن بلبل وهو عربي ينتسب إلى شيان ولكن نسبه كان مغموزا ومن مساورة الظنون للبتهم أن ابن الرومى الشاعر مدح أبا الصقر بقصيدة نونية مطلعها

أجنت لك الوصل أغصان وكشبان • فيهن نوعان تفاح ورمان
يقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيان قلت لهم • كلا لعمرى ولكن منه شيان
كم من أب قد علا بابن له شرفا • كما علا برسول الله عدنان
فلما سمع أبو الصقر قوله قلت لهم كلا ظن أن ابن الرومى قد هجاه بذلك باطنا وأنه عرض بأنه دعى واشتبه على أبي الصقر الأمر فاستحكم ظنه فأعرض عنه وتوصل ابن الرومى إلى إفهامه معنى الشعر فلم يقبل في ذلك قول قائل وقيل له ياسبحان الله فانظر إلى البيت الثانى وحسن معناه فانه معنى مخترع مامدح أحد بمثله قبلك فلم يصغ

وحزم بأن ابن الرومي هجاه فكان ذلك داعيا إلى أن سئل ابن الرومي عليه لسانه
وهجاه فأخش في هجائه ومما هجاه به قوله

مهلا أبا الصقر فكم طائر * خر صريعا بعد تحليق

زوجت نعمي لم تكن كفؤها * فصانها الله بتطبيق

لا قدست نعمي تسربلتها * كم حجة فيها لزندق

وكان أبو الصقر كرميا مطعاما متجملا وبلغ في الوزارة مبلغا عظيما وجمع له
السيف والقلم فنظر في أمر العساكر أيضا وسمى الوزير الشكور

وفي سنة ٢٧٨ قبض على أبي الصقر وأسبابه وانتهت منازلهم وخلع بعد ذلك على
عبيد الله بن سليمان بن وهب وولى الوزارة وكان من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب
وقدم ذكر أبيه سليمان وبيته وبيت وهب

ومن خدموا في كتابة الموفق أبو أحمد صاعد بن مخلد خلع عليه سنة ٢٦٥
واستعمله الموفق في قود الجيوش مع الكتابة ومن أجل ذلك سمي ذا الوزارتين
سنة ٢٧٠ وقبض عليه الموفق سنة ٢٧٢ وعلى ابنه أبي عيسى وأبي صالح وعلى
أخيه عبدون

وعلى الجملة فإن أحوال الوزارة كانت لذلك العهد مضطربة جدا وقد استوزر بعض
من سميها من الوزراء أكثر من مرة

العلويون

في عهد المعتمد على الله توفي أبو محمد الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد
الجواد بن علي الرضا بن موسى السكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين
العابد بن الحسين بن علي وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الامامية الاثني عشرية
والذين في عمود نسبه إلى علي بن أبي طالب تسعة أئمة والعاشر هو الحسن بن علي
وكانت وفاة الحسن العسكري سنة ٢٦٠ بسامرا ودفن بها بجانب أبيه علي الهادي
ولما توفي اختلفت الشيعة بعده اختلافا كثيرا وجمهورهم على أن الامام بعده ابنه
محمد العسكري وهو الثاني عشر من أئمتهم قالوا إنه دخل سردابا في دار أبيه بسامرا
وأمه تنظر اليه فلم يخرج اليها وسيظهر فيملا الدنيا عدلا كما ملئت جورا ويسمونه

المنتظر والقائم والمهدي والشيعة ينتظرون خروجه من ذلك السرداب
ويقول غيرهم إن الحسن العسكري لم يعقب وإن سلسلة الأئمة انقطعت بوفاته
وبعضهم يتولى أخاه جعفر بن علي

لم يسكت الذين يريدون الانتفاع من التشيع وتأثر جمهور المسلمين به بل وجهوا
وجوههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق فقد كان له سبعة من الأولاد
منهم عبد الله الأفتح ومحمد وموسى وإسماعيل

فقال قوم إن الامامة بعد جعفر لابنه عبد الله الأفتح لأنه أسن أولاد الصادق
وزعم بعضهم أن جعفر انص على إمامته بعده ومع ذلك فإنه لم يعش بعد أبيه إلا سبعين
يوماً ولم يعقب ولداً ذكراً

وقال قوم إن الامامة من بعده لابنه محمد ورووا عنه أنه قال إن صاحبكم اسمه
اسم نبيكم .

وقال قوم منهم الاثنا عشرية الذين ذكروا نام إن الامامة من بعده لابنه موسى
وروا عنه أنه قال سابعكم قائمكم واجتمع عليه جمهور الشيعة وساقوا الامامة
في أولاده كما بينا

ومنهم من قال إن الامام بعد جعفر ابنه اسمعيل نصاً عليه من أبيه جعفر ثم اختلفوا
فمن قائل إنه عاش بعد أبيه ومن قائل إنه مات في حياة أبيه وفائدة النص بقاء الامامة
في أولاده دون غيره وساقوا الامامة من بعده إلى ابنه محمد ويقال لهؤلاء الشيعة
الاسماعيلية نسبة إلى اسمعيل بن جعفر الصادق وهم إمامية يتفقون مع الامامية
الاثنى عشرية في المبدأ العام للتشيع الامامي وهو أنه لا بد للناس من امام معصوم
يبلغهم الشريعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن الشريعة لا تؤخذ بالرأى
ويتفقون معهم على إمامة الستة من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق ومنه
يبتدىء الاختلاف فالاثنا عشرية ذهبوا إلى فرع موسى الكاظم والاسماعيلية ذهبوا
إلى فرع اسمعيل

ولما كان الامام هو حجة الله على خلقه وأنه لا بد من وجوده ليؤدى ما نيظ به من
تبليغ الشريعة وأحكامها ورأوا أنه لم يبق أحد من ولد اسمعيل بالظهور للناس قالوا
إن الامام قد يكون مستورا مكتوماً عن الناس خبره وحيث لا بد له من نائب

يكون هو الحجة وهو القائم بالدعوة والتبليغ عنه وساقوا الامامة إلى محمد بن إسماعيل ثم إلى أولاده من بعده وظهرت الدعوة إلى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكري خاتمة أئمة الشيعة الاثني عشرية وكان لهم تعاليم دينية يسترون كثيرا منها عن الناس ومن أجل ذلك قيل لهم الباطنية ويقدمون هذه التعاليم برفق وتأن لمن يدعونه حتى يجيهم إلى بغيتهم وقد حاول قوم أن يربطوا نخلة هؤلاء القوم بالنخلة الديصانية وهي نخلة تنسب إلى رجل يعرف بابن ديصان خرج بالبلاد الفارسية قبل ظهور الدين الاسلامي بعد ظهور مرقيون بنحو ثلاثين سنة وكان ظهور مرقيون في السنة الأولى من ملك ططوس بن أنطونيانوس الرومي وجاء بعد ابن ديصان ماني وهذه المذاهب الثلاثة متقاربة في أصولها فالمرقونية يقولون بوجود أصليين قديمين هما النور والظلمة وقالوا إن ههنا كونا ثالثا هو الحياة وهو عيسى وزعمت طائفة أن عيسى رسول ذلك الكون الثالث وهو الصانع للأشياء بأمره وقدرته إلا أنهم أجمعوا على أن العالم محدث وأن الصنعة بيّنة فيه لا يشكركون في ذلك وزعموا أن من جانب الزهومات والمسكر وصلّى الله دهره وصام أبدا أفلت من جبايل الشيطان وقالوا بتنزيه الله عز وجل عن الشرور وأن خلق جميع الأشياء كلها لا يخلوا من ضرر والله متبزه عنه

أما الديصانية الذين جاؤا على أثرهم فتقول أيضا بالأصليين النور والظلمة وتقول طائفة منهم إن النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلحها فلما حصل فيها ورام الخروج منها امتنع ذلك عليه وقالت طائفة إن النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشوتها وتنتها فشابكها بغير اختيار وزعم ابن ديصان أن النور جنس واحد والظلمة جنس واحد وزعم بعض الديصانية أن الظلمة أصل النور وذكر أن النور حي حساس عالم وأن الظلمة بصد ذلك عامية غير حساسة ولا عالمة فتكارها ولهم كتب كثيرة في مذهبهم .

والمانية يقولون أيضا بالأصليين النور والظلمة وهما مبدأ العالم فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدد وهو الاله وزعم أنه أزلّ بصفاته ومعه شيان اثنان أزليان أحدهما الجو والآخر الأرض — والأصل الثاني الظلمة وله كلام طويل في بدء كون الانسان واشتباكه مع إبليس وغلبة الثاني الأول ثم خلاص الثاني من هذه الشباك

وفرض لمتبعيه فرائض أوجب عليهم اتباعها وسن لهم عبادات من الصلاة والصوم . وقد دان بتلك الشريعة كثيرون من أمة الفرس وكان لهم بعد ماني أئمة يدينون بطاعتهم قبل الاسلام وبعد ظهوره ولهم كتب دينية كتبها لهم ماني ومن بعده من الأئمة . وقد نسب كثير من فلاسفة المسلمين إلى اعتقاد مذهب ماني وكانوا يعرفون بالزنادقة وهم الذين تجرد لهم المهدي وابنه الهادي فقتل منهم عددا كبيرا قال ابن النديم في الفهرس قيل إن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة وقيل في الفضل وأخيه الحسن بن سهل مثل ذلك وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدي زنديقا واعترف بذلك فقتله المهدي قرأت بخط بعض أهل المذهب أن المأمون كان منهم وكذب في ذلك وقيل كان محمد بن عبد الملك الزيات زنديقا . ومن رؤسائهم يزدان بنخت وهو الذي أحضره المأمون من الري بعد أن أمنه فقطعه المتكلمون فقال له المأمون أسلم يا يزدان بنخت فلو لا ما أعطيناك إياه من الأمن لكان لنا ولك شأن فقال يزدان بنخت نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون أجل

قال الذين يريدون تأكيد الصلة بين الديسانية والباطنية إن عبد الله بن ميمون القداح كان هو وأبوه ميمون ديسانين وادعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة وكان يظهر الشعائذ ويذكر أن الأرض تطوى له فيمضي أين أحب في أقرب مدة وكان يخبر بالأحداث والكائنات في البلدان الشاسعة وكان له مرتبون في مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونونه على نواميسه ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذي فيه بيته فيخبر من حضره بما يكون فيموره ذلك عليهم وكان انتقل فنزل عسكر مكرم فكبس بها فهرب منها فنقضت له داران في موضع يعرف بسباط أبي نوح فبنيت إحداهما مسجدا والأخرى تمت على خرابها وصار إلى البصرة فنزل على قوم من أولاد عقيل ابن أبي طالب فكبس هناك فهرب إلى سلمية ومن هناك ابتدأت الدعوة ويزعم أصحاب هذا القول أن عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية العبيدية من نسل هذا الرجل وأن عبيد الله هو سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح وأنه تسمى بعبيد الله لما ورد مصر

وهذا كلام كله يظهر عليه التوليد والاختراع كتب إرضاء لبني العباس الذين

غصوا بمكان الفاطميين ولم يجدوا لهم ما يحاربونهم به إلا مثل هذه الأقاويل والحق أن النحلة سياسية يقصد منها الوصول إلى هدم دولة بني العباس إلا أنها شيت بشيء من التعاليم لتكون مقدمة للدعوة وأساسا لها حتى لا يفجأ المدعو بالغرض السياسي لأول وهلة والتعاليم متى كانت سرية حامت حولها الظنون وجعلتها الشكوك في ظلمات حتى لا تميز حقيقتها

نشأ عن هذا المذهب قوتان كبيران كلتاهما ضد الدولة العباسية إحداهما منظمة معتدلة ومركزها قرية سلية بقرب حمص وهي موئل الدولة الفاطمية العبيدية وجمع أسرارها كما كانت قرية الخيمة منذ ١٦٠ سنة موئل الدولة العباسية وجمع أسرارها (الثانية) قوة ذات فوضى وجور ونكرب عن حسن السياسة ومركزها كان لأول ظهورها بالعراق وهي القرامطة وهذه أولاهما في الظهور فانها ظهرت بوادرشها في عهد المعتمد على الله والثانية تأخرت عنها وستكلم الآن عن القرامطة .

ظهر في أواخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة قدم إليها من نواحي خوزستان وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة فأقام على ذلك مدة وأعلم الناس أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت وكان يزداد في أعين الناس نبلا بما يظهره من الزهد ثم مرض وكان في القرية رجل يلقبه أهلها بكرمية لحمرة عيذه وهو بالنبطية أحمر العين فحمل هذا العليل إلى منزله ووصى أهله بالاشراف عليه والعناية به ولم يزل مقبلا عنده حتى برأ فكان كرمية يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكرة وكان يأخذ من كل من دخل في مذهبه دينارا يزعم أنه للإمام واتخذ من أهل القرية نقباء اثني عشر فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التي أخبرهم أنها مفروضة عليهم

كان للهيصم في تلك النواحي ضياع فوقف على تقصير أكرته في العمارة فسأل عن ذلك فعلم بخبر الرجل فوجه في طلبه فأخذ وجيء به إليه فحبسه واشتغل بشره . رقت لإحدى جوارى الهيصم للرجل فأخذت مفتاح الحجر التي حبس فيها من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح إلى مكانه فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده وشاعت تلك الحادثة في الناس فافتنوا به وقالوا رفع

ثم ظهر في ناحية أخرى وأشيع بين الناس أنه لا يمكن أحداً أن يناله بسوء فعظم في أعينهم . ومع ذلك فانه خاف على نفسه وخرج إلى الشام وأطلق على نفسه اسم الرجل الذي آواه وهو كرمية ثم خفف فقيل قرمط
ثم فشا مذهب القرامطة في سواد الكوفة والسلطان لاه عنهم لا يفكر في تغيير شيء مما هم عليه حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التي حلت بالامة الاسلامية وحتى أخيفت السبل وقطع طريق الحاج بما سنذكره في مواضعه إن شاء الله

دعى آل على

لم يكف بنى العباس ما أصاب دولتهم من آل على بن أبي طالب الذين نفسوا عليهم ملك الدنيا وخلافة النبوة فضعفوا جوانب دولتهم وزعزعوا أركانها بل قام دعى في آل على لا يعرف له الطالبيون نسبا ولا رحما يدلى بدلوه في الدولة لينال منها حظا لنفسه ذلك هو علوى البصرة أو الخبيث صاحب الزنج الذى زعم أنه على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب وأصله من عبد القيس من ربيعة ورد البحرين سنة ٢٤٩ فادعى أنه عباس ودعا الناس بهجر إلى طاعته فاتبعه قوم وأباه آخرون فوجدت فتنة بين الفريقين فانتقل عنهم إلى حى من تميم فأقام بينهم وقد عظم مقامه بين أهل البحرين حتى أحلوه من أنفسهم محل النبي وجبوا له الخراج هناك وقتلوا أسباب السلطان ووتر منهم جماعة كثيرة فتسكروا له فتحول عنهم إلى البادية ومعه جماعة من أهل البحرين منهم مولى لبني حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع وهو قائد جيشه . نبت به البادية لسوء طاعة أهلها فشخص إلى البصرة فنزل بها في بنى ضبيعة فاتبعه بها جماعة منهم على بن أبان المعروف بالمهلبى وأخواه محمد والحليل وغيرهم وكان قدومه البصرة سنة ٢٥٤ وعاملها محمد بن رجاء الحضارى فعلم بهم فخرجوا من البلد خائفين وحبس ابن رجاء جماعة ممن اتهموا بالميل إليه منهم ابن الدعى

مضى الدعى مع من اتبعه حتى صار إلى مدينة السلام فأقام بها حولا يستميل إليه الناس سرا حتى إذا عزل محمد بن رجاء عن البصرة شخص إليها في رمضان سنة ٢٥٥ ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر القرشى وهناك خطرت له فكرة غريبة وهى

الاستعانة بالعييد الذين كانوا يعملون بتلك النواحي في حمل السباخ وغيره لأهل البصرة وهم كثير والعدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيه فكيف لو وعدوا مع الحرية بالسيادة على مالكي رقابهم فأخذ منهم غلاما اسمه ربحان ابن صالح ووعدته أن يكون قائدا وأمره أن يحثال للعييد الذين يعرفهم حتى يجيئوه إلى نخلته ويتركوا ساداتهم وأعمالهم فاجتمع إليه كثير منهم فخطب فيهم فنامهم ووعدهم أن يقودهم ويرثسهم ويملكهم الأموال وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئا من الاحسان إلا أتى به إليهم . حذر الناس على غلبانهم وكان هناك نحو ١٥٠٠٠ غلام

لم يزل الرجل يحثال لجمع هؤلاء الزنوج حتى كان يوم عيد الفطر من سنة ٢٥٥ وفيه صلى بأصحابه صلاة العيد وخطبهم خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال وإن الله قد استنقذهم به من ذلك وأنه يريد أن يرفع أقدامهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأمور ثم حلف لهم على ذلك . وشرع فقودقواده وقال لهم كل من أتى برجل فهو مضموم إليه . استمر يعيش في تلك الجهات وينهب الأموال ويستكثر من الرجال وقد أرسلت إليه جيوش من البصرة فهزمها ثم اتجه نحو البصرة فقابلته جنود كثيرة من أهل السلطان ومرترقة الديوان فانصر عليها وقتل منها مقتلة عظيمة وقوى أمره جدا بتلك الواقعة وحل الرعب في قلوب أهل البصرة وكتبوا إلى السلطان بخبره والخليفة يومئذ المهدي بالله . أقام الدعى بعد ذلك بالقرب من البصرة بسبخة هناك تعرف بسبخة أنى قره ثم تحول منها إلى الجانب الغربى من نهر أبى خصب وهناك غنم مغانم كثيرة من المراكب الماخرة في دجلة وكانت شيئا كثيرا

وفي رجب سنة ٢٥٦ أحرقت مدينة الأبله واستسلم له أهل عبادان خوفا أن يصيبهم ما أصاب أهل الأبله فأخذ من كان بها من العبيد وضمهم إلى جنده وفرق فيهم السلاح ومن هناك سير عسكريا إلى الأهواز فاستولى عليهما وأسر إبراهيم بن المدبر عامل الخراج بها فزاد ذلك أهل البصرة رعبا . أرسل السلطان إلى الدعى جنودا فكان نصيبها أبدا الفشل

وفي شوال سنة ٢٥٧ أوقع بأهل البصرة وقعة هائلة قتل فيها من أهل البصرة عدد

عظيم وخربت أكثر مبانها

وكان كل يوم يكتسب قوة جديدة بما يضاف إليه من العبيد وما يتاح له من النصر المتتابع حتى استفحل أمره وعظم شره وخيف على الدولة منه فلم ير مدبر الدولة وقائد جيوشها أبو أحمد الموفق إلا أن يحشد إليه الجموع ويتولى هو قيادتها ليكتسب الجيش العباسي من ذلك قوة روح . فعبا جندا كثير العدد ثم العدة وجاءه كثير من المتطوعين انتدبوا أنفسهم لحرب هذا الدعي وقد كانت لأبي أحمد معه وقائع هائلة وخطوب جسام استمرت أعواما وفي آخر الأمر أنزل الله نصره على رجال الدولة وهزموا الزوج وقتلوا هذا الدعي وكان ذلك في أواخر سنة ٢٧٠ وأمر الموفق كاتبه أن يكتب إلى أمصار الاسلام بالنداء في أهل البصرة والأبلة و كوردجلة وأهل الأهواز و كورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج بقتل الدعي وأن يؤمروا بالرجوع إلى أوطانهم ففعل ذلك فسارع الناس إلى ما أمروا به وقدموا المدينة الموقفية التي اختطها الموفق هناك من جميع النواحي وأقام الموفق بعد ذلك بالموقفية ليزداد الناس بمقامه أمنا وإيناسا

وكان خروج صاحب الزنج في يوم الأربعاء لأربع بقين من رمضان سنة ٢٥٥ وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة ٢٧٠ فكانت أيامه من لندن أن خرج إلى اليوم الذي قتل فيه ١٤ سنة وأربعة أشهر وستة أيام . وكان دخوله الأهواز ثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٢٥٦ وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقها ثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ٢٥٧

ولم يكن يدري إلا الله ماذا تكون العاقبة لو اتصر هذا الرجل بزوجه على آل العباس بآترا كههم كان الأمر ينتقل من أيدي الأتراك إلى أيدي الزوج فتقع الأمة في الشر العظيم والوبا الويل لأن هؤلاء الزوج ليس لهم أدب معروف بل لا يكادون يفقهون قولا فاتصار العباسيين عليه خلاص للأمة من شر مستطير

الاضطراب في المشرق

كان آل طاهر أمراء المشرق منذ عهد المأمون إليهم خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر وما إليها من بلاد الري وطبرستان و جرجان و كرمان وكانوا

كفأة لما عهد به إليهم موثوقا بهم في ارتباطهم بحل الخلافة العباسية إلا أن حال بغداد وسامرا ونزوع الأتراك إلى الاستيلاء على أمور الملك والاستبداد على الخلفاء جعل الطامعين فيما بعد عن دار الخلافة أشبه إلى الاستبداد بما يمكن أن يجوزوه ويستولوا عليه والقوة الطاهرية لم تكن تحمل المحل الأرفع أمام معا كسبها إلا بهيبة الخلافة وشدة بأس القوة المركزية التي يحسب حسابها كل عاص وكل طامع وجد بالشرق ثلاث قوى تحيط بآل طاهر وتنازعها ما بيدها من هذا الملك الطويل العريض

(الأولى) القوة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد شرحناها قبل

(الثانية) القوة الصفارية بسجستان أوجدها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو . كان هذان الرجلان يشتغلان في حدائهما بعمل الصفر وكانا يظهران الزهد فضجبا رجلا من أهالي سجستان وكان مشهورا بالتطوع في قتال الخوارج اسمه صالح بن النضر الكنتاني فأجهما وحظي بهما حتى جعل يعقوب مقام الخليفة عنه . ولما توفي صالح ولي مكانه في رياسة المطوعة درهم بن الحسين فكان يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وكان قائدا لعسكره . كان درهم غير ضابط لأموره على عكس ما كان يعقوب فرأت المطوعة ذلك فعزلوا درهما وولوا يعقوب مكانه فخارب الخوارج والشراة فظفر بهم ظفرا عظيما وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحدا قبله ثم اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهرات وبوشنج وما إليها . ثم قاتل الترك الذين بتخوم سجستان وانتصر عليهم فرهبه الملوك الذين حوله منهم ملك الملتان وملك الرخج وملك الطبسين وملك ذاباستان وملك السند وسكران وغيرهم وأذعوا له . وكان ملكه هرات وبوشنج سنة ٢٥٣ وأمير خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله ابن طاهر

لم يكن يعقوب بن الليث يريد الاستقلال التام عن الخلافة العباسية بل كان يريد أن يكون أميرا بعهد من خليفة بغداد ليستعين بذلك على تأييد مركزه والحلول محل آل طاهر فراسل المعتز وبعث إليه بهدية سنوية منها مسجد فضة مخلع يصل في خمسة عشر إنسانا وسأل أن يعطى بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف درهم على أن يتولى إخراج علي بن الحسين المتغلب على بلاد فارس . ثم شخص على أثر كتابه

للمعتز إلى كرمان فنزل بم وهي الحد الفاصل بين كرمان وسجستان ثم استولى على كرمان ثم دخل إلى عمل فارس فثندق على بن الحسين على نفسه بشيراز وذلك في ١٨ ربيع الآخر سنة ٢٥٥ وأرسل إلى يعقوب يعلمه أنه إن كان يريد فارس فكتاب أمير المؤمنين يأمرني بتسليم العمل لأنصرف فلم يلتفت يعقوب إلى ذلك الطلب المقبول وآذنه بحرب فخصات بينهما موقعة في جمادى الأولى سنة ٢٥٥ انهزم فيها جند شيراز وأسر على بن الحسين ودخل يعقوب شيراز ظافرا وصلى الجمعة بها ودعا خطيبه للمعتز بالله . ثم عاد بعد ذلك إلى كرمان ثم إلى سجستان

رفع ذلك من شأن يعقوب بن الليث فان كورا عظيمة أذعنت لسلطانه وفي سنة ٢٥٩ في عهد المعتمد قصد نيسابور فلما قرب منها ألقى بنو طاهر بأيديهم وقابلوه مطيعين لما رأوا أنه لا قبل لهم بمقاومته وأن قوة الخلافة ضعفت عن إعانتهم فلما دخلها حبس محمد بن طاهر وآل بيته وبهذا انتهت دولتهم وانقض اللواء الذي كان المأمون قد عقده لطاهر بن الحسين إذولاه خراسان وبلاد المشرق

بعد هذا الانتصار الباهر أرسل يعقوب إلى سامرا وفدا معهم كتاب يذكر فيه ماتاهى اليه من حال أهل خراسان وأن الشراة المخالفين قد غلبوا عليها وضعف عنهم محمد بن طاهر وأن أهل خراسان كاتبوه وسألوه القدوم عليهم وأنه بسبب ذلك صار اليها فلما كان على عشرة فراسخ منها سار اليه أهلها فدفعوها اليه فدخلها كان المدير للدولة في ذلك الوقت أبو أحمد الموفق فأجاب الرسل بأن أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على مافعل وأنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذي ولاه إياه وأنه لم يكن له أن يفعل مافعل بغير أمر أمير المؤمنين فليرجع إلى عمله فانه إن فعل ذلك كان من الأولياء والإلام يكن له إلامه بالمخالفين . فلم يكن لهذه الرسالة أدنى تأثير في نفس يعقوب ولا في مركزه القوي لأن المسألة مسألة تنازع في الحياة ولابقاء للحياة إلا بالقوة وفي سنة ٢٦٠ كانت بين قوة يعقوب وقوة الحسن بن زيد المتغلب على طبرستان وقائع انهزم فيها الحسن ودخل يعقوب سارية وآمل ظافرا وصار يتبع الحسن وهو منهزم حتى صار إلى بعض جبال طبرستان فأدركته هنالك الأمطار وتابعت عليه نحو أربعين ليلة فلم يتخلص مما هو فيه إلا بمشقة شديدة ولما رأى صعوبة السير إلى الامام انصرف بجنده وقد فقد منه في هذه الواقعة نحو أربعين ألفا وتقرّب بمافعل إلى

سامرا فبعث يخبر به وذكراً أنه نفي الحسن بن زيد من طبرستان وأسر سبعين من الطالبيين لم تكن أعمال يعقوب مما يعجب السلطان لأن رجال الدولة خافوا ما وراء ذلك من استقلاله أو غلبته على حاضرة الخلافة نفسها فأمر الموفق عبيد الله بن طاهر أن يجمع من كان ببغداد من حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتاباً يعلمهم فيه أن السلطان لم يول يعقوب بن الليث خراسان ويأمرهم بالبراءة منه لانكار الخليفة دخوله خراسان وحبسه محمد بن طاهر . وهذا رجوع منهم إلى القوة الروحية التي لخليفة المسلمين وكنهم لم يروا لها تأثيراً بازاء القوة فعادوا إلى الحيلة خوفاً من أن ذلك يخرج يعقوب فيدعو لنفسه ويعلن استقلاله فأعلنوا أن أمير المؤمنين ولاء خراسان وطبرستان وجرجان والرى وفارس والشرطة بمدينة السلام وذلك إقامة له مقام آل طاهر

لما نال يعقوب ما طلب ازداد طمعا وجرأة فأرسل يقول إنه لا يرضيه ما كتب به اليه دون أن يصير إلى باب السلطان ويظهر أنه كان يريد بذلك الاستيلاء الفعلي على بغداد وبلاد العراق فلما علم المعتمد ذلك رأى أو رأى مدبر وأمره أنه لم يبق بدم من قيام الخليفة بنفسه إلى حربه ولا سبياً بعد أن علم أن يعقوب قادم بجيوشه إلى سامرا فرحل المعتمد عن سامرا إلى بغداد ومنها اتجه نحو عسكر يعقوب الذي وصل إلى واسط فتقابل الجيشان بين سيب بنى كوما ودير العاقول وكانت هناك موقعة هائلة بين الطرفين كان الظفر فيها أولاً لجند يعقوب ولكن اصابهم بعد ذلك شر من جراء ذلك فان كثيراً من الجند اليعقوبى كرهوا القتال إذ رأوا أنفسهم يحاربون الخليفة وجها لوجه فانفصلوا عن الجيش فانهزم جنده أما يعقوب فانه فارق موضعه على تعبئة ومضى . تخلص بسبب ذلك محمد بن طاهر من أسره فأحضره الخليفة وخلع عليه على مرتبته وقرى على الناس كتاب يذكّر فيه مثالب يعقوب وأنه لم يرضه ما تفضل السلطان به عليه حتى جاء مشاقاً محارباً وكان هذا الكتاب مؤرخاً بيوم ١١ رجب سنة ٢٦٢

رجع المعتمد إلى سامرا وقدم محمد بن طاهر ببغداد وقد رد إليه عمله فخلع عليه في الرصافة . أما يعقوب فعاد من طريق فارس وضبطها وولى على كورها رجالاتاً من قبله وكانت له بها وقائع مع رجال الدعى صاحب الزنج الذي لم يكن انتهى أمره بعد وفي سنة ٢٦٥ توفي يعقوب بن الليث بالأهواز

كان هذا الرجل عصاميا نشأ في صناعة الصفر ثم مازال يهتم بالمعالى فتتقاد له . قاد الجنود لفتح البلدان وساس من تغلب عليهم سياسة سلطانية عالية حتى أمكنه أن يفعل ما فعل ولم يؤخذ عليه في تدييره إلا هذه الفعلة الأخيرة وهي قدومه من بلدان قاصية لحرب الخليفة بسامرا وبغداد وهو في جيوشه وعدده ومواليه فكانت عاقبته الفشل ويظهر أن الرجل ما كان يظن أنه يلقى حربا وكان يرى أن كتبه التي يظهر فيها الخضوع وأنه لم يجيء إلا لخدمة أمير المؤمنين والمثول بين يديه تجوز حيلتها على القائمين بأمر الدولة . وكانت مدته ١٨ سنة

بعد موت يعقوب بايع جنده أخاه عمرو بن الليث فكان خيرا من أخيه في التدبير وإحكام السياسة حتى كان يقال ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمان طويل مثل عمرو بن الليث وكان يحضر بنفسه يوم أن تصرف الأعطيات للجنود حين يعرضون عدتهم الحربية فكان العارض يقعد والاموال بين يديه والجنود بأسرهم حاضرون وينادى المنادى أولا باسم عمرو بن الليث لتقدم دابته إلى العارض بجميع آلة الفارس فيتفقدوها ويأمر بوزن ٣٠٠ درهم باسم عمرو بن الليث فتحمل إليه في صرة فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول الحمد لله الذى وفقنى لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق ثم يضعها في خفه تكون لمن يخلع خفه . ويدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم التامة ودوابهم الفره ويطالبون بجميع ما يحتاج إليه الفارس والراجل من صغير آله وكبيرها فمن أخل باحضار شيء حرموه رزقه . وفوق ذلك كان يرضى الخليفة وبطائه لما كان يرسله من الاموال والهدايا والتحف فجعله الخليفة واليا على ما كان بلى أخوه ووجهت إليه بذلك الخلع مع العهد والعقد

ولم يزل أمره على ذلك حتى تغير عليه الخليفة سنة ٢٧٢ لما كانت يبدو له من طموحه إلى ما طمح إليه أخوه فأدخل عليه من كان ببغداد من حاج خراسان ولعنه بحضرتهم وأخبرهم أنه قد خراسان محمد بن طاهر وأمر بلعن عمرو بن الليث على المنابر ثم رضى عنه بعد ذلك لما استرضاه بالمسال لم يزل عمرو في حروب ووقائع لاقيمة لها حتى تعرض أخيرا لما كان يد السامانيين من بلاد ماوراء النهر فولاه الخليفة إياها فكانت تلك الولاية خاتمة عزه كما سيحىء

السامانيون

تنسب الأسرة السامانية إلى بهرام جور صاحب كسرى هرزفهى أسرة عريقة
المجد في الأمة الفارسية . كان في عهد المأمون من تلك الأسرة أولاد أسد بن سامان
وكان المأمون يرعى حقوق الحرمه لذوى البيوتات فقربهم ورفع من أقدارهم وكانت
بلاد ماوراء النهر مقسمة بينهم يلونها من جهة أمير خراسان فكان نوح بن أسد
في سمرقند وأحمد بن أسد في فرغانة ويحيى بن أسد في الشاس وأشروسنة والياس بن
أسد في هراة . وكان أحمد بن أسد عفيف الطعمة مرضى السيرة لا يأخذ رشوة ولا
أحد من أصحابه . ولما توفى استخلف ابنه نصرأ على أعماله بسمرقند وماوراءها فبقى
عاملاً بها إلى آخر أيام الطاهرية . وكان إسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصرأ فولاه
بخارى سنة ٢٦١ وكان بين هذين الأخوين خطوط طويلة بسبب سعاة السوء حتى
لأنه في سنة ٢٧٥ تحارب نصرأ وإسماعيل فقهر نصرأ وحمل إلى أخيه إسماعيل فلبارأه
ترجل له وقبل يديه ورده من موضعه إلى سمرقند وتصرف هو على النيابة عنه بخارى
وإسماعيل هذا هو الذى على يده انتهى عز عمرو بن الليث وورث ما كان بيده من
ملك خراسان وصارت له دولة عظيمة أورثها أهل بيته واستمرت دولتهم ١٧٠ سنة
وستة أشهر ثم انتهت على أيدي آل سبكتكين من جهة والترك الخاقانية من جهة أخرى
وهذه أسماء ملوكهم وتواريخهم

٢٦١ - ٢٧٩

(١) نصر بن أحمد بن سامان

٢٧٩ - ٢٩٥

(٢) إسماعيل بن أحمد

٢٩٥ - ٣٠١

(٣) أحمد بن إسماعيل

٣٠١ - ٣٣١

(٤) نصر بن أحمد

٣٣١ - ٣٤٣

(٥) نوح بن نصر

٣٤٣ - ٣٥٠

(٦) عبد الملك بن نوح

٣٥٠ - ٣٦٦

(٧) منصور بن نوح

٣٦٦ - ٣٨٧

(٨) نوح بن منصور

٣٨٧ - ٣٨٩

(٩) منصور بن نوح

(١٠) عبد الملك بن نوح ٣٨٩ - ٣٨٩

بما تقدم يفهم أن البلاد المشرقية تقلص عنها ظل الخلافة العباسية فعلا وإن كان يدعى لهم ببعضها اسما

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان وكانت الدولة السامانية ببلاد ماوراء النهر وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية العلوية وهؤلاء يدعون لأنفسهم بالخلافة ولا يدينون لبني العباس بطاعة

أما بالمغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بني العباس برقة ومصر وسوريا وهي دولة أحمد بن طولون

أحمد بن طولون

كان طولون مملوكا تركيا أهداه نوح بن أسد الساماني إلى المأمون وهو بمصر سنة ٢٠٠ فكان من عداد الجنود التركية الكفاة وولد له أحمد ابنه بسامرا سنة ٢٢٠ فربي في حلبة أولئك الجنود وتفصح بالعربية وحفظ القرآن الكريم وكان ذا خلق قويم ولما بلغت سنه العشرين توفي أبوه طولون فكان بعده في ضمن جنود بايكباك الذي تقدم ذكره

كانت ولاية مصر مضافة إلى بايكباك وهو الذي يختار أميرها في سنة ٢٥٤ اختار لها أحمد بن طولون لما رأى من كفايته وشجاعته ففقد له عليها ودخلها أحمد لتسع بقين من رمضان وكان يتقلد القصبه وحدها وكان معه أحمد بن محمد الواسطي كاتب بايكباك

لما توفي المعتز سنة ٢٥٥ وتولى المهدي وقتل بايكباك حل محله أماجور وكان صهرا لأحمد بن طولون فان أحمد كان زوج ابنته فكتب إليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبه مصر فعظمت لذلك منزلته واتسع ملكه وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولا ثم لأماجور ثم لأحمد بن طولون حتى مات أماجور سنة ٢٥٨ فاستقل أحمد بمصر ودعى له بها وحده بعد الدعاء للخليفة وضبط ابن طولون بلاد مصر أحسن ضبط وخضد شوكة الثائرين الذين كانوا يشورون بها من وقت لآخر

وفي سنة ٢٦٢ حصل بينه وبين أبي أحمد للموفق تنافر أدى إلى وحشة استحكمت حلقاتها فكتب أبو أحمد إلى ابن طولون يهدده بالاعزل فأجابه جوابا فيه بعض الغلظة فسير إليه الموفق جيشا يقوده موسى بن بغا فلما بلغ الرقة أقام بها عشرة أشهر ولم يسكنه المسير لقلّة الأموال وطالبتّه الجنود بالعطايا فلم يكن معه ما يعطيهم فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره فاضطر ابن بغا أن يعود إلى العراق وكفى ابن طولون شره وفي سنة ٢٦٣ ولي المعتمد أحمد بن طولون طرسوس ليقوم بحفظ ذلك الثغر عن الروم الذين كانوا قد تطرقوا البلاد لضعف قوة الخلافة

وفي سنة ٢٦٤ دخل في حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة أماجور الذي كانت تلك البلاد له فاتسع ملكه اتساعا عظيما حتى كانت حدود مملكته تنتهي إلى نهر الفرات وبذلك تم التغلب والافتراء عن بني العباس من أقصى الغرب إلى نهر الفرات فضاعت مملكة بني العباس واقتصرت على العراق والجزيرة الفراتية على ما فيها من الثورات والاضطرابات وبلاد الري والأهواز

وكان الموفق في ذلك الوقت مشغولا بحرب الدعى صاحب الزنج فكان في ذلك فرصة عظيمة لأحمد بن طولون أن يقوى أمر ملكه وكان يعلم ما بين المعتمد والخليفة وبين أخيه من الفتور فأراد أن ينتفع من ذلك وصادف أن أرسل المعتمد إلى ابن طولون يشكو له مما هو فيه من استبداد الموفق عليه وأنه ليس له من الخلافة إلا الاسم فأشار عليه ابن طولون أن يلحق به بمصر ولو تم ذلك لانتقلت الخلافة العباسية إلى القطائع مدينة أحمد بن طولون بمصر ولكن حال دونه عامل الموصل والجزيرة الذي أرسل إليه الموفق أن يبذل جهده في منع المعتمد من المسير إلى مصر فلما بارح المعتمد سامرا ووصل إلى عمل الموصل منعه العامل من المسير فعاد ثانية إلى سامرا وبسبب ذلك اتسعت مسافة الخائف بين الموفق وابن طولون حتى أن ابن طولون قطع خطبة الموفق وأسقط اسمه من الطراز فتقدم الموفق إلى المعتمد بلغنه ففعل مكرها لأن هواه كان مع ابن طولون

وفي سنة ٢٧٠ توفي أحمد بن طولون تخلفه في مصر والشام والثغور الشامية ابنه خمارويه وقد استمر ملك مصر والشام في أعقاب ابن طولون إلى سنة ٢٩٢ وقد ولي من هذا البيت خمسة أمراء وهم :

٢٧٠ - ٢٥٤	(١) أحمد بن طولون
٢٨٢ - ٢٧٠	(٢) خمارويه بن أحمد
٢٨٣ - ٢٨٢	(٣) أبو العساكر جيش بن خمارويه
٢٩٢ - ٢٨٣	(٤) هارون بن خمارويه
٢٩٢ - ٢٩٢	(٥) شيبان بن أحمد بن طولون

الحوادث الخارجية

ترتب على الاضطراب الذي قصصنا حديثه في عهد المعتمد أن الحدود الرومية كانت محل اضطراب دائم يغير عليها الروم كل وقت فيجدون الدفاع عنها ضعيفا حتى أنهم أخذوا سنة ٢٦٣ حصن لؤلؤة الذي كان شجى في حلقهم وغلبوا كثيرا من الجيوش ولم تتحسن الأحوال قليلا إلا بعد أن أخذ ابن طولون مدينة طرسوس وعهد إليه حماية الثغور الشامية فتولى الغزو بجنوده المصرية والشامية وقد أوقع بالروم وقعة هائلة سنة ٢٧٠

وكانت غارات الروم بعد ذلك على ديار ربيعة وثغورها الجزرية فكانت ترد سرايا من تلك الجهة فتغير على المسلمين وهم غارون فيأخذون منهم كثيرا من الأسرى ولولا جنود المتطوعين لكانت الحال أسوأ مما حصل

ولاية العهد

كان أبو أحمد الموفق ولي العهد بعد المعتمد وكانت إليه أمور الخلافة فعلا فلما توفي سنة ٢٧٨ جعل ولي العهد المفوض بن المعتمد ومن بعده أبو العباس بن أبي أحمد الموفق وكان أبو العباس صاحب الكلمة في الخلافة بعد أبيه فلم يلبث أن خلع المفوض من ولاية العهد وجعل نفسه مقدما

صفات المعتمد

لم يكن للمعتمد نفوذ في إدارة البلاد ولا في شيء من سياسة المملكة لأن الأمر كله كان منوطا بأخيه أبي أحمد وكان المعتمد مشغوبا بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي لاهم له إلا ذلك وله أحاديث في الغناء والرقص والندامى

وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء استبدل هذا بتعبية الجيوش وسوقها إلى خوض الغمرات وكانت وفاة المعتمد على أثر شراب شربه فأكثر منه ثم اتبعه بأكلة هاضته وأنت على حياته لأحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩

١٦ - المعتضد

هو أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد اسمها ضرار ولد سنة ٨٩٢ وكان عضدا لأبيه الموفق في حروبه وأعماله وولى العهد بعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض ابن المعتضد سنة ٢٧٩ ويبيع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المعتمد على الله لأحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) ولم يزل خليفة حتى توفي لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٢٨٩ (١٥ أبريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام

وكان يعاصره في الأندلس عبد الله بن محمد الذي توفي سنة ٣٠٠ وكانت دولة الأدارسة على غاية من الاضطراب يؤذن بقرب الانتهاء ويعاصره في إفريقية وصقلية من الأغالبة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذي توفي سنة ٢٨٩

وفي مصر من آل طولون خمارويه بن أحمد المتوفى سنة ٢٨٢ ثم جيش بن خمارويه المتوفى سنة ٢٨٢ ثم هارون بن خمارويه المتوفى سنة ٢٩٢

وفي زييد من آل زياد إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد المتوفى سنة ٢٨٩ وفي صنعاء من آل يعفر عبدالقادر بن أحمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٧٩ ثم إبراهيم ابن محمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٨٥ ثم أسعد بن إبراهيم المخولع سنة ٢٨٨ ثم دخلت صنعاء تحت سلطان الزيدية ثم القرامطة

وفي طبرستان وجرجان محمد بن زيد العلوي المقتول سنة ٢٨٧ وفي خراسان وسجستان عمرو بن الليث الصفار الذي أسر سنة ٢٨٧ وفي بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف المتوفى سنة ٩١١ م

وفي فرنسا أودون أول ملك من الكاباسيان المتوفى سنة ٨٩٨ ثم شارل الثالث
الملقب بالساذج المتوفى سنة ٩٢٣

وزراء الدولة

أول وزراء المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب واستمر في وزارته حتى مات
سنة ٢٨٨ فاستوزر بعده ابنه أبو الحسين القاسم بن عبيد الله ومات وهو وزيره
من المهم أن نذكر هنا ملخصا لما أورده الكاتب هلال بن الحسن الصابي في كتابه
الموسوم بتحفة الأمراء في أخبار الوزراء لنذكر بذلك على مقدار مصروف الخليفة المعتضد
قال عن عبد الحميد الكاتب لما تولى أبو القاسم عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد
بأنه رحمة الله عليه والدنيا منفلقة بالخوارج والاطماع مستحكمة من جميع الجوانب
والمواد قاصرة والأموال معدومة وقد استخرج إسماعيل بن بلبل خراج السواد لستين
في سنة وليس في الخزان موجود من مال ولا صياغة احتاج في كل يوم إلى ما لا بد
منه من النفقات إلى سبعة آلاف دينار وتعذر عليه قيام وجهها وقال له يوما وهو
في مجلسه من دار المعتضد بالله . يا أبا الفضل قدوردنا على دنيا خراب مستغلة وبيوت
مال فارغة وابتداء عقد لخليفة جديد الأمر وبيننا وبين الافتتاح مدة ولا بد لي في
كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزئة فان
كنت تعرف وجهها تعينني به فأحب أن ترشدني إليه فحسن له إطلاق ابن الفرات
(أبي الحسن علي وأبي العباس أحمد ابني محمد بن موسى بن الفرات) وكانا محبوسين
بعد أن صودرا فحسن الوزير للمعتضد إطلاقها والاستعانة بهما ففعل وحينئذ أحضرا
أحمد بن محمد الطائي وضمنا أعمال سقي الفرات ودجلة وجوخي وواسط وكسكر
وطساسيج نهر بوق وغيرها على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار
وفي كل شهر ستة آلاف دينار وأخذنا خطه بالتزام الضمان وتصحيح المال على ما تقرر
من أوقاته واستقبلا به في المياومة يومهما وفي المشاهدة غدما
وهذا تفصيل وجوه خراج المياومة بما شرط فيه ما قرره المعتضد بالله :

١٠٠٠	دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجال ومن برسمهم من البوابين ومن يجرى مجراهم
١٠٠٠	دينار أرزاق الغلمان الخاصة وفيهم الحاجب وخلفاء الحجاب
١٥٠٠	دينار أرزاق عماليك المعتضد المعروفين بالممالك الحجزية
٦٠٠	أرزاق الممالك المختارين
٥٠٠	أرزاق الفرسان المميزين
١١٠	أرزاق سبعة عشر صنفا من الموسومين بخدمة الدار
٥٠	المرتزة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ومن يجرى مجراهم
٣٠٠	أثمان أنزال الغلمان الممالك
٢٥٣ ١/٣	نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز ونزال الحرم ومخابز السودان
١٠٠	ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وماشابه ذلك
٤	أرزاق السقائين بالقرب
١٦٧	أرزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والممالك
١٠٠	أرزاق الحرم من المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة الخ
١٠٠	أرزاق الحرم
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة
٦٦ ٢/٣	ما يصرف في ثمن الكراع والابل وما يبتاع من الخيل
٣٠	أرزاق المطبخين
٣٠	أرزاق الفراشين ومن جرى مجراهم
٦٢ ٢/٣	ثمن الشمع والزيت
٥	أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج
٤٤ ١/٣	أرزاق الجلساء وأكابر الملهمين
٢٣ ١/٣	أرزاق المتطهين وتلامذتهم مع أثمان الأدوية
٧٠	أرزاق أصحاب الصيد وثنم الطعم والعلاج للجوارح
	<hr/>
	٦٤٦٠ ١/٣

ما قبله	٦٤٦٠ ١/٣
أرزاق الملاحين	٦١ ٢/٣
ثمن نفض ومشاقة	٤
صدقة يومية	١٥
جارى أولاد المتوكل	٣٣ ١/٣
جارى ولد الواثق والمهتدى والمستعين وسائر أولاد الخلفاء	١٦ ٢/٣
جارى ولد الناصر	١٦ ٢/٣
أرزاق مشايخ الهاشميين والخطباء بمدينة السلام	٢٠
جارى جمهور بنى هاشم	٣٣ ١/٣
رزق الوزير وابنه	٣٣ ١/٣
أرزاق أكابر الكتاب وسائر من فى الدواوين وثمان الصحف والقراطيس والكاغد	١٥٦ ٢/٣
رزق القاضى وخليفته وعشرة فقهاء	١٦ ٢/٣
خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام	٣ ١/٣
نفقات السجون	٥٠
نفقات الجسرين وأرزاق الجسارين	١٠
نفقات البيمارستان الصاعدى وأرزاق أطبائه وأثمان الأدوية	١٥
	٦٩٤٦

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التى كانت تصرف فى الحضرة كل يوم حوالى سبعة آلاف دينار وفى الشهر ٢١٠٠٠٠ وفى السنة ٢٥٢٠٠٠٠ دينار وهو مقدار قليل إذا قيس بما كان يرد على حضرة الخلافة فى عهد المأمون والمعتمم ولاغرابة فى ذلك فإن كثيرا من الأقاليم استقل بإدارته وأمواله المتغلبون ومابقى لبنى العباس لم يعمره العدل والأمن لكثرة الاضطرابات فى الجزيرة وبلاد العراق وفارس

اضطرابات الجزيرة

كانت العرب مع تغلب الأتراك على دولة بنى العباس لايقرون بالخضوع لهم

بل كانوا على ما لم يزالوا عليه من الاستقلال بأمر أنفسهم في ديار ربيعة في ديار مضر ولا سيما بعد أن أسقط العباسيون أسماء العرب من ديوان المترقة فكانت لا تزال تخرج منهم خوارج يدعون الناس إلى خلع طاعة العباسيين وأكثر هؤلاء العرب جمعا وخروجا بنوشيبان من ربيعة

ففي أول خلافة المعتضد صار إلى بنى شيبان بالموضع الذى يجتمعون فيه من أرض الجزيرة فلما بلغهم قصده جمعوا إليهم أموالهم وأغار المعتضد على الأعراب عند السن فنهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وغرق منهم في نهر الزاب مثل من قتل ثم سار إلى الموصل فلقيته بنوشيبان يسألونه العفو وبدلوا له رهائن فأجابهم إلى ما طلبوا وعاد إلى بغداد

وفي سنة ٢٨١ سار يريد قلعة ماردين للاستيلاء عليها من يدى حمدان بن حمدون الذى تغلب عليها وهو جد الأسرة الحمدانية فلما بلغه مسير المعتضد إليه ترك فى القلعة ابنه وسار عنها فلما وصلها المعتضد نازلها يومه وفى الغد ركب بنفسه حتى أتى باب القلعة وصاح بابن حمدان فأجابه فأمره بفتح باب القلعة ففتحها فقعده المعتضد فى الباب وأمر بنقل مافى القلعة وهددها ثم وجه خلف حمدان من يطلبه أشد الطلب حتى ظفر به بعد عودته إلى بغداد

وكان مما يهيم المعتضد خارجى ظهر بالجزيرة اسمه هارون الشارى واستفحل جمعه واشتدت قوته حتى لم يحاربه جند من جنود السلطان إلا هزمه فرأى المعتضد أن يضرب الحديد بالحديد فنذب الحسين بن حمدان لحرب هارون فقال له الحسين إن أنا جئت به فى ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين إحداهما إطلاق أبى وحاجتان أذكرهما بعد بحيثى فأجابه المعتضد إلى ذلك فضى مع جند اختاره حتى لقيه بخاربه وهزمه ثم مازال يتبعه حتى ظفر به فأخذه أسيرا وأحضره للمعتضد فخلع على الحسين وطوقه وخلع على إخوته وأمر بفك أيه والتوسعة عليه والاحسان إليه فكان هذا بدء ظهور الأسرة الحمدانية

القرامطة

قد ذكرنا فيما مضى كيف ابتدأت نحلة القرامطة تشيع فى سواد الكوفة ويدخل

الناس فيها حتى كثر أتباع القرامطة

في قريب من الوقت الذي انتشر فيه هذا المذهب بسواد الكوفة ظهر بالبحرين رجل يقال له أبو سعيد الحسن الجنابي وجنابة من سواحل فارس يدخل إليها في المراكب في خليج من البحر الفارسي وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال وقبالتها في وسط البحر جزيرة خارك نشأ بها أبو سعيد هذا وكان دقاقا فني عن جنابة فخرج إلى البحرين فأقام بها تاجرا وجعل يستميل العرب إلى نخلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها وقوى أمره فقتل ما حوله من أهل القرى وفعل ذلك بالقطيف وأظهر أنه يريد البصرة التي كتب عليها الشقاء فانه لم يمض على ملاقته من السوء على يد دعى العلويين أكثر من ١٥ سنة فكاتب إليها إلى المعتضد يخبره بالأمر فأمره المعتضد أن يبني على البصرة سورا ففعل وفي سنة ٢٨٧ أقبل الجنابي بمجموعه يريد البصرة فأرسل إليه المعتضد جيشا قائده العباس بن عمر والغنوي فهزمه أبو سعيد وأسر العباس واحتوى ما في العسكر وقتل الأسرى ثم سار الجنابي بعد الواقعة إلى هجر وانصرف المنزموون إلى البصرة فلقبهم الأعراب بأفقوم . أحدث ذلك بالبصرة قلقا واضطرابا حتى هم أهلها بالجلأ عنها ولكن واليها هدأ بالهم

أما أمرهم بسواد الكوفة فانه لما علم المعتضد أمر انتشار مذهبهم هناك وكثرة متبعه أرسل إليهم جيشا يقوده شبل غلام أحمد بن محمد الطائي فظفر بهم وأخذ رئيسا لهم يعرف بأبي الفوارس تقدم به على المعتضد فسأله المعتضد هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل في أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل فقال يا هذا إن حلت روح الله فينا فما يضرك وإن حلت روح إبليس فما ينفكك فلا تسأل عما لا يعينك وسل عما يخصك . فقال ما تقول فيما يخصني قال أقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبوكم العباس حي فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس ولم يوص إليه ولا أدخله فيهم فبماذا يستحقون أتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها - فأمر به المعتضد فقتل

كان تتابع الجيوش من المعتضد إلى من بسواد الكوفة سببا لأن داعية قرمط

زكرويه بن مهرويه سعى في استغواء كلب بن وبره بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم وبايعوا سنة ٢٩١ ابن زكرويه المسمى يحيى المكنى بأبي القاسم ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وزعم لهم أن له بالبلاد مائة ألف تابع وسمى أتباعه الفاطميين فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرصافة فاغتروه وقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا بلاد الشام وكانت إذ ذاك في حوزة خمارويه ابن أحمد بن طولون وينوب عنه فيها طعج بن جف فقاتلهم مرارا فهزموه

هذا ما كان منهم في حياة المعتضد ظهروا بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام وبدؤوا بخروجهم شعلة النار المحرقة التي آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمر الطريق إلى يدت الله المقدس كما يأتي بيانه

وفي تلك الأزمنة كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وأفريقية فكانت الدعوة الإسماعيلية ترتب أن تكون في آن واحد بجميع الجهات الإسلامية حتى لا يكون لبني العباس قبل بملافة شرها وكذلك كان

أمر المشرق

اتسع سلطان عمرو بن الليث في أول عهد المعتضد ودخل نيسابور سنة ٢٨١ ولما خرج بجيشه منها خالفه رافع بن هرثمة وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوي ودعا له على منبر نيسابور فعاد عمرو بن الليث وحاصره بنيسابور حتى احتلها ثانيا وكان رافع قد هرب إلى طوس فأرسل إليه عمرو وجندا فاحقوه هناك وقتلوه فانهزم إلى خوارزم فتبعوه إليها وهناك قتلوه وأرسل عمرو إلى المعتضد كتابا بذلك مع رأس رافع فأرسلت إلى عمرو الخلع ولواء الولاية على الري وهدايا من قبل المعتضد لما اتسع لعمرو هذا السلطان أرسل إلى الخليفة يطلب منه عهد الولاية على بلاد ماوراء النهر وعزل إسماعيل بن أحمد الساماني أميرها ففعل المعتضد ذلك وأرسل إليه عهد الولاية فأجابه عمرو على ذلك بإرسال هدية فكان مبلغ المال الذي وجهه أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولحم محلاة و ١٥٠ دابة بجلال مشهرة وكسوة وطيب وبراة

كانت هذه الولاية سيلا مصيبة عمرو بن الليث فانه خرج ليحوزها ولم يكن إسماعيل بالذي يسلمها إليه فكاتب إليه إنك قد وليت دنيا عريضة وإنما في يدي ما وراء النهر وأنا في ثغر فاقع بما في يدك وانركني مقبلا بهذا الثغر فأبى إجابته إلى ذلك فذكر لعمرو أمر نهر بلخ والشدة في عبوره فقال لو أشاء لسكرته بيد الأهرال وعبرته ولما أيس إسماعيل من انصرافه عنه جمع من معه من النناء والدماقين وعبّر النهر إلى الجانب الغربي وجاء عمرو فزل بلخا وأخذ إسماعيل عليه الزواحي فصار كالمحاصر وندم على ما فعل وطلب المحاجزة فأبى إسماعيل عليه ذلك فلم يكن بينهما كبير قتال حتى هزم عمرو فولى هاربا ومر بأجمة في طريقه قيل له إنها أقرب فقال لعامة من معه أمضوا في الطريق الواضح ومضى في نفر يسير فدخل الأجمة فوجدت دابته فوقعت ولم يكن له في نفسه حيلة ومضى من معه ولم يلوا عليه وجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيرا وخيره إسماعيل بين أن يقيم عنده وأن يرسل إلى المعتضد فأختار أن يوجه إلى المعتضد فقبس وبذلك انتهت أيام عزه وختم المعتضد حياته بالأمر بقتل عمرو وقتل في أول خلافة المكتفي

لماعلم محمد بن زيد بأمر عمرو ظن ذلك فرصة لأخذ خراسان لأنه فهم أن إسماعيل ابن أحمد لا يبارح عمله بما وراء النهر فخرج من طبرستان مريدا الاستيلاء على خراسان فلما صار إلى جرجان كتب إليه إسماعيل يسأله الرجوع إلى طبرستان وترك جرجان له فأبى عليه ذلك ابن زيد فندب إسماعيل لحر به قائدا في جند فلقبه على باب جرجان فانهزم عسكر ابن زيد وأصابته ضربات وأسر ابنه زيد ثم مات محمد بعقب هذه الواقعة بأيام فدفن على باب جرجان وحمل ابنه زيد إلى إسماعيل بن أحمد . بذلك زالت على يد السامانيين دولة رجلين كبيرين عمرو بن الليث الصفار ومحمد بن زيد ولم يكن لأولادهما بعدهما كبير ذكر في التاريخ

ولما تم ذلك كله عن يد إسماعيل أرسل إليه المعتضد الخلع وبدنة وتاجا وسيفا من ذهب مركبا على جميع ذلك الجوهر وبهدايا وثلاثة آلاف ألف دينار يفرقتها في جيش من جيوش خراسان يوجهه إلى حرب سجستان لمحاربة من فيها من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث وبذلك صارت القوة في المشرق للأسرة السامانية فيدهم بلاد ما وراء النهر وخراسان إلى الري وسجستان ولهم فيها النفوذ والسلطان التام

أمر المغرب

كانت علاقة المعتضد بخارويه بن أحمد بن طولون حسنة وكان خمارويه يتقرب إليه كثيرا فأهدى إليه كثيرا فأهدى إليه لأول خلافته من العين عشرين حملا على بغال وعشرة من الخدم وصندوقين فيهما طراز وعشرين رجلا على عشرين نجيبا بسروج محلاة بحماية فضية كثيرة ومعهم حراب فضة وعليمهم أقيية الديباج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقي بفضة و٣٧ دابة بجلال مشهورة وخمسة أبغل بسروج ولجم وزرافة . ثم أراد أن يتقرب إلى الخليفة بالمصاهرة فغرض أن يزوج ابنته قطر الندى من علي بن المعتضد فقال المعتضد أنا تزوجها فتزوجها واحتفل بخمارويه بجهازها أتم احتفال ومن ضمن ذلك الجهاز دكة (سريز) أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشيك قرط معلق فيه حبة جواهر لا يعرف لها قيمة ومائة هون من ذهب ومنها ألف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار فانظروا كم يكون بعد هذا . ولما تم الجهاز أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنال بها قصر فيما بين مصر وبغداد وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون في جماعة فكانوا يسرون بها سير الطفل في المهد فاذا وافت المنزل وجدت قصرأ قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الإقامة فكانت في سيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة ٢٨٢ وكان المعتضد إذ ذاك غائبا بالموصل فأدخلت للحرم حتى قدم فنقلت إليه في رابع ربيع الثاني ونودي في جانبي بغداد ألا يعبر أحد في دجلة يوم الأحد وهو يوم الزفاف وغلقت أبواب الدروب التي تلي الشط ومد على الشوارع النافذة إلى دجلة شراع ووكل بحاقتي دجلة من يمنع الناس أن يظهروا في دورهم على الشط فلما صليت العتمة وافت الشذا من دار المعتمد وفيها خدم معهم الشمع فوققوا بازاء دار صاعد التي كانت فيها قطر الندى وكانت أعدت أربع حراقات شدت مع دار صاعد فلما جاءت الشذا أحدرت الحراقات وصارت الشذا بين أيديهم فنزلت إليها حتى وصلت إلى دار المعتضد

كان خمارويه يلى مصر واليه طرسوس والشام فكانت إليه المحافظة على ثغر طرسوس

وجنوده تقوم بذلك خير قيام . لم يزل الحال على ذلك حتى قتل خمارويه سنة ٢٨٣ ولم يكن عند ولده جيش من المقدرة مايسوس بها ملك أيه فاتفق جمع من جنده على الفتك به ولكن عرف أمرهم فهربوا ووردوا ببغداد فأكرم المعتضد وفادتهم وبعد ذلك تار جماعة آخرون بجيش فقتلوه وولوا أخاه هارون وكانت هذه المنازعات الداخلية سببا لخروج طرسوس من أيدي بني طولون فقد قدم وفد من أهلها على المعتضد يطلبون أن يولى عليهم واليا من قبله ففعل

ثم اتفق المعتضد بعد ذلك مع هارون أن يتنازل هارون عن قنسرين والعواصم وتقرر ولايته على مصر والشام على أن يحمل إلى بيت المال ببغداد كل سنة ٥٠٠٠٠ دينار ووجهت الخلع والعقد إلى هارون . ومن هذا يتبين أن نفوذ المعتضد في مصر والشام صار أقوى مما كان قبل لضعف أمر الطولونيين بالخلاف الذي وقع بينهم

صفات المعتضد

كان المعتضد قوى القلب جريئاً ولذلك كان للخلافة في عهده أكثر مما كان في عهد أيه من الهيبة وإن كان الأمر في الحقيقة جل أن يصلح لأن ورامهم عدوا لا ينأى يريد إفساد ماسكهم بما أمكنه ولو أدى ذلك إلى إفساد البلاد كلها . وكان مع شجاعته قليل الرحمة سفاكا للدماء شديد الرغبة في التمثيل بمن يقتله

وله اصطلاحات داخلية جلية منها أنه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوى الأرحام وأمر بإبطال ديوان المواريث وكان أصحاب التركات يلقون من ذلك عناء . ومنها اهتمامه بكبرى دجيل وهو أحد روافد دجلة وقلع من فوهته صخر كان يمنع الماء

ومن أهم إصلاحه ما يعرف بالتقويم المعتضدى وإنا قائلون كلمة في شرحه : معلوم أن دين الاسلام يستعمل السنة الهلالية ويجعل أهلة الشهور علامة على عبادات افترضها منها صوم رمضان وجمع البيت في ذى الحجة فلم يكن هناك معتبر للسنة الشمسية التي تزيد على السنة الهلالية أحد عشر يوما وربعا إلا قليلا . ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين السنتين الشمسية والهلالية ولكن حصل أن المسلمين اضطروا فيما بعد لمراعات السنة الشمسية لأن جباية الخراج إنما تكون عند إدراك الثمار

والغلات وهذه وقتها واحد فكانوا يفتتحون الخراج في يوم النيروز
وكانت الفرس تعتبر السنة الشمسية ٣٦٠ يوما كل شهر ثلاثون يوما كاملة وكانوا
يضيفون إليها خمسة أيام بين آبان ماه وآذرماه وهما الشهر الثامن والشهر التاسع من
شهورهم ويجتمع لهم في كل ١٢٠ سنة من ربع اليوم أيام شهر تام ومن خمس الساعة
الذي يتبع ربع اليوم عندهم يوم واحد فألحقوا الشهر التام بها في كل ١١٦ سنة وبناء
على ذلك كانوا يؤخرون النيروز عن وقته شهرا كاملا كلما مضت هذه العدة . فلما
سقط ملكهم أغفلوا هذا الكعبس واستمر فتح الخراج أيام النيروز في عهد المتوكل
دخل بعض بساينته فر بزرع فرآه أخضر فقال لعل بن يحيى المنجم إن الزرع أخضر
بعد ما أدرك وقد استأمرني عبيد الله بن يحيى في استفتاح الخراج فكيف كانت
الفرس تستفتح الخراج في النيروز والزرع لم يدرك بعد فقال له على ليس يجرى
الأمر اليوم على ما كان يجرى عليه أيام الفرس ولا النيروز في هذه الأيام في وقته
الذي كان في أيامها لأنها كانت تكبس في كل ١٢٠ سنة شهرا وكان النيروز إذا تقدم
شهرا وصار في خمس من حزيران كبست ذلك الشهر فصار في خمس من إيار وأسقطت
شهرا وردته إلى خمس من حزيران فكان لا يتجاوز هذا فلما تقلد خالد القسرى
العراق وحضر الوقت الذي تكبس فيه الفرس منعها من ذلك فلما امتعوا من
الكبس تقدم النيروز تقدما شديدا حتى صار يقع في نيسان والزرع أخضر
فقال المتوكل فاعمل لهذا عملا ترد النيروز فيه إلى وقته الذي كان يقع فيه
أيام الفرس وعرف بذلك عبيد الله بن يحيى ليكون استفتاح الخراج فيه فكاتب
بذلك كتب سنة ٢٤٣ ولكن أمرها لم يتم لقتل المتوكل . فلما ولي المعتضد
وأخبر بخبر المتوكل اهتم بالأمر وحسب المدة التي تقدمها تاريخ النيروز بسبب
إهمال الكعبس فوجد أنه تأخر ستين يوما فأخر النيروز بقدره فكان في ١١
حزيران فجعله كذلك دائما لا يتأخر عنه وجعله على حساب شهور الروم لتكبس
شهوره كلما كبست الروم شهورها فصار لا يتقدم النيروز عن زمنه ولا يتأخر .
قال البيروني في كتابه الآثار الباقية وهذا وإن دقق في تحصيله فلم يعد به النيروز إلى
ما كان عليه عند الكعبس في دولة الفرس وذلك أن إهمال الفرس كيبسهم كان قبل
هلاك يزيد مجرد بقریب من سبعين سنة لأنهم كانوا كبسوا السنة في زمان يزيد مجرد بن

سابور بشهرين أحدهما لما لزم السنة من التأخر وهو الواجب ووضعوا اللواحق خلفه علامة له وكانت النوبة لأبان ماه كما سنذكر والشهر الآخر للستأنف ليكون مفروغا منه إلى مدة طويلة فاذا أسقط من السنين التي بين يزيدجرد بن سابور وبين يزيدجرد بن شهر يار ١٢٠ سنة بقي بالتقريب سبعون سنة لا بالتحقيق فإن تواريخ الفرس مضطربة جدا ويكون حصّة هذه السبعين سنة من الأرباع قريبا من ١٧ يوما فكان يجب بالتحليل من القياس أن يؤخر ٧٧ يوما لا ٦٠ حتى يكون النيروز في ٢٨ حزيران ولكن المتولى لذلك ظن أن طريقة الفرس في الكبس كانت شبيهة بالتي يسلكها الروم فيه فحسب الأيام من لندن زوال ملكهم والأمر فيه على خلاف ذلك اه

أما مسألة اتفاق السنة الخراجية مع السنة الهلالية فانهم لما رأوا بالحساب أن كل ٣٢ سنة شمسية تساوى بالتقريب ٣٣ سنة هلالية كانوا يضيفون على السنة الخراجية كلما مرت ٣٢ سنة ففي سنة ٢٤١ الخراجية نسب الخراج إلى سنة ٢٤٢ الهلالية وأسقطت سنة ٢٤١ لأن الغلة إنما أدركت سنة ٢٤٩ ولنضرب لذلك مثلا يفهم به ما كانوا يعملونه كان أول المحرم سنة ٢٠٤ هو ٤ مايو سنة ٨٢٤ وأول المحرم سنة ٢٤٢ هو ١٠ مايو سنة ٨٥٦ ومن بين هذين ٣٣ سنة قمرية و ٣٢ سنة شمسية فتكون السنة بالحساب الخارجى سنة ٢٤١ فلنكى تتحد مع السنة الهلالية يضيفون عليها واحدا حتى تكون سنة ٢٤٢ ويسقطون من الخراج سنة ٢٤١ وقد كتب المعتضد بذلك كتابا أمر فيه أن تكون جباية الخراج في العراق والمشرق وما يتصل بهما ويجرى مجراهما على الطريق التي رسمها وإنما قيد بالعراق والمشرق لأن الحال في مصر كانت على الكبس القبطى وفي الشام على الكبس الرومى وكلاهما لا يتغير به الزمان

والمعتضد هو الذى ترك سامرا واستبدل بها بغداد فضاعت أبتها وخربت بعد أن كانت تضارع بغداد بل لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا منها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها إلى بغداد يعمر بها فقال ابن المعتز:

قد أقفرت سامرا ه وما لشيء دوام

فالقض يحمل منها • كأنها آجام
ماتت كما مات فيل • تسل منه العظام

وبها قبور ستة من الخلفاء وهم الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدي والمعتمد
وبها قبر إمامين من أئمة الشيعة وهما علي بن محمد والحسن بن علي العسكريان وبها
السرداب التي تزعم الشيعة أنه يخرج منه المهدي المنتظر

وفاة المعتضد

توفي المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٢٨٩ وكان ولي عهده ابنه المكتفي

١٧ — المكتفي

هو علي المكتفي بن المعتضد بن أبي أحمد المتوكل وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك
ولد سنة ٢٣٦ وبويغ بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بعهد منه وذلك في ٢٢ ربيع
الآخر سنة ٢٨٩ (١٥ أبريل سنة ٩٢٠) ولم يزل خليفة إلى أن توفي في ١٢ ذي القعدة
سنة ٢٩٥ (١٣ أغسطس سنة ٨٠٩) فكانت مدته ست سنوات وستة أشهر و١٩ يوماً
وتولى في عهده على بلاد المغرب الأقصى من الإدارة يحيى بن إدريس بن عمر
ابن إدريس بن إدريس بعد اختلافات طويلة كانت بين أفراد هذا البيت وكانت
ولايته سنة ٢٩٢

وفي عهده تولى إفريقية من الأغلبة زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن
محمد بن الأغلب وهو آخر أمراء هذا البيت وكانت ولايته سنة ٢٩٠

وكان أمير مصر على عهده شيبان بن أحمد بن طولون وهو آخر الأمراء من هذا البيت
وكان الأمير علي زيد من آل زياد بن إبراهيم بن محمد (٢٨٩ - ٢٩١) ثم
أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم

وكان الأمير من آل سامان بالمشرق إسماعيل بن أحمد (٢٧٩ - ٢٩٥) ثم أحمد بن
إسماعيل (٢٩٥ - ٣٠١)

ويعاصره في بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف وفي فرنسا شارل
الثالث الملقب بالساذج

وزراء المكتفي

لما استخلف المكتفي أبقى في الوزارة وزير أبيه القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ندير الأمور على ما كانت في زمن المعتضد واستمر في الوزارة عظيماً مهيباً إلى أن توفي سنة ٢٩١

فاستوزر المكتفي بعده العباس بن الحسن

الأحوال في عهده

اتسكست البلاد في عهد المكتفي بعد أن كانت ابتدأت تنتعش في عهد أبي أحمد الموفق وعهد ابنه المعتضد فقد ابتدأت ولايته بظهور المنافسات بين ذوى النفوذ من الدولة فكان أحدهم يكيد للآخر شريك حتى يورده المهالك من غير نظر في ذلك إلى ما تقتضيه مصلحة الأمة

وبما حصل مما يدل على ذلك أن بدرا غلام المعتضد كان يقود الجيش المحافظ في إقليم فارس وكان بينه وبين وزير المكتفي القاسم بن عبيد الله مباحة فلم يكن من الوزير إلا أن أرسل للقواد الذين مع بدر بفارس يأمرهم بالمسير إليه ومفارقة بدر ففعلوا ولما رأى ذلك بدر انصرف إلى واسط فلما بلغ الخليفة انصرافه وكل بداره وقبض على جماعة من غلبانه وقواده فحبسوا وأمر بمحو اسمه من التراس والأعلام كلها وكان عليها (أبو النجم مولى المعتضد بالله) وذلك كله حصل باغراء الوزير وتخويفه الخليفة من غدر بدر

أراد الوزير بعد ذلك استعمال الحيلة في القبض على بدر فدعا بأبي عمر محمد بن يوسف القاضى وأمره بالمضى إلى بدر ورفقائه وتطييب نفسه وإعطائه الأمان من أمير المؤمنين على نفسه وماله وولده فذهب إليه القاضى ودفع إليه الأمان فاستقر الأمر بينهما على أن بدرا يدخل بغداد سامعاً مطيعاً وأمر غلبانه أن يزعوا سلاحهم وأن لا يبحاروا أحداً وبينما هو يسير في الحراقة إذ وافاه محمد بن إسحاق بن كنداج في شذا فلما قاربه تحول إلى الحراقة وطيب نفس بدر ثم ورد عليه في ذلك الحين أحد غلبان السلطان في طيار فأخذه من الحراقة حتى صار به إلى جزيرة في الصافية فأخرجه إليها

وقله وآسلم السلطان ضياعه ومستغلاته ودوره وجميع ماله
وكان بهذا العمل الخزي للقاضي الذي توسط في أمر لم يكن قادرا على تنفيذه
وآذ كانت العامة تدرك ما في الاخلال بالعهود والمواثيق من المعرة حتى قال أحد
الشعراء يذم القاضي على فعلته

قل لقاضي مدينة المنصور * بم أحللت أخذ رأس الأمير
بعد إعطائه المواثيق والعهد وعقد الأيمان في منشور
أين أيمانك التي شهد الله على أنها يمين فيجور
أن كفيك لا تفارق كفيه إلى أن ترى ملك السرير
يا قليل الحياء يا كذب الأمة يا شاهدا شهادة زور
ليس هذا فعل القضاة ولا يحسن أمثاله ولاة الجور
أى أمر ركب في الجمعة الزهراء من شهر خير الشهور
قد مضى من قتلت في رمضان * صائما بعد سجدة التعفير
يا بنى يوسف بن يعقوب أضحى * أهل بغداد منكم في غرور
بدد الله شملكم وأراني * ذلكم في حياة هذا الوزير
فأعد الجواب للحكم العا * دل من بعد منكر ونكير
أتم كلكم فداء لأبي حا * زم المستقيم كل الأمور
والذي هاج الناس من هذا الأمر أنهم لم يكونوا يتوقعون من القضاة الذين
ينفذون فيهم شريعة الاسلام أن يكونوا عوناً على الغدر وعدم احترام الأيمان .
كانت تلك الحال سبباً لازدياد أمر القرامطة واضطراب نيرانهم في الشام والعراق
والبحرين وطريق مكة

لما رأى داعيتهم زكرويه أن أهل السواد لا يغيثون عن أنفسهم سعى لاستغواء
أعراب الكوفة من أسد وطية وتميم وغيرهم إلى رأيه فلم يستجيبوا وكانت جماعة
من كلب تحفر الطريق على البر بالسماوة بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر
وتحمل الرسل وأمتعة التجار على إبلها فأرسل زكرويه أولاده إليهم فبايعوهم وخالطوهم
وانتموا إلى علي بن أبي طالب فقبلوهم على ذلك ثم دعواهم إلى رأى القرامطة فقبل
ذلك منهم أحد أنخاذهم فبايعوا في آخر سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه ولقبوه الشيخ

وزعم لهم أن بالسودان والمشرق مائة ألف تابع ومخرق لهم حتى اعتقدوه وأطاعوه فقصدهم سبك الديلمي مولى المعتضد بناحية الرصافة غربى ديارمضر فاغتروه وقتلوه وحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى أصعدوا إلى أعمال الشام التي كانت في حوزة هارون بن خمارويه ويلها من قبسله طغج بن جف فهزم القرمطى كل جيش وجهه إليه طغج حتى حصره في مدينة دمشق فأنفذ إليه المصريون بدرا الكبير غلام أحمد بن طولون فاجتمع مع طغج على حربه فواقعهم قريبا من دمشق وقتل في الواقعة يحيى القرمطى ثم دارت الدائرة على المصريين فأنحازوا وولى القرامطة عليهم الحسين بن زكرويه أخا يحيى فأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آية له فلقب ذا الشامة وظهر على المصريين وعلى جنود حصص وغيرها من أرض الشام وتسمى بأمره المؤمنين على منابرها — كان ذلك كله في سنتي ٢٨٩ و ٢٩٠

وكان يكثر القتل في كل بلد دخلها إلا من اتقت شره بصاحبه والدخول في أمره وكان لا يترك أحدا حتى صبيان المكاتب ومن البلدان التي لم يبق بها أحدا سلبية تواتت كتب أهل الشام إلى الخليفة ببغداد يشكون مما ألم بهم من ذى الشامة من القتل والسبي وتخريب البلاد فلم يربدا من الخروج بنفسه إلى الشام فتأهب وسار إلى الشام وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبا الأغر في عشرة آلاف فارس فنزل أبو الأغر قريبا من حلب فكبسهم القرمطى فقتل منهم خلقا كثيرا وسلم أبو الأغر فدخل حلب في ألف رجل فتبعه القرمطى إلى حلب فخاربه أبو الأغر بمن بقي معه من أهل البلد فرجع عنهم

سار المسكتفى حتى نزل الرقة وسير الجيوش إليه وجعل أمرها إلى محمد بن سليمان الكاتب فسار محمد حتى صار بينه وبين حماه ١٢ ميلا فالتقوا بأصحاب القرمطى فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت فهزم أصحاب القرمطى وقتلوا وأسروا من رجالهم بشر كثير وتفرق الباقيون في البوادي وتبعهم أصحاب السلطان. ولما رأى القرمطى ما نزل بجنده حمل أخا له مالا وتقدم إليه أن يلحق بالبوادى إلى أن يظهر في موضع فيسير إليه وركب هو في ثلاثة معه وسار يريد الكوفة عرضا في البرية حتى انتهى إلى موضع نفذ معه زاده وعلفه فوجه بعض من كان معه إلى موضع يعرف بالدالية من أعمال طريق الفرات فلما دخلها أنكرزيه وسئل عن أمره فجمع ثم

أقر أن ذالشامة معه فخرج متولى المسلحة بتلك الناحية وقبض عليه وعلى من معه فصاروا به إلى المكتنفي وفي ٢٦ محرم سنة ٢٩١ أدخل الرقة مشهرا ثم حمل إلى بغداد وعتمب ذلك أقبل محمد بن سليمان بجنده وبالأسرى الذين أخذهم من القرامطة وهم نيف وسبعون أسيرا فأعدموا كلهم ونظفت النواحي الشامية من هذه الفرقة المنكرة إلا أن ذلك لم يكن مييدا للذهب القرمطى فان والديحيي ذا الشامة لم يزل على قيد الحياة وهو زكرويه رأس الفتنة

لما بلغه مقتل ذى الشامة أنفذ رجلا كان معلما القرآن باحدى القرى اسمه عبد الله بن سعيد فتسمى نصرا ليعمى أمره فدار على أحياء كلب يدعوهم إلى رأيه فساعده رجل اسمه مقدم واستغوى له طوائف من أعراب البادية فذهب بهم إلى جهات الشام فأغار على مدينتى بصرى وأذرعات فحارب أهلها ثم أمنهم فلما استسلموا قتلهم وسبى ذرارهم واستصنى أموالهم ثم سار يوم دمشق فغلب مقاتلها ولكنه لم يطمع فى دمشق لدفاع أهلها عنها . ولما علم الخليفة بفعله أنفذ إليه الحسين ابن حمدان فورد دمشق وقد دخل القرامطة طبرية فلما انصل بهم خبره عطفوا نحو السماوة وتبعهم الحسين فى برية السماوة وهم ينتقلون من ماء إلى ماء فلما أوغلوا انقطع عنهم . أما هم فأسروا إلى هيت فصبحوها وأهلها غارون فنهبوا نعيمها وقتلوا من قدروا عليه من أهلها ثم رحل عنها إلى البرية فأرسل إليهم الخليفة محمد بن إسحاق فى جيش وأمر الحسين بن حمدان أن يصمد نحوهم . ولما علم بنو كلب بتوجه هذه الجيوش إليهم عمدوا إلى نصر فقتلوه وتقربوا برأسه إلى السلطان وأظهروا الخضوع فغفما عنهم أما بقية القرامطة فأنحازوا إلى البادية

ولما بلغ زكرويه كل ذلك أرسل إليهم داعية بدل نصر اسمه القاسم بن أحمد وواعدهم أن يوافوه بالكوفة ليغيروا عليها يوم النحر من سنة ٢٩٣ فامتثلوا أمره ووافوا باب الكوفة منصرف الناس من صلاة العيد وعددهم نحو ٨٠٠ رجل فأوقعوا بمن لحقوه من العوام وسلبوا جماعة وبادر الناس إلى الكوفة فدخلوها وتنادوا السلاح فنقض العامل بمن عنده من الجند وصاف القرامطة فهمهم ثم بعث يطلب نجدة من بغداد فأرسل من هناك جند محاربة القرامطة بجهة القادسية ولكن هذا الجند لم يحافظ على خط رجعتة فجاءته القرامطة من خلفه فانهزم أقيح هزيمة

واحتوى القرامطة على مافي معسكرهم فأخذوه وصارت لهم به قوة ثم أرسلوا إلى زكرويه فاستخرجوه من محبته فسار معهم وهو محتجب يدعونه السيد ولا يبرزونه والقاسم يتولى الأمور دونه ويمضيها وجعلوا مقر أعمالهم الصحراء.

ومن أخبث ما فعلوه في سنة ٢٩٤ أنهم أغاروا على قوافل الحج الآية من مكة إلى المشرق خراسان والعراق فلم يتركرا من هؤلاء الحجاج من يخبر بخبر وأخذوا من الأموال شيئا عظيما وورد خبر ذلك إلى بغداد فعظم الأمر على الناس وعلى السلطان فاهتم الوزير بالأمر ونذب اليهم جيشا عظيما ذهب اليهم في جادة مكة وقاتلهم فقتل منهم كثيرا وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصته واحتوى الجند على مافي معسكره وعاش زكرويه بعد الواقعة خمسة أيام ثم مات والذين هربوا من القرامطة لقيهم الحسين بن حمدان فأوقع بهم.

ولنذكر هنا نص كتابين أحدهما من ذى الشامة إلى عامل من عماله والثاني من عامل إلى ذى الشامة ليتضح لنا كيف كان لسان هؤلاء القوم في دعاويهم التي بها يستحلون سفك دماء الناس والسعي في الأرض بالفساد.

الكتاب الأول — من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بأمر الله الحاكم بحكم الله الداعي إلى كتاب الله الذاب عن حرم الله المختار من ولد رسول الله أمير المؤمنين وإمام المسلمين ومذل المنافقين خليفة الله على العالمين وحاصد الظالمين وقاصم المعتدين ومبيد الملحدون وقاتل القاسطين ومهلك المفسدين وسراج المبصرين وضياء المستضيئين ومشتت المخالفين والقيم بسنة سيد المرسلين وولد خير الوصيين عليه السلام وعلى أهل بيته الطيبين كثيرا، إلى جعفر بن حميد الكردى سلام عليك فأنى أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو وأسأله أن يصلى على جدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد فقد انتهى إلينا ما حدث قبلك من أخبار أعداء الله الكفرة وما فعلوه بناحتك وأظروه من الظلم والعيث والفساد في الأرض فأعظمتنا ذلك ورأينا أن ننفذ إلى ما هناك من جيوشنا من ينقم الله به من أعدائه الظالمين الذين يسعون في الأرض فسادا وأنفذنا عظيرا داعيتنا وجماعة من المؤمنين إلى مدينة حمص وأمددناهم بالعساكر ونحن في أثرهم وقد أوعزنا اليهم في المصير إلى ناحيتك لطلب أعداء الله حيث كانوا ونحن نرجو أن يجرينا الله فيهم على أحسن عوائده

عندنا في أمثالهم فينبغي أن تشد قلبك وقلوب من معك من أوليائنا وتثق بالله وينصره الذي لم يزل يعودناه في كل من مرق عن الطاعة وانحرف عن الإيمان وتبادر إلينا بأخبار الناحية وما يتجدد فيها ولا تخف عنا شيئاً من أمرها إن شاء الله سبحانه اللهم وتحتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على جدى محمد رسول الله وعلى أهل بيته وسلم كثيراً

الكتاب الثانى — بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أحمد الامام المهدي المنصور بالله — ثم الصدر كله على مثال صدر نسخة كتابه إلى عامله — ثم بعد ذلك من عامر ابن عيسى العنقائى سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته أما بعد أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام الله عزه وتأييده ونصره وسلامته وكرامته ونعمته وسعادته وأسبغ نعمه عليه وزاد في إحسانه إليه وفضله لديه فقد كان وصل كتاب سيدى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يعلنى فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قواده إلى ناحيتنا لمجاهدة أعداء الله بنى الفصيص والخان ابن دحيم وطلبهم حيث كانوا والايقاع بهم وبأسبابهم وضياعهم ويأمرنى أدام الله عزه عند نظرى فى كتابه بالنهوض فى كل من قدرت عليه من أصحابى وعشارى للقائهم ومكافحة الجيش ومعاصدتهم والمسير بسيرهم ولعمدكل ما يومون إليه ويأمرون به وفهمته ولم يصل إلى هذا الكتاب أعز الله أمير المؤمنين حتى وافت الجيوش المنصورة فنالت طرفاً من ناحية ابن دحيم وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن أحمد الداعية ليلقوه بمدينة أفامية ثم ورد على كتاب مسرور بن أحمد فى درجة الكتاب الذى اقتصصت ما فيه فى صدر كتابى هذا يأمرنى فيه بجمع من تها من أصحابى وعشيرتى والنهوض إلى ما قبله ويمحذرنى التخلف عنه وكان ورود كتابه على وقت صح عندنا نزول المارق سبك عبد مفاح مدينة عرقة فى زهاء ألف رجل ما بين فارس وراجل وقد شارف بلدنا وأطل على ناحيتنا وقدوجه أحمد بن الوليد عبد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه إلى جميع أصحابه ووجهت إلى جميع أصحابى لجمعناهم إلينا ووجهنا العيون إلى ناحية عرقة لتعرف أخبار هذا الخائن وأين يريد فيكون قصدنا ذلك الوجه ونرجو أن يظفر الله به ويمكن منه بمنه وقدرته ولولا هذا الحادث ونزول هذا المارق فى هذه الناحية وإشرافه على بلدنا لما تأخرت فى جماعة أصحابى عن النهوض إلى مدينة

أفامية لتكون يدي مع أيدي القواد المقيمين لمجاهدة من بتلك الناحية حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين وأعلنت سيدي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه السبب في تخلفي عن مسرور بن أحمد ليكون على علم منه ثم إن أمرني أدام الله عزه بالنفوذ إلى أفامية كان نفوذى برأيه وامثلت ما أمرني به إن شاء الله أتم الله على أمير المؤمنين نعمه وأدام عزه وسلامته وهنأه كرامته وألبسه عفوه وغافيته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته الطاهرين الاخيار

هكذا ضعف سلطان هذه الطائفة بالعراق بعد قتل زكرويه وأولاده وقتل أكثر دعاتهم ولكن قد بقي ذنب الأفعى وهو الجنابي بالبحرين ولم يكن له في عهد المكتفي كبير عمل وإنما كانت مصائبه ورزاياه في عهد المقتدر وسنين ذلك في حينه

خبر المشرق

انتظمت بلاد خراسان وماوراء النهر لاسماعيل بن أحمد الساماني وكان رجلا عاقلا مدبرا ذا عزيمة ثابتة ولم يزل أمره على ما هو عليه والمكتفي راض عنه حتى توفي سنة ٢٩٥ فولى بعده ابنه أحمد بن اسماعيل وعمد له المكتفي بيده لواء وأرسله اليه

خبر المغرب

وفي عهد المكتفي انقضت دولتان إحداهما دولة بني طولون بمصر على يدي العباسيين وآخر أمرائها شيان بن أحمد بن طولون سنة ٢٩٢ والثانية دولة الأغالبة بإفريقية انتهت على أيدي أبي عبد الله الشيعي داعية الفاطميين بالمغرب

العلاقات مع الروم

كانت العلاقات في أول الأمر حسنة مع ملك الروم حتى أنه تبودلت الهدايا بين الملوكين .

وفي سنة ٢٩٠ وردت رسل صاحب الروم يسألون المكتفي المقاداة بمن في أيدي المسلمين من الأسرى ومعهم هدايا فأجيبوا إلى طلبهم ولم يتم هذا الفداء إلا سنة ٢٩٣ فكان جملة من فودى به من المسلمين نحو ١٢٠٠ وكان المتولى للفداء أمير الثغور

رستم بن برد ولم تستمر العلاقات حسنة
 ففي سنة ٢٩١ سار جيش إسلامي من طرسوس وصمد نحو أنطاكية ففتحها
 بالسيف عنوة وهي من أهم مدن الروم وثغورهم البحرية وقد قتل في فتحها نحو ٥٠٠٠
 من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من أسارى المسلمين مثل ذلك وأخذوا من الروم
 ستين مراكبا حملت فيها الغنائم من الأموال والمتاع والرقيق وقد نصيب كل رجل
 ألف دينار وغزا من المسلمين أمير الثغور رستم مرتين وبلغ في غزاته الثانية سلندوا
 ففتحها وصار إلى آلس نأسر من الروم عددا كبيرا وغزا ابن كيغاغ من طرسوس
 وفي سنة ٢٩٤ استأمن إلى السلطان بطريق اسمه أندرونقس وكان على حرب أهل
 الثغور من قبل ملك الروم فأجيب طلبه وأخرج نحو من مائتي نفس من المسلمين
 كانوا أسرى في حصنه وكان ملك الروم قد وجه من يقبض عليه فأعطى المسلمين
 الذين كانوا أسرى في حصنه السلاح وأخرج معهم بعض بنينه فكبسوا بالطريق
 الموجه إليه للقبض عليه ليلا وقتلوا بمن معه خلقا كثيرا وغنموا مائتي معسكرهم .
 وكان رستم قد خرج في أهل الثغور في جمادى الأولى قاصدا أندرونقس ليتخلصه
 فوافي رستم قونية بعقب الواقعة وعلم البطارقة بمسير المسلمين إليهم فأنصرفوا ووجه
 أندرونقس ابنه إلى رستم ووجه رستم كاتبه وجماعة من البحريين فباتوا في الحصن
 فلما أصبحوا خرج أندرونقس وجميع من معه من أسرى المسلمين ومن صار إليهم
 منهم ومن وافقه على رأيه من النصارى وأخرج ماله ومتاعه إلى معسكر المسلمين
 وضرب المسلمون قونية ثم قفلوا إلى طرسوس هم وأندرونقس وأسارى المسلمين
 ومن كان مع أندرونقس من النصارى وقد وصل هذا الطريق إلى بغداد فأكرم
 وحصل في آخر عهد المكتفي مفاداة ثانية تمت سنة ٢٩٥ وكان عدة من فودى به
 من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس

وفاة المكتفي

توفي المكتفي في ١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥

١٨ — المقتدر

هو جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بن أبي أحمد بن المتوكل وهو أخو المكتفي وأمه أم ولد اسمها شغب ولد سنة ٢٨٢ وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه ولم يزل خليفة إلى أن قتل في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) فتكون مدته ٢٤ سنة و١١ شهرا و١٦ يوما

وكان يعاصره في الأندلس عبد الله بن محمد إلى سنة ٣٠٠ ثم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠ وهو أول من تسمى بأمر المؤمنين من بني أمية بالأندلس

ويعاصره بأفريقية عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين بالمغرب (٢٩٧ - ٣٢٢) ويعاصره في بلاد الروم لاون السادس ثم أخوه الاسكندر بن بسيل (٩١١ - ٩١٢) ثم قسطنطين السابع بن لاون السادس وكانت تدبره أمه زوا ثم رومانس الأول الأروني الذي اغتصب الملك سنة ٩١٩ ولم يبق لقسطنطين إلا الاسم وشارك رومانس في الملك أبناءه خريستوف واسطفانس وقسطنطين أحدهم بعد الآخر وأصرف به تصرف مالك ٢٥ سنة إلى سنة ٩٤٤ فأغرى قسطنطين السابع ابن رومانس وهما اسطفانس وقسطنطين الثامن بالمناسبة لأبيهما قناربه وثلاعرشه وحبساه في دير حيث مات سنة ٩٤٨ وعاد قسطنطين السابع إلى ملكه سنة ٩٤٥ حيث مات مستبدا به إلى سنة ٩٥٩ حيث مات مسموما على ما يقال

ويعاصره في فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج ثم روبرت الأول (٩٢٢ - ٩٢٣) ثم راوول من أقارب الكاباسيان (٩٢٣ - ٩٦٢) ويعاصره في خراسان وماوراء النهر أحمد بن إسماعيل بن أحمد الساماني

كيف انتخب

لما ثقل المكتفي كان في منصب الوزارة العباس بن الحسن ففكر فيمن يتولى الخلافة بعده لأنه لم يكن ولي أحدا العهد في صحته وكان من عادة الوزير أن يسايره إذا ركب واحد من هؤلاء الأربعة الذين يتولون الدواوين وهم أبو عبد الله محمد بن

داود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبد الله وأبو الحسن علي بن محمد بن الفرات وأبو الحسن علي بن عيسى فاستشار الوزير يوما محمد بن داود بن الجراح في ذلك فأشار بعبد الله بن المعتز ووصفه بالعقل والأدب والرأى واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات فقال هذا شيء ماجرت به عادتي أن أشير فيه وإنما أشاور في العمال لافي الخلفاء فغضب الوزير وقال هذه مقاطعة باردة وليس يخفى عليك الصحيح وألح عليه فقال إن كان رأى الوزير قد استقر على أحد بعينه فليفعل فعلم الوزير أنه يعنى ابن المعتز لاشتهار خبره فقال لا أقنع إلا أن تمحضنى النصيحة فقال ابن الفرات فليقت الله الوزير ولا ينصب إلا من قدره واطلع على جميع أحواله ولا ينصبه بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعا فيشره في أموالهم فيصادروهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ويرجو الثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضبعة هذا وفرس هذا ومن قد لقي الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم فقال الوزير صدقت ونصحت فمن تشير قال أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد فقال ويحك هو صبي قال ابن الفرات إلا أنه ابن المعتضد ولم تأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا . فمالت نفس الوزير إلى مشورة ابن الفرات وانضاف إلى ذلك وصية المكتنفي فانه أوصى لما اشتد مرضه بتقليد أخيه جعفر الخلافة فلما مات المكتنفي اختار الوزير جعفرا للخلافة بالاتفاق مع صافي الحرمي ولقب المقتدر بالله وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة

وكان ذلك لم يرق للناس لصغر سن المقتدر فاجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن وانفقوا على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز فراسلهم في ذلك فأجابهم على ألا يكون فيه سفك دم ولا حرب فأخبروه باجتماعهم عليه وأنه ليس لهم منازع ولا محارب وكان رأس هذا التدبير الوزير ومحمد بن داود ابن الجراح وأحمد بن يعقوب القاضى ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صوارتكين ثم إن الوزير أراد الانفصال عنهم لأنه رأى حاله صالحا مع المقتدر وأنه على ما يحب فقام عليه الآخرون فقتلوه قتل الحسين بن حمدان وبدر ووصيف في ٢٠ ربيع أول سنة ٢٩٦ وفي غده خلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز

وحضر البيعة الناس والقواد وأصحاب الدواوين سوى أبي الحسن بن الفرات وخواص المقتدر وكتبت الكتب بذلك إلى العمال ووجه المقتدر يأمره بالانتقال من دار الخلافة فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الامهال إلى الليل . ولم يكن يق مع المقتدر من القواد إلا مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية الدار . فلما هم المقتدر بالانتقال قال بعضهم لبعض لانسلم الخلافة من غير أن نبلى عذرا ونجتهد في دفع ما أصابنا فأجمع رأيهم على أن يصعدوا في المساء إلى الدار التي فيها ابن المعتز ويقالوه وعاونهم المقتدر بالسلاح والزرديات وغير ذلك فركبوا في السميريات وأصعدوا في المساء فلما رأهم من عند ابن المعتز هالهم كثرتهم واضطربوا وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا إليهم . وكان قد حصل قبل ذلك أن الحسين بن حمدان فارق بغداد بأهله وتركهم في هذا المأزق ولا يدري لم فعل ذلك

فلما رأى ابن المعتز هذه الحال ركب ومعه وزيره الذي اختاره أو اختير له وهو محمد بن داود وهربا و غلام له ينادى يامعشر العامة ادعوا لخليفكم السني البربهاري (ينسبونه إلى الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهاري مقدم الخنابلة وأهل السنة وللغامة فيه اعتقاد فأرادوا من تلك النسبة استمالتهم بهذا القول) سار ابن المعتز على هذه الصفة نحو الصحراء ظنا منهم أن من بايع ابن المعتز من الجندي يتبعونه فلم يلحقه منهم أحدا ولما رأوا ذلك اختفى محمد بن داود في بيته ونزل ابن المعتز عن دابته ومعه غلامه وانحدر إلى دار أبي عبد الله بن الجصاص فاستجار به واستتر أكثر من بايع ابن المعتز ووقعت الفتنة والنهب والقتل بين بغداد وثار العيارون والسفل ينهبون الدور لأن صاحب الشرطة كان ممن بايع ابن المعتز فهرب أيضا

في ذلك الوقت خرج المقتدر بالعسكر وقبض على كل من كان لهم يد في بيعة ابن المعتز فقتلهم وأرسل إلى ابن الفرات فاستوزره . ثم عثر على ابن المعتز فأخذ وحبس إلى الليل وعذب حتى مات وأخذ وزيره محمد بن داود فقتل ثم أرسل خلف الحسين ابن حمدان فلم يدرك وأخيرا رضى عنه المقتدر فحضر إلى بغداد مرضيا عنه

وانتهت بذلك هذه الفتنة التي بها ابتدأ ضعف الخلافة وسقوط هيبتها واشتد الانتكاس في عهد المقتدر حتى لم يعد للخلافة أدنى سلطان ولا احترام فان المقتدر حين ولى كان شابا غرا لا يعرف من السياسة ولا من الشجاعة شيئا

وكانت له أم وقهرمانه صارلها الحكم في كل مايجرى من الشؤون وإلهما يتقرب بالرشوة من يريد عملا أووزارة والمقتدر لاه بماهو فيه من اللعب واللهو والسرف لايفكر في صلاح ولم يعد بيده شيء . وانصور لكم الحال تماما نبدأ بذكر الوزراء أيام دواته وكيف كانوا ينالون الوزارة وكيف كان يفعل بهم إذا قدمت رشوة بمن يريد أن يحل محلهم

كان أول وزارته أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات استوزره يوم الأحد لعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٢٩٦ فنظر في الأمور نظر جد واهتمام وأمر جماعة من القواد بطواف البلد ليلا والايقاع بأهل الدعارة ومن يروونه متعرضا لنهب دار وأخذ مال وعلى يد ابن الفرات كانت عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز فصادر من صادر وقتل من قتل وكان ممن دخل في هذه الفتنة أبو عمر محمد بن يوسف القاضي فأخذ فيمن أخذ وحضر أبوه يوسف وهو شيخ كبير مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاء شديدا رق له منه وسأله حراسة نفس ولده أبي عمر والتصدق عليه به فقال الوزير الجناية عظيمة ولا يمكن تخليته إلا بمال جليل يطمع الخليفة فيه من جهته فبذل يوسف أن يفقر نفسه وابنه طلبا لبقائه وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر وقرر أمر أبي عمر على مائة ألف دينار فأدى منها تسعين ألفا من جملتها ٤٥ ألفا كانت عنده وديعة للعباس بن الحسن وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره وألا يخرج منها لئلا يجعل له حديث مجدد

مضى ابن الفرات في وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما اختلفت عليه الأمور فيها وحدثت الحوادث وحضر عيدالنحر من سنة ٢٩٨ فاحتج فيه من النفقات إلى ما جرت العادة به وكانت المواد قد قصرت والمؤمن قد تضاعفت وطلب المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه في نفقات هذا العيد فنفعه من ذلك وألزمه القيام به من جهته فوجد بذلك أعداؤه الطريق إلى الوقيعة فيه

فركب في يوم الأربعاء لأربع خلون من ذي الحجة إلى دار الخلافة وهو على غاية السكون والطمأنينة وجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه قبل الوصول إلى السلطان فقبض عليه وعلى كاتبه ومضى القواد للقبض على أسبابه وكتابه فقبضوا عليهم وصار مؤنس الخادم إلى دار الوزارة فوكل بها وأنفسد يلبق إلى دار ابن الفرات فأحاط

عليها وتسرع الجند والعوام إلى دور أولاده وأهله فنهبوا وأخربوها وأخذوا ساجها وسقوفها وعظم الأمر في النهب حتى ركب أبو القاسم في الحال بعد العصر في القواد والغلمان وطلب النهاية وعاقب قوما منهم فقامت الهيبة وسكنت الفتنة وأحضر الوزير الثاني

محمد بن عبيد الله بن خاقان

فقد الوزارة وقبض ما كان لابن الفرات من الضياع والاقطاع والأملاك والعقار والأموال والغلات وصح له ما مقداره ألف ألف دينار عينا وستمائة ألف دينار سوى الأثاث والرحل والكرع والجمال

تولى ابن خاقان فبدأ وزارته بالمصادرات والمضايقات يريد بذلك سد حاجة الخليفة حتى لا يقع فيما وقع فيه سلفه وحول من بيت مال الخاصة إلى بيت مال العامة ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار على سبيل القرض ولم يؤد من عوض ذلك سوى أربعين ألف دينار وكان في ابن خاقان إهمال للأموار وإطراح للأعمال وتلون في الأفعال فكانت السكتب ترد عليه وتصدر جواباتها عنه من غير أن يقف عليها أو يأمر بشيء فيها وإذا أخرجت إليه جوامعها تركها أياما فلم يطالعها وربما وردت رسائل بحمول وكتب فيها سفائح بمال فبقي أياما لا ينفذ وإذا قلد عامل أتبع بمن يعزله قبل وصوله إلى عمله وأتبع الصارف بمن يصرفه ففيل إنه اجتمع في خان بجولان سبعة أنفس وقد قلد كل واحد منهم مائة الكوفة في عشرين يوما وبالموصل خمسة قد قلدوا قردي وبازبدي وأنهم اجتمعوا وتشاكوامادفعوا إليه وخرج عن أيديهم من نفقاتهم وما بذلوه عن تقليدهم على أن ينالوا من مال العمل ما قدموه وأنفقوه واستظهروا لنفوسهم به وخلوا العمل على آخر من ورد من الناحية

وكان إذا سئل حاجة دق صدره بيديه وقال نعم وكرامة حتى لقب دق صدره وبسط يده وأيدى أولاده وكتابه بالتوقيعات بالصلوات والاطلاقات والاقطاعات والتسويغات وتخفيف الطسوق والمعاملات وأخذ المرافق على إضاعة الحقوق واسقاط الرسوم فسخت الوزارة وأخلقت الهيبة وزادت الحال في خلال الأعمال ووقوف الأحوال وقصور المواد وتضاعف الاستحقاقات واشتداد المطالبات وشغب الجند

شغباً بعد شغب وتسحبوا على السلطان تسجياً بعد تسحب وأخرج اليهم من بيت مال الخاصة شيئاً بعد شيء . حتى إذا انحل النظام وبان الانتشار وتصور المقتدر الصورة فيما تطرق من الوهن على المملكة شاوور مؤنسا الخادم فيمن يقلده الوزارة فاستقر الأمر على وزارة :

على بن موسى

وكان بمكة بعيداً عما يجري ببغداد خوفاً على نفسه فأنفذ إليه فلما حضر قلد الوزارة في عاشر محرم سنة ٣٠١ فكانت مدة سلفه سنة واحدة وشهراً وخمسة أيام فسلم إلى الوزير الجديد هو وولده وأبو الهيثم بن ثوابه ولما نظر على في الأمور وجد في أيدي القواد والحاشية والرعية توقيعات كثيرة بخط ابن خاقان وخط ابنه وكتابه في فك وإثبات وتقرير وإيجاب ومظالم وتسويغات وإقطاعات ومقاطعات مما مثله يأتي على ارتفاع المملكة وقد كانت الخاقاني أذن لهذه الجماعة في التوقيع عنه بكل مارأوه وكانوا على فاقة وضغطة وخروج من نكبة وعظلة وغرضهم الارتفاق وأخذ ملاح . تأمل على بن عيسى هذه التوقيعات فأسقطها وكان منها ما ثبت في الدراوين ومالم يثبت وعمل على إعلام المقتدر ماعلى الملك وبيت المال من الوهن والنقص بامضائها فقال له أحد خلصائه لا تفعل فان الخليفة على ما تعرفه من التدبر بآراء النساء والقبول من الحاشية وأكثر هذه التوقيعات لهم وللمتعلقين عليهم والمليئين اليهم فاعدل إلى أن تنظر ما قد أنشئ الكتاب به من ديوان الدار إلى أصحاب الدار فتمضيه وما كان بخلاف ذلك أبطلته فانك تمضي القليل وتبطل الكثير وتأمين عداوة الناس ومتى استأذنت الخليفة لم تأمن أن يأمرك بامضائها كلها فتقع في الطويل العريض — فلم يقبل ومضى فطالع المقتدر بالصورة واستأمره في إسقاط التوقيعات وقد كان الحواشي سبقوا إليه بالشكوى فقال له ارجع إلى الخاقاني وابنه فاعرفك أنه بتوقيعها أمضيتها وما كان بتوقيع أصحابها مردده . فأمر بجمع الرقاع وأنفذت إلى الخاقاني وابنه في السجن فأقر الخاقاني بصدور كلها عن إذنه فقامت قيامة على بن عيسى من ذلك الجواب واضطر إلى امضاء الأكثر وإسقاط من استضعف صاحبه واستلان جانبه ولم تكن له جهة يشفع له وعرف الحاشية ذلك وشكر والنخاقاني وتعصبوا له وقاموا بأمره كما سيجيء .

كان علي بن عيسى رجلاً عاقلاً متديناً متصوناً متعقفاً عارفاً بالأعمال حافظاً
 للأموال كثير الوقار والجد بعيداً من التبذل والهزل على شح غالب في طباعه وتجههم
 ظاهر في أخلاقه وعمد في نظره إلى تخفيف المئون وحذف السكف ونقص الخرج
 والمضايقة في الجارى والرزق ورد كثيراً مما وقع به الخاقاني من الاثبات والزيادات
 فأوحش خواص المقتدر وعاداهم فكثرت السعاية عليه والوقعة فيه واستثقل أكثر
 الناس موضعه وضائق صدورهم بنظره ووقع الشروع في إفساد أمره ورد ابن الفرات.
 عرف الوزير ما يجرى من ذلك فبدأ بالاستعفاء وكان فيما كتب من رقاعه بذلك
 إلى السيدة أم المتقدر

بسم الله الرحمن الرحيم أطال الله بقاء السيدة وأدام عزها وتأيدها وكلامها وحراستها
 وأسبغ نعمه عليها وزاد في إحسانه إليها ومواهبه الجميلة وآلائه الجزيلة وأقسامه
 الهنيئة وفوائده السنية عندها وبلغها في سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وأدام
 له العز والتمكين والنصر والتأييد غاية محبتها وأفضل أمنيته ووصل أيام سرورها
 بعافيته واعتباطها برؤيته ووقاها في موطن نفسها وفي الأمراء أستودعهم الله واستوهبه
 أيامهم كل سوء محظور ومخوف بمنه ورأفته وصلت الرقعة أعز الله السيدة وعرفت
 ما تضمنت فأما الفتنة التي كانت ملتحمة مع أعظم الأعداء مضره وأقربهم محلة وأشدهم
 على المطالبة جرأة فقد تسكنت الانفاق عليها وقت بتديرها حتى بلغ الله أمير المؤمنين
 والسيدة في جميعها المحبة وانتظمت في صدور الأعداء شرقاً وغرباً الهيبة وما أنفقت
 مع ذلك من بيت مال الخاصة بعد الذي رددته إليه نصف عشر ما أنفقه محمد بن عبيد الله
 الخاقاني وابن الفرات قبله وأنا عامل بعون الله على رد ذلك عن آخره ومتى لم ينفق
 المعتضد بالله في أسفاره على مائدة أعدائه من بيت مال الخاصة أضعاف هذه النفقة
 وقد أنفق المسكتني بالله وكان من النظر في القليل اليسير على ما عرف به من بيت
 مال الخاصة جملة بعد جملة مع قلة النفقات في أيام المعتضد بالله وما أقول قولاً يدفع
 لأن الدواوين تشهد به وحسابات بيوت الأموال تدل عليه ومؤنس خازن بيت مال
 الخاصة منذ أيام المعتضد بالله وإلى هذه الغاية يعلمه وإن سئل عنه صدق هذا مع
 رفقي بالرعية وعمارتي النواحي المحتلة وإزالتى عنها كل ظلم ومؤونة حتى صارت أيام
 أمير المؤمنين أطال الله بقاءه منذ خدمته أيام الخير وفيها الآثار الموصوفة وامتلات

قلوب الرعية هيبة بعد أن كانت تثب على الرؤساء وترمي بالحجارة على ما قيل لى عند اجتيازهم فى دجلة . وأما الاستحقاقات المتأخرة فليست أعرفها و بباب أمير المؤمنين الكبير من الغلمان والحاشية والفرسان والرجاللة وما أحسب صنفا من هذه الأصناف يقدر أن يقول إنه قبض فى وقت من الأوقات قبضا متصلا وليس يقول أحد منهم إنه دفع عن استحقاق ولا تأخر له شىء من رزقه ونزله كذلك الفرسان والعساكر الخارجة مع مؤنس وغيره مستوفية وأكثر من بالحضرة فهذه سيدهم . وقد حضر وامنذمة بباب العامة و طالبوا فأدخلت طائفة منهم ونوظرت فلم تمكن لهم حجة فى الاستحقاقات وإنما التمسوا الزيادة والنظر والصلة وهذا خارج عن الواجب ولو منع بعضهم فلم يعط شيئا لكان ذلك واجبا صالحا ومتى كان الجند يوفون حتى لا يكون لهم شىء متأخر ما كان هذا فى زمن من الأزمان وما تركت أن قلت لسيدنا أمير المؤمنين أعزه الله فى ذلك ما يجب أن أقوله وخاطبت أم موسى مرة بعد مرة فيه وأما ما قيل للسيدة أعزها الله فى استعفائى فلم أستعف نصالو حملت الرماد على رأسى لما تكهرت ذلك ولا تأييده وإنى لألزم نفسى الصبر على كل نائبة فى خدمة سيدنا أمير المؤمنين أيده الله وأرى ذلك ديانة ولكنى أعز الله السيدة أضجركا يضجر الناس إذا خوطب بما لا يجب وأنا أبلغ جهدى فى النصيحة وتأدية الأمانة فان كان ذلك واقعا موقعه فهو الذى أفصد وإن كان يظن بى غير ما أنا عليه فهى المصيبة وقد يحرم الانسان ثمرة اجتهاده ويقع ما يفعله على خلاف مذهبه واعتماده وما يسعنى وما يحمل لى أن أؤخر الصدق فى جميع الأحوال قاضيا بذلك حق الله عز وجل وحق سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وحق السيدة أعزها الله وأسأل الله أولا وآخرأ أن يصلح لها أمورهما ظاهرا وباطنا صغيرها وكبيرها ويكفيهما المهم ويسهل الصلاح بهما وعلى أيديهما بمنه وقدرته وجوده وكرمه .

وإنما كتبنا هذا الكتاب بطوله ليتبين كيف كانت تداخل النساء فى سياسة المملكة أن على بن عيسى كان أحسن وزراء المقتدر وقد كان مما فعله فى وزارته هذه أن أسقط المكس بمكة والتكاملة بفارس وسوق بحر الأهواز وحسن مهدي ونهر السدرة وكان يعترض فى هذه المواضع على ما يجهز إلى البحر ويرد منه وتؤخذ الضرائب المسرفة عنه وأزال جباية الجمهور بديار ربيعة وأشار على المقتدر بوقف

المستغلات بدار السلام وغلتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار والضياح الموروثة بالسراد الجارية في ديوان الخاصة وارتفاعها نيف وثمانون ألف دينار على الحرمين والثغور فقبل رأيه ونصب على بن عيسى لهذه الوقوف ديوانا سماه ديوان البر . ولما كان بمكة وجد الماء ضيقا على أهلها وعلى أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقله من جدة إليها فابتاع عددا كثيرا من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء وأقام لها العلوقة الراتبة ومنع من السخرة وحظرها وحفر بئر اعظيمة فخرجت عذبة شروبا وسماها الجراحية . وابتاع عينا غزيرة بألف دينار وفتحها ووسعها حتى كثر الماء بمكة ووصل الرفق به إلى أهل الضعف والمسكنة

ومع كل ما أجراه من الاصلاح فان حكومة النساء لم تترك هادى البال قرب عيد الاضحى واحتيج إلى ما جرت العادة باطلاقه للحرم فجاءته أم موسى القهرمانه في آخر ذى القعدة مخاطبة في ذلك ومقررة للأمر فيه وكان محتجبا فلم يأذن لها حاجبه واعتذر لها عذرا لطيفا وصرفها صرفا جميلا فغضبت وانصرفت وأعلم على بن عيسى خبرها في حضورها وانصرافها فأنفذ إليها واستعذرها فلم تعذر وصارت إلى المقتدر بالله وإلى السيدة وأغرتهما به وتكذبت عندهما عليه وأدى ذلك إلى القبض عليه في يوم الاثنين ثامن ذى الحجة سنة ٢٠٤ فكانت مدة وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر و ٢٨ يوما .

وفي يوم القبض عليه أطلق الوزير ابن الفرات وأعيد من محبسه إلى دست الوزارة ورد عليه المقتدر ما كان قبض عنه وعن أهله وكتابه وأسبابه من الضياح والأموال فارتجع ما كان حصل في أيدي الناس القواد وخواص الدولة من ذلك وكان قد تعهد وهو في السجن أنه متى رد للوزارة أطلق للولد والحرم والخدم ومن بالحضرة من الفرسان برسم التغاريق مثل ما كان يطلقه في وزارته الأولى تماما وإدرا را وأن يحمل إلى المقتدر كل يوم ألف دينار وإلى السيدة والأمراء ٥٠٠ دينار فوفى بما تعهده به

كان حامد بن العباس قد تضمن واسطا وضياعها بمال يخرج منه إياها على بن عيسى فلما وزر ابن الفرات كان يعلم أن حامد بن العباس يربح منها ربحا كثيرا فلما انتهت مدة ضمانه أراد أن يخرجها عنه إلى غيره وكان بواسط قسيم الجوهري يشرف

للسيده أم المقتدر على ضياعها بواسطة ويكثر هناك المقام ويحضر عند حامد فيسطه فانفق على أن قسيما يسفر له في نيل الوزارة فذهب قسيم إلى بغداد وخاطب نصر الحاجب في ذلك وأطعمه في حامد وملاً يده منه وعرفه سعة صدره وسخاء نفسه وضمن له منه تصحيح المال الكثير من ابن الفرات وأسبابه وراسل السيده أيضا ووافق هذا القول والسعي سوء رأى نصر الحاجب في ابن الفرات وخوفه منه وأكثره الواقعة فيه وقول الناس إنه قد قلد ولده الدواوين وأقاربه الأعمال إلى غير ذلك من الوشايات التي تروج في حكومة النساء فانفق الأمر على إصعاد حامد وتولته الوزارة فأرسل إليه فحضر وفي يوم حضوره قبض على ابن الفرات يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة ٣٠٦ وكانت مدة وزارته هذه الدفعة سنة وخمسة أشهر و١٩ يوماً

حامد بن العباس

لم يكن لحامد من الخصال ما يؤهله للوزارة فظفر ذلك لحاشية المقتدر فعابوه عنده ونسبوه إلى الجهل بأمور الوزارة فأمر بإطلاق على بن عيسى من محبسه وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد فكان يراجعه في الأمور ويصدر عن رأيه ثم إنه استبد بالأمور دون حامد ولم يبق لحامد غير اسم الوزارة حتى قيل فيهما

هذا وزير بلا سواد وذا سواد بلا وزير

ثم إن حامدا أحضر ابن الفرات ليقابله على أعماله ووكل بمنظرته على بن أحمد الماذرني ليصحح عليه الأحوال فلم يقدر على إثبات الحججة عليه فانتدب له حامد وسبه ونال منه وقام إليه فلنكمه وكان حامد سفيها فقال له ابن الفرات أنت على بساط السلطان وفي دار المملكة وليس هذا الموضع مما تعرفه من يسدر تقسمه أو غلة تستفضل في كيلها ولا هو مثل أكار تشتمه ثم قال اشفيح اللؤلؤى قل لأمير المؤمنين عني إن حامدا إنما حمله على الدخول في الوزارة وليس من أهلها أنتى أوجب عليه أكثر من ألفي ألف دينار من فضل ضمانته وألحمت عليه في مطالبته بها فظن أنها تندفع عنه بدخوله في الوزارة وأنه يضيف إليها غيرها فاستشاط حامد وبالغ في شتمه فأنفذ المقتدر فأقام ابن الفرات من مجلسه ورده إلى محبسه وقال على بن عيسى ونصر الحاجب لحامد قد جنيت علينا وعلى نفسك جنابة عظيمة بما فعلت بابن الفرات

وأيقظت منه شيطاننا لا ينام

ولما رأى حامد أنه لا عمل له مع علي بن عيسى شرع في عمل له آخر فضمن أعمال الخراج والضياح الخاصة والعامّة والمستحدثة والفراية بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان واستأذن في الانحدار إلى واسط ليدبر أمر ضمائه الأول فأذن له فأنحدر واسم الوزارة عليه وعلي بن عيسى يدبر الأمور وأظهر حامد زيادة ظاهرة في الأموال فسر المقتدر وبسط يد حامد في الأعمال حتى خافه علي بن عيسى ثم إن السعر غلا ببغداد فثارت العامة والخاصة واستغاثوا وكسروا المنابر وكان حامد يخزن الغلال وكذلك غيره من القواد فأمر المقتدر بإحضار حامد بن العباس فحضر فعاد الناس إلى شعبهم فأنفذ حامد جندا لمنعهم فقاتلتهم العامة وأحرقوا الجسرين وأخرجوا المحبيين من السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة ولم يتركوا له شيئا فأنفذ المقتدر جيشا قاتل العامة حتى هربوا ودخلوا الجامع بباب الطاق فوكل بأبواب الجامع وأخذ كل من فيه فحبسوا وضربوا بالمقارع وقطعت أيدي من عرف بالفساد فسكنت الفتنة وأمر المقتدر بفتح مخازن الغلة التي لحامد ولأم المقتدر وغيرهما وبيع ما فيها فرخصت الأسعار وسكن الناس وأفهم علي بن عيسى المقتدر أن سبب غلاء الأسعار إنما هو ضمان حامد لأنه منع من بيع الغلال في البيادر وخزنها فأمر المقتدر بفسخ الضمان عن حامد وصرف عماله عن السواد وأمر علي بن عيسى أن يتولى ذلك فسكن الناس

ضح الأولاد والحرم والخدم والحشم إلى المقتدر مستغيثين من تأخير أرزاقهم فان علي بن عيسى كان يؤخرها فإذا اجتمع عدة شهور أعطاهم بعضا وأسقط بعضا وحط من أرزاق العمال في كل سنة شهرين فزادت عداوة الناس له وضجر المقتدر من هذه الاستغاثات وكذلك ضجر حامد بن العباس من مقامه ببغداد وليس له من الأمر شيء غير لبس السواد وأنف من إطراح علي بن عيسى لجانبه فاستأذن حامد وسار إلى واسط. وجرى بين حامد وبين مفلح الأسود كلام فقال حامد لقد هممت أن أشتري مائة خادم أسود وأسميهم مفلحا فحقدوا عليه مفلح وكان خصيصا بالمقتدر فسعى ومعه المحسن بن الحسن بن الفرات للحسن بالوزارة وضمن أموالا جليلية وكتب على يده رقعة يقول أن تسلم الوزير وعلي بن عيسى وابن الحواري وشفيعا اللؤلؤي ونصرا

الحاجب وأم موسى القهرمانه والمادرائين يستخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار وهذه رشوة عظيمة لا يستهان بها فأصاب ذلك السعى وقبض على بن عيسى في ربيع الآخر سنة ٣١١ وأطلق ابن الفرات وعهدت إليه وزارته الثالثة وسمع حامد بالخبر واختفى ببغداد ثم لبس زي راهب وخرج من مكانه الذي اختفى فيه ومشى إلى نصر الحاجب وسأله أن يوصل حاله إلى الخليفة فدعا نصر مفلحا فلما حضر ورأى حامدا قال أهلا بمولانا الوزير أين ممالكك السودان الذين سميت كل واحد منهم مفلحا ولم يكن لحضوره نتيجة تفيده بل سلم إلى ابن الفرات الوزير فاستلمه المحسن ابنه وكان وقحا سيي الألب ذاقسوة شديدة وكان الناس يسمونه الخيث فغذب حامدا بأنواع العذاب وأخيرا أنفذه إلى واسط ليبيع أملا كما بها ثم درس من سمه في الطريق فمات وظهر في هذه الوزارة من المحسن شر عظيم لكثرة ما نكب الناس وصادرهم وعذبهم بأنواع العذاب لاستخراج أموالهم حتى مات أكثرهم تحت العذاب من غير شفقة ولا رحمة وفيهم كبار الدولة ورؤساؤها وكتاب دواوينها وصادف ذلك أن وقع الشر العظيم من القرامطة بالحجاج فتضاعفت المصائب على أهل بغداد وساهم تقتل وحجاجهم تهب وتموت عطشا ولا مدافع ولا محام فكثيرا لارجاف على ابن الفرات وأخيرا أصدر الأمر بالقبض عليه في ثامن ربيع الأول سنة ٣١٢ بعد أن استقر في هذه الوزارة الأخيرة عشرة أشهر وثمانية عشر يوما فقبض عليه ثم قبض على ابنه المحسن وتولى الوزارة:

عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان

بعد أن تكفل بمصادرة ابن الفرات بألف دينار فكان ذلك سببا لتضييقه على ابن الفرات وولده ثم عذب المحسن بأنواع العذاب ليحجب إلى مصادرة يذلها فلم يجبهم إلى دينار واحد وقال لا أجمع لكم بين نفسي ومالي واشند عليه العذاب بحيث امتنع عن الطعام والشراب فلما علم بذلك المقتدر أمر بحمله مع أبيه إلى دار الخلافة ثم اتفق رجال الحاشية على قتلهما فذبحوهما كما تذبح الغنم وكان عمر ابن الفرات حين قتل ٧١ سنة وعمر ولده المحسن ٣٣ سنة وكان ابن الفرات يقول إن المقتدر يقتلني عاد يوما وهو مفسكر كثير الهم فقيل له في ذلك فقال كنت عند أمير المؤمنين فما

خاطبته في شيء من الأشياء لإاقال لي نعم فقلت له الشيء وضده ففي كل ذلك يقول نعم فقبل له هذا لحسن ظنه بك وثقته بما تقول فقال لا والله ولكنه أذن لكل قائل وما يؤمنني أن يقال له يقتل الوزير فيقول نعم والله إنه قاتل . وكان ابن الفرات كرمًا ذارياً راسية وكفاية في عمله حسن السؤال والجواب ولم يكن له سيئة إلا ولده المحسن لم يكن الوزير الخاقاني بأحسن حظاً من غيره من الوزراء فقد وجد من يساوم عليه فرفع إلى المقتدر رقعة من أبي العباس الخصبي يذكر معايبه ومعائب ابنه عبد الوهاب وعجزهما وضياع الأموال وطمع العمال ثم إن الوزير مرض فوقفت الأحوال وطلب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل إليه المقتدر في ذلك فلم يقدر على شيء فعزل في رمضان سنة ٣١٣ وولى الوزارة :

أبو العباس الخصبي

وكان هذا الوزير الجديد لا يصلح لعمل فانه كان شروباً فكان يصبح سكران لا قصد فيه لعمل وسماع حديث وكان يترك الكتب الواردة للدواوين لا يطالعها إلا بعد مدة ويهمل الأجوبة عنها فضاعت الأموال وماتت المصالح ثم إنه لضجره وتبرمه بها وبغيرها من الأشغال وكل الأمور لتوابعه وأهمل الإطلاع عليهم فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم ولما ظهر هذا الاختلال أشير على المقتدر بعزله وولاية علي بن عيسى فقبض عليه في ذي القعدة سنة ٣١٤ بعد وزارة مدتها سنة وشهران وأخذ ابنه وأصحابه فحبسوا واستدعى علي بن عيسى من مكة وكان بها مقبلاً ليدير أمر الوزارة وأمر عبيد الله بن محمد الكلوي بالنيابة عن علي بن عيسى إلى أن يحضر فسار علي بن عيسى فحضر بغداد في أول سنة ٣١٥ وبه صلحت الأحوال نوعاً وكان من أقوم الأسباب في ذلك أن الخصبي كان قد اجتمع عنده رقاع المصادريين وكفالات من كفل منهم وضمائمات العمال بما ضمنوا من المال بالسواد والأهواز وفارس والمغرب فنظر فيها علي وأرسل في طلب تلك الأموال فأقبلت إليه شيئاً بعد شيء فأدى الأرزاق وأخرج العطاء وأسقط من الجند من لا يحمل السلاح ومن أولاد المرتزقة من هو في المهدي فان آباءهم أثبتوا أسماءهم ومن أرزاق المغنبيين والمساخرة والندماء وغيرهم وتولى الأعمال بنفسه ليلاً ونهاراً واستعمل العمال في الولايات واختار الكفاة ومع ما أظهره من

الهمة وظهر على يده من الصلاح لم يكن ممن يعجب حاشية المقتدر لأنه كان يرى أن الإصلاح لا يكون إلا مع الاقتصاد في النفقة ونفقة الخدم والحرم ولا سيما أم المقتدر كانت هائلة فلا بد من الاقتصاد فيها ولما علموا بذلك شرعوا يشون به فلما أحس على بذلك استعفى من الوزارة واحتج بالشيخوخة وقلة النهضة فأمره المقتدر بالصبر وقال أنت عندى بمنزلة والذى المعتضد فألح في ذلك ومع أن الرجل كان يستقيل ليخرج من هذه المضايق بسلام أبي سوء الحال في تلك الأزمنة وتغلب النساء والحاشية أن ينيله هذه الراحة في خروجه فأمر المقتدر في منتصف ربيع الأول سنة ٣١٦ بالقبض عليه وعلى أخيه عبد الرحمن وولى الوزارة :

أبو علي بن مقله

وكما كانت لأبي علي يد ماهرة في الكتابة حتى ضرب بها المثل كانت ماهرة في أخذ الرشاء على التولية والعزل وكان بينه وبين أكبر القواد مؤنس المظفر مودة فلذلك كان يثبت قدمه كلما قاربها الزلل حتى حصلت الوحشة بين المقتدر ومؤنس فدعا ذلك إلى عزل ابن مقله في آخر جمادى الأولى سنة ٣١٨ وقبض عليه بعد سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام واستوزر :

سليمان بن الحسن

ولما لم يكن المقتدر ميالا لسليمان وإنما رضيه تبعاً لرأى مؤنس أمر علي بن عيسى بالاطلاع على الدواوين وأن لا ينفرد عنه سليمان بشيء وصودر ابن مقله بماتى ألف دينار لم تطل هذه الوزارة كثيراً لأن الأحوال ضاقت على سليمان وكثرت عليه المطالبات ووقفت وظائف السلطان واتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعاية والضمان بالقيام بالوظائف وأرزاق الجند وغير ذلك وكانت وزارته غير متمكنة لأن علي بن عيسى كان معه على الدواوين وسائر الأمور وأفرد علي بن عيسى بالنظر في المظالم واستعمل على ديوان السواد غيره فانقطعت مواد الوزير فإنه كان يقيم من قبله من يشتري توقيعات أرزاق جماعة لا يمكنهم مفارقة ما هم عليه من الخدم فكان يعطيهم نصف المبلغ وكذلك إدرات الفقهاء وأرباب البيوت فكانت أحواله رديئة وأدى

ذلك إلى القبض عليه لثلاث بقين من رجب سنة ٣١٩ بعد سنة وشهرين واستوزر:

أبو القاسم الكلوذاني

ولم تكن وزارته أيضا عن رغبة المقتدر بل عن رأى مؤنس وقد حصلت حوادث غريبة الشكل تبين لنا ما كان عليه المقتدر من الجهل والغباوة وذلك أنه كان يبغداد إنسان يعرف بالدانيالى وكان زراقا ذكيا محتالا وكان يعشق الكاغدويكتب فيه بخطه ما يشبه الخط العتيق ويذكر فيه إشارات ورموزا يودعها أسماء أقوام من أرباب الدولة فيحصل له بذلك رفق كثير . توصل إلى الحسين بن القاسم حتى جعل اسمه فى كتاب ووضع وعتقه وذكر فيه علامات وجهه وما فيه من الآثار ويقول إنه يوزر للخليفة الثامن عشر من بنى العباس وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعدى وتتعمر الدنيا فى أيامه وجعل هذا كله فى جملة كتاب فيه ذكر حوادث وقعت وأشياء لم تقع بعد ونسب ذلك إلى دانيال وعشق الكتاب وأخذه وقرأه على مفلح الأسود فأخذ الكتاب وأحضره للمقتدر فقال له أتعرف فى الكتاب من هو على هذه الصفة فقال ما أعرف إلا الحسين بن القاسم فقال المقتدر صدقت وإن قلبى ليميل إليه فان جاءك رسول يرقعة منه فأعرضها على واكتم حاله ولا تطلع على أمره أحدا وذهب الدانيالى إلى الحسين وعرفه الخبر فكتب رقعة إلى مفلح فأوصلها إلى المقتدر وفيها يطلب الوزارة وضمن أنه يقوم بالنفقات من غير أن يطلب شيئا من بيت المال الخالص فعزل الكلوذاني فى رمضان سنة ٣١٩ بعد شهرين وثلاثة أيام وتولاها :

الحسين بن القاسم

ولما جاء لم يكن من أهل الوزارة ولا من ذوى التدبير فضاقت عليه الأحوال وكثرت الاخراجات فاستسلف جملة وافرة وأطلع المقتدر على اضطرابه فعزله فى ربيع الآخر سنة ٣٣٠ بعد سبعة أشهر واستوزر

أبا الفتح الفضل بن حجر وهو آخر وزراءه

تولى الوزارة فى عهد المقتدر اثنا عشر وزيرا ومنهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثا وكانت تال بالرشوة ودخل فى أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية

ولم يكن الصالح منهم يبق في العمل كثيرا لأن مدار طول المدة كان على رضا أم
المقتدر وقهر مآنته وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون إلا إذا حووا بالأموال الكثيرة
التي بها تفسد المالية وتختل موازنتها فتى حصل التقصير في ذلك وقدم رجل آخر
رشوة فسرعان ما يقبض على الأول ويصادر ويعين الثاني وهذه حال أخلفت ديباجة
الدولة وأسقطت حرمتها حتى لم يكن لها في نظر العامة ولا في نظر متغلبى الأطراف حرمة
وليس ذلك كل ما أسقط أمر الدولة في عهد المقتدر بل أضيف إلى ذلك قوة القرامطة
وما كان منهم من الاخلال بالأمن في العراق والحجاز

أمر القرامطة

كان رئيس القرامطة بالبحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي فقتل سنة ٣٠١
بعد أن استولى على هجر والاحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين فولى بعده ابنه
أبو طاهر سليمان الجنابي وكانت له غزوات متتابعة إلى جهة البصرة يريد الاستيلاء
عليها وأشد غزواته لها سنة ٣١١ فانه سار إليها في ألف وسبعمائة من القرامطة ودخلها
وقتل حاميتها ووضع السيف في أهلها وأقام بها سبعة عشر يوما يحمل منها ما يقدر
عليه من المال والامتعة والنساء والصبيان ثم عاد إلى بلده ومنها توجه إلى طريق
الحاج ليلقاهم عند رجوعهم إلى مكة فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج وكان فيها
خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم فتهبهم واتصل الخبر بباقي الحاج وهم يفيد فأقاموا
بها حتى فنى زادهم فارتحلوا مسرعين إلى طريق الكوفة فأوقع بهم القرامطة وأخذوا
جمال الحاج جميعها وما أرادوا من الامتعة والأموال والنساء والصبيان ثم عاد
الجنابي إلى هجر وترك الحاج في مواضعهم فمات أكثرهم جوعا وعطشا من حر الشمس
فانقلبت بغداد من سوء تأثير هذا الخبر وكان وصوله في الوقت الذي قتل فيه المحسن
ابن الفرات من قتل من المصادرين فازدوجت المصيبة وكان ابن الفرات يتهم بالتشيع
فذكر بكل قبيح على ألسنتهم

اضطر المقتدر أن يكتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من أسرى
الحاج فأطلقهم وطلب ولاية البصرة والأهواز فلم يجبه المقتدر فسار من هجر يريد
الحاج وكان جعفر بن ورقاء الشيباني متقلدا أعمال الكوفة وطريق مكة فلما سار

الحاج من بغداد سار جعفر بين أيديهم خوفا من أبي طاهر ومعه ألف رجل من بني شيبان وسار معهم أيضا قواد السلطان ومعهم ستة آلاف رجل فلقى أبو طاهر القرمطي جعفرا الشيباني فقاتله جعفر فينما هو يقاتله إذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه فانهزم من بين أيديهم فلقى القافلة الأولى فردها إلى الكوفة ومعها عسكر الخليفة وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة فقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة ودخل أبو طاهر الكوفة وأقام ستة أيام بظاهاها يدخل البلد نهارا فيقيم في الجامع إلى الليل ثم يخرج فيبيت في عسكره وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك ثم عاد إلى هجر وكان أهل بغداد قد خافوا أن يهجم القرامطة عليهم

وفي سنة ٣١٥ سار أبو طاهر نحو الكوفة فأمر المقتدر يوسف بن أبي الساج أن يسير إليها لحمايتها من القرامطة وقد أعدله بالكوفة الانزال له ولعسكره فسبقه إليها أبو طاهر واستولى على كل هذه المؤن وكانت شيئا كثيرا ووصل يوسف بعد أبي طاهر بيوم واحد فلما وصل أرسل إلى القرامطة يوم الجمعة يدعوهم إلى طاعة المقتدر فان أبوا فوعدهم الحرب يوم الأحد فقالوا لاطاعة علينا إلا الله والموعود بيننا للحرب بكرة غد فلما كان الغد رأى يوسف قلة القرامطة فاحتقرهم وقال إن هؤلاء الكلاب بعد ساعة في يدي وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشارة بالظفر قبل اللقاء تهاونا بهم ثم زحف الناس بعضهم إلى بعض واستمر القتال إلى غروب الشمس فلما رأى أبو طاهر ذلك باشر الحرب بنفسه ومع جماعة يتق بهم وحمل بهم فطحن أصحاب يوسف ودقهم فانهزموا بين يديه وأسر يوسف وعدد كثير من أصحابه وورد الخبر بذلك إلى بغداد تخاف الخاص والعام من القرامطة خوفا شديدا وعزموا على الحرب إلى حلوان وهمدان وجاء المنهزمون من وقعة الكوفة إلى بغداد ووصل الخبر بأن القرامطة قد ساروا إلى عين التمر فأنفذ من بغداد خمسمائة سميرية فيها المقاتلة لتمنعهم من عبور الفرات وسير جماعة من الجيش إلى الأنبار لحفظها ومنع القرامطة من العبور هنالك . ثم إن القرامطة قصدوا الأنبار ولما وصلوها نزلوا غربي الفرات لأن أهل الأنبار كانوا قد قطعوا الجسر ثم أنفذ أبو طاهر أصحابه إلى الحديثة فجاموه بسفن عقدها وعب عليها نحو ثلثائة من أصحابه فقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة واستولوا على مدينة الأنبار وعقدوا الجسر وعب عليه

أبو طاهر ولكنه خلف عظم جيشه في البر الغربي ولما ورد الخبر بعبور أبي طاهر إلى الأنبار خرج نصر الحاجب بجيش جرار فلاحق بمؤنس المظفر فاجتمعا في نيف وأربعين ألف مقاتل وكان هذا الجيش مضطربا في مسيره قد تمكن الخوف من قلب أجناده وكان يمكنهم لودبروا جيشهم تدبيرا حسنا أن يأخذوا أبا طاهر الذي كان قد عبر وترك جنده ولكنهم تهاونوا حتى عاد إلى جيشه ثم اقتطع مؤنس من الجيش نحو ستة آلاف أمرهم بالعبور ليغتموا معسكر القرامطة ويخلصوا يوسف ابن أبي الساج ففشلوا وانهمزوا أمام شجاعة القرامطة وكانت نتيجة ذلك أن أمر أبو طاهر بقتل يوسف وجميع الأسرى وكانت عدة القرامطة في هذه الخرجة ٢٧٠٠ ولما علم المقتدر بعدة عسكره وعدة القرامطة قال لعن الله نيفا وثمانين ألفا يعجزون عن ٢٧٠٠ وجاء إنسان إلى علي بن عيسى الوزير وأخبره أن في جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكتب أبا طاهر بالأخبار فأحضره وسأله فاعترف وقال ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم ولا بد لله من حجة في أرضه وإمامنا المهدي محمد بن فلان ابن فلان ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب ولسنا كالأفضة والاثني عشرية الذين يقولون بجهلهم أن لهم إماما ينتظرونه ويكذب بعضهم لبعض فيقول قد رأيت وسمعتة وهو يقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه . فقال له الوزير قد خالطت عسكرا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك فقال وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع مني أن أسلم قوما مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم لا أفعل ذلك فأمر به فضرب ضربا شديدا ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة أيام

أما أبو طاهر فانه سار من الأنبار وعثى في أرض الجزيرة نهبها وقتلها إلا من اعتصم منه بالأمان والغدية وجيوش السلطان لا تؤثر فيها أثرا وتحاف أن تقدم عليه فلما تم له ما أراد من الجزيرة عاد إلى الكوفة ومنها دخل هو وأصحابه البرية بعد أن أخافوا السبل وأهلكوا العدد الجم

وكانت هذه الانتصارات سببا في ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفا فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة أكثر من

عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلا يعرف بحريث بن مسعود واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر ونواحها في جمع كثير وولوا أمرهم رجلا يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون إلى المهدي وسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاھرھا وجبى الخراج وصرف عمال السلطان على السواد وسار حريث إلى أعمال الموفق وبنى بهادارا سماها دار الهجرة واستولى على تلك الناحية فكان أصحابه ينتهون ويقتلون ويسبون . فأرسل المقتدر إلى حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب والى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافيا البصرى فأوقع كل منهما بمن أرسل إليه من القرامطة وأسر منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسر وأخذت أعلامهم وكانت يضاء كتب عليها ونريد أن نم على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين فأدخلت بغداد منكوسة واضمحل أمر من بالسواد منهم وكفى الله الناس شرهم وإن كان كل ذلك مما يعجل بخراب القرى وإتلاف المزارع

وفي سنة ٣١٧ فعل أبو طاهر ما هو أشنع وأدهى وذلك أنه سار بجنده إلى مكة فوافاها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى حجر نجران فإليه أمير مكة في جماعة من الأشراف فسألوه في أمرهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقي في المسجد الحرام حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن ولا صلى على أحد منهم وأخذ كسوة البيت فقسّمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة . ولم يحصل في التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت إلى هذا الحد حتى أن المهدي عبيد الله العلوي لما علم ذلك كتب إلى أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والاحقاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا برىء منك في الدنيا والآخرة ولما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فردّه وقال إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم

المتغلبون وما كان منهم :

في عهد المقتدر اشتد سلطان المتغلبين بأطراف المملكة وهذه نتيجة طبيعية لما أصاب الدولة من الخلل

ففي الأندلس قام رجل الدولة الأموية عبدالرحمن الناصر وتسمى باسم أمير المؤمنين لأنه لم يعد هناك ما يراعيه رجال الدولة الأموية من أمر الخلافة الإسلامية ببغداد لانحطاط شأنها ولعب الفساد بها وخيانة الوزراء فيها وكان عبد الرحمن قد مكنته عقله الواسع وفكره الثاقب من العلو وبعد الصيت حتى رهبته ملوك الأفرنجية والروم وهادوه وأرسلوا إليه السفراء وكذلك فعل هو معهم

وفي أفريقيا قامت الدولة العلوية ومحت في طريق غلبتها دولة الإدارة من المغرب الأقصى والأغلبة من أفريقيا وجعلت مقرها مدينة المهديّة التي أسسها عبيد الله المهدي بالقرب من القيروان وكانت همته بعد ذلك موجهة إلى الاستيلاء على مصر فكان يناوشها بالجنود ولكنه لم يتبها له الاستيلاء عليها

وفي البحرين وما صاقبها اتسع سلطان القرامطة واستقلوا بملك تلك البلاد وكانت العراق دائماً على خوف مستمر منهم وقطعوا طريق الحج حتى كان حجاج العراق قد اتخذوا لهم طريقاً آخر إلى مكة على الموصل ثم الشام ثم مكة وفي خراسان وما وراء النهر استقر ملك الدولة السامانية وكان الديلم يناوشونها من وقت لآخر كما سيأتي في تاريخهم

وفي الموصل ابتدأت دولة آل حمدان ولكن لم يتمكن سلطانهم في عهد المقتدر أمام فعله الروم بشغور المسلمين في هذا العهد فهو في غاية الشنعة ففي سنة ٣٠٣ أغاروا على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم ولم يكن أمام الروم من الجيوش من يصددهم لأنهم كانوا مشغولين برتق الفتوق الداخلية التي كانت متوالية

وفي سنة ٣٠٥ وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبون المهادنة والفتداء فأكرما إكراماً كثيراً وأدخلوا على الوزير وهو في أكمل أهبته وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة فأديا الرسالة ثم إنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم

من الفداء وسير مؤنسا الخادم ليحضر الفداء وجعله أميراً على كل بلدي دخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج منه وسير معه جمعاً من الجنود وأطلق لهم أرزاقاً واسعة وأنفذه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين وسار مؤنسر والرسل وكان الفداء على يديه ولم يدم هذا الصفاء طويلاً بل عادت الحروب والغارات من الطرفين وكانت سجالاً وكلما كان يجتمع عند الطرفين أسرى يحصل الفداء كالعادة

وفي سنة ٣١٣ كتب ملك الروم إلى أهل الثغور الإسلامية يأمرهم بحمل الخراج إليه فإن فعلوا وإلا قصدهم قتل الرجال وسبي الذرية وقال اني صح عندي ضعف ولا تكمل فم يفعلوا فسار اليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية سنة ٣١٤ فأخربها وسبي منها ونهب وأقام فيها ستة عشر يوماً ولما رأى أهل ملطية ما حل بقراهم من التخريب قصدوا بغداد مستغيثين فلم يغاثوا وعادوا بغير فائدة

وفي سنة ٣١٥ خرجت سرية من طرسوس إلى بلاد الروم فوقع عليها العدو وأسروا من المسلمين أربعائة رجل قتلوا صبوا . وفيها سار الدهستق في جيش عظيم من الروم إلى مدينة ديبيل وهي قاعدة أرمينية وكان معه دبابات وبجانيق ومعه مزارق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد من شدة النار فكان ذلك أشد شيء على المسلمين حتى أصيب الراى بسهم من سهام المسلمين تخفت الشدة وكان الدمستق يجلس على كرسي عال يشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على ما يراه فصر لهم المسلمون حتى وصلوا إلى سور المدينة فقبوا فيها تقبوا كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً حتى أخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم عشرة آلاف قتيل . وكانت هذه السنة سنة نجاح للمسلمين على الروم

وفي سنة ٣١٩ اشتدت وطأة المسلمين على الروم وغزوا بلادهم حتى بلغوا عمورية وأنقرة والفضل في ذلك كله يرجع إلى قائد عظيم من غلبان المقتدر اسمه ثمل وكان والى الثغور فأمكنه بها أوقعه من الرعب في قلوب أعدائه أن يستعيد بعض الهيبة للدولة بعد أن كادت تذهب من صدر الروم بمره

وعلى الجملة فكانت خلافة المقتدر في جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية لأنه حكم فيها النساء والخدم وبذر في الأموال تبذيراً مفضلاً وكان يعزل الوزراء ويولى غيرهم بما يقدم من الرشاء له ولأمه ولقهرماته ولخدمه ولا يأخذ الوزارة

بالرشوة إلا من هو عازم على الخيانة ليحصل على مادفعه فكان جلهم الكثير منهم
ان يسد حاجته أولاً ثم حاجة من ولاءه لا يسألون أجرات تلك الأموال من ظلم
أو عدل وهذا نهاية الفساد في الدولة وهو المؤذن بخرابها واضمحلالها

قتل المقتدر

كان في دولة المقتدر قائدان هما في أرفع الدرجات أولهما مؤنس المظفر وهو القائد
العام للجيش وعليه المعول في تسييرها ويليه في المرتبة محمد بن ياقوت وكان بينهما
شئ من المنافسة

ففي سنة ٣١٩ قوى أمر محمد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسبة وضم إليه رجال
فقوى بهم فعظم ذلك على مؤنس وسأل المقتدر صرف محمد عن الحسبة وقال هذا
شغل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول فأجاب المقتدر وصرف محمدا عن
الحسبة وصرف ابنه عن الشرطة وأبعدهما عن الحضرة فأخرجا إلى المدائن حسبا
طلبه مؤنس وولى بدلها إبراهيم بن رائق وأخاه محمدا الحسبة والشرطة وهذا كان بدء
الوحشة بين المقتدر ومؤنس ومتى وجدت الوحشة سامت الظنون وكان للوهم في
النفوس أكبر الآثار

بلغ مؤنسا أن الوزير الحسين بن القاسم قد وافق جماعة من القواد في التدبير عليه
فتمكره مؤنس وطلب من المقتدر عزله ومصادرته فأجاب إلى عزله ولم يصادره
فلم يمتنع مؤنس بذلك فبق الحسين في الوزارة وكتب إلى هرون بن غريب أحد
القواد وهو بدير العاقول أن يحضر إلى بغداد وكذلك كتب إلى محمد بن ياقوت
يستقدمه فزادت الوحشة عند مؤنس وصح عنده أن الحسين يسعى في التدبير عليه
ثم صح عنده أنه قد جمع الرجال والغلمان الحجرية في دار الخليفة فأظهر الغضب
وذهب نحو الموصل وأرسل غلامه إلى المقتدر برسالة فطلب الوزير منه أن يسلمها
إليه فأبى فسبه الوزير وشم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلاثمائة ألف دينار وأخذ
خطبها وحبسها ونهب داره فلما بلغ مؤنسا الخبر سار نحو الموصل في أصحابه وبماليكه
وتقدم الوزير بقبض أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه فحصل من ذلك مال عظيم
وزاد في محل الوزير عند المقتدر فلقبه عميد الدولة وضرب اسمه على الدينار والدرهم

وتمكن من الوزارة وولى وعزل

أمامؤنس فانه استولى على الموصل من يد بنى حمدان واستولى على أموالهم وديارهم وخرج إليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لاحسانه كان إليهم وعاد إليه ناصر الدولة بن حمدان فصار معه . فلما اجتمعت إليه العساكر انحدر إلى بغداد في شوال سنة ٣٢٠ فلما بلغ خبره جند بغداد شغبوا وطلبوا أرزاقهم ففرق المقتدر فيهم مالا عظيما إلا أنه لم يشبعهم وسير العساكر لمقابلة مؤنس في طريقه فلم يقدروا على رد لجأه حتى نزل بباب الشامسية فحل الخوف في قلب المقتدر وجنده وكان يريد ترك بغداد لمؤنس والرحيل إلى واسط فرده عن ذلك محمد بن ياقوت وزين له اللقاء وقوى نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم اليه فرجع إلى قوله وهو كاره ثم أشار عليه بمحسوز الحرب فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء والقراء معهم المصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل بعيد عن المعركة فأرسل قواد أصحابه إليه يسألونه التقدم مرة بعد أخرى وهو لا يريد مكانه فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهم أصحابه قبل وصوله إليهم فلقية على بن بليق من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الأرض وقال له أين تمضى ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقية قوم من المغاربة والبربر فشهروا عليه سيوفهم وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض وذبحه بعضهم ثم رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذ جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوفاً إلى أن مر به رجل من الاكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قتل ٣٨ سنة ثم تقدم مؤنس وانفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب

١٩ — القاهرة

هو أبو محمد بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد بربرية اسمها قتول بويح بالخلافة يوم أن قتل المقتدر في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) ولم يزل خليفة حتى خلع في ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ (٢٣ أبريل سنة ٩٣٤) فكانت مدته سنة وستة أشهر وستة أيام
ومعاصروه من الملوك والمتغلبين هم معاصرو المقتدر ماعدا أحمد بن إسماعيل الساماني

كيف انتخب

لما قتل المقتدر كان من رأى مؤنس إقامة ولد أبي العباس أحمد وقال انه ترييتي وهو صبي عاقل وفيه دين وكرم ووفاء بما يقول فاذا جلس للخلافة سمحت نفس جدته والدة المقتدر وإخوته وغلمان أبيه ببذل المال ولم ينتطح في قتل المقتدر عنزان فاعترض عليه أبو يعقوب إسحق بن إسمايل النوبختي وقال بعد السكد والتعب استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يدبرونه فنعود إلى تلك الحال والله لا نرضى إلا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا وما زال بمؤنس حتى رده عن رأيه وذكرك له محمد بن المعتضد وهو أخو المسكني فأجابه إليه على كره منه فانه كان يقول إني عارف بشره وسوء نيته ولكننه لا حيلة . فبايعوه واستخلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلي بن بليق وأخذوا خطه بذلك واستقرت له الخلافة وبايعه الناس واستوزر أبا علي بن مقله واستحجج علي بن بليق

الحال في عهد القاهر

كان القاهر كما قال مؤنس شريرا خبيث النية فانه في أول خلافته اشتغل بالبحث عن استتر من أولاد المقتدر وحرمه واشتغل بمناظرة أم المقتدر وكانت مريضة قد ابتدأ بها داء الاستسقاء وقد زاد مرضها بقتل ابنها ولما سمعت أنه بقى مكشوفاً جزعزت جزعا شديدا وامتنتع من الأكل والشرب حتى كادت تهلك فوعظها النساء حتى أكلت شيئا سيرا من الخبز والملح . أحضرها القاهر عنده وهي على تلك الحال من المرض والجزع وسألها عن مالها فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشيء من المال والجواهر فضربها أشد ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه وقالت لو كان عندي مال لما أسلمت ولدى للقتل ولم تعترف بشيء ثم أخرجها على تلك الحال لتشهد على نفسها القضاة والعدول أنها قد حلت أوقافها ووكلت في بيعها فامتنتع من ذلك وقالت قد وقفها على أبواب البر والقرب بمسكة والمدينة والثغور وعلى الضعفي والمساكين ولا أستحل حلها ولا يبيعها وإنما أوكل في بيع أملا كي فلما علم القاهر

بذلك أحضر القاضى والعدول وأشهدهم على نفسه أنه قد حل وقوفها جميعها ووكل في بيعها فيبيع ذلك جميعه مع غيره واشتراه الجند من أرزاقهم . ثم صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته ولم نسمع فى التاريخ ما يقارب فعل القاهر نذالة وجبنا وخسة وشرامة نفس

بعد قتل المقتدر هرب كبار معينيه وخاصة محمد بن ياقوت وابنا رائق وهارون ابن غريب ومفلح وعبد الواحد بن المقتدر فلما صاروا بواسط أرسل هارون بن غريب يطلب الأمان لنفسه ويذل مصادرة ثلثمائة ألف دينار وعلى أن تطلق له أملاكه فأجيب إلى طلبه وتم رفقائه سائرين إلى السوس وسوق الأهواز فأقاموا بالأهواز وطرردوا عماله فجهز إليهم مؤنس جيشا أخرجهم منها ثم طلبوا إليه الأمان فأمنهم وتوجهوا معه إلى بغداد ومعهم محمد بن ياقوت فتقدم عند القاهر وعلت منزلته وصار يخلو به ويشاوره فغلظ ذلك على الوزير مؤنس المظفر وبلق الحاجب وابنه لأنهم ما حاربوا المقتدر إلا من أجله وثبت عندهم أن محمد بن ياقوت يدبر عليهم فاستوحشوا من القاهر وضيقوا عليه وأمر مؤنس بتفتيش كل من يدخل الدار ونقل من كان محبوسا بدار الخلافة كوالدة المقتدر التى اشتد عليها المرض بما نالها من الضرب وعلم القاهر أن العتاب لا يفيد فأخذ فى التدبير على القوم الذين أجلسوه هذا المجلس وكان اعتماد مؤنس على العساكر الساجية فأفسد القاهر قلوبهم عليه وأغراهم بمؤنس وأغرى كاتب ابن مقله به ووعده الوزارة محله فكان يكتب القاهر بجميع الأخبار

أما هؤلاء الخصوم فاتفقوا على خلع القاهر وتحالفوا على ذلك ولكنهم لم يبدوا شيئا من الحكمة أمام مكر القاهر ودهائه فرأى الوزير أن يظهر أن أباطاهر القرمطى ورد الكوفة وأن على بن بليق صائر إليه لئمنعها منه فإذا دخل على القاهر يودعه قبض عليه فسكتب ابن مقله إلى الخليفة بما اتفقوا على إخباره به ولكن لم يتم ذلك لأن الخبر جاء القاهر سرا بما دبر عليه فاحتاط لنفسه وأنفذ إلى الساجية فأحضرهم وفرقهم فى دهايز الدار مستخفين فلما جاء ابن بليق وطلب الاذن لم يؤذن له ورددوا قبيحا من الساجية فخرج هاربا من الدار وعلم بليق بما جرى على ابنه فاحتد وقال لا بد من المضى إلى دار الخليفة حتى أعلم سبب ما فعل بابنى فذهب هو وجميع القواد الذين بدار مؤنس فلما حضر أمر القاهر فقبض عليه وقبض كذلك على أحمد بن زيرك

صاحب الشرطة ثم أرسل إلى مؤنس في داره من أحضره بالحيلة وكان قد استولى عليه الضعف والكبر فلما حضر الدار أمر بالقبض عليه واختفى الوزير ابن مقلة وأمر القاهر بالتحتم على دور مؤنس وبليق وابنه على وابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هرون ونقل دوابهم ووكل بجرهمهم وأمر باحراق دار ابن مقلة فأحرقت وظهر محمد بن ياقوت فولى الحجبة

ولما تمكن القاهر من هؤلاء الأعداء وضبطهم بداره أمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ورأى الناس من شدة القاهر ما علموا معه أنهم لا يسلمون من يده وندم كل من أعانه من الجنود حيث لم ينفعهم الندم

ومن الغريب أن القاهر بعد أن تم له ما أراد أمر بالقبض على أكبر رجل ساعده وهو طريف السبكي الذي كان من قواد مؤنس سخانه

بقي من أعداء المقتدر الوزير ابن مقلة فإنه كان مستترا لم يظهر عليه وكذلك الحسن ابن هرون فكانا يرسلان قواد الساجية والحجرية ويخوفانهم من شر القاهر ويذكران لهم غدره ونكثه مرة بعد مرة وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ليلا تارة في زى أعمى وتارة في زى مكند وتارة في زى امرأة ويغريهم به حتى ملأ صدورهم فاتفقوا على خلعه وزحفوا إلى الدار وهجموا عليها من سائر الأبواب فلما سمع القاهر الأصوات والجلبة استيقظ نخمورا وطلب بابا يهرب منه فلم يجده فقبصوا عليه وحبسوه ثم سملوا عينيه وبذلك انتهت مدته وكانت جامعة للبعايب والقبائح ومن ذلك عدا ما تقدم ذكره أنه أمر بتحريم الخمر والغناء وسائر الأنبذة وأما الجوارى والمغنيات فأمر ببيعهن على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ثم وضع له كل من يشتري كل حاذقة في صنعة الغناء فاشترى منهن ما أراد بأرخص الأثمان وكان القاهر مشتهرا بالغناء والسماع فجعل ذلك طريقا إلى تحصيل غرضه رخيصة نعوذ بالله من هذه الأخلاق التي لا يرضاها العامة من الناس

٢٠ - الراضى

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد

اسمها ظلوم ولد سنة ٢٩٧ وبويج بالخلافة بعد خلع القاهر في ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ (٢٣ إبريل سنة ٩٣٤) ولم يزل خليفة إلى أن توفي في منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩ (٨ ديسمبر سنة ٩٤٠) فكانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام

كيف انتخب

لما قبض القاهر سأل القواد الخدم عن المكان الذي فيه أبو العباس بن المقتدر فدلوهم عليه وكان هو ووالده محبوبين فقصدوه وفتحوا عليه ودخلوا فسلوا عليه بالخلافة وأجلسوه على السرير يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى ولقبوه الراضى وبايعه القواد

الحال فى عهده

كانت الحال تزيد إدارا وانتكاسا واضطرابا فى عهده فأصحاب السلطان فى العراق يتنافسون ويقتلون والذين يحيطون بهم من المتغلبين يجدون ويجهدون فدولة الأندلس زهت وعظمت بهمة الرجل العظيم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الذى أعلن فى بلاده أنه أمير المؤمنين بعد أن لم يكن سلفه يتسمون بذلك وإنما كانوا يسمون بالأئمة . والدولة العبيدية فى المغرب والمهدية قد اشتدت وطأتها وهى آخذة فى العلو وتحاول الاستيلاء على مصر . وبنوبويه ظهورا واستولوا على كثير من بلاد الجبال والأهواز . والروم انتهزوا هذه الفرص لاقتطاع البلاد الإسلامية وغزو الثغور وأهل بغداد مع هذا كله مشغولون بأنفسهم ومتكالبون على ما فى أيديهم من البلاد العراقية كما ترى

كانت الكلمة العليا فى أول عهد الراضى لوزيره ابن مقلة وحاجبه محمد بن ياقوت فهما اللذان كان بأيديهما الحل والعقد فى البلاد . فى سنة ٢٢٣ نظر ابن مقلة فوجد محمد بن ياقوت قد تحكّم فى البلاد بأسرها وأنه هو لم يعد يده شىء فسعى به إلى الراضى وأدام السعاية فبلغ ما أراد فى خامس جمادى الأولى ركب جميع القواد إلى دار الخليفة حسب عادتهم وحضر الوزير ومحمد بن ياقوت ومعه كاتبه فامر الخليفة بالقبض عليه وعلى أخيه المظفر بن ياقوت وحبسهما وقد مات محمد فى الحبس

ثم أطلق المظفر بعد أن أخذ عليه ابن مقلة العهد أنه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكروه . ظن ابن مقلة أن الوقت قد صفا له بحبس ابني ياقوت وأنه لم يعد له منافس في سلطانه ولكنه غفل عن المظفر الذي أطلقه من السجن بعد موت أخيه محمد فان المظفر كان يظن أن ابن مقلة سم أخاه فكان لذلك يتحين الفرصة للقبض عليه فاتفق مع الجنود الحجزية أن يقبضوا على ابن مقلة فقبضوا عليه وأرسلوا إلى الراضى يعلمونه فاستحسن فعلهم وطلبوا من الخليفة أن يعين وزيراً فرد الاختيار اليهم فاختروا للوزارة على بن عيسى وعرضها عليه فامتنع وأشار بوزارة أخيه عبد الرحمن فاستوزره الراضى وسلم اليه ابن مقلة فصادره رأى عبد الرحمن أنه لا يمكنه ادارة الحركة لازدياد الفساد فاستعفى فلم يقبل الراضى منه وقبض عليه وصادره على سبعين ألف دينار وصادر أخاه علياً على مائة ألف

واستوزر بعده أبا جعفر الكرخى فرأى قلة الأموال وانقطاع المواد فازداد عجزاً إلى عجزه وضاق عليه الأمر وما زالت الاضاقه تزيد وطمع من بين يديه من المعاملين فيما عنده من الأموال وقطع محمد بن رائق والى البصرة ما كان يحمل من البصرة وواسط إلى بغداد وقطع البريدى والى الأهواز ما كان يحمل من الأهواز وأعمالها وكان ابن بويه قد تغلب على فارس فتحير أبو جعفر وكثرت المطالبات عليه ونقصت هيئته واستر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته فلما استر استوزر الراضى أبا القاسم سليمان بن الحسن فكان فى الوزارة كأبى جعفر فى وقوف الحال وقلة المال

ولما رأى الراضى ذلك اضطرت له الحال لمراسلة محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد فحضر مسرعاً فقلده الراضى لقب أمير الأمراء وولاه الخراج والمعاون فى جميع البلاد والدواوين وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر أنفذ إليه الخلع فانتقل السلطان ببغداد إليه ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من الأمور وإنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون وطلت بيوت الأموال وتغلب

أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فيها جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم

كتب ابن رائق كتابا عن الراضى إلى أبى الفتح جعفر بن الفرات يستدعيه ليجمعه وزيراً وكان يتولى الخراج بمصر والشام وظن ابن رائق أنه إذا استوزره جبي له أموال الشام ومصر فقدم بغداد ونفذت له الخلع قبل وصوله فلقيته بهيت فلبسها ودخل بغداد وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابن رائق جميعاً

فكر ابن رائق فيما يبدى أبى عبد الله البريدى من بلاد الأهواز وأشار على الراضى بالانحدار معه إلى واسط ليقترب من الأهواز ويراسل البريدى فان أجاب إلى ما يطلب منه وإلا قرب قصده عليه فأجاب الراضى وانحدر معه إلى واسط ثم تهيأ للسير إلى الأهواز ولما علم بذلك البريدى جدد ضمان الأهواز كل سنة بثلاثمائة وستين ألف دينار يحمل كل شهر قسطه فأجاب الراضى إلى ذلك وعاد إلى بغداد ولكن البريدى لم يحمل مما ضمن ولا ديناراً واحداً

رأى ابن رائق استفحال قوة البريدى وعدم التمسك من قهره ففكر فى أنه يستوزره فكتب إليه بذلك وطلب منه أن يرسل نائباً عنه فى الوزارة فأجاب وأرسل أحمد ابن على السكونى نائباً عنه فسارت أمور البريدى ببغداد على ما يروق وضمت البصرة التى كانت فى يد ابن رائق إلى أبى يوسف بن البريدى أخى أبى عبد الله فصار يد البريديين الأهواز والبصرة وأرسل إلى البصرة جنداً للاستيلاء عليها وكان ذلك سبباً لتجدد الوحشة بين ابن رائق والبريدى حيث رأى الأول أنه زاد البريدى سلطاناً على سلطانه بما أخذ من البصرة ولم يمكنه أن يعمل معه شيئاً ما ففكر فى إرسال جنده إلى الأهواز لقتال البريدى فاختر رجلين لقيادة الجنده أحدهما بدر الحرشنى والثانى بحكم الديلمى فسار بحكم بالجنده إلى السوس واستولى عليه بمن معه من الأتراك والديلمة ثم أخذ تستر ولما رأى ذلك أبو عبد الله البريدى ركب هو وإخوته ومن يلزمه السفن وأخذ معه ما يبق من الأموال و ٣٠٠ ألف درهم ففرقت السفينة بهم فأخرجهم الغواصون وقد كادوا يغرقون فركبوا ووصلوا إلى الأبله فأقام بها وكتب إلى رائق يستعطفه فلم يجبه وكانت الرسل من أعيان أهل البصرة فلما رأوا ذلك منه ازدادوا جدداً فى مقاومته فصاروا كلها جهز إليهم جنداً هزموه ولما رأى ذلك ابن رائق سار بنفسه إلى واسط

وكتب إلى بجكم وهو في الأهواز مستول عليها يأمره باللاحاق به فأتاه فيمن عنده من الجند فتقدموا وقاتلوا أهل البصرة فقاوموهم مقاومة عنيفة حتى ردوهم منهزمين - ورأى البريدى أنه لا بد له من معين على ابن رائق وبجكم فسار إلى عماد الدولة ابن بويه وأطمعه في العراق والاستيلاء عليه فسير معه أخاه معز الدولة فاستولى على الأهواز بعد أن حارب بجكم وانتصر عليه فسار بجكم إلى واسط لم يستمر الصفاء بين البريدى ومعز الدولة لأن كلا طامع يريد أن يملك بالثاني وكانت نتيجة المنافسة بينهما أن أنفذ بجكم جماعة من أصحابه فاستولوا على السوس وجند يسابور وبقيت الأهواز بيد البريدى ولم يبق بيد معز الدولة إلا عسكر مكرم ثم عاد فاستولى على الأهواز وأجلى عنها البريدى إلى البصرة

أما حال ابن رائق ببغداد فكانت حال إديبار لأن بجكم منع عنه مال واسط ولم يرسل إليه شيئا وكان يميل إلى أن يحل محل ابن رائق في إمارة الأمراء ببغداد وكان يسعى له فيها ابن مقله وقد كلم الخليفة بذلك فأجاب وأبلغ ابن مقله ما استقر عليه الأمر لبجكم فسار من واسط نحو بغداد في غرة ذى القعدة سنة ٣٢٦ ولم يزل حتى ورد ببغداد فقاتلته الجنود الراقية ولكنهم انهزموا عنه فدخل بجكم ببغداد في ١٣ ذى القعدة ولقي الراضى من الغد وخلع عليه وجعله أمير الأمراء فكتب إلى جميع القواد الذين كانوا مع ابن رائق يطلب إليهم العودة إليه ومناهم فجاءه أكثرهم وسقط ابن رائق بعد إمارة استمرت سنة واحدة وعشرة أشهر و ١٦ يوما واستتر عن العيون في أول سنة ٣٢٧ منع ناصر الدولة بن حمدان ماضمه من مال الموصل فسار إليه الراضى هو وبجكم فأقام الراضى بتسكيت وسار بجكم لحرب ناصر الدولة فقهره انتهب ابن رائق فرصة غيابهما عن بغداد فظهر واستولى عليها ولما بلغ الراضى وبجكم خبره انزعجا واضطرهما ذلك إلى الاسراع بمصالحة ناصر الدولة ابن حمدان على أن يعجل ٥٠٠ ألف درهم وعادا يريدان ببغداد فراسلها ابن رائق يطلب الصلح فاتفقا معه على ذلك وقلد طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورهما وجند قسرين والعواصم

أراد بجكم أن يستعيد بلاد الجبل والأهواز من يد ابن بويه فاتفق مع البريدى أن يسير إلى الأهواز وأمدته برجال وأن يسير بجكم إلى بلاد الجبل ولكن علم بجكم

أن البريدى يريد استعمال الخيلة معه ليلقيه في المهالك ويعود هو إلى بغداد ليكون أمير الأمراء فبدلاً من أن يسير إلى بلاد الجبل سار إلى واسط فاستولى عليها وأجلى عنها البريدى .

هكذا كانت مدة الرضى منازعات سياسية بين هؤلاء المتغلبين الذين كل منهم يود أن له تكون إمارة الأمراء ببغداد والأعداء ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة ولم يعد لها شيء من الهيبة ولا نفوذ الكلمة

ومما زاد الأمر إداراً ظهور المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة فقد ظهر بها الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامّة وإن وجدوا نبذاً أراقوه وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ومشى الرجال مع النساء والصبيان فاذا رأوا من يمشى مع امرأة أوصى سألوه عن الذى معه من هوفان أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فأرهبوا ببغداد فركب بدر الخرشنى وهو صاحب الشرطة ونادى فى جانبى بغداد فى أصحاب أبى محمد البربهارى الحنابلة لا يجتمع منهم اثنان ولا يناظرون فى مذهبهم ولا يصلى منهم إمام إلا إذا جهر بيسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الصبح والعشاءين فلم يفد فيهم وزاد شرهم وقتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد وكانوا إذا مر بهم شافى المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعضهم حتى يكاد يموت تفرج توقيع الرضى بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره فنه تارة أنكم تزعمون أن صورة وجوهكم القيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين والشعر القطط والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ثم طعنكم على خيار الأئمة ونسبتكم شيعة آل محمد صلى الله عليه وسلم إلى الكفر والضلال ثم استدعواكم المسلمين إلى التدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء فلعن الله شيطاناً زين لاسم هذه المنكرات

وما أغواه وأمير المؤمنين يقسم بالله قسما جهداً يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم
مذهبكم ومعوج طريقكم ليوسعنكم ضرباً وتشريداً وقتلاً وتبديداً وليستعملن السيف
في رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم
وبذلك يتبين أن الشقاق والنزاع تجاوزا الأمراء إلى عامة الناس وقلبا وجدت
المنازعات الدينية بين قوم لإذلوا وفشلوا

أمر القرامطة

لم تزل القرامطة على حالهم في الافساد والعيث واعتراض الحجاج وفي سنة ٣٢٢
أرسل محمد بن ياقوت رسولا إلى أبي طاهر يدعو إلى طاعة الخليفة ليقره على ما يده
من البلاد ويقلده بعد ذلك ماشاء من البلدان ويحسن اليه ويلتمس منه أن يكف عن
الحاج جميعهم وأن يرد الحجر الأسود إلى موضعه بمكة فأجاب أبو طاهر إلى أنه
لا يعترض للحاج ولا يصيبهم بمكروه ولم يجب إلى رد الحجر الأسود إلى مكة وسأل
أن تطلق له الميرة من البصرة ليخطب للخليفة بهجر . فسار الحاج إلى مكة هذه السنة
ولم يعترضهم القرمطي . واسكنه في سنة ٢٢٣ اعترضهم بفرج جماعة من العلويين
بالكوفة إلى أبي طاهر فسألوه أن يكف عن الحاج فكف عنهم وشرط عليهم أن
يرجعوا إلى بغداد فرجعوا ولم ينجح هذه السنة من العراق أحد وسار أبو طاهر إلى
الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها

وفي سنة ٣٢٦ أصابهم خلل وفساد في سياستهم وسببه ما كان من ابن سنبر وهو
رجل كان من خواص أبي سعيد القرمطي والمطلعين على سره وكان له عدو من القرامطة
يدعى أباحفص فعمد ابن سنبر إلى رجل من أصهبان وقال له إذا ملكتك أمر القرامطة
أريد منك أن تقتل عدوي أبا حفص فأجابه إلى ذلك وعاهده عليه وأطلعه على أسرار
أبي سعيد وعلامات كان يذكر أنها في صاحبهم الذي يدعون اليه فحضر عند أولاد
أبي سعيد وذكر لهم ذلك فقال أبو طاهر هذا هو الذي ندعو اليه فأطاعوه ودانوا له
حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله وكان إذا كره رجلا يقول إنه مريض يعني إنه
قد شك في دينه ويأمر بقتله وبلغ أبا طاهر أن الأصهباني يريد قتله ليتفرد بالملك فقال

لاخوته لقد أخطأنا في هذا الرجل وسأ كشف حاله فقال له إن لنا مريضاً فانظر اليه ليبرأ فحضروا وأضجعوا والدته وغطوها بازار فلما رآها قال إن هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه فقالوا له كذبت هذه والدتك ثم قتلوه بعد أن قتل منهم خاق كثير من عظامهم وشجعانهم وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والافساد فيها وفي عهد الراضى ظهرت الدولة الاخشيدية بمصر على يد مؤسسها محمد الاخشيد ابن طنج وهو من موالى آل طولون وكان ملكه مصر سنة ٣٢٣ واستمر الملك في عقبه الى سنة ٣٥٨ وهم الذين تسلم منها الفاطميون مصر وهذا ثبت ملوكهم

- | | |
|-----------|--|
| ٣٢٣ - ٣٣٤ | (١) محمد الاخشيد بن طنج |
| ٣٣٤ - ٣٤٦ | (٢) أبو القاسم أنوجور بن الاخشيد |
| ٣٤٦ - ٣٥٥ | (٣) أبو الحسن علي بن الاخشيد |
| ٣٥٥ - ٣٥٧ | (٤) أبو المسك كافور مولى الاخشيد |
| ٣٥٧ - ٣٥٧ | (٥) أبو الفوارس أحمد بن علي بن الاخشيد |

وفي عهد الراضى مات عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين بالمهدية وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان يحاول ملك مصر فلم يتمكن ختم الراضى الخلفاء في أشياء منها أنه آخر خليفة دون له شعر وآخر خليفة انفراد بدير الملك وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزها وخدمه وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين

وفي أيامه حدث اسم أمير الأمراء في بغداد وصار إلى أمير الأمراء الحل والعقد والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شيء وكان الراضى أديباً له شعر مدون يجب محادثة الأدباء والفضلاء والجلوس معهم وكان سمحاً سخياً

توفي الراضى في منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩ (١٨ ديسمبر سنة ٩٤٠) ابن الأثير

٢١ - المتقى

هو إبراهيم المتقى بن المعتمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد اسمها خلوب بويج بالخلافة في ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ (٢٤ ديسمبر سنة ٩٤٠) ولم يزل خليفة حتى خلع في ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ (١٢ أكتوبر سنة ٩٤٤) فكانت مدته ٤ سنوات و ١١ شهرا

كيف انتخب

لما مات الراضى كان بحكم بواسط فورد كتابه مع وزيره أبي عبد الله الكوفى بأمر فيه بأن يجتمع مع أبي القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضى كل من تقلد بالوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد ويشاورهم الكوفى فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضى مذهبه وطريقته فجمعهم الكوفى واستشارهم فاتفقوا على إبراهيم بن المقندر فبايعوه في التاريخ السابق ولقب نفسه المتقى لله وسير الخلع واللواء إلى بحكم بواسط

الحال في عهده

كان بحكم أمير الأمراء والتدبير كله إلى وزيره أبي عبد الله الكوفى وليس للخليفة ولا لوزيره سليمان بن الحسن شيء لم يطل زمن بحكم في الامارة فان البريدى كان لا يزال يبنى نفسه بالاستيلاء على بغداد فأنفذ من البصرة جيشا الى المذار فأنفذ اليه بحكم جيشا يقوده قائد من كبار قواده اسمه توزون فالتقى الجيشان واقتلا وكان النصر أولا لجيش البريدى فأرسل توزون إلى بحكم يطلب أن يلحق به فسار اليه وصادف أن عادت السكرة لتوزون فأرسل إلى بحكم يخبره بالظفر فأراد الرجوع إلى واسط فأشار عليه بعض أصحابه أن يتصيد فسار حتى بلغ نهر جور وحينذاك اغتاله رجل من الاكراد الذين يسكنون هناك وكان قتله مفرجا عن البريدى ومفيدا للبتقى لأنه استولى على داره وما فيها من الاموال فبلغ ما ناله ألف ألف ومائتى دينار . وكانت مدة اماره بحكم سنتين وثمانية أشهر

لما قتل بجحيم انحدر الديلم إلى البريدي فقوى بهم وعظمت شوكته فسار مريدا الاستيلاء على بغداد ولم يتمكن الخليفة من صدّه فدخلها في ١٢ رمضان سنة ٣٢٩ ولقية الوزير والقضاة والكتاب وأعيان الناس فأنفذ اليه المتقي يهنئه بسلامته . ولم يتم له ما أرادته من التأمير لأن الأتراك والديالمة اختلفوا عليه ففارق بغداد بعد أن أقام بها ٢٤ يوما وحينئذ تقدم على الجند كورتكين الديلمي فسماه المتقي أمير الأمراء وخلع عليه . وكانت مدته مضطربة لأن عامة البغداديين تأذوا من الديلم فلم ينسكروا كورتكين على جنده ما فعلوه لذلك حصلت وقائع بين العامة والديلم ولما رأى المتقي أن كورتكين ليس عنده من المنعة ما يزيل به الاضطراب أرسل إلى ابن رائق وهو بالشام يطلب إليه الرجوع إلى بغداد ليكون أمير الأمراء فعاد . أما كورتكين فانه خرج إليه وقابله بعكبرا فوقع الحرب بينهما عدة أيام وفي ٢١ ذى الحجة سار ابن رائق بجيشه ليلا فأصبح ببغداد وقابل المتقي . أما كورتكين فانه لما أحس في الصباح بمسير ابن رائق تبعه إلى بغداد وكانت عليه الهزيمة حين لاقته جنود ابن رائق فاخفى وأخذ ابن رائق من استأمن إليه من الديلم ققتلهم وكانوا نحو ٤٠٠ وحينئذ خلع المتقي على ابن رائق وسماه أمير الأمراء

تجددت أطماع البريدي لما علم بضعف الديلم والأتراك بسبب ما قتل منهم ابن رائق فأرسل جندا في الدجلة للاستيلاء على بغداد ولم ير مقاومة شديدة فاستولى عليها وهرب المتقي وابنه وابن رائق إلى الموصل أما أصحاب البريدي فانهم فعلوا ببغداد فعلا قبيحة قتلوا من وجدوه في دار الخليفة من الحاشية ونهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب في بغداد ليلا ونهارا وكبسوا الدور وأخرجوا أهلها منها حتى عظم الأمر وغلت أسعار الخنطة والشعير وأصناف الحبوب وكان ذلك كله سببا لوقوع الفتن والاضطراب وفي آخر شعبان زاد البلاء على الناس فكبسوا منازلهم ليلا ونهارا واستتر أكثر العمال لعظيم ما طولبوا به مما ليس في السواد وعلى الجملة فان هذه الفترة ببغداد لم ير أهلها مثل ما حصل فيها من الشدة

طلب المتقي من ناصر الدولة بن حمدان أن يعينه على البريديين فأرسل أخاه سيف الدولة لنصرته فلقية هو وابن رائق بتكريت فرجع معهما إلى الموصل وهناك جاء ناصر الدولة واعتال ابن رائق لانه يريد أن يحل محله في إمرة الأمراء وقد كان ذلك

فان المتقى خلع عليه وسماه أمير الامراء في أول شعبان سنة ٣٣٠ وخلع على أخيه
أبي الحسن علي ولقبه ذلك اليوم بسيف الدولة
بعد ذلك تجهز ناصر الدولة وسار إلى بغداد معه المتقى ولما قارباها هرب عنها
أبو الحسين بن البريدى وسار إلى واسط بعد أن أقام ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين
يوما ودخل المتقى بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة
ثم خرج بنو حمدان يريدون واسط لآخذها من البريدى فأقام ناصر الدولة بالمدائن
وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدى فالتقى به تحت المدائن بفرسخين وكانت
مقاومة البريدى شديدة حتى إنه هزم سيف الدولة ومن معه فعاد إلى المدائن فقوام
ناصر الدولة بجنود أخرى فعادوا فقاتلوا أبا الحسين وهزموه ولكن سيف الدولة
لم يتبعه إلى واسط لمافي أصحابه من الوهن والجراح ولما اندملت جراحهم وقووا
سار سيف الدولة إلى واسط فأخذها وانحدر أبو الحسين إلى البصرة وأقام سيف
الدولة بواسط وكان يريد المسير إلى البصرة فلم يمكنه لقلته المال عنده فكتب إلى
أخيه فلم يسعفه فحصل بين الأخوين وحشة ووقع سيف الدولة في أخيه ناصر الدولة
وكان القواد الذين معه من الأتراك قد قلت عندهم هيبته لقلته المال فسار بوابه وكبسوه
ليلا فهرب وترك معسكره ولما علم ناصر الدولة بالخبر سار عن بغداد إلى الموصل
وترك إمارة الامراء بعد أن أقام فيها ثلاثة عشر شهرا وخمسة أيام
اختار المتقى بعد رحيل ناصر الدولة لامارة الامراء أكبر قواد الديلم واسمه توزون
ولم يكن عنده شيء من حسن السياسة فاستوحش منه المتقى وخافه على نفسه فرأى أن
يسير إلى الموصل مستعينا بالحمدانيين فبارح بغداد إليها ولما بلغ ذلك توزون تبعه
حتى وصل تكريت وهناك التقى بسيف الدولة فقابله وهزمه مرتين ثم استولى على
الموصل فسار عنها بنو حمدان والمتقى معهم إلى نصيبين . ثم ترددت الرسل بين توزون
من جهة وبين الحمدانيين والمتقى من جهة على الصلح فتم على أن يضمن ناصر الدولة
ما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم وعاد
توزون إلى بغداد ولم يعد معه المتقى بل استمر في الموصل . ثم أرسل إلى توزون يطلب
منه أن يعود إلى بغداد فأظهر توزون الرغبة في ذلك وحلف للبتقى أنه لا يغدر به
فاغتر المتقى بتلك اليمين وسار إلى بغداد فلقه توزون تحت هيت ولما رآه قبل له

الأرض وقال هاأنا ذاقذ وفيت يميني والطاعة لك ثم وكل به وبعد ذلك سمله وخلعه
وبذلك انتهت خلافة المتقي

٢٢ - المستكفي

هو أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله بن المكتفي بن المعتضد
لما قبض توزون على المتقي أحضر المستكفي إليه إلى السندية وبايعه هو وعامة الناس

الخلافة العباسية تحت سلطان آل بويه

يبتدى هذا الدور من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٤٤٧ تولى الخلافة فيه خمسة خلفاء وهم
المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم

تاريخ هذا الدور يرتبط بتاريخ آل بويه الديليين الذين كانوا أصحاب النفوذ
الحقيقي والسلطان الفعلي في العراق لذلك أردنا أن نسوق فصلا نيين فيه أحوال
الديلم وكيف تصرفت بهم الأحوال إلى أن وصلوا إلى ذروة العظمة باستيلائهم على
بغداد عاصمة الخلافة العباسية

بلاد الديلم أو بلاد جيلان واقعة في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر سهلها
للجبل وجبالها للديلم وقصبتها روزبار

كانت في القديم إحدى الايالات الفارسية إلا أن أهلها لم يكونوا من العنصر الفارسي
بل عنصر ممتاز يطاق عليه اسم الديلمة أو الجيل . ولما أذن عمر بن الخطاب رضي الله
عنه بالانسيح في بلاد العجم كانت بلاد الديلم مما فتحه المسلمون واستمر الديلم خاضعين
للحكم الاسلامي مع بقائهم على وثنيتهم ولم يكن استيلاء المسلمين عليهم مما ينقص من
شجاعتهم أو يفقدهم جنسيتهم . وكانت تجاورهم بلاد طبرستان وأكثر أهلها دانوا
بالاسلام وكان بين الديلمة والطبريين سلم وموادعة

على هذا كان الحال في صدر الدولة العباسية فلا الديلمة تحدهم أنفسهم بالخروج
إلى بلاد المسلمين ولا المسلمون يحدون أنفسهم بالتوغل في بلادهم حتى كانت حادثة
إقطاع المستعين محمد بن طاهر تلك القطائع التي يقرب بعضها من ثغور طبرستان وأراد

رسول ابن طاهر أن يستلها ومعها الأرض التي كانت مرافق لأهل تلك النواحي فامتنع من ذلك أهل طبرستان وأظهروا العصيان لمحمد بن طاهر ورأوا أن ذلك لا يتم إلا أن يكون على رأسهم رجل يدينون بطاعته فاتفقوا على الحسن بن زيد الذي قدمنا حديثه في خلافة المستعين وكان مقبياً بالرى فراسلوه فأقبل اليهم فباعوه وطلبوا من الديلم أن يساعدهم على عمال ابن طاهر فبذلوا لهم ما طلبوا من المساعدة لاساءة كانت من عمال ابن طاهر اليهم . استولت هذه القوة على مدن طبرستان ثم الرى وجرجان ولم يزل الحسن مدير أمرهم حتى مات سنة ٢٧١ ثم ولى أخوه محمد بن زيد وكانت مدهته مضطربة حتى قتل سنة ٢٨٧ وكان وجود الحسن بن زيد وأخيه في تلك البلاد سبباً لمواصله أهل الديلم وشيوع الدعوة الإسلامية بينهم

بعد ذلك دخل بلاد الديلم الحسن بن على الملقب بالأطروش وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ويقتصر منهم على العشر ويدفع عنهم عدوهم فأسلم منهم خلق كثير واجتمعوا عليه وبنى في بلادهم المساجد . وكان آل سامان بازاءهم ثغور مثل قزوين وسالوس وغيرهما وكان بمدينة سالوس حصن منيع فهدمه الحسن لما أسلم الديلم والجيل — ثم إنه جعل يدعوهم إلى الخروج معه إلى طبرستان فلا يجيبونه لاحسان عبدالله بن محمد بن نوح الذي كان أميراً على تلك الجهات من قبل آل سامان فاتفق أن أحمد الساماني عزل عبد الله وولى بدله آخر اسمه سلام فلم يحسن سياسة أهلها فهاج عليه الديلم فقاتلهم وهزمهم واستقال من الولاية فأعاد أحمد الساماني عبد الله بن محمد بن نوح فصلحت البلاد — ولما مات جاءها وال غير رسومه وأساء السيرة وقطع عن رؤساء الديلم ما كان يهديه اليهم ابن نوح فانتهر الحسن بن على الفرصة وهيج الديلم عليه ودعاهم إلى الخروج معه فأجابوه وخرجوا معه حتى التقوا بأمر طبرستان فهزموه واستولوا على طبرستان وكان أكبر معينه ليلي بن النعمان وما كان ابن كالى الديليان وكانا من عظماء الديلم وقوادهم استوليا على طبرستان وجرجان باسم الحسن بن على الأطروش . ومن عرف اسمه في تلك الوقائع الحسن بن القاسم الداعي العلوى وكان ختن الأطروش

توفي الأطروش سنة ٣٠٤ وكان يلقب بالناصر لله وكان له من الأولاد الحسن وأبو القاسم والحسين وكان الحسن مغاضباً له فلم يوله شيئاً وولى ابنه الآخرين

فكانت طبرستان في أيديهما بمعونة الحسن بن القاسم الداعي وفي سنة ٣٠٩ قتل ليلى بن النعمان أحد قواد الزيدية وكان يلي بلاد جرجان وكان أولاد الأطروش يكتبونه المؤيد لدين الله المنتصر لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلى بن النعمان وكان سبب قتله أنه سار إلى نيسابور بأمر الحسن بن القاسم يريد الاستيلاء عليها وكانت بيد السامانية فكان في هذه الاغارة حثفه وانتهزام جنوده ثم تقدمت جنود السامانية إلى جرجان وبها أبو الحسين بن الناصر فانهزم عنها إلى استراباذ ثم فارقتها وقصد مدينة سارية وجعل باسراباذما كان بن كالى وهو ثاني القواد المشهورين من الديلم بعد ليلى بن النعمان فاجتمع إليه الديلم وقدموه وأمره عليهم وكان على يديه إعادة جرجان من الجنود السامانية فأقام بها وكان من أصحاب ما كان قائد ديلمى اسمه أسفار بن شيرويه وكان سيء الخلق والعشرة فأخرجه ما كان من عسكره فاتصل بأمير نيسابور للسامانية وهو بكر بن محمد بن اليسع فأكرمه بكر وسيره إلى جرجان ليأخذها من يد أبي الحسن ابن كالى أخى ما كان وكان أخوه قد ولاء عليها وذهب إلى طبرستان . وكان أبو الحسن قد اعتقل أبا على بن الأطروش عنده فتمكن أبو على من الخلاص من هذا الاعتقال واهتال أبا الحسن ما كان وأرسل إلى جماعة القواد يخبرهم بمقتله ففرحوا وبايعوا العلوى وألبسوه القلنسوة وكاتبوا أسفار بن شيرويه وعرفوه الحال واستقدموه إليهم فسار إلى جرجان وضبطها وجاءه ما كان يحاربه فهزمه أسفار وصادف أن مات أبو على ابن الأطروش وصفت جرجان لأسفار وأسفار هذا هو ثالث قواد الديلم . ولما تمكنت قدمه بجرجان أرسل لمردواييج بن زيار الجبلى يستدعيه فحضر عنده وجعله أمير الجيوش وأحسن اليه ثم قصدا طبرستان فاستوليا عليها فعلم بذلك الحسن بن القاسم الداعي وهو بالرى ومعه ما كان بن كالى فسار نحو طبرستان والتقى بأسفار عند سارية فانهزم الحسن وما كان ثم أدرك الحسن فقتل وبقتله صفت لأسفار طبرستان والرى وجرجان وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرج ودعالمصاحب خراسان وهو السعيد بن نصر السامانى وأقام بسارية ثم استولى على قلعة الموت وهى قلعة على جبل شاهق فى حدود الديلم

عظمت جيوش أسفار وجل قدره فتجبر وعصى على الأمير السعيد صاحب خراسان

وأراد أن يجعل على رأسه تاجا وينصب الرى سرير ذهب للسلطنة ويحارب خليفة بغداد المقتدر بالله فسير اليه المقتدر جيشا لخاربه أسفار وانتصر عليه ولما علم السعيد بذلك سار من بخارى حاضرة ملكه ليحارب أسفار ويأخذ بلاده فلما علم أسفار بوصول السعيد إلى نيسابور أدرك أنه لا يمكنه أن يقاومه فراسله في الصلح واتفقا على شروط منها حمل الأموال والخطبة باسمه في بلاده

وبينما هو في ذروة عزه قام عليه أكبر قواده مرداويج بن زيار وشق عصا طاعته واتحد مع سلار صاحب شميران وتحالفا وتعاقدا على التساعد على حرب أسفار . ومن حسن حظ مرداويج أن أكثر قواد أسفار كانوا ملوه لجبره وظلله فسرعان ما أجابوا مرداويج حين أعلمهم بأمره وكانت نتيجة هذا الاتفاق أن قتل أسفار سنة ٣١٦ ملك البلاد مرداويج وأجبه الجنود لحسن سيرته واتسعت رقعة ملكه وعمل له سريرا من ذهب يجلس عليه وسريرا من فضة يجلس عليه أكبر قواده وإذا جلس على السرير يقف عسكريه صفوفًا بالبعد عنه ولا يخاطبه أحد إلا الحجاب الذين رتبهم لذلك وخافه الناس خوفا شديدا ودخلت في حوزته طبرستان وجرجان واجتهد ما كان بن كالى أن يدافعه عنهما واستعان بكل وسيلة فلم يقدر وأقبلت الديلم إلى مرداويج من كل ناحية لينذله وإحسانه إلى جنده فعظمت جيوشه وكثرت عساكره فكثير الخرج عليه فلم يكفه ما في يده فذهب إلى همدان واستولى عليها من يد جنود الخليفة وبذلك تم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها وبلغت عساكره إلى نواحي حلوان وهى أول حدود العراق

ثم ملك بعد ذلك أصبهان والأهواز وأرسل إلى المقتدر رسول يقرر على نفسه مالا على هذه البلاد كلها فأجابه المقتدر إلى ذلك وقوطع على مائتى ألف درهم كل سنة فى سنة ٣٢٠ أرسل مرداويج إلى أخيه وشمكير وهو ببلاد جيلان يستدعيه إليه فجاهه واعتزبه . والمؤرخ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى يؤكده فى كتابه الموسوم بالآثار الباقية عن القرون الخالية الذى ألفه باسم شمس المعالى قابوس ابن وشمكير أن هذه الأسرة من أصل شريف الطرفين فأما أحد الأصلين فوردان شاه الذى لا تجهل سيادته فى الجبل وأما الأصل الآخر فلوك الجبال الملقبون بأصفهانية طبرستان والفرجوارجرشاهية وليس ينكر اعتزاز من كان منهم من أهل

بيت الملك إلى ما يجمعهم والأكاسرة في شعب واحد فان خاله هو الاصفهذي رستم ابن قارن بن شرويه بن رستم بن قارن بن شهريار بن شروين بن سرخاب بن شابور ابن كياس بن قباذ والد أنوشروان

ولما استقرت قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم كانوا من قواد ما كان بن كالى وفارقوه لما ضاقت بهم الحال وهم على والحسن وأحمد أولاد بويه ساروا إلى مرداويج ومعهم جماعة من قواد ما كان . وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الأسرة البويهية التي امتلكت ناصية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الاسلامية وهي التي تكون الدور الثاني من أدوار الخلافة العباسية ولما ارتفع شأنهم ظهر لهم ذلك النسب العالى فقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي في كتابه الذى سماه بالتاج أن بويه ينتهى نسبه إلى بهرام جور الملك والبيرونى السابق ذكره يرجح أن هذا النسب إنما ظهر لهم بعد ثبوت ملكهم وإلا فتلك الأمم ليست معروفة بحفظ الأنساب ولا مذكورة بتخليد ذلك ولا بأنها كانت تعرف ذلك منهم قبل انتقال الدولة إليهم مع أنه فيما سبق يرجح صحة نسب أخوال وشمكير ويسوقها نسقا حتى يصل بها إلى قباذ ملك الفرس

لما ورد أبناء بويه على مرداويج خلع على على والحسن وولى القواد الذين وصلوا معهما النواحي وولى على بن بويه بلاد الكرج وكتب لهم بذلك العهود فساروا إلى الرى وبها وشمكير أخو مرداويج ومعه وزير مرداويج الحسين بن محمد الملقب بالعميد . صادف أن كان مع ابن بويه بغلة شهباء من أحسن ما يكون فعرضها للبيع فبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار فعرضت على العميد فأخذها ونقد ثمنها فلما حمل إلى على أخذ منه عشرة دنانير ورد الباقى ومعه هدية جميلة فكان ذلك بدء الصلة بين العميد وآل بويه ندم مرداويج بعد انفصال هؤلاء القواد على توليتهم فكتب إلى أخيه وشمكير وإلى العميد يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير إلى أعمالهم وإن كان بعضهم قد خرج يرد وكانت الكتب تصل إلى العميد قبل وشمكير فيقرؤها ثم يعرضها على وشمكير فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ إلى على بن بويه يأمره بالمسير من ساعته إلى عمله ويطوى المنازل فسار من ساعته ولما أصبح العميد عرض الكتاب على وشمكير فنع سائر القواد من الخروج من الرى واستعاد التوقعات التي كانت

معهم وأراد أن ينفذ خلف علي بن بويه من يرده فقال العميد إنه لا يرجع طوعا
وربما قاتل من يقصده ويخرج من طاعتنا فتركه . وصل على الكرج وأحسن إلى
الناس ولطف بعالم البلاد فكتبوا إلى مرداويج يشكرونه ويصفون ضبطه للبلاد
وحسن سياسته . واقتح قاعات كانت للخرمية وظفر منها بذخائر كثيرة صرفها جميعا
إلى استمالة الرجال والصلوات والمهمات فشاع ذكره وقصده الناس وأحبوه . ولما
كان مرداويج بالرى أطلق مالا لجماعة من قواده على الكرج فاستمالهم علي بن بويه
ووصلهم وأحسن إليهم حتى مالوا إليه وأجوا طاعته وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش
وندم على إنفاذ أولئك القواد فكتب إليهم وإلى علي يستدعيهم إليه وتلطف بهم
ودافعه على واشتغل بأخذ العهود عليهم وخوفهم سطوة مرداويج فأجابوه جميعا فجي
على مال الكرج واستأمن إليه شيرازاد وهو من أعيان قواد الديلم فتويت نفسه
وسار بمن معه إلى أصهبان فاستولى عليها من يد المظفر بن ياقوت . بلغ ذلك الخليفة
فاستعظمه وبلغ مرداويج فأقلقه وخاف على ما بيده من البلاد واغتم لذلك غما شديدا
ولكن رأى أن يحتال فراسل عليا يعاتبه ويستميله ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى
يمده بالعساكر الكثيرة ليفتح بها البلاد ولا يكلفه سوى الخطبة له في البلاد التي
يستولى عليها وجهاز يعقب تلك الرسالة أخاه وشمكير في جيش كشيغ ليكيس عليا
وهو مطمئن إلى الرسالة المتقدمة فعلم بذلك فرحل عن أصهبان بعد أن جباها شهرين
وتوجه إلى أرجان وبها أبو بكر بن ياقوت فأنهزم عنها أبو بكر من غير قتال وقصد
رامهرمز فاستولى على علي أرجان في ذي الحجة سنة ٣٩٠ فاستخرج منها أموالا
قوى بها . جاءتته وهو بها كتب من أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يستدعيه ويشير
عليه بالمسير إلى شيراز ويهون عليه أمر ياقوت وأصحابه ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية
الأموال وكثرة مؤنته ومؤنة أصحابه وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجبنهم
فتردد على أولاهم عزم على المصير فسار نحو النوبندجان في ربيع الآخر سنة ٣٢١
فلحق بها مقدمة ياقوت فهزمها ثم سار منها إلى اصطخر خوفا أن يقع بين ياقوت
ومرداويج لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه فقابله في الطريق ياقوت بجيوشه فكان
النصر لعلي وانهمز ياقوت هو ومن معه وكان أحمد بن بويه بمن ظهر أثره في ذلك
اليوم وهو صبي لم تثبت لحيته وكان عمره ١٩ سنة . وبعد هذا الانتصار عامل على

الأسرى أحسن معاملة وخيرهم بين المقام عنده والحقاق يياقوت فاخترأوا المقام عنده نفلع عليهم وأحسن إليهم ثم سار حتى أتى شيراز قصبه فارس فاستولى عليها ونادى فى الناس بالأمان وبث العدو وأقام لهم شحنة تمنع ظلمهم واستولى على كثير من أموال يياقوت وودائعهم فسهلت عليه أمر استرضاء الجنود والتودد إليهم فأحبوه وثبت ملكه ثم أرسل إلى خليفة بغداد الراضى بالله وإلى وزيره ابن مقله يعرفهما أنه على الطاعة ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد وبذل ألف ألف درهم فأجيب إلى ذلك وأنفذت إليه الخلع واللواء

لما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد وسار إلى أصهبان للتدبير عليه وبها أخوه وشمكير فرأى أن ينفذ عسكر إلى الأهواز للاستيلاء عليها ويسد الطريق على ابن بويه إذا قصدته فلا يبقى له طريق إلى الخليفة ويقصده هو من ناحية أصهبان ويقصده عسكره من ناحية الأهواز فلا يثبت لهم . فسارت عساكر مرداويج حتى بلغت أيدج فى رمضان ثم استولت على رامهرمز فى شوال سنة ٣٢٢ ثم استولت على الأهواز وأجلت عنها يياقوتا . بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الأهواز فسكاتب نائبه يستميله ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج ففعل واستقر الأمر بينهما على أن ابن بويه يخطب لمرداويج وأهدى له ابن بويه هدية جميلة وأنفذ له أخاه الحسن رهينة

من حسن حظ ابن بويه أن مرداويج قتل بعد ذلك سنة ٣٢٣ تمرت عليه جنوده الأتراك لأنه كان كثير الإساءة إليهم ويفضل عليهم الديلمية الذين هم من عنصره فانفقوا على اغتياله ففعلوا وكان رؤساء المتألمين عليه من الأتراك يحكم وتوزون وهما اللذان ذكرنا أنهما توليا إمرة الأمراء بالعراق وياروق وابن بغرا ومحمد بن ينال الترجمان . ولما تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش فأما الأتراك فافترقوا فرقتين فرقة منهم لحقت بابن بويه وفرقة سارت نحو الجبل مع بحكم . وأما الديلم فذهبوا إلى وشمكير وهو بالرى وأطاعوه . وكان من نتيجة قتل مرداويج أن تخلص الحسن بن بويه الذى كان رهينة عنده وسار إلى أخيه بفارس

سارت القوى الكبرى ببلاد العجم ثلاثا قوة على بن بويه بفارس وقوة وشمكير ابن شيرويه بالرى وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر . أما يياقوت الذى كان

بالأهواز فضعت قوته جدا حتى لم تعد قادرة على حفظ مامعها فضلا عن مصادمة
غديرها أما القوة الحية النامية فهي قوة ابن بويه . سير أخاه الحسن إلى بلاد الجبل
ومعه العساكر فاستولى على أصهبان وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب
وشمكير وبقى هو ووشمكير يتنازعان هذه البلاد وهي أصهبان وهمدان وقم وقاشان
وكرج والرى وكشكور وقزوين وغديرها حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها
بعد خطوط وحروب طويلة وانجلى عنها نواب وشمكير

خطر بيال على بن بويه أن يمد سلطانه إلى الأهواز والعراق لما علمه من ضعف
قوة الخليفة ببغداد وكان هو مشغولا بإدارة إقليم فارس وأخوه الحسن مشغولا
ببلاد الجبل وأخوه الأصغر لا شغل له فسيره على إلى الأهواز فاستولى عليها بعد
حروب بينه وبين بجكم الرائق وانهمز بجكم إلى واسط

كان من أهم مقاصد ابن بويه المسير إلى العراق بعد الاستيلاء على واسط فصار أحمد
ابن بويه يسير إلى واسط ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون إليه المسير نحوهم
للاستيلاء على بغداد فوصلها في ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤ والخليفة بها هو المستكنى
بالله فقبله واحتفى به وبايعه أحمد وحلف كل منهما لصاحبه هذا بالخلافة وذلك
بالسلطنة وفي هذا اليوم شرف الخليفة بنى بويه بالألقاب فلقب عليا صاحب بلاد
فارس عماد الدولة وهو أكبرهم ولقب الحسن صاحب الرى والجبل ركن الدولة ولقب
أحمد صاحب العراق معز الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود
وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثاني للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان
الحقيقي من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيسا دينا لأمر له ولانهى ولا وزير
وإنما له كاتب يدبر أفعاله واخراجاته لا غير وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر
لنفسه من شاء

وكان يخطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضا عن بنى العباس ويوليها
علويا لأن القوم كانوا شيعة زيدية لأن التعاليم الإسلامية وصلت إليهم على يد الحسن
ابن زيد ثم على يد الحسن الأطروش وكلاهما زيدى فكانوا يعتقدون أن بنى العباس
قد غضبوا الخلافة واخذوها من مستحقها ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل
وقال له إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو

أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلس بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا فأعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبني العباس وانفرد هو بالسلطان ولم يبق بيد الخليفة شيء البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته

كان السلطان في ذلك الوقت ببلاد الأندلس لبني أمية والقائم بالأمر منهم عبد الرحمن الناصر وقد تلقب بأمر المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد إلى ما وصلت إليه من الضعف أمام الأتراك والديالمة الذين سأل سيدهم ببغداد

وببلاد إفريقية للعباسيين الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغلبة والادارسة والقائم بالأمر منهم اسماعيل المنصور وهو ثاني خلفائهم وكان يلقب بأمر المؤمنين وبمصر والشام للاخشيديين والأمير منهم أنوجور بن محمد الاخشيد وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسي

وبحلب والشغور لسيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان الشيباني ويخطب باسم الخليفة العباسي

وبالجزيرة الفراتية لناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الشيباني ويخطب باسم الخليفة العباسي

وبالعراق للديلم والسلطان منهم معز الدولة أحمد بن بويه ويخطب على منابرهم باسم الخليفة العباسي ثم باسم معز الدولة من بعده

وبعمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة للقرامطة ويخطبون باسم المهدي وبفارس والأهواز لعلي بن بويه الملقب عماد الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسي وكان يلقب بأمر الأمراء لأنه أكبر بني بويه

وبالجبل والري لحسن بن بويه الملقب ركن الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسي وجرجان وطبرستان يتنازعها وشمكير بن شيرويه وركن الدولة وآل سامان وبخراسان وماوراء النهر لآل سامان ومقر ملكهم مدينة بخارى ويخطبون على منابرهم باسم الخليفة العباسي

هذه هي القوى الكبرى التي كانت لأسر ملوكية في الرقعة الاسلامية فقد تفرقت هذا الملك الواسع تفرقا غريبا بعد أن كان متماسك الأعضاء يرجع كله إلى حاضرة

كبرى تجمع شتاته . وما يستحق النظر أن العنصر العربي لم يبق له شيء من الملك إلا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة فانهما من عنصر عربي ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليانه من البلاد لقواد من الأتراك ولم يكن لهما استقلال سياسي بل كان أمر بني بويه فوقهما وكانا يذكران اسم معز الدولة في الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسي

لم يمكث المستكفي في الخلافة بعد استيلاء معز الدولة إلا أربعين يوماً وخلع لأن معز الدولة اتهمه بالتدبير عليه فصمم على خلعته في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ حضر عند الخليفة وحضر الناس ورسول صاحب خراسان ثم حضر اثنان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفي فظن أنهما يريدان تقييلها فدها اليهما فجذباه عن سريره وجعلاً عمامة في حلقه ونهض معز الدولة واضطربت الناس ونهبت الأموال وساق الديلميان المستكفي ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي وكانت مدة المستكفي سنة واحدة وأربعة أشهر

٢٣ - المطيع

هو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد فهو ابن عم المستكفي بويج بالخلافة ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ (٢٩ يناير سنة ٩٤٦) ولم يرل خليفة إلى أن خلع في منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣ (٧ أغسطس سنة ٩٧٤) فكانت مدته ٢٩ سنة وخمسة أشهر غير أيام ولم يكن له من الأمر شيء والنفوذ في حياته للبلوك من آل بويه وهم .

(أولاً) معز الدولة

وهو أحمد بن بويه فاتح العراق وكان أصغر إخوته وكان سلطان معز الدولة بالعراق مبدأ خرابه بعد أن كان جنة الدنيا فانه لما استقرت قدمه فيه شغب الجند عليه وأسمعوه المكروه فضمن لهم أرزاقهم في مدة ذكرها لهم فاضطر إلى ضبط الناس وأخذ الأموال من غير وجوهها وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعها التي للسلطان

وأصحاب الأملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين وزالت أيدي العمال وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف والغلاء والنهب فأخذ القواد القرى وزادت عمارتها معهم وتوفردخلها بسبب الجاه فلم يمكن معز الدولة العود عليهم بذلك وأما الاتباع فان الذي أخذوه زاد خراباً فردوه وطلبوا العوض عنه فعوضوا وترك الأجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل الكثير منها وأخذ غلمان المقطعين في الظلم وتحصيل العاجل فكان أحدهم إذا عجز الحاصل تممه بمصادراتها . ثم إن معز الدولة قد فوض حماية كل موضع إلى بعض أكابر أصحابه فاتخذه مسكناً فاجتمع إليه الاخوة وصار القواد يدعون الخسارة في الحاصل فلا يقدر وزير ولا غيره على تحقيق ذلك فان اعترضه معترض صاروا أعداء له فتركوا وما يريدون فازداد طمعهم ولم يقفوا عند غاية فتعذر على معز الدولة جمع ذخيرة تكبرن للنوائب والحوادث وأكثر من إعطاء غلبانه الأتراك والزيادة لهم في الاقطاع فحسدهم الديلم وتولد من ذلك الوحشة والمنافرة ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء بها فأكل الناس الميتة والسنانير والكلاب وأكل الناس خروب الشوك وكانوا يسلقون حبهوياً كلونه فلحق الناس أمراض وأورام في أحشائهم وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة فمات أكثرهم في الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز

فكان نظام الاقطاعات أول فساد بالعراق لأنه أضعف همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الأرض وإصلاحها وتنميتها

السبب الثاني من أسباب الفساد اختلافان . الأول اختلاف عنصرى بين الأجناد فانهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك وبين العنصرين غيرة ومنافسات فكان بينهما في أكثر الأحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس حيث تقف حركة التجارة لخوف الناس على ما يهدمهم من المال وقد كادت هذه المنازعات تؤدي سنة ٣٣٥ إلى خلع معز الدولة بيد الديلم أنفسهم فانهم لما رأوا تقدم الأتراك ثاروا به ومقدمهم قائد منهم اسمه روزبهان بن ونداد خورشيد وساعده على ذلك أخوه ولكن معز الدولة انتصر عليه بقوة الأتراك فاصطنعهم دون الديلم وأمر بتوبيخ الديلم والاستطالة عليهم ثم أطلق للأتراك إطلاقاً زائدة على

واسط والبصرة فساروا لقبضها مدلين بما صنعوا فأخربوا البلاد ونهبوا الأموال وصار ضررهم أكبر من نفعهم . وأما الاختلاف الثاني فهو اختلاف ديني تأججت ناره ببغداد نفسها وبما جاورها من بلاد العراق فقد كان أهل بغداد قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون الشيخين أبا بكر وعمر على سائرهم ولا يقدرحون في معاوية ولا غيره من سلف المسلمين فلما جاءت هذه الدولة وهي متشعبة غالية نما مذهب الشيعة ببغداد ووجد له من قوة الحكومة أنصارا فقد كتب على مساجد بغداد سنة ٣٥١ ماصورته (لعن الله معاوية ابن أبي سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفي أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى) والخليفة كان محكوما عليه لا يقدر على المنع وأمامعز الدولة فبأمره كان ذلك فلما كان الليل حلك بعض الناس فأراد معز الدولة إعادته فأشار عليه وزيره أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما حى لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحدا في اللعن إلا معاوية ففعل ذلك

وفي سنة ٣٥٢ أمر معز الدولة عاشر المحرم أن يغلقوا دكا كينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا الناحية ويلبسوا قبايا عموها بالمسوح وأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن في البلد بالأنواع ويلطمن وجوههن على الحسين بن على رضى الله عنهما ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنية قدرة على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم

وفي ثامن عشر ذى الحجة أمر معز الدولة باظهار الزينة في البلد وأشعلت النيران بمجلس الشرطة وأظهر الفرح وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالى الأعياد فعلى ذلك احتفالا بعيد الغدير يعنى غدیر خم وهو الموضوع الذى يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه عن على من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . وضربت الدبابد والبوقات وكان يوما مشهودا

وبهذا الانقسام صارت بغداد وبلاد فارس والرى ميدانا للاضطرابات المتكررة بين العامة والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر وهو الأكثر عددا ومن المعلوم أن جميع العداوات يمكن تلافيها فيهمون امرها ماعدا

مامنشؤه الدين منها وأعظمها شدة ما كان بين فرقتين من دين واحداً فإنها يشتد توجهها إذ وجدت محضاً يحركها لغاياتها ولا أشد من يد السلطان في تحريكها فإذا لعبت فيها أصعبه ماج الناس وهاجوا وأثر ذلك في الأحوال العامة أسوأ تأثير ولا يزول ذلك إلا بعد أن ينغرس في نفوس الناس حرية الدين والعقيدة ولم يكن ثم سبيل إلى ذلك لأن إحدى الفرقتين تحترم شخصاً والأخرى تلغنه فأنى تتفقان

ومع ما أدت إليه سياسة معز الدولة من هذا الفساد كانت هناك أمور أخرى تشغل باله في شمالي بلاده وجنوبيها أما في الشمال فناصر الدولة بن حمدان بالموصل وكان الرجلان يتنازعا على السلطان وكل يريد الاغارة على ما يبد الآخر

ففي السنة الأولى لولاية معز الدولة جاء ناصر الدولة واستولى على الجانب الشرقي من بغداد وكاد أمر معز الدولة يضمحل لولا أن استعمل الخيلة التي خدع بها ناصر الدولة وهزموه فجاء الديلم ونهبوا أموال الناس فكان مقدار ما غنموه من أموال الناس المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف ألف دينار وقتلوا كثيراً ممن اتهموه. واضطر ناصر الدولة أن يطلب من معز الدولة الصالح على مال يؤديه عما تحت يده من البلاد فقبل ذلك معز الدولة

وفي سنة ٣٣٧ سار معز الدولة إلى الموصل مريراً الاستيلاء عليها فسار عنها ناصر الدولة إلى نصيبين فدخلها معز الدولة وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا فكرهه الناس وكان من غرضه أن يستولى على جميع ما بيد ناصر الدولة من البلاد ولكن بلغه من أخيه ركن الدولة أن جيوش السامانية خرجت تريد الاستيلاء على جرجان والرى وطلب منه الممدد فاضطر إلى مصالحة ناصر الدولة فترددت بينهما الرسائل واستقر الأمر على أن يؤدي ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام في كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم ويخطب في بلاده لأولاد بويه الثلاثة وإذ ذلك رجع معز الدولة إلى بغداد

ولما قامت فتنة رزبهان الديلي على معز الدولة أراد ناصر الدولة إعادة الكرة على بغداد فسير إليها أحد أولاده في جيش ولكنه لم يتمكن من أراد فلما انتصر معز الدولة على خصمه ولى وجهه شطر الموصل للانتقام من ناصر الدولة فراسله ناصر الدولة يطلب الصلح على مال ضمنه فقبل ولكن ناصر الدولة لم يف بما ضمن فسار

إليه معز الدولة سنة ٣٤٧ فلما قارب الموصل سارعها ناصر الدولة إلى نصيبين فاستولى عليها معز الدولة ثم سار إلى نصيبين فقارقتها ناصر الدولة إلى ميفارقين فاستولى عليها معز الدولة

ولما رأى ناصر الدولة ما صار إليه سار إلى أخيه سيف الدولة بحلب فلقبه أخوه وبالغ في إكرامه وراسل معز الدولة في طلب الصلح فامتنع معز الدولة من تضمين ناصر الدولة لآخلافه مرة بعد أخرى فضمن سيف الدولة البلاد منه بألف ألف درهم وتسعمائة ألف درهم وكان ذلك في محرم سنة ٣٤٨

ولمّا أوجب معز الدولة إلى الصلح لأنه ضاقت عليه الأموال وتقاعد الناس عن حمل الخراج واحتجوا بأنهم لا يصلون إلى غلاتهم وطلبوا الحماية من العرب أصحاب ناصر الدولة فاضطر بسبب ذلك إلى الانحدار وأجاب إلى الصلح وانحدر إلى بغداد وعاد ناصر الدولة إلى الموصل ومع كل هذا لم تهدأ الحروب بين هذين الطرفين فاشتغلا بها عن كل مصلحة وكان ذلك سبباً فيما يأتي ذكره من الضعف أمام الروم لم يكن هذا وحده الذي يشغل معز الدولة بل كان له في الجنوب أيضاً مشاغل كبرى فقد كان بالبصرة أبو القاسم البريدي أميراً عليها باسم معز الدولة ولكن نفسه كانت تطمح للاستقلال بها وأليرسل إلى معز الدولة خراجاً فكان معز الدولة يرسل إليه الجيوش والبريدي يرسل مثلها فيحصل القتال بين الطرفين

وفي سنة ٣٣٦ عزم معز الدولة أن يسير إلى البريدي بنفسه فسار إليه سالكا البرية فأرسل إليه القرامطة ينكرون عليه مسيره إلى البرية بغير إذنه فلم يجبههم على كتابهم وقال من هؤلاء حتى يستأمروا ولما وصل إلى الدرهمية استأمن إليه كثير من عسكر البريدي وهرب هو إلى هجر والتجأ إلى القرامطة وملك معز الدولة البصرة

وكانت نتيجة ما فعله مع القرامطة والاستهانة بهم أن جاءوا إلى البصرة سنة ٣٤١ ومعهم أمير عمان من البحر ولكن البصرة قاومتهم بفضل الوزير المهلبي وزير معز الدولة

وفوق هذا فقد حدثت قوة جديدة زادت متاعبه ومشاغله وهي قوة عمران بن شاهين وكان في أول أمره جانياً نجياً جبايات ثم هرب إلى البطيحة وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة فاتفق في أيام

كسرى ابرويز أن زادت دجلة زيادة مفرطة وزاد الفرات أيضا بخلاف العادة فعجز عن سدها فتبطح الماء في تلك الديار والعمارات والمزارع فطرد أهلها عنها فلما نقص الماء وأراد العمارة أدر كته المنية ولم يفعل من بعده شيئا ثم جاء الاسلام فاشتغلوا بالحروب والجللاء ولم يكن للمسلمين إذ ذاك دراية بعمارة الأرضين فلما ألفت الحروب أوزارها واستقرت الدولة الاسلامية في قرارها استفحل أمر البطائح وفسدت مواضع البثوق وتغلب الماء على النواحي ودخلها العمال بالسفن فرأوا فيها مواضع عالية لم يصل الماء إليها فبنوا فيها قرى وسكنها قوم وزرعوها الأرز . جاء عمران إلى هذه البطائح خوفا من السلطان وأقام بين القصب والآجام متحصنا بها واقتصر على ما يصيد من السمك وطيور الماء ثم صار يقطع الطريق على من يسلك البطيحة واجتمع إليه جماعة من الصيادين وجماعة من اللصوص فقوى بهم وحى جانبه من السلطان فلما خاف أن يقبض استأمن إلى أبي القاسم البريدي فقلده حماية الجامدة ونواحي البطائح وما زال يجمع الرجال إلى أن كثر أصحابه وقوى واستعد بالسلح واتخذ معاقل على التلول التي بالبطيحة وغلب على تلك النواحي فلما اشتد أمره سير معز الدولة جيشا لمحاربه قائد وزيره أبو جعفر الصيمري فاتصر أبو جعفر انتصارا باهرا وكاد يأخذ عمران لولا أن شغل معز الدولة بوفاة أخيه الأكبر عماد الدولة فاضطر إلى أن يأمر وزيره بقصد شيراز لاصلاحها فقارق البطيحة وكان ذلك منفسا عن عمران فزاد قوة وجراءة فأنفذ إليه معز الدولة جيشا ثانيا فكان نصيب هذا الجيش الفشل وغنم عمران ما كان فيه من السلاح فقوى وطمع أصحابه في السلطان فصاروا إذا اجتاز بهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه البذرة والخنارة فان أعطاهم وإلا ضربوه وكان الجند لا بد لهم من العبور عليهم إلى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة وغيرها ثم انقطع الطريق إلى البصرة إلا على الظهر فشكا الناس ذلك إلى معز الدولة فكتب إلى وزيره المهلبى بالمسير إلى واسط وأمدته بالجيش فزحف إلى البطيحة وضيق على عمران فاتتهى إلى المضائق التي لا يعرفها إلا هو وأصحابه فهجم عليهم المهلبى وكان عمران قد جعل الكنء في تلك المضائق فلما تقدم المهلبى خرج عليه وعلى أصحابه الكنء ووضعوا فيهم السلاح فقتلوا وأغرقوا وأسروا وألقى المهلبى نفسه في الماء فنجح سباحة وأسر عمران القواد والآكبر فاضطر معز الدولة إلى

مصالحته وإطلاق من عنده من أهل عمران وإخوته فأطلق عمران من في أسره من أصحاب معز الدولة وقلده معز الدولة البطائح فقوى واستفحل أمره وقد استمر ملك عمران بن شاهين بالبطيحة من سنة ٣٢٩ إلى سنة ٣٦٩ أي أربعين سنة كان فيها شجافى حلق بنى بويه لا يقدرون منه على شيء وانتقل الملك منه إلى أعقابيه وهو اليهم إلى سنة ٤٠٨ وهذا ثبتهم

- | | |
|-----------|--|
| ٣٦٩ - ٣٢٩ | (١) عمران بن شاهين |
| ٣٧٢ - ٣٦٩ | (٢) الحسن بن عمران |
| ٣٧٣ - ٣٧٢ | (٣) أبو الفرج بن عمران |
| ٣٧٣ - ٣٧٣ | (٤) أبو المعالي بن الحسن بن عمران |
| ٣٧٦ - ٣٧٣ | (٥) المظفر بن علي وزير عمران وابنه الحسن بالتغلب |
| ٤٠٨ - ٣٧٦ | (٦) مهذب الدولة أبو الحسن علي بن نصر بن أخت المظفر |
| ٤٠٨ - ٤٠٨ | (٧) أبو الحسين بن مهذب الدولة |
| ٤٠٨ - ٤٠٨ | (٨) عبد الله بن نسي بالتغلب |

ثم صارت البطيحة متغلبا لكثير من الأقوياء يتلقاها أحدهم عن الآخر بطريق التغلب والقوة إلى انتهاء الدولة السلجوقية فعادت إلى خلفاء بغداد لم يكن عهد معز الدولة ببغداد إلا إشراكه من جراء الاختلافات والحروب الداخلية والخراب وضعف هيئة السلطان. ولما أحس بقرب منيته وصى ولده بختيار بطاعة عمه ركن الدولة واستشارته في كل ما يفعل وبطاعة عضد الدولة ابن عمه لأنه أكبر منه سناً وأقوم بالسياسة. ثم أدر كته منيته في ١٣ ربيع الآخر سنة ٣٥٦ وبما حصل من حوادث أهل بيته في عهده وفاة عمه عماد الدولة علي بن بويه سنة ٣٣٨ باصطخر ولما لم يكن له ولد ذكر طلب من أخيه ركن الدولة أن يرسل إليه ابنه فناخسرو الملقب بعضد الدولة فأجابه فولاه عهده ولما توفي قام عضد الدولة بأمر فارس من بعده وانتقلت إمرة الأمراء إلى أخيه ركن الدولة الحسن

(ثانياً) عز الدولة بختيار

وهو ابن معز الدولة أحمد بن بويه ولي العراق بعد وفاة أبيه واستمر في سلطانه

إلى أن خلعه ابن عمه عضد الدولة سنة ٣٦٧ فكانت مدته ١١ سنة قضى منها سبع سنين في خلافة الفضل المطيع وكانت البلاد في سلطانه أسوأ حالا منها في سلطان أبيه فانه اشتغل باللهو واللعب وعشرة النساء والمغنين وشرع في إيجاش كاتبى أبيه أبي الفضل العباس بن الحسين وأبي الفرج محمد بن العباس مع أن أباه أوصاه بتقريرهما لكفائتهما وأماتهما وأوحش سبكتكين أكبر القواد فلم يحضر داره ونفى كبار الديلم شرها إلى اقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم فاتفق أصاغرهم عليه وطلبوا الزيادات فاضطر إلى مرضاتهم واقتدى بهم الأتراك فعلبوا مثل ذلك ولم يتم له على سبكتكين ما أراد من اغتياله لاحتياطه واتفاق الأتراك معه وخرج الديلم إلى الصحراء وطلبوا بختيار باعادة من سقط منهم فاحتاج أن يجيهم إلى ما طلبوا وفعل الأتراك أيضا مثل فعلهم وفي أول عهده قبض أولاد ناصر الدولة بن حمدان ملك الموصل على أبيهم واستقر في الأمر منهم ابنه أبو تغلب وضمن البلاد من عز الدولة بألف ألف وماتى ألف درهم كل سنة وكذلك مات سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان صاحب حلب وقام مقامه ابنه أبو المعالي شريف . ومات كافور الأخشيدى صاحب مصر سنة ٣٥٦ وبموته اضطرب أمرها وتمهأت الفرصة للفاطميين . ومات وشمكير بن زيار وهو يحارب ركن الدولة على بلاد الرى يريد استردادها منه وقام بأمر ملكه بعده ابنه بيستون ابن وشمكير سنة ٣٥٧ ومات أيضا تقفور الذى ملك الروم وهدد الثغور الشامية والجزرية وأذاقها الوبال

حال الثغور الإسلامية في عهد المطيع

كانت الثغور الإسلامية لذلك العهد في حوزة سيف الدولة على بن حمدان الذى كان متغلبا على حلب والعواصم وديار بكر فكان هو الذى يقوم بجمايتها ودفع العدو عنها . وكان قد ولى هذه الثغور مولاة نصرنا فكانا يتناوبان الغزو ولكن لم تكن بهما الكفاية لمقاومة العدو كانت الخلافة الكبرى تتحدله وتهتم أعظم الاهتمام بأمره في سنة ٣٣٧ سار سيف الدولة بنفسه إلى بلاد الروم فلقوه فاقتلوا فكانت عليه وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس . وفي السنة التى تليها دخل غازيا فكان له النصر أولا ولكنه توغل في البلاد فلما أراد العودة أخذ عليه الروم المضائق

فهلك من كان معه من الجند أسرا وقتلا واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين واموالهم ونجا سيف الدولة في عدد يسير

وفي سنة ٣٤١ ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم وخرّبوا المساجد وفي سنة ٣٤٣ غزا سيف الدولة البلاد الرومية وكان له بها نصر عظيم وقتل في تلك الواقعة قسطنطين بن الدمستق وقد عظم مقتله على أيه فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور فسار إليه سيف الدولة فالتقوا عند الحدث في شعبان فاشتد القتال وصبر الفريقان وكانت العاقبة للمسلمين فانهزم الروم وقتل منهم ومن معهم خلق عظيم وأسروا صهر الدمستق وابن بنته وكثير من بطارقه والدمستق عند الروم الرئيس الأكبر للجيش والبطارقة قواده

وفي سنة ٣٤٥ سار سيف الدولة إلى بلاد الروم في جيوشه حتى وصل إلى خرشنة وفتح عدة حصون ثم رجع إلى أذنة فأقام بها حتى جاءه رئيس طرسوس فخلع عليه وأعطاه شيئا كثيرا ثم عاد إلى حلب فلما سمع الروم بما فعل جمعوا جمعهم وساروا إلى ميفارقين بديار ربيعة فأحرقوا سوادها ونهبوه وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا ولم يكتفوا بذلك بل ساروا في البحر إلى طرسوس فأوقعوا بأهلها وقتلوا منهم ١٨٠٠ رجل وأحرقوا القرى التي حولها. ثم غزوها مرة ثانية سنة ٣٤٨ وغزوا الرها أيضا ففعلوا بها الأفاعيل وعادوا سالمين لم يكلم أحد منهم كلاما

وفي سنة ٣٤٩ سار سيف الدولة إلى بلاد الروم في جمع عظيم فأثر فيها آثارا شديدة وفتح عدة حصون وبلغ إلى خرشنة ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأي أن ترجع معنا فلم يقبل منهم وكان معجبا برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحدا لئلا يقال إنه أصاب برأى غيره وعاد من الدرب الذي دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلا وأسرا وتخلص هو في ٣٠٠ رجل بعد جهد وهذا من سوء رأى المستبدين

وفي سنة ٣٥٠ سار قفل عظيم من أنطاكية إلى طرسوس ومعهم صاحب أنطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيه من المسلمين وقتل كثيرا منهم وأفلت صاحب

أنطاكية وبه جراحات

وفي سنة ٣٥١ غزا الهمستق عين زربة وهي من أحصن مدن الثغور فاستولى عليها وقتل أهلها ولم يرحم شيئا ولا صيدا وأفلت قليل منهم هربوا على وجوههم فأتوا في الطرقات وفتح حول عين زربة ٥٤ حصنا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان وقد حصل أن حصنا من هذه الحصون التي فتحت بالأمان أمر أهله بالخروج منه فتعرض أحد الأرمين لبعض حرم المسلمين فلاحق المسلمين غيرة فجدوا سيوفهم فاعتاظ الهمستق من ذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا ٤٠٠ رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق ولما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية . وكان صاحب طرسوس قد خرج في ٤٠٠ رجل فأوقع بهم الهمستق فقتل أكثرهم وكان صاحب طرسوس قد قطع خطبة سيف الدولة فلما رأوا ما أصابهم من الوهن أعاد أهل البلد خطبة سيف الدولة وراسلوه بذلك وراسل أهل بغراس الهمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم . وفي هذه السنة استولى ملك الروم على مدينة حلب حاضرة ملك سيف الدولة فخرج عنها سيف الدولة منهزما بعد أن قتل أكثر أهل بيته ووظف الهمستق بأموال سيف الدولة وكنوزه وأسلحته وخرب داره التي كانت بظاهر حلب وسبي من حلب وحدها بضعة عشر ألف صبي وصدية وقتل أكثر من ذلك ولما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه غنأهم أمر الهمستق باحراق الباقى وأحرق المساجد وأقام بحلب تسعة أيام ثم أراد الانصراف عنها فانصرف عازما على العودة . وظهر بذلك غلبة الروم على المسلمين إلا أن هؤلاء كانوا يغيرون أحيانا بقيادة سيف الدولة أو أحد غلبانه ولكنهم لا يؤثرون عظيم أثر

وفي سنة ٣٥٣ حصر الهمستق مدينة المصيصة ولكن أهلها أحسنوا الدفاع عنها فأحرق الروم رستاقها ورستاق أذنة وطرسوس لمساعدتهما أهل المصيصة . ثم إن إنسانا وصل إلى الشام من خراسان ومعه خمسة آلاف متطوع للجهاد فأخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم فوجدوا الروم قد عادوا فتفرق الغزاة الخراسانية في الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم إلى بلادهم . وبعد تراجع الأسعار عاد ملك الروم إلى طرسوس فحصرها وجرى بينه وبين أهلها حروب كثيرة وقام الطرسوسيون

مقاومة يحمدون عليها فحصرهم الروم ثلاثة اشهر ولم يأتهم جند يردم لا من قبل سيف الدولة ولا غيره حتى اشتد الغلاء على الروم وكثرت بينهم الوباء فاضطروا إلى الرحيل وفي سنة ٣٥٤ أبح نفقور على المصيصة بالحرب حتى فتحها عنوة ووضع السيف في أهلها فقتل منهم مئة عظيمة ثم رفع السيف عنها ونقل كل من بها إلى بلاد الروم وكانوا نحو من مائتي ألف إنسان ثم سار إلى طرسوس فحصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الأمان فأجابهم إليه وفتحوا البلد فلقبهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقي ففعلوا ذلك وساروا برا وبحرا وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا أنطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلا لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا في طاعة الملك وتنصر بعضهم . ومن غرائب العقول أن يجرى هذا كله بثغور الاسلام والخلاف والشقاق قد استحکم أمرهما بين ولاة المسلمين وأمرائهم

وفي سنة ٣٥٨ دخل ملك الروم الشام فلم يمنعه أحد فسار في البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فلنكها ونهبها وسبي من فيها ثم قصد حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهباً وتحريبا وملك ثمانية عشر منبرا فأما القرى فكثير لا يحصى وأقام في بلاد الشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويحرب ماشاء ولا يمنعه أحد إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف الروم أحيانا وأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنتت العرب من قصدهم وصار للروم هبة عظيمة في قلوب المسلمين وقد عاد ملك الروم بعد ذلك ومعه من السبي مائة ألف رأس ولم يأخذوا إلا الصبيان والصبايا والشبان فأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه

وكانت هذه الحوادث الجلى سببا لازدياد الهياج ببلاد خراسان وتنادى الناس بالنفير العام لحماية الثغور الإسلامية فتطوع منهم عشرون ألفا عليهم قائد منهم وكان فيهم أبو بكر محمد بن إسماعيل بن القفال الشاشي أحد أئمة الشافعية بما وراء النهر . ومما يحزن أن هذا الجيش المتطوع اضطر إلى المرور ببلاد الجبل التي في حوزة

ركن الدولة وهو ديلبي يكرهه أهل خراسان ويعتقدون أن الديلم هم سبب كل هذه البلايا فحصلت فتن بين المتطوعين والديلم وكانت نتيجةها أن حاربهم ركن الدولة وشتت شملهم

وفي سنة ٤٥٩ ملك الروم مدينة أنطاكية وهي حاضرة الثغور وأضخمها وأخذوا منها سببا يزيد على عشرين ألفا كلهم شباب صبيان وصبايا وأخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد ليذهبوا حيث يشاءون. ولما تم لهم ملك أنطاكية غزوا حلب وبها قرعويه السيفي غلام سيف الدولة وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة يحاربه فلما سمع بخبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليعبد عن الروم أما هؤلاء فجاءوا وحصروا البلد فتحصن قرعويه بقلعتها واستولى الروم على البلد ثم صالحهم قرعويه على مال يؤديه لهم وأعطاهم رهائن على ذلك

وفي سنة ٣٦١ أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا مثل ذلك بديار بكر ولم يكن من أبي تغلب بن حمدان في ذلك حركة ولا سعى في دفعه ولكنه حمل إليه مالا كفه به عن نفسه فسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنصرين وقاموا في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي فاستعظم ذلك الناس وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم وأنه لا مانع منهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وغلقت الأبواب وكان بختيار حينئذ يتصيد بنواحي الكوفة فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتال عمران بن شاهين (صاحب البطيحة) وهو مسلم وترك جهاد الروم ومنعهم عن بلاد الإسلام حتى توغلوها فوعدهم التجهز للغزو وأرسل الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهز وأن يستنفر العامة ففعل سبكتكين ذلك فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة وكتب بختيار إلى أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره بإعداد الميرة والعوفات ويعرفه عزمه على الغزو فأجابها باظهار السرور وإعداد ما طلب منه ثم أنفذ بختيار إلى المطيع لله يطلب منه مالا فقال المطيع إن الغزو والنفقة عليه وعلى غيره من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجي إلى الأموال وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني

شيء من ذلك وإنما يلزم من البلاد في يده وليس لى إلا الخطبة فان شئتم أن أعتزل
فعلت وترددت الرسائل بينهما حتى وصل الحال إلى تهديد الخليفة فبذل المطيع ٤٠٠
ألف درهم فاحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وشاع بين الناس من أهل
العراق وخراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر فلما قبض بختيار المال صرفه
في مصالحه وبطل حديث الغزو

وفي سنة ٣٦٢ كانت واقعة بين الدمستق وبين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان
وكان الروم يريدون الاستيلاء على آمد فاستعد له أبو تغلب وأرسل أخاه هبة الله
فواقع الدمستق في مضيق لاتبجول فيه الخيل والروم على غير أهبة فانهزموا وأسر
الدمستق ولم يزل محبوسا إلى أن مرض سنة ٣٦٣ فبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع
الأطباء له فلم ينفعه ذلك ومات

هذه كانت الحال في خلافة المطيع استرد الروم فيها جميع الثغور الإسلامية
الكبرى وصارت لهم الهبة في قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام وبنو بويه
وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضا وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون
ومما حصل في عهد المطيع من الحوادث انتقال خلفاء الفاطميين إلى مصر
بعد استيلاء جوهر الصقلي عليها وذلك سنة ٣٦١ في عهد الخليفة المعز لدين الله
معد الفاطمي .

موت المطيع

لم يكن للمطيع عمل ولا تاريخ يذكر وقد فجع فأشار عليه سبكتكين مقدم الأتراك
أن يعتزل فلم يجد من الامتثال بدا فخلع نفسه في منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣

٣٤ -- الطائع

هو أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع بن المقتدر بن المعتضد ولد سنة ٣١٧ وبويع له بالخلافة بعد خلع أبيه المطيع (١٨ أغسطس سنة ٩٧٤) واستمر خليفة إلى أن خلع في ٢١ رجب سنة ٣٨١ (٣ أكتوبر سنة ٩٩١) فكانت مدته ١٧ سنة وثمانية أشهر وستة أيام

كانت خلافة الطائع والسلطان بالعراق خمسة من بني بويه وهم :

أولاً — عز الدولة بختيار بن معز الدولة إلى سنة ٣٦٧

ثانياً — عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه إلى سنة ٣٧٢

ثالثاً — صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة إلى سنة ٣٧٦

رابعاً — شرف الدولة أبو الفوارس شيرزِيل بن عضد الدولة إلى سنة ٣٧٩

خامساً — بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة

ويعاصره في بلاد الأندلس الحكيم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٦) وهشام

ابن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩) وهو الذي كان يحجبه المنصور بن أبي عامر

وبافريقية وصقلية يوسف بن بلكين بن زيري الصنهاجي نيابة عن الفاطميين

إلى سنة ٣٧٣ وخلفه ابنه المنصور يوسف إلى سنة ٣٨٦

وبمصر والشام والحجاز المعز لدين الله معد الفاطمي إلى سنة ٣٦٥ وخلفه ابنه

العزیز بالله نزار إلى سنة ٣٨٦

وباليمن من آل زياد أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم إلى سنة ٣٧١ ثم عبد الله بن

إسحاق إلى سنة ٤٩٠

وبصنعاء من آل يعفر عبد الله بن قحطان إلى سنة ٣٨٧ وهو آخر أمراء

هذه الدولة .

وبحلب سعد الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة إلى سنة ٣٨١

وبالموصل عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة إلى سنة ٣٦٩ ثم

أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة إلى سنة ٣٨٠ وفيها انتهت

الدولة الحمدانية بالموصل وقام على أثرها الدولة العقيلية وأولها أبو الذواد محمد بن

المسيب بن رافع بن المقلد العقيلي أمير بني عقيل
وفي ديار بكر ابتدأت الدولة المروانية الكردية على أنقاض دولة بني حمدان وأول
هذه الدولة أبو علي الحسين بن مروان الذي ابتداء ملكه سنة ٣٨٠
وبخراسان وما وراء النهر الدولة السامانية وأميرها نوح بن منصور الساماني
(٣٦٦ - ٣٨٧)

وبمجران الدولة الزيدية والأمير ظهير الدولة بيستون بن وشمكير إلى سنة ٣٦٦
وخلفه شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى سنة ٤٠٣
وقد ابتدأت في أيام الطائع الدولة السبكتيكية بمدينة غزنة وجدت على أطلال
الدولة السامانية وصارت تنتقص أرضها الخراسانية التي غربي نهر جيحون وكانت
دولة الأتراك الأيلكخانية تنتقص أملاكها فيما وراء النهر. وأما بلاد فارس والأهواز
والري والجلال والعراق فهي بيد بني بويه يتناوبونها كما سيأتي توضيحه
ويعاصر الطائع بفرنسا لونار إلى سنة ٩٨٦ ثم لويز الخامس الملقب بالكسلان
إلى سنة ٩٨٧ ثم هو في كابات أول الأسرة الكاباسيانية إلى سنة ٩٩٦
وباستريا أول ملك من جماعة المارغراف وهو ليوبولد الأول كونت دوباينبرج
(٩٨٢ - ٩٩٤)

ولي الطائع وأمر بختيار مضطرب لأن الأتراك وفي مقدمهم سبكتكين قد تباعد
ما بينهم وبينه وكانت العامة من أهل السنة تنصر سبكتكين لكرهه ما كان عليه بنو
بويه من التشيع الشديد الذي كان سببا لفتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والشيعة
سفكت فيها الدماء وأحرقت الكرخ التي كانت محلة الشيعة وظهر أهل السنة عليهم
فكتب بختيار إلى عمه ركن الدولة بأصهان وإلى ابن عمه عضد الدولة يسألها أن
يساعده على الأتراك فجهز إليه ركن الدولة جنداً مع وزيره ابن العميد وأما عضد الدولة
فكان ميالاً إلى ملك العراق فترى بختيار الدوائر. كرر إليه بختيار الكتب يستغيث
به ويستحثه فلما رأى عضد الدولة أن الأمر قد بلغ بختيار ما يرجوه سار نحو العراق
ظاهرة رحمة لبختيار وباطنه إرادة الاستيلاء على العراق فسار إلى واسط ومنها إلى
بغداد فتغلب على عساكر الأتراك في ١٤ جمادى الأولى سنة ٣٦٤ ودخل بغداد
ظافراً. وكان يريد القبض على بختيار فوسوس إلى جنده أن يثوروا عليه ويشغبوا

ويطالبوه بالاموال ففعلوا ولم يكن مع بختيار مايسكتهم به وأشار عليه عضد الدولة ألا يلتفت إلى شكواهم ويغلظ في معاملتهم ففعل ذلك فاستمر هذا الحال أياما وحينئذ استدعى بختيار هو وإخوته اليه وقبض عليهم وجمع الناس وأعلمهم استعفاء بختيار عن الامارة وعجزه عنها ووعد الجنود بالاحسان إليهم وأظهر الخليفة سروره مما تم لانه كان منافيا لبختيار وقد قابله عضد الدولة بأن أظهر من رسوم الخلافة وتعظيمها ما كان قد نسي وترك وأمر بعمارة دار الخلافة والاكثر من الآلات وعمارة مايتعلق بالخليفة وحماية أقطاعه

بلغ ذلك كله ركن الدولة فاستاء منه جدا كاتبه بذلك محمد بن بقيه وزير بختيار الذي استاء أيضا مما جرى ونافر عضد الدولة وجمع الجيوش لحربه فأرسل إليه ركن الدولة يقويه على ما هو بسيله ويخبره أنه سائر بنفسه إلى العراق لاخراج عضد الدولة عنه فكان ذلك سببا لاضطراب الأمر على عضد الدولة ولم يقبل في ذلك قول قائل لانه كان يجب أخاه معز الدولة والد بختيار حبا شديدا ولما وجد ذلك عضد الدولة لم يسعه إلا إعادة بختيار إلى ملكه والمسير إلى فارس

لم يطل الأمر إلا بمقدار ماتوفى ركن الدولة سنة ٤٦٦ فاستولى ابنه عضد الدولة على ملكه بعهد منه وما عثم أن تجهز إلى بغداد وأرسل إلى بختيار يطلب منه الطاعة وأن يسير عن العراق إلى أى جهة شاء وضمن مساعدته بما يحتاج إليه من مال وسلاح فأجاب بختيار إلى ذلك وسلم إلى عضد الدولة وزيره الأمير محمد بن بقيه ثم سار حتى دخل بغداد وخطب له بها ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد ببغداد وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر بأن يلتقى ابن بقيه بين قوائم الفيلة لتقتله ففعل به ذلك وصلب على رأسه الجسر في شوال سنة ٣٦٧ وهو الذى رثاه أبو الحسين الأنبارى بقصيدته المشهورة التى أولها :

علو فى الحياة وفى الممات • لحق أنت إحدى المعجزات

استقر ملك عضد الدولة بالعراق وماعها من ملك أليه وعمه ثم سار نحو الموصل فملكها وأقام بها مطمئنا وأزال عنها الدولة الحمدانية وبت سراياه فى طلب أبى تغلب الحمدانى فهرب أبو تغلب على وجهه إلى بلاد الروم وفتحت الجنود العسدية جميع ديار بكر وديار ربيعة ثم افتتح ديار مضر إلى الرقة وجعل باقىها فى يد سعد الدولة

ابن سيف الدولة صاحب حلب وبذلك اتسعت أملاك عضد الدولة وصار له العراق والجزيرة والأهواز وفارس والجزال والرى ثم دخلت في حوزته جرجان سنة ٣٧١ أخذها من صاحبها قابوس بن وشمكير

لم يقم في آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة واقداما وكان عاقلا فاضلا حسن السياسة الاصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأى محبا للفضائل واهبا باذلا في مواضع العطاء مانعا في مواضع الحزم ناظرا في عواقب الأمور وهو الذى بنى على مدينته رسول الله صلى الله عليه وسلم سورا إلا أنه كان مع ذلك غفورا يميل إلى اللهو واللعب ومن شعره

ليس شرب الكاس إلا في المطر * وغناء من جوارى في السحر
غانيات ساليب للنهى * ناغيات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكاس من مطلعها * ساقيات الراح من فاق البشر
عضد للدولة وابن ركنها * ملك الأملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير. ومن فضله أنه كان لا يعول في أموره إلا على الكفاة ولا يجعل للشفاعات طريقا إلى معارضة من ليس من جنس الشافع ولا فيم يتعلق به. حكى عنه أن مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزيته ويعدله فقال له ليس هذا من أشغالك إنما الذى يتعلق بك الخطاب فى قائد ونقل مرتبة جندى وما يتعلق بهم وأما الشهادة وقبولها فهى إلى القاضي وليس لنا ولالك الكلام فيه ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلموا ذلك بغير شفاعة. وكان يخرج فى ابتداء كل سنة شيئا كثيرا من الأموال للصدقة والبر فى سائر بلاده ويأمر بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقه وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم إذا عملوا. أما اهتمامه بالعلم فكثير ويذكر ذلك فى تاريخ العلوم فى الدول الإسلامية

ومما يعد من سيئاته أنه أحدث فى آخر أيامه رسوما جائرة فى المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة ومنع من عمل الثلج والقز وجعل ذلك متجرا خاصا وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق. توفى عضد الدولة فى شوال سنة ٣٧٢ اجتمع القواد بعد وفاته على بيعه ابنه أبى كاليبجار المرزبان الملقب صمصام الدولة وكان إخوته وبنو أعمامه متفرقين فى الولايات فأخوه شرف الدولة شيرزىل بفارس

وعمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه بمرجان
مكث صمصام الدولة قائماً بأمر العراق واضطراب لاحق به من جراء خلاف
أخيه شرف الدولة عليه فإنه أظهر مشاقته وقطع خطبته فسير إليه جيشاً كانت
عاقبته الهزيمة

وخرجت عن يده بلاد الموصل استولى عليها الأكراد وعليهم شجاع باذن
دوستك وهو من الأكراد الحميدية وكان ابتداء أمره أنه كان يغزو كثيرًا بشغور ديار
بكر وكان عظيم الخلق وله شدة وبأس فلما ملك عضد الدولة حضر عنده ثم فاته لما
تخوف منه وذهب إلى ثغور ديار بكر وأقام بها إلى أن استفحل أمره وقوى وملك
ميفارقين وغيرها من ديار بكر بعد موت عضد الدولة ووصل بعض أصحابه إلى
نصيبين فاستولى عليها فجهز إليه صمصام الدولة العساكر فانهزمت وقوى أمر باذ وغلب
جيوش الديلم ثم سار إلى الموصل فلما حاربته وحده نفسه بالاستيلاء على بغداد وإزالة
الديلم عنها تخافه صمصام الدولة وأهمه أمره وأعد له جيشاً عظيماً مستوفى العدة فلقوه
بظاهر الموصل وهزموه هزيمة منكرة فخرج منها ثم انتهى الحال بالصلح بين الديلم
وباذ على أن يكون لباز ديار بكر والنصف من طور عبيد

كانت هذه الاضطرابات والمشاكل سبباً لأن شرف الدولة صاحب فارس تجهز
يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق فسار بجيشه سنة ٣٧٥ فاستولى على الأهواز
من يد أخيه أبي الحسن الملقب بتاج الدولة ثم سار إلى البصرة فلما بلغ خبره
صمصام الدولة فراسله في الصلح فاستقر الأمر بينهما على أن يخطب لشرف الدولة
بالعراق قبل صمصام الدولة ويكون هذا نائباً عنه فوصلح الحال واستقام وخطب
لشرف الدولة بالعراق وسيرت إليه الخلع من الطائع لله فلما وردته الرسل بذلك
ليحلفوه عاد عن الصلح وعزم على قصد بغداد والاستيلاء عليها ونفذ تلك العزيمة فلما
وصل واسط ملكها فاتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند فوقع رأيه
على اللحاق بأخيه والدخول في طاعته فسار إليه فقبض عليه شرف الدولة وسار إلى
بغداد فدخلها في رمضان سنة ٣٧٦ وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقارها
ثلاث سنين وأحد عشر شهراً

ومن أحداث هذا البيت في عهده وفاة عمه مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة صاحب

جرجان واستيلاء أخيه نضر الدولة على بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد والوزير الكبير صاحب بن عباد

ملك شرف الدولة شيرزيل بغداد بعد صمصام الدولة بستين وثمانية أشهر وقد ابتداء عهده باضطراب وفتن بين جنود الديلم والترك ببغداد أدى إلى قتال بينهم وقد بذل شرف الدولة جهده حتى أزال من بينهم الخصام . ومن فضائل شرف الدولة أنه منع الناس من السعابيات ولم يقبلها فأمن الناس وسكنوا . وكانت وفاة شرف الدولة في جمادى الآخرة سنة ٣٧٩

تولى العراق بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر . ولأول توليه تجددت الاضطرابات بين الترك والديلم وأدت إلى قتال دام خمسة أيام وانضم بهاء الدولة إلى الأتراك فاشتد الأمر على الديلم ومع ما حصل من الصلح بين الفريقين فإن الديلم قد ضعفت شوكتهم وتغلب الأتراك عليهم . وكانت بينه وبين آل بيته فتن كثيرة بسبب طمعهم فيما بيده من الملك ومحاولتهم سلبه منه ولكنهم أخفقوا

وفي سنة ٣٨١ قبض بهاء الدولة على الطائع لله وذلك أن الأموال قلت عنده فشنغ عليه الجند فأطمعه وزيره في أموال الخليفة وحسن له القبض عليه فأرسل إلى الطائع وسأله الإذن في الحضور ليجدد العهد به فأذن له في ذلك وجلس له كما جرت العادة فدخل إليه بهاء الدولة ومعه عدد كثير فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسي فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول إن الله وإنا إليه راجعون ويستغيث فلا يلتفت إليه وأخذ ما في داره من الذخائر ومن قول الشريف محمد بن الحسين الرضى في ذلك

من بعد ما كان رب الملك مبتسما * إلى أدنوه في النجوى ويدنني
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه * لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني * ياقرب ما عاد بالضراء يبكي
هيات أغتر بالسلطان ثانية * قد ضل ولاج أبواب السلاطين
ولما حمل الطائع إلى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع

٢٥ - القادر

هو أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد وأمه أم ولد اسمها دمنة بويج بالخلافة ١٢ رمضان سنة ٣٨١ (٣ أكتوبر سنة ٩٧٤) واستمر خليفة إلى أن توفى في غاية ذى الحجة سنة ٤٢٢ (١٨ ديسمبر سنة ١٠٣١) فكانت مدته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً

كان أبو العباس لما مات أبوه إسحاق بن المقتدر جرى بينه وبين أخت له منازعة في ضيعة وطال الأمر بينهما ثم إن الطائع مرض مرضاً أشقى منه ثم أبل فسعت إليه بأخيها وقالت له إنه شرع في طلب الخلافة عند مرضك فتغير رأيه فيه وأرسل في القبض عليه فلما وصلت إليه رسل الطائع خرج عن داره واستتر ثم سار إلى البطيحة فنزل على صاحبها مهذب الدولة أبي الحسن علي بن نصر صاحب البطيحة فأكرم نزله ووسع عليه وحفظه وبالغ في خدمته وكان ذلك في سنة ٣٧٩ فأقام عنده حتى قبض بهاء الدولة على الطائع فذكر من يصلح للخلافة فأجمع رأيه ورأى مستشاريه على أبي العباس فأرسل إليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضره إلى بغداد ليتولى الخلافة وشغب الديلم ببغداد ومنعوا من الخطبة فقبل على المنبر (اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله) ولم يذكروا اسمه . ولما وصلت الرسل إلى القادر بالله انحدر معهم وقام مهذب الدولة بخدمة خير قيام وحمل إليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعة فسار القادر بالله إلى بغداد فلما دخل جيل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله وساروا في خدمته فدخل دار الخلافة ثاني عشر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس وخطب له ثالث عشر رمضان والقادر هو ثالث خليفة عباسي لم يكن أبوه خليفة

معاصرو القادر من الملوك

كان الخليفة بالأندلس هشام بن الحكم الملقب بالمويد إلى سنة ٣٩٩ ثم خلفه محمد المهدي بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر إلى سنة ٤٠٣ وقد ثار عليه سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر فأخذ منه قرطبة وكانت

بينهما خطوط إلى أن قتل المهدي وانتهت مدة المستعين سنة ٤٠٨ ثم كانت البلاد الأندلسية ميدانا للنزاع بين أعقاب الأمويين والعلويين من ذرية إدريس بن عبد الله فكانت الحال هناك في اضطراب يشبه ما كان في الشرق يزيد عليه

وكان الأمير بافريقية من آل زيري النائبين عن الدولة الفاطمية المنصور بن يوسف بلسكين إلى سنة ٣٨٦ ثم ابنه باديس إلى سنة ٤٠٦ ثم المعز بن باديس إلى سنة ٤٥٣ وكان الخليفة بمصر والشام من الدولة الفاطمية العزيز بالله نزار إلى سنة ٣٧٦ ثم ابنه الحاكم بأمر الله منصور إلى سنة ٤١١ ثم ابنه الظاهر لا عزاز دين الله إلى سنة ٤٢٧ وفي عهده ابتدأت الدولة التجاحية يزيد على أطلال الدولة الزيادية وكان ابتداءؤها على يد المؤيد نجاح سنة ٤١٢ وهو مولى موالى آل زياد وأصله عبد حبشي سمعت به همته إلى أن تولى ملك تهامة اليمن وما إليها وقد استمر ملكها فيه وفي أعقابها إلى سنة ٥٥٤ وهذا ثبتهم

٤١٢ - ٤٥٢

(١) المؤيد نجاح

٤٥٢ - ٤٧٣

فترة على الداعي الصليحي

٤٧٣ - ٤٨٢

(٢) سعيد الأحوال بن نجاح

٤٨٢ - ٤٩٨

(٣) جياش بن نجاح

٤٩٨ - ٥٠٣

(٤) فاتك بن جياش

٥٠٣ - ٥١٧

(٥) منصور بن فاتك

٥١٧ - ٥٣١

(٦) فاتك بن منصور

٥٣١ - ٥٥٤

(٧) فاتك بن محمد بن فاتك

وانتمل الملك عنهم إلى الدولة المهديّة وسيأتي حديثها إذ ذاك

أما الجزيرة الفراتية وما إليها من حوض الفرات فكانت منقسمة إلى ثلاث إمارات وهي ديار ربيعة وحاضرتها الموصل وديار بكر وحاضرتها آمد وديار مصر وحاضرتها الرقة

ففي عهد القادر ظهرت الدولة العقيلية التي أسسها أبو النواد محمد بن المسيب بن رافع ابن مقلد العقيلي بالموصل ولم يكن له تمام الاستقلال بل كان معه نائب من قبل بهاء الدولة الديلمي إلا أن النفوذ الفعلي كان لأبي النواد ولم يزل كذلك حتى توفي

سنة ٣٨٦ خلفه أخوه حسام الدولة المسيب بن المقلد . وكان الاتفاق أن يتولى الموصل والكوفة والقصر والجامعين ولم يزل يليها إلى أن قتل سنة ٣٩١ خلفه ولده أبو المنيع معتمد الدولة قرواش بن المقلد ومن أهم حوادثه السياسية أنه خطب للحاكم بأمر الله العلوي صاحب مصر بأعماله كلها وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها وكان ابتداء الخطبة بالموصل (الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات العصب وانهدت بقدرته أركان النصب واطلع بنوره شمس الحق من العرب) فأرسل القادر بالله القاضي أبا بكر بن الباقلاني شيخ الأشعرية ببغداد إلى بهاء الدولة يعرفه ذلك فأكرم بهاء الدولة القاضي وكتب إلى نائبه ببغداد يأمره أن يسير لحرب قرواش فسار عميد الجيوش لحربه ولما علم بذلك أرسل يعتذر وأعاد خطبة القادر بالله وقد استمرت هذه الدولة العربية بالموصل إلى سنة ٤٨٩ وانتهت على يد السلاجقة

كما انتهت الدولة الديلمية وهذا ثبت ملوكها

- | | |
|-----------|---|
| ٣٨٦ - ٣٩١ | (١) حسام الدولة المقلد بن المسيب |
| ٣٩١ - ٤٤٢ | (٢) معتمد الدولة قرواش بن المقلد |
| ٤٤٢ - ٤٤٣ | (٣) زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد |
| ٤٤٣ - ٤٥٣ | (٤) علم الدولة أبو المعالي قرواش بن بدران بن المقلد |
| ٤٥٣ - ٤٧٨ | (٥) شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قرواش |
| ٤٧٨ - ٤٨٦ | (٦) إبراهيم بن قرواش |
| ٤٨٦ - ٤٨٩ | (٧) علي بن مسلم بن قرواش |

وفي ديار بكر ظهرت دولة الأكراد من آل مروان على يد مؤسسها أبي علي الحسن بن مروان قام بالأمر سنة ٣٨٠ بعد خاله باذ الذي قدمنا حديثه وضبط ديار بكر أحسن ضبط وأحسن إلى أهلها وألان جانبهم لهم ثم تزوج ست الناس بنت سيف الدولة ولم يزل ملكا إلى أن قتل سنة ٣٨٧ خلفه أخوه عمهد الدولة أبو منصور ابن مروان إلى أن قتل سنة ٤٠٢ فتولى بعده أخوه أبو نصر نصر الدولة أحمد بن مروان وهو واسطة عقد آل مروان فان أيامه طالت وأحسن السيرة جدا وكان مقصودا من العلماء في كافة الأقطار فكثروا ببلادهم ومن قصده أبو عبد الله الكازروني وعنه انتشر مذهب الشافعي رحمه الله بديار بكر وقصده الشعراء فأجزل

مواهبهم وبقي كذلك إلى سنة ٤٥٣ وكانت الثغور معه آمنة وسيرته في رعيته أحسن سيرة وولى بعده ابنه نظام الدولة نصر إلى سنة ٤٧٢ ثم منصور بن نصر إلى سنة ٤٨٩ وعلى يده انتهت دولتهم بملك آل سلجوق لها

أما ديار مصر فقد استولى عليها لأول عهد القادر بكجور الذي كان واليا على دمشق للعزیز بالله الفاطمی خليفة مصر وفي سنة ٣٨٧ عزله عنها فتوجه إلى الرقة فاستولى عليها وعلى الرحبة وما يجاورها ثم راسل بهاء الدولة ملك العراق في الانضمام إليه وكاتب أيضا باذ السكردى المتغلب على ديار بكر وكذلك راسل سعد الدولة ابن سيف الدولة صاحب حلب بأن يعود إلى طاعته ويعطى مدينة حمص كما كانت له فلم يجبه واحد منهم إلى شيء فبقي بالرقة يرأسل جماعة من ممالك سعد الدولة ويستميلهم فأجابوه وحينئذ أغرى العزیز بالله نزارا صاحب مصر على قصد حلب فأجابه وأرسل إليه العساكر تصرف بأمره ولكنه لم ينجح لأن سعد الدولة استعان عليه بوالي أنطاكية الرومي وبالغرب الذين مع بكجور فكانت النتيجة فشل بكجور وقته ثم سار سعد الدولة إلى الرقة فاستولى عليها من وزير بكجور وأخذ أولاد بكجور وأمواله ثم إن سعد الدولة هلك بعقب ذلك فأرسل أهل الرحبة إلى بهاء الدولة يطلبون إليه أن ينفذ من يتسلم بلدهم فأنفذ لهم أميرا تسليها ولم يتمكن من الاستيلاء على الرقة ولم تمكك الحال على ذلك كثيرا فان البلاد انتقلت إلى حوزة العلويين أصحاب مصر وصار يخطب لهم بالرقة والرحبة إلا أن سلطانهم كان اسميا والنفوذ إلى رؤساء القبائل المضرية فكان فيها أولا أبو علي بن شمال الحفاجي ثم استولى عليها عيسى ابن خلاط العقيلي ثم صار أمرها إلى صالح بن مرداس السكلابي وكان محسنا للرعية ويدعو للعلويين

أما حلب فكان السلطان بها لأول عهد القادر بالله لسعد الدولة بن سيف الدولة ابن حمدان وكان قد عصى عليه بكجور الذي تقدم ذكره وهو أحد ممالك أيه وغزاه من الرقة بعساكر خليفة مصر العلوي ولكنه لم يفلح وقتل كما قدمنا وتسبب عن ذلك ان سعد الدولة أراد أن يقصد دمشق ليأخذها من يد العزیز بالله فبات عقب خروجه سنة ٣٨٢ وعهد لابنه أبي الفضائل وأوصى به لؤلؤا أحد ممالك أيه سيف الدولة فلما توفي سعد الدولة قام ابنه مقامه وأخذ له لؤلؤا العهد على الأجناد

كان خليفة مصر لا يزال يتطلع إلى الاستيلاء على حلب فسير إليها جيشا من دمشق عليه منجوتكين أحد أمرائه ولما كانت عساكره كثيرة ولا قبل لؤلؤ بمقاومتها استنجد بملك الروم بسيل فأرسل إلى نائبه أنطاكية يأمره أن يجند أبا الفضائل فسار إليه بحلب حتى نزل على الجسر الجديد بالعاصي . ولما سمع منجوتكين الخبر سار إلى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل وعبر إليهم العاصي وأوقع بهم وقعة شنيعة وسار إلى أنطاكية فنهب بلدها وقراها وأحرقها . وأنفذ أبو الفضائل إلى بلد حلب فنقل ما فيه من الغلال وأحرق الباقي إضرارا بعساكر مصر . وعاد منجوتكين إلى حلب فحصرها فأرسل لؤلؤ إلى رؤساء المصريين يبذل لهم ما لا يريدوا منجوتكين عنهم هذه السنة بعلّة تعذر الأقوات ففعلوا ذلك وكان منجوتكين قد ضجر من الحرب فأجابهم وعاد إلى دمشق ولكن ذلك لم يعجب العزيز بالله وكتب بإعادة الكرة على حلب وأرسل الأقوات من مصر إلى طرابلس بحراً ومنها إلى العسكر فنازل المصريون حلب وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهرا فقلت الأقوات بحلب وعاد لؤلؤ إلى مراسلة ملك الروم معتضدا به وقال له متى أخذت حلب أخذت أنطاكية وعظم عليك الخطب فجاء ملك الروم منجدا له فلما علم منجوتكين بقرب وروده سار عن حلب فجاء ملك الروم فنزل عليها وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ . ثم سار بسيل إلى الشام ففتح حمص وشيزر ونهبها وسار إلى طرابلس فنازلها فامتعت عليه وأقام عليها نيفا وأربعين ليلة ولما أيس منها عاد إلى بلاده . ولما علم العزيز بذلك الأخبار عظم الأمر عليه ونادى في الناس بالنفير لغزو الروم فحال موته دون ذلك

لم يزل الأمر لأبي الفضائل حتى سنة ٤٠٢ حيث غزاه صالح بن مرداس الكلبي وكان السلطان الحقيقي في حلب لؤلؤ وكان يخطب باسم الحاكم بأمر الله العلوي بمقتضى اتفاق عقدين الطرفين بعد الحوادث المتقدمة . غزاه صالح وبنو كلاب وغلبوه وأخذوه أسيرا ولكن صالحا أطلقه مقابل مائتي ألف دينار ومائة ثوب وإطلاق كل أسير عنده من بني كلاب . ثم إن غلاما لابن لؤلؤ كان يتولى القلعة غدر به وكتب الحاكم بأمر الله وأظهر طاعته وأظهر العصيان لأستاذه ففرج ابن لؤلؤ من حلب إلى صاحب أنطاكية فأقام عنده وصارت حلب من البلاد التابعة لصاحب مصر يتناوبها نواب يرسلهم من قبله حتى صارت بيد إنسان من الحمدانية يعرف بعزيز

الملك قدمه الحاكم واصطنعه وولاه حلب ولما مات الحاكم وولى الظاهر عصى عليه فوضعت ست الملك أخت الحاكم فراشاه على قتله فقتله

وفي سنة ٤١٤ اتفق ثلاثة من أمراء العرب وهم حسان أمير طي وصالح بن مرداس أمير بني كلاب وسانان بن عليان على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح بن مرداس ومن الرملة إلى مصر لحسان ودمشق لسنان . فقصده صالح حلب فاستولى عليها من يد عامل المصريين وكان الخليون يحبون صالحا لاحسانه إليهم ولسوء سيرة أمراء العلويين معهم فملك من بعلبك إلى عانة وأقام بحلب ست سنين وفي سنة ٤٢٠ جهز الظاهر صاحب مصر جيشا سيره إلى الشام لقتال صالح وحسان وكان مقدم الجيش أنوشتكين البربري والالتقاء عند طبرية فقتل في الموقعة صالح وابنه ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح فجاء إلى حلب وملكها وكان يلقب بشبل الدولة وقد استمرت الدولة المرداسية بحلب إلى سنة ٤٧٢ وهذا ثبت ملوكها

(١) صالح بن مرداس ٤١٤ — ٤٢٠

(٢) شبل الدولة أبو كامل نصر ٤٢٠ — ٤٢٩

الفاطميون ٤٢٩ — ٤٣٤

معز الدولة أبو علوان طمل بن صالح ٤٣٤ — ٤٤٩

الفاطميون ٤٤٩ — ٤٥٢

رشيد الدولة محمود بن شبل الدولة ٤٥٢ — ٤٥٣

معز الدولة (ثانيا) ٤٥٣ — ٤٥٤

أبو ذؤابة عطية بن صالح ٤٥٤ — ٤٥٤

رشيد الدولة (ثانيا) ٤٥٤ — ٤٦٨

جلال الدولة نصر بن رشيد الدولة ٤٦٨ — ٤٦٨

أبو الفضل سابق بن رشيد الدولة ٤٦٨ — ٤٨٢

وهذا آخرهم وقد انتهى أمرهم على يد الدولة العقيلية التي تقدم ذكرها

في المشرق

كانت المملكة السامانية بما وراء النهر بخراسان تنهار قواعدها وتزلزل جوانبها .

كان أمير هانوح بن منصور وقد نشأ بالشرق دولة تركية صاحب الأمر فيها شهاب الدين هارون بن سليمان بن أيلك خان المعروف ببغراخان وكانت دولته غضة جديدة أمام دولة رثت بكثرة الاختلاف ففي سنة ٣٨٣ غزا بغراخان نوحا في بخارى بمساعدة أبي الحسن سمجور أمير خراسان لنوح وكان القصد أن يملك الأول ما وراء النهر كله والثاني إقليم خراسان فسار بغراخان نحو بخارى واستولى على بلادها شيئا بعد شيء . ثم نازل بخارى فاختم نوح وملكها بغرا ونزلها وخرج منها نوح مستخفيا فعبر النهر إلى آمد وأقام بها ولحق به أصحابه يريد إعادة الكرة على بخارى وصادف أن أصاب بغراخان مرض ثقيل اضطر بسببه للاتصال نحو بلاده وبينما هو سائر أدركه أجله ولما سمع نوح بذلك عاد إلى در املسك وولى الترك بعد بغراخان ابنه أيلك خان — ثم مات بعقب ذلك نوح سنة ٣٨٧ وخلفه ابنه منصور وبإيعه الأمراء والقواد

ولما بلغ أيلك خان وفاة نوح سار إلى سمرقند وسير الجنود لأخذ بخارى يقدمها فائق أحد القواد السامانية قبلا فاستولى عليها ولكنه اتفق مع منصور بن نوح أن يكون اسم الملك لمنصور والسلطان لفائق فاستمرت الحال على ذلك إلى أن اتفق فائق وبكتوزون قائد الجنود السامانية على القبض على منصور فقبضا عليه وأقاما مقامه أخاه عبد الملك وهو صبي صغير وأعقب ذلك موت فائق وهو مدير الأمر فارتبك أمرهم وكان نجم الدولة السبكتيكية قد بزغ بخراسان فسار أيلك خان إلى بخارى وأظهر لعبد الملك المودة والموالة والحمية له فظنوه صادقا ولم يحتسوا منه وخرج إليه بكتوزون وبقية الأمراء فلما اجتمعوا قبض عليهم وسار حتى دخل بخارى يوم الثلاثاء عاشر ذى الحجة سنة ٣٨٩ فلم يدر عبد الملك ما يصنع فاختم ففزله أيلك دار الامارة وبث الطلب والعيون على عبد الملك حتى ظفر به فأودعه بافكند فمات بها وهو آخر ملوك الدولة السامانية وانقضت بهوت دولتهم كأن لم تغن بالأمس . وكانت هذه الدولة قد انتشرت ودخلت في حوزتها من حدود حلوان إلى بلاد الترك بمساوراء النهر وكانت من الدول العلمية الكبرى ولم يزل أمرهم على سداد حتى ظهرت دولة الترك الايكخانبة فأخذت منهم ولايات ماوراء النهر وظهرت دولة ابن سبكتكين فأخذت منهم خراسان

الدولة السبكتيكية :

من ضمن أعمال الدولة السامانية غزنة وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند ويلفظها الخاصة غزنين وكان صاحب جيشها إسحاق بن البتكين وكان من ضمن غلبانه سبكتكين وهو المقدم عنده وعليه مدار أمره قدم بخارى أيام الأمير منصور بن نوح مع أستاذه إسحاق فعرفه أرباب تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأي والصرامة وعاد معه إلى غزنة فلم يلبث إسحاق أن توفي فاجتمع جنده على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكان خلال الخير فيه فوليه وأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال وكان يدخر من أقطاعه ما يعمل منه طعاما لهم في كل أسبوع مرتين وكان جنده يطيعونه طاعة تامة فغزا بهم ماجاوره من بلاد الهند حتى خافه ملوك تلك البلاد ثم استولى على مدينة بست وقصدار ولما رأى ملك الهند جييال مادهاه وأن بلاده تملك من أطرافها حشد جموعه وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين فخرج هذا إليه من غزنة وأوقع به وقعة شنيعة على حدود بلاده فأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يطلب صلحه فأجابه إلى ذلك على ما يؤديه إليه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها إليه واستقر الأمر على ذلك ولما أبعده ملك الهند ورأى نفسه في مأمن خاس بعهده فسار سبكتكين نحوه حتى ورد لفان وهي من أحسن قلاعهم فافتحها عنوة وهدم بيوت الأصنام وأقام فيها شعار الإسلام ولما علم بذلك جييال حشد الجيوش مرة ثانية لحرب سبكتكين فكان نصيبه الفشل والهزيمة فقوى سبكتكين بهذا الانتصار وأطاعه من أجله الأفغان والخلج وفي سنة ٣٨٤ لما ثارت الفتن والقلاقل بالبلاد الخراسانية رأى الأمير نوح بن منصور أن بكل أمرها إلى سبكتكين ليكسر من جناح قواده الذين جاهاوا بعصيانه فكتب إليه وهو بغزنة يطلعه على الأحوال ويأمره بالمسير إليه لينجده وولاه خراسان فأجاب إلى ذلك سبكتكين وجمع العساكر وحشدتها ولما بلغ قائد نوح الخبر وهما فائق وأبو علي بن سيمجور راسلا نخر الدولة بن بويه يستنجده ويطلبان منه عسكريا فأجابهما إلى ذلك وسير إليهما عسكريا كثيرا وكانت

الواقعة بين هذين الجيشين بنواحي هراة فكان الظفر لسبكتكين ثم سار نحو نيسابور التي انهزم إليها أبو علي وفاق فلما علما بالخبر سارا نحو جرجان واستولى نوح بن منصور بمعونة سبكتكين وجيشه على خراسان فولاه محمود بن سبكتكين وسماه سيف الدولة ولقب أباه ناصر الدولة فأحسن السيرة وأقام محمود بنيسابور وعاد نوح إلى بخارى وسبكتكين إلى هراة

لما علم أبو علي بمبارحة سبكتكين ونوح نيسابور طمع في استردادها فقدم إليها ومعه فاتق نخرج إليهما محمود وقتلها ولما كانت رجاله قليلة لم تمكنه المقاومة فانهزم عنهما قاصدا أباه فلما استقر هذا الخبر عند سبكتكين جمع الجند وأتى عمدا لابنه فقتلته جنوده مع جنود أبي علي بنواحي طوس فانهزم أبو علي هزيمة متكررة ولم يرتفع له بعد ذلك ذكر وصفت خراسان لسبكتكين

وفي سنة ٣٨٧ توفى سبكتكين بين بلخ وغزنة ودفن بغزنة بعد ملك دام عشرين سنة وكان عادلا خيرا كثير الجهاد ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء وعهد بالملك من بعده لابنه إسماعيل وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعفه الجند وأرسل إليه محمود من نيسابور يقول له إن أباك إنما عهد إليك لبعدي عنه وذكره مايتعين من تقديم الكبير على الصغير ويطلب منه الوفاق وإنفاذ مايتخصه من تركة أبيه فلم يفعل وكان ذلك داعيا إلى أن محمودا قصده بغزنة واستولى عليها ولكنه عامل أخاه معاملة كريمة ولما تم له أمر غزنة واستقام له الملك عاد إلى بلخ ومحمود هذا هو ثالث آل سبكتكين وواسط عقدهم لقبه الخليفة القادر يمين الدولة . وكانت هناك بعض مناوشات بينه وبين قواد السامانية انتهت بالنصر والتمكين له في خراسان فأزال عنها اسم السامانية وخطب للقادر بالله سنة ٣٨٩ وجعل أخاه نصرا قائدا لجند نيسابور وسار هو إلى بلخ فاتخذها دار ملك له واتفق أصحاب الأطراف على طاعته

كان عهد محمود عهد ارتفاع وقوة فوسع أملا كما فقد كانت في الأصل بلاد غزنة ثم انضم إليها بلاد الغور وهي جبال وولاية بين هراة وغزنة وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروز كوه . ثم أدخل جزءا عظيما من بلاد الهند تحت سلطانه حتى وصل إلى قشمير فأسلم صاحبها على يده وأسلم كذلك كثير من ملوك الهند وقد عبر نهر الكنج في فتوحاته . ومن الجهة الأخرى ضمت إليه خراسان والرى والجبال ودانت له ملوك

طبرستان وجرجان ولم يزل في عزه وسلطانه إلى ان أدركته الوفاة سنة ٤٢١ وعهد بالملك من بعده لابنه محمد وكان أصغر من مسعود ولقب بجلال الدولة إلا أن ذلك لم يرق لأخيه مسعود فسار إليه وأخذ الملك منه وتوفى القادر بالله والملك في آل سبكتكين لمسعود بن محمود بن سبكتكين وقد استمرت الدولة في أعقاب هذا البيت إلى سنة ٥٨٢ وهذا ثبت ملوكها

- | | |
|-----------|---|
| ٣٨٧ - ٣٦٦ | (١) سبكتكين |
| ٣٨٨ - ٣٨٧ | (٢) إسماعيل بن سبكتكين |
| ٤٢١ - ٣٨٨ | (٣) يمين الدولة محمود بن سبكتكين |
| ٤٢١ - ٤٢١ | (٤) جلال الدولة محمد بن محمود |
| ٤٣٢ - ٤٢١ | (٥) ناصر دين الله مسعود بن محمود |
| ٤٤٠ - ٤٣٢ | (٦) شهاب الدولة مودود بن مسعود |
| ٤٤٠ - ٤٤٠ | (٧) مسعود بن مودود |
| ٤٤٠ - ٤٤٠ | (٨) بهاء الدولة أبو الحسن علي بن مسعود بن محمود |
| ٤٤٤ - ٤٤٠ | (٩) عز الدولة عبد الرشيد بن محمود |
| ٤٥١ - ٤٤٤ | (١٠) جمال الدولة فرخزاد بن مسعود بن محمود |
| ٤٩٢ - ٤٥١ | (١١) ظهير الدولة إبراهيم بن عبد الرشيد |
| ٥٠٨ - ٤٩٢ | (١٢) علاء الدولة مسعود بن إبراهيم |
| ٥٠٩ - ٥٠٨ | (١٣) كمال الدولة شيرزاد بن مسعود |
| ٥١٢ - ٥٠٩ | (١٤) سلطان الدولة ارسلان بن مسعود |
| ٥٤٨ - ٥١٢ | (١٥) يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود |
| ٥٥٥ - ٥٤٧ | (١٦) معز الدولة خسرو شاه بن بهرام شاه |
| ٥٨٢ - ٥٥٥ | (١٧) تاج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه |

وكان انقضاء هذه الدولة على يد الدولة الغورية

كان بجرجان من الدولة الزيدية شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى سنة ٤٠٣ ثم فلك المعالي منوهر بن بستون بن وشمكير إلى سنة ٤٢٠ ثم أنوشروان بن قابوس إلى سنة ٤٣٤ وهو الذي انتهى على يده ملك أهل بيته على يد الدرلة الغزنوية .

أما السلطان ببلاد العراق فكان لأربعة ملوك من آل بويه يتلو أحدهم الآخر الأول بهاء الدولة أبو نصر عضد الدولة وهو الذى ولى القادر الخلافة وكان عهده عهد اضطراب بينه وبين أهل بيته فأضعف ذلك من سلطانه وآذن البيت كله بالانحلال وكانت وفاته سنة ٤٠٣ ء وكان فى سلطانه العراق والأهواز وفارس وكرمان

الثانى سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة ولم يكن عهده أحسن من عهد أخيه بل كان عهد ضعف واستكاثة فان جنده ما كانوا يطيعونه وكثيرا ماشغبوا عليه يطلبون منه طلبات لا يقدر عليها وكان ذلك سبباً لقيام أخيه وهو :

الثالث شرف الدولة أبو على بن بهاء الدولة قام على أخيه وانتزع منه ملك العراق فخطب له ببغداد فى آخر المحرم سنة ٤١٢ ء ونفى سلطان الدولة عن العراق فذهب إلى بلاد فارس وضبطها ثم اصطلح الأخوان على أن يكون لشرف الدولة العراق ولسلطان الدولة فارس وكرمان إلا أن مدة سلطان الدولة لم تطل فانه توفى سنة ٤١٥ ء بشيراز وخلفه ابنه أبو كاليبجار وفى ربيع الأول سنة ٤١٦ ء توفى شرف الدولة وكان كثير الخير قليل الشر عادلاً حسن السيرة

الرابع جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة خطب له ببغداد بعد وفاة أخيه وكان إذ ذاك بالبصرة والياً عليها وطلب إلى بغداد فلم يصعد إليها وإنما بلغ واسطا وأقام بها ثم عاد إلى البصرة فقطعت خطبته وخطب لابن أخيه أبى كاليبجار بن سلطان الدولة الذى كان صاحب الأهواز وكان بها وراسله الجند فى ذلك فوعدهم أن يجيء ولكنه تأخر لما كان بينه وبين عمه أبى الفوارس صاحب كرمان من الحرب فازدادت الفتن ببغداد لعدم السلطان وكثر شر الأتراك بها ولما رأى ذلك عقلاء القواد راسلوا جلال الدولة ليصعد إليهم فيملك أمرهم وخطبوا باسمه فى جمادى الأولى سنة ٤١٨ ء فاعتم أن صعد إليهم وملك أمرهم ولكن لم يكن عنده من المال ما يضمن راحتهم وراحته فكثر الشغب عليه من الجند وأتراك بغداد حتى كادوا يخلعونه وكان ينازعه أخوه أبو كاليبجار . وانتهت مدة القادر بالله وهما على ذلك النزاع

لم يكن للخليفة القادر بالله شئ من السلطان كمن مضى فى عهد سلاطين ابن بويه إلا أنه ضعف البيت المالك أحياله شيئاً من الكلمة والنفوذ وكان فيه من خلال الخير ما يساعد على ذلك فقد كان حليماً كريماً خيراً يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن

الشر ويغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف كتابا على مذهب أهل السنة والجماعة وكان يخرج من داره في زى العامة ويזור قبور الصالحين وإذا وصل إليه حال أمر فيه بالحق

وكان في زمنه أحداث عظام في جميع الأصقاع الإسلامية من قيام دول وإبادة أخرى وكلها تهتف على منابرها باسمه وتتقلد الولايات منه إلا ما كان من البلاد التي تحت يد الدولة العلوية المصرية فانها كانت تختطب باسم أئمتها ومع ذلك فان المعز بن باديس صاحب المغرب والقيروان دعا باسم القادر على منابر بلاده توفي القادر بالله في ذى الحجة سنة ٤٢٢ وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر وخلافته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرون يوما

٢٦ — القائم

هو أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله . ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت بيعته في ذى الحجة سنة ٤٢٢ (نوفمبر سنة ١٠٣١) وبقي خليفة إلى ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ (٢ ابريل سنة ١٠٧٥) فكانت مدته ٤٤ سنة و ٢٥ يوما

كان سلطان العراق لأول عهده جلال الدولة بن بهاء الدولة ولم يكن أمره في سلطانه على سداد لكثرة شغب الغلمان والأترك عليه طالبين مرتباتهم التي لم يكن يقدر على أدائها في أوقاتها لقلّة الوارد عليه فلم تجيء سنة ٤٢٦ إلا وقد أنحل أمر الخلافة والسلطنة جميعا ببغداد حتى أن بعض الجند خرجوا إلى قرية يحيي فلقبهم أكراد فأخذوا دوابهم فعادوا إلى قراح الخليفة فنهوا شيئا من ثمرته وقالوا للعمال فيه أتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا فسمع الخليفة الحال فعظم عليه ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهنه واجتهد في تسليم الجندي إلى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه وإلى الشهود بترك الشهادة وإلى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى ذلك جلال الدولة سأل أولئك الأجناد ليجيبوه إلى أن يحملهم إلى دار الخلافة ففعلوا فلما وصلوا إليها أطلقوا وعظم امر العيارين وصاروا يأخذون الأموال ليلا ونهارا ولا مانع لهم لأن الجندي يحملون على السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر العرب في البلاد فنهوا النواحي وقطعوا

الطريق وبلغوا أطراف بغداد حتى وصلوا إلى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء في المقابر

ولكثرة تشييب الجند على جلال الدولة كان الخليفة يتداخل بين الفريقين متوسطا في أمر الصلح ومع ما ظهر من ضعف جلال الدولة وسقوط هيئته سأل الخليفة القائم سنة ٤٣٢ أن يخاطب بملك الملوك فامتنع الخليفة من ذلك فاستعان عليه جلال الدولة بالفقهاء الذين يلجأ إليهم السلاطين في مثل ذلك فأفتى بالجواز القاضي أبو الطيب الطبري والقاضي أبو عبد الله الصيرفي والقاضي ابن البيضاوي وأبو القاسم الكرخي وامتنع من الفتيا قاضي القضاة أبو الحسن الماوردي وجرى بينه وبين من أفتى بالجواز مراجعات فأجاب الخليفة طلب جلال الدولة وخطب له بملك الملوك وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة وكان يتردد إلى دار المملكة كل يوم فلما أفتى بهذه الفتيا انقطع ولزم بيته خائفا وأقام منقطعا من شهر رمضان إلى يوم عيد النحر فاستدعاه جلال الدولة فحضر خائفا فأدخله وحده وقال له قد علم كل أحد أنك من أكثر الفقهاء مالا وجاها وقربا منا وقد خالفتم فيما خالف هوأى ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحاباة واتباع الحق وقد بان لي موضعك من الدين ومكانك من العلم وجعلت جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك وحدك وجعلت إذن الحاضرين إليك ليتحققوا عودى إلى ماتحب فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف وهكذا يفعل بالانسان قول الحق حسبما يعتقد لا يخشى في ذلك لومة لائم ولا غضب سلطان

قضى جلال الدولة حياته في منازعات بينه وبين جنوده وبينه وبين أبي كاليجار إلى أن توفي سنة ٤٣٥ بعد ملك مدته ١٦ سنة و ١١ شهرا قال ابن الأثير ومن علم سيرته وضعفه واستيلاء الجند والنواب عليه ودوام مأسكه إلى هذه الغاية علم أن الله على كل شيء قدير يؤتى الملك من يشاء وينزعه من يشاء وكان يزور الصالحين ويقرب منهم وزار مرة مشهدي على والحسين عليهما السلام وكان يمشى حافيا قيل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحو فرسخ يفعل ذلك تدينا

استقر في الملك بعده منازعه ابن أخيه أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة ولقبه الخليفة محي الدين ولم تكن قدمه بأثبت من قدم أبيه ولا سلطانه أوفر

بل كان النزاع كثيراً ما يستحكم بين الديلم عنصر السلطان وبين الأتراك قداماء العهد ببغداد وكانت وفاة أبي كاليبجار سنة ٤٤٠

ببيع بالسلطان بعده ابنه أبو نصر خسرو فيروز وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فلم يجب إلى ذلك وقال لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى فأبى إلا أن يكون ذلك لقبه فكان ما أراد واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة وقد استمر ساطعاً حتى ورد إلى بغداد السلطان طغرل بك فأزاله عن ملكه ونفاه إلى قلعة السيرجان وبذلك انقضت مدة آل بويه التي لم يكن فيها شيء من الصلاح للبلاد بل زادت فساداً وفرقة بما أظهرته من التشيع في بغداد مع أن أكترية أهلها أهل سنة وجماعة فكان النزاع كثيراً ما يقع بين الفرقتين وتحصل حوادث شديدة الوقع في بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه ولا السلطان لأنه كان يعين طائفته ووجد الخلاف بين أفراد البيت بعد وفاة الرجال الثلاثة الذين أسسوا هذا الملك العظيم وكان هذا الخلاف كثيراً ما يدعو إلى وقوف بعضهم إزاء بعض متحاربين وعلى الجملة فإن البلاد التي استولوا عليها لم تستفد من دولتهم شيئاً على طول مدتهم وضخامة دولتهم وأجل هذه المدة عهد عضد الدولة فناخسرو ثالث ملوك هذه الدولة بالعراق

آل سلجوق

من عشائر الغز الكبرى عشيرة السلاجقة تنسب إلى مقدمها سلجوق بن تقاق وكانت هذه العشيرة تقيم في بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك المسمى بيغوا وكان تقاق مقدم العشيرة إلى قوله يرجعون وعن أمره يصدرون وولد له ابنه سلجوق بذلك الإقليم فلما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم فقربه ملك الترك وجعله قائد الجند (شبابي) وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق لما ترى من طاعة الناس له فأغرتة بقتله وبلغ سلجوق ذلك الخبر فجمع عشيرته وهاجر إلى ديار الإسلام واعتق الحيفية فازداد بذلك عزا إلى عزه وأقام بنواحي جند (على طرف سيحون من حدود الترك) وصار يشن الغارة على بلاد الترك

في تلك الأوقات قام النزاع بين أحد ملوك السامانية وهرون بن أيلك خان وقد استولى هرون على بعض بلاده فرأى أن يضرب الحديد بالحديد فاستنجد

سلجوق فأنجده بابنه أرسلان في جمع من أصحابه فقوى بهم الساماني واسترد من خصمه ما أخذه وهذه أول صلة بين عشيرة السلاجقة والسامانية لم يزل سلجوق بجند حتى توفي وكان له ثلاثة من الأولاد وهم أرسلان وميكائيل وموسى فأما ميكائيل فغزا غزوة في بلاد الترك فاستشهد وبقيت أولاده وهم يغيو وطرغربك محمد وجفري بك داود فأطاعتهم عشيرتهم

رحلوا بعد ذلك من جند ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخا منها تخافهم أميرها فأساء جوارهم وأراد الايقاع بهم فالتجؤا إلى بغراخان ملك تركستان وأقاموا في بلاده ولمزيد حرصهم على أنفسهم اتفق طغربك وداود أنهما لا يجتمعان عند بغراخان حذرا من مكر يمكره بهم وكان بغراخان يجتهد أن يجمع بينهما عنده فلم ينجح فقبض على طغربك وأسره فثار داود في عشائره ليخلص أخاه فأنفذ إليه بغراخان عسكريا فانهمز ذلك العسكر وخلص طغربك من الأسر وانصرف إلى جند لما انقضت دولة السامانية سنة ٣٨٩ وملك ايلك خان عظيم محل أرسلان بن سلجوق بما وراء النهر وكان على تكين أحد قواد السامانية في حبس أرسلان خان فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها وانفق مع أرسلان بن سلجوق فامتعا واستفحل أمرهما وقصدهما ايلك فهزماه وبقيا ببخارى

لما عبر محمود بن سبكتكين النهر إلى بخارى للاستيلاء على بلاد ما وراء النهر هرب على تكين من بخارى وأما أرسلان بن سلجوق وجماعته فانهم دخلوا المفازة والرمل فاحتموا من محمود فرأى من قوتهم ما هاله وأراد أن يستعمل معهم الحيلة فكاتب أرسلان واستماله ورغبه فورده عليه فلم يكن من محمود إلا أن قبض عليه وسجنه في قلعة ونهب خراكاهاته ثم أمر عشيرته فعبروا نهر جيحون وفرقهم في بلاد خراسان فلم يطمثوا بها من جور العمال عليهم فسار منهم أهل ألقى خركاه فلحقوا بأصبهان ومنها إلى أذربيجان ودخلوا مراغة سنة ٤٢٩ وأحرقوا جامعها وقتلوا من عوامها مقتلة عظيمة فعظم الأمر على أهلها واشتد بهم البلاء

رأى ذلك أكراد أذربيجان وكانوا مختلفين فاتفقت كلمتهم على هؤلاء المفسدين فاتصفا منهم ورأى الغزأنهم لا مقام لهم هناك فافترقوا فرقتين فطائفة سارت إلى الري ومقدمهم بوقا وطائفة أخرى سارت إلى همدان ومقدمهم منصور وكوكتاش

أما الذين ذهبوا إلى الرى فأنهم استولوا عليها ونهبوها نهباً فاحشاً وسبوا النساء
وبقوا كذلك خمسة أيام حتى لجأ الحرم إلى الجامع وتفرق الناس كل مذهب ومهرب
وكان السعيد من نجا بنفسه وكادوا يستأصلون أهل الرى
وأما الذين ساروا إلى همدان فأنهم ملكوها أيضاً من يد بنى بويه سنة ٤٢٠
ولما دخلوها نهبوها نهباً منكراً لم يفعلوه بغيرها من البلدان غيظاً منهم وحنقاً عليهم
حيث قاتلهم أولاً وأخذوا الحرم وضربت سراياهم إلى أسدآباد وقرى الدينور
واستباحوا تلك البلاد

ولم يزالوا على هذا الفساد والتخريب حتى ظهرت السلاجقة وخرج إبراهيم
ينال أخو طغرل بك إلى الرى فلما علموا بمسيره جفلوا من بين يديه وفارقوا بلاد
الجبيل قاصدين أذربيجان فلم يتمكنهم القيام بها لما فعلوا بها أولاً ولأن إبراهيم
ينال وراهم وكانوا يخافونه لأنهم كانوا له ولأخيه طغرل بك رعية فساروا إلى ديار
بكر وأميرها سليمان بن نصر الدولة بن مروان فأخربوها ونهبوا أعمالها إلى أن
بذل لهم سليمان مالا ليفارقوا عمله . إذ ذلك صمموا على قصد الموصل وأميرها
قرواش من الدولة العقيلية فأنهزم عنهم لما حاربوه فدخلوا البلد ونهبوه ووصل
قرواش إلى مدينة السن وهناك راسل جلال الدولة سلطان بغداد يعرفه الحال ويطلب
النجدة واستنجد أيضاً ديبس بن مزيد ملك الحلة وغيره من أمراء العرب والآكراد
عمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من الفتك وهتك الحرم ونهب المسال
ولما اشتد الأمر على أهل الموصل ثاروا بالغز وقتلوا منهم كثيراً فخرج الغز
وعسكروا خارج المدينة حتى جمعوا قواهم ثم عادوا إليها متفقين فوضعوا السيف
في أهلها وأسروا كثيراً ونهبوا الأموال وأقاموا على ذلك اثني عشر يوماً يقتلون وينهبون
لما طال مقامهم بتلك البلاد كتب جلال الدولة ونصر الدولة بن مروان إلى
طغرل بك يشكوان ما حل بالبلاد من تلك الفتنة

بقي قرواش بالسن حتى جاءت النجدة فسار إلى الموصل وبلغ الخبر الغز فتهيئوا
للحرب فاجتمعت القوتان على نهر العجاج وكان النصر أولاً للغز ثم نصر الله
العرب فانهزمت الغز شر هزيمة وأخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وملك
العرب حللهم وخركاهاهم وكفى الله أهل الموصل شرهم وتبعهم قرواش إلى نصيبين ثم

عاد عنهم فقصدوا ديار بكر وصاروا يعيشون فسادا ولكن قواهم وهنت وتضعضع امرهم ويسمى التاريخ هذه الطائفة بالغز العراقية وهى بقايا من كان مع أرسلان ابن سلجوق

أما من كان من أولاد ميكائيل بن ساجوق فانهم أقعدوا بنواحي بخارى كما قدمنا ففص بمكانهم أمير بخارى على تكين فأعمل الخيلة فى الظفر بهم فأرسل إلى يوسف ابن موسى بن سلجوق ومناه الاحسان وفوض إليه التقدم على جميع الأتراك الذين فى ولايته ولقبه بالأمير اينانج ييغو وأراد بذلك أن يستعين به وبعشيرته على ابني عمه طغرلبك وداود وأن يفرق كلمتهم ويضرب بعضهم ببعض فلم تجز هذه الخيلة على يوسف فلم يكن من على تكين إلا أن قبض عليه وقتله بيد أمير من أمرائه فعظم قتله على ابني عمه فجمعا قومهما للاخذ بثاره وجمع على تكين جيوشه فكان النصر لطغرلبك وأخيه ثم احتشد على تكين مرة ثانية وأوقع بالسلاجقة وقعة كانت عليهم شديدة أجمأتهم إلى عبور النهر نحو خراسان فكتب إليهم خوارزمشاه هرون بن التوتنامش ملك خوارزم يستدعيهم للاتفاق معه فساروا إليه وخيموا بظواهر خوارزم سنة ٤٢٦ واطمأنوا إلى خوارزمشاه ولكن غدر بهم وكبسهم وهم غارون فقتل منهم جمعا فساروا عن خوارزم إلى مفازة نسا ثم كتبوا إلى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين يطلبون منه الأمان ويضمنون أن يكونوا عوناله على من يعاديه فلم يفعل وسير إليهم جيوشه فلقيتهم عند نسا فأوقع السلاجقة بجيش مسعود ولما بلغه ذلك ندم على رده طاعتهم وعلم ان هيبتهم تمكنت من قلوب عسكره فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعددهم فكتب إليه طغرلبك هذه الآية (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك من تشاء وتوزع ما تشاء وتنزل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) فلما ورد الكتاب على مسعود كتب إليهم ثانية يعدهم المواعيد الجميلة ويأمرهم أن يرحلوا إلى أمل على شاطيء جيحون وينهاهم عن الشر والفساد وأقطع داهستان لداود «وداهستان مدينة عند مازندران بناها عبد الله بن طاهر بين جرجان وخوارزم آخر حدود طبرستان» وأقطع نسا لطغرلبك وأقطع فراوة لبيغو وفراوة بلدة مما يلي خوارزم بناها عبد الله بن طاهر . استخف السلاجقة برسل مسعود لعدم ثقتهم بالرسالة وصاروا يشنون

الغارة على البلاد وعسكر مسعود قد هابهم ومسعود قد شغل عنهم بنفسه وأعرض عن خراسان والسلاجقة فاجتمع وزراؤه وقالوا له إن هؤلاء القوم إذا تركوا وشأنهم استولوا على خراسان سريعاً ثم ساروا منها إلى مدينة غزنة فأيقظوه من رقدته فجهز لهم الجنود مع أكبر قواده وكان داود قد استولى على مرو وأحسن السيرة في أهلها وخطب له بها أول جمعة في رجب سنة ٤٢٨م ولقب في الخطبة بملك الملوك. جاءت الجنود المسعودية فالتقت بجند داود عند باب مرو فلم يثبت العسكر المسعودي وانهمزم أقبح هزيمة وسار أخزي سير إلى هراة فتبعهم داود إلى طوس وكانت هذه الواقعة هي التي ملك السلاجقة بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد فدخل طغرلبيك نيسابور وخطب له بها في شعبان ولقب بالسلطان المعظم وفرقوا التواب في النواحي

علم ذلك مسعود فاضطر أن يسير بنفسه من غزنة في جيوش عظيمة حتى وصل بلخ ومنها سار في أول رمضان سنة ٤٢٩م واستعد له السلاجقة فلما التقى الفريقان كان التعب قد أخذ من عسكر مسعود فاجتاحهم السلاجقة واضطر مسعود أن ينهمزم ومعه مائة فارس وغنم السلاجقة من هذا العسكر ما لا يدخل تحت الإحصاء فقسمة داود على عسكره وأثرهم على نفسه

بعد تلك الواقعة عاد طغرلبيك إلى نيسابور فملكها ثانية آخر سنة ٤٣١م وسكن الناس وطمأنهم بعد أن كانوا في شدة من الفوضى ثم ملك داود بلخ وفي سنة ٤٣٣م ملك طغرلبيك جرجان وطبرستان من يد أنوشروان بن منوچهر بن قابوس بن وشمكير. وفي سنة ٤٣٤م ملك خوارزم

لما تم له ذلك سار يريد الري وبلاد الجبل وكان قد سبقه إليها أخوه لأمه إبراهيم ينال واستولى على الري فلما سمع بقدومه سار إليه وسلبه إياها وجميع ممالك من بلاد الجبل فأمر طغرلبيك بعمارة الري وكانت قد خربت ثم سار إلى قزوین فملكها صلحا وملك أيضا همدان

بذلك تم له ملك أصقاع كبيرة من البلاد الإسلامية وهي خوارزم وخراسان وبلاد الري ووصلت طلائع جنوده إلى البلاد العراقية. أم ذلك الملك أبا كاليجار صاحب العراق ولم يجد في نفسه قدرة على صد ذلك السيل فأرسل إلى طغرلبيك في

الصلح فأجاب به إليه واصطلحا وكتب طغرلبيك الى أخيه إبراهيم ينال يأمره بالكف عما وراء مايبده واستقر الحال على أن يتزوج طغرلبيك بابنة أبي كاليبجار ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليبجار بابنة الملك داود أخى طغرلبيك وتم هذا فى ربيع الأول سنة ٤٣٩ وفى سنة ٤٤١ خطب لطغرلبيك بديار بكر خطب له بهانصر الدولة ابن مروان صاحبها وفى سنة ٤٤٢ استولى على اصبهان ثم أطاعته أذربيجان وأرسل إليه من بها من الأمراء يبذلون له الطاعة والخطبة فأبقى بلادهم بأيديهم وأخذ رهائهم ثم سار إلى أرمينية وقصد ملازجرد وهى للروم فخصرها وأخرب ما حولها وأثر فى بلاد الروم آثارا عظيمة وبلغ فى غزوته هذه إلى ارزن الروم (ارضروم) ولما هجم عليه الشتاء عاد إلى أذربيجان ثم توجه إلى الرى فأقام بها إلى سنة ٤٤٧ فى هذا الوقت كانت الأحوال سيئة فى بغداد فان آل بويه قد تفرقت كلمتهم وزالت من القلوب هيبتهم فلم يكن يمكنهم أن يحفظوا بغداد لامن عدى طارىء. ولا من عيارها ولصوصها فأعدوا الجمهور لقبول ما يغير من هذه الحال. ومما زاد الحال فسادا ما كان من أمر أبي الحارث أرسلان المعروف بالبساسيرى وهو غلام تركى من مماليك بهاء الدولة فانه أراد أن يزيل الخلافة عن بنى العباس وكتب الخليفة المستنصر العلوى بمصر ليدخل فى طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد والخليفة العباسى عنده علم ذلك فكتب إلى السلطان طغرلبيك مستنجدا مستغيثا وكانت هذه أمنيته فأظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوى صاحبها وكتب أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها فأمرهم بأعداد الأوقات والعلوفات فعظم الأرجاف ببغداد وفت أعضاء الناس. وصل طغرلبيك إلى حلوان وانتشر أصحابه فى طريق خراسان فأجفل الناس إلى غربى بغداد وأرسل طغرلبيك إلى الخليفة يبائع فى إظهار العبودية والطاعة وإلى الأتراك البغداديين لعدم الجليل والاحسان فاتفق من ببغداد من الرؤساء والأمراء على مكاتبة طغرلبيك يبذلون له الطاعة والخطبة وفعلا تقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرلبيك بجوامع بغداد فخطب له فى يوم الجمعة ٢٢ محرم سنة ٤٤٧ ودخلها طغرلبيك فى الخامس والعشرين منه وقبض على آخر سلاطين بنى بويه وهو الملك الرحيم وبذلك انقضت دولتهم ووجدت بالعراق وما وراءه هذه الدولة الجديدة الفتية وهى دولة السلاجقة

هذه العشيرة استولت على جل ماملكة المسلمون وقد انقسمت إلى خمس بيوت
الأول السلاجقة العظمى وهي التي كانت تملك خراسان والرى والجال والعراق

والجزيرة وفارس والأهواز

الثاني سلاجقة كرمان

الثالث سلاجقة العراق

الرابع سلاجقة سوريا

الخامس سلاجقة الروم

أما السلاجقة الكبرى فهي الدولة التي أسسها ركن الدين أبو طالب طغريل بك
وحياتها ٩٣ سنة من سنة ٤٩٢ (١٠٣٩) م إلى سنة ٥٢٢ (١١٢٧) م وهذا ثبتها

(١) ركن الدين أبو طالب طغريل بك من ٤٢٩ - ٤٥٥

(٢) عضد الدين أبو شجاع الب أرسلان ٤٥٥ - ٤٦٥

(٣) جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ٤٦٥ - ٤٨٥

(٤) ناصر الدين محمود ٤٨٥ - ٤٨٧

(٥) ركن الدين أبو المظفر بركياروق ٤٨٧ - ٤٩٨

(٦) ركن الدين ملكشاه الثاني ٤٩٨ - ٤٩٨

(٧) غياث الدين أبو شجاع محمد ٤٩٨ - ٥١١

(٨) معز الدين أبو الحارث سنجر ٥١١ - ٥٢٢

وقد اتضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاورت بك بن داود بن ميكائيل بن
سلجوق وهو أخو الب أرسلان ومدة ملكهم ١٥٠ سنة من ٤٣٢ (١٠٤١) م إلى

٥٨٣ (١١٨٨) م وهذا ثبت ملوكها

(١) عماد الدين قرا أرسلان قاورت بك ٤٣٣ - ٤٥٦

(٢) كرامانشاه ٤٥٦ - ٤٦٧

(٣) حسين ٤٦٧ - ٤٦٧

(٤) ركن الدين سلطانشاه ٤٦٧ - ٤٧٧

(٥) تورانشاه ٤٧٧ - ٤٩٠

٤٩٠ - ٤٩٤	(٦) ارنشاه
٤٩٤ - ٥٣٦	(٧) ارسلانشاه
٥٣٦ - ٥٥١	(٨) مغيث الدين محمد الأول
٥٥١ - ٥٦٣	محيي الدين طغريل شاه بهرامشاه
	ارسلانشاه الثاني
	طرخان شاه
٥٦٣ - ٥٦٣	محمد الثاني

وقد انقضت دولتهم على أيدي الغز التركمان
وأما سلاجقة العراق و كردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ (١١١٧) أي من
عهد وفاة غياث الدين أبي شجاع محمد سابع ملوك السلاجقة و انتهت سنة ٥٩٠
(١١٩٤) فبقيت ٧٩ سنة وانقضت على أيدي شاهات خوارزم وهذا ثبت ملوكها

٥١١ - ٥٢٥	(١) مغيث الدين محمود
٥٢٥ - ٥٢٦	(٢) غياث الدين داود
٥٢٦ - ٥٢٧	(٣) طغريل الأول
٥٢٧ - ٥٤٧	(٤) غياث الدين مسعود
٥٤٧ - ٥٤٨	(٥) معين الدين ملكشاه
٥٤٨ - ٥٥٤	(٦) محمد
٥٥٤ - ٥٥٦	(٧) سليمانشاه
٥٥٦ - ٥٧٣	(٨) أرسلانشاه
٥٧٣ - ٥٩٠	(٩) طغريل الثاني

وأما سلاجقة سوريا فكانوا من بيت تنش بن الب أرسلان بن داود بن ميكائيل
ابن ساجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ (١٠٩٤) أي في أول عهد ركن الدين
بركياروق خامس ملوك السلاجقة العظمى و انتهت سنة ٥١١ (١١١٧) فكانت
حياتها ٢٤ سنة و انتهت على أيدي الدولتين النورية والأرتقية وهذا ثبت ملوكها

٤٨٧ - ٤٨٨	(١) تنش بن الب أرسلان
٤٨٨ - ٤٨٨	(٢) رضوان بن تنش

(٣) تقاق بن تنش في دمشق ٤٨٨ - ٥٠٧
 (٤) الب ارسلان أخرص بن رضوان ٥٠٧ - ٥٠٨
 (٥) سلطانشاه بن رضوان ٥٠٨ - ٥١١
 وأما السلاجقة الروم ملوك قونية واقصرا فكانوا من بيت قطلبش بن إسرائيل ابن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ (١٠٧٧) في عهد جلال الدين أبي الفتح ملكشاه ثالث ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٧٠٠ (١٣٠٠) فمدة حياتها ٢٣٠ سنة فهي أطول دول السلاجقة حياة وقد انتهت دولتهم على أيدي الأتراك العثمانيين والمغول وهذا ثبت ملوكها

(١) سليمان بن قطلبش - ٤٧٠ - ٤٧٥

(٢) قليج ارسلان داود بن سليمان ٤٧٥ - ٥٠٠

(٣) ملكشاه بن قليج ارسلان ٥٠٠ - ٥١٠

(٤) مسعود بن قليج ارسلان ٥١٠ - ٥٥١

(٥) عز الدين قليج ارسلان بن ملكشاه ٥٥١ - ٥٨٤

(٦) قطب الدين ملكشاه بن قليج ارسلان ٥٨٤ - ٥٧٨

(٧) غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان ٥٨٨ - ٥٩٧

(٨) ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان ٥٩٧ - ٦٠٠

(٩) قليج ارسلان بن سليمان ٦٠٠ - ٦٠١

غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان ثانيا ٦٠١ - ٦٠٧

(١٠) عز الدين كيقاوس بن ملكشاه ٦٠٧ - ٦١٦

(١١) علاء الدين كيقباز بن ملكشاه ٦١٦ - ٦٣٤

(١٢) غياث الدين كيخسرو بن كيقباز ٦٣٤ - ٦٤٣

(١٣) عز الدين كيقاوس بن كيخسرو ٦٤٣ - ٦٥٥

(١٤) ركن الدين قليج ارسلان بن كيخسرو ٦٥٥ - ٦٦٦

(١٥) غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان ٦٦٦ - ٦٨٢

(١٦) غياث الدين مسعود بن كيقاوس ٦٨٢ - ٦٩١

(١٧) علاء الدين كيقباز ٦٩١ - ٧٠٠

والذي كان يرتبط تاريخه من هذه البيوت بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد في حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين ٤٤٧ إلى سنة ٥٩٠ هـ أو ١٤٣ سنة

استخلف من آل العباس في عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء وهم

٢٦ عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بن المقتدر

٢٧ عبد الله المقتدى بالله بن محمد بن القائم

٢٨ أحمد المستظهر بن المقتدى

٢٩ الفضل المسترشد بن المستظهر

٣٠ المنصور الراشد بن المسترشد

٣١ محمد المقتفي بن المستظهر

٣٢ يوسف المستنجد بن المقتفي

٣٣ الحسن المستضيء بن المستنجد

٣٤ أحمد الناصر بن المستضيء

وأولهم القائم بأمر الله هو الذي في عهده انتهى العصر البويهى وابتدأ ملك السلجوقى وآخرهم الناصر لدين الله هو الذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة

ملك السلطان طغرل بك بغداد وتقرّب من الخليفة تقرّباً عظيماً حتى أن الخليفة تزوج أرسلان جاتون واسمها خديجة بنت داود أخى طغرل بك وقبل الخليفة العقد بنفسه وذهبت والدّة الخليفة وتسلبتها وأحضرتها إلى دار الخلافة . ولم تقف المصاهرة بين البيتين عند هذا الحد بل إن السلطان طغرل بك تطلع إلى أن يتزوج هو أيضاً من البيت العباسى وهو أمر لم تجر به العادة فأرسل سنة ٤٥٣ هـ يخطب بنت الخليفة فانزعج الخليفة من هذا الطلب وأرسل إلى السلطان رسولا أمره أن يستعفى من الاجابة فان أعفى وإلا تم الأمر على أن يحمل السلطان ٣٠٠٠٠٠ دينار ويسلم واسط وأعمالها فلما وصل الرسول قال له عميد الملك الكندرى وزير طغرل بك لا يحسن أن يرد السلطان وقد سأل وتضرع ولا يجوز مطالبته أيضا بطلب الاموال والبلاد فهو يفعل أضعاف ما طلب منه فقوض الرسول الأمر إلى الوزير فبنى الوزير الأمر على الاجابة وطالع السلطان فسر به وجمع الناس وعرفهم أن همته سمت

به إلى الاتصال بتلك الجهة النبوية وبلغ من ذلك ما يبلغه سواه من الملوك وأمر الوزير أن يسير إلى بغداد لاتمام ذلك فلما ورد الوزير بغداد رأى من الخليفة امتناعا ولم يزل المحيطون بالخليفة يرفقون به حتى رد الأمر إلى عميد الملك فحضر إلى دار الخلافة ومعه جمع من الأمراء والحجاب والقضاة والشهود فتكلم وقال للخليفة أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة فأظهر الخليفة نفرة من ذلك وكاد الأمر يفضى إلى فساد ولما رأى الخليفة شدة الأمر أذن في العقد ووكل فيه عميد الملك فجرى العقد في شعبان سنة ٤٥٤ بظاهر تبريز وحمل السلطان أموالا كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولى العهد ولزوجته ولوالدتها وغيرهم وجعل يعقوبا وما كان بالعراق للخاتون زوجة السلطان التي توفيت للسيدة ابنة الخليفة ولما تم ذلك حضر السلطان إلى بغداد فأراد الخليفة أن يستقبله فاستغفاه من ذلك وأرسل عميد الملك يطلب السيدة من دار الخلافة فنقلت إلى دار المملكة في منتصف صفر سنة ٤٥٥ وجلست على سرير ملبس بالذهب ودخل السلطان إليها وقبل الأرض وخدمها ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وحمل لها شيئا كثيرا من الجواهر وغيرها وبقى كذلك يحضر كل يوم يخدم وينصرف وخلق على كثير من الأمراء وظهر عليه كثير من السرور

الحادث العظيم ببغداد

في السنة التي تلى حكم السلاجقة ببغداد وهي سنة ٤٤٨ كانت عند مدينة سنجان وقعة شديدة بين البساسيري ومعه نور الدولة ديبس بن مزيد الأسدي وبين قريش ابن بدران العقيلي ومعه قتلش ابن عم السلطان طغرل بك انهزم فيها قريش وقتلش فوصل خبر هذه الواقعة إلى السلطان بعد أن أقام ببغداد ثلاثة عشر شهرا لم يقابل فيها الخليفة فسار عنها بجيوشه فقاتل العرب بالموصل والجزيرة وانتصر عليهم وانتهى الأمر باستيلائه على جميع البلاد الموصلية والجزرية وسلمها إلى أخيه لأمه إبراهيم ينال ثم عاد إلى بغداد في أوائل سنة ٤٤٩ وقابل الخليفة لأول مرة وفوض إليه الخليفة أمر إدارة البلاد وقد بالغ طغرل بك في احترام مقام الخلافة العباسية وخلق عليه الخليفة سبع خلع وتوج وعمم إشارة إلى جمعه بين ملك العرب والعجم وقد

سيفاً محلي بالذهب وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب فقبل يد الخليفة دفعتين ووضعها على عينه تبركاً ففعل ما فعل من ذلك التعظيم والاجلال تدنياً في سنة ٤٥٠ ترك إبراهيم ينال بلاد الموصل وتوجه نحو بلاد الجبل ويقال إن المصريين كاتبوه وأطمعوه في الملك فأهم ذلك السلطان وسار وراه إلى همدان . في ذلك الوقت عاد البساسيري بقوته وكان المصريون يساعدونه ويمدونهم ولم يزل يحتاج البلاد حتى وصل إلى بغداد في ثامن ذي القعدة سنة ٤٥٠ واستولى عليها لأنه ليس بها جند يحميها وخطب بجامع المنصور لمعد المستنصر العلوي صاحب مصر وأذن بخير العمل وكانت العامة قد مالت إليه أما الشيعة فلا تحاد المذهب وأما أهل السنة فلما فعل بهم الأتراك

أما الخليفة القائم فانه خرج من قصره في ذمام رئيس العرب قريش بن بدران العقيلي استنذم منه بذمام الله وذمام رسوله صلى الله عليه وسلم وذمام العربية فأعطاه ذلك ونزع قريش قلنسوته فأعطاه الخليفة ثم حملة إلى معسكره وعليه السواد والبردة ويده السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله في خيمته ثم سلمه إلى ابن عمه مهارش بن المجلي وهو رجل فيه دين وله مروءة فخمله في هودج وسار به إلى حديثة عانة فتركه بها آمنًا مطمئنًا في ذمام العربية الذي يرى الخيانة عارًا

أما البساسيري فانه سار ببغداد سيرة مالك ورفعت على رأسه الألوية البيضاء التي أرسلت إليه من مصر ثم ملك بعد ذلك واسط والبصرة وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل علي

أما السلطان فانه استنجد بأولاد أخيه ارسلان وياقوتى وقاورت بك فجأوه بالعساكر يتلو بعضها بعضها فلقى بهم أخاه إبراهيم ينال بالقرب من الرى فقتل عليه وأسره ثم أمر به بنفق بوتر قوسه في تاسع جمادى الآخرة سنة ٤٥١ ولما تم له ذلك عاد يطلب العراق وليس له هم إلا إعادة القائم بأمر الله إلى خلافته ولما قارب بغداد أدرك البساسيري أنه لا قبل له بمقاومته فرحل عن بغداد وكان دخوله إليها سادس ذي القعدة سنة ٤٥٠ وخروجه منها سادس ذي القعدة سنة ٤٥١ وكان السلطان قد أرسل وهو بالطريق إمام أهل السنة أبا بكر أحمد بن محمد المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على ما فعله بالخليفة ويخبره أنه أرسل ابن فورك

للقيام بخدمة الخليفة وإحضاره فأرسل قريش إلى ابن عمه مهارش يقول له أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك لينكف بلاء الغز عنا والآن نقد عادوا وهم عازمون على قصدك فارحل أنت وأهلك إلى البرية فانهم إذا علموا أن الخليفة عندنا في البرية لم يقصدوا العراق ونحکم عليهم بما نريد فأبى ذلك مهارش وقال إن الخليفة قد استحلقتني بعهود ومواثيق لا مخلص منها وسار بالخليفة إلى العراق وقد لقيهما ابن فورك بتل عكبرا فساروا معا حتى وصلوا إلى النهروان في ٢٤ ذى القعدة فخرج السلطان إلى خدمة الخليفة فاجتمع به وقبل الأرض بين يديه وهناه بالسلامة وأظهر الفرح بسلامته واعتذر من تأخره بعصيان أخيه إبراهيم وأنه قتله عقوبة لما جرى من الوهن على الدولة العباسية فقلده الخليفة بيده سيفا وقال لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه وقد تبرك به أمير المؤمنين فكشف غشاء الخركاه حتى رآه الأمراء فخدموا وانصرفوا ثم ساروا جميعا إلى بغداد وكان دخول الخليفة لخمس بقين من ذى القعدة سنة ٤٥١

ثم أنفذ السلطان جيشا الملاحقة البساسيري الذي توجه سمت الشام وسار السلطان في أثرهم فقابلته الطلائع ببعض الطريق فوقف لهم فقاتلوه وقتلوه وحملوا رأسه إلى بغداد وكان البساسيري هذا مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة الديلمي تقلبت به الأمور حتى بلغ هذا المقام المشهور وكنيته أبو الحرث وهو منسوب إلى بسا مدينة بفارس كان سيده الأول منها

وبعد أن تم ما أراده عاد إلى الري التي جعلت دار ملكه وكان له ببغداد محافظ يسمى الشحنة . وفي سنة ٤٥٥ عاد إلى بغداد ليبنى بابنة الخليفة التي ذكرنا فيما مضى حديثها ثم عاد إلى الري وبها كانت وفاته في يوم الجمعة ٨ رمضان سنة ٤٥٥ . ولما توفي أراد عميد الملك أن يقيم في الملك بعده ابن أخيه سليمان بن داود ولكن لم يتبأ له ما أراد وتم الأمر للسلطان

(٢) عضد الدولة أبي شجاع الب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد عارضه في الملك ابن عم أبيه قتلش بن اسرائيل فقتل دون مراده . استعان الب أرسلان في إدارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك وسيأتي التعريف به وبما نال المملكة من الخير العميم على يديه

كان الب ارسلان بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقية إلى بره بالرعية و ارادته خيرهم وكان إذا أمر ببناء أو عز بأن يكون أسمي بنيان ويقول آثارنا هذه تدل على علو هممتنا ووفور نعمتنا . وكانت أظهر أعماله بالبلاد الرومية فقد أقبل لأول عهده سنة ٤٦٢ ملك الروم وأخنى على منبج واستباحها وسبي حاميها فأساء ذلك الب ارسلان ولا سيما أنه بلغه أن الروم عازمون على إعادة الكرة فأغذ السير إلى أذربيجان لأنه سمع أن ملك الروم أخذ على سميت خلاط ومعه من الجنود من لا يحصون كثرة ولما قارب خلاط أرسل إليها بعشرين ألف فارس فوقف في أوجههم مقدم عسكر خلاط وانتصف منهم وذلك في رابع ذى القعدة سنة ٤٦٣ ثم تلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصرا ونزل على ملاز كرد فسلمت حاميها . حصل ذلك والعسكر السلطاني مجد في سيره ولم ينتظر السلطان تلاحق جنده بل قال أنا أحتسب عند الله نفسى بالشهادة وكان وصول السلطان في اليوم الذى سلمت فيه حامية ملاز كرد وكان نزول عسكره في يوم الخميس ٦ ذى القعدة والروم بين خلاط وملاز كرد فأرسل السلطان إلى ملك الروم يقول له إن كنت ترغب في الهدنة أتممنا ماتريد وإلا اعتزنا وعلى الله اعتمدنا فظن ملك الروم أن صدور هذه الرسالة عن خور فقال للرسول سوف أجيء عن هذا بالرى فكان ذلك مما ألب النفوس الاسلامية وزادها حمية وقال إمام السلطان أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الخنى للسلطان إنك تقاتل عن دين الله الذى وعد باظهاره فالفهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر . فلما أصبحوا يوم الجمعة وكادت الشمس تزول تهبأ السلطان وعبأ أصحابه تعبئة عسكرية تدل على فهم ثاقب لأنه قسمهم أربع فرق كل فرقة أقامها في نقطة لا تبرحها لتكون عند اللزوم وراء جند العدو ثم أشعل نار الحرب بهمته العالية واستجر الروم اليه حتى صار الكمين من ورائهم وحيثند أخذتهم الجنود السلجوقية من أمامهم ومن خلفهم فسا عتم الروم أن انهزموا بعد أن أخذ منهم الذعر والرعب وأسر ملكهم قالوا وكان مع الروم ثلاثة آلاف عجلة لحمل الأتقال ومعهم منجنقات كثيرة منها منجنق له ثمانية أسهم ويمد فيه ألف ومائتا رجل ويحمله مائة عجلة يرمى حجرا وزنه بالرطل الكبير الخلاطى قطار وكثر عدد الأسرى من الروم وكذلك الغنائم حتى سقطت قيم الدواب والكراع والسلاح والمتاع فبيعت ١٢

خوذة بسدس دينار وثلاثة أذراع بدينار

وعاد السلطان مؤيدا ظافرا بعد هذه الواقعة التي لم تقم للروم بعدها قائمة في نواحي أرمينية

وكان عهد الب أرسلان كله عهد نمو وارتقاء في دولة السلاجقة لا لل سيف وحده بل للعلم أيضا فان نظام الملك أسس في عهده أول المدارس النظامية ببغداد وقد تم بناؤها سنة ٤٥٨ ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهو الشيخ أبو إسحاق الشيرازي ولما رأى ذلك شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور مستوفى المملكة ببغداد بنى على ضريح أبي حنيفة رحمه الله بباب الطاق مشهدا ومدرسة لأصحابه وكتب على تلك القبة

ألم تر هذا العلم كان مشتتا ۞ فجمعه هذا المغيب في اللحد

كذلك كانت هذه الأرض ميتة ۞ فأنشرها فضل العميد أبي سعد

وفي سنة ٤٦٥ توجه الب أرسلان قاصدا بلاد الترك فعبّر نهر جيحون ولكن المشيئة سابقته فسبته . حكى عنه أنه قال وهو يقرب من الموت ما كنت قط في وجه قصده ولا عدو أردته إلا توكلت على الله وطلبت منه النصر وأما في هذه النوبة فإني أشرفت من تل عال فرأيت عسكري فقلت أين من له قدر بمصارعتي ومعارضتي وإني أصل بهذا العسكر إلى بلاد الصين . فكان ما أراد الله وكانت وفاته في ٦ ربيع الأول سنة ٤٦٥

ولى السلطنة بعده ولى عهده السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه ولاوائل حكمه توفى الخليفة القائم بأمر الله ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ فقام بالأمر بعده ولى عهده حفيده

٢٧ - المقتدى بأمر الله

أبو القاسم عبدالله بن الذخيرة ابى العباس محمد بن القائم ولم يكن للقائم من أعقابهِ ذكر سواه فان الذخيرة توفى أيام أبيه ولم يكن له غيره فأيقن الناس بانقراض نسله وانقراض الخلافة من البيت القارى إلى غيره ولم يشكوا فى اختلال الأحوال بعد القائم لأن من عدا البيت القادري كانوا يخالطون العامة فى البلد ويمجرون مجرى السوق فلو اضطر الناس إلى خلافة أحدهم لم يكن له قبول ولاهية فقدر الله أن الذخيرة كانت له جارية أرمنية اسمها أرجوان وكان يلم بها فلما توفى ظهر أنها حامل وولدت بعد موت سيدها بستة أشهر وذلك الولد هو عبدالله الذى ولاه جده العهد بعده لما بلغ الحلم وقد بويع بعد وفاة جده واستمر خليفة إلى أن توفى فجأة فى يوم السبت خامس محرم سنة ٤٨٧ () فكانت خلافته ١٩ سنة وثمانية أشهر غير يومين وهو من خيرة بنى العباس كان قوى النفس عظيم الهمة أصلح كثيراً من الأحوال الأدبية ببغداد فأمر بنى المغنيات والمفسدات منها وقع الهراذى والأبراج التى للطيور ومنع من اللعب بها لأجل الاطلاع على حرم الناس ومنع الملاحين أن يمحملوا الرجال والنساء مجتمعين ولذلك أصلح كثيراً من الماديات فعمرت فى بغداد عدة محال فى خلافته ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة وألزم أربابها بمحجر آبار للياه وأمر أن من يغسل السمك المالح يعبر إلى النجى فيغسله هناك وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة أكثر مما كان من قبله وكان سلطان السلاجقة فى عهده ملكشاه الذى ذكرنا قيامه بعد أبيه الب أرسلان

وكان ملكشاه سلطاناً عادلاً ذا فضل وإنصاف شجاعاً مقداماً صائب الرأى والتدبير أيامه فى دولة السلاجقة واسطة عقدها وكان ميمون النقية لم يتوجه إلى إقليم إلا فتحه ولما توجه إلى الشام وأنطاكية بلغ إلى حد قسطنطينية وقرر ألف دينار على ملوكها تحمل إلى خزائنه ووضع فى النواحي التى فتحها من الروم خمسين منبراً إسلامياً ولم يزد من ذلك العمل على شهرين ثم عاد إلى الرى وقصد سمرقند فظفر بخانها وأسره فحمل غاشية السلطان على كتفه وسار فى ركابه إلى موضع سرير ملكه ثم من عليه وأعادته إلى ملكه وتوجه فى السنة الثانية إلى أوز كند فأخضعها وخضع

له جميع الملوك والرؤساء بالمشرق والمغرب وهذه السعادة كلها إنما تسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرگ قوام الدين نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق رضى أمير المؤمنين الطوسى وكان معدوداً من العلماء الأجواد وكان محباً للعلم مجلسه دائماً معمور بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية فى سائر الأمصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وسمع الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرهما وكان يقول إني لست من أهل هذا الشأن ولكننى أحب أن أجعل نفسى على قطار نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فإذا فرغ لا يبدأ بشئ قبل الصلاة وأسقط فى زمنه كثيراً من المكوس والضرائب وهو الذى أزال لعن الأشعرية من المنابر وكان سلفه عميد الملك الكندرى قد حسن للسلطان طغرل بك التقديم بلعن الراضية فأمره بذلك فأضاف اليهم الأشعرية ولعن الجميع فلهذا فارق كثير من الأئمة بلادهم مثل إمام الحرمين وأبى القاسم القشيرى وغيرهما فلما ولى نظام الملك أزال ذلك جميعه وأعاد العلماء إلى أوطانهم

ومن ظريف الأخبار أن نظام الملك كان إذا دخل عليه إمام الحرمين وأبو القاسم القشيرى يقوم لهما ويجلس فى مسنده كما هو وإذا دخل عليه أبو على الفارمذى يقوم اليه ويجلس فى مكانه ويجلس هو بين يديه فليل له فى ذلك فقال إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا على يقولون لى أنت كذا وكذا يثنون بما ليس فى فيزيدي كلامهم عجباً وتبها وهذا الشيخ يذكر لى عيوب نفسى وما أنا فيه من الظلم فتتكسر نفسى لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه . وكان ينظر فى الأوقاف والمصالح ويرتب عليها الأمانة ويشدد فى أمرها وعلى الجملة فكان غرة فى جبين آل ساجوق ومن حسناته حجة الاسلام الامام الغزالى فهو قرينه فى الطلب ازدانت بهما طوس واختالت على ماسواها من بلاد فارس وكان مؤيداً بقرنين مؤيدين لدولته وهما كمال الدولة أبو الرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الانشاء والطغراء وشرف الملك أبو سعد محمد بن منصور ابن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء وكلاهما صاحب رأى والتدبير والدهاء والوجود . ومع ما ظهر منه من الكفاية ويمن النقية وسعادة الحركة لم يترك المفسدون أديم المودة بينه وبين سلطانه صحيحاً بل مازالوا فى سعياتهم حتى نغل ذلك الأديم

ومل السلطان طول مدة الوزير واستطالة مدته فأنفذ إليه أحد خاصته برسالة واختار عيناً يحصى على الوزير ما يفوه به وكان مضمون الرسالة إنك استوليت على ملكي وقسمت ممالك على أولادك وأصهارك أتريد أن أمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك فكان جوابه عن تلك الرسالة - قولوا للسلطان إن دواتي مقترنة بتاجك فمتى رفعتها رفع ومتى سلبتها سلب - فاشتد من ذلك الجواب غيظ السلطان وكان بعد ذلك أن أحد الملاحه اعتدى على نظام الملك فقتله وذلك سنة ٤٨٥

ومن غرائب المصادفات أن السلطان لم يعيش بعده إلا ٣٣ يوماً وبموتها انتهت سعادة البيت السلجوقي ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف مات ملكشاه بعد أن اتسع ملكه اتساعاً عظيماً فخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام ومن أقاصي بلاد الاسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن وحملت إليه ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد أسقط المكوس والمؤن من جميع البلاد وعمر الطرق والقناطر والمرابط التي في المفاوز وحفر الأنهار الخراب وعمر الجامع ببغداد وعمل المصانع بطريق مكة وبني البلد بأصبهان

وكان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود . وكان محمود طفلاً وأمه ترکان خاتون فطلبت من الخليفة المقتدى أن يعين ولدها للسلطنة فأجاب إلى ذلك على شروط اشترطها إلا أن جنود نظام الملك ساعدوا أخاه الأكبر بركياروق على أن يكون هو السلطان فتم ما أرادوا وأرسل تقليده إلى الخليفة ليوقعه فمات الخليفة والتقليد بين يديه وكانت وفاته في ١٥ محرم سنة ٤٨٧

وفاة المقتدى

في منتصف المحرم سنة ٤٨٧ توفي المقتدى بالله فجأة بعد أن قدم إليه تقليد السلطان بركياروق فقراه وعلم ما فيه ولم يمضه

٢٨ — المستظهر بالله

بويح بالخلافة بعده ولده أبو العباس أحمد المستظهر بالله واستمر خليفة إلى أن توفي في ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢ فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و ١١ يوماً وكانت سنة حين توفي ٤١ سنة وستة أشهر وستة أيام

حال الممالك الإسلامية في عهده

كان بالأندلس والمغرب الأقصى دولة المثلثين والقائم بأمرهم يوسف بن تاشفين (٤٨٠ — ٥٠٠) ثم من بعده ابنه علي إلى سنة ٥٣٧
وبأفريقية من آل زيري تميم بن المعز بن باديس إلى سنة ٥٠١ ثم يحيى بن تميم إلى سنة ٥٠٩ ثم علي بن يحيى إلى سنة ٥١٥
وبمصر من الفاطميين المستعلي أبو القاسم أحمد بن المستنصر معد إلى سنة ٤٩٥
ثم الأمر بأحكام الله على المنصور بن المستعلي إلى سنة ٥٢٤
وبزيد من الدولة النجاشية الأمير جيش بن نجاح إلى سنة ٤٩٨ ثم فاتك بن جيش إلى سنة ٥٠٣ ثم منصور بن فاتك إلى سنة ٥١٧
وبصنعاء ومهرة ظهر الأمير حاتم بن غاشم الهمداني من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٥٠٢
ثم عبد الله بن حاتم إلى سنة ٥٠٤ ثم معن بن حاتم إلى سنة ٥١٠ ثم هشام بن قبيط وحاتم بن حمص

وما عدا ذلك من البلدان الإسلامية في آسيا فهو محكوم بدولة السلاجقة كان المستظهر بالله من خيار بني العباس لين الجانب كريم الأخلاق يحب الاصطناع ويفعل الخير ويسارع إلى أعمال البر والثوابت مشكور المساعي لا يرد مكرمة تطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ إلى سعاية ساع ولا ملتفت إلى قوله ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأغراض وكانت أيامه أيام سرور لرعيته وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره وإذا تعرض سلطان أو نائب له إلى أذى أحد بالغ في إنكار ذلك والزجر عنه وكان حسن الخط جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد وله شعر رقيق فمن ذلك قوله

أذاب حر الهوى في القلب ماجدا * لما سددت إلى رسم الوداع يدا
وكيف تسلك نهج الاصطبار وقد * أرى طرائق في هوى الهوى قددا
قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به * من بعد ما قد وفي دهري بما وعدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي * من بعد هذا فلا عابته أبدا
تولى ملك العراق في خلافة المستظهر بالله ملكان من آل ساجوق أولهما السلطان
أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه ولأول عهده استوزر عز الملك أبا عبد الله الحسين
ابن نظام الملك ولم يكن فيه شيء من كفاية أبيه وكان أخوه عبد الرحيم إليه منصب
الطغراء وتولى ديوان الاستيفاء الاستاذ علي بن أبي علي القمي وكانوا جميعا سواسية
في التكوب عن جادة الاعتدال وسياسة الممالك والسلطان مشغول عما يصلح
لملكه باللعب وعشرة الصبيان والوزير منهمك في شرايه وقد ذهب الجميع إلى بغداد
واختاروا المقام فيها لاهين بمغانها وغوانها . وكان ذلك مجرثا عم السلطان تتش
ابن الب أرسلان صاحب دمشق أن يقوم طالبا السلطنة لنفسه فقام بجنوده واستولى
على بلاد الجزيرة والموصل وديار بكر وأذربيجان ثم بداله فعاد إلى دمشق لما رأى
كثيرا من أمرائه ميالين إلى مساعدة بركياروق وانتظم الأمر لبركياروق ولكن
أمر ذلك لم يطل إلا بمقدار ما أعد تتش للأمر عدته فعاد سنة ٤٨٧ بجنوده التي
أعدّها واستولى على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمدان ثم أرسل
إلى الخليفة ببغداد يطلب الخطبة له فأجيب طلبه بعد أن وصل إليهم الخبر بأن تتش
هزم بركياروق في وقعة كانت بينهما ولم يزل الأمر على ذلك حتى لم بركياروق شعته
وأصلح من أمر جنوده والتقى بعمره في موضع قريب من الرى فكانت الهزيمة على
جند تتش وأما هو فثبت حتى قتل وذلك سنة ٤٨٨ واستقام الأمر لبركياروق بعد
أن كاد يضمحل وكان نجاحه بأراء الوزير مؤيد الملك أبي بكر عبد الله بن نظام الملك
الذي استوزره بعد أخيه عز الملك ولم يكن في أولاد نظام الملك أكفى منه وكان
وحيدا في بلاغة النظم والنثر ولما هنا السلطان بالفتح قال له كل هذا بركنك وبين
نقيبتك إلا أن مدة ذلك الوزير الأيمن لم تطل فازأم السلطان كانت متداخلة تداخلا
كثيرا في سياسة دولة ابنها فتغير قلبها على الوزير ولما رأى ذلك أخوه نخر الملك
أبو الفتح المظفر أرسل وبذل أموالا جزيلة في الوزارة فأجيب إليها وعزل أخوه

واعتقل فاحتال حتى خلص من اعتقاله وتوجه إلى محمد بن ملكشاه الذي كان ملكا على أران ومقره مدينة جنزة فقبله محمد واصطفاه واستشاره في مهماته ثم سلم إليه وزارته فلم يزل يقرب لمحمد قصد أخيه بركياروق والاستيلاء على ملكه حتى حرك منه ما كمن من هواه فسار من أران في شردمة يسير حتى وصل دار الملك اصفهان فلم تستعص عليه فللكها واستمال إليه العساكر فإلوا إليه

كانت مطالبة محمد للسلطنة وقيامه في وجه أخيه بركياروق فاتحة شر مستطير على هذين الأخوين بل على البيت السلجوقي كله بل على الإسلام جميعا فقد ظلت نيران الحرب بينهما مستعرة من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٤٩٧ خمس سنين ما أشد وقعها على الرعية والجند حصلت فيها مواقع هائلة والحرب فيها سجال . الإفرنج تحركوا من مرابضهم للإغارة على البلاد الإسلامية لتخليص البيت المقدس كما زعموا وملوك الإسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون ويتخاصمون

رأى الرجلان أن الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعا فيها وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكهم وانبساطهم وإدلالهم وكان السلطان بركياروق حينئذ بالرى والخطبة له بها وبالجل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيها وبلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ماعدا تكريت وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وبعضها لمحمد وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعا وأما خراسان فإن السلطان سنجر بن ملكشاه كان يخطب له في جميعها وهي من حدود جرجان إلى ما وراء النهر ولأخيه السلطان محمد - فلما رأى السلطان بركياروق المال عنده معدوما والطمع من العسكر زائدا أرسل القاضي أبا المظفر الجرجاني الخنفي وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمداني إلى أخيه محمد في تقرير قواعد الصلح فسارا إليه ورغباه في الصلح وفضيلته وذكر له ما شمل البلاد من الخراب وطمع عدو الإسلام في أطراف الأرض فأجاب إلى ذلك واستقر الأمر بينهما على أن بركياروق لا يعترض أخاه محمدا في الطبل وألا يذكر معه على سائر البلاد التي صارت له وألا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبه

بين وزيريهما ولا يعارض أحد من العسكر في قصد أيهما شاء وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسنيدته روذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة وهي الحلة وما إليها وقد حلف كل منهما لصاحبه على الوفاء فتحسنت الأحوال وزال الخلف والشغب ولم تطل مدة بركياروق بعد هذا الصلح فانه توفى في ثاني ربيع الآخر سنة ٤٩٨ بعد موت بركياروق خطب أمراؤه لابنه ملكشاه إلا أن أمره لم يتم فان عمه محمدا ما عتم أن قدم إلى بغداد بجيوشه الوافرة فلم يكن أمامه من يقدر على رده وقد حاول أكبر الأمراء البركياروقية أن يوقد نار الحرب ليقوم بما يجب عليه لمولاه ولكن الله حسن الصلح والاتفاق فتم ذلك وخطب لمحمد بالسلطنة بدون منازع ثم عاد إلى دست ملكه بأصفهان

لم يكن السلطان محمد موفقا لاختيار كبار مملكته وقد كانت الأعمال الكبرى في دولة آل سلجوق هي

(١) الوزارة (٢) استيفاء المملكة ويقال لصاحبها المستوفي (٣) الطغراء وهو رئاسة الديوان ومن جملة ديوان الرسائل والانشاء (٤) الاشراف وعرض الجيش قال بعض الكتاب في حق السلطان محمد قد كثر تعجبي من السلطان يتأتق في تخير كلاب الصيد وفهورده وإنماقتني منها ما يراه موافقا لمقصوده فيستل عن فروعه وأصوله وانقطاعه ووصوله فما باله لا يتخير لديوانه ومراتب سلطانه من الكفاة الأفاضل والصدور الأماثل من عرفه ذاك وعرفه زاك وعرقه كريم ومجده قديم وطريقه في الكفاية مستقيم لقد كان هؤلاء أولى بالاختيار وأجدر بالاختيار فانهم أمناؤه على مملكته ووكلاؤه على دولته وسفراؤه في خدمته . ولعدم حسن الاختيار كثر الاضطراب والتغيير واستمر ملك محمد هذا الى سنة ٥١١ حيث توفى في ٢٤ ذى الحجة وعمره إذذاك ٣٧ سنة وكان عادلا حسن السيرة شجاعا وقد أطلق في حياته المكوس والضرائب في جميع البلاد ولم يعرف منه فعل قبيح وعلم الأمراء سيرته فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه

فاختير للملك بعده ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين وخطب له ببغداد في ١٣ محرم سنة ٥١٢

ولم يقم الخليفة المستظهر بالله طويلا بعد وفاة محمد بن ملكشاه فانه توفي في ١٦ ربيع الآخر فلم يكن بين رحيلهما من هذا العالم الا أقل من أربعة أشهر كان في حياة المستظهر بالله أحداث عظيمة في المملكة الإسلامية في الشرق والغرب فأما في الشرق فظهور الباطنية وعيشتهم في البلاد حتى كادوا يميلون ميزانها وأما في الغرب فأغارت الفرنج على البلاد الإسلامية وبدت الحروب الصليبية ولا بد أن نشير إلى كل من الحادثين بكلمة لنبين كيف كان ابتداءهما فان استيفاء ما يتعلق بهما يرجع إلى شرح حال الدولة الفاطمية المصرية لأن الحادثين يتعلقان بها فالباطنية أنصارهم والافرنج أعداؤهم

الباطنية

لما نجح الفاطميون باقامة دولتهم بالمغرب ثم بمصر واتسعت رقعة مملكتهم حتى وصلت إلى نواحي الفرات دار في خلدتهم أن يمدوا سلطانهم متجهين إلى المشرق حتى يعم بقاع الأرض ملكهم وكانت الطريقة التي جروا عليها من أول نشأتهم أن يرسلوا الدعاة إلى الأقطار فيدعون الناس إليهم سرا ويزينون لهم ما يدعون إليه بضروب من الزينة التي مهروا في إبداءها وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن عليها رجل كبير يعرف بداعي الدعاة ودرجته تلى قاضي القضاة وكان الدعاة يحصلون على أسرار الدعوة بمصر ثم يبرحونها إلى كل قطر متبعين نظاما مسنونا ومن البلاد التي اهتم الفاطميون بها وأرسلوا دعواتهم إليها البلاد الفارسية وقد كان أول رواج هذه الدعوة في عهد ملكشاه وسبب هذا الرواج أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار وكان الرسم في أيام الديلم ومن قبلهم من الملوك أنهم لا يخلون البلاد من أصحاب الأخبار والبريد فلم تكن تخفى عنهم الأخبار فلما تولى السلطان ألب أرسلان فاوضه وزيره نظام الملك في هذا الأمر فأجابته لا حاجة بنا إلى صاحب خبر فان الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء فاذا نقل إلينا صاحب الخبر خبرا وكان له غرض أخرج الصديق في صورة العدو والعدو في صورة الصديق ومن أجل ذلك أسقط السلطان هذا الرسم فصادف الباطنية بسبب ذلك نجاحا وأول ما عرف من أمرهم أنه اجتمع منهم ١٨ رجلا بمدينة ساوة وهي مدينة بين الرى وهمذان فصولوا صلاة العيد ففطن بهم الشحنة

فأخذهم وحبسهم ثم سئل فيهم فأطلقهم فهذا أول اجتماع كان لهم ثم إنهم دعوا مؤذنا من أهل ساوة كان مقبياً بأصبهان فلم يجبهم إلى دعوتهم فخافوه أن ينم عليهم فقتلوه فهو أول قتل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبره إلى نظام الملك الوزير فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوَقعت التهمة على نبحار اسمه طاهر فقتل ومثل به فهو أول قتل منهم . ولما رأى الباطنية ذلك من نظام الملك أمروا واحداً منهم فقتله وهي أول فتنة مشهورة كانت لهم وقالوا قتل نبحارا فقتلناه به . وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاین وهي بين نيسابور وأصبهان وكان متقدماً هذا البلد على مذهبهم فاجتمعوا عنده وقووا به فاجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان إلى قاین فخرج عليهم الباطنية فقتلوا القفل أجمعين ولم ينج منهم غير رجل واحد تركاني فوصل إلى قاین وأخبر بالخبر فتسارع أهلها إلى جهادهم فلم يقدرُوا عليهم ثم قتل نظام الملك ومات ملكشاه فعظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطاعتهم ولا سيما بأصبهان واستولوا على قلعة أصبهان وهي قلعة بناها السلطان ملكشاه

كان الداعية الأكبر للباطنية بتلك البلاد هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش فقدّموه عليهم وألبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال ثم ظهر منهم الرئيس الثاني وهو الحسن بن الصباح أخذ هذا المذهب عن عبد الملك بن عطاش ثم رحل إلى مصر فلقى بها الخليفة المستنصر وتلقى بمصر أصول الدعوة الباطنية وكان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم ثم عاد بمرور لنعرة هذا المذهب بقلبه وسيفه فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة الموت وتحصن بها وهي من نواحي قزوين في موضع حصين ولم يكن نظام الملك إذ ذاك قد توفي فلما بلغه الخبر بعث إلى تلك القلعة عسكرياً فحصرها فيها ابن الصباح وأخذوا عليه الطرق ولما ضاق ذرعه بالحصر أرسل من قتل نظام الملك فلما قتل رجع العسكر عنها

ودخل في حوزتهم أيضاً بعض قهستان وطبس وملكوا كذلك قلعة وسنكوه بقرب أهر وغير ذلك من القلاع التي جعلوها حصوناً لهم ومعاقلاً . تمكنت أقدامهم بالبلاد الفارسية وصار يحسب لهم حساب وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم أنه يقتل فقتل بذلك من شاء غيلة وكان رؤسائهم يستعملونهم فيما أرادوا ويمنونهم الأمانى الجميلة التي يخضع لسلطانها أمثال هؤلاء الناس فيأتون بالعجب العجيب . وقد

صارت الناس فيهم فرقتين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والمودعة فمن عاداهم خاف من فتكهم ومن سالمهم نسبة الناس إلى الارتكاس في عقيدتهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم ودب إلى البرآء السقم وتعين على السلطان أن يكشفهم مدافعا ثلثا ينسبه العوام وأهل الدين إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد وقد حصل ذلك للملك تيرانشاه بن تورانشاه بن قاوورت بك فقد اتهمته رعيته بالميل إلى الباطنية والقول بدعوتهم فثاروا عليه وأخرجوه عن مدينة بردسير التي هي مدينة كرمان واتفقوا بعد خروجه على تولية أرسلانشاه بن كرمانشاه بن قاوورت بك . ومن المصيبة أنه ما كان سلطان يثق بخواصه والناس في كل جيل يميل بعضهم إلى الانتقام من بعض نليل هذه الدنيا ومظاهرها الكاذبة فلما رأوا جد السلطان في إبادة القوم سعى بعض الناس ببعض وأحب وصمه بالإلحاد لما بينهما من العداوة ولم يبق للناس في هذا المصائب رأى ولا تدبير

لما اشتد أمر الباطنية وقويت شوكتهم وكثر عددهم صار بينهم وبين أعدائهم ذحول وإحن فلما قتلوا جماعة من الأمراء الأكاير وكان أكثر من قتلوا ممن هو في طاعة السلطان محمد أخى بركياروق مثل شحنة أصهان وغيره نسب أعداء بركياروق ذلك إليه واتهموه بالميل إليهم فلما ظفر السلطان بركياروق وهزم أخاه محمدا انبسط جماعة منهم في العسكر واستغفروا كثيرا منهم وأدخلوهم في مذهبهم وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم فصاروا يهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من مخالفتهم حتى لم يجسر أحد من مخالفيهم لأمير ولا متقدم على الخروج من منزله حاسرا بل يلبس تحت ثيابه درعا واستأذن السلطان بركياروق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم من الباطنية وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم وأعلبوه ما يثمه الناس به من الميل إلى مذهبهم حتى أن عسكر أخيه السلطان محمد يشنعون بذلك وكانوا في المصاف يكبرون ويقولون يا باطنية فاجتمعت هذه البواعث كلها فأذن السلطان في قتلهم والفتك بهم وركب هو والعسكر معه وطلبوهم وأخذوا جماعة منهم ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف وأخرج الجماعة المتهمون إلى

الميدان فقتلوا وقتل معهم جماعة برآء لم يكونوا منهم سعى بهم أعداؤهم ومن الغريب أنه قد اتهم بتلك التهمة الكيا الهراسي مدرس النظامية ورفيق الغزالي في الطلب والتلمذة لامام الحرمين فأمر السلطان محمد فقبض عليه فأرسل الخليفة المستظهر بالله من استخلصه وشهد له بصحة الاعتقاد وعلو الدوجة في العلم فأطلق

وفي سنة ٤٩٤ جمع الأمير بزغش وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر جموعا كثيرة وقواهم بالمسال والسلاح وسار إلى بلد الاسماعيلية فنهبه وخربه وقتل فيهم فأكثر وحصر طلس وضيق عليها ورامها بالمنجنيق فغرب كثيرا من سورها وضعف من بها ولم يبق إلا أخذها فأرسلوا إليه الرشا الكثيرة واستزلوه عما كان يريد منهم فرحل عنهم وتركهم فأعادوا عمارة ما انهدم من سورها وملؤها ذخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك ثم عاد إليهم سنة ٤٩٧ بجمع فيه كثير من المتطوعين فغرب طلس وما جاورها من القلاع والقرى وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي وفعل بهم الأفعال العظيمة ثم إن أصحاب سنجر أشاروا بأن يؤمنوا ويشرط عليهم أنهم لا يبنون حصنا ولا يشترون سلاحا ولا يدعون أحدا إلى عقائدهم فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح ونعوه على سنجر ثم توفي بزغش بعد عوده من هذه الغزاة

وكان تركهم بعد هذا التضييق عليهم داعيا إلى اشتداد قوتهم وقوة شوكتهم بعد ذلك ومن جملة أفعالهم الخبيثة أن قفل الحاج تجمع هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد فوصلوا إلى جوار الري فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاءوا وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئا

وفي سنة ٥٠٠ رأى السلطان محمد ما وصل إليه أحمد بن عبد الملك بن عطاش من القوة والهبة فان أمره استفحل بالقلعة التي ملكها بجوار أصبهان وكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل من قدروا على قتله فقتلوا خلقا كثيرا لا يمكن إحصاؤهم وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملأ كههم ونسى أمر الباطنية بالخلف الواقع بين السلطانين بركياروق وأخيه محمد فلما صفت السلطنة لمحمد لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحرابهم والاتصاف للمسلمين من

جورهم وعسفهم فرأى البداية بقلعة أصبهان التي بأيديهم لأن الأذى بها أكثر وهي متسلطة على سرير ملكة نخرج إليهم بنفسه فحاصرهم وصعد جبلا يقابل القلعة من غربها ونصب له التخت بأعلاه واجتمع له من أصبهان وسوادها لحربهم الأمم العظيمة للذحول التي يطالبونهم بها وأحاطوا بجبل القلعة ودوره أربعة فراسخ ورتب الأمراء لقتالهم فكان يقاتلهم كل يوم أمير فضاقت الأمور بهم واشتد الحصار عليهم وتعذرت عندهم الأقوات ولما اشتد الأمر عليهم كتبوا فتوى فيها (ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق وإنما يخالفون الامام هل يجوز للسلطان مهادتهم وموادعتهم وأن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى) فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك وتوقف بعضهم فجمعوا للنظر ومعهم أبو الحسن على ابن عبد الرحمن السمعاني وهو من شيوخ الشافعية فقال بمحض من الناس يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم بمكانهم ولا ينفعهم التلطف بالشهادتين فانهم يقال لهم أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظه الشرع أو حظر عليكم ما أباحه الشرع أتقبلون أمره فانهم يقولون نعم وحيث تباح دماؤهم بالاجماع وطالت المناظرة في ذلك ثم إن الباطنية سألو السلطان أن يرسل إليهم من يناظرهم وعينوا لذلك أشخاصا من العلماء منهم القاضي أبو العلاء صاعد بن يحيى شيخ الحنفية بأصبهان وقاضيا وغيره فصعدوا إليهم وناظروهم وعادوا كما صعدوا وإنما كان قصدهم التعلل والمطالبة فليجئ السلطان في حصرهم فلما رأوا منه عين الجد أذعنوا إلى تسليم القلعة على أن يعطوا عنها قلعة خالنجان وهي على سبعة فراسخ من أصبهان وقالوا إنا نخاف على دماننا وأموالنا من العامة فلا بد من مكان نحتمى فيه فأشير على السلطان باجابتهم إلى ما طلبوا فسألوا أن يؤخرهم إلى النوروز ليرحلوا إلى خالنجان ويسلبوا قلعتهم وشرطوا ألا يسمع فيهم قول متصح وإن قال أحد عنهم شيئا سلبه إليهم وأن من أتاه منهم رده إليهم فأجابهم إليه وطلبوا أن يحمل إليهم من الاقاة ما يكفيهم يوما بيوم فأجيبوا . وكان قصدهم المطالبة انتظارا لفتح يفتق أو حادث يتجدد ورتب لهم وزير السلطان ما يحمل إليهم كل يوم من الطعام والفاكهة وجميع ما يحتاجون إليه فجعلواهم يرسلون ويتعاونون من الاطعمة ما يجمعونه ليمتنعوا في قلعتهم ثم إنهم وضعوا من أصحابهم

من يقتل أميراً كان يباليغ في قتالهم فوثبوا عليه فجرحوه وسلم منهم وحينئذ أمر السلطان
 بإخراجه قلعة خالنجان ووجد الحصار عليهم فطلبوا أن ينزل بعضهم ويرسل السلطان
 معهم من يحميهم إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر بارجان وهي لهم وينزل بعضهم
 ويرسل معهم من يوصلهم إلى طبرستان وأن يقيم باقيهم في ضرس من القلعة إلى أن يصل
 اليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم فينزلون حينئذ ويرسل معهم من يوصلهم إلى ابن
 الصباح بقلعة الموت فأجيبوا إلى ذلك فنزل منهم جماعة إلى الناظر وإلى طبرستان
 السلطان القلعة فأخربها ثم إن الذين ساروا إلى قلعة الناظر وطبرستان وصل منهم من
 أخبر ابن عطاش بوصولهم فلم يسلم السن الذي بقي بيده وبان للسلطان منه الغدر
 فقرر الزحف عليه فزحف الناس كافة عليه وكان قد قل عنده من يمنع ويقاقل فظهر
 منهم صبر عظيم جدا وشجاعة زائدة وكان قد استأمن إلى السلطان إنسان من
 أعيانهم فدل على عورة لهم فأتى بهم إلى جانب لذلك السن لا يرام فقال اصعدوا
 من هنا فقبيل إنهم ضربوا هذا المكان وشحنوه بالرجال فقال إن الذي ترون
 أسلحة وكز اغندات جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم وكان جميع من بقي ثمانين
 رجلا فزحف الناس من هناك وملكوا الموضع وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة
 منهم مع من دخل نجران معهم وأما ابن عطاش فأخذ أسيرا فترك أسبوعا ثم قتل
 هو وولده ومثل بهما وحملت رموسهما إلى بغداد وألقت زوجته نفسها من رأس
 القلعة فهلكت وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثنتي عشرة سنة

وكما اهتم بأمر ابن عطاش وقلعته كذلك اهتم بأمر الحسن بن الصباح صاحب قلعة
 الموت وما معها فقد كان يعلم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وإخراجه
 ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم فجعل قصدهم دأبه وكانت أيام ابن الصباح قد طالت
 وله منذ ملك قلعة الموت ما يقارب ستاً وعشرين سنة وكان المجاورون له في أقبح
 صورة من كثرة غزواته لهم وقتله وأسره رجالهم وسبي نسايتهم فسير اليهم السلطان
 العساكر ولكنها لم تبلغ منه غرضاً ولما أعضل داؤه نذب لقتاله الأمير أنوشتكين
 شيركير صاحب آبه وساوة وغيرهما فملك منهم عدة قلاع وكان كلما ملك قلعة سير
 بمن فيها إلى الموت ولما تهيأت له الجنود وأمدده السلطان بعدة من أمرائه سار إلى
 الموت فحصرها وكان أنوشتكين من بين أولئك الأمراء صاحب القريجة والبصرة

في قتالهم مع جودة رأى وشجاعة فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه وعين لكل طائفة من الأمراء أشهراً يقيمونها فكانوا يغيثون ويحضرون وهو ملازم الحصار وكان السلطان ينقل إليه الميرة والذخائر والرجال فضايق الأمر على الباطنية وعدمت عندهم الأقوات وغيرها فلما اشتد عليهم الأمر أنزلوا نساءهم وأبنائهم مستأمنين ويسألون أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا فلم يجابوا إلى ذلك وأعادهم إلى القلعة قاصداً أن يموت الجميع جوعاً وكان ابن الصباح يجرى على كل رجل منهم في اليوم رغيفاً وثلاث جوزات فلما بلغ بهم الأمر إلى الحد الذي لا مزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر إلى العسكر المحاصر لهم بعد يوم فزموا على الرحيل فقال لهم شيركبير إن رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددنا من الأقوات والذخائر والرأى أن نقيم على قلعتهم حتى تفتحها وإن لم يمكن المقام فلا بد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفذ منا ثقلنا وما أعددنا ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذ العدو فلما سمعوا قوله أجابوه ولكنهم لما أمسوا رحلوا من غير مشاورة فتبعهم شيركبير فغتم الباطنية ما تخلف عندهم هذا حالهم وما أثاروه من الفتن والتكبات إلى وفاة السلطان محمد بن ملكشاه وسندكر بعد خاتمة أمرهم

خطر المغرب

كما كان اختلاف آل سلجوق وتفرق كلمتهم سبباً لتكبتهم بالباطنية كذلك كان سبباً لتكبتهم من المغرب بالحروب الصليبية وليس غرضنا الآن أن نشرح هذه الحروب شرحاً وافياً فإنها حوادث أجيال إذ قد استمر أمرها من سنة ٤٩٠ إلى سنة ٦٩٠ أي قرنين كاملين اشترك فيها من الدول الإسلامية الدولة الفاطمية بمصر ودولة السلاجقة ودول الأتابكية التي تفرعت عن السلاجقة ودولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية بمصر ولما كنا الآن في اقتصاص أحوال آل سلجوق نسوق من أخبار هذه الحروب ما يرتبط بتاريخهم

امتد سلطان السلاجقة بلاد الروم (أرمينية والأناضول) وتأسست هناك دولة سلجوقية عظيمة الشأن بقونية وأقصر وما إليهما وأخذوا بمخنق الروم ففقدوا كل

حيلة في استرداد ما أخذ منهم لقوة الهاجمين وخافوا على ما بقى لهم من الأملاك في آسيا. وكان ملك السلاجقة الروميين في أيام تلك الحوادث السلطان قليج ارسلان داود بن سليمان بن قتلش (٤٨٥ - ٥٠٠)

وكذلك امتد على بلاد سوريا وتأسست لهم بها دولة حاضرتها دمشق وكان سلطانها في هذه الحوادث السلطان رضوان بن تنش بن ألب ارسلان وكان بينه وبين أخيه دقاق بن تنش حروب سببها المنافسة في الملك وكان خليفة مصر الفاطمي هو المستعلي بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر (٤٨٧ - ٤٩٥)

كان البيت المقدس مما ملكه تاج الدولة تنش بن ألب ارسلان مؤسس الدولة السلجوقية بسوريا فأقطع له للأمير سقمان بن أرتق التركاني فاستمر في حوزته إلى سنة ٤٨٩ وهي السنة التي سار فيها الصليبيون قاصدين في الظاهر الاستيلاء عليه وتخليصه من أيدي هؤلاء المعتصمين

وقد اضطرت كلمة المؤرخين من العرب في السبب الذي حدا بأولئك المغيرين إلى الخروج من بلادهم بهذه الشدة والكثرة فقال فريق منهم أن هذه الحملة كانت في الأصل موجهة إلى شمال أفريقية وكانت إذ ذاك تحت يد الدولة الزيرية والقائم بالامر فيها تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ - ٥٠١) وكان رجار الصقلي قد قام في عهده واستولى على صقلية وحارب تميمًا في عقر داره حروبا كانت بينهما سجالا ولما بلغ رجار ما عزم عليه الصليبيون لم يعجبه لأنه قال إذا وصلوا إلى أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعساكر من عندى أيضا فان فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادى وتأذيت بهم ويقول تميم غدرت بنى ونقضت عهدى وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبلاد أفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها ومن أجل ذلك أشار على هؤلاء المتحمسين بقصد بيت المقدس لأن الجهاد في تخليصه أعظم أثرا وأبقى نفرا

وقال فريق آخر إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمسكها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى

تمنعهم وقد دخل بعضهم فعلا إلى بلاد مصر لما رأوا ذلك خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين وقال فريق من غيرهم إن ملك الروم هو الذي دعا الافرنج إلى ذلك لما خاف على دولته من السلاجقة فانهم كما أخافوا المصريين أخافوا الروم فكل من الفريقين خائف وجل

والذي عليه جمهور المؤرخين ان الغيرة الدينية التي أثارها في أوربا بطرس الراهب بمساعدة البابا أوربانس الثاني هي التي هاجت أنفس الافرنج لهذه الاغارة وكل هذه الأسباب لا يبعده العقل ولا يبعد أن يكون بعضها قد ساعد بعضا والافرنج يميلون إلى جعلها حربا دينية لاسياسية أثار غبارها ما كان من حمية الجاهلية في ذلك العصر

زار بطرس الراهب البيت المقدس فعز عليه مارآه من ملك المسلمين لهذا البيت الذي فيه آثار المسيح عليه السلام فعاد إلى أوربا شاكيا باكيا مستغنيا متضرعا واستعان بسلطان البابا أوربانس الثاني الذي كان إذ ذاك صاحب السكلمة العليا في أوربا فأعانه وعقد المؤتمرات لبث الحمية الدينية في قلوب المسيحيين فنجح في ذلك ولا سيما أنه أعطى امتيازات لها قيمة لمن يتطوع في هذه الحرب فتألفت جيوش عظيمة سارت إلى طلبتها في ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ (٤٨٩) يقدمها بطرس الراهب وغيره إلا أن هذه الحملة لم تنجح في مسيرها لأنها لم تكن ذات نظام عسكري فعاثت في الأرض فسادا فقاومها البلغاريون والمونفريون وأفنوا كثيرا منها والذين تخلصوا وجازوا البحر عند القسطنطينية إلى آسيا أخذتهم سيوف السلطان قليج ارسلان عند قونية فلم ينج منهم أحد وهذه هي الحملة الأولى من الحرب الصليبية الأولى قام على أثرها حملة أخرى وهي الحملة الثانية يقدمها غودا فرودي بوليون دوق دى لورين السفلى ومعه عدد وافر من قواد فرنسا والنمسا وجيش آخر يقدمه هو كز أخو ملك فرنسا ومعه عدد من القواد وجيش ثالث يقدمه بوهيمند أمير تارنت الايطالى

سارت هذه الجيوش ومرت بالقسطنطينية بعد خطوط نالتهم من ملك الروم اليكسيوس ثم عبرت الحجاز قاصدة مدينة قونية التي كانت من أعمال قليج ارسلان

وعددهم عظيم جدا فلقبهم ذلك السلطان مدافعا عن ملكه فتغلب عليه الصليبيون لكثرة عددهم ثم حاصروا قونية نحو خمسين يوما وفي نهايتها سلمت حامية هذه المدينة لكنها لم تسلم للصليبيين بل سلمت لقائد ملك الروم الذي أرسل مع الصليبيين لهذه الغاية وكان هذا العمل سبباً لغيظ قوادهم أصاب هذا الجيش بعد ذلك نكبات شديدة جدا في مسيره فقضى كثير منه بالحرب والجوع والتعب والأوبئة والاختلاف الكثير بين القواد الذين كان لكل منهم مقصد في العلو والرفعة وقد انفصل عنهم وهم سائرون أحد القواد وهو بودوين وسار إلى الجزيرة الفراتية فامتلك مدينة الرها وكانت للروم إذ ذاك

سار القوم إلى أنطاكية وكان حاكمها أحد قواد السلجوقية باغسيان فحاصروها تسعة أشهر وظهر من شجاعة باغسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج وبعد هذا الحصر استولوا على المدينة بخيانة أحد المستحفظين للأبراج الذي بذل له الأفرنج مالا وأقطاعا وكان الأفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق: إننا لا نقصد غير البلاد التي كانت للروم لانطلب سواها وإنما فعلوا ذلك معهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية وقد كان ما أرادوا. سار الأفرنج بعد ذلك إلى معرة النعمان فامتلكوها

كان البيت المقدس في تلك الأيام قد خرج من حوزة السلاجقة وامتلكه المصريون فانهم لما علموا بما أصاب الأتراك على أنطاكية أرسلوا جيشاً يقدمه الأفضل بن بدر الجمالي فاستولى عليه من يد الأمير سقمان بن أرتق التركاني واستتاب فيه رجلا يعرف بافتخار الدولة وهو الذي تلقى حملة الصليبيين الذين حضروا إليه بعد أن حاصروا عكا ولم يقدرروا على فتحها. حاصروا البيت المقدس نيفاً وأربعين ليلة وأخيراً استولوا عليه في يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ ولم يكن منهم ما يحمده عليه المحارب الشجاع بل أساءوا معاملته أهليه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وورد المستنفرون من الشام في رمضان الى بغداد صحبة القاضي أبي سعيد الهروي فأوردوا في الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا والسלטانان السلجوقيان بركياروق ومحمد إذ ذاك يتطاحنا يريد كل منهما الانفراد بالملك وإقصاء أخيه عنه

ولما تم للأفرنج ما طلبوا من الاستيلاء على البيت المقدس انتخبوا القائد غودافرو ليكون ملكا هناك ولكنه لم يرض أن يلقب بلقب ملك بل بمحامي قبر المسيح وأقام معه بعض الجنود ورحل سائرهم إلى أوطانهم

وضع غودافرو قانونا لإدارة مملكته الجديدة إلا أن زمنه لم يطل فإنه توفي في ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ فأقيم مقامه بودوين ملك الرها وشقيق غودافرو وأعلم بذلك فقبله وأقام بدله في ملك الرها ابن عمه بودوين دى بورغ ملكا على الرها وسار هو إلى حاضرة مملكة وهو المعروف في التواريخ العربية باسم بردويل . هكذا وجدت مملكة أفرنجية في وسط أملاك المسلمين لأول مرة ولم يتركها المسلمون براحة بالولا هي تركتهم بل كانت الحروب متصلة بين الطرفين المصريون يناوشونهم من الجنوب والأتراك من الشرق . ولم تسك المملكة الأفرنجية واحدة في البلاد التي استولوا عليها بل كانت جملة ممالك مملكة القدس وانطاكية والرها وغير ذلك إلا أن المملكة الكبرى كانت مملكة القدس . وسنتكلم في حوادثها عند ظهور الدولة الأتابكية والدولة الأيوبية اللتين أوججتا نار الحرب مع هؤلاء الأفرنج

٢٩ - المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر وولاه أبوه بالعهد فبويح بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢ (٧ أغسطس سنة ١١١٨) واستمر خليفة إلى أن قتل في يوم الأحد ١٧ ذى القعدة سنة ٥٢٩ (٣٠ أغسطس سنة ١١٣٥)

كان سلطان العراق لأول عهده هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان السلطان سنجر بن ملكشاه في ذلك الوقت ملك خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر إلى غزنه وحوارزم وقد عظمت دولته وهو شيخ البيت السلجوقي وعظيمه . فلما توفي أخوه محمد وجلس ابن أخيه محمود وهو زوج ابنته لحقه لوفاة أخيه حزن أليم وجزع شديد وجلس للعزاء على الرماد وتقدم إلى الخطباء بذكر السلطان محمد بمحاسن أعماله من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك وكان يلقب ناصر الدين فلما توفي أخوه تلقب معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه وعزم على قصد الجبل والعراق وما بيد ابن أخيه محمود . ثم إن السلطان محمود أرسل إلى عمه سنجر وفدا معه الهدايا والتحف وطلب إليه أن ينزل له عن مازندران فغاضبه هذا الطلب وقال إن ولد أخي صبي وقد تحكم عليه وزيره وحاجبه وصمم على المسير فसार وكذلك فعل السلطان محمود والتقى عند الري بالقرب من ساوة وكان العسكر المحمودي قد استهان بالعسكر السنجري لكثرة الأولين وشجاعتهم وكثرة خيلهم ولما حصل اللقاء انهزمت ميمنة سنجر وميسرته وسارت جنودهما لا تلوى على شيء أما سنجر فكان واقفا في القلب وأمامه السلطان محمود وقد أشار بعض المقربين من سنجر عليه أن ينهزم فقال إما النصر وإما القتل وأما الهزيمة فلا وهجم بفيلته على قلب محمود هجوما شديدا فتراجعت خيل محمود على أعقابها وكان بذلك هزيمة السلطان محمود ولما تم النصر لسنجر أرسل من رد المنهزمين من جنده ووصل الخبر إلى بغداد في عشرة أيام فأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل . أما محمود فانه سار إلى أصبهان ومعه وزيره وبعض أمرائه وأما سنجر فसार إلى همدان وهناك راسل ابن أخيه في الصلح وكانت الودة سنجر تشير عليه بذلك وتقول قد استوليت على غزنه وأعمالها وما وراء النهر وملكت

ملاحظ عليه وقررت الجميع على أصحابه فاجعل ولد أخيك كأحدكم فأجاب إلى قولها وبعد مطاولات تقرر الصلح وسار محمود إلى عمه سنجر ونزل على جدته أم السلطان سنجر وأكرمه عمه وبالغ في إكرامه وحمل له محمود هدية عظيمة فقبلها ظاهرا وردها باطنا ولم يأخذ منه سوى خمسة أفراس عربية وكتب السلطان سنجر إلى جميع أعماله أن يخطب لمحمود من بعده حيث جعله ولي عهده ورد عليه جميع ماأخذه منه سوى الرى

ولم يكذب السلطان محمود ينتهى من هذا النزاع بينه وبين عمه حتى قام ضده أخوه مسعود بن محمد وكان لمسعود حينئذ الموصل وأذربيجان وذلك سنة ٥١٤ وقد أجمع الأمراء نار هذا الخلاف لينالوا من وراء ذلك حظوظهم ولا يبالون بالملكة الافرنجية التي صارت شوكة في جنوبهم وكان وزير مسعود هو الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي الاصفهاني وهو الذي حسن لمسعود أن يقوم مطالباً بالملكة ولما بلغ ذلك محمودا كتب إليهم يخوفهم إن خالفوه ويعدهم الاحسان إن أقاموا على طاعته وموافقته فلم يصغوا إلى قوله وأظهروا ما كانوا عليه وما يسرونه وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النوب الخمس ثم سار كل منهم إلى لقاء صاحبه فالتقوا عند عقبة أسداباذ واقتلوا من بكرة إلى آخر النهار وأبليت الجنود المحمودية بلاء حسنا فانهزم عسكر محمود آخر النهار وأسر جماعة من مقدمى جنودهم ومنهم الوزير أبو إسماعيل الطغراني فأمر السلطان بقتله وقال قد ثبت عندى فساد دينه واعتقاده وكان حسن الكتابة والشعر

ثم أرسل محمود وراء أخيه من لحقه وأتى به بعد أن بذل له الامان فاستقبله استقبالا عظيما وفي له بما بذله وخلطه بنفسه في كل أفعاله فعد ذلك من مكارم محمود ولا عجب فقد علمه ذلك عمه سنجر

كان الخليفة المسترشد بالله في هذا العصر قد استرد شيئا من نشاط الخلفاء العباسيين وقاد الجيوش بنفسه لحرب المخالفين عليه وأهمهم ديبس بن صدقة ملك الحلة ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل ولا شك أن الملوك السلجوقيين لا يقع ذلك عندهم موقع الاستحسان فانهم يتخوفون عاقبته ويرون منه خطرا على نفوذهم وبما يدل على أن ذلك منحه قوة لم تكن لسلفه أن شحنة بغداد برنقش الذكوى حصل بينه

وبين نواب الخليفة نفرة فتهده الخليفة تخاف فسار عن بغداد إلى السلطان محمود وشكا إليه وحذره جانب الخليفة وأعله أنه قاد العساكر ولقى الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله بقصد العراق ودخول بغداد ازداد قوة وجمعا ومنعك عنه وحيثئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده فأثر ذلك الكلام في نفس السلطان وتوجه نحو العراق فأرسل إليه الخليفة يعرفه ما بالبلاد وأهلها عليه من الضعف والوهن وأن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والأقوات لهرب الأكررة ويطلب منه أن يؤخر حضوره حتى تصلح الأحوال وبذل له على ذلك مالا كثيرا فكان هذا مما زاد في إغراء السلطان حتى قصد بغداد فسار إليها مجدا ولما بلغ الخليفة الخبر أظهر الغضب والنزوح عن بغداد واستعد لذلك أن جاء السلطان فأثر ذلك في أنفوس العامة تأثيرا عظيما حتى أكثروا البكاء والضجيج ولما علم السلطان بذلك أرسل يستعطف الخليفة ويطلب إليه العودة إلى داره فأبى إلا أن يعود السلطان ولا يحضر إلى بغداد فلم يلتفت السلطان إلى قوله واستمر قاصدا بغداد أما الخليفة فاستعد لمقابلته بالقوة وكان معه كثير من العامة والجند يدافعون عنه تدنيا وقد حصلت مناوشات بين الفريقين في أول سنة ٥٢١ وكان مع كل جمع عظيم ولما رأى المسترشد بالله ذلك جنح إلى الصلح الذي طلبه السلطان محمود فتم ذلك وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بأحراق بغداد فلم يفعل وقال لا تساوى الدنيا فعل مثل هذا وأقام ببغداد إلى رابع شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١ ثم فارقتها بعد أن حمل إليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة

وفي سنة ٥٢٤ ملك السلطان محمود قلعة الموت من يد صاحبها الحسن بن الصباح وفي سنة ٥٢٥ توفي السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان حليما كريما عاقلا يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة قليل الطمع في أموال الرعايا غنيفا عنها كافا لأصحابه عن التطرق إلى شيء منها

لما توفي خطب لولده داود بالسلطنة في بلاد الجبل وأذربيجان إلا أنه قام ضده ابن عمه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه فكان الظفر لمسعود وخطب له بالسلطنة على منابر بغداد إلا أن هذا لم يرق لعميد البيت ورئيسه السلطان سنجر فأقبل من خراسان قاصدا دفع مسعود عن السلطنة وسار إليه مسعود فالتقيا بعولان عند الدينور وكانت النتيجة أن انهزم مسعود وقل جيشه وتحكم سنجر فيما بقي ثم أرسل

وراء ابن أخيه من يردده فردوه اليه فلما حضر عنده قبله وأكرمه وعاتبه على عصيانه ومخالفته ولم يعده إلى السلطنة بل رده إلى كنجبه وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمد مكانه وخطب له في جميع البلاد ثم عاد إلى نيسابور فلما رأى ذلك مسعود خرج من مكمنه وتوجه إلى بغداد ثانياً بما جمعه من الجيوش فدخلها فقابله الخليفة بالاحكام ووعده أن يرسل معه جيشاً لمحاربة طغرل وقد وفى بما وعد فسارت الجنود المسعودية صوب طغرل حتى التقوا به عندهمذان فكانت بينهما موقعة انهزم فيها طغرل واستقر الأمر ثانية للسلطان (غياث الدنيا والدين أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه)

كان هذا الخلاف بين البيت السجوقى مقويا للمسترشد فصار يعد نفسه صاحب الأمر الذى يجب أن يطاع لا بالقوة المعنوية وحدها بل بقوة السيف أيضاً فقد صار تحت أمره أجناد ورجال يلبون دعوته وينفذون كلمته وقد حصل بسبب ذلك نفرة بينه وبين السلطان مسعود أدت إلى أن أمر الخليفة بقطع خطبة مسعود من منابر بغداد ولم يقف عند ذلك بل تجهز بجيشه يريد حرب مسعود بدار سلطنته ومعه الجنود الكثيرة إلا أنها لم تكن ذات عصية تصدق عند اللقاء فان العصية الجنسية غلبت بهما كانت الأحوال ولذلك لما التقى الطرفان انحاز كثير من عسكر الخليفة الأتراك إلى السلطان مسعود فانهزم جند الخليفة أما هو فبقى ثابتاً حتى أسر ولما بلغ ذلك الخبر بغداد قامت قيامة أهلها وخرجوا من الأسواق يحنون التراب على رؤسهم ويكفون ويصيحون وخرج النساء حاسرات في الأسواق يلطمن

أما الخليفة فقد جعله السلطان في خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما في تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة وألا يعود إلى جمع العساكر وألا يخرج من داره فأجيب إلى ذلك ولم يبق إلا أن يعود الخليفة إلى بغداد إلا أنه صادف أن هجم على خيمة الخليفة جماعة من الباطنية فقتلوه ومثلوا به وكان ذلك في يوم الأحد ١٧ ذى القعدة على باب مدينة مراغة وكان المسترشد شهماً شجاعاً كثير الاقدام بعيد الهممة وكان فصيحاً بليغاً حسن الحظ قال ابن الأثير ولقد رأيت خطه في غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه ولقد حاول أن يعيد شيئاً من مجد أهل بيته فحالت الأقدار بينه وبين ما أراد

٣٠ - الراشد بالله

بوع بالخلافة بعد المسترشد بالله ابنه أبو جعفر المنصور الراشد بالله وكان ولي العهد فلما مات أبوه جددت له البيعة في ٢٧ من ذي القعدة وكتب السلطان إلى شحنة بغداد بالبيعة له وحضر بيعته ٢١ رجلا من أولاد الخلفاء لم يكن السلطان مسعود مع الراشد أسعد حظا من أيه معه بل حاول الراشد أن يثار لآييه ويخل سلطنة مسعود فاتفق مع داود بن السلطان محمود أخى مسعود ومع كثير من أمراء الأطراف على مقاومة مسعود وخلعه ولما سمع بذلك مسعود أقبل مسرعا صوب بغداد ولما وصلها حصرها لامتناع الخليفة ومن معه بها ولسكن سرعان ما اختلفت كلمة الأمراء الذين خالفوا الخليفة وتفرقوا تاركين بغداد حتى أكبرهم شأنًا عماد الدين زكى صاحب الموصل ولما رأى الخليفة ذلك بارح بغداد في رفقة عماد الدين ولما رأى مسعود ذلك دخل بغداد ظافرا وأمر بجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التي حلف الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده إني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر. فآقتوا بخروجه من الخلافة. وكانت خلافته ١١ شهرا و ١١ يوما

٣١ - المقتنى لأمر الله

هو أبو عبد الله الحسين المقتنى لأمر الله بن المستظهر اختاره السلطان مسعود للخلافة بعد أن كتب محضر بخلع ابن أخيه الراشد من الخلافة وكانت بيعته في ثامن ذى الحجة سنة ٥٣٠ (٧ سبتمبر سنة ١١٣٦) واستمر في الخلافة إلى أن توفي ثاني ربيع الأول سنة ٥٥٥ (١٢ مارس سنة ١١٦٠) فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و١٦ يوما وكان عمره إذ توفي ٦٦ سنة

ولما بايع السلطان المقتنى صاهره فزوجه أخته فاطمة على صداق مائة ألف دينار وبذلك أمن السلطان أن يكون الخليفة ضده . وقد حاول الخليفة المعزول أن يعيد لنفسه الخلافة فاتحد مع الملك داود ابن السلطان محمود ولكنه مع ما بذل من المجهود العظيم لم ينجح فقد اتمر به جماعة من الباطنية فسقوه الردي بنواحي أصفهان استمر السلطان مسعود في سلطانه مع كثرة المخالفين والخارجين عليه من أهل بيته ومن أمرائه إلى أن توفي سنة ٥٤٧ بهمدان وذلك على رأس مائة سنة من الخطبة ببغداد للسلطان طغرل بك وماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقي فلم تقم له بعده راية يعتمد بها ولا يلتفت إليها . وكان رحمه الله حسن الأخلاق كثير المزاح والتبسُّط مع الناس وكان كريما عفيفا عن أموال الرعية حسن السيرة فيهم . من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عربكة سهل الأخلاق وكان مسعود قد عهد بالسلطنة بعده لابن أخيه ملكشاه ابن السلطان محمود

أما الخليفة فإنه لما بلغه وفاة مسعود طرد شحنة السلاجوقية بها وأخذ داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ كل ما لهم فيها وكل من عنده وديعة لأخدمتهم أحضرها بالديوان وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجند وتقدم باراقة الخنور من مساكن أصحاب السلطان وأرسل جنوده فاستولت على سائر البلاد العراقية الحلة وواسط وغيرها وخرج بنفسه ليقوى جنده

أصبح ذلك الملك العظيم الذي أسسه طغرل بك وإخوته ورفع بنيانه ملكشاه أصبح منها تقاسمته دول شتى تعرف بالدول الأتابكية وهما نحن أولاء نقص حديثها

الأتابكية

من الدول التركية التي زاحت دولة السلاجقة وسامتها الدول الأتابكية ويوتها شتى لا تنتهى إلى نسب واحد إلا أنها يجمعها الاتصال بالبيت السلجوقي وأتابك كلة تركية معناها مربى الملك فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قوادهم بهذا الامتياز أطلقوا عليه هذا اللقب واستحق به أعلى درجات التكريم والاحترام قد وصل بعض هؤلاء الأتابكية إلى درجة الملك فى بعض الأقاليم الاسلامية وأورثوا أبناءهم ملكهم ويطلق على هؤلاء الأسر الأتابكية ومعهم دول ينتسبون أيضا إلى ولاء السلاجقة ولا يلقبون بهذا اللقب بل بلقب شاهات وسنوق أخبارها بالاجمال حسب ترتيب ظهورها

١ - شاهات خوارزم

ينتسبون إلى محمد بن أنوشتكين وكان أبوه أنوشتكين مملوكا لأمير من أمراء السلجوقيين اسمه بلكباك اشتراه من رجل من غرستان فقيل له أنوشتكين غرشمه فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف وكان مقدا مرجوعا إليه وولد له ولد سماه محمد . وهو باني هذا البيت عليه أبوه وخرجه وأحسن تأديه وتقدم بنفسه بالعناية الالهية فولاه الأمير حبشى قائد بركياروق خوارزم ولقبه خوارزمشاه فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب أهل العلم والدين فازداد ذكره حسنا ومحله علوا . ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقر محمد خوارزمشاه على خوارزم وأعمالها فظهرت كفايته وشهامته فعظم سنجر محله وقدره . ولم يزل على جلالة القدر والكفاية إلى أن توفى سنة ٥٢١ فولى بعده ابنه أئسر فقربه السلطان سنجر وعظمه واعتضد به واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهامة فزاده تقدما وعلوا ورسخت أقدام هذا البيت فى الملك وقد استمر إلى سنة ٦٢٨ حيث زال على ايدي التتر الذين هاجموا البلاد الاسلامية بزعامة جنكينخان كما سيأتى توضيحه وهذا ثبت ملوك الخوارزمشاهية

- (٢) قطب الدين محمد بن أنوشكين — ٥٢١
 (٣) أنسر بن محمد — ٥٥١
 (٤) أرسلان بن أنسر — ٥٦٨
 (٥) سلطان شاه محمود بن أرسلان — ٥٦٨
 (٦) تكش بن أرسلان — ٥٩٦
 (٧) علاء الدين محمد بن تكش — ٦١٧
 (٨) جلال الدين منكبرتي بن محمد — ٦٢٨

وعلى يد هذه الدولة انقضت دولة السلاجقة بخراسان ومااليها من بلاد الري والجلجبل وما وراء النهر

٢ — الدولة الأرتقية

تنسب هذه الدولة إلى أرتق بن أكسب الترياني وهو مملوك من ممالك السلطان ملكشاه السلجوقي وقائد من قواده

وأول من أسس هذا البيت معين الدولة سقمان بن أرتق استولى على حصن كيفا سنة ٤٩٥ من يد الأمير موسى الترياني في عهد السلطان بركياروق بن ملكشاه ثم ضم إليها ماردين

وفي سنة ٥٠٢ انقسمت هذه المملكة الصغيرة إلى مملكتيه إحداهما بالحصن والثانية بماردين فأما مملكة الحصن فاستمرت إلى سنة ٦٢٠ وانتهت على أيدي الأيوبيين — وأما مملكة ماردين فاستمرت إلى سنة ٨١١ أي بعد ظهور آل عثمان بمائة وإحدى عشرة سنة وانتهت على يد قره قيونلي وهذه أسماء ملوك الحصن

- (١) معين الدولة سقمان بن أرتق — ٤٩٥ — ٤٩٨
 (٢) إبراهيم بن سقمان — ٥٠٢ —
 (٣) ركن الدين داود بن سقمان — ٥٤٣ —
 (٤) قر الدين قره أرسلان بن داود — ٥٧٠ —
 (٥) نور الدين محمد بن أرسلان — ٥٨١ —
 (٦) قطب الدين سقمان بن محمد — ٥٩٧ —

- (٧) ناصر الدين محمود بن محمد ٦١٩ —
 (٨) ركن الدين مودود بن محمود ٦٢٠ —
 وهذه أسماء ملوك ماردین :
- (١) نجم الدين غازى بن أرتق ٥١٦ — ٥٠٢
 (٢) حسام الدين تیمورتاش بن غازى ٥٤٧ —
 (٣) نجم الدين ألبى بن تیمورتاش ٥٧٢ —
 (٤) قطب الدين غازى بن البى ٥٨٠ —
 (٥) حسام الدين يولق بن أرسلان بن غازى ٥٩٧ —
 (٦) ناصر الدين أرتق أرسلان بن غازى ٦٣٧ —
 (٧) نجم الدين غازى بن أرتق أرسلان ٦٥٨ —
 (٨) قره أرسلان بن غازى ٦٦١ —
 (٩) شمس الدين داود بن قره أرسلان ٦٩٣ —
 (١٠) نجم الدين غازى بن قره أرسلان ٧١٢ —
 (١١) شمس الدين صالح بن غازى ٧٦٥ —
 (١٢) المنصور أحمد بن صالح ٧٦٩ —
 (١٣) الصالح محمود بن أحمد ٧٦٩ —
 (١٤) المظفر داود بن صالح ٧٧٨ —
 (١٥) الظاهر مجد الدين عيسى بن داود ٨٠٩ —
 (١٦) صالح بن داود ٨١١ —

وصالح هذا آخر ملك من موالى السلجوقيين

٣ - أتابكية دمشق

ابتدأت هذه الدولة سنة ٤٩٧ و أول ملوكها سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين وأصله مملوك للملك تتش بن الب أرسلان أول سلاجقة سوريا ثم صار من قواده الذين يعتمد عليهم وكان اتابك ولده دقاق . وبعد قتل تتش استمر مع ولده دقاق وكان سنده وظهيره فلما توفي دقاق سنة ٤٩٧ خطب أتابك لولد له صغير وجعل اسم المملكة فيه سنة واحدة ثم قطع خطبته وخطب ليكتاش بن تتش عم هذا الطفل وله من العمر ١٢ سنة وأشار عليه أن يقصد الرحبة فقصدتها فلما عاد منها منع طغتكين من دخوله دمشق وأعاد خطبة الطفل ولد دقاق . وقد حاول بكتاش أن يسترد ملكه واستعان على ذلك بملك الأفرنج في القدس فلم ينجح واستمر ملك دمشق لطغتكين فأحسن إلى الناس وبث فيهم العدل فسروا به سروراً كثيراً وقد استمر الملك في عقبه ٥٢ سنة وانتهى على يد آل زنكي سنة ٥٤٩ وهذا ثبت ملوكهم

- | | | |
|-------|-------|-----------------------------------|
| ٥٢٢ - | ٤٩٧ - | (١) سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين |
| ٥٢٦ - | | (٢) تاج الملوك بوري |
| ٥٢٩ - | | (٣) شمس الملوك اسماعيل |
| ٥٣٣ - | | (٤) شهاب الدين محمود |
| ٥٣٤ - | | (٥) جمال الدين محمد |
| ٥٤٩ - | | (٦) مجير الدين أبق |

٤ - أتابكية الموصل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٢١ وتنسب إلى عماد الدين زنكي بن أبق سنقر وكان أبق سنقر مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقي وكان معدودا من كبار القواد جعله ملكشاه من قواد أخيه تتش ولما ملك حلب استنابه فيها ثم التحق بالسلطان بركياروق بعد وفاة ملك شاه وسار في خدمته . وكان تتش يمين نفسه بملك العراق فجهز الجيوش ليستطوع عليها فأرسل بركياروق إليه الجنود عليهم أبق سنقر فالتق الفريقان عند نهر سبعين قريبا من تل السلطان بينه وبين حلب ستة فراسخ واقتلوا فانهزم

من مع أق سنقر وثبت هو فأسرم قتل صبوا وكان أحسن الأمراء سياسة وحفظا لرعيته وقد نشأ ابنه أتابك عماد الدين زنكي في كهف الدولة السلجوقية واهتم به ملوكهم لما لايه من الأبادى البيضاء في حفظ بيتهم ولأنه قتل في الدفاع عنهم فنشأ نشأة عالية ذاهمة مقداما وكانوا يستعينون به في مهماتهم فيكفهم إياها وما زال ينه ذكره وتقوى همته حتى ولاة السلطان محمود مدينة الموصل سنة ٥٢١ يقوم بحفظها وإصلاح شأنها وجعله أتابك ولده فروخ شاه المعروف بالخفاجى ليريه

أظهر زنكي في ولايته كفاية وقوة وصلاحا وكان له في جهاد الصليبيين همة لا تزال تذكر له وهو رأس الأتابكية من بيت زنكي وقد انقسمت إلى أربعة دول الأولى أتابكية الموصل وهذا ثبت ملوكها :

- | | |
|-----------|-----------------------------------|
| ٥٤١ - ٥٢١ | (١) أتابك عماد الدين زنكي |
| ٥٤٤ - | (٢) سيف الدين غازى بن زنكي |
| ٥٦٥ - | (٣) قطب الدين مودود بن زنكي |
| ٥٧٦ - | (٤) سيف الدين غازى بن مودود |
| ٥٨٩ - | (٥) عز الدين مسعود بن مودود |
| ٦٠٧ - | (٦) نور الدين أرسلان شاه بن مسعود |
| ٦١٥ - | (٧) عز الدين مسعود بن أرسلان شاه |
| ٦١٦ - | (٨) نور الدين أرسلان شاه بن مسعود |
| ٦٣١ - | (٩) نصير الدين محمود بن مسعود |
| ٦٥٧ - | (١٠) بدر الدين لؤلؤ |
| ٦٦٠ - | (١١) إسماعيل بن لؤلؤ |

وبدر الدين لؤلؤ ليس من هذا البيت بل هو مولاهم استقل بأمر الملك بعد سيده

نصير الدين محمود وقد انتهت هذه الدولة على يد المغول

٥ - أتابكية سوريا

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٤١ هـ وهي السنة التي قتل فيها عماد الدين زنكي فان مملكته انقسمت بين ولديه سيف الدين غازي الذي ملك الموصل ومحمود نور الدين الذي ملك حلب وانهت سنة ٥٧٧ على أيدي الأيوبيين ولم يكن منها إلا ملكان أحدهما محمود نور الدين بن زنكي والثاني الصالح اسمعيل بن محمود ومحمود نور الدين هذا هو أستاذ صلاح الدين يوسف بن أيوب والرجلان كلاهما له القدم الثابتة في جهاد الصليبيين

٦ - أتابكية سنجان

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٦٦ بعد وفاة قطب الدين مودود صاحب الموصل فان بلاده انقسمت بين ولديه سيف الدين غازي بن مودود الذي كان ولي عهد أبيه وهو أصغر الأخوين وهذا ملك الموصل والثاني عماد الدين زنكي ابن مودود وهذا ملك سنجان وما معها بواسطة عمه نور الدين محمود. وانهت هذه الدولة سنة ٦١٧ على أيدي الأيوبيين وهذا ثبت ملوكها :

- | | |
|-----------|------------------------------|
| ٥٩٤ - ٥٦٦ | (١) عماد الدين زنكي بن مودود |
| ٦١٦ - | (٢) قطب الدين محمد بن زنكي |
| ٦١٦ - | (٣) عماد الدين شاهنشاه |
| ٦١٧ - | (٤) عمر |

٧ - أتابكية الجزيرة

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٧٦ بعد وفاة سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل فان بلاده انقسمت بين ولديه عز الدين مسعود وهو الأكبر وهذا ملك الموصل والثاني سنجرشاه بن مسعود وهذا ملك جزيرة ابن عمر وقد بقيت في يد أولاده إلى سنة ٦٤٥ حيث أخذها الأيوبيون والذين تولوها هم :

- | | |
|-----------|---------------------------------|
| ٦٠٥ - ٥٧٦ | (١) معز الدين سنجرشاه |
| ٦٤٨ - | (٢) معز الدين محمود بن سنجر شاه |

٨ - اتابكية اربل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٣٩ أسسها زين الدين علي كجك بن بكتكين وهو مملوك تركاني لعهاد الدين زنكي جعله اتابك ولده قطب الدين مودود وقد فتح بلادا كثيرة في بدء الدولة الزنكية كان يده منها سنجار وحران وقلعة عقر الخيدية وقلعة الهكارية وتكرت وشهرزور وغيرها واستمر كذلك إلى سنة ٥٦٣ وقبل أن يموت سلم جميع ما بيده إلى قطب الدين مودود ولم يتقله سوى إربل فسار عن الموصل وأقام بها وفي هذه السنة توفي فولى بدله ابنه زين الدين أبو المظفر يوسف وهو الصغير تعصب له مجاهد الدين قايمازو كان أخوه الأكبر مظفر الدين كوكبوري فحاول أن يكون بدل أبيه فلم يحصل على بغيته فسار إلى الموصل وملكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود فأقطعه حران فأقام بها مدة ثم انتقل إلى خدمة صلاح الدين يوسف فخطى عنده وتمكن منه وزاد صلاح الدين في أقطاعه الرها وزوجه أخته وقد حضر معه كثيرا من مشاهده وأظهر نجدة وعزيمة فلما توفي أخوه يوسف سنة ٥٨٣ رده صلاح الدين إلى ملكه باربل فاستقر فيه إلى أن مات سنة ٦٣٠ وأوصى ببيلاده قبل موته للخليفة العباسي فبقيت بأيدي العباسيين إلى أن جاء المغول فأخذوها فيما أخذوا

٩ - اتابكية أذربيجان

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٣٦ ومؤسسها هو الأمير ايلدكز وكان مملوكا للكمال السميرى وزير السلطان محمود السلجوقى فلما قتل الكمال سار ايلدكز إلى السلطان محمود . ولما ولي السلطان مسعود السلطنة ولاءه ارانية فضى إليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره . ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمدان وغيرها وأصفهان والري وما إليهما من البلاد وخطب بالسلطنة لارسلان شاه بن طغرل وهو رييه وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الاتباع واتسع ملكه من باب تغليس إلى مكران ولم يكن للسلطان أرسلان معه حكم إنما كانت له جراية تصل إليه وكان

ايلد كز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكواهم وينصف بعضهم من بعض وهذا ثبت ملوك هذا البيت

- (١) شمس الدين ايلد كز ٥٣١ - ٥٦٨
 (٢) محمد البهلوان جهان بن ايلد كز ٥٨١ -
 (٣) قزيب أرسلان عثمان بن ايلد كز ٥٨٧ -
 (٤) أبو بكر بن محمد ٦٠٧ -
 (٥) مظفر الدين أزيك بن محمد ٦٢٢ -

وقد انتهت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم

١٠ — أتابكية فارس (الدولة السلغرية)

ابتدأت هذه الدولة بفارس سنة ٥٤٣ وتنسب إلى سلغر أحد قواد التركان في عهد السلاجقة وكانت نهايتها سنة ٦٨٦ على أيدي المغول وهذا ثبت ملوكها

- (١) سنغر بن مودود بن سلغر ٥٤٣ - ٥٥٧
 (٢) زنكي بن سنقر ٥٨١ -
 (٣) دكلا بن زنكي ٥٩١ -
 (٤) سعد بن زنكي ٦٢٣ -
 (٥) أبو بكر بن سعد ٦٥٨ -
 (٦) محمد بن سعد ٦٦٠ -
 (٧) محمد شاه بن محمد ٦٦٠ --
 (٨) سلجوقشاه بن سلغر بن سعد ٦٦٠ -
 (٩) ايش بن سعد بن أبي بكر ٨٨٦ -

١١ - أتابكية لورستان (الهزارسيه)

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٤٣ هـ وهي من فروع الدولة السلغرية أتابكية فارس أسسها أبو طاهر أحد قوادهم وهذا ثبت ملوكهم

- | | |
|-----------|--|
| ٦٠٠ - ٥٤٣ | (١) أبو طاهر بن محمد |
| ٦٥٠ - | (٢) نصره الدين هزارسب بن أبي طاهر |
| ٦٥٧ - | (٣) دكلا بن هزارسب |
| ٦٧٣ - | (٤) شمس الدين الب ارغو بن هزارسب |
| ٦٨٧ - | (٥) يوسف شاه الأول بن الب ارغو |
| ٦٩٦ - | (٦) افراسياب الأول بن يوسف |
| ٧٣٣ - | (٧) نصره الدين أحمد بن الب ارغو |
| ٧٤٠ - | (٨) ركن الدين يوسف شاه الثاني بن أحمد |
| ٧٥٦ - | (٩) مظفر الدين افراسياب الثاني بن يوسف شاه |
| ٧٨٠ - | (١٠) شمس الدين هوشانج بن افراسياب الثاني |
| ٨١٥ - | (١١) أحمد |
| ٨٢٠ - | (١٢) أبو سعيد |
| ٨٢٧ - | (١٣) حسين |
| | (١٤) غياث الدين |

وقد انتهت هذه الدولة على أيدي الدولة التيمورية

شاهات ارمينية

ابتدأت دولتهم سنة ٥٨٣ هـ ومؤسسها هو الأمير سقمان القطبي بمدينة خلط و كان مملوكا لقطب الدين اسماعيل السلجوقي صاحب مدينة من أذربيجان ومن ثم قيل له القطبي نشأ شهماً كافياً وكانت خلط لبني مروان وظلوا واشتهر عدل سقمان فاتفق أهل خلط وكانوه نجاء وفتحوها له وسلبوها إليه وهذه أسماء الملوك من هذا البيت

٥٠٦ - ٤٩٣

(١) سقمان القطبي

- (٢) ظهير الدين إبراهيم شاه أرمن — ٥٢١ —
 (٣) أحمد — ٥٢٢ —
 (٤) ناصر الدين سقمان — ٥٧٩ —
 (٥) سيف الدين بكتيمور — ٥٧٩ — ٥٨٩ —
 كان مملوكا لهم وهو صاحب ميافارقين
 (٦) بدر الدين أقي سنقر — ٥٨٩ — ٥٩٤ —
 اسمه هزار دينارى وهو مملوك أقي سنقر وزوج ابنته
 (٧) المنصور محمد بن بكتيمور — ٥٩٤ — ٦٠٣ —
 (٨) عز الدين بلبان — ٦٠٤ —
 وقد انتهت دولتهم على أيدي الأيوبيين

الدولة الغورية

كما يضاف إلى الدول التي حدثت في هذا العهد الدولة الغورية وهي دولة قامت على أطلال الدولة السبكتيكية. تنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها وهو الغور وهو جبال وولاية بين هراة وغزنة وهي بلاد باردة واسعة موحشة وهي مع ذلك لا تنطوي على مدينة وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروزكوه قام بهذه البلاد آل سام من سنة ٥٤٣ هـ وملكوا ما كان يملكه آل سبكتكين من بلاد الغور وأفغان والهند ولم يزل ملكهم قائما إلى سنة ٦١٢ هـ

وأول من قام من هذا البيت قطب الدين محمد بن الحسين ملك بلاد الغور وصاهر بهرامشاه مسعود بن إبراهيم صاحب غزنة فعظم شأنه بهذه المصاهرة وعلت همته فعاجله بهرامشاه قبل أن يكون منه حدث عظيم فقتله فعظم قتله على الغورية وولوا بعده أخاه سيف الدين سوري بن الحسين فقوى أمره وتمسك في ملكه فجمع عسكرا كثيرا وسار إلى غزنة طالبا بثأر أخيه فلما وصل غزنة ملكها وهرب عنها بهرامشاه إلى الهند فجمع جموعا كثيرة وعاد إلى غزنة وهوى أهلها معه فخرج سوري إلى لقائه فلما تصاف العسكران أسلم سوري جنوده فقهره بهرامشاه وصلبه واستعاد ملك غزنة سنة ٥٤٤ هـ وكان سوري أحد الأجواد له الكرم الغزير والمروءة العظيمة

اختار الغورية بعده أخاه علاء الدين حسين بن الحسن ولقبه جهان سوز فأعاد الكرة على غزنة سنة ٥٥٠ وملكها وأخرج عنها بهرامشاه واستعمل عليها أخاه سيف الدين محمدا وأجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين من بعده وتلقب علاء الدين بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية ومات علاء الدين سنة ٥٥٦ فملك بعده غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام بن الحسن وكان عضده الأقرى أخوه شهاب الدين محمد وقد حسنت سيرتهما وقويت جموعهما فملكا بلاد الغور والأفغان والهند وعلى يدهما انقرض ملك آل سبكتكين سنة ٥٨٢ بعد أن ملكوا ٢١٣ سنة تقريبا

ولمعظم ملك الغوريين وكثرت عساكرهم وأمواهم خطب لغياث الدين وتلقب بألقاب السلاطين وكان يدعى له على المنابر غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين

وامتد ملك غياث الدين وأخيه على معظم بلاد خراسان ومعظم بلاد الهند تيسر لهما فتح الكثير منها وتدويج ملوكها وقد بلغا منهم ما لم يبلغه أحد قبلهما من ملوك المسلمين وجعل مدينة دهلي كرسى الممالك متى فتحها من بلاد الهند وأقطعها ملوكه قطب الدين أيك وقطب الدين هذا هو مؤسس بيت سلاطين دهلي الذين استمر ملكهم من سنة ٦٠٢ وهى السنة التى توفى فيها شهاب الدين الغورى إلى سنة ٦٨٦ وهذا ثبت ملوك هذا البيت :

- | | |
|-----------|-------------------------------|
| ٦٠٧ — ٦٠٢ | (١) أيك قطب الدين |
| ٦٠٨ — | (٢) أرم شاه |
| ٦٣٣ — | (٣) الشمس شمس الدين |
| ٦٣٤ — | (٤) فيروز شاه الأول ركن الدين |
| ٦٣٨ — | (٥) رضا |
| ٦٣٩ — | (٦) بهرام شاه معز الدين |
| ٦٤٤ — | (٧) مسعود شاه علاء الدين |
| ٦٦٤ — | (٨) محمود شاه الأول نصر الدين |
| ٦٨٦ — | (٩) بلبن غياث الدين |

(١٠) كيقباز معز الدين

وغياث الدين الغورى وأخوه شهاب الدين معدودان من ملوك الهند العظام والدولة الغورية هي ثانی مملكة هندية بعد الدولة السبكتيكية

وفى عهد المقتنى حصلت الحرب الصليبية الثانية وسببها أن الأفرنج بالشام رأوا من محمود نور الدين ماها لهم فقد استولى على كثير من معقلهم وحصونهم فقرروا طلب الاعانة والنجدة من البابا أوجانيوس الثالث وأرسلوا لذلك رسلا أقامت عباراتهم الشديدة البابا وأقعدته وحركت من نفسه الغيرة وخشى أن يكون سلفه أسبق إلى الفوز منه فأرسل دعائه إلى فرنسا وملكها لوزير السابع فأجاب الداعية وكان أعظم مؤثر فيهم ما أخبروا به من سقوط مملكة الرهايين يدي المسلمين وأرسلت الدعاء أيضا إلى ألمانيا وملكها كونراد الثالث فأجاب الداعية أيضا وكان لهذين الملكين الزعامة على جيوش هذه الحرب الثانية

وقد وصل إلى القسطنطينية أولا الملك كونراد الثالث بجيشه وكان ملكها عمانويل ابن اليكسيوس الأول وكان يخاف من الصليبيين على مملكته فكاد لهم المكائد ثم تلاه لويس السابع بجيوشه

ذهب الألمان أولا مجتازين بلاد قونية بلاد السلاجقة فلقيهم هؤلاء بحروب شديدة كسرت حدتهم وقتلت أكثرهم وجعلت زعيمهم يرتد خائبا كسيرا حتى قابل الجيوش الفرنسية فسار معهم بغلول جيشه حتى وصلوا إلى القدس بعد أن ذاقوا من العذاب ألوانا وذلك سنة ٥٤٢هـ وبعد أن زاروا المدينة المقدسة قرروا الذهاب إلى مدينة دمشق والاستيلاء عليها وكان صاحبها إذ ذاك آخر الدولة الأتابكية وهو مجير الدين أبق ابن محمد بن بورى بن طغتكين والأمر في دولته لمولاه معين الدين أنزى . سار الملكان بجنودهما ومعهما جنود أفرنج الشام حتى وصلوا دمشق سنة ٥٤٣هـ وحاصروها فزحف إليهم أهل البلد مجدين في ردهم وأبلوا بلاء حسنا . كان معين الدين قد أرسل يستنجد بسيف الدين غازى صاحب الموصل فأجاب الداعى وأقبل حتى أتى حلب واستصحب منها أخاه محموداً نور الدين وسارا حتى أتيا حصص ولما علم الصليبيون بذلك خافوا أن يقعوا بين نارين فرحلوا عن دمشق خائبين ورجعوا إلى بلادهم من غير أن يحدثوا أثرا وفى سنة ٥٤٩هـ استولى محمود نور الدين على دمشق

هذه هي الدول التي ورثت ملك السلاجقة العظيم

نعود الآن إلى بيان الحال بعد وفاة السلطان مسعود قلنا إنه كان عهد إلى ابن أخيه ملكشاه وخطب له فعلا ولكن أحد قواد أبيه المعروف بخاص بك أرسل إلى الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد إليه فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة وخطب له بها وخدمه وبالغ في خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليبة المقدار ثم إنه دخل إلى الملك محمد ثاني يوم وصوله فقتله محمد ولم ينتطح في قتله عنزان واستقر محمد في السلطنة وأرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع من إجابته إلى ذلك فسار من همدان في عساكر كثيرة نحو العراق ووصل إليها في ذي الحجة سنة ٥٥١ وقد اهتم الخليفة ووزيره بأمر الدفاع عن بغداد وفرقا السلاح على الجند والعامّة ونصبت المنجنيقات والعرادات وجرت بين الفريقين عدة حروب واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وكان بعض الذين يساعدون السلطان محمدا لا يناصحونه لأجل الخليفة والمسليين فقتروا وقصروا وبيناهم على تلك الحال ورد خبر إلى السلطان محمد بأن أخاه ملكشاه بن محمود ومعه ايلدكز صاحب بلاد اران والملك ارسلان بن طغرل قد دخلوا همدان واستولوا عليها وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمد وأموالهم فلما سمع ذلك محمد جد في القتال لعله يبلغ مناه فلم يقدر على شيء ورحل عنها نحو همدان في أواخر ربيع الأول سنة ٥٥٢ ولما قارب همدان خرج منها خصومه خائبين خائفين

استقر محمد في دار ملكه بأصفهان وصار العراق للخليفة لا يشركه فيه أحد وكانت وفاة السلطان محمد والخليفة المقتدي في زمنين متقاربين فأما محمد فانه توفي بهمدان سنة ٥٥٤ وقد اختلف قواده بعد موته اختلافا كثيرا فطائفة طلبوا أخاه ملكشاه وطائفة طلبوا عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه وهم الأكثر وطائفة طلبوا ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه وأخيرا تم الأمر لارسلان بن طغرل بواسطة المقدم ايلدكز وكان هذا السلطان ربيبه

أما الخليفة المقتدي لأمر الله فانه توفي ثاني ربيع الأول سنة ٥٥٥ وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن وأول

خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحم المالك على الخلفاء من عهد المنتصر إلى الآن إلا أن يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في البلاد حتى كان لا يفوته منها شيء وكان حليما كريما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوى الرأى والعقل الكبير

٣٢ — المستنجد بالله

هو أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتنى لأمر الله وأمه أم ولد اسمها طاموس رومية ولد سنة ٥١٠ وبويع بالخلافة عقب وفاة والده واستمر خليفة إلى أن مات في تاسع ربيع الآخر سنة ٥٦٦

فكانت خلافته ١١ سنة وشهرا وأسبوعا

والمستنجد معدود من خيرة الخلفاء العباسيين ومن مآثره أنه لما ولى أزال المكوس والمظالم ولم يترك بالعراق منها شيئا وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس قبض مرة على خبيث كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال الخليفة أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى إنسانا آخر مثله لا كف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيرا من الأموال على أصحابها أيضا

ومن أعماله أنه حل المقاطعات وأعادها إلى الخراج وهذا عمل حسن إلا أن بعض العلويين بالعراق تضرروا به ومن أجل ذلك يعدون هذا العمل من عيوبه وهو صلاح للجمهور

وكان ملك السلاجقة لعده أرسلان شاه بن محمد بن ملكشاه ولم يكن له شيء من السلطان في بلاد العراق نفسها بل استبد الخليفة بأمرها منذ عهد أبيه

٣٣ - المستضيء بالله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة . بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه وكان عادلا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه في أمان وإحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب مجبا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا . وكانت وفاته ثاني ذي القعدة سنة ٥٧٥

وفي عهده انقضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الأيوبية بهمة مؤسسها المقدم صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب الذي ظهر في كنف محمود نور الدين الشهيد وكان ذلك في محرم سنة ٥٦٧ حيث قطعت خطبة الخليفة العاضد لدين الله واستيفاء ذلك في تاريخ مصر والذي خطب له من العباسيين هو المستضيء بالله

وفي عهده توفي خوارزمشاه ايل ارسلان بن آتسر وملك بعده ابنه سلطان شاه بتدبير أمه ولما علم بذلك أخوه الأكبر علاء الدين تسكش جمع العساكر وقصد خوارزم فاستولى عليها واستقل بالملك

وفي عهده توفي الرجل العظيم ذو القدم الثابتة في فعال الخير وفي جهاد الأفرنج وهو محمود نور الدين بن زنكي وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين وباليمن ومصر وسوريا وقد طبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله قال ابن الأثير في تاريخه وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن من سيرته ولأكثر تحريا منه للعدل وله أخبار حسان ألقت فيها الكتب خاصة

٣٤ — الناصر لدين الله

هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بن المستنجد وأمه أم ولد تركية اسمها زمرد

بويغ بالخلافة بعد وفاة والده المستضيء في ٢ ذى القعدة سنة ٥٧٥ (٣٠ مارس سنة ١١٨٠) ولم يزل خليفة إلى أن توفي في آخر ليلة من رمضان سنة ٦٢٢ (٦ أكتوبر سنة ١٢٢٥) فكانت خلافته ٤٦ سنة وعشرة أشهر و ٢٨ يوما وهو أطول خلفاء بني العباس مدة ولم يزد عليه من خلفاء الفاطميين إلا المستنصر بالله معه فإنه ولي ٦٠ سنة ولا من خلفاء بني أمية بالأندلس إلا عبد الرحمن الناصر فإنه ولي ٥٠ سنة

حال الممالك الإسلامية لعهد

كان في الأندلس وشمال أفريقية دولة الموحدين . وفي عهد الناصر ابتدأت الدولة المرينية بمراكش أسسها عبد الحق المريني سنة ٥٩١ وهو من أعقاب الموحدين وكان بمصر واليمن والحرمين وسوريا الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٤

وكان بالموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر بقايا دول الأتابكية

وكان بقونية دولة سلاجقة الروم

وكان ببلاد الجبل والعراق من السلاجقة السلطان طغريل الثاني وهو آخر سلاجقة العراق

وكان بخوارزم وخراسان وما إليها الدولة الخوارزمية والقائم بالأمر منهم السلطان تكش بن ايل أرسلان إلى سنة ٥٩٦ ثم علاء الدين محمد إلى سنة ٦١٧ ثم جلال الدين منكبرتي إلى سنة ٦٢٨ وهو آخرهم

وكان بالغور والأفغان والهند الدولة الغورية

في عهد الناصر لدين الله انتهى ملك السلجوقيين بالعراق سنة ٥٩٠ بقتل طغريل ابن الب أرسلان على يد خوارزمشاه علاء الدين تكش الذي اتسع ملكه جدا فصار

ملكه ممتدا من أقاصى بلاد ماوراء النهر شرقا إلى بلاد الرى التى أخذها بعد القضاء على السلاجقة ولكن ملكه لم يكن بالرى ثابتا فان الخليفة الناصر قد طمع أن تسكون البلاد له بعد رحيل خوارزمشاه عنها فأرسل إليها جندا مع وزيره فاستردها بعد أن حارب عسكر خوارزمشاه لكن ذلك لم يطل فان خوارزمشاه لما بلغه ذلك رجع لحارب عسكر الخليفة وأخذ البلاد منهم وفي سنة ٥٩٦ توفى وخلفه ابنه قطب الدين خوارزمشاه محمد وزاد ملكه اتساعا

كان هوى خوارزمشاه بعد اتساع ملكه أن يتشرف بذكر اسمه على منابر بغداد فيخطب له بدل السلاجقة فأبى الخليفة ذلك عليه فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده فاستحكمت حلقات الفساد وهذا الذى جعل كثيرا من المؤرخين يعتقد أن خروج التتر إنما كان باستدعاء الناصر لدين الله وليس هذا يبعد وكان قصده على ما يظهر أن يشتغل بهم خوارزمشاه فتخف عنه وطأته وقد اعتادوا ذلك من قبل

الحادث العظيم فى البلاد الاسلامية

إغارة المغول والتتار

من أكبر الحوادث فى التاريخ الاسلامى خروج طوائف المغول والتتر إلى البلاد الاسلامية واستيلائهم على معظمها فى آسيا وشرقى أوربا وأول فتح هذا الباب كان على يدى جنكيزخان المغولى وخوارزمشاه محمد بن تكش الخوارزمى التترشعب كبير من الأمة التركية ومنه تنفرع معظم بطونها وأغآذها وهو مرادف للترك عند الافرنج حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترًا ومنهم العثمانيون والتركان وقرمان وغيرهم وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سيثيا أو اسكوتيا ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون أنبجهم خان أحد ملوك الترك فى الأزمنة القديمة ولد له ولدان توأمان هما تارخان ومغل خان نحو ربيعة ومضر فى الأمة العربية وقد استمر أولادهما على صفاء ووداد إلى أن وقع النزاع بين الشعبين فى عهد ايلخان ملك المغل وسونج خان ملك التتر وجر هذا النزاع إلى حروب طويلة انتصر

فيها التار وقتل ايلخان ملك المغل وصارت السيادة من ذلك الوقت للتر فاستعبدوا المغل مدة طويلة إلى أن جمع المغل جمعهم واتحدوا فقاموا بحرب التتر وكسروا شوكتهم واستردوا ماضع من حريتهم فعدت السيادة من ذلك الوقت إلى المغل وصار الملك متوارثاً فيهم إلى زمن يسوكي بهادرخان والد كنجيز

ولد كنجيزخان سنة ٥٤٩ هـ وكان اسمه في صغره تموجين . توفي أبوه سنة ١٣ سنة ثم مات بعده مدبر دولته سوغه جمش فاستضعفت قبائل المغل تموجين فتفرقوا عنه وكان ذلك سبباً لحصول الفتن وتمادى الحروب بينهم

ولما كان تموجين من الهمة العالية والعزيمة الملوكية التي لاتساويها عزيمة اجتهد في أن يلم شعث قومه فنجح في ذلك نجاحاً عظيماً وعادت قبائل المغل إلى الانضمام اليه وكثرت جموعه وعظم أمره فخارب جميع القبائل التركية واتصر عليهم جميعاً بعد حروب شديدة ودخل تحت طاعته جميع زعمائهم فصارت له مملكة واسعة مسكونة بتلك الأمم التي لا يعلم عددها إلا الله . وعاصمة مملكة قراقروم

ولما لم يبق له معارض فكر في ترقية هذا المجتمع العظيم بوضع قانون يكون لهم ديناً يسيرون على مقتضاه فوضع لهم اليساق أو الياسة وهي كتابهم الذي اليه يرجعون في معاملاتهم وأحكامهم وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين لا يستجيزون أن يخلوا بشيء منها

وبما شرعه فيها أن من زنى يقتل لافرق بين محصن وغيره . ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاضمان وأعان أحدهما على الآخر قتل . ومن بال في الماء أو على الرماد قتل . ومن أعطى بضاعة نخسر فيها فانه يقتل بعد الثالثة . ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير اذنهم قتل . ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل . وأن الحيوان تسكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه . وأن من ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح . ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حال القتال وكان وراءه واحد فانه ينزل ويناول صاحبه ماسقط منه فان لم ينزل ولم يناوله قتل . وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب مؤنة ولا كلفة . وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القرام ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم

من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤمنين ومغسلي الأموات وكلفة ولا مؤنة
وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى وجعل ذلك كله قرينة إلى الله
تعالى. وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً ولو أنه
أمير ومن يناوله أسير. وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء. وغيره يراه بل
يشركه معه في أكله. وألزمهم أن لا يتهيز أحد بالشعب على أصحابه ولا يتخطى أحد
نارا ولا مائدة ولا الطبق الذي يؤكل عليه. وإن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل
ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منهم منعه. وألزمهم ألا يدخل أحد منهم
يده في الماء والسكن يتناول الماء بشيء يعترف به. ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها
حتى تبلى. ومنع أن يقال لشيء إنه نجس وقال جميع الأشياء طاهرة ولم يفرق بين
طاهر ونجس وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب. ومنعهم من تفخيم الألفاظ
ووضع الألقاب وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط. وألزم القائم
بعده بعرض العساكر وأسلمحتها إذا أراد الخروج إلى القتال وأنه يعرض كل مسافر
به عسكره وينظر حتى الابرة والخيط فن وجده قصر في شيء مما يحتاج إليه عند
عرضه إياه عاقبه وألزم نساء العسكر القيام بما على الرجال من السخر والكف في مدة
غيبتهم في القتال وجعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان
ويؤدونها إليه. وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض بناتهم الأبنكار على السلطان
ليختار منهن لنفسه وأولاده. ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوف وأمراء
مئين وأمراء عشرات. وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس
من عنده حتى يعاقبه فانه ياتي بنفسه بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضي
فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه وألزمهم أن لا يتردد الأمراء
لغير الملك فن تردد منهم لغير الملك قتل. ومن أعير عن موضعه الذي يرسم له بغير
إذن قتل وألزم السلطان باقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة
﴿تنبه﴾ كان من هذه الياسة نسخة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد. روى
المقريزي في خططه عن أحمد بن البرهان أنه رآها ومنه نقلنا ما ذكرنا

خروج المغول إلى البلاد الإسلامية

قد اكثر المؤرخون في ذكر الأسباب التي دعت جنكيزخان وقومه للخروج إلى البلاد الإسلامية فقال بعضهم إن خوارزمشاه لما أظهر الخلفاء على الناصر لدين الله وقطع خطبته من بلاده وأراد أن يذهب إلى بغداد للاستيلاء عليها أرسل الناصر لدين الله إلى جنكيزخان يحرضه على الخروج إلى خوارزمشاه والتعرض لمملكته يريد بذلك أن تنكسر شوكة خوارزمشاه ويستغل عنه بنفسه وقد سبق لخلفاء بني العباس أن فعلوا ذلك مرارا فهم الذين راسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك البغداديين وتحكمهم فيهم وهم الذين راسلوا طغرل بك شاه السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري حينما أراد تحويل الدعوة إلى المصريين الفاطميين وهم الذين راسلوا خوارزمشاه ليخلصهم من السلاجقة ولكن الفرق أن هؤلاء كلهم كانوا مسلمين وأما المغل فكانوا كفارا ولا نبدي هذا الفرق استبعادا للكاتب لأن ذا الملك لا يبالي بما يفعل لتخليص ملكه ولم يكن الخليفة ينبغي إلا أن المغول يشغلون عنه خوارزمشاه فتكون العداوة بين الرجلين ضامنة لاستقلاله كما أنه لم يكن يظن أن يكون من التتر ما كان لأن بينهم وبين العراق أمكنة مترامية الأطراف وبينه وبينهم ذلك الأسد المحصور ولم يكن يظن به من الضعف ما يجعله يحفل أمام جنكيزخان كالحمامة تحفل من صقرها . وهذا السبب وإن كان مطمعا لجنكيزخان في البلاد الإسلامية ولكنه كان يتطلب سبباً آخر يبيح له فتح باب الحرب على خوارزمشاه فيقال إنه في سنة ٦١٢ أرسل رسلا إلى خوارزمشاه وكانوا من كبار المسلمين الذين يقيمون ببلاده يطلب منه أن يعاهده لتردد التجارة من كل جانب إلى الآخر وأرسل إليه هدايا عظيمة المقدار فلما وصلت الرسل إلى خوارزمشاه أجاب إلى ذلك فرجعوا إلى جنكيزخان مسرورين من تمام ما أرسلوا له فاستبشر بذلك جنكيزخان ومكث الأمر على سداد مدة والتجار والزوار يترددون آمنين مطمئين

وفي سنة ٦١٥ سافر تجار من بلاد جنكيزخان حتى وصلوا إلى بلدة أترار وهي بلدة بتغر خوارزمشاه بساحل نهر سيحون (سرداريا) وبها وال كان من قبله فلما

ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء ٤٠٠ نفس ومعهم أموال جسيمة طمع ذلك الوالى فى أخذ أموالهم فأرسل قاصدا إلى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيزخان قد قدموا فى زى تجار فأمره بقتلهم واستصفاء أموالهم فسارع ذلك الوالى المشؤم إلى ذلك وأرسل إلى خوارزمشاه ما كان معهم من الأموال فأخذها وفرقها على تجار بخارى وسمرقندوأخذ منهم ثمنها . فلما بلغ علم ذلك إلى جنكيزخان أخذه المقيم المقعد وأرسل إلى خوارزمشاه يخبره بصورة الحال ويطلب منه غير خان ذلك الوالى ليقصص منه فلم يكن من الأحق خوارزمشاه إلا أن قتل الرسول فلما بلغ ذلك جنكيزخان استشاط غضبا وصمم على قصده وحربه . وعلم خوارزمشاه أنه قد استهدف بعمله لحرب تلك الأمة العظيمة وزاد الطين بلة بأن جمع عساكره وسار بادئا بالعدوان حتى وصل تخوم تركستان وهجم على بلادعدوه فلقى هناك جموعا قليلة متخلفة فى النساء والصبيان لأن جنكيزخان كان غائبا بجنده فى داخل بلاده فلم يمدن خوارزمشاه أن ينتصر على هذا العدو القليل فعلم أنه لو ما ضروسا اذا تحرك عليه جنكيز وهو لا بد فاعل فأمر خوارزمشاه سكان تلك المدن العظيمة التى على حدود بلاده أن يجلوا عنها خوفا عليهم من التتر وكانت من جنان الدنيا فأصبحت بذلك بلاقع وسهل بهذا العمل السبيل إلى عدوه ثم عاد أما جنكيزخان فانه جمع عساكره الجرارة التى تفوت عد العادين وعبر نهر سيحون وليس أمامه من يناوشه قتالا أو يشغله عن قصده وسار حتى أتى بخارى وكان بها عشرون ألفا من الجنود الخوارزمية فلم يكن عندهم طاقة بمادهمهم من ذلك البحر الزاخر فتركوا المدينة من غير حام فأرسل أهلها القاضى بدر الدين قاضيخان يطلب الأمان للناس فأمنهم جنكيز ودخل هو وجنده البلد فى رابع ذى الحجة سنة ٦١٦ وأعلن أهله بأن كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه لنا ثم طلب رؤساء البلد وقال لهم أريد منكم أمتعة التجار التى باعكم إياها خوارزمشاه فأنهالى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم فأحضر كل من كان عنده شىء منها ما عنده ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا منها مجردين من أموالهم واعمل التتر النهب فى البلد وقتلوا من وجدوا فيه ثم أمر أصحابه أن يقتسموا الناس فاقسموهم وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تكن بالأمس

ثم رحلوا نحو سمرقند وهي قسبة ماوراء النهر والمصر الجامع لعلمائه وأدبائه
وثروته واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة
ومن أعيان المشى قتل

ولما وصلوا سمرقند كان بها خمسون ألفاً من جند خوارزمشاه فحاموا عن اللقاء
لما دخل قلبهم من الرعب والخور أما أهل البلد فخرج منهم ذوو الجلد والقوة
فقاتلتهم العساكر الجنكيزية ظاهر البلد واحتالوا عليهم بأن تقهقروا أمامهم وأهل
سمرقند يتبعونهم ويطمعون فيهم حتى أبعدوا عن معقلهم وكان المغول قد أعدوا لهم
كيناياً يأتهم من خلفهم فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم وبين البلدورج
عليهم الباقون من الأمام فأخذهم السيف من كل جانب وقتل عظمهم ولما رأى ذلك
الباقون بالبلد من الجند والعامّة ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند نحن
من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا لأن الكل أترك فطلبوا الأمان فأمّنوا وفتحت البلد
فخرجوا إلى التتر بأهلهم وأموالهم فطلبوا منهم أن يزعوا أساحتهم فزعوها وإذ ذلك
وضعوا فيهم السيف وقتلهم عن آخرهم وفي اليوم الرابع نادوا في البلد أن لا يتأخر
بها أحد ومن تأخر قتله وهكذا فعل التتر بسمرقند ما فعلوه ببخارى وكان ذلك في
الحرم سنة ٦١٧

ولما تم لجنكيز ملك سمرقند سير عشرين ألفاً من أشداء جنوده وقال لهم
اطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسما حتى تدركه وتأخذوه فساروا وعبروا
جیحون وكان خوارزمشاه مقبياً بغريبه يستعد وقد ملأ قلبه رعباً فلما علم بقدم التتر
عليه لم ير إلا أن ينهزم عنهم قبل أن يحصل بينهم وبينه صدام وقتال ورحل لا يلبى
على شيء وقصد مدينة نيسابور فلم يكذب يستقر بها حتى أدركه جنود التتر فطار إلى
مازندان والتتر على أثره ولم يعرجوا على نيسابور فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها
فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان ونزل يريد قلعة له في البحر فلما نزل هو وأصحابه
في السفن وصل التتر فأيسوا من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به
وهذه الفرقة من التتر تسمى التتر المغربية لأنهم ساروا إلى غرب خراسان وتشبه
هذه الفرقة فرقة السلاجقة العراقية التي قصدت البلاد الإسلامية بالتخريب
والإفساد قبل أن ينساح السلاجقة ويستولوا على البلاد. ولما أيس التتر من اللحاق

به ساروا إلى مازندران فلكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها. ثم ساروا نحو الري وقد انضم إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار ومن المفسدين من يريد النهب والشر وهم كثيرون فوصلوا إلى الري على حين غفلة من أهلها فلكوها وفعلوا بها الأفاعيل وكانوا ينهبون في طريقهم كل قرية مروا عليها. ثم ساروا إلى همدان فطلب صاحبها الأمان فأمنوه هو ومن معه ثم وصلوا إلى قزوين فدخلوها عنوة ويقال إن من قتل من أهلها يبلغون أربعين ألفاً. ثم ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب البلاد أوزبك بن البهلوان فلم يخرج إليهم ولا حدثته نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشراب ليلا ونهاراً لا يفيق وإنما أرسل إليهم وصالحهم فساروا عنه إلى ساحل البحر ليشتوا فيه فوصلوا إلى موقان وتطرقوا في طريقهم إلى بلاد السكرج فخار بهم أهلها لكنهم انهزموا فأرسلوا إلى أوزبك خان يطلبون منه أن يتفق معهم على دفع التتر وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف ابن العادل الأيوبي صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الانضمام إليهم وظنوا جميعاً أن التتر لا يتحركون حتى ينحسر الشتاء فلم يفعلوا ذلك بل ساروا نحو السكرج وانضاف إليهم مملوك من مماليك أوزبك اسمه أقوش وجميع أهل تلك الجبال والصحراء من التركان والأكراد وغيرهم فاجتمع إليه خلق كثير وأرسل التتر في الانضمام إليهم فأجابوا إلى ذلك للجنسية فاجتمعوا جميعاً حتى وصلوا تفليس فاجتمعت السكرج وخرجت بحدها وحديدها لكن ذلك لم يجدهم شيئاً فانهزموا أقبح هزيمة وركبهم التتر من كل جانب فقتل منهم ما لا يحصى وكانت الواقعة في ذى القعدة سنة ٦١٧.

ولما دخلت سنة ٦١٨ كروا راجعين إلى مدينة مراغة فلكوها عنوة ووضعوا السيف في أهلها ونهبوا كل ما صلح لهم ومالا يصلح أحرقوه ثم رحلوا عنها قاصدين أربل لكنهم هابوا الهجوم عليها خوفاً من أن تجتمع بالجنود عليهم من العراق وغيرها فعادوا إلى همدان وساروا إلى بلاد أذربيجان ومنها ساروا إلى دربند شروان فاستولوا على مدينة شماخي عنوة وخرجوا من دربند إلى البلاد الشمالية وهي دشت القفقاق وفيها أمم كثيرة تركية فأمعن التتر فيهم قتلاً وسبياً والذي لقي حد هذه الحروب أمة القفقاق فكثرت فيهم القتل والأسر ففرقوا أيدي سبا في جميع الأقطار

وكان هذا أول ورود الممالك القفجاقية على البلاد المصرية فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب ممالك البحرية ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ومنهم المعزايك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم

ثم قصد التتر بعد ذلك بلاد الروس فاتفق هؤلاء مع فلول القفجاق أن يكونوا يدا واحدة ضد التتر ومع هذا فكان الظفر للتتر وانهمز عنهم الروس والقفجاق اقبح هزيمة ونهب التتر بلادهم ثم عادوا عنهم وقصدا بلغار أو آخر سنة ٦٢٠ فلما سمع أهل بلغار بقرية منهم كنوا لهم في عدة مواضع واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فقتل منهم كثير هذه أخبار طائفة صغيرة من طوائف التتر وما فعلته

أما جنكيزخان فإنه لما سير تلك الطائفة لطلب خوارزمشاه أقام بسمرقند وهناك سير جيشا عليه أحد أولاده لملك خراسان فعبروا النهر وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم وتسلبوا البلد سنة ٦١٧ ولم يتعرضوا له بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة ثم صاروا يستولون على تلك البلاد شيئا بعد شيء دون صعوبة أو مقاومة ولذلك لم يكونوا يتعرضون لأهلها بسوء ولا أذى سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ولم يمتص إلا القليل حتى دخل معظم البلاد الفارسية تحت حكم التتر

وأرسل جيشا آخر وجهته الشمال ليملك دشت القفجاق وكان الأمر قد تها لهم بها لمساغله التتر المغربة من إضعاف القوى التي كانت بهاتيك البلاد على أنها لم تكن قوى مجتمعة يخشى بأسها بل كانوا طوائف شتى لاجماعة لهم فسهل على الجيش الجنكيزي أن يستولى على الدشت كله في أسرع ما يمكن

فتم بذلك الجنكيزي مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدى شرقا من بلاد الصين وتنتهى غربا إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوبا ببلاد الهند وشمالا بالبحر الشمالى كل ذلك تم له في مدة قصيرة

ولما أحس بقرب منيته قسم الممالك الجنكيزية إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة وهم جوجى وجغطاي وتولى وأوكداى

فجعل دشت قفجاق بأسرها وبلاد الداغستان وخوارزم وبلغار والروس وما يؤمل

أخذه إلى منتهى المعمورة وسواحل البحر الغربي لولده الأكبر جوجي
وجعل بلاد أيفور والتر كستان وما وراء النهر بأسره لولده الثاني جغطاي
وجعل خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين إلى منتهى حوافر خيولهم
لولده الثالث تولى خان

وجعل بلاده الأصلية والخطا والصين إلى منتهى المعمورة الشرقى لولده الرابع
أو كدای وجعله ولي عهده من بعده ويصير قآنا على الكل أو ملك الملوك وهو
عندهم بمنزلة الخليفة عند المسلمين وأمر الباقيين بمتابعته وكذا كل من يصير قآنا من
ذريته يجب على الباقيين طاعته واتباعه ومن خالفه يجب على الباقيين حربه حتى يفيء
إلى يساق جنكيزخان

هكذا قدر الرجال لعظم همته أن يملك أولاده الدنيا بأسرها ولا يبق فيها لغيرهم
كلمة ولا سلطان ولولا ما حصل من الخلاف بعده لثم كل ما توقعه

وفي سنة ٦٢٤ أدركته منيته وكان الخليفة العباسي حين وفاته المنصور المستنصر بالله
ابن محمد الظاهر

وجد من آل جنكيزخان أربعة بيوت ورثت الملك وتمت الفتح حتى تهاها
أن تملك معظم بلاد المسلمين وجزءا كبيرا من أوربا

وبيت تولى هو الذي كان على يده سقوط الخلافة العباسية ببغداد وامتداد سلطان
التر على الجزيرة والشام وبلاد الروم وسند كر ذلك في حينه

حصلت هذه الحوادث الكبرى وخليفة بغداد لاه بما هو فيه من عسف الناس
وظلمهم فقد كان قبيح السيرة في رعيته ظالما غفرب في أيامه العراق وتفرق أهله في
البلاد وأخذ أملا كههم وأموالهم وكان كثيرا ما يفعل الأشياء ثم ينقضها وجعل
جل همه في رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطلت الفتوة في البلاد
جميعها إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات
الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمي
بالبندق إلا من ينتمى إليه . هذه كانت مشاغله العجيبة والتر يمعنون في بلاد المسلمين

قتلا وأسرا وتخريبا ومع ذلك أتى عليه ابن طباطبا في تاريخه الموسوم بالفخرى
ثناء جما ومن ضمن ما وصفه به أنه كان يرى رأى الإمامية والظاهر أن هذا هو
الذى حببه إلى المؤرخ المذكور

بقى الناصر في أواخر أيامه ثلاث سنين عاطلا عن الحركة وقد ذهب إحدى عينيه
والأخرى يبصر بها إيصارا ضعيفا وفي آخر الأمر أصابه دو سنطاريا عشرين يوما
وكانت بها منيته

٣٥ - الظاهر بأمر الله

هو أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر بويح بالخلافة عقب موت أبيه وكان
ولى عهده واستمر خليفة إلى ١٤ رجب سنة ٦٢٣ فكانت خلافته تسعة أشهر و ١٤ يوماً
لما ولى أظهر من العدل والاحسان ما أعاد به سنة العمرين قال ابن الأثير فلو قيل
إنه لم يزل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً فإنه أعاد من
الأموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله شيئاً كثيراً وأطلق المكوس في البلاد جميعها
وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق وأن يسقط جميع ما جرده أبوه وكان
كثيراً لا يحصى . ولما أمر بأخذ الخراج الأول من جميع البلاد حضر كثير من أهل
العراق وذكروا أن الأملاك التي كان يؤخذ منها الخراج قديماً قد يبس أكثر أشجارها
وخرجت ومتى طولبوا بالخراج الأول لا يفي دخل الباقي بالخراج فأمر ألا يؤخذ
الخراج إلا من كل شجرة سليمة وأما الذاهب فلا يؤخذ منه شيء . ومن أعماله أن
المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال
ويعطون بالصنجة التي للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه إلى الوزير وأوله
ويل للطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون
ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . قد بلغنا كذا وكذا فعدا صنجة المخزن إلى
الصنجة التي يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى - فكتب بعض الثواب إليه يقول
إن هذا مبلغ كبير وقد حسبناه فوجدناه في السنة الماضية ٣٥ ألف دينار . فأعاد
الجواب ينكر على القائل ويقول لو أنه . ٣٥ ألف دينار يطلق وكذلك أيضاً فعل
في إطلاق زيادة الصنجة التي للديوان وهي في كل دينار حبة - وتقدم إلى القاضي أن
كل من عرض عليه كتاباً صحيحاً بملك يعيده إليه من غير إذن ومنها أن العادة كانت
في بغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة في الخليفة بما تجدد في دربه من
اجتماع بعض الأصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ماسوى ذلك
من كبير وصغير فكان الناس من هذا في حجب عظيم فلما ولى الظاهر أتمه المطالعات
على العادة فأمر بقطعها وقال أى عرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم فلا
يكتب أحد لنا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقليل له إن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها

قال إنا ندعو الله أن يصلحهم . ومنها أنه لما ولى الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار إليها أيام الناصر لتحصيل الأموال فأصعد معه ما يزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر مامعه ويستخرج الأمر في حمله فأعاد الجهاب بأن يعاد إلى أربابه فلا حاجة لنا إليه فأعيد عليهم . ومنها أنه أخرج كل من كان في السجون وأمر باعادة مأخذ منهم وأرسل إلى القاضي عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس في حبس الشرع وليس له مال

ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والاحسان إلى الرعية فجدد من العدل ما كان دارساً وأذكر من الاحسان ما كان منسياً . وقبل وفاته أخرج توقيعاً إلى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال . وقد قرئ التوقيع فاذا في أوله بعد البسملة (اعلوا أنه ليس إمهالنا إمهالاً ولا إغضاؤنا إغضاً ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملاً وقد عفونا لكم ما سلف من إخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقييح الشريعة وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال ولاجتيح استيفاء واستدارا كالأغراض انتهزتم فرصها مختلسة من برائن لث باسل وأنياب أسد مهيب تنفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأتم أماناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأتم له عاصون ويوافقكم وأتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمناً وبفقركم غنى وبباطلكم حقاً ورزقكم سلطاناً يقيل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا من استمر بأمركم بالعدل وهو يريد منكم وبينها كم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله ويخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه وأمانته على خلقه وإلا هلكتم والسلام)

ولم تتمع الأمة بهذا الخليفة طويلاً فانه لحق بربه قبل أن تمر سنة على خلافته

٣٦ - المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر

ببيع بالخلافة يوم وفاة والده ١٤ رجب سنة ٦٢٣ (١١ يولييه سنة ١٢٢٦) واستمر في الخلافة إلى أن توفي لعشرين خلون من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ (٥ ديسمبر سنة ١٢٤٢) فكانت خلافته ١٧ سنة إلا شهرا

كان المستنصر شهماً جواداً يبارى الريح كراماً وجوداً وله الآثار الجليلة في بغداد منها وهي أعظمها المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة وبني غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة وكان يقول إني أخاف ألا يثبني الله على ماأهبه وأعطيه لأن الله تعالى يقول ولن تناولوا البرحتى تنفقوا بما تحبون» وأنا والله لافرق عندي بين التراب والذهب

ولما ولي سلك في الخير والاحسان إلى الناس سيرة أبيه وأمر فودي ببغداد بافاضة العدل وأن من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته وفي عهده توفي ملك المغول الكبير جنكيزخان سنة ٦٢٤ وحل محله في بلاد خراسان وما وراءها ابنه تولى خان فوسع مملكته إلى الغرب وأرسل فرقة إلى بلاد أذربيجان فملكها وأجلت عنها جلال الدين منكبرتي وخافهم أهل أذربيجان خوفاً شديداً ولم يكن أمامهم من يرد غائلتهم بعد جلال الدين الذي لم يجد له نصيراً لأنه وتر الملوك المجاورين له طراً

قال ابن الأثير تعليقا على هذه الحال (فما نرى من ملوك الاسلام من له رغبة في الجهاد ولا في نصره الدين بل كل منهم مقبل على لُهوهِ ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندي من العدو قال الله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وكان مقتل جلال الدين في منتصف شوال سنة ٦٢٨ قتل شريداً طريداً لم يفده هذا الملك العظيم الذي ورثه عن أبيه وبهلاكه تم للمغول ملك جميع البلاد الفارسية إلى حدود العراق ولم يتهاى للملوك أن يتفقوا ضد هذا العدو الشديد المراس بل كانوا فيما بينهم مختلفين يغير بعضهم على بعض وهم عن عدوهم لاهون غافلون . صار العراق ينتظر النكبة منهم من آن إلى آن وخليفة بغداد مستسلم للحوادث مدل بمركزة الديني

٣٧ - المستعصم

هو أبو أحمد عبدالله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء ابن المستنجد ابن المقتدي بن المستظهر بن المقتدى بن محمد الذخيرة بن القائم ابن القادر ابن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن طاحه بن المتوكل بن المعتمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور فني آباؤه سبعة عشر خليفة

بويح بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله في عاشر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ (٦ ديسمبر سنة ١٢٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن قتل بين يدي هولاكو خان في ٢٠ محرم سنة ٦٥٦ (٢٧ يناير سنة ١٢٥٨) وبقتله انتهت الخلافة العباسية

قال ابن طباطبا كان المعصم رجلا خيرا متدينا لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطا مليحا وكان سهل الأخلاق وكان خفيف الوطأة إلا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمر المملكة مطموعا فيه غير مهيب في النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور وكان زمانه ينقض أكثره بسماع الأغاني والتفرج على المساخرة وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أرذال العوام إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء

حال التتر

قلنا فيما تقدم إن جنكيزخان لما حانت منيته قسم مملكته إلى أقسام أربعة بين أولاده ومنهم تولى خان جعل له خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين إلى منتهى حوافر خيولهم وقد استمر تولى في مملكته الجديدة يتوسع في الفتح ويمد بلاده إلى الغرب ويستنزل ملوك فارس عن تخوتها حتى توفي سنة ٦٥٤ في عهد المعصم بالله وكانت حدود بلاده تنتهي عند بلاد العراق فخلفه في الملك ابنه هولاكو خان حفيد جنكيزخان فأهمه التوسع في الفتح وأخذ بغداد وكان بهامن يجب ذلك

قال المؤرخون إن أهل السنة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كانوا في نزاع مستمر وقد أدى هذا النزاع بينهم إلى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلة عن المصالح وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة فكان يسوءه ما يلقاه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السنة الذين هم الجمهور الأكبر وكان يزيد في مساءته أن أهل البيت العباسي كانوا يساعدون أهل السنة لأنهم عماد بيتهم والشيعة يريدون خروج الأمر منهم وقد حصل في أواخر عهد المستعصم أن أغار أهل السنة على الكرخ وهو محلة الشيعة فأهانوا أهله وأسرفوا في قتلهم ونهب دورهم وكان ذلك بأمر أبي بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم فيقال إن الوزير كاتب هولاء كو يجرضه على قصد بغداد ويطمعه فيها وجل رغبته أن تسقط الخلافة العباسية ولا يهيمه بعد سقوط عدوه من تولى الملك بعده فكانت تلك المكاتبة مما ساعد هولاء كو على تنفيذ رغبته . وأكثر المؤرخين يتهمون ابن العلقمي بهذه التهمة الشيعة حتى نقل ابن الوردي في تاريخه ما يؤكده هذه التهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلقمي إلى وزير اربل منها أنه قد نهب الكرخ المسكرم وقد ديس البساط النبوي المعظم وقد نهبت العترة العلوية واستوسرت العصاة الهاشمية وقد حسن التمثيل بقول شخص من غزية

أمور تضحك السفهاء منها * ويسكى من عواقبها اللبيب
وقد عزموا على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمرا فصير جميل
أرى تحت الرماد وميض نار * ويوشك أن يكون لهاضرام
فان لم تطفها عقلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب لبت شعري * أأيقاظ أفة أم نيام

ومنها

وزير رضى من حكمه وانتقامه * بطى رفاع حشوها النظم والنثر
كما تسجع الوراق وهي حسامة * وليس لها نهى يطاع ولا أمر
فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون
ووديعه من أسر آل محمد * أودعتها أن كنت من أمثاتها
فاذا رأيت الكوكبين تقارنا * فى الجدى عند صباحها ومساءتها

فهناك يؤخذ ثار آل محمد وطلابها بالترك من أعدائها
وكن لما أقول بالمرصاد وتأول أول النجم وأحرص والله أعلم
وابن طباطبا العلوي يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمي قال في تاريخه وقد نسبة
الناس إلى أنه خامر وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته
في هذه الدولة فإن السلطان هولاء كو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلدي الوزير
وأحسن إليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه اه والله أعلم
بمقدار هذا البرهان في الاتاج

سارت جيوش هولاء كو الجرارة قاصدة بغداد وفي منتصف محرم سنة ٦٥٦ نزل
بنفسه على باب بغداد وأعد عدة الحصار ولم يكن عند الخليفة ما يدفع به ذلك السيل
الجارف واكتفى باقفال الأبواب لجند المغول في القتال حتى ملكوا الأسوار بعد
حصار لم يزد على عشرة أيام وبملك الأسوار تم لهم ملك البلد
ولما رأى الخليفة ذلك استأذن أن يخرج إلى هولاء كو فأمر هولاء كو أن ينزل
باب كلواذي أحد أبواب بغداد وشرعت جنوده في نهب تلك المدينة التي كانت حاضرة
الإسلام كله ثم تقدم باحضار الخليفة فأحضره ومثل بين يديه وقدم لهولاء كو
جواهر نفيسة ولآلء ودررا معبأة في أطباق ففرق هولاء كو ذلك على أمرائه

وفي رابع عشر صفر سنة ٦٥٦ رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة وفي أول
مرحلة قتله هو وابنه الاوسط مع ستة نفر من الحصيان وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة
من الخواص على باب كلواذي وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد
بعد أن مكثت مشرقة ٥٢٤ سنة واشتفت قلوب العلويين من بني عمهم بما حل بهم
من هذا الخراب والدمار

أما بغداد دار الخلافة وعاصمة الملة فقد جرى عليها ماجرى على سواها من أهيات
المدن الإسلامية فقد قتل معظم أهلها وقليل منهم من نجا وقد استبقى المغولي جماعة
من الشيعة والنصارى وسكان بغداد بعد أن قتل أكثر أهلها قوم جاؤا مع هولاء كو
من أقطار شتى وصارت حاضرة دولة لاتدين بدين بعد أن كانت عاصمة المسلمين

حال الدولة الاسلامية

عند سقوط الدولة العباسية

- (١) كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية دولة بني نصر والقائم بالأمر منها مؤسسها محمد الغالب بالله بن يوسف بن نصر (٦٢٩ - ٦٧١)
- (٢) بشمال إفريقية دولة الموحدين والقائم بالأمر منهم أبو حفص عمر المرتضى ابن إسحاق بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٦٤٦ - ٦٦٥)
- (٣) وبالجزائر الدولة الزيانية والقائم بالأمر منهم بغمراسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣ - ٦٨١)
- (٤) وبتونس الدولة الحفصية والقائم بالأمر منهم أبو عبدالله محمد المستنصر بالله ابن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص (٦٤٧ - ٦٧٥)
- (٥) وبمراكش الدولة المرينية والقائم بالأمر منهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ - ٦٧٥)
- (٦) وبمصر دولة المماليك البحرية والقائم بالأمر منهم المنصور نور الدين علي ابن المعز عز الدين ابيك (٦٥٥ - ٦٥٧)
- (٧) وباليمن الدولة الرسولية والقائم بالأمر منهم المظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن علي بن رسول (٦٤٧ - ٦٧٤)
- (٨) وبصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦ - ٦٨٠)
- (٩) وبالروم من السلاجقة ركن الدين قليج أرسلان الرابع (٦٥٥ - ٦٦٦)
- (١٠) وبمباردين من الدولة الأرتقية نجم الدين غازي السعيد (٦٣٧ - ٦٥٨)
- (١١) وبفارس من الأتابكية السلغرية أبو بكر بن سعد بن زسكي بن مودود (٦٢٣ - ٦٥٨)
- (١٢) وبلورستان من الأتابكية الهزارسية دكلا بن هزارسب (٦٥٠ - ٦٥٧)
- (١٣) وبكرمان من دولة قتلغ خان قتلغ خاتون (٦٥٥ - ٦٨١)

إجمال القول في الدولة العباسية

تولى العباسيون الخلافة الإسلامية سنة ١٣٢ حيث بويع لأولهم أبي العباس عبدالله السفاح بالكوفة واستمرت خلافتهم إلى سنة ٦٥٦ حيث سقط عبد الله المستعصم قتيلا بين يدي هولاكو خان المغولي من أعقاب جنسكيزخان موحد التتر الخارج بهم إلى بلاد الإسلام . جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بني العباس على عرش بني أمية وجاءت رايات التتر من المشرق فثقت عرشهم من بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا فن أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم . استمرت خلافتهم ٥٢٤ سنة استخلف فيها منهم ٣٧ خليفة فتوسط ملك الخليفة منهم نحو ١٤ سنة وأكبر مدة قام فيها خليفة عباسي ٤٦ سنة وأقلها سنة فما دونها

مكثت الدولة العباسية ١٠٠ سنة لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الإسلامي (ماعدا بلاد الأندلس) يقولون فيسمع لهم ويأمرون فيأتمر الناس ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف في وجه جنودهم إلا منافسيهم في القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم بنو عمهم من آل أبي طالب وبعض الخوارج الذين كانت تحبونارهم حيناً وتلع حيناً ثم تجيء القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة وقام في هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء وهم السفاح والمنصور والمهدى والرشد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق فتوسط خلافة الواحد منهم اثنتا عشرة سنة ونصف وينتهي هذا الدور بوفاة الواثق سنة ٢٣٢

ثم جاء بعد ذلك قرن آخر من ٢٢٢ إلى ٣٣٤ أخذت الدولة فيه في النزول شيئا فشيئا وضعفت تلك المسكينة التي كانت لهم في أنفس الأمم الإسلامية واجترأ الأمراء بالأطراف على الاستقلال وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبق يدهم إلا العراق وفارس والأهواز وهذه مملوءة بالاضطراب والفتن وآل الأمر إلى أن يتولى بغداد ملوك تركي أو دبلي يطلق عليه أمير الأمراء له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخليفة من الأمر شيء

قام في هذا العصر اثنا عشر خليفة . وهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهدى والمعتمد والمعتضد والمكشفي والمعتمد والقاهر والمتقي والمستكفي الذي

ملك بنو بويه في آخر عهده ومتوسط خلافة الواحد منهم ثمانى سنوات ونصف ولم يمت منهم موتا هادئا إلا أربعة والباقون خرجوا من الخلافة بين قتيل ومخلوع وكان استيلاء بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤

جاء بعد ذلك دور ثالث من ٣٣٤ إلى ٤٤٧ ليس للخليفة فيه إلا اسم الخلافة والسلطان الفعلى لامة فارسية هي الامة الديلمية التي يمثلها سلطان من بنو بويه يقيم ببغداد فصار الخليفة كأنه موظف لهم يتناول منهم ما يقوم بأوده وليس له تصرف ولا نفوذ يؤمر فيأتمر ويفعل مايراد منه لا مايريد وليس له على أنفس المالكين شيء من السلطان الدينى لمبايتهم له فى العقيدة فقد كانوا شيعة غلاة يدينون بفضل على وآل بيته على من عداهم وإنما رضوا ببقاء الخليفة العباسى ليكون أمره عليهم هينا يبقونه متى رأوا فى بقاءه خيرا لهم ويعزلونه أو يقتلونه متى رأوا فى ذلك مصلحتهم وقد قام فى هذا الدور المستكنى والمطيع والطائع والقادر والقائم ومتوسط مدة الخليفة منهم ٢٢ سنة ونصف والقائم هو حلقة الاتصال بين هذا الدور والذى يليه والثلاثة الأولون من خلفاء هذا الدور خلعهم بنو بويه

جاء بعد ذلك دور آخر من سنة ٤٤٧ إلى سنة ٥٩٠ انتقل السلطان الفعلى فيه إلى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق يقيم ببلاد الجبل لاني ببغداد وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالا منهم مع بنو بويه فان هؤلاء كانوا يحترمون الخلفاء تدنيا وكانوا يبديون لهم من مظاهر التعظيم والاجلال ما يقضى به منصبهم الدينى وقد ولى فى هذا الدور المقتدى والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتنى والمستنجد والمستضى ومتوسط خلافة الواحد منهم نحو عشرين سنة ونصف ولم يكن الخلفاء فى هذه المدة على حال واحدة فانهم من عهد المسترشد شرعوا يستردون شيئاً من نفوذهم الفعلى فى بغداد والعراق والذى ساعدهم على ذلك بعد آل سلجوق عنهم وتفرقهم ووقوع الحرب بينهم وقد تم استبداهم بأمر العراق فى عهد المقتنى وانقضت دولة السلاجقة سنة ٤٩٠ على يد خوارزمشاه ونفوذهم فى العراق قد اضمحل تماما مكث العباسيون بعد سقوط الدولة السلجوقية ٦٦ سنة لم يكونوا فيها تحت سلطان أحد بل كانوا مستقلين بملك العراق إلى أن قام المغل والتار بحرکتهم التي ابتدأت بأقصى تركستان وعصف ريجهم على البلاد الاسلامية فأخذ أنفاس الدولة العباسية

وأزالها من بغداد على يد هولاء كوفيد جنكيز خان سنة ٦٥٦
فللدولة العباسية أدوار:

١٣٢ — ٢٣٢

١٠٠ سنة عصر القوة والعمل من

٢٣٢ — ٣٣٤

» ١٠٢ عصر استبداد المماليك الأتراك من

٣٣٤ — ٤٤٧

» ١١٣ عصر استبداد الملوك من آل بويه من

٤٤٧ — ٥٣٠

» ٨٣ عصر استبداد الملوك من آل ساجوق من

» ١٢٦ عصر استعادة العباسيين شيئاً من نفوذهم

٥٣٠ — ٦٥٦

السياسي مع تغلب القواد من

ونريد أن نوضح هنا الأسباب الرئيسية التي أدت بهذه القوة الهائلة إلى الضعف

شم التلاشي

١ - ضعف عصية الدولة

اعتمدت الدعوة الإسلامية من أول نشأتها على العصية العربية فهي التي كانت عماداً لتلك الدعوة وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم القضاء على العصيات الجزئية العربية وإحياء العصية الكلية فقد ورد عنه كثير من الأحاديث التي تنهى عن دعوة الجاهلية وهي قولهم يا فلان وبعض هذه الأحاديث يخرج الداعي بدعوة الجاهلية عن الإسلام كقوله عليه السلام « ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية » وسبب ذلك أن هذه العصيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذي هو ناصر للدعوة ومؤيد لها وقاهر لمن وقف في سبيلها وكانت نتيجة ذلك أن تأخى العدناني والقحطاني والمضري والربعي والقيسي والكناني - بعد أن كانوا أوزاعاً يكيّد بعضهم لبعض وتتفانى قوتهم جميعاً أمام الأمم التي تحيط بهم وبذلك تكونت الأمة العربية . الدين كونها وهي نصرته حتى صار أحدهما مرادفاً للآخر في نظر الأمم التي غالبها العرب على أمرها

صارت الأمة العربية على ذلك في صدر دولة الخلفاء الراشدين فصارعوا الفرس والروم وأجلوهم عن أعز أملاكهم واستولوا عليه تؤيدهم تلك الوحدة التي انالها الدين قوة لا تقهر

وكانوا مع هذه العصية يرون لمن دخل في دينهم من الأمم الأخرى ما لهم من الحقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات إلا أنهم لا يدلون إليهم بالمناصب الرئيسة كولاية الولايات وقيادة الجنود وهذا أمر طبيعي لا يمكن مقاومته

ولما حصلت الفرقة بين علي ومعاوية لم تكن فرقة عناصر فقد كان مع كل من الرجلين رؤساء وأجناد من جميع القبائل العربية اليمانيون هنا وهناك والزاريون هنا وهناك وإنما كانت فرقة آثارها الدين في صدور قوم والتنافس في الدنيا في صدور آخرين وقد أدى اختصاص كل من الخصمين العظيمين بمكان أن انجلت الحرب على خلاف وتباغض مر كزيين بين الأمة العربية فان عرب الشام أبغضت عرب العراق وعرب العراق أبغضت أهل الشام ونطق بذلك بعض شعرائهم وذلك ناتج من كراهة أهل العراق لمعاوية وكراهة أهل الشام لعلي وقد أضعف ذلك كثيراً من قوة العصية العربية

انتقل الأمر إلى بني أمية وتولاه منهم معاوية بن أبي سفيان شيخ بني عبد مناف فدانت له الأمة وألقت بأيديها إلا أن عرق العصية الجزئية قد شرع ينبض بعد أن كاد الإسلام يقضى عليه وظهر على السنة الشعراء كلمات الفخر بما لقبائلهم من السابقة وحسن الأثر وقد اوضح ذلك وضوحا جليا بعد انتهاء البيت السفياي وعودة الانقسام أيام قام مروان بن الحكم منازعا قرنه العائد بالبيت وهو عبد الله بن الزبير فقد قام بمساعدة مروان عرب اليمن من كلب وغسان والسكاسك وناوأته قيس من عدنان فكان النصر لمروان واليمانية وأسرفوا في قتل قيس فتأثرت بذلك أنفسها تأثرا تمكنا منها حتى قال في ذلك شيخ قيس وزعيمها زفر بن الحارث الكلابي كلبته التي أولها

أربنى سلاحى لأبالك إني * أرى الحرب لا تزدد الاتماديا
وفيها:

فلا تحسبوني إن تغيبت غافلا * ولا تفرحوا إن جشتم بلقائيا
فقد يثبت المرعى على دمن الثرى * وتبقى حزازات النفوس كما هيا
وفيها:

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا * وتثار من نسوان كلب نسايا
اجتمع شيخان من شيوخ قيس وهما زفر بن الحارث وعمير بن الحباب السلي
بقرقيسيا وصارا يطلبان كلبا واليمانية بمن قتلوا من قيس ثم نزل عمير بنواحي الجزيرة
بجاورا تغلب ومعه عدد عظيم من قيس فأدى هذا الجوار إلى نزاع بين قيس وتغلب
تبعته حروب حتى كتب زفر إلى عمير يقول له

ألا من مبلغ عنى عميرا * رسالة ناصح وعليه زارى
أترك حتى ذى يمن وكلبا * وتجعل جدنا بك فى نزار
كمعتمد على إحدى يديه * نخساته بوهن وانكسار

وقتل فى بعض الأيام عمير بن الحباب

وقد نطق شيطان التفريق على السنة الشعراء المتباينين فى الأنساب والمتقاربين
بما يهيج الحزازات الكامنة لايبالون ما يخرج من أفواههم ولا يدرون قيمة ما تؤثره
كلماتهم فكل ما أصلحه العقلاء أفسده هؤلاء وقد كان الأخطل التغلبى من شعراء تغلب

ذوى الصوت المسموع فلما صالح زفر بن الحارث عبد الملك بن مروان وجاء بقومه
فبايعوا قال الأخطل من كلمة لهم

بنى أمية قد ناضلت دونكم * أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصا * فبايعوا لك قسرا بعد ما قهروا
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم * وقيس عيلان من أخلاقها الضجر
وقال مرة بمحضر عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمي القيسي
ألا سائل الجحاف هل هو نائر * بقتلى أصيبت من سايم وعامر
أجحاف إن تصطاك يوما فتصطدم * عليك أواذى البحور الزواجر
تكن مثل أقذاء الحباب الذى جرى * به الماء أو جارى الرياح الصراصر
لقد حان كل الحين من رام شاعرا * لدى السورة العليا على كل شاعر
يصول بمجر ليس يحصى عديده * ويسدر منه ساجيا كل ناظر
فأجابه الجحاف على البديهة

بل سوف نبكيهم بسكل مهند * وتنعى عميرا بالرماح الشواجر
وسار الجحاف بعقب هذه الكلمة إلى تغلب فأوقع بها وقعة شديدة
وقد قال هذا الشيطان الخبيث فى تلك الموقعة بعد أن أثار غبارها
لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة * إلى الله منها المشتكى والمعول
فسائل بنى مروان ما بال ذمة * وحبل ضعيف لا يزال يوصل
وقال الجحاف

أيامالك هل لمتنى أو حضنتنى * على القتل أم هل لامتى كل لأئم
ألم أفنكم قتلا وأجدع أنوفكم * بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بسكل فتى ينعى عميرا بسيفه * إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم
حيث هذه العصيات الجزئية ولم تجد من الخلفاء من يقطع طريق نموها وكان
الولاية بالأمصار قد مسهم طائف من شيطان هذه الجاهلية فكان الولي اليماني يحدب
على قومه ويعطف عليهم وينصرهم ويوليهم النواحي وكذلك كان الربيعى والقيسى
والتميمي وكان يظهر ذلك واضحا فى الولايات البعيدة عن مركز الخلافة كخراسان
ولا يخفى أن الدولة الأموية كانت تتركز على العصية العربية لأنها دولة عربية

محضة حياة ذلك النوع من العصية مضعف للأمة وللدولة التي تركزت عليها . وكان من الأمم التي ملكها العرب وذلك لهم الأمة الفارسية وهي أمة ذات تاريخ قديم يهيمها أن تحي ما اندرس من تاريخها . رأت نفسها مستضعفة عن مساواة العرب والخروج من نير حكمها بوحدة عنصرية لأن كثيرا من الفرس بانوا قد دانوا الاسلام فمن الصعب تكون قوة منهم تضاد العرب أو الاسلام فاتجه فكر قادة الأمة إلى صدمة العرب باسم الاسلام وكان بنو العباس إذ ذاك قد وجدت عندهم فكرة السعي لاسترداد حقهم من بني أمية فأروا من مصالحهم الاعتماد على الفرس في مساجلة بني عمهم من بني أمية وإنما لم يجعلوا عمدتهم على العرب لأمرين الأول أنه يصعب أن تروج بين جمهور العرب فكرة الخلاص من حكم بني أمية لأن العرب لم يمسوا بأذى من جانب تلك الدولة بل كانت في الحقيقة دولتهم وبها عزهم والثاني أن شعب العرب قد انصدع باستعار نار العصية الجزئية بين قبائلهم فكان اليمانيون في جانب والربيعون في جانب والمضربون في جانب . أما الفرس فمن السهل إثارة عواطفهم إما بحكم العصية العنصرية وإما بحكم الاسلام ورد الخلافة إلى نصابها من آل بيت محمد صلى الله عليه وسلم وتأثير الأول في الخاصة من أبناء الأمة الفارسية وتأثير الثاني في العامة

قامت الدولة العباسية وليس لها عصية عنصرية تشد أزرها وتحمي بيضتها وإنما عصيتها هؤلاء الموالى المصطنعون وعصية الولاة أو الحلف قد تقوم مقام عصية القرابة لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالى إلى استرجاع ما كان آباءهم من المجد الذي يتوارثون ذكره . وقد وجد من هؤلاء الموالى في بدء الدولة جماعة لهم قدم ثابتة في الفارسية وفي الاسلام جعلهم العباسيون في مقدمة من يعتمدون عليه

لم يترك العباسيون في مبدأ أمرهم عصية العرب ولم يهملوا شأنها بل استعانوا بها لتكون لهم مآجدا إذا رأوا من الموالى نكوبا عن جادة نصرتهم وميلا إلى الاستئثار بالسلطان دونهم فاصطنعوا كثيرا من رجال العرب وحماهم من ربيعة واليمن ومضر إلا أنهم لم يلبثوا إلى إزالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والنفرة بل بالعكس وجد منهم ما يدل على الميل على إنماء هذه الحمية ليستعينوا بفريق على الآخر لذلك كله يمكن أن نقول إنه لم يكن للدولة العباسية في بدء حياتها عصية قومية

متحدة الأوصال وثيقة العرى وإنما كان الاسلام هو الذى يجمع بين تلك القوى والدين وإن كان جامعاً قويا لكنه إن لم يكن مدعماً بعصية قومية متحدة يضعف عمله واعتبر هذا بما قدمناه لك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان مما اعتبره اساساً لقوته ومنبعاً لحياته إمامة العصية الجزئية وسد الباب دون ذكرها والتلفظ بها كان بنو العباس يسندون أمر وزارتهم إلى رجل يختارونه من الموالى ويجعلون قيادة جنودهم إلى موالى وإلى عرب ولكنهم كانوا دائماً تحت تأثير الظنون والريب التى تحوم حول عقولهم من استبداد الموالى بالسلطان فتى شتموا من وزير أو قائد من الموالى الخراسانيين رأتحة من ذلك عاجلوه وانظر ما فعله المنصور بقائد العباسية الأكبر أبى مسلم الخراسانى وبوزيره الأول ولأبى مسلم ماله من السابقة وحسن الأثر فى إحياء الدولة ولكن ذلك لم ينفعه أمام ريب أبى جعفر وغيرته على ملكه أن يشاركه فيه أحد ولا يمكن أن نبرى أبى مسلم من قصد تحويل السلطان إلى قومه وليس بنو العباس فى نظره إلا واسطة لذلك فهو إذا عز مراده معهم يتحول بدون إبطاء إلى بنى عمهم من آل على . ولما قتل أبى مسلم قام بالثأر له قائد فارسى على دين قومه من الوثنية وهو سبأذ وجمع لذلك جموعاً عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا أن غولب بالعصية العربية فان أبى جعفر أعدله جمهور بن مرار العجلي وهو من رجال ربيعة فكسرت قوته ويقال إنه قتل من قومه فى الموقعة نحواً من ستين ألفاً . وقام يطلب بثأره أيضاً الراوندية فى الهاشمية نفسها فعوجلوا والذى كان الفارس المعلم فى يومهم قائد عظيم أيضاً من قواد ربيعة وهو معن بن زائدة الشيبانى والخلاصة أن الدولة العباسية ابتدأت على عصية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها وهذه العناصر هى العنصر العربى وهو منشق قد كاد ينسى العصية القومية الكلية وصرع بتأثير العصية الجزئية والثانى عنصر الموالى وأهمهم أهل خراسان ولم يكن بين الفريقين التمام حقيقى لاختلاف الغرض الذى يرمى إليه كل منهما واقتصار العباسيين على وزراء من العنصر الآخر وهو الموالى كان منتجاً بطبيعته غلبة العنصر الذى هم منه ونيهم حظاً فى الدولة لم يتمتع به مناظروهم من العرب فقد اشتهر من الموالى عدد عظيم فى الصدر الأول تمتعوا بالنفوذ والسلطان ونالوا من

الألقاب أعلاها سوى لقب الخلافة وانظر إلى بيت خالد البرمكي وما وصل إليه يحيى بن خالد وأولاده فقد توسع الناس حتى أطلقوا عليهم ألقاب الملوك في مخاطبتهم وفي القوائد التي مدحهم بها ووردت إليهم خزائن الأرض وجبايات الأموال وتزلف إليهم الناس من كل صنف بغية القربى عندهم وأثر عنهم لدى الرشيد ميلهم وخاصة جعفرأ منهم كلمات تدل على أنهم يريدون التحول إلى خراسان ونزع الخلافة من آل عباس وتحويلها إلى آل علي كما اتهم بذلك قبله أول وزير من الموالي وهو خالد بن سلمة الخلال ومع هذه التهمة السياسية كانت تتردد كلمات تدل على الغمز عليهم في دينهم ونسبة الزندقة إليهم إلى غير ذلك مما يثير الظنون التي لا بد منها في دولة لا تعتمد على عصبية قومية

ولا مرأ في أنه كان لبعض هذه الأسرة غرض من حمل الرشيد على البيعة لولده المسأمون بولاية العهد بعد البيعة لأخيه الأمين وكان الداعي إليها هو جعفر بن يحيى ابن خالد البرمكي وكان الذي ظنه الرشيد وهجس في نفسه أن البرامكة سوف يجرشون بين الأخوين ليفرقوا بينهما حتى يحارب أحدهما الآخر وينتفعون هم بما ينتج ذلك وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التي منشؤها تمكن الرية من مواليهم وحذرهم منهم ولذلك لم نر وزيراً عباسياً تمكن من حياة هادئة ذات ختام هادى بل كانوا كلهم عرضة لهذه التكببات من ضياع الأموال واغتصاب النفوس ولا يمكن أن يكون سبب ذلك المال وحده بل إن المنازعة السياسية وميل الموالي إلى استرداد عز الآباء كان له دخل كثير انتهت حياة الرشيد والمغالبة شديدة بين العنصرين الكبيرين اللذين هما دعامة الدولة يلجأ الخلفاء إلى أحدهما كلما رابهم من الآخر شيء إلا أنه قلما نسب إلى المصطفين من العرب فمكرة خيانة للدولة أو إرادة تحويلها عن آل العباس أو استهانة بوعدهم أو غدر بمن اتمنهم وإنما كانت العيوب التي تسند إلى بعضهم وتدفع الخلفاء إلى عقوبتهم هي التقصير في أعمالهم وعدم أخذ الحيطة لها

جاءت الوقائع بين الأمين والمسأمون فكان من نتيجتها ازدياد قوة العنصر الخراساني لأن قوة المسأمون ارتكزت عليه وظهر البيت الطاهري وهو أول بيت من الموالي منح خراسان على طريق الاستقلال. والذي كان يزيد في قوة هذه العناصر أن المسأمون وأخاه المعتصم كانا يميلان إلى الاستكثار من شبان الأتراك الذين كانوا

يفدون على بغداد بكثرة يقدمهم إليهم ملوك ماوراء النهر وآل طاهر ومن هؤلاء الشبان من كان يشتري بالمال ومنهم من كان ذا بيت عريق في قومه فقدم بغداد ليستزيد عزاً بحلف هذه الدولة الكبيرة وولائها ولم تنزل هذه الوفود تتوارد توارداً مطرداً حتى كان زمن المعتصم وقد تألفت منهم جيوش ظن الخليفة أنه يعتمد عليها في إقامة دولته ويستغنى عن العرب وعصية العرب وعن أبناء خراسان أيضاً أما العرب فلا مرم ما كان هو وأخوه قليلى الاعتماد عليهم ويظهر أن ذلك كان للاختلاف الشديد بين قبائلهم وأما الأبناء أو الموالى الخراسانيون فقد كثرت منهم الدالة على الخلفاء وخرج كثير منهم عن طاعتهم لذلك خلقت فكرة اصطناع هؤلاء الموالى الأتراك فلما من الخلفاء أنهم ليس لهم آمال يريدون تحقيقها وأن الخلفاء متى اصطفواهم أمكنهم الاعتماد عليهم والاستغناء عن عداهم لشجاعتهم ووفرة أجسامهم وهذا خطأ غريب ربما كانت الدولة العباسية أول من وقع فيه وهو أن تعتمد دولة من عنصر على عنصر آخر في تأييد قوتها مع أن هذا العنصر يباينها في الأخلاق وفي العادات ويذكر وطنه الذى ينتمى إليه ولا ينساه إن هؤلاء الأتراك الذين اصطنعوا لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم فمن البديهي أن يكون صغورهم اليها وميلهم لها وقد كان فيهم من هو ذو بيت عريق في قومه يميل إلى أن يكون كما كانوا من العز والاستئثار بالنفوذ كما كان الأفشين حيدر بن كاوس فقد كان أبوه ملكاً لأشروسنة وكان هو معظماً في قومه حتى كانوا فيما يخاطبونه يدعونه باله الآلهة

زرع المعتصم وأخوه هذا العنصر الجديد في الدولة وما دريا أنهما يعملهما هذا قد سلما عز الخلافة إلى غلبان الأتراك يتصرفون فيها بإشارة رؤسائهم الذين منحهم المعتصم حق قيادة الدولة ولو كان هؤلاء الرؤساء متحدى الأغراض يسعون لغاية واحدة لكانت المصيبة أعظم ولكن كانوا على غير ذلك حتى إن الأفشين لما علم عنه أنه يعد العدة للرحيل إلى المشرق حتى يستولى على خراسان وما وراءها من بلاد ماوراء النهر ويؤسس هنالك مملكة تركية عظيمة كان الذين وشوا به من الأتراك الذين لا يرون لهم أن يستأثر الأفشين بهذا الملك العظيم

كان في حياة هذا العنصر الجديد ضعف العنصر العربى ضعفاً عظيماً ففرق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها إلى مواطنها في القفر والصحراء والذين بالمسند لم تبقى

لهم عصيات يستندون في حياتهم اليها وكذلك ضعف الموالي الخراسانيون لضعف ثقة الخلفاء بهم فاختل التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلبان الأتراك انفسهم منفردين بالملك مستأثرين وليس إمام الخلفاء إلا هم فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الآمرين حتى امتدت أيديهم إلى حياة الخلفاء وإلى أموالهم وإلى كل شيء عندهم وخضع الخلفاء لهذه القوة التي لم يجدوا أمامهم ما يردها لأمم العرب ولا من الأبناء

الذي كان أول الخلافة شرعاً وما هذا فهو نهاية الشرور

كان تغلب هذا العنصر ولعبه برقاب الخلفاء من بني العباس ذا نتائج سيئة فانه أضعف صولة الخلفاء وقال من قيمة أقوالهم وأوامرهم وأمانى الأطراف فقد رأى الولاة أن قد آن لهم أن يستقلوا بما تحت أيديهم لأنهم ليسوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ في عاصمة الخلافة نفسها ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى صارت الدولة العباسية (في منتصف القرن الثالث) محاطة بدول مستقلة في الإدارة عن سلطان الخلفاء وتدفع عنها شر اعتراض الجمهور وغضب الخلفاء باعلان الدعوة لهم على المنابر وكتابة أسمائهم (أحياناً) على السكة وارسال شيء من المال والهدايا إلى بغداد وقد حصل ذلك في المغرب والمشرق والجنوب والشمال في آن واحد ولا قبل للدولة بارسال الجنود لاعادة الحكم العباسي الفعلي إلى تلك الولايات لأن غلبان الأتراك قلما يهتمهم ذلك ماداموا آخذين بحلاقيم الخلفاء في حاضرة الدولة فاضطر بنو العباس إلى الرضا بما بذل لهم

صار المتغلبون يقتلون وينزع بعضهم الولاية من بعض ولا عمل للخلفاء إلا أن يصدروا منشور الولاية للغالب الظافر وقد حاول بعض هؤلاء المتغلبين وهو يعقوب ابن الليث الصفار أن يستولى على قلب الخلافة ويزيل عنها المتغلبين عليها من الأتراك لولا ما ظهر من تشدد أبي طلحة الموفق الذي كان ولي العهد وصاحب السلطان في عهد المعتمد على الله والذي أحيا فيه تلك القوة أن العنصر المستولى على الدولة وهو عنصر الأتراك نفس بعضه على بعض ما أتيج له من الغلب والسلطان والمال فضعف أمرهم وطلب كثير منهم أن يتولى قيادة الجيش أحد أفراد البيت المالِك وكان الموفق أقرب إليهم فانتخب لقيادة الجيش فنجح في إحياء شيء من قوة الخلافة إلا أن الداء عضال لا يمكن حسمه وذلك الداء هو فقد الدولة للعصية القومية

التي يمكن الاعتماد عليها فكانت هذه القوة كالبرق الخلب لا يلبث أن يزول ويضمحل أمره . فان الضعف عاد بعد الموفق وابنه المعتضد إلى أشد مما كان كنسكسة المريض عسير برؤها شديد أثرها واستمرت الخلافة الاسمية لبني العباس والسلطان الحقيقي لما بقي بأيديهم من البلاد للأتراك إلى أن تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم يقوده ثلاثة إخوة من بيت عريق في الشرف القوي وهم أولاد بويه فانتزعوا السلطان من الأتراك ببغداد وجعلوا ملك العراق لواحد منهم يتصرف فيه والخليفة يأتمر بأمره ولم يكن هؤلاء القوم يدينون بامامة بني العباس ومع ذلك فقد أبقوا عليهم لأمرين الأول مرضاة الجمهور البغدادي فقد كان معظمه يدين بامامتهم ويفضلهم على آل علي والثاني أن الخليفة العباسي يسهل خلعه متى أحسوا به يحاول خلع النير عن عنقه لأنه لا مانع دينيا يمنعه من ذلك أما الخليفة العلوي فإنه يصعب عليهم أن ينالوا منه شيئا وربما نال منهم بقوته الدينية هكذا لعبت السياسة بالعقيدة فأضاعت أثرها ومع ما ناله الديلم من هذا السلطان فانهم لم يهملوا العنصر التركي الذي كان كثيرا بحاضرة الخلافة بل اعتمدوا عليه حتى كان بعض الملوك من آل بويه يفضل الأتراك على الديلم .

وفي أوائل المائة الخامسة ظهر بالمشرق عنصر جديد دخل في الاسلام حديثا وفارق وطنه متجها إلى بلاد المغرب وهو عنصر الغز من أتراك ماوراء سيحون على رأسه بيت عظيم الفخار يمتاز عندهم بالشرف والمجد وهو البيت السلجوقي قاد هذا البيت جماعة الغزالي بلاد خراسان ولم تقدر الدولة التي كانت بأطراف المملكة الاسلامية على صده فلم يزل حتى امتلك بغداد وأزال عنها ملوك آل بويه وكان هذا العمل على رغبة الخلفاء من بني العباس لأنهم كانوا ميالين إلى إزالة هذه الدولة الديلية التي كانت غالبية في تشيعها والادلاء بالأمور إلى دولة أخرى تدين بامامتهم واحترامهم وقد استمر العراق تحت سلطان آل سلجوق حتى دب إليهم مادب إلى من قبلهم من داء الخلف والانقسام فكان ذلك مشجعا بني العباس إلى اليقظة من هذا السبات الطويل وامتلاك أعنة الخيل والتصرف بما تحت يدهم من البلاد العراقية ولم يكن لهم ما يعتمدون عليه من العصية إلا بقايا مواليتهم من المالك فأعادوا في العصر المتأخر ما كان عليه سلفهم في منتصف القرن الثالث

وقد استمر الحال على ذلك حتى خرج سيل المغول الجارف وأزال الدولة العباسية
من المشرق كله

من ذلك يفهم أن أساس الاضطراب كان سائرا مع هذه الدولة من بدء نشأتها
وهو فقد العصية القومية التي يعتمد عليها إلا أن توازن القوى في الأول حفظ للخلفاء
نفوذهم فلما اختل هذا التوازن اختل معه هذا النفوذ والمقام الديني هو الذي ظل
حافظا لهذه الدولة من الفناء مع هذا الضعف المتوالى

٢ — منافسة العلويين

لامراء في أن كون الخليفة من آل بيت النبوة أحب إلى قلوب الجمهور من الامم
الاسلامية وهم لهم أطوع لأن المؤثر الديني يكون مستحكما ولذلك صادفت الدعوة
إلى أهل البيت نجاحا عظيما في صدر المائة الثانية من الهجرة

وكان أهل البيت الذين لا يعدوهم هذا الأمر من بيتين اثنين كل منهما يسابق
الآخر في القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فهو البيت العباسي
الذي ينتمى إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاصبه
الوحيد عند وفاته وأما الثاني فهو البيت العلوي الذي ينتمى إلى علي بن أبي طالب
ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة

وقد حاول البيت الأول أن ينال الخلافة قبل العباسيين في عهد بني أمية ففشل . قام
الحسين بن علي مطالبا بها فقتل دونها وقام حفيده زيد بن علي بن الحسين فقتل دونها
بالكوفة وقام علي أثره ابنه يحيى بن زيد فكانت نتيجته كأيته — ذلك مع ميل الجمهور
العراقي لهم وعطفه عليهم

أما العباسيون فقد أحكموا أمرهم واستعانوا بأهل خراسان في إحياء بيتهم وكانت
الدعوة إليهم مهمة في أول الأمر لا يزيد الداعي في دعوته على أنه يدعو للرضا من
آل محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن الدعاة والتقباء يعرفون صاحب الدعوة باسمه
وشخصه وكانت النتيجة تمام النجاح وساعدهم ضعف عصية خصومهم فرقوا عرش
الخلافة وقضوا على بني أمية

حرك ذلك من غيرة بني عمهم منهم وحسدتهم لهم ومن المعلوم أن جمهورا كبيرا
كان يؤثر العلويين ويتولاهم دون العباسيين وكان بنو العباس على علم من ذلك يرون
أن كل فتح جاءهم من غير ناحية العلويين فهو سهل الرتق والتلافي أما هؤلاء فهم الخصم

الذي يخاف جانبه لأنهم يشاركونهم في السبب الذي قامت عليه خلافتهم وهو القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما كان لهم في نظر الجمهور الشيعي ما يفضلهم على العباسيين وهو ولادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا دعوا إلى أنفسهم أحدثوا في العصية التي قامت عليها الدولة انقساماً ولا يدري حينئذ لمن تكون الغلبة ولما كانت المدينة النبوية هي مقام أبناء علي من بني حسن وحسين راقبهم العباسيون سرا وإذا كان موسم الحج جمعهم الخليفة وهو أبو العباس السفاح فأغدق عليهم العطايا ومنحهم الهبات يريد بذلك لفت أنظارهم عن الدرجة العليا وهي درجة الخلافة ويريهم أن خلافة بني عمهم تحذب عليهم وتنسبهم أيام الشدائد التي مرت عليهم في عهد أسلافهم من بني أمية إلا أن ذلك المعروف الجميل لم يكن إلا معززا لدواعي الغيرة والحسد وازدياد الشعور بضياح ذلك الحق الذي هم أولى به وإذا كان غضب الأجني الحق مؤلماً للنفس فرؤيته عند القريب أشد إيلاماً ولا سيما إذا ظن من ضاع حقه أنه يجد من الأنصار من يساعده على نيله

كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة وكان كثر من أهل خراسان ينتظر قيامه ولولا ما ظهر من شجاعة أبي يعقوب المنصور ومضاء عزيمته وأخذته بالاحتياط في مصادره وموارده لرزلات جوانب الخلافة العباسية ولكن تلك الصفات من المنصور قضت على محمد بن عبد الله وعلى أخيه إبراهيم الذي ثار بالبصرة

وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت رية العباسيين من بني عمهم فضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم وأرهبوا الحد في استطلاع أخبارهم فتباعد الأمر واشتدت الجفوة ورأى بنو العباس أنفسهم مجبورين على نبذ فكرة التشيع التي أسسوا عليها دولتهم وصاروا ينجحون إلى تقديم الشيخين أبي بكر وعمر علي بن أبي طالب بعد أن كانت دعواتهم يقدمونه عليهما واشتد تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذي نالهم وصاروا كالأطائر المحبوس في قفصه يحاول

التخلص منه على غير هدى كما فعل الحسين بن علي الذي تار بمكة في مدة الهادي سنة ١٦٩ فخل بينه وبين مراده وقتل بفتح بالقرب من مكة أفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى فاتجه الأول غرباً ماراً بمصر ومخترقاً شمال أفريقيا حتى أتى المغرب الأقصى فحذب عليه من به من البرابرة وبايعوه بالخلافة وأسس هناك دولة الادارسة في طرف الدولة من الغرب واتجه الثاني نحو المشرق وذهب إلى نواحي الديلم إلا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل . وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين أن من موالى العباسيين وصنائعهم من هواه مع العلويين كواضح مولى بنى العباس الذي كان على بريد مصر فانه هو الذي سهل لادريس المرور من أرض مصر مع معرفته به وجعفر بن يحيى البرمكي الذي سهل ليحيى بن عبد الله طريق الافلات من يد الرشيد فكان ذلك مما دعا الرشيد إلى أن يربى على من كان قبله في الفور من العلويين وكرهتهم والتشديد في عقوبة من يتهم بالميل اليهم وشدة التصديق على من بقى بالمدينة منهم وجاء بموسى الكاظم ابن جعفر الصادق إلى بغداد ليقم تحت نظره

ظهر الجرح بحجب الدولة العباسية واجترأت أمة من الأمم الاسلامية وهي أمة البربر بالمغرب الأقصى أن تخرج عن طاعتهم معتقدة أنها نالت حظاً أعلى من حظ سائر الأمم الاسلامية لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوي ومن أبناء ابنته واضطر الرشيد أن يزرع بأفريقية دولة الأغالبة ومقرها القيروان كما يفعل من رأى حريقاً بجزة من داره يجتهد أن يفصل بين ماتاولته النار وبين سائر البيت وهذا ما فعله الرشيد

جاء المأمون فرأى خطر العلويين محققاً بالدولة ماذا رأى . رأى كثيراً من أبناء الدعوة ورجال الدولة يميلون إلى العلويين ويكرهون ما ينالهم من الشر فأراد أن يتقرب اليهم ببعض ما يرغبون فيكسر من حديتهم ويضعف من قوتهم فاختر منهم على الرضا الذي يتولاه أكثر شيعة آل علي وولاه عهده ويظن أنه فعل ذلك إرضاء

للحسن بن سهل وزيره الأكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الأعظم في سوق الخلافة إليه واخراجها عن أخيه الأمين وكان الحسن يتشيع وينسب إلى الزندقة أيضا ولكنه رأى أن النتيجة لم تكن على ما يرغب فانه وإن أرضى العلويين بهذا العهد قد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثاروا ضده ببغداد وخلعوه واختاروا من بينهم عمه إبراهيم ابن المهدي فلم يكن أمامه ما يربأ به هذا الصدع إلا أن احتال في التخلص من الحسن ابن سهل بأن وضع له قوما تناولوه بأسيا فهم ثم مات بعقب ذلك على الرضا فنسب قوم ذلك إلى المأمون أيضا والقرائن تساعدهم ولكن ليس عندنا من الأدلة ما يقوى هذه التهمة

عادت الأمور بعد موت هذين إلى مجراها ورجع أهل بغداد إلى المأمون وانحرفوا عن عمه . ظل المأمون بعد ذلك على ولاء العلويين والتشيع لعلي بن أبي طالب وأعلن ذلك في كلامه وفي كتبه حتى إذا رأى منهم الميل إلى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه بعد ثورة اليمن فأمر ألا يدخلوا عليه واضطر لأن يجارى أباه في الاحتياط فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بأفريقية وهي الدولة الزيدية والغرض من الدولتين واحد

واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة وأمرهم بإيham بالاقامة بمرأى منهم في بغداد أو في سامرا بعد اختطاطها

ولم يكن الخلفاء معهم على سيرة واحدة فقد كان المتوكل على الله بن المعتصم على غير ما كان عليه أبوه وعمه من الاحسان إلى العلويين والتصريح بتفضيل علي على غيره من شيوخ الصحابة وكان في ذلك على سيرة جده الرشيد إلا أنه زاد عليه فقد كان يصرح في مجالسه بانتقاص علي بن أبي طالب ويبيح للجان من جلسائه الهزء والسخرية به ويكره كل من عرف بالتشيع إلى العلويين ويؤذيهم في أنفسهم وأموالهم ويقدم الشعراء الذين يتطوفون في قصائدهم فينتقصون آل علي ويفيض عليهم الهبات الوافرة وهدم قبر الحسين بن علي ونهى الناس عن زيارته وشدد في

ذلك تشديدا عظيما فكان الناس من ذلك في هم وحزن حتى أن شاعره الكبير أبا عبادة
البحترى لما مات وولى المنتصر وكان على غير طريقة أبيه مع العلويين مدحه بذلك فقال

رددت المظالم واسترجعت * يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبي طالب بعدما * أزيغ بسرهم فابذعر
ونالت أذانهم جفوة * تكاد السماء لها تنفطر
وصلت شوايك أرحاهم * وقد أوشك الجبل أن ينبت
فقربت من حظهم ما نأى * وصفت من شربهم ما كدر
وأين بكم عنهم واللقا * لا عن تناء ولا عن عفر
قرابتكم بل أشقاؤكم * وإخوتكم دون هذا البشر
ومن هم وأتم يدا نصره * وحدا حسام قديم الأثر
يشاد بتقديمكم في الكتاب وتلى فضائلكم في السور
وإن عليا لأولى بكم * وأزكى يدا عندكم من عمر
وكان له فضله والحجو * ل يوم التفاضل دون الغرر
بقيت إمام الهدى للهدى * تجدد من نهجه ما دثر

مع أن البحترى له في المتوكل المدح الجليلة والمرأى المؤثرة

ثم آل على ثلثة أخرى في سياج الدولة من الجهة الشمالية الشرقية بتأسيس الحسن
ابن زيد دولته في الديلم ولم يفاح بنو العباس في القضاء عليه فاشتد الحرق عليهم من
الشرق والغرب وفتحت العيون التي كانت تغضى حياء وتخاف تدينا

رأى العلويون في النصف الثاني من القرن الثالث أن ينظموا صفوفهم ويمهدوا
لقلب الدولة العباسية بالدعوة لها فسنوا لذلك نظاما خاصا عرف بنظام الدعوة ساروا
في ذلك على أثر الدعوة العباسية إلا أنهم حلوها بشيء من المقدمات وبعثوا دعواتهم
إلى جميع الأقاليم الإسلامية غربا وشرقا ولما تهاهم الأمر أهوا نار الثورة
والاضطراب بشكل مريع على يد القرامطة فزلزلوا جوانب الدولة وحالوا بينها وبين

عمل أى شىء يمكنها من القضاء عليهم وفعولوا فى الاسلام ما لم يخطر ببال مسلم أن يقوم به بما قدمنا ذكره . ثم قام على أثرهم الفاطميون بأفريقية فاستولوا عليها وعلى الجزائر والمغرب الأقصى ثم مدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطئ الفرات وكادت نارهم تلمح وجه الدولة العباسية وقد حصل أن اتخذ أحد الثوار العراقيين هذه الدعوة ذريعة إلى التمكن من الأمر وخطب فعلا للعلويين على منابر بغداد نحو من سنة

وكان العباسيون لما رأوا أنفسهم عاجزين عن دفع هذا العدو اللدود عنهم اشتغلوا بما لا يفيد من الطعن فى نسب العلويين المصريين وكتبوا فى بغداد محضرا وقع به العلماء والفقهاء وكبار بنى هاشم وقالوا فيه إن نسب العبيديين بمصر غير صحيح وأنهم أديعاء ملعونون مع أنه نسب للشريف الرضى نقيب الطالبين ببغداد قوله

ما مقامى على الهوان وعندى • مقول صارم وأنف حمى
وإباء مخلق بى عن الضيم كما راغ طائر وحشى
أى عذر له إلى المجد إن ذ • ل غلام فى غمده المشرفى
ألبس الذل فى ديار الأعدى • وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا • ي إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد الناب • س جميعا محمد وعلى
إن ذل بذلك الجوعز • وأوامى بذلك النقع رى
قد يذل العزيز مالم يشمر • لانطلاق وقد يضام الأبى
إن شرا على إسراع عزمى • فى طلاب العلا وحظى بطى
أرضى بالأذى ولم يقف العز • م قصورا ولم تعز المطى
كالذى يخطب الظلام وقد أقمر من خلفه النهار المضى

ولما اشتهرت عنه عتب الخليفة القادر بالله على والده فأنكرها ولم يشبها فى ديوانه وهى مشهورة عنه ومن طراز شعره وعلى الجملة فان مثل هذه الأشياء لم تقدم فائدة ما

وعما زاد الأمر بلية أن بنى بويه الذين استولوا على بغداد في منتصف القرن الرابع كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور في بغداد بما يشتهون من العادات التي كانوا يفعلونها يوم عاشوراء فقد كانوا يجعلونه يوم حزن يخرج النساء فيه حاسرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن علي رضي الله عنه وغير ذلك من العادات وصار الناس يتقربون إلى السلطان بالتشيع

وفي أوائل القرن السادس ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام فأرهبوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بني العباس

استمر هذا النزاع السياسي بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب واستمر مع الباطنية بفارس والشام . واستمر مع أهل بغداد حتى يقال إن السبب في هيج التار وإغرائهم على أخذ بغداد هو حادثه اعتداء وقعت من أهل السنة على محلة الشيعة وهي الكرخ

من ذلك ترى أن النزاع بين العباسيين وآل علي استمر من أول خليفة إلى آخر خليفة وكان ذلك سبباً من أسباب ضعف الدولة بعد ما تقدم ذكره من خلل العصية التي كانت عمدة العباسيين

ويمكن أن يعد هذا السبب من مميزات السبب الأول

٣ — ضعف قيمة العهود

الوفاء بالعهد خلق عربي حافظ عليه العرب في جاهليتهم وبذلوا دونه أموالهم وأبنائهم وأنفسهم عرف لهم ذلك من جاورهم من الأمم كالفرس والروم وحوادثهم في ذلك مأثورة قد حفظتها بطون الصحف ولستأبصد أن تقتصها . لما جاء الاسلام أيد هذا الخلق وأمر به أمرا احتملا هوادة فيه قال تعالى في سورة الاسراء (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مستولا) وقال (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي شددت في وجوب الوفاء بالعهد واعتبارها أساسا تقوم عليه الأمة الإسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون كما يعلم من استقرار تواريحهم وكذلك نجابو أمية هذا المنحى لأن العنصر العربي كانت له المكانة فيها بل يصح أن يقال إنها كانت دولة عربية محضة وقد اعتد الناس على عبد الملك بن مروان فعلته التي فعلها مع سعيد بن العاص حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته وقالوا إنها أول غدرة في الاسلام وسأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد فقال حسن لو قتله وحيد فقال عبد الملك أولست بحي فقال الشيخ العربي حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد . فانظروا كيف عد العربي هذه الحياة كلا حياة ولم يصل إلى علنا في هذه الدولة حوادث أخرى من هذا القبيل لأن الأمة كانت لها رقابة شديدة على خلفائها

لما جاءت الدولة العباسية وقد ظهرت على أيدي عنصر غير عربي ظهر منها لأول نشأتها حوادث متكررة تدل على أنه ليس للعهود في نظر خلفائها كبير قيمة فقد قتل المنصور في حياة السفاح بن هبيرة بعد أن أمن أمانا لاشك ولا حيلة فيه وكان الذي أشار بقتله أبو مسلم الخراساني مشيد الدعوة العباسية وكانوا لا يجبون أن ينفذوا أمرا دون مشورته . ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبي مسلم بعد أن أمنه ثم

فعل مثل ذلك مع عمه عبد الله بن علي بعد أن أمنه وأعلن رضاه عنه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال إنه يعطيه الأمان أجابه محمد بقوله وأما أمانك الذي عرضت فأى الأمانات هو أمان ابن هبيرة أم أمان أبي مسلم أم أمان عمك عبد الله بن علي والسلام. وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير لأنها وصمة عار كبيرة لمن هو قائم مقام رسول الله ﷺ في حراسة دينه وسياسة الأمة وهذا الذي حصل في صدر الدولة كان مجرثا لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضى به العهود إذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولا سيما العهود التي تعقدتولى الخلافة فانهم جعلوها من الأشياء التي يسهل حلها وإن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذي عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور فقدم عليه ابنه محمدا المهدي وهذا التقديم وإن كان قد تم بطلب عيسى ورضاه إلا أننا نعرف كيف توصل المنصور إلى الحصول على هذا الرضا من الاساءات المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل حتى هم الرجل أن يخضع طاعة المنصور ويفتن الأمة وفي رأينا أنه لو وجد نصراء لفعل وان كان قد أثر عنه شعر يفيد أنه أثر مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهو قوله

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما * إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم * كأس المنية لولا الله والرحم

وفعل المهدي مثل ذلك معه فعزل عن العهد بكرة وقد ارتكب من الوسائل ما ارتكبه أبوه

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك إلى الفتنة الشعواء التي كانت بين سنة ١٩٤ إلى سنة ١٩٨ قاست الأمة في أثنائها مصاعب هائلة. ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق ومن البديهي أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم إلى القواد والأمراء فهؤلاء ينشئون أيضا ويستسهلون الاقدام على فك تلك القيود التي حلفوا الأيمان الوثيقة على الوفاء بها

كتب الرشيد أماناً ليجي بن عبدالله وأكده فيه غاية التأكيد ولما ارتاب منه صار يبحث في الوجوه التي يبطل بها الأمان وجعل فقهاء وقته الواسطة في ذلك فمنهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل في الدين مع الأهواء ومنهم من سارع إلى هوى الخليفة وصار يبدى الأوجه التي ينتقض بها الأمان

كل هذا من العيوب التي شقت عصا البيت وتعدت إلى فرقة الأمة فأضعفت عصبية الدولة وآل الأمر بخلفائها إلى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم وقد بقيت أسباب أخرى ثانوية يمكن استنتاجها مما تقدم في التاريخ التفصيلي والله أعلم



فهرس الكتاب

صفحة	صفحة
٥٦ أبو مسلم	٣ خطبة الكتاب
٦٠ محمد بن عبد الله وبنو الحسن	٥ البيت العباسي
٦٨ إبراهيم بن عبد الله	٥ العباس بن عبد المطلب
٧١ أبو أيوب سليمان	٧ عبد الله بن العباس
٧٢ الربيع بن يونس	٧ علي بن عبد الله بن العباس
٧٤ الجيش	٨ محمد بن علي
٧٧ حاضرة الخلافة وبناء بغداد	كيف نشأت فكرة الخلافة في
٧٩ الأحوال الخارجية	بني العباس
٨٠ صفات المنصور وأخلاقه	١٥ تأليف الجمعية السرية للدعوة
٨٦ المهدي	١٦ العصر الأول للدعوة
٨٧ الأحوال لعهد	٢٢ دور العمل
٨٨ الوزارة	٢٥ اقتضاح الأمر
٩٢ الأحوال الخارجية	٣٢ وصف المملكة الإسلامية حين
٩٤ صفات المهدي	استيلاء بني العباس
٩٦ الهادي	٤١ ولاية العهد والبيعة
الأحوال لعهد	٤٦ السفاح
٩٧ ثورة الحسين بن علي	الأحوال الداخلية
٩٩ صفات الهادي	٥٢ ولاية العهد
١٠٢ الرشيد	٥٣ المنصور
الأحوال لعهد	الأحوال لعهد
١٠٣ الطالبيون	٥٤ عبد الله بن علي

صفحة	صفحة
٢٢٣ الأحوال الخارجية	١٠٤ إدريس بن عبد الله
٢٢٥ أخلاق المأمون	الخارجون عليه
٢٢٩ المعتصم	١٠٦ خطر المشرق
٢٣٠ الوزراء	١١٠ وزراء الرشيد
٢٣٦ العلويون	١١١ أسرة البرامكة
الجيش	١١٩ نكبة البرامكة
٢٤٢ الخراج	١٢٩ العلاقات الخارجية
٢٤٤ العلاقات الخارجية	١٣٤ حضارة بغداد في عهد الرشيد
٢٤٧ صفات المعتصم	١٣٥ أخلاق الرشيد
٢٤٨ الواثق	١٣٨ الخراج وكتاب أبي يوسف
٢٤٩ الوزراء	١٥٧ الأمين
الجيش	١٥٨ الأحوال الداخلية لعهد
٢٥٣ العلاقات الخارجية	١٧٢ صفات الأمين
٢٥٤ المتوكل	١٧٤ المأمون
٢٥٥ وزراؤه	١٧٥ الأحوال والمأمون في مرو
٢٥٨ العلويون	١٨٤ المأمون في بغداد
٢٦٠ الجيش	الوزارة في عهده
٢٦٣ الدولة يعفرية	١٩٣ نصر بن شبك
٢٦٥ صفات المتوكل	١٩٥ الزط
٢٧٠ المنتصر	١٩٦ بابك الخرمي
٢٧٠ الجيش	١٩٩ الخراج في عهد المأمون
٢٧١ صفات المنتصر	٢٠٢ الجيش
٢٧٢ المستعين	٢٠٣ القواد العظام في عهد المأمون
٢٧٣ وزراؤه	٢١٨ علوم الصناعات

صفحة	صفحة
٣٣٥	٢٧٥
المقتدر	العلويون
٣٣٩	٢٧٨
وزراؤه	الجيش
٣٥٠	٢٨١
القرامطة	الأحوال الخارجية
٣٥٧	٢٨٢
القاهر	المعتز ووزراؤه
٣٥٨	٢٨٣
الحال في عهده	العلويون والجيش
٣٦٠	٢٨٩
الراضى	المهتدى
٣٦١	٢٨٩
الحال في عهده	وزراؤه
٣٦٦	٢٩١
القرامطة	صفات المهتدى
٣٦٨	٢٩٤
المتقى	المعتمد
الحال في عهده	٢٩٥
٣٧١	الأحوال الداخلية
المستكنى وآل بويه	٢٩٨
٣٨٠	العلويون
المطيع ومعز الدولة	٣٠٣
٣٨٦	دعى آل على
عز الدولة	٣٠٥
٣٨٧	الاضطراب في المشرق
الثغور الاسلامية	٣١٠
٣٩٣	الأحوال الخارجية
الطائع	٣١٤
٣٩٩	المعتضد
القادر والمتغلبون لعهده	٣١٥
٤١٠	وزراؤه
القائم	٣١٧
٤١٢	اضطرابات الجزيرة
آل سلجوق	٣١٨
٤٢٧	القرامطة
المقتدى	٣٢٠
٤٣٠	أمر المشرق
المستظهر	٣٢٢
٤٣٤	أمر المغرب
الباطنية	٣٢٣
٤٤٠	صفات المعتضد
الحروب الصليبية	٣٢٦
٤٤٥	المكتنى
المسترشد	٣٢٧
٤٤٩	الأحوال في عهده
الراشد	٣٣٣
	العلاقات مع الروم

صفحة	صفحة
٤٧٩ المستنصر	٤٥٠ المقتنى
٤٨٠ المستعصم	٤٥١ الدول الأتابكية
حال التتر	٤٦٤ المستنجد
٤٨٦ أسباب ضعف العباسيين	٤٦٥ المستضىء
٤٨٧ ضعف عصية الدولة	٤٦٦ الناصر
٤٩٧ منافسة العلويين	٤٦٧ إغارة المغول والتتار
٥٠٤ ضعف قيمة العهود	٤٧٧ الظاهر



وكان تمام طبع هذا الكتاب على هذا النظام البديع في يوم
السبت ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هجرية الموافق ٢٥ أغسطس
سنة ١٩٣٤ ميلادية م.

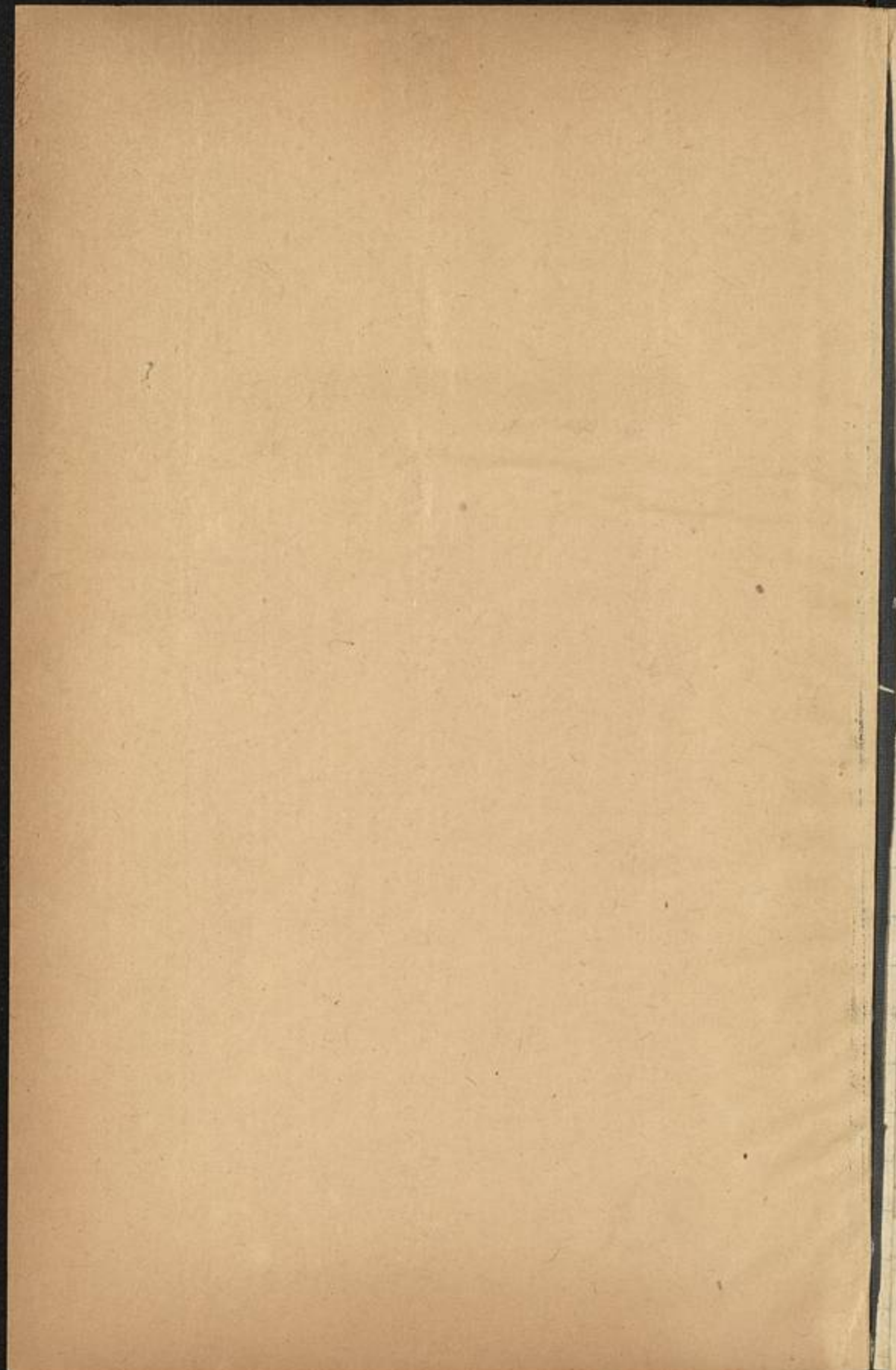
(مطبعة الاستقامة ١٥٠/١٩٣٤/٤٠٠٠)

محاضرات
تاريخ الأمم الإسلامية
الدولة الأموية

هذا الكتاب هو مجموعة المحاضرات التي ألقاها المرحوم الأستاذ محمد بك الخضري بالجامعة المصرية وهو كتاب جميل وضع فيه التاريخ الإسلامي وضعا محكما خاليا من العسر والتعقيد، وقد روعيت فيه جميع الأصول التي تراعى في دراسة التاريخ على المناهج الحديثة حيث تعرض جميع الأسانيد للنقد والتمحيص، وهو كتاب مهم لمن يحب الوقوف على نظام الحكومة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهود الخلفاء الراشدين وخلفاء الدولة الأموية، مطبوع طبعة متقنة على ورق جيد في جزئين وعدد صفحاته ٥٧٠ صفحة من القطع الكبير ثمنه ٢٠ قرشا

تاريخ التشريع الإسلامي

كتاب جليل الأثر تأليف المرحوم الشيخ محمد الخضري بك، وهو يبحث في تاريخ التشريع الإسلامي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعصر كبار الصحابة، وعصر صغار الصحابة، والتابعين والقيام على المذاهب وتأييدها وهو مطبوع في غاية الإتقان مضبوط الآيات القرآنية بالشكل الكامل على ورق نهاية في الجودة وتمتاز هذه الطبعة من سابقتها بدقة التصحيح وعدد صفحات الكتاب ٤٠٠ صفحة وثمانه ١٠ قروش



893.712

K529

893.712

K529

Khudri

Muhadarat ta'rikh al-umam ...

JAN 20 1949

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58902384

893.712 K529

Muhadarat tarikh al-